

تاريخ أوروبا في العصور الحديثة

جلال يحيى



اورببا

أورك

في العصور الحديثة



الفجر

دكتور جلال يحيى

١٩٨١



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فروع الإسكندرية

مقدمة

تعود أساتذة التاريخ الحديث أن يبدؤوا شرح تاريخ هذه الفترة مع تاريخ القرن السادس عشر ؛ وكانوا قد تعودوا ، قبل ذلك ، أن يقصروا تاريخ عصر النهضة الأوروبية على « حركة الإنسانيات » ؛ عازفين عن شرح التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قد سبقتها ، ومهدت لها ؛ وكانت أساساً طبيعياً ومنطقياً لكل تغيير لاحق .

وإذا ما حاول الباحث أن يستكشف العوامل الاجتماعية والاقتصادية العميقة ، التي أدت إلى تحول حياة العالم من العصور الوسطى إلى التاريخ الحديث ، فإنه سيجد نفسه بالضرورة يرجع إلى الوراء ، زمنياً ، باحثاً عن الأصول الفعالة ؛ فيعمل في القرن الخامس عشر ، ويصل حتى إلى القرن الرابع عشر ؛ حيث يجد المعطيات الأولى الدالة على التغير ، أو التحول ؛ والتي تصلح أساساً صلباً لشرح تيارات التاريخ الحديث . وكان هذا هو منط السير الذي إنتهجه ، باحثاً عن الأسس الاقتصادية ، وتطور وسائل وعلاقات الإنتاج ، والنقل ، كأساس لتغيير شكل المجتمع ، وعلاقاته الطباقية ، وحتى يمكننا أن نصل بعد ذلك إلى شرح تطور البنيان الفوق السياسي ، والنشاط الثقافي والفني للإنسان هنا وهناك .

ولقد وجدت أن فترة « فجر التاريخ الحديث » تمثل مرحلة هامة من تاريخ البشرية في تطورها من حياة العصور الوسطى ، إلى الحياة في التاريخ الحديث ، وأن أسس هذه الفترة ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وحتى إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ؛ وأنه من الضروري ربط عناصر هذه الفترة ببعضها ، وفي شكل تحليلي وبنياني ، حتى يتمكن الدارس من مواصلة فهم الخطوط الأساسية للتاريخ عبر عصوره المختلفة .

وهذا الجزء من الكتاب ، أو هذا المجلد ، هو المجلد الأول من مجموعة تشتمل على ثلاث مجلدات ، عن « الفجر » ، وعن الفترة التي تصل « حتى الحرب العالمية الأولى » ؛ ثم عن « الفترة المعاصرة » .

ولقد مهدت لهذا الجزء من الكتاب ، والخاص « بالفجر » ، بتمهيد عن مميزات العصور الوسطى ، لاظهار مدى التغيرات التي ستحدث فيما بعد . وقسمت الكتاب إلى أبواب عن تفكك عالم العصور الوسطى في الغرب وعن التغيرات العميقة التي وقعت في أوروبا ؛ وعن زحف العثمانيين على جنوب شرق أوروبا ، وفتحهم القسطنطينية ؛ وعن ظهور النهضة الأوروبية وإزدهارها ، وعن الكشوف الجغرافية ؛ وعن الصراع في الحوض الغربي للبحر المتوسط ؛ ثم التوسع العثماني في الشرق الأدنى ؛ وأفردت باباً للإصلاح الديني ، وختمتها بباب عن التغيرات قرب أوروبا ، ووقف النمو الاسباني . الأمر الذي يوصلنا إلى مطلع القرن السابع عشر .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب نافع للدارس والباحث والطالب ، وأن يسد نقصاً في المكتبة العربية ، وعلى الله قصد السبيل .

الاسكندرية في ٤ أكتوبر ١٩٨٠

دكتور
جلال يحيى

تمهيد

مميزات العصور الوسطى

لا شك في أن التاريخ حركة مستمرة ، وفي أن عصوره لا تبدأ في سنة معينة ، ولا تنتهي في سنة محددة . ولا شك كذلك في أن هذه العصور التاريخية هي تقسيم إعتباري بحت ، تم الاتفاق عليها لتسهيل دراسة الدارسين لفترة معينة ، لها ميزاتها الرئيسية ، والتي قد تختلف عن مميزات الفترة الأخرى . كما أن الانسان هو أهم عامل في التاريخ ، وهو لا يتغير فجأة ، إذ أن تغيره مرتبط بالتطور الاجتماعي ، والذي يستند بدوره إلى عوامل مادية ومعنوية ، بطيئة في حركتها ، وفي تفاعلها ، وفي تأثيرها على المجتمع والانسان ؛ فأسباب الأحداث التاريخية تسكون موجودة قبل الأحداث بزمن ، ولا تظهر نتائجها إلا بعد الأحداث بزمن آخر .

وقد إعتقد البعض أن العصور الوسطى تبدأ بجولس الامبراطور دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية سنة ٢٨٤ ؛ وكان ملكا من النوع الشرقي القديم ، مستبداً مطلقاً ، ويضفي على شخصيته مظاهر الألوهية والتقديس ؛ وإضطهد الديانة المسيحية والمسيحيين أكبر إضطهاد ، وهدم الكنائس ، وأحرق الأناجيل ، ونفى المسيحيين ، وعمل على إستئصالهم من الامبراطورية الرومانية ، وظهرت هذه النزعة بشكل واضح في مصر ، حتى إعتبر عهده أكبر عهد للإضطهاد في التاريخ المصري ، وأخذ أقباط مصر سنة توليه السلطنة بداية للتاريخ القبطي ، أو تاريخ « الشهداء » . وإعتبر بعض المؤرخين هذه السنة بداية للعصور الوسطى .

ونظر آخرون إلى سنة ٣٢٣ على أنها بداية صالحة للعصور الوسطى ، وهي السنة الأولى التي تولى فيها قسطنطين الكبير حكم الدولة الرومانية . ويمثل حكم قسطنطين تطوراً كبيراً في تاريخ الانسانية . فقد تم الاعتراف فيه بالدين المسيحي ديناً للدولة ، بعد أن كان ديناً للأقلية المضطهدة ؛ ونقل عاصمة الدولة الرومانية من روما إلى القسطنطينية ، التي أنشأها على شاطئ البوسفور في الشرق ، وكان ذلك تفريقاً بين القسمين الشرق والغرب في الإمبراطورية ، وتمهيداً لظهور الدولة البيزنطية فيما بعد . وكان تركه روما يعنى تحولها إلى مرتع خصب لسلطان البابوية ، الذي سينمو في العصور الوسطى ، وبشكل يمد لكى تصبح روما قاعدة للكنيسة والبابوية ، وتعمل فيها ، وتتوسع منها . الكنيسة والبابوية ؛ والسلطة التي مارسها في حياة الانسان هامة في تاريخ الانسانية ، وبشكل يسمح للبعض باعتبار سنة ٣٢٣ بداية ممكنة للعصور الوسطى .

وهناك من إعتبر تدعيم الدين المسيحي هو بداية العصور الوسطى ، فاعتبروا سنة إعتلاء يوليان الكافر عرش الامبراطورية (سنة ٣١٢) بداية للعصور الوسطى ، إذ أنه أنكر المسيحية ، وحاول أن يعيد الديانات الوثنية القديمة . وفشل في ذلك ، وبشكل يدل على التغيير الذي حدث للانسانية ، نتيجة لثبات الاسس التي قامت عليها المسيحية . وإعتبر غيرهم أن سنة ٣٧٦ التي إعتنت فيها الفوط الغربيون الدين المسيحي ، حداً فاصلاً بين التاريخ القديم والوسيط . ونظر غيرهم إلى سنة ٣٧٩ التي عمدها الامبراطور ثيودوسيوس على أنها الحد الفاصل ، خاصة وأنه عمل على تدعيم الدين المسيحي ، وتعميمه بقوة القانون بين الناس .

وهناك من يعتبر أن سنة ٢٩٥ هي بداية العصور الوسطى ، وهي السنة التي قسم فيها الامبراطور ثيودوسيوس الدولة رسمياً إلى شطرين منفصلين : الشرق وعاصمته القسطنطينية ، والغرب وعاصمته روما ، بين لابنيه . وأخيراً فإن هناك من ينظر إلى سنة ٤١٠ على أنها هي البداية المباشرة للعصور الوسطى ، وذلك

نتيجة لقيام القوط الغربيين ، بقيادة ملكهم آلاريك ، بدخول إيطاليا ، واحتلال روما نفسها. وإنهت هجمة روما القديمة ، وإن كانت قد احتفظت بشبه الإمبراطورية حتى سنة ٤٧٦ ، حين أرسل صولجان الإمبراطورية الغربية منها ، للجالس على عرش الإمبراطورية الشرقية ، وكانت النهاية الرسمية للإمبراطورية الغربية .

وهكذا بدأت العصور الوسطى ، بنهاية دولة الرومان في مدينة روما ، مع تدعيم الدين المسيحي في أوروبا ، ونمو الكنيسة وسلطتها في روما ومنها ويمكن إعتبار أواخر القرن الخامس الميلادي بداية لها .

هذه هي وجهة نظر المؤرخين بشكل عام ، ولكن علينا ألا ننسى أن منطقة الشرق الأدنى شهدت ظهور الاسلام بعد ذلك ؛ وكان الاسلام ثورة دينية وأخلاقية وسياسية ، و ثورة تشريعية واقتصادية في نفس الوقت ؛ وانشر في مدن أربعين عاماً من حدود الصين إلى بحر الظلمات ؛ وأثر في سكان كل المنطقة ، وأثر في غرب أوروبا نفسها . وكان ظهور الاسلام بداية التاريخ الاسلامي ، أو تاريخ العصور اوسطى الاسلامية . وإذا كانت بعض المناطق ، مثل مصر ، قد حدثت تاريخها على أنه مصر الرومانية . أو البيزنطية ، قبل دخولها الاسلام ، فإن مناطق أخرى كثيرة ترجع تاريخها قبل الاسلام ، إلى التاريخ القديم ، وتسلسل إلى الباحثين والدارسين في هذه العصور .



وكان مؤرخو المدرسة القديمة يعتقدون أن العصور الوسطى كانت فترة من تاريخ الانسانية يحجبها الظلام ، وتنحط فيها المدنية ، وبالتالي يصبح تاريخها لاهو بالتقديم ولا هو بالحديث ، تاريخاً غير ذي قيمة ، أو له قيمة محدودة . في الإتجاهات الحضارية والانسانية ؛ وفي تطور التقدم العالمي . فالدولة الرومانية إنهارت وإنهار معها ما كانت تحتويه من المدنية والعمران ، وقامت على أنقاضها

دول متبررة متأخرة ، وظل العالم في تلك الحال إلى أن بزغت شمس النهضة في فجر التاريخ الحديث .

ويذكر المؤرخ جييون عن فترة الانتقال بين العصر القديم والعصر الوسيط إن هذا الجو كان مليئاً بالتدهور والانهييار الذي تغلبت فيه البربرية والدين على النظام والحضارة .

والواقع أن العصور الوسطى لم تكن دامية في ظلالها ، ولم تخل من مدنية لها شخصيتها وإتجاهاتها وطبيعتها الخاصة ، وإن كانت لا تعبر في مرتبة المدنية الرومانية ، أو مرتبة المدنية في العصور الحديثة ؛ وذلك لاختلاف الأسس التي قامت عليها ، فمدنية العصور الوسطى كانت نتيجة للظروف والعوامل ، وتطور ظروف الإنسان التي تسير موكب تطور التاريخ البشرى .

ولاشك في أن القضاء على الدولة الرومانية ، وتأسيس الدول الجديدة ، وما إليها من تاريخ الحضارة كانت دوراً هاماً من أدوار الانتقال والتطور في تاريخ الإنسان . إلا أنه من الواجب ألا نبالغ ، بأي حال من الأحوال ، في أن تلك الدول التي قامت على أنقاض الدولة القديمة كانت خالية من كل نظام ومن كل مدنية وحضارة ، وأن صفة الهمجية غلبت عليها ، وقضت على ما كان قائماً في الدولة الرومانية ، عندما نزل بها هؤلاء . من مدنية وحكومة وحضارة .

والواقع أن تلك الدول كانت لها مدنياتها ونظامها ، اللذين قد لا يقارنان بمدنية روما وحضارتها ، ولكنها كانت مدنياتها ونظام حضارى من نوع معين . ولا شك في أن كثيراً من معالم الحياة في العالم الوسيط قد إستند إلى ما كان موجوداً لدى القبائل الجرمانية والمتبررة من نظام ، مع ما كان قائماً في روما ؛ وتكون مزيج من النظام الروماني والبربرى وتكيف بالشكل الملائم للعصر ، والملائم لروح الدين ، الذي كان يسود العصور الوسطى ، والذي كان يسيطر على كل ما في الحياة العامة والخاصة من نشاط .

وكان النشاط الانساني في العصور الوسطى يعتمد على فكرتين هما : العقيدة والحرب . وظهر أثر ذلك في كثير من نواحي التفكير والنشاط في العصور الوسطى حتى أصبح ذلك المارج بين هاتين الفكرتين هما أساس النظام الاجتماعي والحركات الكبرى التي ظهرت في هذه العصور .

فالفرسية كانت مثلاً للمزج بين الحرب والدين . والحروب الصليبية كانت تعبر عن إتجاه العصر الوسيط من حيث أنها كانت حرباً ، وكانت دفاعاً دينياً عن عقيدة معينة . وظهرت جماعات الرهبان المحاربة مثل الاستبارية ، وكانوا عبادة عن محاربين ، وممرضين ، ورجال دين ؛ وكذلك الداوية ، وهم جماعات من الرهبان الذين كانت صناعتهم الحرب والدين في نفس الوقت ، ومنهم رهبان وفرسان يحاربون في الأراضي المقدسة .

وكذلك إرتبطت أنظمة العصور الوسطى بفكرة أن العالم المسيحي الغربي يكون وحدة كبرى ؛ يحكمها الإمبراطور من الناحية الزمنية ، والبابا ويختص بالناحية الروحية . وللعالم الوسيط كنيسة واحدة تشمله ، أو تدخل ضمنها ، وطائفة ، جميع الأمم في غرب أوربا على إختلاف جنسياتها ؛ ولهم لغة واحدة رسمية ، هي اللغة اللاتينية ، التي تتجمع بين هذه الأمم في صعيد واحد ، ويمكن التفاهم بين الجميع عن طريقها . ونظام هذه الوحدة ، وطبقاتها واحدة ، وتشمل أوربا من أولها إلى آخرها .

* * * * *

(١) وتميزت العصور اوسطى بوجود الكنيسة والبابوية . وبعد أن كان لشر الدين المسيحي يتم سراً ، إعتمت المسيحية الكثيرون من حكام روما ، وإنتشرت المسيحية بسرعة بين الرقيت الذين آملوا في التحرر من الرق ، وبين كل من كان يأمل في التخلص من الوثنية القديمة . وعمد بعض الأباطرة ، وكانوا يتمتعون بعبادة الإمبراطور ، إلى محاربة المسيحية التي كانت تدعو إلى عبادة الله . وإلى

هدم الطبقات ، وتخريب العبيد . وإذا كان دقلديانوس قد روى أرض مصر بدماء شهداء المسيحية ، فإن نيرون قد أحرق روما ، وغيرها ، للتخلص من المسيحية . وصمدت المسيحية أمام التعذيب والقتل ، وأسست كنائسها في دهااليز تحت الأرض أولا ، ثم فوق الأرض بعد ذلك . وأدى إنشاء الكنيسة إلى قيام البابوية من جانب وظهور الرهبنة من جانب آخر . وكان إنشاء الكنيسة من أهم الأحداث التاريخية في العصور الوسطى ، إذ أنه كان يعمل على توجيه حركات هذا العصر ، ويتضمن وجود راع ، يرأس المؤمنين ويرعاهم ، وعلى رأس كل أسقفية ، في الشرق والغرب .

ولم يكن الراعي الديني في روما ، في بادئ الأمر ، سوى أسقف من الأساقفة ، ثم شيء ، ويحضر مجامع الأساقفة بصفته أسقف فحسب ؛ ولم تكن روما تمتاز بأى شيء عن الكنائس الأخرى التي تأسست في بقية الأقطار . ولكن التقاليد التي إقترنت بإسم روما الخالدة ، منذ التاريخ القديم ، وجهت هؤلاء الأساقفة إلى وضع أنفسهم في مصاف الرئاسة من الكنائس الأخرى ؛ وإلى وضع الكنيسة الرومانية في مركز الكنيسة المركزية بالنسبة للكنائس الأخرى . وساعدت عوامل كثيرة على تدعيم مركز كنيسة روما بالنسبة لغيرها من الكنائس في غرب أوروبا . فكان هناك إرتباطها بالعااصمة القديمة لإمبراطورية الرومان ، وبزوال تلك الإمبراطورية وشخص الامبراطور منها ، وإنتقال الأباطرة إلى الشرق ، أصبحوا ينظرون إلى أسقف روما كزعيم طبيعي لسكانها ، وكأنه قد حل محل الامبراطور في هذا النطاق . وكان أسقف روما هو البطريرك الأول والأوحد في غرب أوروبا ؛ كما كان هناك بطارقة في الشرق ، في القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية ؛ وإقبنى على ذلك ، أنه أصبح له مايشبه رئاسة الكنيسة الغربية . ولا يمكننا أن ننسى الدور الذي قام به أساقفة روما في عهدهم الأول ، من رعاية للمسيحية ، وتخفيفهم آلام المسيحيين ، وقت هجوم البرابرة على روما ،

وما صحب ذلك من سلب ونهب ومجاعات . وعمل أساقفة روما في تلك الفترة على إحلال النظام محل الفوضى في المدينة ، وكانوا هم الرؤوس المفكرة ، وأيدوا الحكم في الإشراف على الأمن ؛ فزاد نفوذ الأسقف عن حوله ، وأصبح ، ولو شكلياً على الأقل ، في مركز الإمبراطور القديم . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك كتابة الرهبان الرومانيون للسكرتير والرسائل في ذلك الوقت وتقديسهم لمقام أسقفية روما ؛ وكان هذا نوعاً من الدعاية للبابوية لإزاء الأسقفيات الأخرى . وأخيراً فهناك شخصية بعض البابوات ، مثل ليو الأكبر ، وجريجورى الكبير ، التي ساعدت على أن تصبح البابوية قوة لا يستهان بها في تاريخ الانسانية . وفي عهد جريجورى الكبير ظهر أسس البابوية ظهوراً واضحاً .

وكان جريجورى الكبير (٥٩٠ - ٦٠٤) راهباً وعالمًا ، وزع أمواله على الفقراء وعاش حياة التقشف وعمل على شراء أسرى المسيحيين وعتقهم . وكان رجلاً سياسياً ماهراً ، ذا إرادة قوية وأطماع واسعة ، وكفاية إدارية وحكومية هائلة . وعمل على التبشير بالمسيحية وبالذهب الكاثوليكي ، وتم في عهده تحويل القوط الغربيين إلى الكاثوليكية . وأرسل بعثة ، برئاسة أوغسطين الأول ، إلى الملك الأنجلوسكسوني فاعتنق هو وشعبه المسيحية على المذهب الروماني سنة ٥٩٧ . ووضع جريجورى الكبير نظاماً يمكن أسقف روما من أن يستدعى الأساقفة الآخرين في غرب أوروبا ، وكذلك كهنتهم ، أيأ كانت رهبنتهم ، أو درجاتهم ، لمحاكمتهم ، متى حادوا عن الصواب . وأعطاه هذا الموقف الأولوية على الكهنة . ورفض جريجورى الكبير ، بعد ذلك ، الخضوع لسلطان القسطنطينية الديني والسياسي ، الذي كان يتركز في يد الإمبراطور الرماني ، وفي يد البطريرك الموجودان على ضفاف البوسفور . وأخذ يوطد دعائم الكنيسة الرومانية على أساس استقلالها ؛ فخضع له الغرب كله في أمور الدين ، كما خضعت له روما نفسها دينياً وسياسياً ؛ فأصبحت روما مقاطعة له ؛ ووضع بذلك الأسس التي

بنى عليها البابوات من بعد إستقلالهم التام فى أمور الدين ، وملكمهم فى أمور الدنيا ؛ الأمر الذى ترتب عليه نشأة الصراع بين البابوات والاباطرة ؛ طوال فترة العصور الوسطى .

وتتمت عملية إنفصال كنيسة روما عن كنيسة القسطنطينية على مراحل متتالية ، بدأت بمعارضة كنيسة روما لنفوذ كنيسة القسطنطينية ؛ ثم فى إنتقاد وجود بعض العقائد الشرقية ، ومطالبة المجمع السكندرية بإبعادها ؛ وبعد ذلك إهمال القرار الخاص بإلغاء إقامة الأيقونات فى الكنائس ، والذى صدر فى عهد الإمبراطور البيزنطى ، ليو الأيسورى سنة ٧٢٦ . وكان إستخدام الأيقونات من التقاليد الثابتة والمعروفة فى الكنيسة الغربية ، فتطور الخلاف إلى شقاق ، ثم إنفصال بين الكنيستين . وإستندت كنيسة روما إلى ولاء الأهلاليها ، وإنتهاز الفرص ، للتدخل السياسى فى مشكلاتهم ، كما حدث وقت إرسال الوزير بين القصير بعثته إلى البابا زكريا الثالث سنة ٧٥١ ، لاستفتاءه فى أمر التاج الميروفنجى ، وإنتقاله إلى الأسرة الكارولنجية ؛ ورد البابا رداً دبلوماسياً إيجابياً ، بأن من فى يده القوة والحكم ، ينتقل إليه التاج . وساعد ذلك على نشأة أسرة حاكمة جديدة وقوية ، تدين بالولاء لبابوية روما ، وتساندها . فى الوقت الذى ظهر فيه إستقلال البابوية فى روما ، وتدعمت سلطتها فى غرب أوروبا .

* * * * *

ولقد إرتبطت بوجود الكنيسة والبابوية ، عامل هام هو ظهور الرهينة وجودها . ولقد إرتبطت الرهينة فى أول أمرها بالإضطهاد الذى أصاب المسيحيين الأوائل على أيدي الرومان ، وهروب المسيحيين إلى الصحارى والقفار والمغارات للتعبد ؛ وحدث نفس الشيء فى أوروبا أمام غزوات البرابرة ، ونزوح عدد من المسيحيين إلى الجبال والكهوف للتعبد .

وقامت الرهينة على أساس التوحد ، أى الحياة الفردية فى القفار . وكان من

لزوم ظروف الحياة ومتاعبها ، التفكير في نظام يجمع شملهم ، ويحافظ على معيشة التبتل والطهارة بين صفوفهم ؛ فبدأت الحركة الديرية ، وبخاصة في مصر في القرن الرابع على أيدي آباء الكنيسة المصرية مثل باخوميوس وشنودة وأبو مقار؛ ثم انتقلت إلى بلاد اليونان ، أما في بقية أنحاء أوروبا ، فقد ظلت هذه الحركة ضعيفة خلال الخمسة قرون الأولى ؛ وإلى أن وضع بعض رجال الدين كنائسهم تحت تصرف الرهبان ، وربطوا الرهبنة بالكنيسة ؛ فبدأ الرهبان في الاشتراك في الصلوات الكنسية الرسمية ، وفي إتخاذ صفة الكهنوت .

كانت الرهبنة تقوم على التبتل والتأمل في الله ، وتعذيب الجسم ، وتنقيته من الأدران ، والتفاني في تعذيب النفس ، إستعداداً لما وراء هذه الحياة في ملكوت السموات . وكان لكل راهب حياته الخاصة دون علاقة بإخوانه . وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس قام القديس بندكت بن تأسيس دير المشهور في منطقة مونت كاسينو ، ووضع له نظامه الذي يجمع ما بين الناحيتين الديرية والانسانية : فكان يفرض على الراهب التزامات روحية هي التبتل ، والطهارة ، ونكران الذات ، والتخلي على الثروة الدنيوية والمال ، والجنوح إلى معيشة الفقر ؛ هذا علاوة على الطاعة الواجبة لرئيس الدير . ولكن بندكت نظر إلى الرهبان بصفتهم الإنسانية ، لهم حاجاتهم ولبدنهم عليهم حق ؛ فأوصاهم بالاعتدال في التقشف وبعدم الافراط في تعذيب النفس كما حتم عليهم الإقلاع عن الحياة الانفرادية ، والتمسك بالجماعة ، فالحياة البندكتية حياة إجتماعية في المأكل والمشرب والصلوات وكذلك في العمل اليدوي والعمل الذهني ، فهو يخصص فريقاً من الرهبان لفلاحة الأرض والعمل في الحقول ، كما يخصص آخرين لرعاية المواشي ، والبعض للقيام بما تتطلبه حياتهم اليومية من ملابس ومأكل ومشرب ؛ كل واحد من بينهم حسب رغباته واستعداده وميله الطبيعي ؛ بحيث يصبح كل دير وحدة كاملة جامعة لسكل ما يهم الإنسان من شؤون الحياة وحاجاتها

الضرورة . ويصبح الدير وحدة مستقلة ، تستطيع الانفراد بذاتها عن بقية العالم الخارجى .

وكان للحياة الفكرية نصيباً في هذا النظام ؛ فنشأت في كل دير مكتبة أو نواة لمكتبة ، ومكاناً للرهبان الذين يهتمون بالكتابة والنسخ ، ووضعت فيه الأدوات اللازمة للتحريير ، وقراءة الكتب والأبحاث . وقامت الأديرة البندكتية بتأدية رسالة علمية وحضارية في العصور الوسطى ، واحتفظت بكثير من أمهات الكتب القديمة ؛ وفي الوقت الذى تعرضت فيه الحياة للتدهور ، والكتب للزوال ، أخذ النساخ والمؤلفون يواصلون في هذه المكاتب أبحاثهم وتآليفهم ونسخ الكتب اللاهوتية والأدبية والقانونية القديمة ؛ وساعد ذلك على وجود مجموعة من الرهبان تكون هذه صناعتهم ، في وقت تفتشت فيه الأمية ، وضعف فيه الاهتمام بالعلم .

ولانتبه الناس خارج الأديرة إلى ما وصلت إليه تلك المراكز العلمية ؛ فوجهوا أبناءهم إلى الذهاب إلى تلك الأديرة لتعلم القراءة والكتابة والحساب على أيدي الرهبان ؛ فنشأت المدارس ملحقة بهذه الأديرة ، وعملت هذه المدارس على تشقيف الأطفال الذين كانوا يرغبون في خدمة الكنيسة في صفوف الكهنوت ، أو في الأعمال الحربية ، عندما يكبرون . وظهرت للناس مزايا هذا النظام ؛ وإكتظت الأديرة بالرهبان ، وإننتشرت الأديرة في كل مكان ؛ ففضى على حياة التوحيد ، وحل محلها نظام إنسانى إجتماعى ، ظهر فيه الضعف ، ثم ظهر فيه الفساد . وكان لإزدياد الثروة في تلك الأديرة قسط كبير في الوصول إلى هذه النتيجة ؛ فلم يكن الرهبان يعملون لأنفسهم ، بل كانوا يعملون في الزراعة ورعى الأغنام ؛ فنجد بعد ذلك تحسن الأرض ، وإزدياد عدد الماشية الموجودة لديهم ، حتى أصبح لكل دير ثروة ضخمة ، وتكاثرت في خزائهم الأموال ، وكانت الثروة من مساوىء الحياة ، وتتناقض مع مبدأ الفقر الذى إعتنقه الرهبان الأول ، وأدى إلى حياة ناعمة باذخة يتخللها عنصر الفساد .

وفي أثناء القرن العاشر ، قام دير كلونى بمحاولة لإصلاح النظام الديرى ؛ وذلك بإقامة روابط الديرية المختلفة ، والإستقلال عن السلطات الدينية والديوية المختلفة ، والاتصال المباشر بالبابا . وإهتم رهبان كلونى من جديد بالعلوم والزراعة ، ونشطت الروح المعنوية لديهم ، وأصبحوا يكونون نواة للإصلاح الدينى العام فى أوربا . ونتج عن ذلك توسع الدعوة للسكيسة والبابوية ، فى وقت كانت البابوية فيه قد أصابها الضعف ، وأصبحت لعبة فى يد الامبراطور ؛ وأدى ذلك إلى رفع سلطان البابوية بهذه الدعوة التى أخذت شكلا دوليا ، وانتشرت فى فرنسا وألمانيا وإسبانيا وحتى إنجلترا بعد النورمانديين لها سنة ١٠٦٦ .

ولقد زاد إقبال الناس على حركة الرهبنة ، ولم تعد الديرية تكفى لمساكنه الأعداد الضخمة ؛ وكانت مسألة زيادة ثروة الديرية نتيجة لاشتغال الرهبان بالزراعة ورعاية الماشية مشاراً للانتقاد والتنديد ، والمناداة بضرورة الرجوع إلى قواعد الفقر والتخلى عن الثروة بين الرهبان . فأدى ذلك إلى نشأة جماعات جديدة من الرهبان فى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وحرمت إحدى هذه الجماعات من الرهبان على أعضائها ملكية الارض والدواب ، ما عدا النحل ، وعاشوا على التسول ، وتميز الإخوان الكرتوزيون بالنزعة إلى التوحد ، كل منهم يعيش فى صومعته أغلب الوقت ، بالرغم من وجودهم فى دير واحد . وقام الإخوان الستراشيون بتطبيق أنظمة القديس بندكت ، مع والإيعال فى التقشف والزهد ؛ وإنقطعا عن العالم ، وعاشوا فى الجببات المقفرة البعيدة ؛ وإختصوا برعاية الأذناب وتعمير البرارى . أما الإخوان الفرنسيسكان فكان هدفهم يتمثل فى عدم الانفراد عن العالم ، بل السعى فى مناكبه الارض ؛ داعين مبشرين معلمين . أما فى تخليص أرواح الناس ، وتنقية نفوسهم من المقامات ؛ وذلك مع الإكتفاء من الدنيا بقوتهم اليومي ، والتسبب بمبدأ التسول للحصول على زادهم

أو العمل بقدر يكفى لكسب معاشهم اليومي . أما الإخوان الدوميشيان فكانت مهمتهم تشبه مهمة الإخوان الفرانسيسيين إلى حد كبير ؛ إلا أنهم أضافوا إليها ، بالنص ، مهمة كبيرة ؛ هي التفرغ الوعظ والإرشاد ؛ وكان ذلك بسبب إنتشار تيار الهرطقة الجارف ، أثناء القرن الثالث عشر ، حتى أنهم خافوا على المسيحية منه . وزاد إنتشار حركة الرهبنة مع بداية الحروب الصليبية وإستمرارها ، وتأثير ذلك على الأمم والممالك والأهالي وحياتهم ؛ فتأسست جماعات جديدة من الرهبان للعتاية بالجرسى ، وتهم بالتبشير بين رعايا الإمارات اللاتينية من المسلمين في الأراضى المقدسة . وإضطرت الرهبان في هذه الجماعات إلى تعلم الدفاع عن النفس وهم يعيشون في مناطق حرب ؛ فتحولوا إلى جماعات رهبان محاربين ، يجمعون بين حياة التبتل وصناعة الحرب ؛ حتى أصبحت مهمتهم الأساسية القتال في الأراضى المقدسة . وكان من أهم هذه الفرق الإسبترارية التى تأسست في القرن الحادى عشر ، وجماعة الفرسان الداوية ، التى نشأت في القرن التالى . ونجحت هذه التجربة في الشرق العربى ، وكانت أساساً لنشأة جماعات الرهبان المحاربة ، المعروفة باسم الجماعات التيوتونية ؛ والتى إنضم إليها جماعات السيف ، لنشر المسيحية بين الوثنيين في بروسيا الشرقية وحدود ألمانيا الشرقية .

ومن ذلك نرى أن الرهبنة عملت على تقوية الكنيسة وتدعيمها ، ونشر المسيحية فيما وراء حدود الدول الكاثوليكية ؛ وإحتفظت بنور العلم خلال العصور الوسطى ؛ وقامت بدور هام في التعليم وفي تنشيط الحركة الفكرية ؛ وكذلك في تقوية الحروب الصليبية ؛ تحت شعار العقيدة المسيحية .



كذلك تميزت العصور الوسطى بوجود امبراطورية في غرب أوروبا ترعى شؤون البشر ، في الوقت الذى ترعى فيه البابوية نفوسهم . وكان تاريخ العصور الوسطى مضطرباً مليئاً بالفلاقل والغزوات ، وهجرات

القبائل والشعوب ، مع غزوات البرابرة ، وتدخلهم في أنحاء الدولة الرومانية ، وتأسيسهم لدويلاتهم المختلفة على أنقاضها ؛ مثل القوط الذين توغلوا وإندجوا في الشعوب التي نزلوا بينها ، ثم زالت سلطنتهم من الوجود ؛ ومثل اللومبارديين الذين عاشوا حيناً وزالت دولتهم على غرار القوط ؛ وتركوا إسمهم على سهول إيطاليا حتى اليوم . وكان الفرنجة من أبقى الشعوب الجرمانية المتبربرة التي نزلت في الدولة الرومانية ، والتي اتسعت حدودها حتى شملت دولتهم غالباً ، ومساحات كبيرة من ألمانيا ، التي كانت موطنهم الأصلي . ولقد حكمت الأسرة الميروفنجية الفرنجة حيناً من الزمن ، بعد فترة من العمل على نشر الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي ؛ وكذلك العمل على تجميع المصاهرة بين العناصر الجرمانية وبين العناصر الرومانية اللاتينية ؛ وبعد نشأة هذه الأسرة رسمياً في عام ٥٠٨ ، نتيجة لإنعام الإمبراطور البيزنطي الذي كان يمثل الإمبراطورية القديمة على كلوفيس بلقب حاكم غالبية الرومانية ؛ ورغم وجود تميز بين القسمين الشرقي والغربي في هذه الدولة ، الشرقي يطغى عليه الطابع الألماني ؛ والغربي يطغى عليه الطابع الروماني ؛ ظلت هذه الدولة موجودة رغم تخصيص إدارة لكل منها ، وعلى رأس كل منهما وزير ؛ بلقب برئيس القصر . وكان ذلك تمهيداً لقيام التنافس بين كل من هذين الوزيرين ، في وقت ضعف الملوك ؛ الأمر الذي سمح لأحدهما ، وهو بيزن ، بالاستيلاء على وزارة المنطقتين ، الشرقية والغربية ، وتمكن إبنة ، شارل مارتل ، من أن يبلى بلاء حسيباً في موقعة بواتييه سنة ٧٣٢ ، التي تعتبر من المواقع الفاصلة في التاريخ ، إذ أنها أوقفت موجة التوسع العربي الإسلامي الذي أتى من شبه جزيرة إيبيريا ، على غرب أوروبا ، وكاد أن يصل ، لمسافة تقل عن ثلاثمائة كيلومتر من باريس . وكان بين التصير ، من أهم تلافئه ، وهو الذي قرر ، في أواسط القرن الثامن ، أن يستولى نهائياً على التاج الميروفنجي ؛ وأرسل بعثته المشهورة إلى الهابازكريا ، لكي يستفتيه فيما إذا كان الأصوب أن يظل الفرنجي على

رأس من لاجون له ولا قوة ، أو أن يظل على رأس من يده المحكم في الدولة . وكان البابا حكيماً ، ورأى قوة شخصية بين ، الذي يحسن الإلتفات بنفوذه وقوته ، وعدم جدوى عدم الاعتراف له بالتاج عملياً ؛ خاصة وأن إتخاذ البابوية لقرار عملي في غرب أوروبا ، كان يدعم نفوذها ، كحكم في هذه المناطق ؛ وعلى ذلك أجاب البابا بين ، بأن الاعتراف الثاني هو العدل والصواب ؛ وهو أن لمن بيده القوة الحق في أن يحصل على التاج ؛ فيفضل بين التاج عن آخر الملوك الميروفنجين في سنة ٨٥١ إلى نفسه ، وتأسست دولة بين ، التي دعت باسم الدولة الكارولنجية ؛ والتي آل تاجها إلى شارلي العظيم أو شارلمان ، أعظم ملوك هذه الأسرة .

وإلى هنا ينتهي العصر الذي يمكن تبرير وجهة في بعض الكتب التاريخية بأنه العصر المظلم في العصور الوسطى ؛ ويبدأ الإستقرار في أوروبا ؛ ويبدأ المارح بين التراث الروماني القديم والتراث الجرمانى الذي صحب القبائل الغازية المتبرجرة من أوطانها الأصلية إلى كيان الدولة الرومانية . وتنبعث في هذا العصر أيضا ، ومن جديد ، فكرة الإمبراطورية القديمة ؛ ولكنها إمبراطورية مقدسة ، نظراً لسيادة الروح المسيحية الكاثوليكية ، وإكتمالها بين الشعوب الغربية في أوروبا . وهذه الفكرة تحققت في عهد شارلمان ، وظلت قائمة خلال العصور الوسطى ، وترتبت عليها نتائج هامة بالنسبة لتاريخ غرب أوروبا ؛ إذ تواجدت في أوروبا قوتان متكافئتان ، هما الإمبراطورية لحكم الأبدان ، والبابوية لحكم الأرواح . وأصبح بالتالى من لزوميات الأشياء أن يقع بينهما صراع ، حول من يتفوق من بينهما على الآخر ، مما أدى إلى ذلك الصراع الذى إمتد قرونا طويلة بين البابوية والإمبراطورية .

وكان شرمان قوياً شجاعاً ذكياً ، وعمل على بسط نفوذه على غرب أوروبا كلها ؛ ونجح في ذلك بشكل لم يسبقه فيه أحد . وأفاد من فرصة استنجاد البابا

أربان به في سنة ٧٧٣ ضد ملك اللومباردين ، الذي كان قد إعتدى على بعض أهلاكه ، وزحف بجيوشه على إيطاليا ، وهزم اللومباردين ، وعزل ملكهم وأرضى البابا . وانتهر البابا فرصة زيارة شرملمان له في روما ، وأحتمى به ، وكانت روما لا تزال خاضعة نظرياً ، مع جنوب إيطاليا ، للدولة البيزنطية ، وأعلن البابا تحريره روما من سيطرة البيزنطيين ، وخضوعها لشرلمان ، من الناحية الزمنية . ونتج عن ذلك تحققت لإفصال الكنيسة الغربية عن الشرقية بصفة نهائية ، وانحصر حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية في الجزء الجنوبي من إيطاليا وعلى صقلية ، وتحمرت روما نهائياً من سلطان الامبراطور البيزنطي ، ومن تهديد الكنيسة الشرقية في القسطنطينية .

وقام شرملمان بحروب عديدة ضد العناصر الجرمانية المتبربرة ، الواقعة خارج حدود مملكته ، إما شرقاً أو جنوباً . وكانت هذه الشعوب لا تزال وثنية في غالبيتها ، فاتخذت حروب شرملمان ضدها طابعاً صليبيها ، يعني إخضاع هذه الشعوب من الناحية السياسية ، والتبشير بالديانة المسيحية بينها ، والقضاء على عناصر الوثنية من معتقداتها . وتمكررت حملات شرملمان على سكسونيا ، التي أجبر أهلها على اعتناق المسيحية ، والأخذ بالثقافة الجرمانية الكارولنجية ، ثم على بافاريا . وكذلك ضد العناصر التي كانت تسكن سهول المجر . واستمرت هذه الحروب حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن (٧٩٦) ، وكان يرمى من ذلك إلى أن يجعل العالم المسيحي في غرب أوروبا وحدة ثابتة الدعائم ، تحت سلطه الامبراطورية ، وأعطى لحروبه ، في أغلب الأحيان ، شكلاً دينياً من حيث التبشير بالمسيحية الرومانية الكاثوليكية بين القبائل المتبربرة .

وفي نهاية سنة ٨٠٠ دعى البابا ليو الثالث شرملمان إلى روما ، لكي يقضى بينه وبين مناسيه في السلطة الزمنية ، في العاصمة الدينية . ورحب شرملمان بذلك ، وذهب إلى روما ، ونصر البابا على جميع أعدائه . وجاء عيد الميلاد ، وهو في

روما . وفي ليلة العيد من سنة ١٠٠٠ ، كان شرلمان يصل في كنيسة القديس بطرس ؛ وأراد البابا ليو الثالث أن يظهر له مدى اعترافه بالجميل ؛ فألبس شرلمان تاج الامبراطورية في ذلك الحفل العظيم . فأصبحت الامبراطورية الرومانية المقدسة في غرب أوروبا ، وأصبح شرلمان بعد ذلك خليفة القيصرية الاقدمين ؛ وكان تتويجه يمثل عملية الامتزاج الطبيعي ، البطيء والمستمر ، بين العناصر الجرمانية المتبربرة الأصل والعناصر الرومانية القديمة ؛ وكذلك المزج بين الثقافتين الجرمانية واللاتينية . وبين المدينتين الجرمانية المتواضعة وبين ما تيسر من المدينة الرومانية اللاتينية ؛ واللباس هذه المدينة الجديدة التي نشأت عن هذا المزج ، ثوب الديانة المسيحية ، على المذهب الكاثوليكي الروماني .

وتوفي شرلمان في سنة ١١٤٠ ، وبعد حكم طويل ، بعثت فيه فكرة الامبراطورية من جديد ، وعلى أساس ديني مسيحي ؛ وبدأت فيه نواة الدول الحديثة في الظهور ، ولو إسمياً ، داخل نطاق النظام الامبراطوري الشامل ؛ ففي عهده نسمع عن ألمانيا وإيطاليا وبرجنديا واللورين وفرنسا ونافار ، من بين الأنسام الإدارية التي أخذت في الظهور . أما الكنيسة والبابوية فيفتحشان ؛ وتستقل البابوية نهائياً وتنفصل بصفة قاطعة عن الكنيسة الشرقية . وفي عهده نشأت بذور الاقطاع ، وأخذت في النمو ، وهو ذلك النظام الذي أصبح فيما بعد أساساً للحياة الاجتماعية والسياسية في أوروبا خلال العصور الوسطى . وازداد نفوذ الرهبان من البندكتيين ، الذين شجعهم وندروهم واعتمد عليهم في نشر الثقافة المسيحية بين القبائل المتبربرة التي غزا أراضيها . وبدأت حضارة العصور الوسطى المسيحية البهجة في الوجود .

وبعد هذه الشخصية القوية تفككت الامبراطورية نتيجة لضعف خلفائه ، ونتيجة للتقليد الجرمانى ، بتقسيم الملك بين أولاد الملك بعد وفاته . وتقسيم إبنه لويس الصالح ملكه ، في سنة ٨١٧ ، بين أولاده الثلاثة . وإن كانت : إفاة العدل

في هذه القسمة قد أدت إلى حروب فيما بينهم ، إستمرت حتى معاهدة فردان سنة ٨٤٣ ، وهي التي قسمت امبراطورية شرلمان إلى عدة أقسام : الغربي منها يشمل فرنسا على وجه التقريب ، والشرقي ألمانيا ، والثالث عبارة عن ممر طويل بين ألمانيا وفرنسا ، ويشتمل على لومبارديا في إيطاليا ؛ فهو ممر يمتد من بحر الشمال إلى البحر المتوسط ، وملك هذا القسم هو الذي يحمل لقب الإمبراطور نتيجة لوقوع روما في حوزته . وبعد اندثار أسرة الامبراطور ، أو ملك هذا القسم الأوسط ، نشبت المنافسة على أملاكه من جانب الأسترتين الأخرتين ، في ألمانيا وفي فرنسا . وإستمرت هذه الحروب إلى أن قامت أسرة كاييت في فرنسا (١٨٨٠ - ١١٣٧) ، والأسرة السكسونية في ألمانيا (٩١٩ - ١٠٦٥) ، فانبعثت فكرة الامبراطورية من جديد ، ولكن في وقت كان قد إشتد فيه ساعد البابوية ؛ بحيث أدى الأمر إلى الإخلال بالتوازن بين هاتين السلطتين العالميتين ، وإلى دخول أوربا في دور جديد من أدوار تاريخها ، يتمثل في الصراع بين الامبراطورية والبابوية .

لقد أصبحت كل من البابوية والامبراطورية نظاماً عاماً لكل أوربا .

○ ○ ○ ○ ○

(٣) ومن مميزات العصور الوسطى بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الدولة البيزنطية ، وعاصمتها القسطنطينية ، لمدة عشر قرون ، أى طوال العصور الوسطى ، بعد زوال الدولة الرومانية الغربية من روما . وكانت أسباب هذه الحياة الطويلة ترجع إلى أن القسطنطينية ، مركز هذه الدولة ، كانت حصينة ، وتمكنت من أن تصمد لهجمات المتبرين المتتالية ؛ كما أن أباطرتها أثبتوا كفاءتهم في الحكم ، ومقدرتهم على توجيه هؤلاء المتبرين إلى جانب آخر غير أملاكهم ، حتى واو كان ذلك نحو الامبراطورية الرومانية الغربية في إيطاليا . ولم يقصر أباطرة القسطنطينية الخدمة في جيوشهم على المرتقة من الجرمان ، كما كان خادنا

إلى حد كبير في الدولة الغربية ؛ بل عملوا على تنويع تلك القروق ، من الجرمان وغير الجرمان ، وأدخلوا ضمنها العناصر الآسوية كذلك ؛ وأصبح من العسير على هذه الفرق أن تتحد وتقف في وجه الأباطرة ؛ بل أصبح من السهل على الأباطرة أن يفرقوا بين هذه الفرق المختلفة . وساعد على الاحتفاظ بقوة امبراطوريتهم عمل الأباطرة والحكومة على تجنب أكثر المساوىء السياسية والملاذات التي كان الشعب الروماني يفرق فيها في روما ؛ وكذلك العمل على الاحتفاظ بالروح المعنوية ، مما كان له أثر بالغ في تقوية دولتهم . كل هذه الأسباب أدت إلى تدعيم سلطان تلك الامبراطورية ، وبقيائها لمدة عشرة قرون .

ولكن علينا أن نلاحظ أن الامبراطورية الرومانية وفكرتها القديمة التي كانت تدور حول جمع المدينة والعالم المتمدين تحت حكم روما في صعيد واحد ، هذه الفكرة لم تحققها الدولة البيزنطية . هناها القديم إلا في عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ؛ ويمكن القول بأن شبح الامبراطورية الرومانية القديمة إنما بعث في عهد ذلك الامبراطور ، وظلت الامبراطورية قائمة بعده ، ولكن في حدود متواضعة عما كانت عليه الامبراطورية القديمة .

ولقد ترك لنا عصر جستنيان آثاراً خالدة تتمثل أولاً في كنيسة أيا صوفيا ، وهي الكنيسة التي قام بتصميمها المهندس أنسيميوس ، وجاءت آية من آيات الفن المهارى من حيث جمالها وحسن تنسيقها ، وما إحتوته من التسييساء المألون ؛ وتتمثل ثانياً في مجموعة القوانين الرومانية الخالدة والتي عهد بالقيام بها إلى رجال أخصائين ، وبإشراف الامبراطور شخصياً ؛ فجمعت الأحكام التي ظهرت منذ عهد الامبراطور أدريان (١١٧ - ١٣٨) ، ولخصت آراء المشرعين والشراح ، من آلاف الكتب والمخطوطات القديمة ؛ وبذلك أصبح القانون الروماني الذي اشتهر بدقته وعظمته ، في مأمن من الضياع .

وكان وجود الدولة البيزنطية ، ومركزها القسطنطينية ، كدولة مهيجية ،

مظهر من مظاهر العصور الوسطى .

• • • • •

(ح) وتميزت العصور الوسطى كذلك بنشوب صراع بين الإمبراطورية والبابوية في الفترة التي تلت إنقسام إمبراطورية شارل العظيم بين أحفاده ، وما ساد الإمبراطورية تارة ، والبابوية تارة أخرى ، من ضعف ، وعمل الواحد أو الأخرى منها على توجيه مراكز القوى للسيطرة على أوروبا الغربية .

وتبدأ أول عناصر هذا الصراع بوصول الأسرة السكسونية إلى الحكم ، وتطلعهم إلى الإمبراطورية ، الرومانية المقدسة . وكان أول ماوك هذه الأسرة هو هنرى الاول ، الصياد ، الذى وضع أسس سياسة هذه الأسرة ، داخليا وخارجيا ، واتى سار عليها خلفائه . ولقد واجه هنرى الاول صعوبات داخلية تتمثل أولا في أمراء الدوقيات الكبرى ، فى بافاريا ولوثرنجيا وفرنكوبيا ، الذين عملوا ^{على} الزيادة إستقلالهم الداخلى ، ونظرهم إليه على أنهم قد انتخبوه ملكا ، وليس من حقهم أن يستبد بهم ، وهذا مبدأ هام بالنسبة للداكسية فى ألمانيا ؛ ولقد عمل على أن يحل مشاكلهم تارة بالحكمة ، وتارة بالقوة : وتمثل ثانيا فى خضوع حدود دولته لهجمات قبائل الوند والداىركيين والبوهيميين والبولنديين والصقالية . ولقد عمل هنرى على تقوية جيشه ، وأضاف إليه فرقا من الفرسان المدربين ، وقام بسلسلة من الهجمات أنزل بها الهزائم على أعدائه ؛ كما أنه أقام مجموعة من المعسكرات والحصون الدائمة ، تعرف بأقاليم الحدود أو الماركات ، لامتدت من بحر البلطيق شمالا إلى البحر الأدرياتيقي جنوبا ، وأمن بها حدود ممتلكاته . وسمح ذلك لخلفائه بالمعيشة فى ظل أمن مستتب ، حتى ثمار ذلك لابنه أوتو الاول ، وسمح له ذلك بالبداية فى الخطوة التالية ، بعد تأمين الحدود ، وهى القضاء على المعارضة الداىلية فى دولته ، وذلك عن طريق إخماد أنفاس الدوقيات الكبرى بكل الوسائل الممكنة : إما عن طريق الاغناء بحد السيف ، أو

عن طريق انتزاعها من أصحابها ومنعها لخلقائه وذوى قرابه ، أو بإحلال الكنيسة محل النبلاء ، كما حدث في وادي الراين . وسمح له ذلك بامكانية التدخل في إيطاليا ، لإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولقد تدخل أولاً لنصرة أدليد وارثة عرش برجنديا السفلى وسهول ابارديا ضد بزنجار ، ثم تزوج منها وضم ممتلكاتها الواسعة إلى ملكه . ثم تدخل ثانية نتيجة لاستنجد البابوية به ضد نفس الأمير ، فلبى الدعوة ودخل روما ظافراً سنة ٩٦٣ ، وتوجه البابا يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة ، كما كان قد حدث من قبل مع شارل العظيم .

وكانت البابوية قد أصابها الضعف في أثناء القرن العاشر ، وأوائل القرن الحادى عشر ، فأصبح انتخاب البابا عبارة عن مسألة تعيين لانتخاب ، تتم بمعرفة الكرادلة وأصبحت مسألة تعيين ، وفي أسرة معينة ؛ كما أصبحت رتب الكهنوت تباع وتشترى من الأمراء الإقطاعيين ، ودون الأخذ بمشورة البابوية في روما ؛ مما جعل كبار رجال الكنيسة مجرد رجال إقطاعيين . وكذلك انتشرت بين رجال الكنيسة الحركة السيمونية ، نسبة إلى سيمون المجوسى ، الذى أراد أن يشتري رحمه الله بما عنده من ثروة ؛ كما انتشرت حركة الزواج بين الكهنة ، على غير ما هو مألوف في التقاليد الكاثوليكية ؛ وإنجطت حركة الرهبنة ، وعلا ضجيج الأهالى مطالبين بإصلاح حال الكنيسة . وأهتم الإمبراطور هنرى الثالث ، أو هنرى الأسود ، (١٠٣٩ — ١٠٥٩) بالامر ، وتدخل في إنتخابات البابوية ، ووقف ضد سلطة الأرستقراطية الرومانية التقليدية ، ورجع إليه الفضل في إنتخاب **بيو التاسع** لمنصب البابوية سنة ١٠٤٨ . وكان هذا البابا من أكبر آباء الإصلاح الكنسى ، وقضى فترة بابويته في الانتقال من أبرشية لانخرى ، ومن أسقفية لاسقفية ، ومن مقاطعة لانخرى ؛ وعقد المجالس الدينية ودعا فيها إلى إصلاح الكنيسة واستئصال العيوب ، حتى سمي بالبابا الرحالة ، وجاء بعده إلى

مُنصب البابوية راهب تسكاني . كان قد عمل سكرتيراً خاصاً له ، وربما كان يؤثر عليه من قبل ، هو جريجوري السابع ، الذي تولى البابوية من سنة ١٠٧٣ إلى سنة ١٠٨٨ ؛ وهو الذي تمكن من أن يحقق إستقلال البابوية التام ، ويعيد إليها سلطتها الدينية . وكذلك السياسية . ولكنه بدأ في الصراع مع الامبراطورية . ولقد قام جريجوري السابع بذلك في وقت كان الجالس فيه على عرش ألمانيا ، هنري الرابع ، طفلاً صغيراً . وحقق البابا ذلك بمساعدة أتباعه من نبلاء إيطاليا ، مثل ماتيلدا ، أميرة توسكانيا ، وزوجها ، جودفري الأحمق . ولكن سرعان ما وصل هنري الرابع إلى سن الرشد ، وأراد أن يستعيد سلطانه في إيطاليا ، وحتى داخل ممتلكات البابوية . وحدث ذلك بسبب التقليد الألماني ، أي تقليد رجال الدين مناصبهم وإقطاعاتهم في السلم الإقطاعي . وكان الملوك ورؤساء الإقطاع قد انتهزوا فرصة ضعف الكنيسة ، وتصرفوا في المناصب الدينية وإقطاعات رجال الدين في مناطقهم دون الرجوع للبابوية ، ووزعوها بين أصدقائهم وأعوانهم . ومع إشتداد قوة البابوية ، قرر البابا جريجوري السابع إعادة الأوضاع إلى نصابها الطبيعي ، فتقوم الكنيسة باختيار من تشاء من رجالها لشغل هذه المناصب ، وما على الحكام إلا أن يسلموهم أقطاعاتهم . وأصدر البابا مرسوماً بابوياً في سنة ١٠٧٥ يجرم به على السلطات المحلية تماماً أمر التدخل في تنصيب رجال الدين . ولكن هنري الرابع لم يعبأ بهذا المرسوم ، وإستمر في منح الأسقفيات والمناصب الدينية ، بما يتبعها من إقطاعات ، لأعوانه ، دون إهتمام بالمرسوم البابوي . وكتب إليه البابا يحذره بأنه سيصدر ضده قرار حرمان ؛ ولكن هنري الرابع جمع جملاً دينياً من الأساقفة الألمان واللومبارديين ، وقرر هذا المجلس ، في سنة ١٠٧٦ ، قراراً نظيراً ، هو خلع جريجوري السابع من كرسى البابوية . وكان رد الفعل الطبيعي على ذلك هو إصدار البابا قراراً بحرمان الملك وجميع من اشتركوا معه في المجلس من الأساقفة ، ودعوة رعوية

هنرى الرابع لإعلان العصيان ضده . وأخذ البابا فى تقوية مركزه ، سياسياً وعسكرياً ، فى إيطاليا . ومن ناحية أخرى انصرف كثير من النبلاء والادواق عن الملك ، وقام السكسيون بالثورة ضده ، فضعف شأنه ، واجتمع مجلس جديد من نبلاء وأساقفة ألمانيا ، وقرروا ضرورة حصول هنرى على عفو شامل من البابا فى فترة اثنتى عشر شهراً ، وإلا ضاع حقه فى الملك . واضطر هنرى الرابع إلى أن يذهب لمقابلة البابا ، واصطحب معه زوجته ، وإبنه الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات ؛ وبعد مفاوضات ، وبعد أن ظل هنرى الثالث على باب القصر حافى القدمين حافى الرأس وسط نواج الشتاء لمدة ثلاثة أيام ، سمح له بالدخول ، والدموع فى عينيه ؛ فقبل أقدام البابا وأعلن التوبة وطلب العفوان . وكان هذا هو منتهى الإذلال له ؛ وأكبر انتصار للبابوية على الإمبراطورية ، إذ أصبح من حق البابا عزل الملوك وأمراء الإقطاع والتدخل فى شئون الدول .

وفى عهد هنرى الخامس والبابا كاليكستوس الثانى تمكن الطرفان من عمل إتفاقية Concordat فى سنة ١١٢٢ لحل فى مشكلة التقليد العلمانى، وذلك على أساس تخلى الإمبراطور عن التدخل فى الناحية الدينية البحتة من تنصيب الأساقفة وانتخابهم ، نظير عدم تدخل البابا فى إقطاعات الأساقفة . التى هى حق من حقوق الإمبراطور ؛ وعلى ذلك يصبح انتخاب رجال الدين أمراً طبيعياً فى يد الكنيسة ، ومتى انتخب الرئيس الدينى وأعترفت به الكنيسة يقوم الإمبراطور أو رجال الإقطاع بمنحه ذلك الإقطاع الذى يتعلق بمنصبه .

ولقد زاد وضوح الصراع بين الإمبراطورية والبابوية من جديد حين وصل هردريك الاول إلى لبس تاج الإمبراطورية ، وكان عنيفاً شديداً ؛ وأعتبر أنه من الواجب على من يحكم إيطاليا زمنياً أن يرجع إليه ، كإمبراطور ؛ وقاد حملات عديدة إلى إيطاليا ، وتمكن فى حملته الرابعة من أن يدخل روما نفسها سنة ١٠٦٧ ؛ ولكنه انهزم فى الحرب الخامسة سنة ١١٧٦ ، وعقد معاهدة البندقية

في السنة التالية . ولم يحاول البابا اسكندر الثالث أن يقوم بإذلاله ، كما كان جريجورى السابع قد فعل من قبل ؛ بل استخدم السياسة لكي يقضى على روح الحق . وتم الاتفاق بين الطرفين على ضرورة تطبيق مبادئ إتفاقية سنة ١١٢٢ في مسألة التقاليد العلماني ، وعلى إعطاء نوع من الحرية لبعض المدن اللومباردية الشمالية ، الأمر الذي ساعد على شعور هذه المدن بحريتها ، ونشاطها من الناحية التجارية ، وكذلك على أعراف الإمبراطورية بملكية البابوية لبعض أجزاء إيطاليا ، من الناحيتين الدينية والمدنية .

ووصل هذا الصراع إلى أوجها في عهد البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) الذي كان طموحاً قوياً شديداً المراس ؛ وكان يرى أن روما هي مقر حكومته ، وعاصمة العالم الحقيقية ، وأن الأباطرة والملوك وأمراء الإقطاع لم يكونوا سوى عمالاله ، يسوسون الدولة محلياً ، ويدينون له بالطاعة . وكان وريث فردريك بربروسا لا يزال صبياً ، وهو فردريك ملك صقلية ، والذي سيعرف باسم فردريك الثاني فيما بعد ، وكانت ألمانيا منقسمة على نفسها وفي أسوأ حال . ورغم أن فردريك كان تحت وصاية البابا ، إلا أن انوسنت وافق على منح تاج الإمبراطورية للأمير أوتو الألماني ، نظير تخليه له عن إيطاليا تنازلاً تاماً في سنة ١٢٠٩ . ولكن سرعان ما قام أوتو بالمطالبة بأملاك الإمبراطورية في إيطاليا ، فعزله انوسنت الثالث ، وعين فردريك الثاني بدلاً عنه . وتطور الموقف إلى نشوب حرب عامة في غرب أوروبا ، وإتحاز فيها يوحنا ، ملك إنجلترا ، إلى جانب أوتو ، في الوقت الذي وقف فيه فيليب أغسطس ، ملك فرنسا ، إلى جانب البابا . وإنتهت هذه الحرب في موقعة بوقين سنة ١٢١٤ ، التي انهزم فيها أوتو ، وضاعت فيها جيوش إنجلترا ؛ واضطر يوحنا إلى التسليم لإنوسنت حتى ينجو من انتشار الثورات في إنجلترا ، وهي التي أدت إلى إعدام «العهد الأعظم» في سنة ١٢١٥ ؛ وسلم إنجلترا له ، ثم عاد واستلمها منه إقطاعاً بابوياً ، يدفع عنه رسوماً للبابا .

وكان هذا هو أكبر انتصار للبابوية في تاريخها، إذ أن الإمبراطورية أصبحت تحت رحمتها، وأصبحت إنجلترا إقطاعاً بابوياً، وأذعن فيليب أغسطس للبابا في مسألة شخصية، وهي إستعادة زوجته المطلقة رغماً عنه، وشارك ملوك نافار وأراجون يوحنا ملك إنجلترا، بإعترافيهم بتفوق الكنيسة، وسلخوا بمالكمهم لإنوسنت الثالث، ثم عادوا واستلواها منه إقطاعاً بابوياً؛ ووضع ملوك أرمينيا والمجر أنفسهم تحت حماية البابوية بدون قيد ولا شرط. ولكن الكنيسة كانت قد خرجت بذلك عن الحدود الدينية، وبشكل أثار أذهان الناس، وأدخل في نفوسهم الشك نحو قدسية الكنيسة والبابوية، وأثر ذلك في موقفهم حيالها، حين تصطدم من جديد مع الملوك والأمراء الإقطاعيين.

وكان من الخطأ أن تتعسف البابوية مع الإمبراطورية، وتتدخل في الشؤون الزمنية، بدلا من إقتصارها على الشؤون الروحية. وتطور الأمر في عهد فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤) وبونيفاس الثامن إلى أن يوم خليفة فيليب أغسطس بإذلال خليفة انوسنت الثالث، وبذيقه الهوان، ولا ينصرف الفرنسيون عن ملكهم، ولا يتقدم أحد للدفاع عن البابا. وانتهى ذلك بنقل الكرسي البابوي من روما إلى مدينة أفينيون، داخل الحدود الفرنسية، وبقي البابوات هناك سبعمائة عاماً من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٧٨، وهي الفترة المعروفة باسم **الامر البابوي**. وظهر نتيجة لذلك ضعف البابوية، وحركة الانقسام الكبرى في الكنيسة العربية، مع إنتخاب بابا في روما أو في سويسرا أو أسبانيا، في الوقت الذي وجد فيه البابوات في أفينيون؛ وكذلك قيام حركة المجالس الدينية للإصلاح من شأن الكنيسة والبابوية والعودة بها إلى مجدها القديم. ولقد عادت البابوية إلى روما من جديد، ولكن كثيراً من الناس انفضوا من حولها، وقام بعض أحرار المفكرين بمهاجمتها علانية، مثل ويكليف Wycliff الذي تزعم هذه الحركة في إنجلترا في القرن الرابع عشر، ويوحنا هيس في بوهيميا في القرن

الخامس عشر . واتجهت أذهان الناس نحو الانشقاق على البابوية ، وبشكل أنه حين قامت ثورة لوثر في ألمانيا ، وثورة كلفن في سويسرا ، ولم يعد أحدهما أتباعاً لهما عليه ، فبدأت الحركة البروتستنتية الإنفصالية في العالم ، وحدث التصدع والانشقاق في بناء الكنيسة . وهذا فصل جديد يساير تاريخ عصر النهضة ، وفجر التاريخ الحديث .



(٥) وتميزت العصور الوسطى بنشوب سروب الصليبية فيها . وهى من الحركات التى تعبر أصدق تعبير عن روح العالم الغربى فى العصور الوسطى ؛ إذا أنها كانت تعبر عن الدين ، الذى كان من أهم مميزات العالم الوسيط ، وكذلك عن الحرب ، التى كانت من مستلزمات النظام الأفظاعى ونظام الفروسية ، كما كانت الحروب الصليبية عالمية ، بمعنى أنها كانت تجمع كل الأمم المسيحية الغربية ضد جماعة الدول الإسلامية الشرقية . ونجد من ناحية ثالثة أنه كان لهذه الحروب هدفاً محدداً يتمثل فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وتحرير الأراضى المقدسة وإعادتها إلى المسيحيين ، وتأسيس مملكة لاتينية كبرى فيها . وأخيراً فإنها كانت تمثل فصلاً خاصاً من فصول الصراع بين الشرق والغرب . والذى ظهر فى التاريخ القديم فى شكل الصراع بين الإغريق والفرس ؛ وإمتد فى العصور اوسطى فى شكل الحروب الصليبية ، ثم أخذ شكل الاستعمار فى العصور الحديثة .

وكانت الحروب الصليبية قد بدأت فى سنة ١٠٩٥ بإعلانها على لسان البابا أربان الثانى ، فى كيرمونت فى جنود فرنسا ، وانتهت بمخروج الصليبيين من الأراضى المقدسة نهائياً ومن آخر معاقلهم ، وهى عكا ، هناك ، فى سنة ١٢٩٢ . وإن كان بعض المؤرخين يرون أن حروب البيزنطيين ضد السلاجقة قبل سنة ١٠٩٦ كانت حروباً صليبية ، ويرون أن هناك حروباً صليبية أخرى وقعت بعد سنة ١٢٩٢ ، مثل صليبية نيسكو بوليس ، وذهب البعض إلى أن استيلاء

العشائين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ هـ هي حرب صليبية ؛ وكذلك معركة ليبانتو سنة ١٥٧١ ، اعتبرها البنادقة على أنها حرب صليبية . ولكن هذه الحروب لم تكن تجمع كل الدول المسيحية ، ولا موجهة ضد كل الدول الاسلامية ؛ كما أن هدفها لم يكن هو الاستيلاء على بيت المقدس .

وكانت أسباب قيام الحروب الصليبية كثيرة ، ومتعددة ، فكان المسيحيون في أوروبا يشعرون بتجدد الخطر الاسلامي بعد انتصار المسلمين في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ، التي إستولوا بعدها على طليطلة في الأندلس ؛ وحدث ذلك بعد عشر سنوات من انتصار السلاجقة على البيزنطيين في موقعة منا زجرد سنة ١٠٧٦ ، وبإحداق خطرهم بالقسطنطينية . فاستنجد الامبراطور البيزنطي اليكسيوس بالبابا أربان الثاني ، وصادف ذلك هوى في نفس البابا ، وفرصة لمذ نفوذه في الشرق ، بعد أن وطد هذا النفوذ في الغرب ، وفرصة لتزعم كل العالم المسيحي في حرب صليبية . وكانت الشعوب المسيحية في غرب أوروبا قد تحفرت للقيام بهذه الحروب نتيجة للدعاية التي كانت تصلهم مع الحجاج ؛ وكانوا يقاسون في ذلك الكثير من المصاعب ، بعد أن خضعت الشام لحكم السلاجقة ، الذين كانوا حديثي العهد بالاسلام ، والذين كانوا أقل تسامحاً ، عمن سبقهم في حكم هذه الأقاليم ، مع الحجاج المسيحيين . ولاشك في أن هذه الأخبار كانوا قد بالغوا فيها لحشد النفوس للقيام بهذه الحروب ، وبدعوى تخلص المسيحية والمسيحيين في الأراضي المقدسة . وكانت هناك أسباباً أخرى ساعدت على إتساع الحركة ، وتجنبد الجيوش لها في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ؛ فكان كثير من النبلاء الذين لم يوفقوا إلى ميراث إقطاعي يحلمون بالحروب الصليبية التي قد تسع لهم بتأسيس إمارات أخرى في الشرق ؛ ووجد رقيق الأرض في هذه الحركة منفذاً طبيعياً ، ومعترف به من الكنيسة والحكومات ، لتحرير أنفسهم من العبودية الإقطاعية . ولانسى أن كثيراً من الناس كان يرغب في الحصول على غفران ذنوبه ، وعلى الشهادة ؛

وكان غيرهم يحب المغامرة ويحلم بزيارة الأماكن البعيدة . هذا خلاف أسباب أخرى ، مادية وتجارية ، زاد ظهورها في الحروب الصليبية فيما بعد ، وقام المئات من الوعاظ بالتبشير بالحروب الصليبية في قرى أوروبا ومدنها ، وتجمع مئات الآلاف من الأهل ، مستعدين للسفر إلى الشرق .

ويمكننا أن نقسم الحروب الصليبية بعد إعلانها على لسان البابا أوربان الثاني ، إلى ثلاثة أطوار : يتمثل الطور الأول منها في انتصار المسيحيين على المسلمين الذين كانوا منقسمين فيما بينهم بين فاطميين وعباسيين وشيعية ؛ ويتمثل الطور الثاني في التوازن بين المسلمين والمسيحيين في الأراضي المقدسة ، بعد أن لم المسلمون شملهم ؛ ويتمثل الطور الثالث في انتصارات المسلمين الحاسمة على الصليبيين في الأراضي المقدسة ، وطردهم منها نهائيا .

وفي الطور الأول من أطوار الحروب الصليبية ، تمكنت الحملة الصليبية الأولى ، بعد وصولها إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، من تعبر البوسفور ، وتوغل في الأناضول ؛ واتجت إلى سوريا ، واحتلت مدينة الرها ، ثم أنطاكية سنة ١٠٩٨ ؛ وتوجت انتصاراتها بالإستيلاء على بيت المقدس في شهر يوليو سنة ١٠٩٩ . وتأسست المملكة الصليبية اللاتينية في الشرق ، على النظام الإقطاعي الأوربي ؛ وانتخب جردفري البرجندى ، دوق اللورين السفلى ، ملكا عليها ؛ وقسم هذه الدولة إلى إقطاعات وزعها على أصدقائه الذين كانوا معه في الحرب . وكان هذا أقصى ما وصل إليه الصليبيون .

أما الطور الثاني فقد شهد استيلاء عماد الدين زنكي على حلب سنة ١١٢٧ ، وتخليص الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤ ؛ واستمر نور الدين يواصل سياسة أبيه من بعده في تضيق الخناق على الصليبيين حتى أضطروهم إلى الاستنجد بأوربا ؛ فحضرت الحملة الصليبية الثانية وكان مصير هذه الحملة هو الفشل والعجز عن إغاثة مملكة أورشليم اللاتينية ، وانتهت برحمان كفة المسلمين ؛ واستيلائهم على دمشق .

وتميز الطور الثالث بتوحيد كلمة المسلمين ، تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي ،
الذي انتصر على الصليبيين في موقعة حطين سنة ١١٨٧ ، ثم تخليصه بيت المقدس
من أيديهم بعد ذلك بأربعة أشهر . وأرسلت أوروبا الحملة الصليبية ، بقيادة
الامبراطور فردريك الأول ، ولكنه غرق في أحد الأنهار في أرمينيا ، وتشتت
شمل جيشه . ثم جاء فيليب أغسطس بجرأ إلى الأراضى المقدسة ، ولكنه اضطرت ،
بعد فترة إلى العودة إلى بلاده . وطل ريتشارد قلب الأسد بجوار عكا ، مظهراً
الشجاعة والفروسية ، ولكن دون أن يصل إلى نتيجة عملية ، أمام صلاح الدين .
وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة سنة ١١٩٢ ، وأُعترف فيه للصليبيون بملكية المسلمين
لبيت المقدس ، وتعهد فيه المسلمون بمعاملة الحجاج بالتسامح ، مع الموافقة على عقد
هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وترك الساحل فيما بين يافا وصور في أيدي الصليبيين .
وهذأت الأحوال لفترة من الزمن ، ثم تجددت الحروب الصليبية في إتجاه
آخر يدل على أن هذه الحروب قد فقدت معناها الدينى ، كما فقدت هدفها المتمثل
في الاستيلاء على بيت المقدس . وقد تمثل ذلك في الحرب الصليبية الرابعة ، التي
عمدت البندقية ، التي كانت تعيش من الحروب الصليبية ، إلى تحويلها عن وجهتها
الأصلية ، وإلى توجيهها إلى القسطنطينية ، وإلى الاستيلاء عليها من الأباطرة
البيزنطيين ، حتى يسيطروا بذلك على المراكز التجارية التي كانت في أيدي جيرانهم
المسيحيين الضعفاء ، بعد أن فشلوا في السيطرة على المراكز التجارية الموجودة
في أيدي المماليك . وتم ذلك رغم احتجاجات البابا ، وتمكنت هذه الحملة من
تأسيس إمبراطورية لاتينية ظلت ، منذ سنة ١٢٠٤ ، وحتى سنة ١٢٦١ ، حين
إستعادها أباطرتها الأصلية ، تمنح البندقية امتيازات تجارية واسعة النطاق .
ودل ذلك على تدخل المصالح في الحروب الصليبية ، وعلى تلغب ظهورها
واضحاً عن المظهر الدينى .

وزاد وضوح هذه الظاهرة بعد ، وبخاصة في حملة بطرس لوسيفيان ،

ملك قبرص اللاتيني سنة ١٣٠٥ ، على الاسكندرية ، حيث قام باحتلال المدينة لمدة أسبوع ، نهب ما كان فيها من ثروه ، ثم عاد بجيشه إلى قبرص ؛ وكذلك في حملة يوحنا الطيب ، دوق بربون ، على مدينة المهديّة بتونس سنة ١٣٩٠ ، تلك الحملة التي كانت تستهدفها جنوا التحقيق أغراضها التجارية ومصالحها في شمال إفريقيا ، كوسيلة للضغط على الأعراف التونسيين لعقد اتفاقات تجارية .



وكما كانت العقيدة أساسا للحياة في العصور الوسطى ، بنى النظام الإقتصادي والاجتماعي والحربي للعصور الوسطى على أساس الاقطاع ، الذي ميز حياة العصور الوسطى عن حياة العبودية السابقة ، في العصور القديمة ، وميزها كذلك عن عصر الرأسمالية الذي نما وازدهر ، وميز حياة العالم في التاريخ الحديث . ونظام الاقطاع يتصل اتصالا مباشرا بالأرض ، فلكل رجل إقطاع ، على قدر نبله ، وانتظمت على هذا الأساس ، حياة الناس وجماعاتها في العصور الوسطى . وأصبح لكل طبقة من طبقات المجتمع ، خواصها ومميزاتها ومكانتها ، فيما يمكن أن نسميه بالاسلم الاجتماعي . تبعاً لما تتمتع به هذه الطبقة من ميزات في الاقطاع . وكان هناك النبلاء والفرسان والرقيق . وكان هذا النظام وليد ظروف الانتقال من عصر الدولة الرومانية ، إلى عصر الحكومات الملكية ، التي بدأت في الظهور في أواخر العصور الوسطى .



ولم تكن العصور الوسطى خالية من النجدين ، ومن التطور ، والنقد الفكري والاجتماعي . ورغم ذلك فقد نظر إليها بعض الباحثين على أنها عصور ظلام وتأخر ، ولعل ذلك يرجع إلى ذلك التأثير الذي أحدثه عصر الإنشاق في عقول الناس ، وكان من القوه بدرجة حجبت عن أعينهم ما اشتملت عليه الفترة السابقة ؛ ولاشك في أن جهل الناس بحقيقة العصور الوسطى جعلهم يحكمون

عليها حكم من يجهل الشيء ، عليه . ولاشك في أنه لا يمكن دراسة التاريخ الحديث دون معرفة التاريخ الوسيط ، إذ أن تاريخ البشرية يمثل سلسلة متتابعة الحلقات ، ليس حلقة منها قيمة دون الحلقات السابقة ، واللاحقة ، ودون معرفه حقيقية وقيمة كل حلقة في هذه السلسلة ، الانسانية .

وليس هنا مجال للدفاع عن العصور الوسطى ، التي بدأت مع سقوط امبراطورية روما في أيدي البرابرة في منتصف القرن الخامس ، واستمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر ، وماتم عبر هذه القرون من تغير في حياة المجتمع ، وتطور ، نتيجة للظروف المادية ، والمعنوية . ولاشك في أنه قد واجهت الأوربيين صعوبات كثيرة ، حين بدأوا يعملون على إثم ما خلفه البرابرة ، من الفوضى والارتباك في المجتمع الأوربي . لقد أنهار كل شيء مادي ، ولم يكن لهم سوى سلاح الإيمان والعقيدة ، يتسلحون به ، ويتشبهون به ، لكي ينقذهم ، ويحدد خط مسيرتهم ، بعد أن اعتنقوا المسيحية ؛ إنها نار العقيدة ونورها قبل أي شيء إنها الدين ، والنخلص والجنة . إنها شعارات العصور الوسطى في عالم قد إنهار ، فتمسكوا بدينهم ، وحاربوا من أجله ، فكانت حضارة العصور الوسطى . ولقد تمكن الأوربيون من الخروج من هذه المعركة ، واتجهوا بحياتهم إلى بضع قرون مستقرة ، ونجحوا في تحقيق فترة لا بأس بها من الأمن والسلام ، ومهدوا بتطورهم لظهور العصر الحديث .

وكانت العصور الوسطى تمثل حلقة من حلقات التطور بين العصور القديمة ، والعصور الحديثة ؛ وكانت في داخلها تشتمل على تطور مستمر ، حتى وإن كان يحدث ببطء .

ويمكننا أن ننظر إلى محاولات جستنيان لتوحيد أوروبا ، في الشرق والغرب ، وإن كان قد فشل فيها ؛ وكذلك محاولات شارلمان جمع شمل أوروبا تحت حكمه علي أنها الأساس لنشأة الدول الأوربية الحديثة ، في العصور الحديثة ؛ وأنه

كانت توجد، خلف هذه الحياة المضطربة ، عملية تكوين أوروبا الحديثة تسير في سيرها الطبيعي ، من وراء الستار ، وإن كانت مقوماتها لم تكن قد اكتملت بعد ، وبالشكل الذي رغبوا في إعطائه لعملياتهم . وظهرت آثار هذا التطور والتبلور في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وبشكل لم يكن رجال العصور الوسطى قد ألفوه من قبل ؛ ويتمثل ذلك في نمو النظم الملكية في إنجلترا وفي فرنسا ، الأمر الذي ساعد على إيجاد مجتمع منظم ، يتمتع بحياة مستقرة نسبيا ، وتأخذ قوة الأمرار ، ونسبلاء الأقطاع في الضعف في هذه الدول ، وتحل محلها سلطة الملوك والأقوياء .

وشهدت العصور الوسطى مولد **لدستور الانجليزي** ، الذي جاء نتيجة للتطور ، ولكفاح طبقات الأمة في إنجلترا ، ضد الملكية هناك ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بصفة خاصة . وعمل ذلك على تقييد سلطة الملك باشتراك غيره في الحكم معه .

كما شهدت العصور الوسطى نشطا تجاريا كبيرا ، وجاء نتيجة للحروب الصليبية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وكانت من نتائجه نقل السلع والخيرات التي اكتسبت مدن جنوب أوروبا عامه ، مع المدن والموانئ الإيطالية خاصة ، وبالأشتراك مع الموانئ العربية في مصر وسوريا ، الكثير من الثروات . وأصبحت كل من الاسكندرية والبندقية من أهم المراكز التجارية في العالم ، لوقوعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، الأمر الذي أثر على تطور الأحداث بعد ذلك . وحدث تغيير كبير من الناحية العقائدية في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وبعد أن كان الناس يمتدنون في العصور الوسطى في الخرافات ، وكان محلها الأعلى واحداً ، وكانت الحروب الصليبية تمثل قوة واضحة ضد المسلمين في الشرق ، تغيرت الأحوال ، وتغيرت نظرة الناس إلى الدين وإلى الكديسة بالتدرج ، وأصبح الناس أكثر فهما وأكثر حرية مانهودرا عليه من تقاليد وادادات .

ولم تعد فكرة الرهبنة هي المثل الأعلى ، بل أصبح الناس يحدون اهتماما بنواحي أخرى تثير اهتمامهم ، خارج نطاق الكنيسة ، وفي الحياة العملية ذاتها ، رغم اشتغالها على بعض الآثام ، وبعض الشرور ؛ ومع ذلك فإنها أصبحت تجتذب الناس ، ودون إرغام كبشر .

وظهر في أثناء القرن الثاني عشر ، كذلك نشاط في الحياة العلمية والفكرية ؛ وشكل يختلف عما ساد في العصور الوسطى . وبعد أن كان الاهتمام بالعلوم محصوراً بين الكنائس والأديرة ؛ وبعد عمل الكنيسة ، ولقرون ، على الاحتفاظ بالتراث العلمي والفكري والانسانى ؛ تبدلت الأمور وتطورت ، نتيجة للزج بين حضارات وثقافات البحر المتوسط ، ونتيجة لتأثير الفكر اليونانى فى أوروبا ، بفضل ما نقله العرب إليهم ؛ فأعطى عصر الترجمة ، توجهات العرب فى الرياضيات والهندسة والطب ؛ وأخذ الناس يدرسون هذه العلوم كمفروع مستقلة للمعرفة . وبعد أن كان من الضرورى لأبناء العصور الوسطى التسلمح بالعيقدة من أجل الفهم ، أصبحوا لا يعتقدون فى شىء قبل فهمه . وبدأت العقول تتحرر ، وتتجه صوب النقد . وطبقوا ذلك على الدين نفسه ، وهاجموا تصرفات رجال الكنيسة ، وبعض عقائدها ، الأمر الذى سيؤدى إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى فيما بعد . كما تميزت أواخر العصور الوسطى بظهور الجامعات ، التى ارتبطت بانتشار العلم ؛ وظهرت منذ القرن الثالث عشر ، مثل الجامعات الإيطالية ، وجامعة باريس وبدأت فكرة الجامعة باجتماع الطلاب حصول أساتذتهم ، لتلقى العلم الدينى أو الفلسفى ، وتنقلوا معهم من مكان لآخر . ولم تسكن هناك أماكن أو بنايات خاصة بهم ، فكانوا يلتقون حيث يطيب لهم الاستقرار . ثم وجدت هذه الجامعات من الطلاب والإساتذة أن من مصلحتهم أن يوثقوا الروابط بينهم ، فنشأت الجامعات ، فى مقام خاصة بهما ؛ وأخذ المنوك والبابورات يصدرن القرارات بإنشائها ، ويمدنها بالأموال ويقدمون لها التسهيلات . ونشأت بهذه الطريقة

كليات لدراسة العلوم الإلهية ، والفنون ، ودراسة العلوم القانونية ، وإن كان الطابع الديني هو الطابع المتغلب على هذه الدراسات ، في أول الأمر .
وأخيراً ، وليس آخرأ فلا يمكننا أن ننسى للعصور الوسطى أنها أعطتنا الفن القوطي ، الذي يمثل أحد نتاجات عقريية هذا العصر ، والتي لا تزال الكثير من أبنيته قائمة ، حتى الآن في أوروبا ، تشبهه بالعظمة والفن والدقة .



وكما حاولنا أن نحدد وقت بدء العصور الوسطى . نحاول أن نحدد وقت نهايتها . ومرة أخرى نقرر أنه من الصعب وضع حد فاصل لأي عصر من عصور التاريخ . فالعصور الوسطى متداخلة في العصر الحديث ، والآراء والفكر متداخلة مع بعضها ، فامتد الكثير من آراء العصور الوسطى وعاش في العصور الحديثة ، كما أن الكثير من آراء العصور الحديثة كانت سائدة في العصور الوسطى .
وعلى كل حال فيمكننا أن نعتبر أن التاريخ الحديث قد أخذ شكله الواضح لابتداء من القرن السادس عشر ، وبطريقة تجعلنا ننظر إلى العهد السابق لذلك على أنه فترة انتقال بين العصور الوسطى ، والتاريخ الحديث . ويرجع ذلك إلى حدوث تطورات في القرن السادس عشر جعلت الفرق فيه واضحة عنه في العصور الوسطى ، حتى وإن كانت هذه التطورات قد بدأت مع نهاية العصور الوسطى ، واستمرت ونمت حتى وصلت إلى شكلها النهائي في القرن السادس عشر . وهذا ما يدفعنا إلى أن نربط بين العوامل ، ومن العصور الوسطى ، إلى التاريخ الحديث ، وفي موضوع واحد ومتصل ، إقتصاديا ، وإجتماعيا ، ومعنويا ، وسياسيا ، وفنيا ، في شكل « فجر التاريخ الحديث » .



ولقد ظهر التاريخ الحديث بمميزات خاصة به ، استمرت ، وتطورت ونمت ، وفي شكل سلسلة متصلة الحلقات منذ العصور الوسطى ، وعبر التاريخ

الحديث ، لكي تصل بتاريخ الانسانية إلى تاريخها المعاصر .
ولقد بدأ ذلك بتفكك عالم العصور الوسطى في الغرب ، وفي أسس ذلك العالم الذى قام أساساً على نظام الإقطاع . ومع تطور وسائل وعلاقات الإنتاج ، وتمازج جوازية مع النظام الرأسمالى فى المدن ، وما تبع ذلك من تحسن وسائل الانتاج ، وبشكل أثر على شكل المجتمع على طريقة تفكير الأهلئ .
وحدث فى نفس الوقت أن قامت العناصر الاسلامية عامة ، والعثمانية منها خاصة بالزحف نحو الغرب ، وتمكنت من العبور إلى البلقان ، ثم من الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وبشكل أنهى حياة الدولة البيزنطية ، وأثر على العلاقات بين الشرق والغرب .

كما تميزت فترة فجر التاريخ الحديث بظهور بشائر عصر النهضة الاوربية فى إيطاليا ، ثم امتدت منها إلى بقية أنحاء أوربا ، وإن كانت قد أخذت لنفسها طابعاً خاصاً متميزاً فى كل منطقة من المناطق . وظهر رجال جدد ، يمشون بداية عصر جديد ؛ وظهرت تطورات فى الدين والأدب والسياسة ، وظهر نشاط فى أوربا والأوربيين .

ولا يمكن لأحد أن يتغاضى عن تلك العمليات ، التى أدت إلى الكشوف الجغرافية التى قام بها كل من الإسبانين والبرتغاليين ، واتى أدت إلى اكتشاف أراض جديدة ، والسيطرة على طرق التجارة العالمية ، وأسر هذه التجارة ، وتسييرها فى طرق جديدة ؛ فتغيرت معرفة الناس بالعالم ، ومعلوماتهم عنه . وترتب على ذلك ارتفاع أهم ، وانخفاض أهم أخرى ؛ وأدى كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى تحول التجارة العالمية إلى طريق جنوب إفريقيا ، وانخفاض شأن كل من الاسكندرية والبندقية ، وارتفع شأن أسبانيا والبرتغال ؛ وأدى ذلك إلى انقلاب هام فى حياة أقاليم أوربا ، وحياة أهلها ، ومناطق توزيع الثروة فى العالم . وترتب على ذلك وتلاه عملية التوسع العثمانى فى الشرق الأدنى واستيلائهم

على كل من الشام ومصر ، ثم على العراق واليمن ، وبشكل غير التوازن الموجود في الحوض الشرقي من البحر المتوسط .

كما تدخلت الدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، حيث نشب صراع بين القوة الاسبانية والقوة الاسلامية المتمركزة في الجزائر ، والممتدة مع الدولة العثمانية ، بشأن موانئ وقواعد الجزائر وتونس وليبيا ، واستمر حتى معركة ليبانتو .

وتميز تاريخ أوروبا في العصر الحديث بظهور حركة الإصلاح الديني البروتستنتي ، والتي كانت ثورة وخروجاً على تقاليد وعقائد الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك لإصلاح العيوب التي تفتشت ؛ وكانت جرأة غير مألوفة بالنسبة لعقلية رجال العصور الوسطى ، ورغم أن بداية التفكير في نقد الكنيسة كان قد بدأ في نهاية العصور الوسطى ، إلا أنه سيبتطور في العصور الحديثة إلى « حركة » لها أثرها في المجتمع ، ومن النواحي الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية . ولقد ترتب على ذلك ظهور حركة الإصلاح الديني الكاثوليكي ، الذي هدف لإصلاح عيوب الكنيسة الكاثوليكية نفسها ، وفي نفس الوقت الذي هدف فيه محاولة إرجاع كل من خرج على الكنيسة الكاثوليكية إلى حظيرة الكشاكش والخنوع للبابوية . وترتب على ذلك صراعات ومصادمات وحروب بين المعسكرين الكاثوليكي ، والبروتستنتي ؛ فخاضت أوروبا غمار المارك بسبب حركة الإصلاح الديني ؛ وكانت لها آثار خطيرة على حياة المجتمع الأوربي .

وإذا كانت فكرة الإمبراطورية المقدسة مهيمنة في أثناء العصور الوسطى ، فإن هذه الإمبراطورية العالمية ، والتي كانت الكنيسة الكاثوليكية تشد أزرها ، لم تعد تلائم روح العصر الحديث . وبدلاً من هذه الوحدة السياسية ظهرت دول أوروبا الحديثة المستقلة ، ذات السكبان الوطني الواضح في فرنسا ، وإنجلترا ، واسبانيا ؛ وقويت سلطة الملوك في كل من هذه الدول ، في الوقت الذي قلت فيه

أهميه النبلاء والسادة الاقطاعيين . وعنى هؤلاء الملوك الأفوياء والمستبدين ، بتقوية بلادهم ، وتقوية جيوشهم ، وأساطيلهم ، وإستخداموا البارود لبناء قوات عسكرية لا يقوى عليها أمراء الإقطاع وتعمل في نفس الوقت على القضاء على حصون أمراء الاقطاع ومعاقلمهم . وتمت عملية التطور في تقارب بين الملوك والبورجوازية ، وعلى حساب النبلاء الذين زادوا ضعفاً .

وأخيراً ، وليس آخرأ ، فإن فجر التاريخ الحديث ، الذى شهده الكشوف الجغرافية قد أدى إلى تغيير خريطة العالم المعروف وأدى أكثر من ذلك إلى ظهور حركة الاستعمار الاوربى للعالم ، كل العالم ، بما فيه الأمريكتين ، واستراليا ، والشرق الأقصى ، وأفريقية ؛ ولا شك فى أنها كانت مرحلة هامة تمثل سيطرة أوربا على العالم ، وفى صالحها ، وأدى إلى بناء أوربا كتتحفة فنية ، فى مدنها ، وكمركز مسيطر ، وعلى حساب الملايين ، وفى جميع أنحاء العالم .

ودذه المميزات للصورالحديثة هى الفقرات الكبرى فى هذا الكتاب ، وتمثل أبوابه الرئيسية ، الواحد بعد الآخر . ومن عالم مغفلت على نفسه إلى انفتاح وسيطرة واستغلال وتحكم وامبريالية . إنها قصة بدأت من فجر التاريخ الحديث ، ولا تزال حلقاتها متسلسلة ، وحتى الآن .

البَابُ الْأَوَّلُ

تفكك عالم العصور الوسطى في الغرب

الفصل الأول

ضعف النظام الاجتماعي

وازدباده قوة الملكية

كان النظام الاقطاعي مظهر هام ، وأحد المميزات الرئيسية للحياة في العصور الوسطى في العالم الغربي . وكان قد تغلغل في المجتمع ، وأثر في وضعية الأفراد والممتلكات . وقام على أساس السيطرة على الأرض ، وهي وسيلة الانتاج في مجتمع زراعي ، ومن جانب طبقة من المحاربين ، تميزت ، وكونت لنفسها طبقة خاصة بها ، إرستقراطية ، وضعت نفسها نظماً تربطها بالأهالي ، وترتبط كل منهم بنوعية الأرض الموجود عليها . وأذن ذلك أن يكون تركيب المجتمع ، والسلطة السياسية فيه قد قامت بالفعل على أساس هذا النظام ، ومن عهد الأرض إلى صغار السادة ، ثم كبارهم ، وحتى تصل إلى السيد الأعلى ، والذي ليس له متيد ، وهو الملك . وكان من الطبيعي أن تظهر الأيام والممارسة نقائص المجتمع الاقطاعي ، وعرقته للتقدم الاقتصادي والبشري . فتظهر حياله قوى معارضة تشمل من ناحية في القوى الشعبية التي تحاول الحصول منه على تنازلات ومن ناحية أخرى النظام الملكي ، الذي يحاول أن يرث حقوق الطبقة الارستقراطية ، من ناحية سلطتها السياسية مدعماً لنفسه ، ولنظامه الملكي ، في جميع أنحاء المملكة . ويؤدي هذا الصراع ، الطويل الممتد إلى ضعف النظام الاقطاعي وإضعافه إلى التخلى ، مع الظروف ، ومع الزمن ، عن الكثير من حقوقه ، وفي صالح الملكية ، التي تزداد قوة مع الأيام . وكان هذا التحول الطويل قد بدأ منذ منتصف القرن الثاني عشر . وأساس لتغير اقتصادي واجتماعي كبير ، في تكوين وتيمان حياة العصور الوسطى ، في الهادية . والريف ، ونطاق الإنتاج الزراعي ، وحياسة

الريف ، التي كانت هي السمة الغالبة على حياة العصور الوسطى . وكان هذا التغيير الجذري يمهّد لتغيير يحدث في شكل المجتمع ، وكذلك في العلاقات الموجودة في البنيان الفوقي لمجتمع عالم العصور الوسطى في الغرب .

١ - النظام الاقطاعي :

كان الاقطاع يشتمل على مجموع النظم العامة والخاصة التي سادت غرب أوروبا أثناء العصور الوسطى ، والتي كان أهم ركن فيها توزيع مناطق النفوذ . ولقد امتد نظام الاقطاع بشكل عام ، وبغض النظر عن الأزمنة والامكنة ، على كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتي كانت تضم ؛ ومهما كانت مسمياتها . السمات الأساسية لما ساد أوروبا في هذه العصور . وعلينا ألا ننسى أن هذا النمط من المجتمع ومن الحكومة قد امتد إلى بلاد أخرى ، وفي فترات مختلفة ، وأنه قد اختلف ، في شكله ، من مكان لآخر ، وإن كانت بعض سماته العامة قد تميزت عن غيره من أنماط التنظيم الاجتماعي والسياسي .

وكان النظام الاقطاعي قد تغلغل في كل جسم المجتمع ، وأثر على أجهزته الحيوية ، وغير كل ظروف وجودها ، وحدد وضعية الأفراد ، ووضعية الممتلكات ؛ وكذلك السلطات العامة . ويشتمل كل نظام اقطاعي على صفات ثلاث : (١) فهو يعيش في نطاق نظام زراعي ، وتشتمل الأرض فيه جزئياً على ممتلكات جماعية ، للنبعة العامة ، وكذلك على الممتلكات الزراعية المحددة لاسر أو لافراد ؛ والتي يمثل إنتاجها العوامل الأساسية في الثورة العامة ؛ أما التجارة والصناعة فليس لها سوى دور ثانوي ؛ (٢) وهو يمثل مجتمع محارب ، أي أنه بدلا من يستند أمر الحصول على الممتلكات إلى ظروف العمل والعدالة ، فإنه يتقرر في غالب الأحيان ، عن طريق القوى والقهر ، كما أن جزءاً كبيراً من المجتمع يعيش مسلحاً ، وبشكل دائم ، سواء من أجل الدفاع ضد أي هجوم خارجي ، أو من أجل المحافظة ، في داخل الدولة ، على تلك الوضعيه التي انشئت ، ضد

مقاومة غير الراضين ، أو ضد محاولات الطموحين ؛ (٣) وهو مجتمع أرستقراطي ،
أى أن أعضائه موزعين بين طبقات مختلفة ، وغير متساوية ، وللبعض امتيازات ،
وبينا تثقل الأعباء كواهل الآخرين . وهناك أشكال مختلفة للأرستقراطية :
فيمكن لإحدى الطبقات المتميزة أن تستند في تفوقها إما إلى شعب غاز تنحدر
منه ، وإما إلى إحدى المهن الدينية أو المدنية أو العسكرية ، التي كانت تمارسها ،
دون أن تشارك فيها أحداً معها ، وغالباً ما تحصل على أصلها وصلاية سلطتها نتيجة
لأكثر من عامل من هذه العوامل . وفي المجتمع الاقطاعي لا تتشكل الطبقة
الأرستقراطية بمهنتها المدنية ، ولا بثروتها غير العقارية . وتستند في تفوقها إلى
سببين رئيسيين : فهي الوحيدة التي تسيطر على الأرض ، أى على الثروة العامة ،
في هذا المجتمع الزراعي ، وهي الوحيدة التي تحمل السلاح وتمارس الحرب ،
وبالتحصار فهي مرتبطة بالأرض كما أنها عسكرية . وليس معنى ذلك أنها تتكون
من المحاربين فقط ، خاصة وأن الطبقة المميزة في المجتمع الاقطاعي تشتمل كذلك
على رجال الدين ، ونقابات الحرف ، ومجموعات البورجوازيين ، ولكن هؤلاء
كانوا مضطرين ، من أجل التمتع بميزات رجال السيف ، إلى أن يمتلكوا
أراض ، أو يحصلوا على حقوق عقارية ، وأن يقدموا كذلك عن طريق ممثلين
عنهم ، خدمات للحرب ، أما الطبقات الدنيا ، في مثل هذا المجتمع ، فإنها كانت
تتكون من عبيد ، مرتبطين بالأرض ؛ ومزارعين أو صناع يشاركون بدرجات
متفاوتة في ظروف العبودية ، ومن رجال أحرار لهم حقوق مدنية محدودة للغاية ،
وعليهم أعباء ثقيلة . وكان هؤلاء هم الذين يزودون المجتمع كله ، وبمعلمهم ، بكل
ما يحتاجه من الناحية الاقتصادية . ولما كانوا لا يمتلكون أرضاً خاصة بهم ،
ولما كانوا لا يمتلكون سلاحاً ، وليست لهم تقاليد حربية ، فكان من الواجب
عليهم أن يطلبوا إلى الطبقة الأرستقراطية ، وفي نظير الخدمات الشخصية ، أو
دفع مبالغ من المال ، التنازل لهم عن أرض صالحة للزراعة ، وكذلك اعطائهم الحماية

اللازمة لقيامهم بعملهم ؛ وبهذا أصبحوا يعيشون في خضوع لها ، وتحت رحمتها . وهذه الصفات الثلاث توجد في كل المجتمعات الاقطاعية ، وإن كانت لا تكفى للتمييز بينها وبين المجتمعات الارستقراطية ، والتي وجدت في بلاد اليونان القديمة . وروما مثلاً ؛ وإن ما يمثل الاقطاع بنوع خاص هو ذلك الدور المسيطر الذى تلعبه « الأرض » فى العلاقات الاجتماعية ، والذى يفتج عن الأحوال الاقتصادية بصفة خاصة . وفى المجتمعات الحديثة ، يرجع هذا الدور إلى النقود ؛ فالحياء الاجتماعية تتكون من تبادل خدمات لا تنتهى ، بعضها خاص ؛ والبعض له صفة العمومية ؛ وبشكل عام ، لا يتم تبادل هذه الخدمات بشكل مباشر نظير خدمات أخرى ، ولكن نظير قيمه يتم الاتفاق عليها ؛ فى شكل عملة أو عملة ورقية ، تستخدم كإجراء عام . ويقوم كل شخص بدفع خدماته المنزلية ، ومواد استهلاكه أو المنتجات الصناعية التى يحتاجها ، بالنقود ؛ كما أن الدولة تدفع مكافآت ورواتب وأجور موظفيها ، نتيجة قيامهم على تولى أعباء الإدارة العامة . ولكن الحال فى هذه المجتمعات الاقطاعية ، كان مختلفاً ؛ حيث كانت زراعة الأرض هى المورد الوحيد تقريباً للثروة ، وكانت التجارة والصناعة غير نامية ، وكانت الثروة المنقولة (غير العقارية) تحظى بحماية سيئة ، ولا يقدرون قيمتها ؛ ولذلك فإن النقود لم تتدخل إلا بشكل تكميلي فى العلاقات الاقتصادية ؛ وكانت الأرض هى التى تقوم فى ذلك العصر بدور النقود ؛ وتعتبر مكافأة وأجرأ لمعظم الخدمات الخاصة ، أو حتى العامة . فإذا كان أحد الملاك يرغب فى أن يجبر أحد الرجال من طبقة أدنى على أن يقدم له من وقت لآخر منتجات إحدى المهن ، أو عمالاً جثائياً أو ثقافياً معيناً ، فبدلاً من النقود ، كان يمنحه حتى التمتع بقطعة أرض أثناء كل الوقت الذى سيقدم فيه هذه الخدمات له . وإذا كان يرغب فى أن يحصل من رجل من نفس طبقته عن تعهد بالولاء والمعونة ، والوعد بأن يحارب معه ، ويخضع لعدالته ، ويدفع له نوعاً من الجزية ، نوعية

أمر نقدية ، فإنه يمنحه ، وبشروط معينة ، الملكية التامة لأرض زراعية لها مساحتها المعينة ، ومع كل الحقوق التي يمارسها هو نفسه على سكان هذه الأرض . وفي الحالة الأولى يكون تبادل الأرض نظير خدمات خاصة ؛ وفي الحالة الثانية يكون تبادل الأرض نظير خدمات عامة ، تشبه تلك التي لأحد المواطنين تجاه الدولة . وهكذا يظهر أن الأرض كانت حينئذ ، بين أيدي المالكين وأبناء الطبقات المتميزة الذين يمتلكونها ، ليس مجرد مورد للأثروة ، ولسكن بصفتها وسيلة للسيطرة ؛ فهو واسطة الأرض ، لم يقتصر الأمر على مجرد مواجهة متطلبات الحياة المادية والاجتماعية ، بل كانوا يحصلون على حقوق سيادة على رجال آخرين ؛ ولم يكونوا مجرد ملاك يخدمهم مستعجريهم ، وزراعهم ، وصناعهم ، بل سادة يعاونهم تابعين ، أو صغار السادة ، في دولة صغيرة . وفي أثناء العصور الوسطى كانت الأرض التي تمنح بهذه الطريقة نظير خدمات عامة ، والتي كانت تمثل ، بين المتعاقدين ، علاقة السيد بالتابع تحمل ، في كل أنحاء أوروبا إسم منطقة النفوذ الاقطاعي Feoda ؛ وكانت تعطى إسمها لكل النظام الذي تمثل المؤسسة الأكثر أصالة فيه . ولكن المسألة الأكثر أهمية ، هي أن العقد الذي يتم به تبادل الأرض نظير خدمات مختلفة ، لم يكن مجرد تعهد شخصي بسيط ، لا يربط إلا الأطراف المتعاقدة فيما بينها ؛ بل كان يدخل فيه عامل أساسي ، ثابت ودائم ، وهو الأرض نفسها . إذ أن أحد المتعاقدين كان يحصل على خدماته ؛ بصفته مالكا للأرض الممنوحة ، وكان المتعاقد الثاني له حق في المطالبة بهذه الحقوق ، نظير حيازته لأراض خرجت وإقتطعت من أرض أخرى . وهكذا قامت علاقة ، ليس فقط بين اشخصين المتعاقدين ، ولكن بين الارضين ، وإستمرت حتى بعد إختفاء المتعاقدين الأساسين ، وضد أو في مصلحة المالكين الجدد ، مها كانوا . وهكذا يمكننا أن نقول أن الخدمات المنصوص عليها قد فرضت على مساحة معينة ، من الأرض ، أكثر من فرضها على شخص معين ، وأنها تمثل إلتزامات معانة تجاه الأرض ، وعبودية

عقارية تستمر مادام عقداً جديداً لم يتم لتغيير العلاقات القائمة . وعلى العكس من ذلك ، كانت هذه الخدمات ترجع ، وعلى الأقل بالنسبة للمالك ، أو للسيد الذي منحها في أراضيه الملاحقه به ، إلى حقوق أساسية ، يمكن تغييرها ، وإعادة منحها ، مع هذه الأرض نفسها .

ويقتج عن طبيعة هذه الأوضاع نتيجتين هامتين ، تمثلان المجتمعات الإقطاعية : أو لا أن ظروف الأشخاص تحد بطريقة عامة تقريباً بنظام الأرض التي يسكنونها ؛ أما الدافع الفردي الذي هو على درجة كبيرة من القوة في المجتمعات الديمقراطية ، والذي يسمح لكل فرد بأن يكون هو الصانع الأساسي لظروفه الاجتماعية ، فلم يكن له سوى تأثير ثانوي . إن ما يقيم الرجل ، في المجتمعات الإقطاعية وما يمكنه أن يقوم به ، يرجع قبل كل شيء إلى الأرض التي يحوزها ، والصفة التي تتم الحيابة طبقاً لها ، إن ذلك التنازل أو المنحة التي تكون قد أعطيت لأسلافه ، أو له شخصياً ، هي التي تحدد حقوقه وواجباته ، وكذلك وظيفته الاجتماعية . وإذا كان أحد الرجال هو رئيس رجل آخر ، أو تابع له ، فإن ذلك يرجع إلى أن الأرض التي يحوزها الأول لها سيادة ، أو تخضع للأرض التي يحوزها الثاني ، وإذا كان من النبلاء ، أو الأحرار أو عبيد الأرض ، فإن ذلك يرجع إلى نوعية حيازته ، سواء أكانت نبيلة أو حرة أو خاضعة ، وكانت هناك وسيلة واحدة فقط لتغيير هذه الأحوال ، أو للتخلص من الإلتزامات والاعباء المربوطة على الطبقات الدنيا ، ومن أجل الحصول على إمتيازات الطبقة الأرستقراطية ، وهي الحصول على تنازل جديد يغير نوعية الحيازة ولكن كل فرد كان ، بصفة عامة ، يظل مرتبطاً بالأرض ، أي للقصير الذي هو سيئدله ، أو للحقل الذي يزرعه ، أو للمدينة التي يمارس فيها مهنته . ولم يكن من المهم أن تنتقل الأرض من سيد إلى آخر عن طريق الوراثة ، أو التنازل ، بل تظل ظروف أولئك الذين يسكنونها ثابتة ، مادامت علاقاتهم مع الأرض التي يحوزونها لم تتغير . ثانياً أو الظروف الاقتصادية التي يعيش فيها المجتمع الإقطاعي تعطى

للملكية العقارية شكلاً جديداً ، وفي موقع متوسط بين نظام الملكيات الجماعية ،
الذي ساد المجتمعات البدائية ، ونظام الملكية الحرة المطلقة ، والذي يسود في
المجتمعات الحديثة . وهذا الشكل يتمثل في الحيازة الدائمة ، أو ذات المدى
الطويل ، والذي تمثل منطقة النفوذ الإقطاعي فيه العامل الأكثر وضوحاً . ويتميز
بشكل خاص بأن المالك ليس له على الأرض إلا حق مشروط ، ومحدود ، يشبه
ذلك الذي للمستأجر أو المشارك في المزارعة . وتنتج هذه الصفة عن أن العلاقات
الاقتصادية والاجتماعية كانت تؤدي ، كما رأينا ، إلى تنازلات عن أرض مكافئة
بتقديم خدمات ، وأن الغالبية العظمى من الأرض ، بالتالي ، إذا استثنينا ذلك
العدد الصغير من الإقطاعات المعفاة من كل أعباء نتيجة للظروف الخاصة ، كانت
محملة ومكلفة بخدمات وأعباء تضع كل وحدة منها في وضعية خضوع تجاه أرض
أخرى ، ولا تسمح لصاحب الحيازة أبداً بأن يتصرف فيها بحرية ، كما يرغب .
وكانت القاعدة الأساسية أنه لا يوجد أي شخص ، سواء من السادة أو الخاضعين ،
أو المستأجرين أو عبيد الأرض ، يمكنه أن يمتلك أرضاً إلا طبقاً لمنحه ،
ونظير عبء وتكليف بخدمات تجاه من يقدم المنحه . فلم يكن إذن من
يمنح أرضاً ، سواء أكان ذلك مجاناً أو في نظير ، ينفصل عنها أبداً بشكل نهائي :
بل يحتفظ لنفسه بحجزه من الحقوق التي تتكون منها الملكية التامة ، ولا يتخلى إلا
عن الحيازة وحق الانتفاع ؛ وطبقاً للحقوق التي يحتفظ بها ، والمنصوص عليها
بالنسبة لأرضه ، فإنه يمكنه ، نتيجة لنقص الخدمات الواجبة ، وربما حتى نتيجة
لاهوائه ، أن يستعيد الأرض التي كان قد منحها . ولذلك فإن حائزي الأرض
لم تكن لهم بهذه الطريقة إلا حقوق بسيطة ، ولا يمكنهم أن يتصرفوا فيها كما
يرغبون ، وفي غالب الأحيان لم يكن حقهم سوى من أجل الانتفاع ، وشخصي ،
ويعود بهم إلى من سبق أن منحهم . وحتى حين يكون حقهم وراثي ، وإذا
كانوا يقدرون على توريثه ، فإنهم كانوا لا يقدرون على تحويله إلى آخرين ،

أو يبيعه ، دون الحصول على موافقة السيد الذي كانوا قد حصلوا عليه منه . وكان من نتيجة هذه الإمكانيات المحدودة للملكية العقارية أن أصبحت هذه الحقوق غير مؤكدة ، وأن زادت المطالبات ، وبشكل منع تفتيت الأرض ؛ ولكنه أوقف المدافع الفردي الحر ، وبالتالي التقدم الاقتصادي .

٢ - التركيب الاجتماعي والتنظيم السياسي :

إن شرح عملية التركيب الاجتماعي والتنظيم السياسي داخل المجتمعات الإقطاعية تسمح لنا بزيادة فهم الدور الرئيسي للملكية القعارية في هذه المجتمعات ، وخاصة بعد أن عرفنا كيف أن الأرض المقطعة ، أو منطقة النفوذ ، كانت في نفس الوقت مركز الحياة الاجتماعية ، والحياة السياسية .

لقد كان تجمع الأفراد في نظام إقطاعي يقوم أساساً على علاقات الخضوع والتكافل التي تنتج عن تلك السلسلة من التنازلات عن الأرض المسكفة بأعباء خدمات ، ليس فقط بين الطبقات الدنيا والطبقات الأرستقراطية ، ولكن كذلك بين الأفراد المختلفين لهذه الطبقة الأخيرة ، ولم يكن كل سيد ، يستند إلى مساحة أرضه ، وإلى عدد رجاله المسلحين ، بل كان لديه زبائن يتمثلون في الرجال الأحرار والمستأجرين وعبيد الأرض ، الذين يزرعون أراضيه ؛ ويتمثلون كذلك في سادة آخرين ، في فقر واضح ، أو على درجة من الضعف ، لا تسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم في فترات العنف والإضطراب ؛ ويرغبون في وضع أنفسهم تحت حمايته ؛ فيقدمون له الولاء عن أنفسهم وعن أملاكهم ، ويحصلون منه نظير ذلك على مناطق نفوذ ، تحوّلهم بالتالي إلى تابعين له . ويصل بنا الحال إلى أن نجد أن كل الإقليم قد أصبح مقسماً بين الأعضاء الرئيسيين في الطبقة الأرستقراطية ، وأن كل منهم قد أصبح سيدياً على منطقة لها درجة إتساع معينة ، ويشكل سكانها مجموعة متميزة تحت سلطته ؛ فيخضعون له ، وإن كان ذلك بدرجات مختلفة . وكان لكل سيد قوتي على أراضية الخاصة عدداً من المستأجرين الذين ينتسبون إلى

طبقات أدنى ، ولبعضهم وضعية الرجل الحر ، وللآخرين وضعية عبيد الأرض ؛ وكان له على الأرض التي أقطعها لغيره ، والتي لا يزال سيدياً عليها ، تابعين ينتسبون مثله إلى الطبقة المتميزة ، وتحت سلطة كل منهم رجال أحرار وعبيد أرض . في ذلك الإقطاع الذي أصبح خاصاً بكل منهم . وكان لا يطالب المستأجرين إلا بالمدفوعات المالية أو الجسدية ، في شكل إيجار أو سخرة ؛ أما التابعين ، فكان يطالبهم بالولاء والمعونة الشخصية ، في شكل خدمات حرب ، وعدالة ، أو نقود ، وكان له ، بالنسبة للأولين ، حقوق المالك على مزارعيه ، أو السيد على خدامه ؛ أما بالنسبة للثانين ؛ كانت له سلطات رئيس دولة على رعاياه . وهكذا نجد أن هذه المجموعة التي انتظمت بهذا الشكل لم تكن معزولة عن المجموعات المجاورة ؛ فالسيد ، الذي هو رئيسها ، يمكنه أن يدخل بنفسه ، وبصفته تابع ، في مجموعة أخرى لها نفس طبيعتها ، والتي يكون السيد رئيسها له من الصفات ما يجعله أكثر قوة منه ؛ ويترتب على ذلك أن تصبح أراضيها تابعة مباشرة لهذا السيد ، وعلى أساس منطقة النفوذ الإقطاعي ؛ وتصبح أراضي تابعة كذلك تابعة بطريق غير مباشر لهذا السيد ، وعلى أساس أنها « إقطاعات بالتبعية » . وبهذا الشكل يمكن لمجموعات عديدة أن تلتحق بمجموعة أعلى ، في الوقت الذي تخضع هذه الأخيرة إلى غيرهما ، أكثر عواً منها . هذه هي الخطوط الرئيسية لهذا التجمع الخاص بالأفراد في مجتمع إقطاعي ؛ وكان الرباط الذي يربط السيد بتابعيه النبلاء وبأبناء الطبقات الأدنى الخاضعين بطريقة مباشرة له ، لا يشتمل على مجرد تعهد شخصي ، وإنما على عقد فعلي ، وعن طريق الإقطاع الفعلي لأرض مكلفة بخدمات معينة . ولكي يصبح الفرد تابعاً ، لم يكن تقديم الولاء كافياً ؛ ولكي يصبح مستأجراً أو عبد أرض لدى أحد السادة ، لم يكن مجرد تقديم تعهد ، من رجل لرجل ، كافياً ؛ بل كان من اللازم ، علاوة على ذلك ، وفي الحالة الأولى ، التنازل عن منطقة نفوذ إقطاعي ؛ وفي الحالة الثانية ، التنازل عن حياة

هستأجر أو عبد أرض . وإذا كان التابع ، والمستأجر ، مرتبطين تجاه السيد بالتزامات مثل التي سبق ذكرها ، فإن ذلك كان يرجع ، قبل كل شيء ، إلى طبيعة الإقطاع الذي كانوا قد إستلموه ؛ وإذا كانوا يرغبون في فك إرتباطهم من هذه الالتزامات ؛ فإنه كان من اللازم عليهم أن يتنازلوا عما إستلموه ؛ أما إذا أهملوا في الوفاء بالتزاماتهم ، فانهم ، كانوا يعاقبون بفقدانهم حيازتهم .

وحيثما تصبح الحالة الإجتماعية التي شرحناها عامة ودائمة لدى أحد الشعوب ، فانها تنتج بالضرورة شكلا جديدا للحكومة . وإن ما يميزها هو أن السيادة ، بدلا من أن تتمثل في الأمة كلها ، أو في شخص ملك واحد ، تكون موزعة بين أيدي عدد لا يحصى من رؤساء المجموعات الإقطاعية ، الذين يقسمون الأرض ؛ وأن هؤلاء الرؤساء متحدون فيما بينهم ، لاربوا بط اتحادية ، ولكن بسلم طبق ، يجعلهم في ظروف معينة ، خاضعين لبعض منهم الآخرين ، وفي ظروف أخرى ، يتركهم يتعمنون بالاستقلال التام . وفي كل المجتمعات المنظمة ، تتمثل حقوق الدولة في واجبات على الأفراد لتقديم خدمات شخصية وتقديرية ، وتكون في مجموعها القوة الإجتماعية ؛ وتشتمل هذه الواجبات على ضرورة الوصول إلى أن تضمن للأفراد ، وعن طريق هذه القوة الاجتماعية ، الحماية والعدل وحرية العمل اللازمة لهم . وفي دولة مركزية ، يحكمها رئيس منتخب أو وراثي ، يعود إلى هذا الرئيس وموظفيه الذين يمثلونه ، أن يقوم كل شخص بتقديم الخدمات ، وطالب مثل هذه الحماية ؛ أما في الدولة الإقطاعية فإن ذلك يرجع إلى السيد الذي تعود إليه ، بطريقة مباشرة ، الأراضي التي يقيمون عليها ؛ إذ أنهم لا يعرفون سواه ، وليس عليهم واجبات لإحتماله ، وليس لهم أن يتظنوا معونة أو حماية أو حماية إلا منه . وهكذا نجد أن كل مجموعة إقطاعية كانت تشكل ؛ في هذا المجتمع ، ما يشبه دولة صغيرة ، مزودة بحكومة خاصة بها ، ويمكنها القيام بكل الوظائف الأساسية لدولة كبرى : ونتيجة لخدمات الحرب ، والعدالة والمشورة ، التي يقدمها

التابعون ، يمكن للسيد أن يكون له جيش ، وقصر عدالة ، ومجلس حكومة ؛ ونتيجة للجزية التي يدفعها التابعون ، وللوارد المالية التي ترد من المستأجرين ، تصبح له خزانة ؛ ونتيجة للخدمات الجسدية أو السخرة التي يقدمها له عبيد أرضه ، وغالباً كذلك الرجال الأحرار الذين يقيمون في أراضيه ، يسيطر على أكبر عدد من السواعد ، سواء للزراع أو الحرفيين . ولكننا رأينا أن المجموعات الإقطاعية ليست منفصلة عن بعضها ؛ بل إنها مرتبطة فيما بينها بروابط تبعية ، ويشكلون سلباً كبيراً يصل من المجموعات الدنيا إلى المجموعات العليا ، والتي يقل عددها بالتدريج ، حتى نصل إلى سيد لا يعترف بسيد أعلى منه ، ولا يحصل على حقوقه من أحد ، بل « من الله وبسيفه » . والحقيقة أن وجود رئيس واحد ، وسيد أعلى ، على رأس السلم الإقطاعي ، لم يكن شيئاً أساسياً بالنسبة لمثل هذا النظام . ويبدو حتى أنه ، في أحد أشكال الحكومة ، وحيث يقوم كل كبار ملاك المناطق الإقطاعية ، بمنح أنفسهم ، وكل في منطقة نفوذه ، حق ممارسة السلطات العامة ، فإن التنظيم الملسكي ، أي إنشاء سلطة مركزية وعليا ، كانت عاملاً غريباً ، وحتى معادياً . ومع ذلك ، ففي الواقع ، وتحت تأثير ظروف مختلفة ، اختلفت حسب الإزمان والمناطق ، وفي كل مكان نشأ فيه النظام الإقطاعي ، كان أحد السادة المسيطرين على الأرض يسيطر على الآخرين ، ويركز في شخصية كل السلم الإقطاعي . وكان هذا السيد صاحب السيادة يحمل عادة لقب الملك أو الإمبراطور ؛ وكان يسيطر ، وعلى درجات من تحته ، على كل مناطق النفوذ وكل استثمارات وحيازات الأرض في المملكة ، والتي كانت تحسب بين مناصاته المباشرة ، أو غير المباشرة . وواقع أن سلطته كانت في بعض الأحيان حقيقية على تابعيه ، وغالباً ما كانت فعلية ، ففي بعض الأحيان ، وإذا ما كانوا أقل قوة ، أو منقسمين نتيجة لمنافسات شخصية ، فإنه كان يحتفظ بهم بين أيديهم ، موزعاً عليهم ، ومستعيداً منهم ، وحسب رغبته ، تلك الإمتيازات التي كان قد منحها لهم ، طبقاً لدرجة الخضوع التي كان كل منهم قد أظهرها له ؛ وفي أحيان أخرى ،

وإذا ما كانوا أقويام ومتحدين ، فإنه كان يتفاهم معهم ، ويواجه منهم مقاومات مستهورة ، ولا يحصل منهم إلا على رغبتهم في الاستمرار في إظهار طاعة قلبلة ، وطبقة المصالحهم . ولكن علينا أن نلاحظ ، في كل الحالات ، أنه لم يكن يمارس سلطته ، خارج منطقة نفوذه الخاصة ، إلا على أشخاص التابعين له بطريق مباشر ، ولم يكن من حيث المبدأ ، يمارس أبداً مثل هذه السلطة ، على التابعين بالتبعية ، أو على المستأجرين الذين كانوا يخضعون لتابعية ؛ ولم يكن له من رعايا سوى الأولين ، وكان في وسعه أن يجبرهم على الحركة من أجل نفسه ، أو تابعيه ، والرجال المسؤولين عن إقطاعاتهم ؛ ولمكنه كان لا يقدر ، إلا في حالات إستثنائية ، على أن يحصل مباشرة على أية خدمة من تابعيه ومن هؤلاء الرجال الذين لا يخضعون له . وهكذا كان كل سيد ، وعلى كل مستوى من مستويات السلم الإقطاعي ، سيداً ، وتابعاً في نفس الوقت : سيداً في منطقة نفوذه الإقطاعية والتي كانت أراضيها ورجالها لا تخضع إلا له ؛ وتابعاً لسيداه المباشر ، والذي كان عليه تجاهه واجبات إقطاعية .

وإذا كانت هذه هي السمات الأساسية لنظام سياسي خاص بالمجتمعات الإقطاعية ، فما هو شكل الحكومات التي يمكنها أن تنتج عن ذلك ؟ علينا أولاً أن نستبعد الأشكال الديمقراطية لها ، مادام المجتمع الإقطاعي ، بحكم تعريفه ، لا يتمشى مع النظام السياسي الذي يمكن للشعب في ظله أن يحكم نفسه بنفسه ، أو عن طريق تمثليه . ويمكن للنظام الإقطاعي أن يضع نفسه بين الحكومات الأرستقراطية ، مادامت السلطة موجودة في أيدي عدد من الرجال من طبقة مميزة ، والذين يمتلكون وحدهم الأراضي الزراعية ، ويحملون السلاح . ولمكن يمكن وضعه كذلك بين الحكومات الملكية ، مادام أعضاء الطبقة الحاكمة يكونون نظاماً طبقياً تحت السلطة الفعلية أو الاسمية لرئيس واحد . والملكية الإقطاعية في بعض الأحيان إنتخابية ، وفي أحيان أخرى وراثية ، ولمكنها دائماً مرتبطة باوطن أي أن

رئيسية يمارس السلطة ، لاعتن طريق تفويض من الخاضعين له ، والملكية التمثيلية ،
أو عن طريق سلطة ماوراء الطبيعة ، الملكية الشيوقراطية ، ولكن بإسمة الشخصى ؛
كما أنه يستخدم ممتلكاته الشخصية ، وأنه فى كل درجات السلم ، لا يمكن لأى حق
سياسى أن يظهر إلا فى شكل « وطنى ، كإقطاع أو منطقة سيادة . ومع ذلك فإن
الملكية الإقطاعية ليست مستتبدة : فإذا كانت سلطة الملك شبه مطلقة على أراضى
وأشخاص تابعيه ، فإن هذه السلطة كانت محددة إلى درجة بعيدة لدى السادة
خاضعة للإلتباط الإقطاعى الذى يوحدها به . وبالإختصار فيمكننا أن
نلخص الإقطاع ، وبصفتة نظام سياسى فى أنه ربط بين أرسقراطية الأرض
والأرسقراطية المحاربة ، وبين الملكية الوطنية . ولكن العنصر الأرسقراطى هو
الذى يسود فيه ؛ فالامتيازات ليست للطبقات المسيطرة وحدها ، ولكن للطبقات
صاحبة السيادة ؛ ليس الملك نفسه إلا أحد السادة ، ولكنه فوق كل الآخرين ،
وليس هناك من سيد عليه . وهكذا نستخدم فى بعض الأحيان تعبير « نظام
السادة ، كمرادف « للنظام الإقطاعى » . ولكن ربما كان التعبير الأول أكثر
إتساعاً ، إذ أنه يدل على نظام يكون السادة الفعليون فيه ، من وجهة النظر
السياسية والاجتماعية ، هم السادة . ومع ذلك فإن التعبير الثانى هو الذى إنتشر ؛
ولأنه كان يحدد معنى الإقطاع ، ويفسر التفوق الاجتماعى والسياسى للسيد .

٣ - تطور النظام الإقطاعى :

لاشك فى أن النظام الإقطاعى كان يحقق للطبقات الدنيا نوعاً من الأمن تحصل
عليها من حماية المحارب للأرض التى تعيش عليها ، وكان يحقق للطبقات الحاكمة
الاستقلال والعزة المعنوية من السيادة التى يمارسها كل فرد منهم على ممتلكاته ؛
وذلك فى ظل نظام تعافدى . غالباً ما يكون باهظ الثمن بالنسبة للضعفاء ، وإن
كان أفضل من سيادة العنف ، وللتحكم .

ومع ذلك فإنه لا يمكن للنظام الإقطاعى أن يستمر إلى مالا نهاية دون أن

تظهر نقائصه ، وذون أن يتضمن الكثير من الإنحرافات ، والظلم ، فشور ضده
الأحقاد ، وتنشب ضده الثورات ذلك أن حماية السيد تتحول إلى وسيلة كبت :
فالسيد يسيء من إستخدام قوته للضغط على أولئك الموجودين تحت إشرافه ،
فيستولى بدون حق على أملاكهم ، ويستبعد أشخاصهم ، ويتقل عليهم بالأعباء
الباهظة والمذلة ؛ وحتى إذا كان لا يكبت مزارعيه ، فإنه يستغلهم ، ويتحول
معظم الخدمات التي يطالبهم بها إلى مصلحته الشخصية ، أو لأرضاء مطالبه
الأسروية ، وطموحه كما أن الروابط الحقيقية التي تربط الإنسان بالأرض ،
والأخطار التي يتعرض لها أى شخص من أملاك السيد ، وتقسيم المجتمع إلى
طبقات مغلقة ، كانت تمثل عقبات في مواجهة تنمية التجارة والصناعة ، وأما التقدم
الاقتصادي وكانت عدم كفاية الروابط الاقطاعية لإقامة النظام في مجتمع لا يترافق
إلا بالحقوق الفردية ، وكذلك التقاليد العنيفة للاستقرائية ، التي لا تعرف سوى
مهنة الحرب ، تنسب في حروب خاصة ، باستمرار ؛ وتكون من بين نتائجها
الاستعباد . وهروب الأهل من الأرض ، وتخريب المدن والأرياف . وأخيراً ،
فإن الدولة الاقطاعية ، وحيث توزع السيادة بين الكثير من الأيدي ، كان لا يمكن
أن يكون لها ، من وجهة نظر الإدارة الداخلية والعلاقات الدولية ، ذلك الانعجام
والقدرة التي تتمتع بها الدولة المركزية . وهذا النقص والاضرار التي تنج
عنه تنسب ، إن أجلاً أو عاجلاً ، في نشأة رد فعل مزدوج ضد النظام الاقطاعي .
ويجىء أحدهما من الطبقات الدنيا : ففي كل مكان ، حيث لا تؤدي العزلة
والتخلف المعنوي إلى عدم القدرة ، يتحد المكبوتون ، سواء أكانوا من الأحرار
أو العبيد ، وينظمون أنفسهم في مجموعات صغيرة ؛ ونتيجة لتسلحهم بهذا
الاتحاد ، يمكنهم أن يحصلوا ، شيئاً فشيئاً ، وإما بالموافقة أو بالرغم ، على
تنازلات محدد من محكم السيد ، وتصنع لهم عدداً معيناً من الحقوق والامتيازات
الجماعية ، وفي نفس الوقت تتحسن أحوالهم الاقتصادية ؛ وماداموا قد أصبحوا

أكثر حرية ، فانهم يثرون من التجارة ، ومن الصناعة ، ومن الفنون ؛ فيشترون الاراضى ، ويحصلون بذلك على القوة الاجتماعية وتمسكهم بهذه الطريقة بعض المجموعات من ان تصل إلى أن تفتش لنفسها مكاناً فى الطبقة المميزة ، ولاتحصل فقط على حقوق فى المدينة ، ولكن كذلك على سيادة سياسية حقيقية ، تسمح لها بالتعامل على مستوى الند للند مع السادة الإقطاعيين . ويجىء رد الفعل الثانى من الرئيس الأعلى ، الذى يحتل قمة السلم الأرسقراطى فى المجتمع الإقطاعى ، سواء كان يلقب الملك ، أو الإمبراطور . وكانت أسرة السيد قد إستولت ، بالقوة أو بالخداع ، على هذا المركز ذا السيادة ، ووضعت سياستها على أساس توسيع أراضىها ، وحقوقها وإمتيازاتها على حساب أسر السادة الآخرين ؛ وكانت قد قامت فى أغلب الأحيان بالارتباط ، طبقاً لمصلحتها ، مع رئيس الجماعة الدينية ، والطوائف المدنية أو الريفية ، ومع صغار السادة التى تحاول أن تفصلهم عن سيادة كبار السادة لى تدخلهم فى تبميتها المباشرة ؛ وكانت قد أخذت صادرت وأعدت شراء الأعلبية العظمى لمنطقة النفوذ ؛ وأكدت لنفسها حق الانفراد بحقوق التمتع التى يمارسها كل سيد فى أراضيه ؛ وكانت عن طريق العودة شيئاً فشيئاً إلى الوحدة السياسية ، والمركزية الادارية ، قد أرضت طموحها الشخصى والمصالح العامة للامة فى نفس الوقت . ولكن تحرر الطبقات الشعبية ، وتطور الحياة الاقتصادية ، واستعادة السلطة المركزية لسكل حقوق السيادة كانت تمثل ، فى مجموعها ، نتيجة رد الفعل الثانى . ومنذ ذلك الوقت لاتصبح منطقة النفوذ الإقطاعى هى مركز الحياة الاجتماعية ، والحياة السياسيه ؛ ويدخل النظام الإقطاعى ، الذى ضعف ونحطم فى مبادئه نفسها ، فى مرحلة الانهيار . ولكن علينا ألا ننسى أن هذا الصراع طويل المدى ، وأن مقاومة أصحاب الامتيازات تكون عنيدة . ذلك أن النظام الإقطاعى هو الوحيد من بين كل أشكال التنظيم الأرسقراطى الذى تتوغل بعموره إلى أعماق مدى فى المجتمع الذى ينشأ فيه ،

مادام تفوق الطبقة الحاكمة ، وتبعية الطبقات الدنيا تبنى ، كما رأينا ، على وضعية خاصة للملكية العقارية ، لا يمكن تغييرها إلا ببطء كبير . ولذلك فإن النظام الاقطاعى يبقى كذلك ، حتى بعد تحطيمه ، لفترة طويلة ، فى شكل حقوق عقارية ، وإمتيازات شخصية ، فى صالح مجموعة نبلاء ، تخضع للملكية ، ومكروهة من الشعب ، التى تثقل على كاهله ، دون أن تعطى له أى خدمة عامة . ومن بين القوتين الاجتماعيتين الذى يقضى عملها على النظام الاقطاعى ، وهما الشعب والنظام الملكى ، نجد أن القوة الثانية هى التى كانت فى أغلب الأحيان الأحسن تسليحاً والأكثر قوة ؛ وكان النظام الملكى ، فى غالبية الأحيان ، هو الذى يأتى مباشرة بعد النظام الاقطاعى ، ويرثه . وفى بعض الأحيان يكون النظام الملكى مطلقاً ، أو يكون تمثيلاً .

وفى الحالة الأولى ، التى كانت هى حالة فرنسا ومعظم دول أوربا عند نهاية للعصور الوسطى ، نجحت السلطة الملكية ، فى صراعها مع النظام الاقطاعى ، ونتيجة للظروف ولحكمة الملوك السياسية ، من أن تحول لصالحها القوى الحية فى الأمة ، وقامت تحت شعار إعادة اوحدة السياسية ، والتنظيم الإدارى ، بتجريد السادة من ميزات سيادتهم ، وكذلك بتحطيم أو مصادرة كل سلطاتهم المستقلة ، وإلغاء كل الإعفاءات المحلية التى كانت الطبقات الشعبية قد حصلت عليها بكل مشقة . وهذا يقلل من قيمة التغييرات الاجتماعية والسياسية التى تمت . حقيقة أن عدم المساواة فى الحقوق وفى الثروة قد أصبح أقل مما كان عليه بين الأرستقراطية والطبقات الأدنى كما أن كل الطبقات أصبحت تخضع للمبدء المشترك الذى يفرضه الملك المطلق السلطة عليها . وبدلاً من عدد كبير من دول السادة الصغيرة ، وحكومات الأفياليت البلدية ، التى كانت تتمتع ، ومع إحتمفاظها بالتزاماتها الاقطاعية ، باستقلال شبه تام ، لم يعد هناك سوى دولة واحدة ، أكثر قوة ، ولها إدارة أثير إنتظاماً ، وأكثر قدرة على القيام بعمل دبلوماسى أو عسكرى . ولكن الوضعية السياسية ، تظل فى

جوهرها ، كما هي ، إذ أن السيادة التي تركزت في أيدي رجل واحد ، تظل مرتبطة بالأرض ، كما كانت حين كانت منقسمة بين رجال كثيرين ؛ ويعطى الملك لنفسه ، وعلى كل الممتلكات والأشخاص في كل مملكته ، نفس الحقوق التي كان كل سيد يمارسها في منطقة نفوذه ؛ وبدلاً من أن كانت الدولة تخضع لاستغلال الكثير من أسر السادة ، لا تصبح مستغلة إلا عن طريق رجل واحد ؛ ومن أجل مصالحه الخاصة ، وطموحه الأسروى .

أما في الحالة الثانية فإن الطبقات الشعبية تتمكن ، في نفس الوقت الذي تتخلص فيه من التحكم الإقطاعي ، من أن تتسلح ضد طغيان النظام الملكي ؛ وهذا هو ما حدث في إنجلترا بنوع بناص ، وكانت سلطة السادة ، بعد الغزو النورمندي ، قد نشأت في كل منطقة نفوذ إقطاعي ، وبشكل قوى مدعم ؛ وعن طريق قيادات مسالمة بدقة ، ولكن دون أن تحطم أو تبتلع السلطات الأخرى . وهكذا بقيت الملكية ، منذ الأيام الأولى للعصر الإقطاعي ، أكثر قوة عما كانت عليه في أي مكان آخر : فكان الملك يمتلك أعلى وأكبر المقاطعات ، وكان قد احتفظ لنفسه بكل حقوق المنعة ، وحافظ على التقسيمات الإدارية القديمة ؛ واحتفظ تحت سيطرته برجال الدين الذين كان يعينهم ويعطيهم المنح ، وكذلك بمعظم السادة العلمانيين الذين كانوا تابعيه المباشرين ، والذين لم يكن يحترم ممتلكاتهم وإميازتهم كل وقت . أما الطبقات الشعبية ، والتي كان النظام الإقطاعي ينقل على كواهلها ، فإنها كانت تخشى من تحكم الملك ، كما كانت تخشى من كبت الأرستقراطية العلمانية والدينية لها : فمن أجل الحصول على إعراف بحقوقها . والحصول على تحررها ، لم يكن من مصلحتها أن تستمد إلى تأييد السلاطة الملكية ، ولكنها كانت تطالب بمنحها هذه التنازلات كمشن للمعونة التي كان في وسعها تقديمها للنبلاء ورجال الدين ، نظير ما كانوا يحصلون عليه من الملكية : ولذلك فاننا لانرى في أغلب الأحيان ، في تاريخ إنجلترا . أن صناع المدن ، ومستأجري الأرياف ، يناضلون ضد الأرستقراطية الدينية أو العلمانية ؛ ولكنهم يتحدثون معها لكي يتحكموا ،

وفي عمل مشترك ، من أن يقاوموا إدعاءات الملكية ومشروعاتها . وبعد سلسلة طويلة من المفاسد ، كانت نتيجة هذه السياسة في أول الأمر هي المحافظة على التوازن بين القوى الإجتماعية المختلفة ، والتقليل من سلطات السادة ، دون أن يؤدي ذلك إلى تدعيم سلطة ملكية مطلقة ؛ وتركوا بهذه الطريقة التحرر الشعبي يستمر ، بين ميزات الأراستقراطية وحقوق الملكية . ثم جاء ذلك دور التغيير العميق في وضعية السلطات العامة : ذلك أن السلطة بين أيدي السادة ، وحتى بين أيدي الملك ، لم تعد حقاً مرتبطة بالأرض ، يمارسونها حسب رغباتهم ، بل تحولت إلى وديعة مشروطة ، يكونوا مسؤولين عنها . وتمكن الأعضاء الرئيسيين للأراستقراطية العلمانية ورجال الدين ، متحدين مع ممثلي نقابات وطوائف المدن ، من أن يكونوا ، وتحت إسم مجلس العموم ، مجلساً ممثلاً للأمة كلها ، يتدخل في الأمور العامة للمملكة ، من أجل مراقبة السلطة المركزية ؛ ولم يعد في وسع الملك أن يفرض ضرائب دون موافقة هذا المجلس ، وأصبح عليه أن يحسب حساباً ، عند ممارسته سلطاته ، لرغبات وإحتياجات كل طبقة في المجتمع ؛ فأصبح بذلك ، في إدارته للشئون العامة ، موكلاً أعلى عن الأمة كلها . وهكذا نجد أن النظام التعاقدى ، الذى كان أساس الاقطاع نفسه ، قد إمتد واتسع ، بدلاً من أن يختفى ؛ ولم يعد يطبق فقط على العلاقات الاقطاعية ، النقابية والبلدية ؛ ولكن على مجموع علاقات الحكام بالمحكومين ؛ أى أن الملكية الاقطاعية قد تغيرت ؛ وباختصار ، إلى نظام ملكي تمثيلي .

٤ - ضعف الاقطاع في فرنسا :

إحتفظ نظام الاقطاع في فرنسا بقوته حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ثم بدأ ضعفه في الظهور بعد ذلك . وكان النظام الاقطاعى ، قد نشأ في أول أمره ، كحاجة إجتماعية ، وأجاب ، في أثناء القرنين العاشر والحادى عشر ، للحاجة الحقيقية للأمن والحماية لكل طبقات المجتمع . ولكن سرعان ما ظهرت مساوئ هذا النظام ، بعد مرور الأزمنة ،

وكذلك العادات الوحشية للرجال الذين كابوا يطبقونه ، وظهر أنه يحمل من المساوية ومن الفوضى الكثير . أما الخدمات التي كان في وسع طبقة النبلاء ، وبصفتها «درك دائم» ، أن تقدمها ، فإن المحكومين كانوا يدفعون ثمنها غالباً ، نتيجة للقر المفروض على من يحتاجون لحماية ونتيجة للتخريب المستمر الناتج عن الحروب الاقطاعية . هذا علاوة على أن هذه الطبقة من المحاربين الملاك ، والمستقلين ، والذين يعيشون في فراغ ، لم تكن تميل إلا للسلاح ، وكانت تعيش على حساب المزارعين وعبيد الأرض ، ولم تكن في حقيقة الأمر طبقة حاكمة . ذلك أن مانسيه بحكومة الاراضي الاقطاعية لم يكن في حقيقة الأمر سوى نظام الاستغلال . «استغلال قهري» لأنه يفرض نفسه على كل الاعمال ، ويظهر في ألف شكل ؛ ومفروض من جانب واحد ، لأنه من غير الممكن تسوية كل شيء ، كما أن العرف كان لايربط اليد إلا بما يرغب هو نفسه في أن يرتبط به ، وطغياني ، لأنه كان يمارس عن طريق مندوبين أصغر ، يصاون إلى قرب الفلاح ، ودون أي رقابة ، أو نظام محدد ، لإعادة النظر في تصرفاتهم ؛ وكرهه ، لأنه كان يأخذ الأكثر أهمية ووضوحاً من الإيرادات والحاصلات ولا يقدم ، نظير ذلك ، أية «خدمة» . ولم تكن مانسيه بالحكومة الاقطاعية تستحق لقب حكومة ، إذ أن علاقات الخضوع والتبعية فيها ، وكذلك تسلسلها ، لم تكن كافية في وافع الأمر لضمان الأمن العام وإحترام الحقوق للأفراد . ولذلك فإننا نجد أن غالبية أبناء الامة ، ومنذ نهاية القرن الحادي عشر ، أصبحت لا تشعر بأن نظام حكم السادة الاقطاعيين يمنحها الامن والعدل اللذين تحتاج اليهما . والتي كانت قد بحثت عنها ، غريزيا ، إما لدى الاتحادات البلدية ، أو عن طريق الحماية المباشرة لأحد كبار السادة ، مثل ملك فرنسا ، أو أحد كبار البارونات في المملكة أما الاتحادات البلدية ، فإنها كانت قد خضعت لمحاربة السادة في بعض الحالات ، أو دفعت ثمناً باهظاً للمحافظة على حياتها ؛ وكانت منتصرة على طول الخط منذ نهاية القرن

الثاني عشر، وكان قد ساعد ذلك على تآكيد التجاوة والصناعة، التي عملت على زيادة الثروة في أيدي أبناء المدن، وكذلك الحملات الصليبية التي كانت تلك أواسل الخا الاراضى المقدسة، والتي كانت تكاليفها الباهظة تجعل الكثير من صغار السادة يطالبون بالحصول منها على ثمن لحقوقهم. ولقد انتهت هذه الاتحادات البلدية إلى نتيجة مزدوجة: تتمثل في إحدى الحالات في فتح عهد بالتحرر، يحدد به السيد أو يلغى جزئياً بعض سلطاته على منطقة نفوذه الإقطاعى، وتتمثل في حالات أخرى في إقامة استمراطية بلدية، أو قنصلية، تكون حقوق سيادتها مساوية، وفى الغالب متافئة، لحقوقه هو؛ كما أن الإلتجاء إلى الحماية المباشرة لصاحب السيادة العليا، وهو الملك، ساعد هذا الأخير، وفى كل مكان تقريباً، على أن يعيد إدخال تابعيه الثائرين إلى نطاق طاعته، ويأخذ من التابعين الخاصين به؛ فتتج عنها بهذه الطريقة، أن نشأت، فى مناطق نفوذ كبار السادة فى الأقاليم، وفى أقاليم التاج، سلطة مركزية قوية، وإدارة منتظمة، أبعدت أهالى هذه المناطق عن كثير من أعمال العنف والطغيان المحلية، وفى نفس الوقت، فقدت التقاليد الإقطاعية جزءاً من شدتها الأولى؛ فأصبحت الخدمات الفردية، وبخاصة الخدمة العسكرية، أقل صرامة فى ضرورة تطبيقها، وتحولت فى أغلب الأحيان إلى تقديم بدل مالى عنها؛ أما مناطق النفوذ التى كانت وراثية، فإنه أصبح من الممكن التصرف فيها، وبالتالي أصبح من الممكن للرجال الأحرار أن يحصلوا عليها؛ أما الحالة المدنية للطبقات الدنيا، فإنها أصبحت أقل شدة، ووجد كثير السادة أن من مصلحتهم تحرير عبيد أراضيهم، وتحويلهم إلى عمال لإجراء، أو على الأقل تقليل شروط العبودية بالتخلي عن حق السخرة. وأخيراً فإن الحروب الإقطاعية أخذت شكلاً أقل بربرية، تحت تأثير نظام الفروسية، وأصبحت أكثر ندرة، نتيجة محاولات السلام المتعددة التى كانت الكنيسة تقوم بها.

وقلت هذه التعديلات المختلفة التى أدخلت على النظام الإقطاعى، إلى درجة

كبيرة ؛ بعض مساوئه ، وأعطته منذ منتصف القرن الثاني عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر ، قوة وإزدهاراً جديدين . ولكن هذا النظام كان يشتمل على مساوئ في أصل تكوينه . ولم يكن من السهل إختفائها إلا مع إختفائه . وكان المجتمع الفرنسي ، منذ ثلاث قرون مضت ، وقد ضاعف إمكاناته المادية ، وأصبح أكبر إستنارة ، وعلم بوضوح أكثر بحقوقه ومصالحه ؛ وبحث عن تنظيم إجتماعى وسياسى جديد يستجيب ، بدرجة أكثر من النظام الإقطاعى ، لاحتياجاته الجديدة . وإعتقد أنه قد وجدها فى ملكية أسرة كابيت . وفى خلال القرن الثاني عشر ، أخذت الملكية فى فرنسا الإقطاعية مركزاً مسيطراً . وكان كل من لوى السادس ، ولوى السابع ، وفيليب أغسطس ، قد تمكن شيئاً فشيئاً ، من الحصول على إعتراف بسلطته ، ليس فقط من جانب صفار السادة فى مناطق النفوذ الخاصة بهم شخصياً ، ولكن كذلك من جانب معظم كبار بارونات المملكة ، وتمكنت الملكية ، ونتيجة للتأييد المهنوى ، وللوارد المادية التى وجدتها فى مناطق نفوذ السادة الدينيين فى شمال ووسط فرنسا ، من أن تقضى على حركات المعارضة المحلية ، وتمدد وتوحد أراضيها . وتجمع حولها قوات كافية ، لئلا تبرر بها إدعاءاتها للحكومة العامة للمملكة . وظهر الملك ، فى شخص فيليب أغسطس ولوى التاسع ، أمام الطبقات الشعبية ، والكنيسة ، وجزء من النبلاء أنفسهم على أنه الحامى ، المقرر الأعلى للعدالة ، والذى يجب أن يلجأ إليه كل من يقاسى من قهر السادة الإقطاعيين ، وكل من لم يجد ضماناً بالأمن وبالسلم العنان إلا فى إعادة سلطة مركزية ، تفرض سلطتها الفعلية على كل مناطق السادة الإقطاعيين فى المملكة . وكان هذا هو السبب الذى جعل كل القوى الإيجابية للامنة تتحول ، منذ أواسط القرن الثالث عشر ، وبدرجة أكبر من الإقطاع ، صوب ملكية أسرة كابيت ؛ وهى التى لم تهمل ، من جانبها ، أية وسيلة لجذبهم إليها ، ولضمهم .

وهكذا نرى أن العدو الرئيسي للنظام الإقطاعي كان هو السيادة الملكية . ولقد إستمر الصراع الذي نشب واضحاً بين هاتين القوتين ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، زمناً طويلاً ؛ إذ أن النظام الإقطاعي كان مرتبطاً بجذور عميقة متوغلة في تعمقها داخل المجتمع . ولكن الملكية كانت تستند إلى مواردها التي تحصل عليها من أراضيها ، وإلى التأييد الذي تحصل عليه ، من خارج أراضيها ، عند البورجوازية ، وعند الموظفين ، وحتى عند جزء من النبلاء التابعين ، في مناطق النفوذ الكبرى ، وإلى أنها ستعطي للمجتمع الفرنسي شكل حكومة تتناسب بدرجة أحسن مع آماله ، وساعدها كل ذلك على أن تقتصر . مع ذلك ، فعلينا أن نلاحظ أن ما كان الملوك يحاربونه في نظام الإقطاع ، كان هو مجرد سلطته ونفوذه السياسي ؛ وإن ما انتزعه منه كان يتمثل في ذلك الجزء من السيادة التي كان يحتفظ بها على حساب سلطاتهم ، ولكنهم لإحترموا ، وزادوا حتى معظم الحقوق الاجتماعية الخاصة به ، وتركوا له معظم الحقوق الإدارية التي كان يمارسها في منطقة نفوذه ؛ أي أنهم بالاختصار قد أنزلوه من منزلة الطبقية الحاكمة ، ولكنهم لإحتفظوا له بمستوى الطبقات المتبينة . ذلك أن ملكية أسرة كابيت ، وكانت نتاجاً مثل النظام الإقطاعي ، لمجتمع أرستقراطي ، وافقت على كل التميزات وعدم المساواة . مدامت لإتمثل عقبة أمام سلطتها الطاغية . ولم يكن الهدف الذي سعى إليه الملوك المتتالين ، من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر ، هو تحطيم النظام الإقطاعي ، ولكنه كان يتمثل في أخذهم مكانه ، ووضع أنفسهم بدلاً من السادة الإقطاعيين في ممارستهم لحقوق السيادة ، وأن يبتاعوا أنفسهم كل مناطق النفوذ المحلية ، لكي يكونوا منها سلطة موحدة ، وكانت طبيعتها ، في جوهرها ، هي نفس طبيعة السيادة السابقة . وبعد وصولهم إلى تحقيق هذا الهدف ، لم يفكروا في إصلاح حالة الملكية العقارية ، ولعدم المساواة الموجودة بين الطبقات ، والتي كانت تميز النظام الإقطاعي ، والتي إستمر النبلاء في الاستفادة منها . ولذلك فإن

النظام الإقطاعي ، رغم تحطيمه كسلطة سياسية ، قد إستمر ، كنظام إجتماعي ، حتى نهاية الملكية القديمة في فرنسا ، ونشوب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

٥ إزدياد قوة الملكية :

وكانت الضربة الأولى التي وجهها النظام الملكي للسلطة السياسية للإقطاع في فرنسا ترجع إلى أواسط القرن الثالث عشر . ورغم أن المشغولية الرئيسية للبلوك كانت تتمثل في أن يفرضوا سيادتهم الفعلية على كبار التابعين ، إلا أنهم لم يتراجعوا عن الاستناد إلى الامتيازات التي كانت ترجع إليهم ، وبصفتهم ورثة للملكية التقليدية ، ونجد أن تجدد الدراسة في القانون الروماني ، ونشاط المشرعين ، عملا على تدعيم حقوق الملك ، ودفعها في طريق السلطة المطلقة . وكان من حق الملك ، كمشرع ، أن يقلل أو يلغى حقوق السيادة الخاصة بالسادة ، كلما استدعى أمن الأمة ، أو مصلحتها العامة ، ذلك . وعمل ملوك فرنسا على إلغاء أو تحديد حق الحرب الخاصة ، في أراضيهم أولا ، ثم في بقية أنحاء المملكة . ولكن مجهوداتهم لم تنجح على طول الطريق بالنسبة لهذه النقطة ، خاصة وأن النبلاء عارضوا في ذلك ، وإضطر الملك إلى التراجع في بعض الحالات .

ولكن الملوك نجحوا بدرجة أكبر في تحديد السيادة القضائية لصغار السادة ، وحتى لعدد من كبار البارونات ، وذلك بتقريرهم مبدأ إمكان إستئناف أي حكم يصدرونه أمام محاكم الملك ، إلى أن يصل الأمر إلى البرلمان . وزاد تدخل قضاء الملك في الجنايات التي ترتكب في الأقاليم ، كما أن القضاء الملكية ، وهي ما تشتمل على أي شيء يمس بالملك ، كانت وسيلة أخرى لإمتداد سلطة القضاء الملكي في كل الأقاليم .

أما من وجهة نظر الضرائب فإن ملوك فرنسا ، منذ فيليب الجليل ، قد منعوا السادة من جمع عدد من الضرائب ، دون الحصول على تصريح بذلك من الملك ؛ كما حرموا عليهم صك العملة . ومن ناحية أخرى عملت بعض المدن على أن تحصل

من الملك على وثيقة تؤكد إمتيازاتها وعمل الملك ، وعن طريق المشرعين ، على أن يكون له وحده سلطة إعطاء وثائق إمتياز المدن ، التي خرجت بهذا الشكل عن سلطة السادة الإقطاعيين ، وحظيت بحماية الملك . كما عمل الملك ، بنفس الطريقة ، على إستخلاص الأسقفيات والأبرشيات والأديرة ، من سلطة ونفوذ السادة الإقطاعيين والبارونات ، وإحتفظ بها تحت نفوذه . وأخيراً فإن المشرعين والفقهاء عملوا على نشر النظرية القائلة بأن الملك بمفرده له سلطة التشريع . ولم تكن الملكية قادرة في أول الأمر على فرض ذلك على الإقطاعيين ، ولكنها كانت توجه إليهم ملاحظات ، ونصائح ، وأوامر ، تهدف إلى تحديد سلطتهم على مر الأيام . ونلاحظ أن معظم حقوق السيادة لنبل الإقطاع قد أصبحت مهددة عند نهاية القرن الثالث عشر بحقوق الملوك ؛ كما أن واجبات تبعيتهم للملك غيرت منهم ، وقربت بينهم وبين بقية الرعايا ، ولم تعد خدمات البنس والبلاط تطلب منهم ، إلا في أحوال استثنائية ، وبطريقة شرفية ، مادام الملك أصبح يعتمد في ذلك على فقهاء القانون والمشرعين . أما الخدمة العسكرية ، والتي كان التابعين يقومون بها عن غير رغبة ، فإنها وتحولت إلى مشاركة مالية ، سمحت للملك بإعادة تنظيم جيشه على أسس جديدة ، وبأن يقلل منه العناصر الإقطاعية ، ويدفع رواتب القوات المرتفعة ، والتي كانت خدمتهم مستمرة ، وطاعتهم أكثر تأكيداً . ومن الجانب الآخر ، نجد أن الخدمات المالية وخاصة المعونة الإقطاعية ، زادت في حجمها ، وتعددت ، وأخذت شيئاً فشيئاً شكل وطبيعة الضرائب المنتظمة والسبوية . وأخيراً فإن كل من كبار وصغار الطبقة الإقطاعية قد زاد شعوراً ، وهو في أرضه ، بإزدياد السلطة المركزية حين أخذ المندوبون في مراقبة أعمالهم ، وإستولوا على حقوقهم ؛ وأخذوا منهم الرجال الحكي يضعوهم تحت سلطة الملك ؛ وكان توغلهم بطيئاً في كل مكان ، ولكنه كان مستمراً ؛ وتوغلت معهم مبادئ وممارسة ووضع أسس ونظام الملكية .

ولم يكن الإقطاع العلماني هو الذي أصيب وحده في حقوقه السيادية . ذلك أن الأرستقراطية الكنسية ، والتي كانت دائماً على علاقات وثيقة بالسلطة الملكية ، والتي كانت مشروعات السادة العلمانيين وعداوة المدن قد أجبرتها في غالب الأحيان على طلب تدخل الملك ، شعرت في أثناء القرن الثالث عشر بأن إثمرا ف الملك عليها يتقل كاهلها ، ويحدد من إستقلالها . وإحتفظ الملك لنفسه بحق الإشراف على انتخابات رئاسات الأسقفيات والأبرشيات ، التي خرجت من سيطرة مقاطع نفوذ كبار الإقطاعيين والبارونات ، علاوة على ما كان منها تحت إشرافه من قبل ؛ كما أنه بدأ في إخضاع أحكام مجلس الأسقفيات والأبرشيات لسلطة البرلمان ، مع الحق في الإستئناف كذلك في باريس ؛ والسماح للقضاة الملكيين بالتدخل لوقف أى إنحراف يقوم به رجال الدين . كما أن الملوك أخضعوا كل الكنائس لضريبة شبه دائمة ، وبدعوى حاجة الدولة إليها ، سواء بموافقة الجبابا ، أو ضد رغبته . وكان مندوبو الملك يستخدمون العنف أو السياسة لتقليل قوة هؤلاء السادة الكنسيين ، والاعتداء على حقوقهم القديمة ، ولكي يستخلصوا منهم السيطرة على بعض الأراضي التي كانت تحت إشرافهم .

وكذلك شهد السادة الأرستقراطيون في المدن ما ساعدهم غيرهم من الإقطاعيين ، من إزدياد سلطته الملكية . ولم يشجع الملوك ، أن يوافقوا على ، تلك الحركات التي ظهرت في المدن في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، والنصف الأول من القرن الثالث عشر ، إلا حينما رأوا فيها وسيلة لزيادة موارد دهم الضرائمية والعسكرية ، وسيلة لتقليل نفوذ كبار رجال الإقطاع . وعمل الملوك بكل إصرار على أن يحطموا ، وفي جميع أنحاء المملكة ، سلطة السيادة السياسية للمدن ، والبلديات ، باعتبار أنها إحدى العقبات الكأداء التي تقف في وجه إمتداد السلطنة الملكية . فنزعوا عنها إستقلالها الما . بحرمانها من جمع الضرائب والتصرف في أراضيها ، وعقد القروض بدون تصريح ، وفرضوا رقابة على حساباتها . كما

خرموا من الإستقلال العسكري بإخضاع جندهما للضباط المكيين ؛ ومن الإستقلال القضائي بتحديد إختصاصات قضاتها ، وبالسماح للبرلمان بالنظر في إستئناف الأحكام الصادرة من قضاء المدن . كما عملوا على خرابها بفرض الضرائب الباهظة والغرامات الكبيرة عليها ، وأفادوا من صراعاتها ، الناتجة عن أزماتها المالية ، بين الأرستقراطية البورجوازية ، وبين أفراد الشعب ، للتدخل في شئونها ، وإلغاء إمتيازاتها وحقوق سيادتها ، وفي صالح النظام الملكي .

ولقد تمت عملية قضاء الملكية على الحقوق السياسية وحقوق السيادة للسادة والبارونات الإقطاعيين عبر سنوات ، طويلة ؛ وحاول فيها السادة أن يقاوموا ، ولم يتنازلوا عن أى حق من حقوقهم بسهولة ، بل نتيجة لاجرمهم عن الاحتفاظ بها تبعاً للظروف الموجودة . وكم من مرة حاول السادة الإتحاد مع أبناء المدن ضد الملك ، أو الإتحاد إقليمياً مع بعضهم ضده ، ولكن بلا جدوى . وشهد أواسط القرن الرابع عشر عمليات المقاومة هذه ، وإن كان خط التطور العام لم يكن في صالحها .

وهذا تمكن النظام الملكي من أن يزيد من قوته ، وبشكل يساعد على سرعة تدعيمه ، كسلطة مطلقة ، مرتبطة بالأوطان ، في كل بلد من البلاد الأوربية ؛ وبشكل لم يكن له وجود في العصور الوسطى ، مع فكرة وحدة الأمبراطورية ؛ وكان هذا هو أحد أسس ظهور الملكيات في العصر الحديث .

الفصل الثاني

الصراع بين البابوية والامبراطورية

في الوقت الذي انتصر فيه النظام الملكي على السادة الاقطاعيين في غرب أوروبا ، وأكدوا فيه سيطرتهم الفعلية ، والاقتصادية والعسكرية على أقاليمهم ، حاولت البابورية ، في شخص بونيفاس الثامن ، أن تستعيد سلطتها «الشيوقراطية» على الماوك ، وكان هذا سبباً أساسياً لوقوع صدام بينها ، كصاحبة الكرسي الرسولي ، ووارثة القديس بولس ، وبين ملوك أوروبا . الأمر الذي أدى إلى طرح الخلاف علناً ، للنقاش ؛ ولم يكن ذلك في صالح «القليديين» ، بل في صالح القوى الفعالة النامية. فانهزمت البابورية ، وفي صالح الأسرة المالكة في فرنسا ، وخاصة بعد مشكلة جماعة فرسان المعبد ، وكانت هذه هي فترة الأسر البابلي ، الذي أقام فيه البابوات في أفينيون ، في فرنسا ، والتي تميزت بضعف البابورية ، وكذلك بضعف الامبراطورية ؛ وهي التي ستمهد بفتح الباب على مصراعيه ، المناقشة ماعية البابوية ، وسلطانها ، وتصرفاتها ، وتقاليدها ؛ ذلك الباب الذي سيؤدي بالعالم المسيحي الغربي إلى الوصول إلى الإصلاح الديني فيما بعد .

١ - الخلاف بين بونيفاس الثامن وفيليب الجميل :

أفادت فرنسا ، منذ السنوات الأولى من عهد فيليب الجميل ، من تقدمها عن الممالك المسيحية الأخرى ، ونظمت سياستها ويشريعاتها ، ووضعت أسس المملكة المستبدة . وفي نفس الوقت ، ظهر أحد البابوات الذي تمكن من أن يعمل من أجل تحقيق إدعاءاته «الشيوقراطية» . فبدأ الصراع بين مملكة فرنسا وبين البابورية التي حاولت فرض سيطرتها العالمية ، وكان هذا الصراع من أهم موضوعات الفترة

التي تمتد منذ نهاية القرن الثالث عشر ؛ والذي كانت أهم شخصياته ، في هذه المرحلة ، هي فيليب الجميل وبونيفاس الثامن .

وكان عرش فرنسا قدام ، منذ سنة ١٢٨٥ ، إلى فيليب الرابع ، المعروف باسم الجميل ؛ وكان له سبعة عشر عاما ، ولم يكن أحد في ذلك الوقت يعلم أويتنبأ بأنه سيقوم بأعمال هامة ، تثبت له في التاريخ . ونظر إليه المعاصرون ، في أول حكمه ، على أنه ملك هادىء وضعيف ، يهتم بالصيد ، ويهمل شئون الحكم ، ويترك شئون الدولة لبعض رجال الحاشية . ولكنه كان أميراً واقعياً ؛ وبدلاً من أن يعتمد على الحملات العسكرية ، فضل استخدام السياسة ، مع عمليات الخداع . وكان يحذر كبار السادة الاقطاعيين ، وكذلك فقهاء القانون الذين كانوا يشكلون مجلسه ؛ وفضل عليهم مجموعة من رجال القانون الذين كانوا قد أظهروا ، منذ عهد لوى التاسع ، وبمساعدة القانون الرومانى ، النظرية السياسية للمملكة . وكانوا جميعاً من رجال الطبقة الثانية ، ولكنهم ساعدوه على وضع آماله موضع التنفيذ . وبدأ فيليب الجميل عهده بتصفية مغامرة أراجونا التي كانوا قد أوقفوا والده فيها . وساعده على ذلك إدوارد الأول ، ملك إنجلترا ، الذى كان قد حافظ على حياده في هذه الحرب ، وأصبح له بالتالى دور الحكم . وانتهت هذه العملية سنة ١٢٨٧ بأن وعد ملك أراجونا بعدم التدخل فى الشئون الإيطالية ، وذلك فى اوقت الذى احتفظ فيه أخوه بحكم صقلية . ولكن البابا رفض التصديق على هذه الاتفاقية ، فكانت القطيعة بين البابوية وفيليب الجميل ، الذى فاوض وضرب عرض الحائط بموافقة خليفة القديس بولس ، وفى سنة ١٢٩١ ، اقترح ملك فرنسا اتفاقية جديدة ، كانت شروطها تتفق مع شروط اتفاقية سنة ١٢٨٧ .

ولقد استند فيليب إلى الهدوء الذى ساد من جانب اسبانيا ، وإلى السلم المؤقت مع إنجلترا ، وعمل مع مستشاريه على تنظيم وتدعيم السلطة الملكية . ومع ذلك فعلمنا ألا ننظر إليه كمنجد جريء عمل على تحجيم الاطارات القديمة ، وبناء نظام

جديد : فلقد ظلت الإقطاعية نشطة ، وأكدت حقوقها في ممارسة العدالة ، واهتجت على الانتهاكات التي مارسها الملك وضباطه داخل مناطق نفوذهم الإقطاعية ؛ كما أن رجال الدين حاولوا الاحتفاظ بامتيازاتهم المستقلة ، وبمقهم في جمع الضرائب ، وتمكنوا في سنة ١٢٩٠ من أن يحصلوا على ميثاق يؤكد هذه الامتيازات . ولكن المرسومات الملكية عملت على إلغاء أرواح التي قطعت رسمياً ، وجاءت الظروف والضرورات الاقتصادية لكي تؤكد نتائج التغييرات السياسية ، ودفعت المملكة إلى أن تأخذ ، شيئاً فشيئاً ، وضعاً أكثر وضوحاً ، في مواجهة التقاليد الإقطاعية التي كانت لا تزال قوية .

وزادت أهمية القصر الملكي ، الذي صدرت اللوائح العديدة لتنظيمه ، والذي ازداد عدد الموظفين والحجاب والأمناء والكتاب فيه ، والذي أصبح مدرسة يتخرج منها كبار رجال الدولة ، رغم أنهم كانوا متواضعين في أصلهم ؛ وذلك في الوقت الذي تدخل فيه ضباط الملك ومندوبيه في مناطق نفوذ كبار السادة الإقطاعيين ، وأصبحت القضايا تعرض على العدالة الملكية ، بدلا من يحكم فيها السادة الإقطاعيين .

وظهرت إلى جانب القصر الملكي مؤسسة جديدة هي البرلمان ، ولم يعد الملك يرأس هذه المنصة الكبيرة ، التي تأخذ شكل المحكمة ، بل ترك لبعض البارونات والأشخاص العاديين رئاسة هذا الاجتماع ، الذي كان شيئاً يختلف عن بلاط الملك ، وأصبح البرلمان يضم قضاة علمانيين أو كتاب ، يحملون لقب مستشارين ، ويحتمعون فيه بشكل مستمر ، ويحيط بهم الكثيرون من رجال القانون ، ولم تعد هذه المحكمة تتبع الملك في تنقلاته ، بل أصبحت مستقرة في باريس ، في القصر الملكي القديم الموجود في وسط المدينة ، في قصر لوى التاسع ، جد الملك ، وفي الأماكن التي نظمها لها . وكانت تجتمع في دورات نظامية ، دورتان أو ثلاث دورات في العام ، تستمر كل منها لبضعة أشهر ، وأصبح هذا البرلمان ينظر في

استئناف الأحكام التي ترد له من جميع أنحاء المملكة ، وتقدم إليه كل تابع ساءت علاقته بسيده ، ووجد فيه أذانا صاغية ، من قضاء الملك ، ضد كبار السادة الاقطاعيين ، وكان هذا تدعيماً لسلطة الملك ونفوذه قداموناً ، على حساب سلطة كبار السادة الاقطاعيين .

وفي الميدان المالي والاقتصادي ، وجد فيليب أن البابا كان قد فرض العثور على رجال الدين الفرنسيين ، وجمعها في صالح ملك فرنسا ، أثناء حرب أراجوناء ، فصمم الملك بعد نهاية هذه الحرب ، على الاستمرار في جمع هذه الضرائب ، وحصل من البابا سنة ١٢٨٨ على تصريح بالاستمرار في جمعها لمدة ثلاث سنوات الأمر الذي دعم خزينة الملك ، في الوقت الذي زاد فيه ضعف كبار السادة الاقطاعيين هذا من ناحية الملكة .

أما فيما يتعلق بالبابوية ، فإنها كانت قد نرجت مضغضة القوى من مغامرة صقلية ، ولم يتمكن البابوات الضعاف ، بعد سنة ١٢٨٥ ، من التخلص من هذه الحالة . وفي سنة ١٢٩١ فقد المسيحيون عكا ، في الأراضي المقدسة ، دون أن يتمكن البابوية من إحيولة دون ذلك . كما ظهر ضعف البابوية في إعطاء عرش الجرجار شرحها أمام خصومه . ولم يعد العالم المسيحي يحترم البابوية كما كان من قبل ، وتقلص نفوذها في إيطاليا نفسها ، وأخذت الكنائس الوطنية تتحدث بحرية أكثر . ورفض الفرنسيون الخضوع التام للكرسي البابوي سنة ١٢٨٣ في باريس ، وطالبوا بإعطاء الاساقفة سلطة الحل والعقد . وحدث كل ذلك في الوقت الذي تدعمت فيه سلطة فيليب الجميل ، وسلطة عرشه ، بشكل واضح .

ولقد ضعفت سلطة رجال الدين ، وانغمسوا في المؤامرات ، وتحكم الملوك في المكديسة في كل مكان . وظهر أن سياسة البابوية في صقلية ، وفي شؤون ألمانيا ، وفي الجرجار ، تهدف إلى السيطرة على العالم ، والسيطرة على الامراء . وكان الأمر يحتاج إلى شخصية قوية لأحد البابوات ، يمكنها أن تعيد النفوذ البابوي إلى ما كان

عليه . وكانت هذه الشخصية تنمو وترتفع على سلم رجال الدين ، وهي تتمثل في بنوا كيتاني الذي عمل مع عدد كبير من البابوات . وكان طموحاً ، ويرغب في الاحتفاظ بالامتيازات الديرية ، وظهرت كفاءته في تلك البعثات الدبلوماسية التي كلف بها . وكان هو الشخص الذي أوصى البابا في سنة ١٢٩١ بتقطع المعونة عن ملك فرنسا . وحين إنتخب للبابوية في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٩٤ أصبح لإسمه نونيفاس الثامن . وبدأ بابويته بإلقاء القبض على البابا السابق ، الذي كان قد عزل ، وإحتفظ به في السجن حتى وفاته سنة ١٢٩٦ . وكان هذا الأمر ، تجاهه من حظي بالقدسية ، يعتبر ظاهرة خطيرة .

وعمل بونيفاس الثامن ، بمجرد وصوله لكرسي البابوية ، على تأكيد تفوق البابوية على أمراء العالم . وأعطى نفسه سلطة التدخل سنة ١٢٩٦ ضد ملكي إنجلترا وفرنسا ، لوقف الحرب القائمة بينهما ، وعلى أساس أن الحرب بين المسيحيين وبعضهم خطيئة ، وفرض عليها السلم ، الأمر الذي أدى إلى ردود فعل من جانب ملك فرنسا . وكان ملك فرنسا قد حصل على مساعدة من رجال الدين الفرنسيين له في حربه ضد إنجلترا . تتمثل في دفع ضريبة العشور له لمدة عامين . وحاول أن يجددها في سنة ١٢٩٦ ، فاشتكى بعض رجال الدين الفرنسيين الأمر للبابا ، وتدخل بونيفاس الثامن بشكل قاطع ، وحرم عليهم دفع أية معونة له دون تصريح من الكرسي البابوي . ولم يكن في هذا القرار أي جديد ، كما أنه كان قراراً عاماً ، حتى وإن كان يهدف لملك فرنسا وإنجلترا . وكان رد فعل الدولتين عنيفاً . ففي إنجلترا ، رفض رجال الدين دفع المعونة ، فقام إدوارد الأول بالإستيلاء على أملاك الممتنعين ، وأجبر الاساقفة على دفع المعونة المطروبة . وفي فرنسا قام فيليب الجميل بعملية إنتقام ، ومنع تصدير الفضة والذهب ، وحرم البابوية من الموارد الهامة التي كانت تصلها من رجال الدين الفرنسيين . وظهرت نظرية تناقض العلاقة بين رجل الدين والفارس ، وتهاجم الامتيازات الكنسية ،

وئذ لعل على تفوق المجتمع العلماني على بجموع رجال الدين ، وتظهر أن الواجب الوطني عليهم مساعدة الملك وقت الخطر . وأمام هذا الموقف اضطرت بونيفاس إلى التراجع ، وإلى الاعتراف للملك بالحق في أن يقوم وقت الحاجة والضروة ، بفرض ضرائب على الكنيسة ، دون إستئذان الكرسي البابوي وأعلن في نفس الوقت قدسية لوى التاسع ، إمبرضاء الاسرة الحاكمة في فرنسا .

وجاء عام ١٣٠٠ الذي حجب فيه ما يقرب من مائتي ألف حاج إلى روما ، وجاءوا من جميع أنحاء أوروبا ؛ وشعر البابا ، وسط هذه الاحتفالات ، أنه يحكم العالم . وأخذ يتدخل في شؤون الممالك ، سواء في صقلية ، أو ضد الألمان أو المجر ، الذين قاموا بانتخاب إمبراطور وملك دون موافقته . وأعلن في ١٧ أكتوبر سنة ١٣٠١ : « إن الله قد رسم البابا فوق كل الملوك والممالك ، لكي ينزع ويحطم ويهني ويغرس » ؛ وظهرت في كتاباته إتجاهات لجعل النظام الشيوقراطي محتوي العقيدة الديقية ، ويصبح أحد أسس العقيدة نفسها . ولم يغفر لحكومة فرنسا إعتدائها على حريات رجال الدين ، وبدت القطيعة مع فرنسا واضحة في الأفق .

وحدث في ذلك الوقت أن تم التحقيق في باريس مع أحد الاساقفة ، بشبهة إهانته ملك فرنسا ، والتفاوض سرآ مع إنجلترا . وكان هذا التحقيق أمام الملك ، وثبتت الخيانة على الأسقف ، وعهد به إلى رئيسه ، رئيس الاساقفة . إنتظاراً لإطلاع البابا على ملف التحقيق ؛ فثارت نائرة بونيفاس الثامن ، خاصة وأن هذا الأسقف كان من المقربين إليه ؛ وألغى كل الميزات التي كانت قد منحت لملك فرنسا ؛ وأرسل إليه مرسوماً مليئاً بالاتهامات له ، ولشكل ملوك الاسرة . ولم يقتصر الأمر على إحتجاجات البابا على نقض الإمتيازات الممنوحة لرجال الدين ، بل فضح الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة الزمنية للمملكة ، من قهر الرعايا ، وتغيير قيمة العملة ؛ وذكر أن الله قد وضع البابا فوق كل الامراء ، وأن عليهم جميعاً أن يطيعوا راعي المسيحية ؛ وأبلغه أن مجلساً سينعقد في روما في العام التالي ،

ويمكنه أن يحضره أو يرسل له مندوبين عنه. وأرسل إلى رؤساء الكنيسة الفرنسية للاشتراك في هذا المجلس ، حتى يتشاوروا مع البابا في أمر المحافظة على حريات الكنيسة ، واصلاح المملكة ، والملك ، وحكومة فرنسا .

ونشر خطاب البابا في شكل مشوه ، أثار حنق الفرنسيين . وقام الكتاب بالدفاع عن ملك فرنسا ضد البابا ، وناقشوا حقوق البابوية ، وذهب البعض إلى أن موقف البابا يمثل نوعاً من الهرطقة . وجمع الملك ممثلي الطبقات الثلاث : النبلاء ، ورجال الدين ، والطبقة الثالثة ، في باريس يوم ١٩ أبريل سنة ١٣٠٢ ؛ ودافع الموجودون عن الملك ، في جو ساد فيه الخماس . وكتب الممدون ، وكذلك النبلاء ، إلى البابا بخطابات تميزت بالوقاحة ؛ وطالبت بالتراجع عما قرره تجاه الملك ؛ واشترك رجال الدين في ذلك ، دون أن يتخلوا عن إحترامهم لرئيس الكنيسة . ومنع الملك رجال الدين من الاشتراك في المجلس الذي سيعقد في روما ؛ ولكن ذلك لم يؤثر في موقف بونيفاس الثامن ، إلا لكي يزيد صلابة . وكتب مؤيدوه يشرحون سلطته ، ويكتبون عن الحكومة المسيحية ، وعن سلطة الملك وسلطة البابا ؛ وذهب البعض إلى ضرورة عزل الملك فيليب . وأكد الجميع أنه ليس للكنيسة سوى رئيس واحد ، هو السيد المسيح ، خلفه المرسل ؛ وأن هناك صولجانين . الأول روجى للبابا ، أما الزمى فيستخدمه الملوك طبقاً لرغبة البابوات ، وأن السلطة الروحية هي التي تحكم السلطة الزمنية ، ولا يحكمها سوى الله . ورفضوا فكرة إستقلال السلطتين الزمنية والروحية عن بعضهما ، أو إنفصالهما ، وأكدوا أن خضوع كل البشر لسلطة البابا هي ضمان السلام . وهكذا تعدى بونيفاس الثامن كل مدى كان قد وصل إليه أى بابا آخر من قبيل ، إذ أن أى منهم لم يكن قد وصل به الحد إلى أن يضح سيادة روما كأساس من أسس العقيدة .

ولقد اضطر فيليب إلى إستخدام السياسة ، ولم يمنع رجال الدين من الذهاب إلى مجلس روما ، الذي أصدر إنذاراً للملك ، وفي أسلوب معتدل ؛ وحول الخلاف

إلى تحكيم أمام دوق برجنديا ، وكونت بريثاني .
وأدت هذه الخصومة ، مع الحجج التي ذكرت من هذا الجانب أو ذاك ، إلى
إضفاف مركز الكنيسة بشكل واضح .

٢ - هزيمة البابوية ، والتفكك الديني والسياسي : -

عهد الملك إلى أحد فقهاء القانون في جامعة تولوز بالدفاع عنه ، ولكنه فضل ،
على الدفاع ، أن يقوم بمهاجمة البابا نفسه ، وعلى أساس أنه قد إغتصب البابوية ،
وإرتكب الكثير من الجرائم . ومهد بذلك للوصول إلى أن السلطة البابوية
الحقيقية أصبحت مهددة ، وأن على ملك فرنسا أن يدافع عن مصالح الكنيسة ، وذلك
عن طريق جمع مجلس ديني ، من أجل إعادة السلام إلى العالم المسيحي . ووافق
ملك فرنسا على هذه الخطة ، في ٧ مارس سنة ١٣٠٣ ؛ وفي يوم ١٢ لإجتماع في
قصر الزفر كبار رجال الدين والبارونات ، تحت رئاسة فيليب ، وطالبوا بنقل
البابا إلى أحد السجون الملكية ، ومحاكمته أمام ممثلي الكنيسة العالمية . وحاول البابا
أن يجمع حوله بسرعة عدداً من الأصدقاء ، وصمم فيليب من جانبه على جمع
المجلس الديني ، وذهب المندوبون إلى البلاد لجمع موافقة رجال الدين على ذلك .
وفي إيطاليا نفسها ، قامت حركة ضد البابا ، وفي ٧ سبتمبر ، هاجم بعض الرجال
المسلحين القصر البابوي ، ونهبوه ، ووصلوا حتى البابا نفسه ، وأهانوه . وأعلن
قادتهم له أنهم سيقدمونه أمام المجلس الديني ؛ وقبضوا عليه ، ووضعوه تحت
الحراسة . وكان من الصعب نقل البابا عبر كل إيطاليا والذهاب به حتى ليون .
ولم تكن هذه العملية أثمرت في هذا الشيخ ، الأمر الذي أدى إلى وفاته يوم ١١
أكتوبر . ودلت هذه العملية ، بنهبها ، وعدم إحترامها لكل القيم الموجودة
في ذلك العصر ، على حدث هام في تاريخ الكنيسة ، وأدت إلى قلة ثقة الناس فيها
وساعدت على هزيمتها .

وبدلاً من أن يعلن الكرادلة عدم موافقتهم على ما قام به الملك ، إختاروا

أحدهم لشغل منصب البابوية . وأظهر هذا البابا الجديد رغبته في مصالحة فرنسا ، وألقى كل ما كان البابا السابق قد أصدره ضد ملكها . ولكن هذا البابا الجديد ، وهو بنوا الحادى عشر ، توفى في ٧ يوليو سنة ١٣٠٤ ، وترك المشكلة قائمة . وظل الكرسي البابوى خاليا لفترة من الزمن ، تميزت بحدة المشاعر ، وبانقسام الكرادلة على بعضهم خلال ما يقرب من عام بين مؤيدين لذكرى بونيفاس ومؤيدين للملك فرنسا . وكانوا لعبة في أيدي الدبلوماسية الفرنسية ، إلى أن نجحت في توصيل رئيس أساقفة بوردو إلى الكرسي البابوى ، باسم كليمنت الخامس ، في شهر يونيو سنة ١٣٠٥ . وكان تابعا لكل من ملك إنجلترا وملك فرنسا ، الأمر الذى كان يمثل انتصارا للدبلوماسية الفرنسية .

وجاءت مسألة محاكمة فرسان المعبد لى تثبت من جديد هيمنة البابوية أمام ملك فرنسا . وكانت لجماعة فرسان المعبد ذكرى حافلة ، وتاريخ قديم ، وإن كان سبب وجودها قد انعدم بعد فقد المسيحيين للأراضي المقدسة في نهاية الحرب الصليبية ، وكانوا قد التجأوا إلى أوروبا ، ومعهم ثروات ضخمة ، وقاموا بعمليات المصارف التى ساعد عليها انتشارهم فى جميع أنحاء أوروبا . وكان لملك فرنسا نفسها حسابا جاريا لدى معبد باريس ، كانت تستخدمه من أجل توحيد إيراداتها ، ودفع نفقاتها . ومن الصعب تحديد الأسباب التى دفعت بفيليب الجميل إلى تغيير موقفه من هذه الجماعة فى ١٣ أكتوبر سنة ١٣٠٧ بعد أن كان قد منحهم ثقتهم .

وبما لا شك فيه أن ثروة هذه الجماعة برقوتهم المالية كانت سببا فى الحقد عليهم ، فأساء الناس تفسير حفلات التكريس التى كانوا يقيمونها لهم الأعضاء الجدد ، واتهموهم بممارسة مالا يوافق عليه المجتمع . فهل كان فيليب الجميل يرغب ، تحت وطأة الضائقة المالية فى الاستيلاء على ثرواتهم ؟ أو كان يرغب فى كسب الرأى العام على أساس حمايته للعقيدة ؟ وعلى أى حال فإن الاتهامات تزايدت ضد هذه الجماعة ، ونقلت هذه الاتهامات إلى كليمنت الخامس ، الذى لم يعرها الإلتفات

اللازم ، ثم أمر بالتحقيق فيها في شهر أغسطس سنة ١٣٠٧ . ولكن سرعان ما صدرت العظابات الملكية في ١٣ ، ١٤ أكتوبر بالقاء القبض على كل فرسان المعبد ، وبمصادرة ممتلكاتهم . ودلت الاتهامات العنيفة التي وجهت إليهم على أن مملكة فرنسا كانت ترغب في القضاء على هذه الجماعة تماماً . وتم التحقيق مع الفرسان وكذلك تعذيبهم ، وحصلوا منهم على إقرارات صريحة وربما كانت هذه الإقرارات نتيجة لاعتقادهم فيما ذكره المحققون ، من أن الاعتراف بما ينسب إليهم سيكون أساساً للإفراج عنهم .

ووجد البابا نفسه أمام الأمر الواقع ، نتيجة لتصرف ملك فرنسا ، فاحتج ، وحاول أن يكسب الوقت ، وأمر بالإستيلاء على ممتلكات الجماعة في كل العالم المسيحي ، ووضعها في حماية السكينة ، حتى يمنع بقية الملوك من التصرف بطريقة ملك فرنسا ، وأمر محاكم التفتيش بالتحقيق مع فرسان المعبد ، الأمر الذي أثبت ممارسة التعذيب ضدهم .

بدأ فيليب الجميل حملة من المقالات هاجم فيها شخص البابا وسياسته . ثم جمع مجلساً من النبلاء ، وافق على سياسته ؛ وذهب لمقابلة البابا وأظهر علناً عدم موافقته على سياسته تجاه الجرائم التي ارتكبتها المتهمون ، وتراجع البابا وأمر بالتحقيق مع الجماعة نفسها . وكان في وسع الملك وسلطاته المحلية ، أن تؤثر على سير التحقيق . وأصدر أحد المجالس الذي جمعه الملك حكمه بإعدام ٤٥ فارساً حرقاً في ١٢ ماير سنة ١٣١٠ . ولم يجرؤ أحد بعد ذلك بالدفاع عن الجماعة .

ولكى يمنع الملك أي إمكانية قد تقوم بها البابوية في هذه المسألة ، ربط بينها وبين قضية بونيفاس . فاضطر البابا إلى التخلي عن جماعة فرسان المعبد لملك فرنسا نظير وقفه للشاطه في قضية بونيفاس ؛ وألقى البابا كل المرسومات البابوية التي كانت قد صدرت منذ أول نوفمبر سنة ١٣٠٠ . ونتيجة لاستمرار ضغط فيليب الجميل على البابا تمكن من أن يحصل منه على مرسوم بإلغاء جماعة فرسان المعبد في

٣ إبريل سنة ١٣١٢ ، ثم أمر بتحويل ممتلكاتهم وأموالهم إلى مجموعته الإسيقيالية ، من أجل الإعداد لحملة صليبية جديدة . وإذا كان فيليب الجميل لم يتمكن من الإستيلاء على هذه الممتلكات ، إلا أنه حصل على إيراداتها مدة عدة سنوات ، ولم يرجعها إلا نظير بدل ضخم .

وهكذا كانت نمو سلطة الأسرة الحاكمة في فرنسا على حساب ضعف الكرسي البابوي ، وعلى حساب إضعاف الحكم البابوي على العالم المسيحي . وعلمنا أن نرى من جانب آخر أن عنف فيليب الجميل ضد البابوية جعله ملكاً غير محبوب في بلاده . وجاءت وفاته في نفس العام الذي توفي فيه البابا كليمنت الخامس ، سنة ١٣١٤ . لكي ينظر الأهلالي إليها على أنها انتقام إلهي .

ولقد إستمر ضعف البابوية في الواضوح حتى بعد بابوية كليمنت الخامس ؛ وكان هذا البابا الفرنسي ، الذي أقام في فرنسا ، قد فتح للكنيسة عهداً حزيناً سمي « بفترة الأسر البابلي » . وفي كل مرة كان يرغب فيها في الذهاب إلى إيطاليا ، كان ملك فرنسا يطلب إليه ضرورة البقاء . وقد أقام أفينيون ؛ في إقليم بروفانس ، لإنتظاراً لعبور الجبال إلى إيطاليا ؛ ولكنه فشل كما فشل الكثير من خلفائه ، في تحقيق ذلك . وإمتلاء البلاط البابوي بالفرنسيين ، كما زاد عدد الكرادلة الفرنسيين المحيطين به ، حتى أصبحوا الغالبية العظمى في الكنيسة ، فأصبحت البابوية في أيدي ملك فرنسا ، وقلت هيبتها في أعين العالم المسيحي .

وكان الأكثر خطورة من ذلك هو تفكك الكنيسة نفسها ، وفقدانها سلطتها على رجال الدين أنفسهم . فلم تعد أمام الكثيرين من المسيحيين تمثل حماية العقيدة ، وظهرت بعض الإتهامات للبابوات بخيانة الإنجيل .

وظل الفرنسيون ممتسمين على أنفسهم ، وزادت ظهور الحركات الدينية في جنوب فرنسا . وعجزت السلطات الكنسية في بعض المناطق عن مواجهة هذه الجماعة التي لم تجرؤ محاكم التفتيش على إتهامها . ولكن بعض جماعات الفرنسيين كان

أصرت على ضرورة إصلاح العالم المسيحي عن طريق ممارسة الزهد ، والإبتعاد عن الثروة . وعملت على تقوية نظام مجموعتها وزيادة سلطة رئيس الجماعة ، الأمر الذى أدى إلى صدام بينها وبين المعتصمين للسلطة البابوية ، وأدى بالتالى إلى إعلان حرمانهم . ولقد قام البعض منهم بالدفاع عن أنفسهم ، بالقوة ، ومعهم بعض الأهالى ، وذهب الأمر بالبعض منهم فى منطقة بروفانس نفسها إلى إعلان عدم إعتراฟهم بسلطة الكنيسة الفاسدة . ولقد حاول بعض البابوات تفريق شملهم ، ومات البعض منهم حرقاً ، ولكنهم ظلوا ينظرون إلى الكنيسة على أنها قد تحولت إلى ملك زمنى ، وأصبح تخضع له ومن الضرورى عودتها إلى الزهد والفقير والمحبة . ولقد إنتهج البعض منهم إلى الجبال ، وأرسل البابا كليمنت الخامس ضدهم إحدى الحملات الصليبية ، التى تلتها حملات غيرها ، دون أن تتمكن من القضاء عليهم ، نتيجة لتأييد الكثير من الأهالى لهم . وانتشر الزهاد فى كثير من المناطق ، وهاجموا الكنيسة بوضعها الموجود ، وأعلنوا أنها ليست ضرورية نتيجة الأخطاء المرتكبة من القائمين عليها ؛ كما أعلنوا أنه يمكن للأهالى أن يتعبدوا فى أى مكان . وانتشر أعوان هذه الحركة فى كل مكان ، فى ألمانيا ، وفرنسا ، وفى أسبانيا ، وبخاصة فى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر ، حتى إعتقد دانتى أن بعض رؤسائهم كانوا من أتباع محمد ، أى من المسلمين .

وفى نفس الوقت الذى إزدادت فيه الخصومات مع الفرنسيسكان ، والخصومات بين البابوات من ناحية وملوك فرنسا والأمبراطور من ناحية أخرى ، ظهرت هناك حركات قوية ضد محاكم التفتيش ، وضد سلطتها ، فنع رجال الدين فى فرنسا من إصدار الأمر بإلقاء القبض على الأهالى ، كما كلفت الدولة إثنين من الأساقفة بمراجعة المحاكمات الموجهة ضد من كانوا يطالبون بالإصلاح الدينى . أى إصلاح الكنيسة . وهكذا شلت حركة محاكم التفتيش فى فرنسا ، وزادت سلطة الدولة على حساب ضعف سلطات الكنيسة .

وإلى جانب هذا التفكك الدينى ، كان هناك التفكك السياسى .
وكان فيليب الجميل قد أضعف البابوية ، ولكن ، من كان فى وسعه أن يمد
سلطته الفعلية على الغرب المسيحى ؟ لقد كانت الإمبراطورية ضعيفة وعاجزة عن
فرض سيطرتها ، ومشغولة بأمور ألمانيا ، وواجهتها مشكلات كثيرة وثورات
عديدة ، وفى كل مكان . وظهر عجز الإمبراطورية فى فرنسا ، وفى منطقة الراين ،
وزادت المنافسات على العروش والتيجان ، وعاش وسط أوربا ، فى ذلك الوقت ،
سلسلة معقدة من المحالفات ، وإتجاهات الولاء ، التى تدعمت بالعلاقات
الأسرية ، وتنافست فى نفس الوقت وتعارضت مع بعضها بالخصومات
والمنافسات ، وحتى بتغير المواقف وإعلان الثورات والحروب . وتشكلت
التكتلات ، من جانب ، ثم ظهرت تكتلات أخرى جانب آخر ، من أجل زواج
إحدى الأميرات ، أو من أجل الحصول على إمارة ، أو حتى بعض الإمتيازات .
وفى هذا المناخ ، كان فيليب الجميل يرغب فى الحصول على التاج الإمبراطورى
لأنه الأصغر ، شارل صاحب فاوا . وإستخدم كل الطرق للوصول إلى ذلك ،
من محاولة شراء بعض الأمراء ، إلى ممارسة الضغط على البابا . ولكن البابا ، رغم
ضعفه ، شعر بخطورة هذا المخطط ، وظهر عليه التردد ، ثم وافق على تعيين أحد
الأمراء ، الذى أنتخب ، وهو هنرى كونت لوكسمبورج ، فى منصب
الإمبراطورية . وبهذا العمل ، أوصل البابا أحد صغار الأمراء إلى رأس
الإمبراطورية ؛ ولم يكن يعلم أن هذا الأمير الذى سيلقب بإسم هنرى السابع ،
سيكون إمبراطوراً خطيراً بالنسبة للبابوية .

وكانت الإمبراطورية مجرد شبح فى ذلك الوقت ، ومنذ عهد فردريك الثانى .
ولكن سرعان ما ظهرت إتجاهات هنرى السابع ، الذى عمل على زيادة نفوذ
الإمبراطورية . وإحياء مطالبتها بالملك العالمى ، والإشراف على الكرسي البابوى ،
وأعاد السياسة الإمبراطورية السابقة ، وطالب بتوثيق العلاقات بين ألمانيا

وإيطاليا ، بعد أن كانت السلطة في إيطاليا قد تحولت ، منذ زمن ، من أيدي
الاباطرة ، إلى أيدي البابوات . ولذلك فإن البابا شعر ، بخطورة هذا الاتجاه ،
وعمل على تأجيل تنصيب الإمبراطور الجديد حتى بداية سنة ١٣١٢ .
وكان هناك خوف من أن يتسبب مجيء الأمير إلى إيطاليا في زيادة المشكلات ،
خاصة وأن إيطاليا كانت منقسمة على نفسها ، بين أنصار سلطة الكنيسة والبابا ،
وأنصار سلطة الإمبراطورية . واعتقد البعض ، ومنهم دانتى أن مجيء هذا
الأمير الألماني إلى إيطاليا ، سيساعد على القضاء على الخلافات . ولكن مسيرة
هنرى السابع في إيطاليا تحولت إلى حرب بين الجانبين . وبعد تنويجه بأيدي
ثلاثة من الكرادلة في روما سنة ١٣١٢ ، تفاوض مع نابلي ، وحاصر فورنسا ،
ثم اضطر إلى الاتجاه إلى بيزا ، مع فلول قواته التي لم تعد تسليح لمبارك أخرى ،
وأعلن شمال إيطاليا الثورة ضده ، ولكنه حاول في نفس الوقت أن يهاجم مملكة
نابلي في سنة ١٣١٣ ، وإن كان الأجل لم يممه ؛ ففرص ، ثم توفي في صيف
نفس العام .

وكانت محاولة فرض سلطة هنرى السابع ، كأمبراطور ، على إيطاليا ، وكذلك
محاولة السيطرة على نابلي ، وهى في نطاق نفوذ الكنيسة ، يمثل صداماً كبيراً بين
البابوية والإمبراطورية . وهكذا طرح في أول القرن الرابع عشر ، وبعد ثلاث
قرون ، أمر العلاقة بين البابوية والإمبراطورية ، من جديد . ولقد طرح في
نفس الوقت ذلك المبدأ الذى كان معروفاً ، من أن الإمبراطور يستلم التاج من
أيدي البابا ، وبشكل يمثل الخضوع للبابا كما أدعى البعض ، أو يمثل خضوع
البابا للإمبراطور ، إذ أنه كان يقول له نفس الوقت الذى يسلمه فيه التاج : إليك
يا سيدى ، كما أدعى الألمان ذلك . وكانت هذه النقطة تمثل ، علاوة على فكرة
عالية الكنيسة ، وعالية الإمبراطورية ، ذلك التنافس على السيادة العليا ، بين
السلطتين الدينية والزمنية .

ولقد أفاد كايمنت الخامس من وفاة هنرى السابع من أجل أن يحدد بعض المبادئ العامة فى هذا الموضوع ، ويثبت خضوع الإمبراطورية البابوية ، ويلغى بعض الحقوق التى كان هنرى السابع قد أعطاها لنفسه ، وخاصة تجاه ملك نابلى . وبهذا الشكل كان عهد كايمنت الخامس يمثل ضعف البابوية أمام الفكرة الملكية ، ويمثل كذلك الضعف النهائى لفكرة الإمبراطورية .

٤ - ضعف البابوية والامبراطورية :

شهدت الأجيال التى عاشت بين موت فيليب الجميل ، وبين الانقسام الكبير ، سرعة ضعف كل من البابوية والامبراطورية ، واللذان كانا يمثلان أساس نظام العصور الوسطى . وكانت السلطة البابوية تدعى لنفسها حق ممارسة سلطة زمنية على الشعوب والموك ، ولكنها كانت مهددة برغبة لدى القوى المضادة ، وبقوة مادية وضعت فى خدمة النظرية التى نادى بحرية الدولة العلمانية تجاه الإشراف الدينى . وكانت الإمبراطورية مهددة بالأمراء الألمان ، والاتحاد الإيطالية ، وبعداوة الملوك الذين لم يعرّفوا بتفوقها عليهم ، وعجز البابا والامبراطور عن الإتفاق ، وضعف كل منهم نتيجة للسرعات المستعجلة ، وأصبح الأمبراطور مهدداً بأن يفقد نهائياً سلطته على العالم المسيحى ، دون أن يتمكن من أن ينشئ فى ألمانيا ، دولة قومية ، وعجزت البابوية كذلك ، وأمام الخصومات التى واجهتها ، ورغم مجهوداتها ، من أن تنشئ إدارة تماثل إدارة الأمراء ، وتسمى المصالح المادية ، وأعطت بتزايد الضرائب المفروضة عن رعاياها ، حججاً جديدة فى أيدي خصومها .

وسرعان ما وجدت الآراء الخاصة بتفوق الكنيسة على الإمبراطورية تطبيقاً لها ، حين وجد الإبن اوحيد لهنرى السابع ، وهو حنا ملك بوهيميا ، أنه ليس له كثير من المؤيدين للوصول إلى تاج الإمبراطورية ؛ وإنقسم الناخبون إلى قسمين . وتم تتويج إمبراطور فى سنة ١٣١٤ : الأول فى بون والثانى فى إكسن لاشايل .

وتدخل البابا حنا الثاني والعشرون في هذا الخلاف ، وبشكل يدعم من سلطة البابوية تجاه الامبراطورية في تلك الازمة الكبيرة . ومرت يضح سنوات ، من سنة ١٣١٤ إلى سنة ١٣٢٠ ، تمتعت فيها البابوية بانقسام سلطة الامبراطورية المنافسة لها ، وذلك على أساس أن محاضر الانتخابات لم تكن قد وصلت بعد إلى البابا ، الذي اعتبر أن منصب الامبراطورية لا يزال شاغراً . وفي خلال هذه الفترة ، استمر الصراع بين الملوك والامراء في أوروبا ، ولانتشرت الحروب والمؤامرات . ثم تدخل البابا حنا الثاني والعشرون ، وأعلن في ١١ يوليوسنة ١٣٢٤ عدم صلاحية لويس ملك بافاريا ؛ وحاول أن يقدم ترشيح شارل الجليل ، ملك فرنسا ، للعرش الإمبراطوري . ولكن أمراء ألمانيا وقفروا ضد ذلك ، واتحدوا مع أسرة هابسبورج ، واتجهت أنظارهم صوب إيطاليا . وحاولوا أن يصلوا إلى روما ويتوجون إمبراطورهم فيها . وإستخدم البابا مرسوماته البابوية بالحرمان سلاحاً ، ولكنه كان بدون فاعلية . وكانت خصومة كبيرة بين البابوات والاباطرة ، خاصة وأن لوى ملك بافاريا ، أتم تنويجه في روما وقت وجود البابا في أفينيون ، وعلى يد أعداء البابا ورسم ضرورة وجود البابوات في روما نفسها .

ورغم ضعف سلطة البابوية ؛ كان الملوك الكاثوليك يتراجعون أمام إمكانية حدوث إنقسام . فلم يعترفوا بالإمبراطور الجديد ؛ وكان أهالي إقليم روما يفضلون إختيار إمبراطوراً من بينهم . وأضطر الإمبراطور إلى التراجع ، وعادت سلطة حنا الثاني والعشرون إلى روما . ولتد فرض قادة بافاريا الضرائب الباهظة على الإيطاليين لكي يخففوا بذلك هممتهم ، فأدى ذلك إلى وقوف أسرة إست وفيسكونتى مع البابوية وزادت قسوة الألمان تجاه الإيطاليين ، ولكن الأمر لانتهى بهم إلى التراجع ثم الإنسحاب من ممر برنر صوب بلادهم . وإستند ملك بافاريا إلى حنا ملك بوهيميا ، وإلى البابا المزيف الذى أسلمه الناج في روما ، ولكن البابا حنا الثاني والعشرين لم يتراجع عن موقفه ، وظل في عدائه الصريح مع لوى

ملك بافاريا ، معتمداً على حنا ملك بوهيميا . وقام تحالف وتكتل بين الحلف في إيطاليا ، ثم تكتل الحلف والجملين لأول مرة في سنة ١٢٣٤ ، ولكن دون الوصول إلى نتيجة . وبعد عشر سنوات من الصراع ، لم تتمكن أى من القوتين من إخضاع الأخرى ، وحطم لوى ملك بافاريا كل إدعاءات من أجل حكم امبراطورية إيطاليا ، وذلك في الوقت الذي كان فيه الفرنسي يسكن في بافاريا لا يفتفرون للبابا أمر ترك إيطاليا ، وكانوا يرغبون في توجيه انهاءً جديداً للبابا ، ولكنه توفي في شهر سبتمبر سنة ١٢٣٤ .

ثم جاء إلى كرسي البابوية بنوا الثاني عشر ، وكانت الكنيسة في حاجة ، بعد هذا الاضطراب إلى السلام ، فعقد البابا الجديد الصلح من لوى مع ملك بافاريا . ولكن الأمور لم تستقر نتيجة لتدخلات من جانب نابلي ومن جانب معظم الكرادلة الفرنسيين . وحاول الامبراطور بلا جدوى أن يراجع في إتهاماته السابقة لحنا الثاني والعشرين ، ويعلم خضوعه للكنيسة ، ولكن بلا جدوى . ونشبت الحرب بين إناجترا وفرنسا سنة ١٢٤٢ ، ولم ينجح البابا بمجهوداته السلمية ، في الوصول إلى نتيجة ايجابية .

وجاء إلى الكرسي البابوي كليمنت السادس ، الذي عاد إلى سياسة التشدد ؛ وزاد الصراع مع الامبراطورية ، وأنذر البابا الملك لوى في سنة ١٢٤٣ ، بضرورة التنازل عن العرش في مدة ثلاثة أشهر ، وإلا فيكون خارجاً على الدين . وبعد حرب أضعفت أهالي بافاريا في مدة عشرين سنة ، اضطروا إلى التراجع . وأرسلت السفارات إلى البابا في أفينيون ، ولكنه أصر على موقفه ، ثم أعلن عزل لوى ، وطلب إلى الأمراء انتخاب امبراطور آخر فوراً . ورغم استعداد ملك بافاريا للحرب ، إلا أنه توفي فجأة سنة ١٢٤٧ وفي فرانكفورت تم انتخاب امبراطور جديد أعلن استقلال الامبراطورية تجاه البابوية . ولكن سرعان ما رافته المنية ، ولكي يحصل على تأييد البابوية ، اضطر حفيد هنرى السابع إلى

أن يعلن أنه لن يبقى في إيطاليا دون موافقة البابا ، وأنه لن يبقى في روما سوى يوم واحد للتبويج . وأخيراً تقدم في إيطاليا سنة ١٣٥٤ لكي يعلن خضوع الامبراطورية للبابوية ؛ ولم يكن معه سوى حرس يتكون من ثلاثمائة فارس ودفع فدية تبلغ مائة ألف فوران تكفيراً عما صدر من جده . ووصل أمام روما في ابريل سنة ١٣٥٥ وانتظر بضعة أيام حتى يدخل كنيسة القديس بطرس ويتوجه نائب البابا في روما الامبراطوراً . ثم عاد إلى ألمانيا ، وكانت غالبية المدن تقفل أبوابها في وجهه .

وهكذا اخرجت الامبراطورية في شكل يشهد خضوعها لسلطة البابوية . أما محاولة السيطرة على ايطاليا فإن شارل الرابع قد تركها للبابوية . والواقع أن أكبر سلطة زمنية ظلت ، رغم رفضها لأحكام السيطرة ، هي رأس مجموعة إيطالية تطالب بالتدخل في شئون شبه الجزيرة الإيطالية . وفي نفس الوقت كانت الخريطة السياسية لبلاد ألمانيا قد تطورت ، وكان أباطرة القرن الرابع عشر قد عملوا على مد سيطرتهم على أقاليم واسعة ، وإن كانوا قد فقدوا بعض الأراضي في النمسا والتيرول وسويسرا . ولمنخفضت هيبة أسرة هابسبورج ، وارتفعت أسهم أسرة لكسمبورج . ولكن سيطرة حكومة بوهيميا امتدت صوب الشرق ، صوب براند بورج .

ومع ذلك فإن أعمال الامبراطور شارل الرابع ظلت نافذة ، وخاصة وأن سوء الأوضاع المالية كان يجرمه من تحقيق أحلامه . والواقع أن النظام الامبراطوري ، الذي كان قد طوره بنفسه ، كان لا يعطيه سوى لقب براق : فكانت تحيط به مجموعة من الأمراء المنتخبين ، ودايت بدون قوة ، وسلطة بدون ادارة ؛ وهكذا كانت الامبراطورية . ولذلك فإن كل إقليم ألماني احتفظ بشخصيته رغم جهودات شارل الرابع ؛ ولم تر المدن الألمانية في الغرب والجنوب ، علاجاً للفوضى سوى في المحلفات ، والجامعات التي توحد مصالح المدن . ونشأت حول نورنبرج جامعة سنة ١٣٥١ تعمل على حماية التجارة ضد أطاع صغار النبلاء وبيرعان

ما أخذت هذه الجامعات أهمية سياسية ، وتدخلت في حكومة الإمبراطورية . ولم يتمكن شارل الرابع ، الذي دخل في صراع معها ، من أن يحطماها ، أو يفرض سيطرته عليه .

وعلينا أن نذكر أن الإمبراطورية لم تعد ، في أواسط القرن الرابع عشر ، سوى مجرد كلمة ، وعلى العكس من ذلك نجد أن الكنيسة ، كعامل هام من عوامل المحافظة ، قد تطورت بعمق ، وامتت بين نفسها وبين المبادئ الجديدة التي حكمت في ذلك الوقت التنظيم السياسي لمعظم دول أوروبا الغربية . وكانت إقامة البابوات في أفينيون قد أصبحت نهائية ، ولم يتمكن البابوات من تنفيذ خططهم بالعودة إلى إيطاليا . وكانت أفينيون مدينة جميلة ، وباعتها كونتيسة إقليم بروفانس للبابوية سنة ١٣٤٨ . وبعد إقامة البابوات في أحد الأديرة ، تطور الأمر ، وبني قصر بابوي ، له أبراج ، وفي شكل قلعة تشرف على المنطقة . وأحسن تجهيزه من الداخل ، وتزيينه ، ووضع التماثيل فيه . وكان من الصعب الاستناد إلى نداءات الإيطاليين بعودة البابوات إلى روما ، ولكن لإزدياد خطر الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، وانتشار العصابات ، كانت عوامل مضادة . وأحاط بالبابا في أفينيون بلاط ، كما أصبح له جيش من الكتاب والموظفين ، لهم سلوك معين . وكان رجال الدين هم الجهاز الأساسي في إدارة الكنيسة ، ثم نشأت المستشارية بمكانتها السبعة وسجلاتها . كما تطورت الإدارة القضائية ، وتطلب الأمر وجود المتخصصين ؛ وأصبح على البابا أن يترك القضاء لمجموعات متخصصة . أما مجلس الكرادلة فكان يختص بمناقشة الشؤون الهامة ، وأصبحت المحاكم تخضع للكرادلة . كما نشأت إدارة خاصة لبحث أمور الحرمان ، والتوصية بها ، وإذا أضفنا إلى ذلك المجلس الرسول الحاص بالتبشير ، والذي يشرف على مالية الكنيسة ، لآخذنا فمكرة عن نمو الإدارة الكنسية أثناء القرن الرابع عشر . وكان الأمراء يعطون المنح للكرادلة ، ورضم بمهودات البابوات وأصرارهم على ضرورة الاقتصاد ، أصبح لكل من

الكرادلة قصر خاص به ؛ ويمكن الكثير منهم من تكوين ثروة طائلة ، حتى اضطرت البابا ، في الأوقات العصيبة ، إلى الاستدانة منهم . وكان البابا يجمعهم في المناسبات الهامة ، ومناسبات الترقية لمناصب الكرادلة ، الأمر الذي كان يدفع بهم إلى محاولة زيادة سلطاتهم على حساب البابوية . ولم يعد في وسع البابا أن يصدر قرارات ضدهم دون أن يحصل على موافقة ثلثيهم عليها . وهو الأمر الذي حول هذا الملك البابوي إلى حكم أقلية كاردينالية . وفي مواجهة ذلك كانت هناك عزيمة البابوات ، خاصة وأن البابا كان هو رأس الكنيسة ، وكان له أجمال بلاط في كل أوروبا ، وكان يحمل تاجاً يمثل سلطة المسيح ، ويندل على السلطة المطلقة للكرسي البابوي ضد محاولات الكرادلة . وكانت للبابوية سلطة كبيرة في نطاق النفوذ السياسي ، وكانت في حاجة ، في صراعها ضد البلاد الثائرة ، مثل ألمانيا وإيطاليا ، إلى تأييد رجال الدين . كما نشأت وفاقا بين البابا والملوك ، تمهيداً لصدور الكونكوردات خلال القرن التالي ، من أجل تنظيم السلطات المدنية في كل مكان . وكان توزيع المكاسب بين الكرادلة يمثل جزءاً هاماً في الاجراءات المالية للبابوية ، أكثر من كونه يهدف الانضباط الديني ، أو السلطة السياسية . وكان يمثل دخلاً كبيراً للبلاط البابوي ؛ ويسير صوب نظام مركزي ، الأمر الذي دفع البابوات إلى وضع نظام ضرائبي محدد .

ولاشك في أن إزدهار بلاط افيثيون قد أسهم في زيادة نفوذ البابوات . وشعر الأساقفة بقوتهم ، وإن كان مجموع العالم المسيحي قد شعر بقلق نتيجة إزدياد ثقل الضرائب ؛ وزادت المطالب والالتزمات الموجهة إلى البابا لخفض الأعباء الضريبية . وأساء البعض في عملية جمع الضرائب ، وتكديس المكاسب وبشكل أفقدها فاعليتها . وكان نظام الضرائب للبابوات يمثل الكثير من المساوىء . وجاءت عملية تسوية مسألة جماعة فرسان المعبد ، ثم الخوف من القطيعة بين فرنسا وإنجلترا ، وبعد ذلك مسألة إرسال إحدى الحملات الصليبية ، ثم مسألة

عدم أمن إيطاليا ، عوامل تدفع البابوات إلى إطالة مدة إقامتهم في أفينيون ، ولكن الوضع تغير في عصر إنوسنت السادس ، فأصبح موقف البلاط البابوي مهدداً في أفينيون ، ووصلت العصابات إلى أبواب القصر البابوي . وبعد بضعة سنوات ، أنفق البابوات أموالاً طائلة في إبعاد العصابات عن المنطقة ، في نفس الوقت الذي كان يصدر فيه علناً مرسومات حرمانهم . وكان الرأي العام المسيحي يطالب بإصرار بضرورة عودة البابوات إلى إيطاليا .

ولذلك فإن مسألة العودة إلى روما قد طرحت على نطاق السياسة البابوية ، بعد موت إنوسنت السادس سنة ١٢٦٢ . وأعلن البابا أوربان الخامس استعداده للعودة إلى إيطاليا ، ووافق الإمبراطور على ذلك في سنة ١٣٦٥ . ثم جاءت سفاره من شارل الخامس لكي تعارض ذلك ، ولكن أوربان الخامس ترك أفينيون سنة ١٣٦٧ ، ثم وصل إلى روما ودخلها دون الظافرين . وفي روما حاول البابا إدخال إصلاح على نظام الكنيسة في إيطاليا ، وعقد بعض المحادثات ، وانتظر وصول الإمبراطور شارل الرابع ، ووضع الإمبراطور التاج على رأس زوجته بينما كان يقوم هو بتأدية فروض الصلاة . ثم انسحب بعد ذلك مباشرة . وسرعان ما وصل روما حنا باليولوج الخامس من القسطنطينية ، وكان سفره يعرضون ، منذ خمسة عشرة عاماً ، أمر خضوعة لروما ، نظير حصوله على معونات يواجه بها الأتراك . وأصدر البابا أمره بضرورة إعداد حملة صليبية جديدة .

ولكن الحرب بين فرنسا وإنجلترا نشبت من جديد ، وترك حنا باليولوج روما دون أن يحصل على ما هو أكثر من وعد . وظل أوربان الخامس موزعاً في إيطاليا بين العودة إلى أفينيون ، وبين نصائح الكرادلة الفرنسيين له بضرورة التوفيق بين إنجلترا وشارل الخامس . وسأول في سنة ١٣٧٠ أن يترك إيطاليا ، ولكن الأهالي طلبوا منه البقاء ، ثم وصل إلى أفينيون ، حيث توفي في نفس السنة . وتولى جريجوري الحادي عشر كرسي البابوية ، وحاول أن يجمع الأمراء

المسيحيين ضد الأتراك . وقامت أسرة فيسكونتي سنة ١٣٧٥ بشورة في ممتلكات الكنيسة ، فقام البابا بحرب مع حلفائه ، وقرر العودة إلى روما . فأقلع من مرسيليا سنة ١٣٧٦ ، ولم يدخل روما إلا في ١٧ يناير سنة ١٣٧٧ .
وهكذا انتهى الأسر البابلي ، وإن كانت العودة إلى روما غير نهائية . ذلك أن الكرادلة الفرنسيين كانوا لا يرغبون في البقاء فيها وبقي الكثير منهم في أفينيون ، حيث احتفظوا ببعض الإدارات البابوية . وفي روما نفسها كان الأهالي والنبل لا يطمعون رغبات البابا ، وزادت الدعاية عن مساوئهم ، وإستخدامه العنف ضد الأهالي ، وإستخدامه القسوة في جميع الضرائب . وإجتمع مجلس دبنى في روما سنة ١٣٧٨ للتوفيق بين البابا وخصومه . وفكر البابا في الهرب من روما ، ولكن المنية عجلت به ، وكان يعلم أن السلطة البابوية مهددة بالأحداث القادمة .

٤ - الاستعداد للهجوم على الكنيسة :

كانت سلطة الكرسي البابوي مهددة بتلك المعارضة المتزايدة لأصحاب الرأي القائل بأن روما قد خانت الانجيل . وعملت محاكم التفتيش على تحطيم مراكز وأصحاب هذه الأفكار ، ولكن معظم الدول لم تكن تؤيدها كل التأييد . وإذا كانت فرنسا قد سمحت لمحاكم التفتيش بالعمل في الجنوب ، فإن حرب المائة عام قد جاءت لتزيد من بطمئ اجراءاتها . وكان الصراع بين حنا الثانى والعشرين ولوى ملك بافاريا يشل حركة رجال الدين في الامبراطورية . ووافق شارل الرابع بعد ذلك في سنة ١٣٤٨ على ممارسة الكنيسة لسلطة محاكم التفتيش في ألمانيا ، ولكن الأمراء وحتى الامساقفة أنفسهم لم يؤيدوا هذا القرار إلى حد بعيد وأظهر ملك بوميميا نشاطاً بسيطاً في بلاده ضد المراطقة ، كما أن الخصومات بين البابوية وأسرة فيسكونتي في لومبارديا لم تسمح بإستقرار سلطة محاكم التفتيش في هذه المنطقة . وكانت البندقية تواصل التحقيق في عمليات الاحتيال التي قام بها بعض المقربين من النظام البابوي . أما في نابلي فإن سلطة محاكم التفتيش قد قصرت مهامها

على تتبع اليهود ، ولم تترك لها أسرة . أراجونا المحاكمة في صقلية ، إلا وجوداً
إسيمياً . وهكذا وجد الكرسي البابوي نفسه في مركز ضعف أمام الفرنسيين ،
وأمام كل من يهاجم سلطاته ، وكل من يرفض العقيدة الكاثوليكية ونمت الدول في
كل مكان بطريقة متحررة ، دون إلتفات إلى الأسس الأخلاقية للكنيسة ، ودون
أن تعمل على حمايتها . وكانت الكنيسة لا تعمل بنشاط من أجل إصلاح نفسها ،
وتجميع قواها .

وكان البابا حنا الثاني والعشرون قد دخل في صراع مع الفرنسيين وأقام
لهم منذ ربيع سنة ١٣١٧ أكوام الخطب في مارسيليا وناربون ومونميلييه
وكراسون وتولوز . ولكن نشاط محاكم التفتيش ضدهم كان أقل من ذلك في
جنوب إيطاليا ، فظلت أعدادهم كبيرة في مملكتي نابلي وصقلية . وأدت هذه
الخصومة إلى تطور المسألة في شكل مناقسة نظرية ، وإتحدت فيها كل جماعة
الفرنسيين ضد البابا . وطرست مسألة الزهد في الكنيسة ، وضرورة التخلي عن
أمتلاك مخازن الحبوب وكهوف الخمر ، وليس الملابس الفاخرة . وحكمت بعض
محاكم التفتيش على البعض منهم بالهرطقة . ولما كان المسيح يمتلك أى سلطة زمنية ،
فلم يكن من حق خليفته ، وهو البابا ، أن تكون له مثل هذه السلطة . وكانت
هذه النقطة نظرية بالنسبة للبابوية ، ففناصبهم العداوة . وظهر من بين الأساقفة من
حاول اثبات أن المسيح قد عاش فقيراً ، ولكنه كان يارس حق ملكية الأشياء ،
وذلك في الوقت الذي زاد فيه نشاط أنصار الزهد والفقير بين جماهير المسيحيين .
و حين أصر البابا على موقفه ، استمد أصحاب هذه الحركة للخروج عليه ، وأعلانه
خارجاً عن الدين ، وبابا مزيف ؛ ووجدت هذه الحركة تأييداً لها في بافاريا
وفي ألمانيا ، واتهمت البابا بتغيير تعاليم الدين . وكانت طريقة حياة البابوات
نفسها تعمل في ضد مصالحهم ومصالح النظام الكنسي ، فزادت عليهم الهجمات .
ووصلت الحالة إلى أخذ قرار في سنة ١٣٣٤ بضرورة محاكمة البابا ، وإن كان

لم ينفذ نتيجة اوتة في نفس السنة ؛ وخفت هذه الحركة بعد سنوات ، نتيجة لعدم اصرار البابوات على عدم معارضتها ، ونتيجة لموت عدد من القائمين بها ؛ ولكنها كانت فرصة لهاجمة كنيسة روما ، التي فشلت في الدفاع عن نفسها ، وكان ذلك سبباً من أسباب ضعفها .

وكانت الكنيسة تواصل في نفس الوقت ، وعن طريق محاكم التفتيش كذلك ، تعقبها للهرطقة وللهرطقة . وانتشرت هذه الحركات في جميع أنحاء أوروبا ، من أسبانيا إلى إيطاليا وشبه جزيرة البلقان ، وكذلك جنوب فرنسا ، وسويسرا وألمانيا وبوهيميا . وكان تشدد الكنيسة ، بمحاكم التفتيش ، يعنى اصرارها على ثبات العقيدة على ما هي عليه ، واصرارها على التفسير الذي يعطيه البابوات لكل مسألة تطرح . ولا شك أن هذا الموقف كان يعنى عدم المرونة ، وعدم السماح للمسيحيين بالتفكير والنقد والمقارنة . وستزيد سخورة هذا الموقف حين يظهر بعض المفكرين ، وبخاصة في الجامعات ، بفكر يستند إلى منهج . ولا يستمد بتابعه إلا من الكتاب المقدس ، والكتاب المقدس وحده ، دون اعتبار لوجهات نظر البابوات . وعندئذ تحرم البابوية من كل أسلحتها ، ولا تقوى على مواصلة الحوار ، حتى في شؤون العقيدة . وإذا ما انسحب ذلك على مسألة السلطة الزمنية للبابوات ، فإن الكنيسة الرومانية ستكون بغير سلاح .

وعلمنا أن نذكر هنا جان ويكليف ، الانجليزى ، والذي كان من جماعة أكسفورد ، وعلى علم دقيق بحياة القديسين وأطلاع كبير وتفقه في الكتاب المقدس . وأخذ ويكليف موقفاً واضحاً سنة ١٢٦٦ في تلك المناقشة التي فتحت بين الرأى العام الانجليزى وبلاط روما . وتحدث عن « تعريف السلطة » التي نماها فيما بعد إلى نظرية . ثم شارك في سنة ١٣٧٤ في مؤتمر بروج ، ووافق في سنة ١٣٧٦ على إجتماع البرلمان الانجليزى ضد اتفاقية كانت في صالح البابوية لحد بعيد . ثم أخذ يدرس في أكسفورد عن السلطة المدنية ، وذكر أن هذه السلطة لا تعود لإلله ،

وأن الله بدلامن أن يمنحها للبابا ، قد وزعها بين كل أولئك الذين يحكمون الأرض ؛
ولذلك فإن السلطة الملكية ليست أقل قدسية من السلطة الدينية ، بل أن الكنيسة
ترتكب خطيئة حين تدعى لنفسها الجمع بين سلطتها على الروح والسلطة الزمنية ؛
وعلى الأمراء العلمانيين أن يستعيدوا سلطاتهم التي تسمى الكنيسة استخدامها ، وعليهم
أن يهتموا ويصححوا البابا .

وكانت جراءة فريدة ، واجتمع رجال الدين في إنجلترا سنة ١٣٧٧ وكانت
مناقشة حادة ، أثرت في عاصمة إنجلترا ، ولم يتمكن المجلس الديني من الحكم عليه .
ولم ترفض كليات جامعة أكسفورد نظرياته ، وساعده الحظ إذ أن مجلس العموم
أظهر عداوة شديدا للبابوية . وهدد بالاستيلاء على كل مبلغ يرسل إليها . وحين سؤل
ويكليف عن ذلك ، أجاب بأن هذا الاجراء مشروع . وأصبح ويكليف شخصية
محبوبة في كل إنجلترا . ولا شك في أن هذا كان يمثل ضعفا للبابوية ، وهجوما
عليها ، من عالم متفقه ومفكر ، وعجزت البابوية عن محاكمته ، نتيجة لعدم وصول
سلطات التفتيش إلى بلاده .

ومن جانب آخر نجد أن النظريات الشيوقراطية . أى الخاصة بالحكم الديني ،
وامتداد سلطة الكنيسة زمنياً ، لم تعد تلقى قبولا خارج المدارس . وإذا كان البابا
قد أكدها أمام أحد الأباطرة الضعفاء ، فإنه كان عاجزاً عن أن يذكرها أمام ملك
فرنسا . وكانت سلطة الكرسي البابوي قد خضعت أمام ملوك فرنسا إلى التبعية ،
ولم يرفعها من هذا المستوى إلا نشوب الحرب بين إنجلترا وفرنسا . وكان الأمراء
عازمين على عدم اطاعة البابا في الأمور الزمنية بعد ذلك ، بل كانوا أكثر من
ذلك ، قد أخذوا في السيطرة على الكنائس الموجودة في أقاليمهم . وجاءت زيادة
اختصاصات المحاكم المدنية لكي تقلقل من اختصاصات محاكم رجال الدين .

أما في إنجلترا فإن موقف البابوية كان أكثر صعوبه ، فإتهامها وقت الأسر
البابلي بأنها منتهزة لفرنسا . وأفاد ملك إنجلترا من نشوء حركة عدم رضاء في

بلاده ضد البابوية لكي يزيد من سيطرته على الكنيسة في إنجلترا . وعمل الملك إدوارد الثالث على تخويف البابوية ، وأخذ يدافع ، أمام الرأي العام ، عن حريات الكنيسة ، ضد مساوئ رجال الدين . وحين طالب البابا بلمهجة مهددة بالضرائب الكنسية التي كانت إنجلترا قد توقفت منذ سنوات عن إرسالها ، لم يكن الملك هو الشخص الوحيد الذي أظهر أسفه ، بل لقد أرتفعت الاحتجاجات من البرلمان ومع جميع أنحاء إنجلترا . ووصل الأمر بالحالة سنة ١٣٧٦ إلى أن قام مجلس العموم بإتهام البلاط البابوي ، بتعظيم كنيسة إنجلترا ، وبالتلاعب في الأمور المقدسة .

وأفادت بافاريا من هذه الأوضاع لكي تفرض على كنائس الإمبراطورية رغبتها ومرشحيها . وأخذت سلطة البابوية الهنوية في التراجع ، ولم تعد الدول تنظر إلى المشروعات البابوية الخاصة بضرورة إرسال حملات صليبية نظرة الجد ؛ حتى في مواجهة هجمات الأتراك والمغول . وكان تجميع الضرائب والأرباح في أفينيون ، وعدم مجالة كبار رجال الكنيسة يتسبب في نشوب فاقق في بلاد غرب أوروبا ، وفي ظهور حركات لفضح هذه الحالة . وكادت البابوية أن تفقد ممتلكاتها في إيطاليا ، التي ظهر فيها شعور جديد بالحرية ، ولم تتمكن الكنيسة من إعادة فرض نفسها عليها إلا بقوة السلاح . وظهرت كنيسة روما على أنها لم تعد تصلح لرعاية الشعوب . ولم يعد من الممكن الآن إعادة تقسيم السلطتين الدينية والزمنية بين البابوية والإمبراطورية ، وبخاصة بعد ضعف الإمبراطورية . ولم يعد من الممكن الوصول إلى أي حل سوى ترك كل من الشعوب والأمراء يجدون حلاً ، وكل فيما يخصه ، بشأن مشكلات الحكم ، وطبقاً لمصالحهم ، وتجارهم ، وطريقة تفكيرهم .

ولقد أعطت مملكة فرنسا المثل على هذا التحرر الكامل للدولة . ومنذ بداية القرن كان الفقهاء والمشرعون فيها قد أظهروا أنهم لن يسمحوا للبابا أن يسيطر على سياسة الملك بالانجيل . وينطبق ذلك بالتالي على الإمبراطور . وكانت هناك

إلى جانب ذلك بعض الاتجاهات لرسم برنامج التوسع الفرنسي ، فكان يأمل في أن تنمو سيطرة الملوك ، أصفاد القديس لويس ، على إيطاليا وألمانيا وممتلكات البابا ، وكذلك على الإمبراطورية الشرقية ، وعلى إسبانيا أو إنجلترا . وربما كان هذا البرنامج خيالياً ، ولكنه كان يدل على تفكير موجود بالفعل ، ويسعى إلى أن يجعل سلطة ملك فرنسا محل الإمبراطورية ، وحتى محل البابوية في ممتلكاتها الزمنية .

وكانت سياسة فرنسا تقوم على أساس التجربة ، والحساب ، وإذا كانت تستند إلى أساس ديني ، فإن فكرة الملكية كانت فكرة عقلانية . وإهتمت بفن الحكم ، على أساس المبادئ ، وأحاطت نفسها بالعلماء والنظريات الواقعية عن العالم الحديث ، وعن التاريخ . وفي الوقت الذي إحتفظت فيه الملكية بالحق الإقطاعي القديم والخاص بمبدأ الخضوع الشخصي لذلك ، إستندت كذلك إلى القانون الروماني لكي تطالب بتضحية الفرد من أجل الدولة ، بمثابة شخص الأمير . وهكذا ظهرت نظرية الدولة ، التي تحررت من سيطرة روما ، ومن السلطة العليا للإمبراطورية ، ويشكل محدد في الغرب الملكي . وكانت المملكة الإنجليزية ، تحت إشراف برلمانها ، تجهل الإمبراطور ، وتبعد نفوذ البابا . وقام الأمراء والسادة الألمان بإنشاء ممالك حقيقية ، لا تخضع سياستها إلا للأناطية الضيقة . وسادت الأناطية المماثلة في كل مكان كانت البورجوازية فيه تحكم نفسها ، وكانت المشغوليات الخاصة بالمصالح المادية هي التي تجمع بين المدن الألمانية في الجامعة الهندسية ، وبين مدن الفلاندر في الأراضي المنخفضة ، وكانت المصالح المادية للطبقات المختلفة التي تنمي الثروة هي التي تسيطر على السياسة ، وعلى الصراع بين الأحزاب .

وكانت معرفة التاريخ القديم في إيطاليا ، والمناقشة الحرة التي تعودت عليها المجالس البلدية منذ فترة ، وكذلك المحادثات الدبلوماسية ، قد جعلت فن الحكم يخضع لمبادئ علم واقعي ، يعرف مناهجه وأهدافه ، الأمر الذي جعل إيطاليا ، أكثر من غيرها ، تتحرر من كل إعتماد ديني وأخلاقي . وإهتم الطبقة في شمال

إيطاليا بكل ما يزيد قوة دولهم ، وأنشأوا حكومات ملكية مطلقة ولكنها إهتمت بالإدارة التي عملت على أن تعطى الشعوب ، نظير خضوعها ، الرفاهية والثروة ، وطبقوا على أقاليمهم نظم الإمبراطورية الرومانية ، نظرياً وعملياً . أما الجمهوريات فإنها تركت مصالحة الدولة تتطابق مع الايزات الإيجابية لتلك الطبقة ، أو ذلك الحزب الذي كان في الحكم .

وكانت عملية تحرر الدولة تدل بوضوح على ضعف سلطة الكنيسة . وهكذا إنتهى تحطيم الإطار العام لعالم العصور الوسطى . وفي مواجهة هذا الخطام للنظام الكاثوليكي ، وهذا التناسي للإنجيل الذي أصبح قانونه ، بعد أن أهملته الدول ، لا يتمشى إلا مع الأفراد ، إحتج ضمير المسيحية في كل مكان . وفي الوقت الذي إهتم فيه الحراطة الكنيسة بحيانة الحقائق التي عهد بها إليها ، كانت أفكار من ظل مخلصاً لعهديته تأمل في حدوث إصلاح من الرأس حتى بقية الأعضاء . وكان هناك شبه إ اتفاق على أن بابوات أفينيون قد أهملوا رسالتهم ، وحتى من قام منهم ببذل جهود فإنه كان يرى مجهوده يضيع نتيجة للإهمالة من جانب الكرادلة والإساقفة ، والذي نتج سوء إختيارهم على التقاليد البابوية في مسائل تعيين كبار رجال الكنيسة . وسادة فكرة ضرورة إصلاح الكنيسة في كل مكان .

الفصل الثالث

حرب المائة عام

مرت الممالك الغربية الكبيرة عبر تجربة صعبة . وحاولت حكومة فيليب الجميل أن تعيد لصالحها إمتيازات الملوك في العصور الرومانية القديمة ، ولكن بلا جدوى ؛ فإصطدمت هذه الطرق المطلقة بمقاومة خفية في أول الأمر ، ثم معلنة من جانب النبلاء ، الذين رفضوا أن يتم القضاء عليهم وبنفس الشكل ، علينا أن نجد في إنجلترا أولئك البارونات غير الخاضعين ، الذين كانوا مستعدين دائماً لتأكيد إستقلالهم ، عند ظهور أقل دلالة على ضعف السلاطة الملكية . وهذا النظام الإقطاعي ، الذي أعتقدنا أنه كان قد أخذ في الضعف ، كان يقف لجأه ، وبحركة أقوى منها عنها في أي وقت مضى ، في العقد الثاني من القرن الرابع عشر ، ويحاول أن يكسب ما كان قد فقده ، سواء في فرنسا أو في إنجلترا .

ومع ذلك فإن الملكية كانت تسير ، وكان المستقبل مضموناً لها . ولكن الدولتين ، ونتيجة لحدثين تقارباً زمنياً ، وهما عزل أدوارد الثاني في إنجلترا سنة ١٣٢٧ ، ووصول أمراء فالوا إلى الحكم في فرنسا سنة ١٣٢٨ تواجهتا في صراع مرير ، بل كان أشد مرارة وأكثر طولاً عما كانت أوروبا قد شهدته حتى ذلك الوقت . وسيكون من الخطأ تقليل أهمية حرب المائة عام ، إلى مجرد خصومة بين أسرتين حاكمتين ، أو حتى بين شعبين : ذلك أن خطورة الصدام ، وإتساع نتائجه في كل الميادين ، السياسية ، والإجتماعية ، والإقتصادية ، والمعنوية ، وزيادة عدد الدول التي مسها . بطريق مباشر أو غير مباشر ، جعل منه أكبر حدث دار حوله تاريخ أوروبا لمدة قرن من الزمان ، وهو ذلك القرن الذي شهد تدهور حضارة أوروبا في العصر الوسيط .

١ - تطور الأوضاع في كل من فرنسا وإنجلترا :-

كانت المسألة المالية هي أساس الصعوبات التي أصطدم بها النظام الملكي في فرنسا وفي إنجلترا . وكانت المملكة في فرنسا ، حتى عصر فيليب الجميل ، قد اتبعت سياسة حكيمة ، وتعيش على مواردنا العادية التي تجمعها من أملاكها ، وتضيف إليها بعض المعونات التي كان العرف الإقطاعي المعمول به يسمح لها بالحصول عليها من بعض التابعين . ومع توسيعها لميدان عملها ، ومحاولتها القيام بسياسة ملكية مقررة ، شعرنا بالحاجة إلى ضمان موارد ثابتة أكثر إتساعاً . وكان فيليب الجميل في حاجة دائمة للأموال ، وطرق من أجل الحصول عليها . كل الأبواب ؛ فأفاد في سنة ١٣٠٦ من إرتفاع شعور شعبي معادي لليهود ، وقام بطردهم من مملكته ، وصادر أملاكهم . وقام بعمليات مماثلة ضد رجال المال الإيطاليين الموجودين في بلاده . وذهب الحد بهذا الملك إلى أن قام بتغيير قيمة العملة . وكان يرفعها أو يخفضها حسب ضرورات الوقت . ولم تعط هذه التغييرات للخزانة الملكية إلا فائدة وهمية ، لأن خزانة الملك كانت لا تمتلئ ، بعد الفترة المفاجئة الأولى ، إلا بالعملة الرديئة التي خلقها ؛ ويؤدي شلل التجارة إلى الفقر العام الذي لا تكون المملكة هي آخر من تتأثر به .

ومع ذلك فإن كل هذه العمليات ، بما فيها هجماته ضد جماعة فرسان المعبد ، لم تكفه لمواجهة نقص الميزانية الملكية . فأضطروا إلى وضع نظام ضرائبي ثابت ؛ يقوم على أساس دخول ضرائب منتظمة . فزادت طلباته إلى رجال الدين ، بموافقة البابا أو بدونها ، لتقديم العشور ، وفرض ضرائب غير مباشرة كبيرة القيمة على كل العمليات التجارية ، وحاول أن يبدل التقليد الإقطاعي الخاص بضرورة تقديم كل تابع خدمه لسيدته وقت الضرورة ، بتقديم هذه المعونة نقداً ، بدلا من تقديمها عسكرياً . وكان الملوك قد استخدموا منذ فترة الجنود ، أو المرتزقة ، بدلا من المجندين الذين يأتي بهم السادة الإقطاعيون ؛ فأراد الملك ،

وبعقلية ضرائبية بحته ، إبدال الخدمة الإقطاعية بضريبة تجمع كل فترة معينة ، وهي التي يستصبح المعونة الملكية فيما بعد . هكذا تراجع المبادئ الإقطاعية شيئاً فشيئاً أمام المبادئ الملكية . ومع ذلك فإن الملوك لم يصلوا إلى أهدافهم مباشرة ، فكان عليهم أن يكسبوا الأهالي أو يتساوموا معهم : فكانوا يستشيرون المدن والأقاليم عن طريق مجالس الوجهاء ، وكذلك كبار التابعين عن طريق المفاوضات المباشرة ، ويطلبون منهم معاونة الملك ؛ ولم تكن المعونات تقبل بحرية ، إلا على أساس أنها مؤقته . وكان يكفي أن تطول الحرب . وتحدث معها أزمات إقتصادية ، حتى تضطرب الخزانة الملكية ، وتصبح المعونات المؤقته معونات دائمة .

ولمكي يقضى الملوك على المعارضة ، حاولوا أن يكسبوا الرأي العام ، بعرض الأمور الهامة على مجالس الوجهاء ، التي كانت تجتمع من أجل الدعاية . وكان من الممكن أن نرى في هذه الإجتماعات ، التي كانت تضم النبلاء ورجال الدين و مندوبي المدن ومناطق النفوذ الكبيرة ، أحد أصول تلك الآلة الحكومية ، وهي مجالس طبقات الأمة . وكان الملك قد إعتاد أن يطلب المعونة من مجالس من هذا النوع . وكان جمع الضرائب الملكية يتسبب في نشوب حركة عدم رضاء في البلاد . وكانت هناك بعض الفضايح نتيجة للانحرافات في جميع الضرائب ، كما أن النبلاء قد شعروا بهزيمتهم ، وكانوا مستعدين للانتقام عند أول فرصة يظهر فيها ضعف الملك . وكانوا يطالبون بضرورة الاعتراف لهم بشن الحرب ، وبضرورة احترام القضاء الإقطاعي ، واحتجوا على تدخل الملكية داخل مناطق نفوذهم ، وأجبار تآبهم على دفع المعونة . وكان برنامجهم برنامج رجعي ؛ يهدفون من ورائته إلى العودة إلى تقاليد عصر القديس لوى ، بإعتبار أنه العصر الذهبي للإقطاع . وكانت حكومة المملكة لاتهمهم ، كما كانوا لا يأهون بالحريات الأساسية الأصيلة ، ولكنهم كانوا منقسمين على انفسهم ولم يكونوا يحظون بتأييد رجال الدين ولا رجال الكنيسة ، ولذلك فإن الحكومة الملكية لم تراجع ؛ وإن كانت قد قدمت بعض

التنازلات التي بدت على أنها في صالح الاقطاعيين ، إلا أنها عادت ووضعت عليها
الاشتراطات ، الأمر الذي جعلها تأخذ بيد ، ما كانت قد أعطته باليد الأخرى .
ولو حدثت أزمة في ذلك الوقت للأسرة الحاكمة في فرنسا ، ذلك أن لوى
العاشر ، ابن فيليب الجميل ، توفي فجأة ، سنة ١٣١٦ ، أى بعد والده بستين ،
ولم يترك سوى بنت ، لا تقدر على أن تحكم بدله ، طبقاً للقانون المعمول به حينئذ .
ولكن الملكة كانت حاملاً ، الأمر الذي أجل تقرير مسألة الوراثة . واستولى أود
أبناء فيليب الجميل الآخرين على العرش ، وكانت هذه الفرصة لكي يحاول بعض
النبلاء القيام بحركة ضد مغتصب العرش ، ويفرضون بذلك كالمتهم على الملكية .
ولكنهم فشلوا في ذلك ، إذ سرعان ما جمع الملك مجلساً من النبلاء ورجال الدين
والبورجوازيين وأساتذة الجامعات ، في باريس ، وجعل هذا المجلس يصدق على
ترشيحه للعرش ، ووضع بذلك تقليداً عن اعتلاء أنحو الملك العرش بعد وفاته ،
في حالة عدم وجود وارث ذكر . وهكذا توصل ملوك فرنسا بسهولة إلى التغلب
على معارضة النبلاء . ولكي يمنعوا تكامل قوات الاقطاع مع القوى الشعبية ،
أفهموا الفلاحين أنهم سيحسونهم ضد السادة ، وعملوا في نفس الوقت على
تخويف السادة من خطر ثورات الفلاحين المزعومة . ونجحوا بذلك في
احتضان كل طبقات الشعب ، وإشراكها اسماً في شؤون الحكومة . وزادوا
من استخدام مجالس طبقات الأمة ، التي كان يشترك فيها ممثلين عن الطبقات
الثلاث : النبلاء ورجل الدين ، والعامه . وأصبحت هذه المجالس تجتمع من فترة
لأخرى ، سواء أكانت عامة أو محلية . وكان يستشير رعاياه في الأمور السياسية
الهامة ، وينتزه الفرصة ويطلب منهم دفع المعونات اللازمة لسياسته العسكرية .
ولم تكن هذه المجالس تشتمل على نظام تمثيلي صحيح ، فكان الملوك هم الذين يطلبون
عقدها ، ولم تكن الأمة تفرضها رقابتها على الملك ، وكان دورها السياسي صغيراً ،
ولا يقلل من سلطة الملك .

أما في إنجلترا فإن الموقف كان يختلف عن ذلك كثيراً . ذلك أن الربع الأول من القرن الرابع عشر كان يمثل ضعف السيادة الملكية . ويمكننا أن نرجع ذلك إلى عصر الملك إدوارد الأول ، الذي نجح في القضاء على ثورة كانت قد نشبت في بلاد ويلز ، ثم استخدم كل قوته من أجل غزو اسكتلندا ، الأمر الذي أنهك قواه ، وكانت محدودة . وكانت هناك بعض حقوق سيادة لملك إنجلترا على ملك اسكتلندا ، فاستغل الإنجليز ذلك إلى أقصى درجة . وأخذوا يوجهون الارشادات إلى الاسكتلنديين ، الذين قاموا بدورهم بالتحالف مع فرنسا ، فأدى ذلك إلى تصميم الإنجليز على استخدام القوة لمعاقتهم . وكانت الحملة سهلة وكأنها نزهة حربية ، وعين الملك أحد الأوصياء على عرش اسكتلندا ، وفرض عليهم ادارة انجليزية . وكان هذا الغزو سهلاً ، ولمكنه كان ضعيفاً ، وبمجرد عودة الملك إلى إنجلترا نشبت الثورة في اسكتلندا ، وطردها الإنجليز ، فاضطر الملك إلى ارسال قوات جديدة . وطوال مدة ستة سنين ، كانت همه الملك إدوارد متجهة صوب الشمال ، وكان يضطر إلى ارسال حملة كل سنة . ولقد كلف ذلك إنجلترا الكثير ، من قواتها ، وهيبتها وعيالاتها . فاضطرت الملكية الإنجليزية كذلك إلى أن تطلب معونات مالية تواجه بها حالة الخزانة . ورفض رجال الدين دفع المعونات ثم ثار البارونات ، ورفضوا الخروج للحرب خارج بلادهم مالم يكن الملك مع الحملة ، ثم انضم أهالي لندن إلى الحركة ، وأدى ذلك إلى تراجع الملك ، ثلاث مرات ، وإلى أن يؤكد رسمياً شروط العهد الأعظم ، مع اضافته إليه مواد جديدة ، تتعلق بالإشراف على الضرائب . وأصبح برلمان لندن كثير الانعقاد ، وكثر فيه اجتماع العامة ، واستخدمهم البارونات كسلاح يعارضون به الملك .

وجاء إدوارد الثاني إلى الحكم سنة (١٣٠٧ - ١٣١٧) ، وكان ملكاً ضعيفاً الأمر الذي كان يغرى النبلاء على الكسب على حسابه ، وبخاصة بعد أن تخلص من مستشاري والده ، وكانت الخزانة خاوية بعد حروب اسكتلندا . وحصل

البارونات في أول الأمر على بعض المكاسب ، ولكن ادوارد الثاني التبعاً إلى الشمال ؛ وساعدته جيوش اسكتلندا على هزيمة قوات الاقطاعيين الانجليز ، ثم انقلب الموقف رأساً على عقب ، وضاعت مكاسب ادوارد الأول ، وسادت الفوضى البلاد . وعمل النبلاء على التجمع سوياً ، لفرض أنفسهم على الملك ، ونجحوا في ذلك لبعض الوقت ؛ ولكنهم انقسموا على أنفسهم ، وانتهز الملك ادوارد الثاني ذلك لكي ينضم إلى إحدى المجموعتين ، ضد المجموعة الثانية . واستمر الصراع بين النبلاء وادوارد الثاني من سنة ١٣١١ ، إلى أن قبض عليه وتنازل عن العرش وقتل سنة ١٣٣٧ . وحتى هنا ، لم يكن هذا الحدث في صالح النبلاء ، وكان على حساب النظام الملكي ؛ ذلك أن البرلمان كان قد ازداد أهمية ، نتيجة لالتجاء كل من الملك والنبلاء إليه ؛ وكان ممثلي العامة يحضرون ، ويزداد دورهم السياسي أهمية باستمرار . وكانت إنجلترا في حاجة إلى ملك قوى ، يمكنه أن يروض الأستقراطية ، ويدفعها إلى حرب خارجية ؛ ووجد النظام الاقطاعي سيداً له في شخص الملك ادوارد الثالث .

ولقد سارت كل من فرنسا وإنجلترا صوب حرب لم يكن أحد يعرف أنها ستمتد إلى فترة مائة عام . وكانت أصول هذه الحرب ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر ، وإلى العلاقة بين الملك لوى التاسع والملك هنرى الثالث ؛ وكان الملك إنجلترا ، رغم وجوده في جزيرته ، يعتبر تابعاً لملك فرنسا . وكان ملك إنجلترا يرغب في التخلص من هذه التبعية ، ولكن الفقهاء والمشرعين المحيطين بملك فرنسا أفادوا من عدم الوضوح في المعاهدة المعقودة ، لكي يمدوا سلطنة ملكهم على حساب ملك إنجلترا ، وبخاصة فيما يتعلق بممتلكاته على القارة . وفشلت محاولات تطوير المعاهدة . واستولى ملك فرنسا على بعض هذه الممتلكات ، ولم يواجه الملك ادوارد الأول علناً ، بل حول أنظاره صوب الفلاندر ، كما تدخل البابا في الموضوع وعقد الصلح ، وتزوج من سيصبح ادوارد الثاني ايزابيلا

أميرة فرنسا . وعادت المسألة في شكل أزمة بعد قتل أدوارد الثاني سنة ١٣٣٧ ،
ومصادرة ملك فرنسا لأقطاعه من جديد .

أما فيما يتعلق بمسألة الفلاندر ، فنعرف أن إنجلترا كانت بلداً تربي الأغنام
في ذلك الوقت ، وكانت تعيش قبل كل شيء على تصدير الصوف ، وكانت تحتاج
بالتالي إلى أن تجد سوقاً حراً في الفلاندر ، بلاد صناعة الأنسجة . ورغم أن
الفلاندر كانت منطقة نفوذ إقطاعي لملك فرنسا ، إلا أنها كانت مستقلة تقريباً .
ولكن فيليب الجميل عمل على تدعيم سيطرته عليها ، واحتل مدنها ، وتدخل في
شؤون الكونت سلبها ، حتى في مسألة زواج أبنائه . وشعرت إنجلترا أن وجودها
الاقتصادي أصبح مهدداً بطريقة مباشرة ، فكان من الطبيعي أن تقوم بحركة رد
فعل أمام هذا المشروع الفرنسي . كما أن الكونت صاحب الفلاندر رفض طريقة
معاملة الفرنسيين له ، فتحالف مع الإنجليز . وانتهر ملك فرنسا ذلك ، وإحتل
الفلاندر ، وصادر هذه الكونتية . وسامت حالة صناعة الأنسجة في الفلاندر ،
ونشبت الثورة في بروج ، ثم تبعها البلدان الأخرى ، وتمكن الثوار من انزال
بعض الهزائم بالفرسان الفرنسيين . وحاول ملوك فرنسا الاستناد إلى الكونت
معه الأرستقراطية ، ولكن البورجوازيين في المدن كانوا أكثر قوة من رغبة
الأمير . وهكذا أصبحت إنجلترا مهددة بفقد مناطق إنتاج العنب والتبغ على
الفارة ، وكذلك مناطق تصدير الصوف ، فاضطرت إلى أن تقوم بالهجوم . وكان
من الممكن أن يقع الصدام قبل ذلك ، إذا لم يكن أدوارد الثالث مشغولاً بمشكلات
اسكتلندا . ولقد حاول البابوات التوفيق بين ملكي فرنسا وإنجلترا بأى ثمن ،
حتى يوجهاتها إلى القيام بحملة صليبية ضد الإمبراطور المغشق ، لوى ملك بافاريا .
ومنذ سنة ١٣٣٠ إلى سنة ١٣٣٦ إنشغل ملك فرنسا بأعداد هذه الحملة ، ولم يكن
يعتقد في صدق عزيمة الإنجليز على مهاجمته .

ويجسد من الجانب الآخر أن إدوارد الثالث قصد عمل على عزل فرنسا

دبلوماسية ، وضمن كثيراً من الحلفاء ، وفكر حتى في أن يستخدم حلفاء في الهجوم على فرنسا ؛ ثم انضم في سنة ١٣٣٨ إلى لوى صاحب بافاريا ، وذهب إلى كولونيا ، وحصل من الامبراطور على لقب راعي الامبراطورية . وكان هذا العمل الأخير يدل على طموح ادوارد الثالث ، وأرهب البابوية ، وكان السبب المباشر للحرب . وكان ضعف ملك فرنسا سبباً كذلك في نشوب الحرب ، فكان يجب البذخ والمجد ، ويعلم بالحملة البعيدة ، وكان بلاطه مكان التقاء كبار الاقطاعيين الذين يفضلون الحفلات الكبيرة ، وان كان هو نفسه لا يتمتع بمحبة النبلاء ، وترك الموظفين يحكمون البلاد . ولم تكن ماليته مستقرة ، وكانت إيراداته تكفى بالكاد لمعيشته وقت السلم ؛ فكان مضطراً مع إعلان الحرب إلى استخدام المالية الاستثنائية ، فاستخدم العثور التي كانت البابوية قد سمحت بها من أجل الحملات الصليبية ، وطالب مجالس طبقات الأمة في الأقاليم بارسال المعونات ، واستدان من النبلاء والمان ، ورجال الدين ، وحقق من ضباطه ؛ وغير من قيمة العملة ؛ ورغم كل ذلك فقد ظل دائماً يحتاج للتقود . وكان عاجزاً عن إنشاء جيش نظامي ، وأكتفى بأن طلب إلى السادة الاقطاعيين المجيء مع رجالهم والخدمة مدة أربعين يوماً ؛ أما بقية جيشه فكان يتكون من الفرسان الذين يتقاضون مخصصات كبيرة ، وكانوا من كل البلاد ، وغير منظمين ، ويفكرون في الأسلاب ، دون أن يفكروا في ضرورات الحرب الحديثة .

أما ادوارد الثالث ملك إنجلترا ، فإنه كان واقعياً ، ويعرف الهدف الذي كان يرغب في الوصول إليه ، ولكنه كان يوفن بين هذا الهدف وبين الحقائق السياسية ، وتمكن من يجمع السادة الاقطاعيين حوله . وإذا كان قد فشل في فرض سيطرته على اسكتلندا ، إلا أنه كان يحكم بلداً يحب النظام ، رغم قلة سكانها . وكانت إنجلترا بلداً زراعية ، وكانت تعتمد من أجل تجارتها . وصناعتها على التجار الأجانب ، وعلى الصناع الفلانكيين ؛ ولذلك فإن ادوارد كان يضمن لها الاستقلال الاقتصادي والسيطرة على البحار . وأعطى دفعة قوية

للتجارة ، كما بدأ في توطين صناعة المنسوجات في بربرستول سنة ١٣٣٩ ، ووضع نظاماً لمراقبة سواحل إنجلترا بإسطول حربي . وكانت أهم أعمال إدوارد الثالث هو إنشائه جيشاً على أسس جديدة ، وكانت حملات ويلز واسكتلندا قد أعطت الانجليز حب الحرب ؛ وعمل الملك على تنظيمهم في جيش مهم ، ووضع لهذا الجيش نظام دقيق ، وأجبر الأرسقراطية على تعلم فنون الحرب ، وتعلم اللغة الفرنسية ، كما أجبر الأهل على التمرن على اطلاق السهام . وجعل الخدمة العسكرية اجبارية من سن السادسة عشر حتى الستين ، لكل رعايا الملك ؛ وأصبح مندوبي الملك يختارون الرجال للخدمة العسكرية ، وأصبح على كل رجل يزيد سنه عن عشرين جنمياً أن يتسلح ، ويتزود بفرس على حسابه ؛ أما الفقراء فكانوا يعملون في المشاة التي ستصبح القوة الرئيسية للجيش الانجليزي ، وتثبت تفوقها على الفرسان عديمي الخبرة ، وغير المنظمين ، والذي كان ملك فرنسا قد جمعهم . وكان ضاربو السهام يمثلون سلاحاً متفوقاً ، وكانت أسهمهم تصل إلى ٣٥٠ متراً ، وتمنع بالتالي هجمات الفرسان ، وتقتل الخيل وتحمي المشاة . وكانت هناك فرقة حملة الرماح التي كان أفرادها يصيبون الأعداء رغم لبسهم الدروع ؛ وأخيراً فقد استخدم إدوارد الثالث سلاحاً جديداً ، وهو المدفعية ؛ ولاشك في أن مدافعه كانت تخيف أكثر من أنها كانت تدمر ، وكانت تؤثر على الروح المعنوية للمحاربين . وهكذا نجد أن مملكة إنجلترا ، رغم كون مواردها محدودة ، قد بدت أكثر استعداداً للحروب من مملكة فرنسا ، التي ستكون ثرواتها ، وسلطاتها القوية بدون نفع كبير لها في المعركة . وسيكون الانتصار الانجليزي سهلاً .

٤ - الهزائم الفرنسية ونالجيها :

كان إدوارد الثالث قد أصبح مستعداً لخوض الحرب عند صيف سنة ٣٣٩ ، وجمع جيشاً في بروكسل ، ولكن الأموال كانت تنقصه ، وربما كان يرهب الموقف ، فلم يشتهك في معركة . وكانت أول حملة في الحرب بدون قيمة كبيرة

لانجلترا ، ولكن ادوارد تمكن في السنوات التالية ، وقبل أن يوجه ضربه الكبيرة ، من أن يكمل المحاصرة الدبلوماسية لفرنسا ، ويمنع الخصم من القيام بهجوم . وكان يرغب في الحصول على أصدقاء على سواحل فرنسا ، يسملون لقواته أمر النزول ؛ ويرغب كذلك في ضمان السيطرة على البحر . وكانت الأوضاع الموجودة في الفلاندر وبريتاني ، والهيماج الموجود في نورمانديا يسمح له بالوصول للهدف الأول ، وأكملت المعركة الباقى . ولقد تمكن ادوارد الثالث من أن يستغل الأوضاع الاقتصادية السيئة في إقليم الفلاندر ، والناتجة عن منع إستيراد الصوف الانجليزى إليها ، ومنع تصدير المنسوجات منها ، وإشتداد أزمة البطالة ، ووقوف الأهالى ضد النبلاء في ثورة معلنة وبخاصة في جاندا ، ووجود مشروع لإتحاد بين البلديات مع الدول المجاورة ، من أجل الدفاع عن مصالح التجارة . ووجد ادوارد الثالث البرلمان الذى انعقد في هذه المدينة سنة ١٣٤٠ بالامونة وبعض الامتيازات . واستند الانجليز إلى تحالفهم مع الفلمنكيين ، وعملوا على تحطيم الأسطول الفرنسى الذى كان ملوك فرنسا قد أتفقوا سنوات عديدة في جمعه ، وذلك في نفس السنة ، وفي معركة قاد فيها إدوارد الثالث الأسطول الانجليزى بنفسه وقضى فيها ، في بضع ساعات ، على الأسطول الفرنسى . ولولا اضطراب الملك إلى العودة سريعاً لمواجهة مشكلات داخلية في إنجلترا لكان لهذه المعركة البحرية أبعاد أكبر . وكانت هناك حرب أهلية في بريتانى ، على الدوقية ، وسرعان ما تدخل فيها ادوارد الثالث سنة ١٣٤٢ ؛ وأخذ جانب ضد جاناب ، الأمر الذى أنشأ له ركائز هامة في شمال فرنسا .

وبدأت الحرب كذلك في نورمانديا ، فنتيجة لقصور نظر ملك فرنسا . سنة ١٣٤٥ . وفي الوقت الذى كان فيه ابن ملك فرنسا مشغولاً في توكيد سلطته على بعض المدن ، بذل الملك ادوارد الثالث مجهوداً عسكرياً ضخماً . ونزل في البلاد شهر يوليو سنة ١٣٤٦ ، وكانت بدون دفاع ؛ فتمقدم الجيش الانجليزى ؛ وأحرق

كل ما واجهه ، حتى اضطر فيليب السادس ، مع جيش من الفرسان ، إلى الخروج شمالاً لمقابلته . وتحصن الجيش الانجليزي عند كريزي ، ولحقه الجيش الفرنسي يوم ٢٦ أغسطس ، ودخل إلى المعركة دون أن يستريح . وتحطمت هجمات الفرسان أم السهام الانجليزية ؛ وكانت مجررة . وهزم رجال الاقطاع الفرنسيين تلك الهزيمة التي أدت تحطيمهم . وفر فيليب السادس ، وترك الجيش الانجليزي يطارده حتى أمام كاليه . وبعد عام ، تمكنت فرنسا من تكوين جيش لانقاذ هذه المدينة ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة ؛ ذلك أن كاليه سلمت في أغسطس سنة ١٣٤٧ . وظهر انتصار ادوارد الثالث سيث وقع على الهدنة في شهر سبتمبر ، وكان قد حطم هيبة خصمه ، وجعل كاليه مكاناً إنجليزياً ، ونقطة نزول ، ستظل لفترة ثلاثة قرون تثير قلق باريس ، وقلق الملك ، ولكن علينا أن نذكر أنه كان لا يزال هناك أمر غزو فرنسا .

وتوفي فيليب السادس سنة ١٣٥٠ . وكان خليفته سريع التقلب ، وفكر في أشياء كثيرة قبل أن يفكر في الخطر الانجليزي . ونتيجة لفشل المفاوضات مع الانجليز في سنة ١٣٥٥ أصبحت الحرب حتمية .

وهذه المرة وصل الغزاة من الجنوب ؛ فترك ولي عهد إنجلترا بوردو ، على رأس جيش قوى ، وإتجه صوب الشمال ، وفكر في أن يلتقى مع دوق لانكستر الذي كان قد نزل في نورمانديا وفي شهر سبتمبر سنة ١٣٥٦ وصل الأمير الأسود إلى نهر اللوار . وجمع ملك فرنسا جيشاً ضخماً ، وهجم به بسرعة على الجيش الانجليزي ، وهو متحصن ، ومرة جديدة هزم رجال الاقطاع الفرنسيون ، للمرة الثانية . ولكن هذه المرة أخذ الانجليز ملك فرنسا أسيراً ، فجاءت الكارثة السياسية لكي تزيد من ثقل الكارثة العسكرية .

وهكذا وجدت فرنسا نفسها بعد معركة بواتييه بدون ملك ، وبدون جيش ؛ وبدون حكومة . ووقعت مسؤولة السلطنة على شاب له عشرين عاماً ، وهو الأمير

شارل ، الذى لم يكن قد تدرّب بعد على شؤون الحكم ، وكان منذ وقت طويل فى دوقيته فى نورمانديا ، وكانت أزمة كبيرة للمملكة الفرنسية . وكانت الخزانة خاوية ، والأمن مضطرباً فى البلاد ، والتجارة مهددة . وكانت قيمة الجنيه قد انخفضت من ١٨ إلى ٤ فرنكات ذهب تقريباً ثم سقطت إلى ١،٧٣ / من الفرنك الذهب ؛ إنه انهيار اقتصادى ، كما نتشر الطاعون فى كل الأقاليم المجاورة لميادين المارك ، وقل عدد الصناع ، وطالب كل من بقى منهم على الحياة بأجور مرتفعة . وجاءت قلة الإنتاج لىكى تزيد من حدة البؤس وعدم الأمن وانتشار الجرائم ، وسيادة الفوضى . وكانت بجالس طبقات الأمة قد قررت ، قبل المعركة ، وقف المعونات ، وأخذت تطالب بعدها بضرورة إجراء تطهير داخل الحكومة . وعجز الرضى على العرش عن مواجهة الهياج ؛ وحين نخرج الملك من الأسر كانت سلطته غير موجودة ؛ فكان البرجوازيون ورجال الشعب فى باريس فى ثورة معلنة ، وكانوا يطالبون بالإستيلاء على أسلحة وخزائن المملكة . وكان غيرهم قد أخذ فى مهاجمة قصور النبلاء وفى الإستيلاء على مافيها ، وخاصة بعد أن انضم الفلاحين إلى الثورة . وكان الانجليز يدخلون باريس ، لولا أن قامت الجماهير بقتل هذه الحركة ، ودعت الملك لدخولها . وساعد ذلك على نشوء شعور قومى فى باريس إمتد منها صوب الأقاليم المحيطة ، خاصة وأن جماعات الإنجليز كانت تهاجم هذا المكان أو ذاك ، الأمر الذى أدى كذلك إلى قيام الفلاحين بعمليات مقاومة محلية ؛ وساعد كل ذلك على ظهور روح وظيفى .

وكان الإنجليز قد طالبوا ملك فرنسا بدفع فدية كبيرة ، مع التنازل عن عدد ضخم من المقاطعات . ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ . ثم زادت مطالب الإنجليز بعد ذلك ، فطالبوا بأربعة ملايين من الجنيهات الذهبية ، وب نصف مملكة فرنسا ، ولكن الرأى العام الفرنسى كان يفضل الحرب . وفى أكتوبر سنة ١٣٥٩ حضر إدوارد الثالث إلى كاليه ، ووصل فى العام التالى إلى قرب شارتر ، وأنقص من

مطالبه بعض الشيء ؛ فتم الاتفاق على ذلك في ٢٤ أكتوبر سنة ١٣٦٠ في معاهدة كاليه . وحصلت بريطانيا بمقتضى هذه المعاهدة على كل شمال غرب فرنسا ، مع كل المنطقة التي كان الإنجليز قد احتلوها ، والتي تمتد من بوردو وجبال البرانس إلى الهضبة الوسطى والمحيط ، في شكل كتلة واحدة ، هذا علاوة على كاليه في الشمال . كما انفقوا على دفع ثلاثة ملايين جنيه من الذهب ، وعلى تسليم بعض المواقع الحصينة ، وإثنين من أبناء ملك فرنسا ، وأخوه ، وسبعة وثلاثين أميراً أو باروناً أو من ممثلي المدن . وهكذا سموت إنجلترا المشكلة لصالحها ، وكانت معاهدة كاليه عبئاً ثقيلاً على كاهل فرنسا . وفرضت ضرائب باهظة لجمع الغرامة والغدية . وحتى سنة ١٣٦٤ كان الملك قد عجز عن دفع أفساط الغرامة ، وكان قد مل الحرب ، فعاد إلى إنجلترا سجيناً حيث مات .

وتولى العرش بعد ذلك الملك شارل الخامس ، الذي تميز بحكمته ، وعمل على تخفيف عبء الاحتلال واتساعه ، وكذلك تخفيف عبء الغرامة العسكرية ، وعلى فك أسر العديد من الأحرى . فبدأت العلاقات الفرنسية الإنجليزية إلى حد بعيد . وعمل شارل الخامس على النهوض بفرنسا ، وعلى تدعيم سلطنته في المنطقة الباريسية . وعمل على تخليص البلاد من خطر العصابات التي كانت قد ملأت فرنسا أثناء الحرب . كما عمل على إخراج فرنسا من العزلة السياسية التي كانت قد وصلت إليها . وأصبح كل شيء معداً للحرب ضد إنجلترا من جديد ، خاصة وأن ولي عهد إنجلترا كان يشير الأهل إلى نتيجة لما كان يفرضه عليهم من ضرائب ، فالتجأوا إلى ملك فرنسا . وتجمع سادة المدن ، نتيجة لدبلوماسية حكيمة ، وجمعوا حولهم عدداً كبيراً من المحتجين . واستند شارل الخامس إلى أنه لم يتنازل عن حقوق السيادة في الوقت المنصوص عليه في معاهدة كاليه ، وبحث الأمر أمام البرلمان في شهر ديسمبر سنة ١٣٦٨ ، ولم يعد أمام الإنجليز إلا الحرب .

ووجد الإنجليز نفس التكتيك الذي كانوا قد استخدموه : النزول المفاجيء

في فرنسا ، والتقدم وتخريب المناطق السهلة ، وإهمال المناطق الحصينة التي كانت ستعوقهم ؛ وحاولوا مقابلة جيش فرنسي أقل منهم عدداً وعدة ، ولكن هذه المرة وجدوا أنفسهم أمام خصم له تجارب ؛ وترك شارل الخامس الانجليز يتقدمون ، واستدرجهم حتى يستنفذ مواردهم . واستمرت هذه الخطة من سنة ١٣٦٩ حتى سنة ١٣٧٣ ، دون أن يتمكن الانجليز من الحصول على نتائج ثابتة .

وفي أثناء ذلك الوقت أخذت القوات الفرنسية تغزو الممتلكات الإنجليزية ، جزءاً بعد جزء ، وتزيد مكاسبها يوماً بعد يوم ، وبشكل أتعص الممتلكات الإنجليزية سنة ١٣٨٠ إلى مجرد مناطق بوردو ، وبايرون ، أما في الشمال فلم يبق لهم سوى كاليه . وتم عقد سلسلة من إتفاقيات الهدنة بين الطرفين ، ابتداء من سنة ١٣٧٥ .

ومن هنا المجهود الطويل خرجت المملكة بهيئة متزايدة ، والدليل على ذلك هو زيارة الإمبراطور شارل الرابع لفرنسا سنة ١٣٧٧ - ١٣٧٨ . وتمكن شارل الخامس إلى حد كبير من إعادة بناء قواته المسلحة ، وتحالف مع قشتالة ، الأمر الذي ساعده على بناء أسطول قوى ، لإنزع من الانجليز سيادتهم البحرية ، وهدد أمن الجزر البريطانية . ولكن ملك فرنسا ظل في حاجة إلى الأموال ، فاضطر إلى الاستمرار في جمع الضرائب ، وإن كان يعرض ذلك على مجالس الأعيان . ولكنه لم يتم أحد سادة بريتاني بالتحالف مع الانجليز ، فسمح ذلك للانجليز بالحصول على ميناء برست كقاعدة لهم ، علاوة على كاليه وشربورج وبوردو وبايرون . ومن ناحية أخرى نجد أن إنجلترا نفسها قد أنهكت في تلك الحرب الطويلة ، التي كانت تقوم بها خارج بلادها . وكانت الإيرادات قد قلت ، وكذلك قيمة العملة ، واضطر إدوارد إلى عقد القروض . وبعد الاستيلاء على كاليه بدأ أن التجارة ستزهر ، ولكن سرعان ما انتشر الطاعون الذي خفض عدد الأهالي . وتزايدت أسعار المعيشة بشكل واضح ، وهجر الأهالي حقولهم ، واضطرب

الإقتصاد الزراعى ، كما اضطربت التجارة . وكانت أهم الموارد للخزانة الملكية هى الضريبة التى وافق عليها البرلمان ، على تصدير الصوف ؛ فأنشأ سوقاً واحداً يخضع للإشراف الضرائبى ، وتجمع فيه الضرائب . وترددوا بين جعل هذا السوق فى إنجلترا أو فى الخارج ، وبعد محاولة فاشلة فى بروج أنشئ هذا السوق فى كاليه سنة ١٣٦٣ . وتوفى إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧ ، وترك التاج لابن أمير ويلز ، ريتشارد الثانى ؛ وهو الذى سيحكم وسط تعقيدات سياسية ودينية ؛ وضعوبات مالية ، وصدامات بين أطماع أبناء الملك السابق . وهكذا ستكون إنجلترا ، بصراعاتها الداخلية ، عاجزة عن مواصلة الحرب .

٣ - الفوضى فى فرنسا ووصول لانكستر إلى الحكم فى إنجلترا :

عادت الحرب التى كانت قد سببت الكثير من الخسائر بين فرنسا وإنجلترا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر مرة جديدة ، فى النصف الأول من القرن الخامس عشر . وفى فرنسا ، حاول الملك شارل الخامس أن يعيد تنظيم شؤون المملكة ، وبذل فى ذلك جهودات ، إلا أن موته المفاجئ ، ووصول ابنه شارل السادس الضعيف إلى العرش ، كان يعنى بداية عصر من الفوضى ، أكثر طولاً ، وأشد خطورة من غيره . وفى ذلك الوقت كانت هناك بالقسبة لإنجلترا أسرة جديدة ، هى أسرة لانكستر ، كانت تستعد للوصول إلى العرش ، وتعيد تنفيذ خطط الغزو الأجنبى الذى كان إدوارد الثالث قد بدأها .

وكان شارل الخامس قد حاول أن يضع نظاماً لولاية العرش ، يتلخص فى وضع ابنه تحت وصاية أعمامه ، فى نفس الوقت الذى توكل فيه السلطة الفعلية إلى أيدي مجلس يتكون من كبار مستشارى المملكة . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ وبعد فترة قصيرة من الوصاية ، أسرع أعمام الملك شارل السادس بإبعاد وزراء العهد السابق ، ثم إقتسموا السلطة فيما بينهم ، وكل لمصلحته الشخصية . وكان أحدهم يهتم بشئون نابلى ، والثانى يهتم بشئون برجنديا ، والثالث يهتم بشئون

الفلاندر . وفي خلال ذلك الوقت ، أهملت شؤون ملكة فرنسا نفسها ، ونشبت فيها سلسلة من الحركات الشعبية ، نتيجة للفقر ، والصعوبات الاقتصادية . وارتفع الضرائب . وخرجت فيها جموع الأهالي في باريس نفسها ، وأستولت على مبنى البلدية ، وطردت جامعي الضرائب ، وموظفي الملك ، وفتحت السجون ، ونهبت دار المحفوظات . وشهدت مدن الشمال ، وبخاصة روان ، حركات مماثلة .

وتظاهرت الحكومة في أول الأمر بأنها قد نفذت أيديها من مشكلات الفلاندر ، حتى تتمكن بعد ذلك من القسوة على الأهالي . ثم أخذت في إلقاء القبض على الكثير من البرجوازيين ، رغم أنهم كانوا قد عملوا على تهدئة الحركات الشعبية ؛ ثم قامت بإعدام الكثير من بينهم ، وألغت الكثير من حقوق التجار . وحدث ذلك في باريس ؛ كما حدث في روان . واضطرت مدن كثيرة إلى دفع فديات ضخمة لإنقاذ نفسها ؛ فقلت حدة فراغ الخزائنة الملكية ، ولكن الضغط الذي بذل لجمع الضرائب دفع بالكثير من البرجوازيين لكي يبدأوا في كراهية النظام الملكي ، بعد أن كانوا من دعائمه الرئيسية .

وبعد أن بلغ شارل السادس سن الرشد ، سنة ١٣٨٨ . عمل على التخلص من سيطرة أعمامه ، وأعاد مستشاري والده إلى السطة . وصدرت مراسيم ملكية جديدة في السنة التالية لتنظيم إدارات الحكومة ، والبرلمان ، وإدارات الضرائب ؛ وكذلك النظام الإداري العام، ولكن الملك إصطدم بعقبات كثيرة ، وكان ضعيفاً ، وترك المحيطين به يسيرونه ، وأنفق أموالاً كثيرة على الإحتفالات . وزاد نفوذ أخيه ، الأصغر عليه ، وكان في حاجة دائماً إلى المال ، وله مشروعات للتوسع في إيطاليا سنة ١٣٩١ ، وهكذا كانت الحكومة غير مستقرة ، ومضطرة إلى زيادة الضرائب ، ولتغيير قيمة العملة ، فأثارت ضدها الأمراء والعامة .

وساعات مهمة شارل السادس ، وأصابته أزمة جنون أثرت على سلوكه تأثيراً واضحاً ، وجعلته عاجزاً لفترات طويلة عن ممارسة الحكم . ومنذ سنة ١٣٩٢ عاد

أعمامه إلى ممارسة الوصاية عليه ، وتخلصوا من المستشارين الملكيين وعادت إتهاماتهم الخارجية إلى الظهور من جديد ، وعملوا على تنفيذها على حساب فرنسا . وأدت هذه المشروعات الخارجية إلى منافسات حادة فيما بينهم ، كما حدث بين دوق بروجنديا ودوق أورليان بشأن السيطرة على جنوة التي ضمها لهم من سنة ١٣٩٦ إلى سنة ١٤٠٩ . وستزيد خطورة هذه المنافسة في السنوات التالية ، نتيجة لرغبة كل من الأميرين ، زغم ثرواتهم الطائلة ، وفي الإستيلاء على موارد الخزانة الملكية . وكان هذا الأمر يؤدي بالتالى إلى صراع من أجل السلطة ، ظهر واضحاً في إتهام كل مجموعة ، ومحاولتها تسيير المملكة على خط معين ، يتجاوب أو يتعارض مع مصالحة البابوية ، أو مصالح الملوك والأمراء الآخرين . وتمكن دوق بروجنديا من قتل دوق أورليان سنة ١٤٠٧ ، ولكن ذلك لم يقضى على العداوات الموجودة بين حزبيهما ، بل أدى على العكس من ذلك إلى نشوب حرب بينهما ، للشأ والإنتقام ، مارسوا فيها الكثير من القسوة والتخريب . وعجز الملك عن التوفيق بينهما ؛ واستعان كل منهما بالانجليز ، فظهرت المملكة منقسمة على نفسها .

وزاد حقن الطبقات الشعبية ، وبدأ صغار التجار ، ومنهم الجزائريين في باريس ، في تنظيم أنفسهم . وظهر عدم الرضا عند كبار البورجوازيين ، واجتمعوا في مجلس طبقات الأمة في باريس سنة ١٤١٣ ، وطالبوا بإدخال الإصلاحات على الإدارات الملكية . وهبت جماهير باريس من جديد وأحتلت دار البلدية ، وأسأت معاملة كبار الضباط غير الشعبيين . وأصبح الأمراء بلاسلطة ، واضطر دوق بروجنديا إلى أن يتجاوب مع أمانى الجماهير ، وأصدر الأوامر بمد الحقوق الإنتحائية ؛ ولكن هذا التساهل أدى إلى زيادة المطالب ، خاصة وان بعضها جاء من جامعة باريس نفسها . وظل الموقف سيئاً حتى سنة ١٤١٣ ؛ حيث قام الإنجليز بغزوة جديدة ضد فرنسا ،

أما بالنسبة لإنجلترا ، فإنها قد اجتازت ، هي الأخرى ، فترة أزمات داخلية ، اضطرتها إلى التراجع عن أن تتمكن من القيام بهجوم جديد على القارة ، وعند موت الملك إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧ إنتقل التاج إلى طفل له من العمر اثنتى عشرة سنة ، هو ريتشارد الثاني . وكما حدث في فرنسا ، قام أعمام الملك ، وعلى رأسهم دوق لانكستر ، بالإستيلاء على السلطة . وكانت ذكرى السنوات الأخيرة قد جعلت لانكستر غير محبوب ، كما أن المجنوعات العسكرية الأخيرة كان قد ثبت عدم جدواها . وكان الأسطول قد تحطم ، وأصبحت البلاد بدون وسائل دفاع . كما أصبحت الحالة المالية خطيرة ، الأمر الذى تطلب فرض ضرائب جديدة وقع عبؤها على طبقة الفلاحين ، وكان هذا نذيراً بعاصفة مقبلة .

وكانت حالة الفلاحين فى إنجلترا قد إزدادت سوءاً منذ أواسط القرن الرابع عشر ، نتيجة لإرتفاع أسعار المعيشة ، وتحديد الأجور ، والتشدد فى تطبيق قوانين العمل . مما أدى إلى زيادة الحقد ضد كبار الملاك ، ومنهم رجال الدين ، وكذلك ضد موظفى الحكومة والقضاة ؛ الذين كانوا يؤيدون دائماً مصالح الطبقات المالكة ؛ وكذلك ضد التجار الأجانب الذين أزدهرت تجارتهم ، وبالطبع ضد الحكومة التى عجزت عن إنقاذ الضعفاء . وأدى ذلك إلى قيام حركات مفاجئة ، من الفلاحين ، هاجموا فيها ابلدن ، وقتلوا عدداً من التجار الأجانب ، كما هاجموا بعض قصور الأمراء ، وقصور بعض الوزراء . وأخذ الملك موقفاً متشدداً ضد الشوار ، ثم قام النبلاء بتعقيبهم ، بمنتهى الشدة . وكانت ثورة سنة ١٣٨١ أشد عنفاً من أى ثورة وقعت فى فرنسا وفى الفلاندر فى ذلك الوقت .

وأظهر دوق لانكستر عروفاً عن السياسة الداخلية ، وفى ذلك الوقت الذى أظهر فيه الملك ريتشارد الثانى إستقلالاً ، وجمع حوله الكثيرين من المستشارين الذين سيطروا عليه بنورهم . وتجمع الأمراء والنبلاء حول أحد أعمام الملك ، وهو دوق جلوسستر وسيطروا على البرلمان منذ سنة ١٣٨٥ . وظهر أن ريتشارد

الثاني يرغب في الاستمرار في مقاومة البرلمان ، فاتخذ قرارات هامة ضد أعوانه ومستشاريه سنة ١٣٨٨؛ منها أحكام بالإعدام والآخرى بالنفي، وأظهر ريتشارد الثاني رغبته في أن يحكم بنفسه ، ويتناخض من المحيطين به ، ولكنه عمل سراً على إعادة تجميعهم حوله من جديد . ولكي يسيطر الملك على الداخل ، حاول أن يحصل على السلم في الخارج ، وخاصة مع فرنسا ، واستعان في ذلك بدوق لانكستر . وفي شهر أكتوبر سنة ١٣٩٦ ذهب ريتشارد الثاني إلى فرنسا وتزوج ابنة شارل السادس ، وعقد معه هدنة لمدة ثلاثين عاماً . وكان ريتشارد قد حصل على إعلان رؤساء الثورة الايرلنديين الخضوع له ، فرفع النقاب عن مخططاته . وإدعى وجود مؤامرة ، وقد بعض الأمرام للمحاكمة أمام البرلمان ، وحرمهم من حق استئناف الحكم . ووزع الألقاب ومناطق النفوذ على أعضاء حاشيته ، ولكنه كان في حاجة إلى الضرائب التي تجمع من المدن وسرعان ما تجمع الأمرام غير الراضين عنه ضده ؛ وحيث وجد ابن دوق لانكستر أنه مهدد في شخصه وفي أملاكه ، فر لإسبال فرنسا ، وانتهم فرصة وجود ريتشارد الثاني في أيرلندا ، وعاد إلى إنجلترا على رأس قوة صغيرة ، تمكن بها من هزيمة أعوان ريتشارد ؛ ثم أسر حين عاد بسرعة من أيرلندا ، وأجبره في شهر سبتمبر سنة ١٣٩٩ على التنازل عن الملك ؛ وفي انتظار التخلص منه قتلوا بعد بضعة أشهر ، أوج نفسه ملكاً على إنجلترا ، باسم هنري الرابع ، وحصل من البرلمان على اعتراف بذلك .

كان هنري الرابع عملياً وحكيماً ، وعمل ببطء ، وخاصة وأنه كان يرغب في تغيير سياسة سلفه . وأظهر أنه في صف رجال الدين وأنه يعمل ضد السياسة المؤالية لفرنسا ، والتي كان ريتشارد قد سار عليها ، ومع ذلك فقد احتفظ بالهدنة مع فرنسا ، إذ كان عليه أن يقوم بالكثير في إنجلترا نفسها ، من أجل تدعيم سلطته قبل أن يواجه فرنسا من جديد .

ولقد حاول بعض أنصار ريتشارد الثاني القيام بثورة ضده ، ولكنه قضى

عليهم بكل عنف . وكانت الحرب قد نشبت من جديد مع إسكتلندا ، ولكن حظ هنري الرابع خدمة حين تمكن من أسر ملكها الشاب جاك الثالث ، واحتفظ به رهينة . وشغلت هذه المشكلات العشر سنوات الأولى من القرن الخامس عشر . وفي خلال هذه المدة تأكدت شخصية ولي العهد ، الذي سيضطر أمام مرض والده سنة ١٤١١ ، إلى أن يطلب إليه أن يتنازل له عن العرش . وسيعطى دفعة قوية للسياسة الخارجية ، ويستعد للقيام بحملة عسكرية جديدة . وحين يموت هنري الرابع ١٤٠٣ ، سيكون من الواضح أن ابنه سيقوم بسياسة غزو على القارة .

٤ - الغزو الانجليزي ورد الفعل الفرنسي :

وبمجرد إعتلاء هنري الخامس عرش إنجلترا ، عمل على القضاء على الثورات المحلية ، واستعان بأخويه دوق بدفورد ، ودوق جلوسستر ، في تيسير أمور المملكة ، وإستعد للقيام بهجوم على فرنسا .

وكانت أحوال فرنسا في غاية السوء ، وواصل هنري الخامس حملة دبلوماسية قوية ضد حكومة باريس ، وأرسل سفارة تطالب شارل السادس بالتنازل عن عرش فرنسا ، كما طالب بالتزوج بابنة ملك فرنسا ، حتى يحصل على بائنة تمثّل في عدد من المقاطعات الفرنسية . وكان هذا يدل على سمعته إلى قطيعة مع فرنسا . وحصل على الامتيازات اللازمة من البرلمان في خريف سنة ١٤١٤ ، وأخذ في إعداد حملة ضد فرنسا في الصيف التالي . وأسند إلى أخويه أمر نيابته في غيابه ، وأعد أسطولاً حربيّاً قوياً ، كما أعد أدوات الحصار والتموين ، وجمع القوات في الموانئ الجنوبية لإنجلترا . ورغم أن ملك فرنسا اقترح تقديم بعض التنازلات ، إلا أن هنري الخامس رفضها . وفي يوم ١٣ أغسطس نزل مايزيد على ١٢٠٠٠ جندي عند مصب نهر السين ، وواصلوا عملياتهم بطريقة تشبه عمليات جيش إدوارد الثالث سنة ١٣٤٦ . وحاول جيش الإقطاعيين الفرنسيين أن يتجمع ويفقد من الدروس السابقة مع الانجليز . ولكن ٥٠٠٠٠ جندي فرنسي ،

يحملون الأساحة الثقيلة ، تجمعوا على إحدى الهضاب ، دون أن تساعدهم طبيعة الأرض على الحركة ، ففضى عليهم بأسهم الانجليز ، في ٢٥ أكتوبر سنة ١٤١٥ . وكان هناك من بين السبعة آلاف قتيل الكثير من الأمراء والنبلاء . وبعد هذا الانتصار عاد هنري إلى كاليه ومنها إلى إنجلترا .

وعاش شارل السادس في عزلة ، وسط الحزن الذي ساد المملكة ، وإضطرب في العام التالي إلى أن يتفق علانية مع هنري ، الذي اعترف به ملكاً على فرنسا . ولكن هنري الخامس عاد من جديد إلى شمال فرنسا في شهر أغسطس سنة ١٤١٤ ، وبدأ في القيام بعملية غزرمنظمة في أقاليم نورمانديا ، واستولى على روان بعد حصار طويل ومقاومة شديدة ، وأجبرها على دفع فدية ضخمة . وحلت الإدارة الانجليزية هناك محل الإدارة الفرنسية ، الأمر الذي ساعد بعض الأمراء المجاورين في بريتاني ، على عقد الصلح مع الإنجليز .

وفي نفس الوقت الذي قام الانجليز فيه بالهجوم واجهت مملكة فرنسا هجوماً آخر من دوق برجنديا ، وبعد قتل دوق برجنديا عمل ابنه على الانتقام ، واتصل بالانجليز . ووافق هنري الخامس على أن يقوم دوق برجنديا الجديد بحكم بعض أقاليم فرنسا . وفي ٢١ مايو سنة ١٤٢٠ تم التوقيع على معاهدة تروا ، بين شارل السادس ، وهنري الخامس ؛ وكانت المعاهدة قاسية ، وأظهرت ضعف المملكة الفرنسية . وأعطى يد ابنته زوجة لملك إنجلترا ، وحرّم ابنه من حق وراثة العرش في صالح هنري الذي سيدير بالفعل ، وباشترك مع دوق برجنديا ، حكومة مملكة فرنسا ، ويحمل لقب وريث ملك فرنسا . وكان هذا يعنى إتحاد إنجلترا وفرنسا تحت صولجان أسرة لانكستر ، بعد موت ملك فرنسا ؛ أى يعنى نهاية حكم الأسرة المالكة الفرنسية ، ويعنى بالتالى نهاية الاستقلال .

وسرعان ما سار هنري في شوارع باريس ، وحصل على إعتراف بوضعيته من مجلس طبقات الأمة ، ثم أخذ في الاستعداد لغزو مملكته المقبلة ولكنه سرعان

ما مرض وتوفي في ٣١ أغسطس سنة ١٤٢٤ ، وذلك قبل بضعة أسابيع من وفاة شارل السادس ملك فرنسا في ٢١ أكتوبر .

وكان من الطبيعي أن يعود عرش فرنسا ، طبقاً للمعاهدة تروا ، لهنري السادس ، ملك إنجلترا . وكان طفلاً صغيراً ، وقام عمه بالوصاية عليه ؛ ولم يكن في وسع الوصي أن يصرف أمور فرنسا كذلك ، خاصة وأن القوات الإنجليزية لم تكن قد عرّتها كلها .

وكانت الإدارة الإنجليزية موجودة في شمال فرنسا ، وتستند هناك إلى حماية منظمة ، وعملت على الاحتفاظ برهائن من الأهالي حتى تضمن خضوع المنطقة . أما بقية المناطق ، فكان الضباط الإنجليز يحكمونها ، دون أن يدخلوا فيها نظام الحكم الإنجليزي ؛ ويحافظون فيها على نظم الضرائب السابقة . ولكنه كان من الصعب الاستمرار في هذه الحالة ، خاصة وأن الأهالي كانوا يعيشون في فقر ، وزادت مصائب الحرب ، ومرور القوات ، وحصار المدن ، وشرهية بعض الإنجليز ، من الأحوال سوءاً . وكان الأهالي غير راضين عن الاحتلال الإنجليزي ، فلم يكن في وسع الإنجليز جمع مجالس طبقات الأمة ، أو البرلمانات ، لتقرير دفع الضرائب . ولم يكن في وسع الإنجليز أن يحصلوا على إمدادات لهم حتى من إنجلترا ، التي كانت أحوالها هي الأخرى سيئة . وأصبح على الوصي الإنجليزي أن يواجه موقفاً صعباً .

ولم تكن سلطة دوق برجنديا تمتد إلى الكثير من مناطق فرنسا ، وظلت مقاطعات كثيرة موالية لولي العهد السابق ؛ وإمتد تعاطف الأهالي معه حتى إلى داخل المناطق التي كانت خاضعة لحكم الإنجليز . وكان أهالي باريس ، رغم ميلهم إلى دوق برجنديا ، قد أخذوا في التعاطف مع ولي العهد السابق ، نتيجة لزيادة وضوح طغيان الوصي على العرش الإنجليزي ؛ كما أن جماهير الشعب ، ورجال الدين ، ضاقوا ذرعاً بنظام جمع الضرائب الذي أتمثل المحتل وأعوانه كوابلهم به ،

وأخذ الأهالي يحبثون غرسي نوومانديا ، الذين كانوا يقاومون الاحتلال الإنجليزي . وأصبح لولي العهد (الفرسي) أعوان في كل مكان ، في مناطق الانجليز ، وفي مناطق دوق برجانديا ، كانوا مستعدين للعمل من أجله .

ولكن ولي العهد كان ضعيفاً ، حتى بعد أن توج نفسه ملكاً على فرنسا باسم شارل السابع في سنة ١٤٣٣ ؛ وكان يثقل بمن مدينة إلى مدينة ، ومن قصر إلى قصر ، وبخاصة في وادي نهر اللوار ؛ وكان يمقت الحرب وكانت سياسته قاصرة ، وكان شاباً له من العمر تسعة عشر عاماً ، كما أن مجهوداته العسكرية كانت ضعيفة وبذون نتيجة ، وهزمت قواته أكثر من مرة أمام القوات الإنجليزية . واستمرت الحرب ، وكانت عملية محاصرة مدينة أورليان لفترة طويلة ، هي التي عملت على تجميع العناصر غير الراضية ، وعلى زيادة الحساس الشعبي ، وقلقلة السيطرة الإنجليزية .

وكانت لمدينة أورليان أسوراً حصينة ، سمحت لها بمواجهة حصار طويل . ومحاصرها الانجليز ، وبنوا حولها القلاع ، وعجزت محاولات الملك لإتقاذها . وفي هذا الوقت ظهرت فتاة من الفلاحين ، كانت نشطة وذكية ، وكرست كل مجهودها من أجل الملك ، وتمكنت من قلب الأوضاع تماماً ، وهي تيجان دارك . وكانت قد ولدت وعاشت في منطقة مخلضة للملك ، وبين أحداث الحرب . وذكرت أنها سمعت بعض الأصوات ، ورأت بعض الرؤيا التي ذكرت لها أن الله قد إختارها لإجلاس ولي العهد على عرش أجداده . وتعرف عليها بعض الضباط ، وأرسلوها في حراسة إلى ولي العهد الذي استجوبها ، ثم جمعت حولها بعض الضباط ، وسارت على رأس هذه القوة الصغيرة صوب أورليان وهاجمتها ، وأعدت الثقة إلى نفوس الأهالي ، وأجبرت الانجليز على رفع الحصار في ٨ مايو سنة ١٤٢٩ . وكان التأثير المعنوي لهذا الحدث كبيراً وأثار الحساس الشعبي ، وألقى الرعب في قلوب الانجليز . وتمكنت تيجان دارك ، في عدة معارك ، من تخليص

مدن شهر اللوار ، ومن أسر الكثير من الانجليز . واقنعت ولي العهد بضرورة
الجميـء معها إلى ريمس ، وسارت على رأس ١٢٠٠٠ مقاتل ، ودخلت هذه المدينة
يوم ١٦ يوليو ، وتم تتويجه هناك ملك على فرنسا .

وانضمت كثير من مدن الشمال للملك ؛ ولكنه عاد إلى خوله ، وترك جان
دارك تعمل ، دون أن يؤيدها . وحاولت أن تهجم على باريس ، ولكنها جرحت ،
وإضطرت إلى الإنسحاب . وخرجت في حملة أخرى بعد ذلك ، لكنها وقعت
أسيرة سنة ١٤٣٠ في أيدي الانجليز ، ولم يقم شارل السابع بأى مجهود من أجل
تخليصها ، أو من أجل منع الانجليز من أخذها إلى روان ، ومحاکمتها ، أمام أحد
الاساقفة من أعوانهم . وكانت مهزلة في شكلها ، ومأساة في صميمها . وبعد
تعذيب وسجن طويل ، إحتفظت جان دارك بوقارها وثبات إيمانها . وحكموا
عليها بالإعدام ، حرقاً ، وعلى أنها من الهراطقة !

وأعطت جان دارك كشهيدة وطنية ، الكثير لملك فرنسا ، حتى أن تتويج
هنرى السادس في باريس سنة ١٤٣١ قد جاء بدون معنى . ولكن شارل السابع
كان عاجزاً عن القيام بأى مجهود أصيل ، وإن كانت عصابات كثيرة من الفرنسيين
ظلت تحارب الانجليز ، هنا وهناك .

وطلب الانجليز عقد الصلح ، الأمر الذى تم في سنة ١٤٣٥ بمعاهدة أراس ،
التي سمحت الكثير من شروط معاهدة تروا ، وأصبح في وسع شارل السابع الآن ،
بالاستناد إلى قوة برجنيايا ، التقدم لإكمال تحرير بلاده . وأخذ أهالى المدين
يطردون الانجليز ، وأعاد الانجليز احتلالها ؛ وتطلب الأمر العودة إلى عقد هدنة
جديدة بين الدولتين سنة ١٤٤١ ، إعترفت من جديد بحقوق لها على نورمنديا . ولم
يكن ضعف شارل السابع هو المسئول الأول عن طول فترة هذه الحرب ، في هذا
الدور من أدوارها ؛ بل كانت هناك ، قبل كل شىء ، الحالة السيئة التي عاشتها
فرنسا ، التي إستهلكتها الحرب . وكان القيام بمجهود عسكري كبير يعني الحاجة

إلى إمكانيات مادية ضخمة ، لم يكن في وسع الأهلالي ، الذين كانوا قد خضعوا لضغط كل من الملك والأعداء ، أن يقدموها . وكان الأهلالي قد استبدوا ، في حالات كثيرة ، إلى مواردهم ، من أجل الدفاع عن أنفسهم . ولم تكن هناك جيوش نظامية ، ولا قيادة ؛ بل مرتزقة ، ولا يحصلون على تخصصاتهم بانتظام ؛ فكانوا يعيشون على المناطق التي يعملون فيها ، وتحولوا إلى عصابات ، تعيش من النهب والسلب ، ولعدة سنوات . وكان كل ذلك يؤدي إلى خراب البلاد .

ولقد أثرت حرب المائة عام كذلك على إنجلترا ، رغم أن عملياتها العسكرية كانت تقع على القارة . وتم في سنة ١٤٤٤ عقد هدنة جديدة بين فرنسا وإنجلترا وتزوجت الأميرة مرجريت ، ابنة رينيه ملك أنجو ، أخو ملك فرنسا شارل السابع ، ملك إنجلترا ؛ الأمر الذي زاد من سلطة ونفوذ ملك فرنسا ، في بلاط ملك إنجلترا ؛ ومهد للتخلص من نفوذ دوق جلوسستر سنة ١٤٤٧ . وعادت الحرب من جديد بين الطرفين ، سنة ١٤٤٩ ، وانتهز ملك فرنسا هذه الفرصة لكي يكمل تحرير نورمانديا من الإنجليز ، في أقل من عام . وكانت الحاميات الإنجليزية في أحوال سيئة ، نتيجة لنقص الإمداد والتموين .

وتم واصل شارل السابع تحرير بلاده في منطقة بوردو ، وإن كان الأهلالي قد تعودوا التعامل مع الإنجليز ، وارتبطت مصالحهم بهم ، وبشكل جعلهم ينظرون إلى بحىء ضباط ملك فرنسا ، وحرصهم على جمع الضرائب ، نظرة العداء . وصعب ذلك من أمر سيطرة الملك على منطقة بوردو ، لبعض الوقت ، وحتى سنة ١٤٥٣ . وفي هذه السنة ، كان الإنجليز قد جلوا عن كل الأراضي الفرنسية ، ما عدا كاليه . وتم في سنة ١٤٥٦ إعادة إعتبار جان دارك رسمياً ، من كل ما كانت قد إتهمت به ، وبعد خمس وعشرين سنة ، إعترف بها بطلانة ، وشهيدة .

ولكن إذا كانت الوحدة الوطنية قد سارت طبقاً لمصلحة أسرة فالوا ، فقد كان على هذه الأسرة أن تحسب حساباً للأرستقراطية القوية ، التي ظهر منها بعض أسر

إقطاعية : فكانت هناك أسرة برجنديا ، وأسرة البوربون ، وأسرة رينيه ملك
أنجو . وكان كل هؤلاء السادة قد حطمتم الحرب الطويلة ، وأصبحوا يمشون
بمجموعات من العناصر غير الراضية . وكانت أخطر هذه المجموعات هي مجموعة
برجنديا .

o o o

وكانت حرب المائة عام قد ساعدت نمو أسرة قوية في شمال شرق فرنسا ،
سيكون لها دور كبير في تاريخ أوروبا ، وهي أسرة برجنديا ، التي أخذت إسمها
من الأقليم الذي كان لها في فرنسا .

وكانت هذه الأسرة تحكم الأراضى المنخفضة ، والتي تمثلها الآن هولندا
وبلجيكا ، منذ القرن التاسع الميلادى . وفي خلال القرن الثالث عشر ، ظهرت
أهمية المنطقة التي كانت تحكمها هذه الأسرة ، لأسباب إقتصادية ، نتيجة لكثافة
سكانها ، ومهارتهم في الحرف ، ونتيجة كذلك لإمكانية تفاهلهم مع انجلترا ،
الأمر الذى كان يعرض مصالح فرنسا للخطر . وعملت فرنسا على زيادة نفوذها
في هذه المنطقة ، الأمر الذى كان يدفع دوق برجنديا إلى التحالف مع ملك
انجلترا ، والتقرب إلى ملوك ألمانيا وأمراؤها . وفي سنة ١٣٦٩ تمكن ملك
فرنسا شارل الخامس من تزويج أخيه فيليب ، من إبنة أمير برجنديا ، وأصبح
فيليب بالتالى هو دوق برجنديا . وأضاف أملاكاً ومناطق نفوذ كبيرة إلى
سيطرته ، وهو أخ لملك فرنسا ، وخاضع له ؛ كما كان ملك انجلترا نفسه خاضع
أو تابع لملك فرنسا .

ولكن ، بدلا من أن يزيد نفوذ شارل الخامس في الشمال ، عمل أخوه دوق
برجنديا على نقل فرع أسرته إلى الشمال وعمل على تثبيت دعائم حكمه هناك ، وعلى
حساب فرنسا . وزوج إبنته بأخى الإمبراطور شارل الرابع ، وزاد بذلك من
سلطة أسرة لوكسمبورج ؛ ودعم سلطته بسلطة أمراء لوكسمبورج وبافاريا ،

الأمر الذى زاد من نفوذ الألمان فى ممتلكات دوق برجنديا . وفى أثناء القرن الخامس عشر ، دخلت أسرة برجنديا ذلك الصراع الذى عاد إلى الإشغال من جديد بين فرنسا وانجلترا ، بعد أن زادت أملاكها فى كل غرب أوروبا .

وكان قتل دوق أورليان ، ثم كان قتل دوق برجنديا . قد دفع بهذه الأسرة الأخيرة إلى اتهام ملك فرنسا ، وإلى التحالف مع الانجليز . وهذا ما يفسر قسوة فيليب الطيب ، وابن فيليب القوى ، دوق برجنديا ، فى محاربه للفرنسيين ، ومع الانجليز ؛ علاوة على وجود الأطماع السياسية ، ووضع قواته تحت تصرف الانجليز .

ولقد توسعت أسرة برجنديا ، وبشكل جعل منها أحد أسس التوازن فى غرب أوروبا ، وأنشأت دولة جديدة بين فرنسا وألمانيا ، كان دوقها يمارس عليها سيادة فعلية وإن كانت تخضع قانوناً للتاج الفرنسى غرب نهر الاسكوت ، وللتاج الألمانى شرق ذلك النهر . ورغم ذلك فإن خضوعها لجيرانها كان خضوعاً إسمياً .

وبعد نهاية حرب المائة عام ، لم يقيم ملك فرنسا بمعاملة دوق برجنديا إلا بمعاملة تابع كبير ، ولكنه لم يذكر حقوقه عليه إلا بنفس الطريقة التى كان يذكر بها حقوقه على ملك انجلترا ، فى الماضى ؛ وكان هذا يعطى لوناً معيناً لسياسة ملك فرنسا حياله . وكانت قوة دوقية برجنديا تمثل خطراً دائماً بالنسبة لفرنسا ، فكانت باريس قريبة من ممتلكاتها . وفى سنة ١٤٥٤ اقترح دوق برجنديا على البابا أن يقوم بقيادة حملة صليبية ضد الأتراك .

واستمر ملوك فرنسا ينظرون إلى أمراء برجنديا على أنهم فرع ثانوى من أسرة فالوا ، وحاولوا التقليل من أهميتهم ، بدلا من الاستناد إليهم . وأدى هذا الأمر إلى نشوب مؤامرات ، وصراع بين الاسرتين . ولم تعد الحقوق الإقطاعية كافية

لاستمرار الصراع بين الأسترتين ، بل كان الأمر يتطلب إستخدام السياسة . ولم يعد في وسع برلمان باريس توجيه إتهام لدوق برجنديا ، بل أصبح الأمر يعنى دوقا له بملكات واسعة ، وأهالي ، ومصالح : إنها الأراضى المنخفضة ، بكل ما تمثله ، بالنسبة لأوربا ؛ أما الدوق فإنه أصبح يحمل لقب مؤسس بلجيكا ، التى مستحاول فرنسا إحتلالها ، ولمكن التوازن الأوربي سيظل مرتبطاً بها ، عبر قرون .

الباب الثاني

التغيرات العميقة

الفصل الرابع

التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

لقد تعرضت أحوال أوروبا لتغيرات عميقة ، إبتداء من نهاية القرن الثالث عشر ؛ وظهر ذلك بوضوح ، في الأحوال الاقتصادية الأمر الذي أدى إلى تغيير ؛ بالتالى ، في حالة المجتمع . ولقد شهدت أوروبا المناقسات بين مراكز الإنتاج الصناعى ، كما شهدت حركات اجتماعية فى المدن . أما فى الريف ، فقد تطورت الأحوال إلى أن وصلت إل حد تفكك اطارات حياة الريف ، ونشوب ثورات الفلاحين . وكانت هذه تغيرات عميقة ، لها نتائجها .

١ - الأوضاع الاقتصادية :

لا يمكننا سوى أن نعطى الخطوط العامة العريضة للأوضاع الاقتصادية فى أوروبا الغربية عند نهاية القرن الثالث عشر . ويبدو أن تزايد السكان بطيئاً ؛ ويظهر ذلك من دراسة خطوط آثار المدن . كما أن عملية توسيع رقعة الأراضى الزراعية على حساب قطع أشجار الغابات ، ووردم المستنقعات ، قد سار بهبطه كذلك ، وتوقفت عملية توسع الألمان على سواحل بحر البلطيق ، وفى مناطق السلاف .

ولا يمكننا أن نحاول تقسيم الأهالى بين الريف والمدن ، وإن كان من المؤكد أن عدد سكان الريف كان يزيد بكثير عن سكان المدن ومهما كانت المدن مزدهرة ، فإن حضارة أوروبا فى ذلك الوقت كان يغلب عليها الطابع الزراعى . وحتى فى مناطق الحياة فى البلديات ، فى الأراضى المنخفضة وفى شمال إيطاليا ، فإن التجارة والحرف كانت تشغل عدداً من الأهالى يقل بكثير عن ذلك العدد الذى كان يعمل

في الزراعة . وتزايدت هذه الظاهرة وضوحاً كلما ابتعدنا عن السواحل ، وعن وديان الأنهار . وكانت هذه الظاهرة مسيطرة في وسط فرنسا وانجلترا وألمانيا ، دون أن نتحدث عن شبه الجزيرة الاسبانية ومناطق سكنى السلاف ، حيث كانت هذه الظاهرة تمثل الأغلبية المطلقة للسكان . وكانت الطبقات ذات النفوذ المسيطر ، وهما رجال الدين والنبلاء ، تحافظ على نفوذها ، مستندة إلى ملكيتها للأرض ، وكان من الواضح أن أساس التنظيم المالى للدول كان يقوم على موارد الملكيات الزراعية . وإذا كان عدد البورجوازية أقل ، إلا أن عملها كان مؤثراً في كل النظام الاقتصادي . وكان إنشاء المدن قد غير ظروف حياة الطبقات الفلاحية جذرياً . فكان سكان المدن يعتمدون عليها في الحصول على موادهم الغذائية ، وكانت هذه الطبقات تمثل سوقاً دائماً لتوزيع منتجات المدن : وأختفى الإنتاج المنزلى ، الذى كان يهدف سد حاجيات السادة وأتباعهم ، وحل محله اقتصاد يقوم على التبادل ، نتيجة الحاجة للمدن إلى تزويدها بالمواد الغذائية . وتبدل النظام المحدد القائم منذ قرون على توزيع المحصول وعلى الرق الوراثى فى أشكال المختلفة ، وحل محله فى أثناء القرن الثالث عشر نظاماً أكثر مرونة وأكثر إنتاجية . ومع توسع المدن ، تغيرت أحوال المعيشة فى الريف ، وزاد تأثير حياة المدن على حياة أهل الريف . وظهر ذلك بوضوح فى الأراضى المنخفضة ، كما بدأ تحرر الفلاحين فى الفلاندر . وكلما ازداد نمو المدن فى دخل البلاد كلما زاد تحرر الفلاحين ، وزاد إستصلاح الأراضى غير المنتجة . وتنافس كل من رجال الكنيسة ، والسادة من العلمانيين ، فى إنشاء مدن حديثة ، وفى إستصلاح أراضى المستنقعات . وظهر نظام جديد بين المزارعين يقوم على أساس الحرية الفردية . وقل اعتماد الفلاح على السيد فى المناطق القريبة من المدن .

وكان هذا التحول فى حياة الفلاحين قد تم عند نهاية القرن الثالث عشر أو كان على وشك التمام فى كل أوروبا . وانتشر ذلك بسرعة ، حسب أعداد المدن وأهميتها ،

ومن الغرب إلى الشرق . ولا شك في أن بعض صيغ وملامح الماضى ظلت باقية في مناطق السلاف ؛ ولكن التحول فرض على المجموع . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن الأقلية البورجوازية قد قررت مصير الأغلبية ، وهي من الفلاحين ، وذلك نتيجة لإعتمادها عليهم في الحصول على المواد الغذائية ، وفي تسويق سلعا لهم . وبالتالي فإن اقتصاد المدن حطم أساس الانتاج المنزلى ، وفتح أبوابا جديدة للانتاج الزراعى . وغير الظروف الاجتماعية والقانونية للطبقات الفلاحية .

وإذا كانت المدن يستهلك منتجات الريف ، فإن الريف كان سوقا في نفس الوقت لصناعات المدن . ونتج عن ذلك تخصص في العمل فيما بينها في أثناء القرن الثالث عشر . وأصبح الفلاح الذى يزود المدن بالمواد الغذائية ، يحصل منها على الأواني والملابس ، وأثاثاته التى كان يجبراً على صنعها لنفسه في الماضى . واختفت المعامل والورش التى كان بعض السادة وكبار الملاك قد أقاموها في أحواش مساكنهم ، ولم تعد موجودة إلا في مناطق السلاف ، في الشرق . وبالاختصار أختتمت ظاهرة الانتاج الحرفى الريف . وتركزت هذا الانتاج في المدن وأصبح حكرأ على رجال البورجوازية . وأصبحت هذه البورجوازية ، مع نهاية القرن الثالث عشر ، تمتع ممارسة الصناعة في الريف إلا إذا كانت تحت إشرافها ، كما حدث في مصانع غزل الصوف قرب المدن ، والتى عمل فيها الفلاحون ، بمواد أولية يقدمها لهم أصحاب هذه الصناعة في المدن ، وبأجور يحددونها لهم كذلك . ووصل اقتصاد المدن ، الذى بدأ منذ القرن الحادى عشر ، إلى عصر ازدهاره ، عند نهاية القرن الثالث عشر . ولن تبدل التعديلات التى مر بها خلال الإصطدامات الاجتماعية التى وقعت أثناء القرن الرابع عشر كثيراً من مبادئه الرئيسية . وكانت الروح المحركة له منظمة تماماً ، وتعطيه شكلا يجرى البعض على أن يسميه « باشتراكية البلديات » . وكانت النقابات الحرفية اجبارية ، يدخل فيها كل العاملين . وكانت ممارسة أليه مهنة تتطلب الدخول في الحرفة التى تحتكرها ، وكان

الدافع الفردي بسيطاً داخل كل حرفة . وكان الهدف الأساسي هو الاحتفاظ بين أعضاء النقابة على مساواة تمنع أحد الأفراد من الإثراء على حساب الآخرين . وكان هذا هو أساس كل القرارات العديدة ، الخاصة بطريقة الصناعة وتحديد ساعات العمل ، والتي كانت تنظم عمليات البيع والشراء ، وتقرر الأسعار ، وتمنع الدعاية وكل أنواع المنافسة . وكانت هذه النظم تهدف كذلك ضمان جودة الصنف ، وفي صالح المستهلكين ؛ الأمر الذي تطلب التفتيش على السلع . وعلى المواد الخام . ولكي يحاربوا ارتفاع الأسعار ، حاولوا التخلص من الوسطاء ؛ مسهلين بذلك عملية التبادل المباشر بين المنتج والمستهلك . وكانت هذه النظم تطبق على كل المستويات ، ومن الأسواق الكبيرة حتى أصغر حوانيت الصانع ؛ وطبقت كذلك على تجارة المواد الغذائية . وكان هذا النظام يعنى الحماية ، وعدم السماح بالمنافسين الأجانب ؛ وأصبح الانتساب للبورجوازية هو السبيل الوحيد للوصول إلى حرية النشاط الاقتصادي في المدينة . وسرى العمل بهذا النظام في كل مدن أوروبا الغربية . وكان يطبق على حرف وتجارة المدن مع ضواحيها .

أما الإنتاج الصناعي الكبير ، والذي كان يهدف التصدير ، فإنه كان لا يخضع لهذا النظام . وبدلاً من قيامه على عشرات من الصانع ، كان يعتمد على المئات ، ويتخصص في صناعات معينة ، ويخضع لتقلبات ولأزمات التجارة ، وبالتالي لرأس المال . وكان معظم عماله من الأجراء ، ويورد لهم الرأسماليون المواد الخام ، ويستلمون منهم السلع المصنعة . وكان العمال ينظمون كذلك داخل نقابات ، ولكنها كانت أقل حرية وأكثر خضوعاً لرأس المال وللرأسماليين . وكان العامل هنا لا يتصل بالمستهلك ، ولا يمكن عقد مقارنة بينه وبين صاحب رأس المال ، وكان هذا القطاع هو الذي شهد البذور الأولى للإضرابات التي بدأت مع منتصف القرن الثالث عشر ، وأدت إلى اضطرابات اجتماعية .

وكانت التجارة الكبيرة التي تزود الصناعة بالمواد الأولية ، وتنقل المنتجات ،

تتمثل بنقل بعض المواد الغذائية والادوات السكالية ، مزدهرة بشكل خاص في حوض البحر المتوسط . وكانت تتركز بنوع خاص في جنوا والبندقية . وكانت المنافسة الشديدة بينها إلا تمتعها من تنمية المراكز التجارية التابعة لكل منهما في شرق البحر المتوسط . وكانت الملاحة هي وسيلة الغرب للتزود بسلع ومنتجات شرق ، التي ازدادت أهميتها باستمرار في حياة شعوب الغرب . وشاركت كل ن برشاونه ومارسيليا إلى جانبها في هذه التجارة المربحة .

وكانت هناك تجارة رابحة كذلك بين موانئ بحر الشمال وموانئ بحر البلطيق . لكن الصلات البحرية كانت ضعيفة بين تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال . لذلك فإن الأسواق الدولية إنتشرت في غرب أوربا بين منطقة الفلاندر وبين طاليا . كان التجار يتقابلون في هذه الأسواق ويتبادلون ويشتررون ويدفمون . شهدت هذه الأسواق عمليات الشراء بالأجل ، ومع تحميل الأسعار بعض أرباح مع التعاقد عليها بصكوك بين البائع والمشتري .

وزادت العمليات التجارية من الاهتمام بالفضة والعملات . وكان اليهود ياركون فيها . وكانت عملياتهم تغطي في غالبيتها قروضا لبواد استهلاكية ؛ صبحخوا ضرورياً ومبغضين في نفس الوقت ، وهذا ما يفسر لنا طرد كثير من راء وملوك أوربا لهم في بعض الفترات ، وتحملهم ومنحهم الحماية في فترات تری . وكانت السلف التجارية موجودة ، ولكنها ازدهرت منذ القرن الثالث س ، ونمت في إيطاليا ، التي تميزت بوجود رؤوس أموال ضخمة ، ثم انتشر ا نشاط أصحاب رؤوس الاموال الايطاليين ، نتيجة تطور نظامهم وسهولته ، معظم أنحاء أوربا الغربية .

٤ - حالة المجتمع :

بدأت الشروخ تظهر في هذا المجتمع الأوربي ، الذي كان قد ظل بلا تغيير اقرون عديدة . ولم يظهر التطور في كل مكان في نفس الوقت . فقد كانت

هناك بلاد تأخرت ، مثل ألمانيا التي ظلت الفوضى الإقطاعية ضاربة فيها ، ومثل أسبانيا التي كانت قد أنهت حروبها ضد المسلمين في الأندلس ، تقريبا ، واحتفظت بمثل عليا عن حياة الفروسية . ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لبلاد أخرى كانت التنمية الاقتصادية فيها أكثر تقدماً ، مثل إيطاليا ، وكذلك الحال بالنسبة لمملكتي فرنسا وإنجلترا ، حيث كانت التطلعات السياسية الجديدة للمملكة تتعارض تماما مع مبادئ النظام الإقطاعي . ويمكننا أن نرى في فرنسا بنوع خاص ، ومنذ نهاية القرن الثالث عشر ، الإرهاصات الأولى لذلك التحول الذي سينتهي بتحطيم النظام الإقطاعي .

والحقيقة أن نظام الفروسية قد بدأ يتحطم بقوة الأوضاع الطبيعية . فلقد كانت هناك عملية مزدوجة للتجميع ، وللتفتيت في نفس الوقت . فكان كبار النبلاء يتشبهون بالملك ، ويستخدمون سياسة الزواج والشراء ، من أجل زيادة مساحة مناطق نفوذهم . وحدث ذلك في فرنسا ، كما حدث في إنجلترا كذلك . ولسكننا نلاحظ من ناحية أخرى أن كثيرا من مناطق النفوذ الإقطاعية الصغيرة تفتتت ، وبشكل زاد من صعوبة شكل الخريطة الإقطاعية للبلاد . وكانت عمليات التقسيم والوراثة والبيع تساعد على ذلك . وأصبحنا نجد بعض السادة بدون أرض ، والبعض الآخر لا يحتفظ من أراضيه إلا بما تمثله مزارعه النافعة . وأصبح في وسع البورجوازيين ، أو من أئرى من الفلاحين ، أن يشتري بعض امتيازات السيد الإقطاعي . وهكذا وجدنا النبلاء ، الذين يعتمدون على مولدهم ، والسادة الذين يعتمدون على ممتلكاتهم العقارية من الأراضي ؛ وأصبحنا نجد نبلاء بدون سيادة ، وإلى جوارهم سادة من الأغنياء الجدد والتجار والسامرة . وهكذا تطورت العلاقات الشخصية ، وواجبات المتبادلة التي تأسس عليها نظام الإقطاع ، وساعد على هذا جهود الالتزامات الإقطاعية في مواجهة نظام رأسمالي مرن . وفقدت الإيجارات النوعية أو المالية قيمتها الفعلية مع مضى الوقت ، نتيجة

لتنمو الإقتصادى الذى ساعد على سرعة دورة رأس المال . وكان إنخفاض قيمة
الإيجارات الخاصة بالإقطاعيين بسيطاً . ولكن وقوع إحدى الأزمات ، مثل
حرب المائة العام ، كان كافياً لزيادة سرعة التطور ، والتمهيد لتغير إجتماعى حقيقى .
ولم يكن النبلاء مستعدين لمواجهة مثل هذا الخطر . بل كانوا يحاولون الإحتفاظ
بمخزياتهم تجاه تدخل السلطة الملكية . فكانت عملية المحافظة على حقوقهم ، وتفتت
إقطاعاتهم ، وحروبهم المتعددة ضد بعضهم ، تنهك قواهم ، وتستنفذ دماءهم
وإيراداتهم . وكانوا لا يفهمون السياسة ، ولا الإقتصاد . وكانوا مثل بقية رجال
العصور الوسطى لا يفهمون معنى التوازن المالى ، وينفقون أكثر مما تسمح لهم به
دخولهم . وكانوا يضطرون إلى الإستدانة لكى يحافظوا على مظاهرهم ، أو لزواج
أبنائهم ، ويقعون فريسة للبرابن . ويرهنون أراضيمهم ، ويتحطمون .

وأخذ النبلاء ، الذين بدأوا فى فقد الصلة بالأرض ، وهى التى كانت لا تزال
أساس كل إقتصاد . يكونون طبقة ، لم يعد هناك معنى لبقاء إمتيازاتها . وأخذت
هذه الطبقة تنفلق على نفسها كل يوم أكثر ، وتصاب بالضعف ، نتيجة لإنغلاقها
وعدم تجدددها . وبعد أن كان النبيل مرتبطاً بالفروسية ، إنصرف كثير من النبلاء
عن الفروسية ، وفضوا عليها الوظائف والحصول على الإلتزامات . وبعد أن كان
الحصول على ألقاب النبيل مفتوحاً ، وأمام الأثرياء ، تحول إلى حق لا يمنحه إلا
الملك وعدد من كبار أتباعه . وكان البورجوازيون وكبار الفلاحين لا يأبهون
كثيراً بالحصول على ألقاب النبيل ، التى كانت تمنحهم إمتيازات بسيطة ، وتفرض
عليهم أعباء ثقيلة ودخل كثير من النبلاء إلى المدن لسكى يحصلوا على إمتيازات
البورجوازيين .

أما طبقة رجال الدين ، ومن حيث كونهم طبقة ملاك ، فإنها أخذت تقاسى ،
مثل النبلاء من الأحوال الإقتصادية الأقل ميزة بالنسبة للمستملكات العقارية الكبيرة
من الأراضى ؛ وأصبحت إيراداتها ، نتيجة لسوء الإدارة ، لا تكفى لسد

إحتياجاتها . ومع ذلك فقد ظلت هذه الطبقة قوية وثرية ؛ وظلت المؤسسات الدينية موجودة ؛ وكان كل مسيحي يرغب أن يترك ، عند موته ، شيئاً للكنيسة ؛ الأمر الذى أدى إلى تجديد ثروة رجال الدين باستمرار . ولكن مظاهر الضعف بدأت تظهر عليها ، خاصة وأنها أثمرت الأحقاد عليها ، نتيجة لجمل بعض رجال الدين ، أو انحرافهم ، أو شراهتهم ، وبشكل لا يؤدي إلى احترام الناس للبيزات كانوا يتمتعون بها . وكان كل من الملوك والسادة يحاولون جاهدين السيطرة على الكنائس ، فكانوا يرشحون من يرغبون فيه لتولى مناصب الكنيسة بدلاً من نظام الانتخاب الموجود ، كما كانوا يرغبون في إجبار رجال الدين على المشاركة في أعباء الضرائب في البلاد ، ويحاربون ضد حرية رجال الدين وإمتيازاتهم .

ومن ناحية أخرى ، كان بلاط روما يتطور ، وكان يطالب كل يوم بممتلكات إقليمية جديدة ؛ فزادت مطالباته بضرورة العشور ، التي كان قد فرضها من أجل تمويل الحروب الصليبية والحملة العسكرية التي كان يشرف عليها ، وبشكل جعل هذه المطالب منتظمة . وأخذت الأحقاد تظهر داخل نطاق طبقة رجال الدين نفسها . وزاد عدد الجماعات الدينية ، التي شجع عليها البابا ، وبشكل يهدد أسس تنظيم الكنيسة نفسها ؛ وأصبح الاساقفة يحقدون على الرهبان ، وحاولت الجامعات أن تنفي عن بعض الرهبان حقهم في المشاركة في التعليم . وكان هذا يدل على ضعف طبقة رجال الدين ، وبشكل يمنهم من القيام بواجباتهم على أحسن وجه .

وعلى العكس من ذلك نجد أن طبقة الفلاحين تصل إلى درجة من الرخاء المادى في فرنسا ، وبدرجة لن تعرفها بعد ذلك . وشاهد الفلاحون في فرنسا ، والى كان التطور الإجتماعى فيها أكثر تقدماً ، زيادة حدود الحرية الفردية عما كان عليه الأمر من قبل . وأخذ نظام العبودية ، الذى لم يصل إلى مرحلة الشمول ، فى التمهق أراضى . وأعطى ماوك فرنسا ، بقراراتهم المتحررة ، الحق للفلاحين

في شراء الأرض أو في إستئجارها ، وبشكل يسمح لهم بالتحرز من العبودية
وزاد عدد المتحررين في عهد القديس لوى ، ورأى خلفاءه في ذلك إجراء ض
في صالح الحزاة التي كانت خاوية بشكل مستمر تقريباً . وأرسل كل من ف
الشجاع وفيليب الجميل مندوبيه يجوبون المقاطعات ، ويتعاملون مع الفلاحين
وأخذت ظاهرة الإقطاع كذلك تتطور في صالح الفلاحين . وأصبح من ح
يدفع جزء من نصيب المالك في المحصول أن يحتفظ بالأرض من جديد للفلاح
وبالتالى حق الإنتفاع بها ، وإبقائها في حيازته . وأصبح كثير من الفلاحين
يوافقون على تخفيض نصيبهم في غلة الأرض ، حتى لا يهجرها الفلاح ،
بدون زراعة . وكان تخفيض قيمة الإيجار تخفف العبء عن الفلاح ، في
الذى كانت فيه ضد مصلحة النبلاء . وأصبحت حقوق السادة حقوقاً و
وفعالية ، مع مرور الزمن ؛ وأصبحت تتعلق بالأراضى بعد أن كانت مرتبطة
بالأشخاص . ومع ذلك فلم تكن أوضاع الفلاحين مرضية ، وإذ أنهم كانوا
حماية ، أمام الحروب وعمليات النهب . وفي الوقت الذى تنشب فيه الحرب
فرنسا وإنجلترا ، أثناء القرن الرابع عشر ، ستمتد هذه الحرب ، وتؤثر على
مملكة فرنسا ، وتصبح طبقة الفلاحين هى فريستها الأولى ، ترى أن أزدهار
توقفت لفترة طويلة .

أما البورجوازيون ، فكانوا مسلمحين بدرجة أحسن خلف أسوار المدن
يسكنونها أمام أخطار المستقبل . وكانوا قد تحرروا ، في كل مكان ، وفي القرون
السابقة ، من الخضوع لنظام الإقطاع ؛ وحصلوا على مواثيق بالتحرز تسمح
بتنظيم أنفسهم ، وبتنمية حرفهم وتجارتهم ، في نطاق إدارة المدن . ولكن
المدن كان قد وصل إلى حده الأقصى : فأصبح من النادر إنشاء مدن جديدة
حكومات المدن فكانت حرة من الناحية النظرية فقط ، إذ أن السلطة الملكية
تفقد من صعوباتهم المالية من أجل زيادة سلطة النظام الملكي .

بعض المدن ، في بعض المناطق الخاصة ، والتي كانت مجهزة بالصناعات الكبيرة ، ومن أجل تجارة التصدير ، هي التي تقدر ، مثل مدن الفلاندر ، وموانئ بحر البلطيق ، وبحر الشمال والمدن الإيطالية ، على أن تزيد من عدد سكانها ، والعاملين فيها . ولكنها كانت تتطور بسرعة ، وفي وسط أزمات مستمرة ، وكانت تحاول الوصول إلى توازن . ذلك أنه بعد الصراعات السابقة ، التي كانت موجهة ضد سلطة السادة ، حدثت اضطرابات إجتماعية ، تصادمت فيها الطبقات المختلفة داخل المدينة الواحدة ، وبشكل واضح ، وأصبحت مدن إيطاليا الشمالية ، التي تحررت من السيطرة التي حاول أن يفرضها عليها الأباطرة الجرمان ، تمثل المظهر الأساسي لتلك المجتمعات المتطورة . وأصبحت تلك الهوة التي تفصل بين المفاضلات السياسية ، بين الجلف والجهلين ، آخذة في الإختفاء ، وإن كانت خطوط المستقبل غير واضحة تماماً بعد . وفي بعض المدن ، مثل البندقية أخذت أوليغاركية بعض كبار التجار تفرض نفسها بشكل واضح ، وتفضل الطريق أمام تقدم الطبقات الشعبية ، بينما نلاحظ في فلورنسا ، وحيث كان النظام الديمقراطي لا يزال سائداً ، دفعة قوية من جانب الطبقات الوسطى : فمشاهد حقد طبقات النبلاء ، فتحاول الطبقات الوسطى أن تفرض نوعاً من أنواع الحكومة المعتدلة ، حيث تشارك نقابات التجار السلطة كذلك . أما فيما عدا ذلك ، وفي سهل لومباردى ، فإن التطور كان أكثر تقدماً ؛ ذلك أن عامة الشعب كانوا قد انتصروا على النبلاء وعلى أوليغاركية التجار ، فأخذوا السلطة في أيديهم ؛ ولما كانوا عاجزين عن التنظيم ، فإنهم تركوا السلطة في أيدي المغامرين الذين يسيطرون على الموقف . ولذلك فإنه من حقنا أن نتوقع حدوث أكبر الاضطرابات الإجتماعية ، في مجتمعات المدن .

٣ - المنافسة بين مراكز الإنتاج الصناعي :

كان من نتائج تزايد العلاقات التجارية ونمو النظام الرأسمالي تزايد الإنتاج

في صناعات التصدير ، رغم أن أهمها ، وهي صناعة النسيج ، كانت ثوابه صعوبات ضخمة من أجل الحصول على المواد الخام . وتأثر سوق الصوف خلال القرن الرابع عشر بأزمة خطيرة . وتعرضت صناعة النسيج الفلمنكية لصعوبات كثيرة نتيجة لنقص الصوف الانجليزي . وكانت إنجلترا ، في نفس الوقت الذي كانت تزيد فيه من سيطرتها على القارة ، تحاول التحرر في نطاق العمليات الاقتصادية . وحاول ادوارد الثالث ، الذي رفض أن يكون إقتصاد بلاده تحت رحمة السيد المسيطر على الفلاندر ، أن يتحرر من الصانع الآين من القارة ؛ وحاول أن يوطن صناعة الأتسجة في إنجلترا ، ويشيء مهناً للغزاليين في المدن الرئيسية للمملكة ، وبخاصة في بريستول التي ستخرج منها أحسن المنسوجات الأوروبية خلال القرن الخامس عشر . وفي انتظار الوصول إلى ذلك ، اضطرت إنجلترا إلى أن تستمر في الاعتماد على الصناع الفلمنكيين من أجل تمييز الصوف الخام . ولكن سياسة التصدير التي وضعها ادوارد الثالث كانت خاضعة للتردد والحذر . ولما كان هذا الملك يحصل على أكبر إيراداته من الضريبة المفروضة على بالات الصوف عند خروجها من المملكة فإنه عمل على فرض رقابة شديدة على نقلها ؛ كما أن تجار لندن ، الذين ساروا على نهج أصحاب البنوك الإيطالية ، سيطروا على تجارة التصدير ، وفرضوا على الملك سياسته الفلمنكية . وأنشأوا سوقاً خاضعاً للمراقبة ، من أجل الإشراف على تصدير الصوف ، وإن كانت المنافسة بين التجار قد تسببت في تغيير مكان هذا السوق ، سواء في الموانئ الانجليزية أو في موانئ القارة ، مثل بروج وكاليه . وكان هذا التغيير المستمر مع عدم استقرار الظروف العامة للسوق في غير صالح نمو صناعة المنتجات الصوفية . وكان من الطبيعي أن يخضع الملك لهذا التأثير ، في نفس الوقت التي لإزدادات فيه العلاقات التجارية . ورغم الصعوبات فإن الانتاج قد ازداد ، نتيجة لزيادة الطلب . وليس هناك ما يدفعنا إلى الاعتقاد في أن زيادة الانتاج كانت تنمشى مع

تحسين السلعة ، بل أن كل الشواهد تدفعنا إلى الاعتقاد في أن طريقة الإنتاج قد ظلت كما هي . وإن دراسة النظام ، التي ازدادت تفصيلاً أثناء القرن الرابع عشر ، والتي فرضت على العزاليين والنساجين والصباعين ، وكل أبناء المهن المتصلين بصناعة المنسوجات ، لا تدل على أقل تجديد . ولقد ادعى البعض أن هذا الاستقرار المزعوم يرجع إلى روح العصور الوسطى المحافظة ؛ ولكن التقدم الذي تم في التقنية التجارية ، وروح الابتداع التي ظهرت بوضوح في التغييرات التي حدثت في التسليح العسكري وفي الانشاءات البحرية تدفعنا إلى الاعتقاد في غير ذلك ، وإلى القول بأن الاستمرار في العمل حسب أنماط تقليدية للإنتاج كانت ترجع إلى الأساس التنظيمي الذي فرض على الصناعة خلال القرن الثالث عشر ، والذي ازداد قوة في الفترة التالية . ذلك أن الاتجاه الفردي كان يخضع لرقابة صارمة ، وكان مرفوضاً . وكانت نقابات المهن تحيط بنشاط العامل وتضغط على العمال بدرجة متزايدة . وإذا كان النظام الرأسمالي يسيطر في نطاق التجارة ، فإننا نجد على العكس من ذلك أن كل الاحتمالات قد اتخذت بشكل يفرض على الصناعة عدم الحرية في إستيراد أو تصدير المنتجات . وكان هذا يدل دالة واضحة على استمرار خضوع الصناعات ، وبشدة ، لإقتصاد المدن المغلقة .

ولم يستمر هذا الوضع إلا نتيجة لضغوط قوية . وكانت القوة تتدخل من أجل الاحتفاظ للمدن بحق الاحتكار ، ومن أجل حجبها داخل أسوارها . ومن الطبيعي أن هذه الصناعات كانت تنتشر في الأرياف إذا ما تركت أقل حرية لتصرف أبناء المهن . وكانت مصالح الملاك العقاريين والفلاحين تدفعهم إلى المشاركة في أرباح أعمال الصوف التي تعود إلى البورجوازيين . وأعطتنا الفلاندر وهي أكبر منطقة صناعية في أوروبا في ذلك الوقت ، دلائل لها قيمتها . فمنذ بدايه القرن الرابع عشر حاولت بعض القرى أن تشترك في صناعة المنسوجات ، وأنشأ الفلاحون فيها مهن للغزل والنسيج . ولكن المدن كانت تراقب بحذر هذه

المحاولات ، التي كانت ستعرضها ، في حالة نجاحها ، لمنافسة قوية . فقاموا يومياً بتنظيم عمليات الإستيلاء في المناطق المحيطة بالمدن ، يتم فيها الإستيلاء على كل أدوات الصناعة ، وينقلونها أو يحطمونها أو يحرقونها . وكان على الصناعة أن تظل إمتيازاً يحتفظ به للبورجوازيين وحدهم . وكان هذا هو الشرط الأساسي في تلك التنظيمات التي هدفت للإحتفاظ بالأجور في أعلى مستوى ممكن .

ومع إزدياد قوة المدن إزدادت معها قوة صناعاتها . التي ستعمل على إعطائها شخصيتها المميزة . وبعد منع الفلاحين من إستخدام الصناعات أصبح من الضروري منع المدن الثانوية من صناعة المنسوجات ، التي لها نفس نوع أو التي لها نفس صفات منسوجات المدن الرئيسية . وإستخدمت كل الحجج للوصول إلى هذه النتيجة ، سواء للإحتفاظ لبعض المدن بصناعة المنسوجات الرقيقة ، التي كانت لوحدها تزود تجارة التصدير ؛ وترك المنسوجات الخشنة للمدن الصغيرة ، خاصة وأن أسعارها كانت منخفضة ، وكانت تستخدم في الإستهلاك المحلي .

وكان التخصص الصناعي للمدن الكبرى يشرح هذه السياسة بوضوح . فكان هو الذي يدفعهم إلى أن يطالبوا أمام الأمير ، بإستقلال ذاتي ، يسمح لهم بالوصول إلى السيطرة الإقتصادية التي يأملون فيها . وكانوا يدعون أنهم يفرضون عليه خط سير سينتضع عمله تماماً لمصالحهم . وفي بداية حرب المائة عام ، لم يكن لذلك الصدام الذي نشأ بينهم وبين الأمير خلال سنوات ؛ وضمن لأمير غيره حكومة الفلاندر ، سلباً سوى رفض الأمير الأول التحالف مع ملك إنجلترا ، ذلك الرفض الذي دفع ملك إنجلترا إلى منع تصدير الصوف ، الأمر الذي تسبب في وقف صناعاتهم . ومع ذلك فلم يكن في وسعهم ، لفترة طويلة ، أن يعاوا حسب إتفاق معين ؛ إذ أن التمييز الذي كان يضعهم في مواجهة الأمير كان يضعهم في مواجهة بعضهم . ونشأت عن ذلك سلسلة من القلاقل المستمرة التي أعطت لتاريخ الفلاندر شكلاً يتميز بالإضطراب . فكانت المدن الثلاث ، الموجودة هناك . تتحد

مرة ضد الأمير ، وكانت تفصل من بينها إثنين ، مرة أخرى ، وبتأييد من الأمير ، من أجل عاربة المدينة الثالثة .

٤ - الحركات الاجتماعية في المدن :

إذا كان الإنقسام هو الذى يسود بين المدن وبعضها ، فإنه كان يسود بدرجة أكبر من ذلك بين أهالى كل واحدة من هذه المدن . وكانت هذه المراكز الكبرى للصناعات مسرحاً لصراعات إجتماعية مستمرة ، كانت بذورها قد ظهرت فى القرن السابق ، ثم لاستمرت بقوة لها شكل المناسبة .

وكان التنظيم النقابى الذى يتناسب مع أحوال الصناع الذين يعيشون من السوق المحلى ؛ غير قادر تماماً على إرضاء حاجات صناع المنسوجات . الذين كانوا ينتجون إنتاجاً كبيراً من أجل التصدير . ولم يكن فى وسعه أن يحمى ، من نفوذ رأس المال ، أولئك الغزاليين والنساجين المكديسين فى الحارات الصغيرة فى مدن الأراضى الواطئة ، أو فى فلورنسا فى إيطاليا . ورغم كل شيء ، فقد ظلوا يخضعون لسكبار التجار ، الذين كانوا يسيطرون على نشاط ورشهم الصغيرة . وكانوا عمالاً يعملون فى منازلهم ، ويتقاضون مرتبات فى نفس الوقت . وإذا كان نظام النقابات يحميهم من منافسة العمال غير النقابيين ، ويحافظ بينهم على المساواة فى الظروف ، فإنه لم يصل إلى حد إعطائهم الإستقلال الإقتصادى تجاه أصحاب العمل . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك تلك الإضطرابات الناشئة بسبب الحروب ، أو بسبب منع تصدير الصوف من إنجلترا ، ومن فترة لأخرى ، حدثت أزمات كان من الصعب التنبؤ بها ، ومن الصعب كذلك منعها ؛ وحلت هذه الأزمات بصناعة المنسوجات التى كانت تخضع للخارج ، وأدت بالعمال إلى البطالة . وفى الأوقات العادية كانت هناك حركة عدم رضاء مكتومة بين جماهير العمال ضد أصحاب العمل الذين يستخدمونهم . ولم تكن حركات الإضراب التى إلتجأوا إليها منذ أواسط القرن الثالث عشر سوى الإرهاصات الأولى للشورة .

وهذه الثورة التي كانت إجتماعية في أصولها ، أخذت طابعاً سياسياً في شكلها . ونعرف أن الهورجوازية الغنية كانت قد احتفظت منذ البداية بممارسة السلطة البلدية . وفي كل مكان كان رجال البلديات يختارون بنوع خاص من بين رجال مجموعة هؤلاء التجار ، الذين كان صناع المنسوجات يعملون لديهم . وكانت حكومتهم حكومة طبقية بكل معنى الكلمة . ومع مرور الزمن ، أصبحت علاوة على ذلك حكومة أقلية . وكانت هذه حقيقة واضحة ، تتمثل في إستيلاء بعض الأسر على إدارة المدن ، وهو الأمر الذي يمكن ملاحظته في جميع أنحاء غرب أوروبا . ولم يكن النظام السائد مهدداً في تلك الأماكن التي لم يكن للصناع فيها القوة الناتجة عن أعدادهم ، ولا تلك التي ساد فيها للشعور بالظلم . ولكنه كان من الصعب أن تستمر الأحوال على ذلك في المدن التي تضم الصناعات : ولقد إضطهدت هناك بمعارضة آلاف الأجراء ، الذين كانوا يميلون إلى المطالبة بالمشاركة في السلطة ، التي كان يمارسها ممثلون عن أولئك الذين كانوا يحتفظون بهم تحت سيطرتهم الإقتصادية .

وكانت أخطاء الأرسقراطيين عند نهاية القرن الثالث عشر قوية عليهم . وكان كل من يبعده عن حكومة المدينة يطالب بإصلاح ؛ لم يكن الأمير الأقليمي يأمل فيه ؛ وكان هذا الأمير يرغب في التخلص من العناصر المتحركة ، بينما كان صناع المهن الصغرى يحتدون على سيطرة تلك المجموعة الأرسقراطية الأثانية وصاحبة السلطة التامة . وفي مثل هذه الظروف كان من الطبيعي أن ينتصر بجانب عمال هذه الصناعات الكبرى . وفي الفلاندر ، وحيث كان عددهم ، وبالتالي قوتهم ، أكبر منها في أي مكان آخر قاموا قرب سنة ١٢٨٠ بكفاح ضد الأرسقراطيين . ولكي يحتفظوا بأنفسهم ضد معارضة كانت تقف إلى جانب كونت الفلاندر ، فإنهم طلبوا معونة فيليب الجميل . وأسرع الملك بإرسال المعونة لهم ، ووضع أحد سادة المنطقة تحت حمايته ، الأمر الذي أدى إلى زيادة الحقد

بين الطرفين : مجموعة كونت الفلاندر ، ومجموعة ملك فرنسا . ورغم إلتصار قوات ملك فرنسا سنة ١٣٠٠ إلا أن بعض الأخطاء أدت إلى نشوب الثورة في بروج سنة ١٣٠٢ ، الأمر الذى أدى إلى نزول الفرسان الفرنسيين إلى المدينة لإعادة سلطة الأرسقراطيين . وقتل الأهل ببعض الفرسان أثناء الليل ، وانتشرت الأخبار ففشبت الثورة في كل مكان ؛ ثورة الصغار ضد المكبار ، ثورة الفقراء ضد الأغنياء ؛ وبدأ أن ثورة إجتماعية كانت على وشك الفشوب في كل مدن الأراضى المنخفضة ، إذ أن الثورة إمتدت من الفلاندر إلى برابانت ثم إلى ليج . وأعاد الألتصار الذى حصل عليه عمال وصناع بروج ضد الجيش الملكى المرسل ضدهم ، فى ١١ يوليو سنة ١٣٠٢ ، الثقة إلى نفوسهم ، وكان بداية لمشاركتهم فى السلطة كما كانوا يأملون .

ومع ذلك فعلمنا أن نعترف بأن آمالهم لم تتحقق كلها . فى أثناء القرن الرابع عشر كما ، لم تهدأ المدن الصناعية ، واستمرت فيها الإضطرابات ، نتيجة إلى الإفتقار إلى التوازن بين المجموعات المختلفة لذلك المجتمع الموجود فيها ، واستمرت البورجوازية الكبرى فى محاولة إعادة السيطرة التى فقدتها . ووصلت إلى ذلك نتيجة لمساندة الأدواق لها فى مدن برابانت . أما فى ليج فإنها إضطرت إلى التنازل ، فى سنة ١٣٨٤ ، وبعد جولات دموية ، أمام رجال الصناعات . وفى الفلاندر ، وحيث كان صناع النسيج يستندون إلى سيطرة كبيرة على كل الصناع الآخرين ، حاولوا تنظيم نوع من تمثيل المصالح ، عن طريق توزيع السلطة البلدية بين الأرسقراطيين ، ونقابات النسيج ومجموعات المهن الثانوية . ولكن المصالح التى حاولوا التوفيق بينها كانت على درجة من الاختلاف لا تسمح بدشأة وفاق لمدة طويلة .

وكان الإختلاف فى ظروف الحياة بين مهن الصناعة الكبرى ومهن الصناعات الصغرى يمثل نوعاً من الصدام المستمر . وعلاوة على ذلك كانت مسألة الأجور

تسبب في نشأة إختلاف من وقت لآخر بين النساجين والغزاليين ، خاصة وأن كل من رجال هاتين المجموعتين كان يحاول أن يضمّن ميزات على حساب رجال المجموعة الأخرى ، ويحصل لعمله على أجر كان يرفضه لعمل خصمه ، بدعوى منع الإلراقفاع الزائد لأسعار المنسوجات . وكانت الإضطرابات الدموية تدفع بكلفة الميزان إلى هذه الناحية مرة ، وإلى تلك مرة أخرى . وزادت الفوضى علاوة على ذلك نتيجة لمشاركة الأرسقراطيين وأصحاب المهن الصغرى في هذه الخصومة ، وتدخل الكونت ، الذي كان يتحالف طبقاً لظروفه إما مع النساجين ، أو مع الغزاليين ، وتزايد ظهور وإصدار الواثق الخاصة بتنظيم العمل ، ولكنهم لم تؤدي إلى نتيجة . والواقع أنه لم يكن يمكن أن يستولى الصناع على السلطة حتى يحصلوا على الإستقلال الإقتصادي الذي كانوا يحلمون به . ذلك أن سقوط الأرسقراطيين قد وضع حداً لكثير من المساوىء ، ولكن الظروف العامة التي تحيط بصناعة المنسوجات ظلت موجودة . ولم يكن هناك أى شخص في السلطة يمكنه أن يوقف الأزمات الناتجة عن الحروب ، أو أن يقرر أسعار الصوف المستورد من إنجلترا ، ولا أسعار المنسوجات الموجودة في التجارة الدولية . ولم تنتهي الصفة الرأسمالية المنسوجات نتيجة لإنهاء سيطرة الرأسماليين على حكومات المدن . ولا شك أن السيطرة المباشرة لأصحاب الأعمال على العمال قد إنتهت ، أو قلت ، ولم يعيد في وسعهم بعد ذلك تنظيم الأجور ، أو تنظيم العمل لمصالحتهم وحدهم ، ولكن ضرورات التجارة الدولية ظلت تضغط كما كانت على العمال بكل ثقلها . وإذا لم يودوا ضحايا كبار الصناعة فإنهم ظلوا ضحايا الصناعة الكبرى . وكانوا عاجزين عن فهم ذلك . وحاووا ، بلا جدوى ، وبكل نشاط ، قتل صناعة النسيج في الريف والقرى ، ومحاولة منافسة المدن الصغرى ؛ كما حاول النساجون بلا جدوى تقليل أجور الغزاليين ؛ كما حاولت جاندي بلا جدوى كذلك فرض سيطرتها على بقية الفيلاندر ، ولم يكن كل ذلك إلا أدلة على عدم القدرة من جانب إقتصاد المدن على أن يتخلص

من مطالب الإقتصاد الدولى . وإذا كان بعض الصناع قد وصلوا إلى السلاطة وأصبح في وسعهم تنظيم صناعة المنسوجات ، فإنه لم يكن في وسعهم إجبار التجار الأجانب على شرائها . وأصبح من الواضح ، ومنذ أواسط القرن الرابع عشر ، أن لإزدهار صناعة المنسوجات الفلمنكية قد أخذ في الإنهيار ؛ فقل التصدير ، وقلت الأصواف الإنجليزية ، وإرتفع ثمنها في بروج ، نتيجة لشراء التجار الإيطاليين لها بشكل متزايد ، وإرسالهم جزء كبير منها إلى فلورنسا ، بينما بدأت الصناعة الوليدة في إنجلترا نفسها فى إستهلاك كميات أكبر منها .

وتسبب عدم الرضا الذى يقاسى منه جماهير الصناع ، دون أن يتمكنوا من معرفة أسبابه ، فى إنتشار موجة من القلق ظهرت لها أشكال لبعض الأمانى الشيوعية . ويمكننا أن نرى مظاهر ذلك أثناء الثورة الكبرى للفلاندر ١٣٢٥ - ١٣٢٨ . كما نتج عنها كذلك ، وفى ظروف أخرى ، بعض الزاهدين ، وحتى مدعى الإلهام . وإستمر عمال نسيج جانده مدة عشر سنوات فى صراع مرير ضد الكونت وكبار البورجوازيين ، وفى شكل صراع إجتماعى واضح . وصموا أمام الأمير ، وأمام كل من كان عليه أن يخسر . وفى كل مكان ، كان أولئك الذين يقاسون من النظام الإجتماعى ويهدلون على تغييره يتبعون ما يحدث ؛ ومن روان وباريس إرتفعت الصيحات بحياة جانده وبدأ أن مصير الكبار والصغار يعتمد على إنتصارهم . ولكن ملك فرنسا أنزل بهم هزيمة شديدة سنة ١٣٨٢ ، فلم يتمكنوا من الحركة بعد ذلك . وإذا كنا قد أخذنا الفلاندر كمثلى لنا ، فإن ذلك يعود إلى أن الصناعة قد لعبت فى هذه البلاد دوراً كبيراً ؛ وبشكل يسمح لنا بتتبع نتائجها على الحالة الإقتصادية ، والحالة الإجتماعية . أما فى إيطاليا وبنوع خاص فى فلورنسا ، فإن عمال النسيج لم يتمكنوا من السيطرة على بحريات الأحداث بنفس الطريقة . ذلك أن صغار الأهالى قد وجدوا فى « الأهالى السمان » مقاومة ضخمة إذ أن قواتهم كانت أكبر . وكانت الأوضاع معقدة فى فلورنسا ، وخاصة مع تعدد الأحزاب

ومع تدخل المدينة في الصراعات السياسية الدينية التي إنتشرت في إيطاليا، وبشكل
لن يسمح لعمال النسيج بفرض أنفسهم على الموقف . ومع ذلك فقد كانوا هم الذين
قد شاركوا في نشر ثورة الأهالي في شهر يوليو ١٣٧٨ ، مفيدون في ذلك من
الخصومات المستمرة بين أسر كبار التجار . وقامت الجماهير بالإستيلاء على قصر
السيد ، وعينت رئيساً للعدالة ، وحكومة ديمقراطية ، تعمل من أجل الصناعات ،
وتحارب النبلاء ، واستمرت في السلطة حتى سنة ١٣٨٢ ، أي نفس السنة التي قضى
فيها على ثوار جاند .

وكانت الحركات الاجتماعية التي شهدتها المدن عند نهاية العصور الوسطى كبيرة
الإتساع ، وامتدت إلى ما هو أبعد من صناعات التصدير . أما تلك المدن التي
كانت تغلب عليها صفة التجارة ، فإن حكوماتها كانت في الغالب من بين التجار .
وكانت أكبر مدينة متاجرة في العالم في ذلك الوقت هي مدينة البندقية ، التي كانت
في نفس الوقت أكثر المدن أرسقراطية في نظمها . وفي ألمانيا احتفظت مدن
الهانسة برؤسائها . وكانت كولونيا في المدينة الوحيدة في ألمانيا والتي أصابها ، عند
نهاية القرن الرابع عشر ، إضطرابات تشبه تلك التي حدثت في الأراضي المحفضة .
وفي فرنسا ، لم يتمكن الصناعات في فرض أنفسهم على سياسة المدن ، وكانت المملكة
على درجة كبيرة من القوة ، فلم تتراجع عن مواجهاهم .

ولقد جرى العرف على أن يسمى وصول رجال المهن إلى السلطة البلدية بإسم
الثورة الديمقراطية . ولكن هذا التعبير خاطيء . فإذا كان من المؤكد أن إنتصار
صغار الأهالي قد نشر الحقوق السياسية في بعض المدن ، فإنه لم يساعد أبداً على
نشرها خارج هذه المدن . بل إننا نجد على العكس من ذلك أن من يسمون أنفسهم
بالديمقراطيين قد عاملوا أهالي القرى المجاورة بشدة متزايدة . ولم تطرح مسألة
حقوق المدن بدرجة أقوى مما حدث وقت سيطرة الصناعات على الحكومة ، وكانوا
يلاشك من صغار الهورجوازيين ، ولكنهم كانوا هورجوازيين قبل كل شيء .

أما الديمقراطية بمفهومها الحديث ، فإننا لانجد لها أى أثر فى سلوكهم ، مادامت ديمقراطيتهم هى ديمقراطية أصحاح إمتيازات .

وسواء خضعت أو لم تخضع للحكومات شعبية ، فإن البورجوازية كانت تكون طبقة فى كل البلاد ، بدأت فى أثناء القرن الرابع عشر ، فى أن تشترك ، وتحت طبقة رجال الدين وتحت طبقة النبلاء ، فى النشاط السياسى للأمة . وكانت هى الطبقة الثالثة ، والذى كان نفوذها المتزايد لا يعمل إلا فى صالحهم وحدها . ولم تعد المدن إلى البحث عن هذا النفوذ ، ولم يحسوا عليه إلا بصفتهم جماعة لها ذاتها . ولقد إضطرت الملوك والأمراء ، وهم مرغمون ، على مواجهة المصروفات التى زادت باستمرار عن قدرتهم المالية ، ونتيجة لأن الحرب قد أصبحت تكلف الكثير ، إلى أن يطلبوا إلى المدن تقديم العون الذى لم يعد فى وسعهم إجبارهم عليه دون موافقتهم . وفى وقت الأزمات ، استدعوا إليهم مندوبهم ، كما كانوا يستدعون دائما مندوبى رجال الدين ومندوبى النبلاء . وهكذا إمتدت المشاركة فى الحكومة ، التى كانت قاصرة حتى ذلك الوقت على طبقتين ، إلى الطبقة الثالثة . وكان هذا هو أساس ظهور مجالس طبقات الأمة ، والذى يدل إسمه على أنه مجلس ذوى الامتيازات . وتحول ذلك الإجراء المؤقت ، مع الزمن ، وأصبح عرفاً وتقليداً ، وحاجة لمواجهة الأمور . وعلينا أن نذكر أن عمل المدن كان متزايد باستمرار . فكانت ثروتها تجعل منها القوة التى تزود الخزانة العامة بما يلزمها من الضرائب ، وبشكل يضمن لأبنائها تفوقاً أفادوا منه من أجل تقليل إمتيازات الملك ، وفى صالحهم ، وزادت قوة تدخلهم فى كل مكان ، كما حدث فى إنجلترا ، فى البرلمان ، وفى فرنسا أثناء إضطرابات حرب المائة عام ، وكذلك فى الأراضى المنخفضة ، الأمر الذى أعطاهم مكاناً أكثر إتساعاً من مكانة النبلاء ورجال الدين فى دساتير البلاد . وفى هذا المجال يصح لنا أن نقول أن القرن الرابع عشر كان هو قرن البورجوازية . ولكن هذا القول يعنى مجرد أن الحياة السياسية قد إمتدت إلى

بمجموعة جديدة من ذوى الإمتيازات، وهى الطبقة الثالثة؛ ولا يعنى أنها قد وصلت إلى الجماهير العميقة للأمة .

٦ - تفكك اطارات حياة الريف ، وثورات الفلاحين :

كانت الغالبية العظمى للأهالى فى ذلك الوقت هى سكان الأرياف ، وكانت أحوالهم بلا شك أقل مما كانوا قد تمتعوا به من قبل . وكان تحرر الفلاحين ، الذى إنتشر فى القرن الثالث عشر ، قد أنهى العلاقات ذات الطبيعة الأبوية التى كان النبلاء قد احتفظوا بها معهم . ولما كان الإستقرار فى الأرض الزراعية قد تم ، فقد أصبحوا الآن محرومين من وسائل تحسين مصيرهم عن طريق الهجرة أو عن طريق إقامتهم إما فى المدن الجديدة وإما فى الأراضى المستصلحة فى الداخل . ونتج عن ذلك أن أصبحوا معرضين ، وبدون حماية ، لإستغلال أصحاب الأراضى .

وهست الأزمة المالية التى بدأوا بالشعور بها فى ممالك الغرب ، والتى أسرعت حرب المائة عام بتطورها ، الملاك الإقطاعيين ، وبالتالى طبقة الفلاحين التى كانت تعيش معهم . وتسببت الحروب فى تقليل حجم العملة المتداولة ، الأمر الذى نتج عنه إنرتفاع متزايد لأسعار المعيشة . وحاول الملوك ، وبشكل خاص فى فرنسا ، العثور على موارد استثنائية عن طريق تغيير قيمة العملة بطريقة مفاجئة ، وباستمرار . ولكن ذلك أدى إلى إضطراب الإقتصاد العام ؛ وبعد بضعة أشهر من الربح الصافى ، ثم فيها دفع ديون الدولة المتعاقد عليها بعملة قوية ، بواسطة عملة ضعيفة ، عادت العملة الجديدة إلى الدخول إلى الخزانات الملكية فى شكل ضرائب ؛ وفقدت الميزة المؤقتة الناتجة عن خفض قيمة العملة . أما طمخ العملة الأجنبية ، مثل الفلورنسى فى ممتلكات البابوية ، والدوقى فى البندقية ، والتى كانت قيمتها ثابتة ، فإنها إحتفظت بقيمتها فى كل الأسواق . وحاولت المملكة ، بلا جدوى ، أن تحرم إستخدامها ، وتمنع تصدير الفضة ، ولكن ثقة الأهالى فى أنواع العملة الوطنية ، والتى كانت علاقتها فى تغير دائم مع العملة الثابتة ، تقلعت إلى درجة كبيرة .

أما التجارة الكبيرة ، التي كانت تتعامل بالعملة الثابتة ، فإنها لم تتأثر كثيراً . ولكن إيرادات السادة النبلاء ، وعلى الأفل تلك التي كانت تدفع نقداً ، والتي كان مقدارها لا يتغير ، فإنها فقدت الكثير من قيمتها . أما ملاك الأراضي الذين ربطوا بين زيادة أسعار المعيشة وبين قلة إيراداتهم ، فإنهم أظهروا كثيراً من التشدد مع فلاحهم ؛ فأعادوا حقوقاً كانت قد أُلغيت ، مثل نصيب عيني من المحصول ، والسخرة ، الأمر الذي أعاد العبودية القديمة في شكل مقنع . وعجز كثير من صغار السادة عن أن يعيشوا من ممتلكاتهم ، فبحثوا عن الثروة في الحروب ، وكونوا العصابات ، وجماعات قطع الطريق . وقاست منهم البلاد السهلة ، والتي كانت بدون دفاع ، كما قاست من الإناوات التي فرضوها عليها . أما كبار السادة ، الذين حل بهم الفقر كذلك ، والذين كان من الواجب عليهم مواجهة إنفاقات تزيد باستمرار ، حين يتبعوا المثل الذي يعطيه الملك ، والبابا ، منهم أنشأوا نوعاً من الضرائب الجديدة ، في شكل ضرائب إستثنائية . وهكذا أضيف إلى العثور التي تجمع للبابا ، والضرائب الملكية ، والمعونات التي صوتت عليها البرلمانات ومجالس الطبقات ، معونات تعطى للسادة ، وازداد ثقلها وحجمها باستمرار . وتمكنت المدن المنظمة ، من أن تدافع عن نفسها حسب قدرتها ، وحصلت على تأجيلات وتخفيضات ، ولكن طبقة الفلاحين كانت مجبرة على أن تدفع . ولما كانت المدن تستبعدهم تماماً عن كل مشاركة في الصناعة ، وكانوا غير منظمين ، فلم يكن لديهم أية وسيلة لتحسين مصيرهم ؛ وإضطروا إلى الإستسلام .

وكانت الكوارث المتتالية ، من حروب وأوبئة ، تزيد حياة الفلاحين ظلاماً . وجاء الطاعون الأسود ، الذي إستشرى في أوروبا في أواسط القرن الرابع عشر ، لكي يعطى الضربة القوية لإقتصاد السادة . ويمكننا أن ندرس نتائج هذا الوباء بدرجة واضحة في إنجلترا ، وإن كانت هذه النتائج لم تكن بأمل من ذلك على القارة نفسها . وكانت مظاهره العامة هي نقص عدد الفلاحين ، ونخراب الأديرة

والمستشفيات ، وتدهور عمليات تنفيذ الريف . وتسببت قلة الأيدي العاملة في الزراعة ، نتيجة للأوبئة ، في إرتفاع مفاجيء في الأجور . ولم يعد في وسع الملاك أن يجدوا . العمال وفي إنجلترا حصلوا على تأييد الحكومة لهم ، حين أصدرت تشريعا يهدف فرض معدل أجور يتمشى مع الأجور المنخفضة قبل إنتشار الطاعون ، وطبق هذا القانون بكل شدة ، وعلى العكس من كل التشريعات التي صدرت في العصور الوسطى . وإنتشرت لجان خاصة في كل البلاد ، مكلفة بالتأكد من أن العمال الزراعيين لا يستلمون أجور تزيد عن الحد المشروع . وهكذا تعاونت الحكومة والنظام الإقطاعي من أجل كبت العمال ، الذين كتب عليهم البؤس وإضطروا إلى الخضوع .

ومع ذلك ، ومن بعيد لبعيد ، وكلما أصبحت المساوىء التي يقاسون منها غير محتملة ، أو كلما دفعتهم الفوضى السياسية نفسها إلى الثورة ، كان الفلاحون ينهضون بحركات مفاجئة ، تشتتت بعنفها وبشرها الذعر ؛ كما أنها كانت تشتتت بعضهم عن أن تفشى شيئا مستمرا . وحدث ذلك في الفلاندر ، سنة ١٣٣٣ - ١٣٢٨ ، كما حدث في فرنسا ، وحدث في إنجلترا سنة ١٣٨١ .

وكانت الأولى من بينها هي الأكثر استمرارا ، ونتجت عن فرض الغرامات على الفلاندر بعد هزيمتها ، وبشكل قاسى . وساند الفلاحون فيها ثورات بروج وغيرها من المدن . ولا شك أن مشاعرهم كانت مشاعر ثورية . ولم يهاجموا النبلاء وحدهم ، بل هاجموا كل النظام الاجتماعى . وتقدم الصفوف العناصر الأكثر عنفاً من بين الأهالى ، ولم يتراجعوا أمام الإجراءات المشددة وهاجموا النبلاء والمعتدلين وكل أولئك الذين يمتنعون عن التصريح بأنهم مع الشعب ، وكان يكفي عدم العيش من العمل اليدوى سبباً للاشتباه في الشخص . وأجبروا بعض الناس على قتل أقاربهم أمام الجماهير . ولم يكن حظ الكنيسة أحسن من حظ النبلاء . وعارض الفلاحون في جمع العشور ، وأجبروا الكنائس على توزيع القمح

الموجود في محاربتها على الفقراء . وبدأت الديانة نفسها وكانها مهددة ، فإدعى أحد كبار قادة الثورة بأنه لم يدخل الكنيسة أبداً ، وأنه يرغب في شق آخر القسوس . وفي مواجهة عقد الشعب ، كان هناك عقد النبلاء . وأخذ الفرنسيون يهجمون بعنف على الفلاحين الغلاظ ، ذوى اللحاة الطويلة والملابس الممزقة ، والفجورين بأنفسهم مثل الكونتات ، ويعتقدون أنهم يمتلكون العالم ، وبدأت الثورة سنة ١٣٣٣ ، وتحللتها التمردات هدوءاً ، واستمرت حتى سنة ١٣٣٨ . واضطر السكوت ، لكي يقضى على الثورة إلى أن يطلب تدخل ملك فرنسا ضد الثوار الذين كانوا ، حسب قول أحد المعاصرين ، يهددون المجتمع كله وإنتهى الانتصار الذي حصلت عليه قوات فيليب دى فالوا ، عند مونت كاسيل ، يوم ٢٣ أغسطس ١٣٢٨ ، على عصابتهم ، بمذبحة تبعثها عملية قمع كانت لا تقبل في قسوتها عن عنف الثورة نفسها . وساد النظام نتيجة للإرهاب . ولم يضطرب بعد ذلك .

أما في فرنسا ، فإن ثورة ١٣٥٨ في منطقة شامبانيا كانت قصيرة ، وطاها مظاهر أقل ثورية . وكانت الحركة تهدف بنوع عام النبلاء ، وكان الفلاحون يقاسون من الضرائب ، ومن عصابات الجنود الممزقة المسرحين ، فهب الفلاحون ضد السادة ، واتهموهم بكونهم شيب كل ما يحدث لهم من مساوئ . ولم تكن هناك خطة متكاملة في هذه الثورة ، ولا رؤساء معروفين ، ولا مطالب محددة . وكانت هذه الحركة تمثل مرحلة من اليأس ، وانفجار الغضب . وخافت البورجوازية ، وظلت وراء الأسوار ، ترقب الحركة دون أن تشترك فيها ، وربما كانت تفكر في الإفادة منها في حالة نجاحها . ولكن كيف كان ففي وسع هذه الحركة أن تنجح ؟ لقد تمكن الفرنسيون ، على خيولهم الثقيلة ، وبعد أن عجزوا أمام الإنجليز ، من أن يواجهوا هؤلاء الفلاحين بسهولة ، وبقتلوا أبنائهم ، ويستبيحوا نساءهم ، ويحرقوا مساكنهم . وبعد أن موت الفترة الأولى بدأ النبلاء حملتهم ، وبدأت الحملة المنظمة ، وعااد بقايا الفلاحين إلى ملاكهم ، بعد أن تأكدوا

من ضعفهم ، وكان الفزع قصيراً ، وعنيفاً ، ولم يستمر أكثر من شهر . ولقد هز
وقت طويل قبل أن تقوم ثورة فلاحين أخرى في فرنسا .

أما أحداث إنجلترا سنة ١٣٨١ فإنها انتهت كذلك بنفس الطريقة . وكان
الفلاحون قد أثقل كاهلهم بتشريعات قاسية ، فقاموا في الجنوب وفي الغرب
بشورة تدل على اليأس ، حين فرضت الحكومة عليهم ، وبدون حكمة ، ضريبة
جديدة ، تضاف إلى الضرائب السابقة . وتميز الفلاحون بالغضب والرغبة في التدمير
الناجم عن شدة البؤس . وقاموا بنهب الكنائس وإحراق قصور السادة ، وقتل
كبار الشخصيات التي وقعت في أيديهم . وفي كل مكافى ، كانوا يطالبون بسحب
اللقاب السيادية ، ومنحوا أنفسهم صكوك التحرر التي تحررهم من الإلتزامات
الثقيلة ؛ ولكن أعمالهم كانت بدون خطة ، وبدون برنامج . وكما حدث في فرنسا ،
لم يتمكن الفلاحون من الصمود أمام قوات النبلاء المسلحة والمدرعة . وكما حدث
في فرنسا انتهت حركتهم بعد بضعة أيام ، ولم تعد من جديد .

وكانت ثورات الفلاحين هذه تدل على خطورة المساوىء الموجودة في الريف ،
والإضرابات الناتجة عن الحروب التي عاشتها أوروبا ، وإنعدام التوازن الذي
حدث في المجتمع نتيجة للتغيرات الإقتصادية التي سبق شرحها .

الفصل الخامس

التجارة والمراكز البحرية

إذا كان نظام الإقطاع قد ضعف ، عند نهاية العصور الوسطى ، وأفادت من ذلك الملكيات الحديثة ، وبخاصة في غرب أوروبا ؛ وإذا كانت التغييرات الاقتصادية ، التي وقعت مع هذا التغيير ، في كل من الريف والمدن ، قد أدت إلى تغييرات إجتماعية ، ونتج عنها تنافس بين مراكز الانتاج الصناعي ، وحركات إجتماعية في المدن ، وثورات الفلاحين التي عملت على تفكيك إطارات حياة الريف ؛ وإذا كان ذلك قد حصل في أهم مواقع الانتاج ، الزراعي والحرفي ؛ فإن تغييراً جديداً قد وقع على حدود هذا المجموع الأوربي ، وفي كل من مدن وموانئ البحر المتوسط ، وكذلك مدن وموانئ الشمال ؛ ونتج عنه نمو وإزدهار وسائل العمل الجديدة ، والنظام الرأسمالي ، في كل من جنوا ، البندقية ، وكذلك في مدن الجامعة الهنسية . إنه رأس المال ، والتجارة العالمية ، في مراكز التجارة البحرية .

١ - الوسائل الجديدة :

لم تكن أوروبا الغربية قد تمكنت من أن تحقق توسعاً اقتصادياً ، في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الثالث عشر ، وبين السنوات الأولى من القرن الخامس عشر . وظل هذا التوسع محصوراً ، كما كان من قبل ، في حوض البحر المتوسط من ناحية ، وفي بحر الشمال وبحر البلطيق من ناحية أخرى . ولكن هذه الحركة ، رغم أنها كانت محدودة ، ولم تتمد في الجنوب مضيق جبل طارق ، إلا أنها أصبحت أكثر كثافة .

وزادت أهمية مجموعات جديدة ، زادت أهميتها باستمرار ؛ لم تستخدم الدروع والحيل ، بل إستخدمت الصرف والرصيد ، والودائع ، والتأمين وعقود الشركات .
لأنهم بحارة وليسوا محاربون ، بحارة وليسوا من الفرسان . أما هدفهم فكان الربح أكثر منه العزو ، والأرباح أكثر من كونها الأراضى ، ولقد إهتموا بإنشاء المراكز التجارية ، والشركات التجارية ؛ إنها الرأسمالية المتأجرة التى بدأت فى العمل ، وفى النمو وإزدياد القوة ، فى الوقت الذى ضعف فيه غيرها .

وفى الوقت الذى كانت فيه الطرق البرية صعبة وغير مأمونة ، أصبح الطريق البحرى مفتوحا لحركة النشاط الجديد . وتعنى بالبحر هنا البحر المتوسط ، وكان الغرب قد أبعد المسلمين عن مالطة وصقلية ، ولم يكن الأتراك قد تمكنوا بعد من السيطرة على المضائق . فظهر أن مستقبل أوروبا الغربية ، فى العالم ، قد إرتبط بالماء .
ولقد تحسنت وسائل الملاحة ، ورغم أن السفن الحربية كانت لا تزال تعتمد التجديف ، إلا أن السفن التجارية قد أخذت فى إستخدام الشراع المثلث ، على ساوية أو ساريتين ، مما سمح لها بالسير فى إتجاه مخالف للرياح ، أو بزوايا معينة ، وسمح لها كذلك بالالتفاف . وأصبحت السفن مزودة بثلاث أجهزة تسمح لها بالإبتعاد عن الساحل ، الأول هو البوصلة أو الأبرة المغناطيسية التى تسمح لها بمعرفة الشمال ، والثانى هو الأسطرلاب الذى يبين لها خطوط العرض ، والثالث هو الدقة المتحركة والمثبتة فى مؤخرة السفن ، والتى حلت محل المجذاف الكبير ، الذى كان البحارة يحاولون إدارته أو تثبيته فى نقطة معينة ، وبمشقة . فأصبح من السهل بعد ذلك بناء سفن كبيرة ، يمكنها أن تسير فى أعالي البحار .

وكان معنى بناء سفن كبيرة وقوية ، إمكان شحنها بكميات أكبر من البضائع ، وتطلب هذا بالتالى وسائل مادية أكبر ، لتنفيذ هذه المشروعات ، ولذلك فإننا نجد أن تقدم الوسائل المالية ، جاء مكملا لتقدم الوسائل الفنية البحرية فى هذا

الميدان ، اظهرت البنوك وانتشرت ، وبدلا من نقل الذهب والفضة ، بدأ الممولون في إيداعها لدى أحد المختصين ، والذي أصبح بالتالى مسئولاً عن خزائنه زبائنه . وأصبحت « الطاولة » التى يقع عليها الإيداع أو الدفع تسمى « البنك » . بالاطالفة وكان من السهل على المودعين أن يدفعوا ما يرغبون فى دفعه بأمر صغير لصاحب البنك . وإذا كانت العملية مصحوبة بتغيير نوع من النقود إلى نوع آخر ، فهناك التحويل ، والصرف ؛ وإذا كانت الودائع مصحوبة بتعمد بإعادتها مع الربح ، فهى سلفة . وبدأت بذلك العمليات المصرفية الرأسمالية ، ومنذ بداية القرن الثالث عشر .

وفى نفس الوقت بدأ الافراد يجتمعون ويضعون مواردهم سويا فى مشروعات أكبر من أن تتحملها قوى فرد واحد منهم . وبعد عقود التوريد وعقود الشركات ، جاء التأمين البحرى لى يضمن العمليات ضد أخطار البحر . وسبق الإيطاليون غيرهم فى هذا الميدان ، وأصبحت جنوا مركزاً لبنك سان جورج ، أما حى الريالتو فى البندقية فأصبح من أكبر المراكز المالية ، وتخصصت هذه المدن ، مع غيرها من مدن شبه الجزيرة الإيطالية فى تقديم السلفيات ، واحتفظت بسجلاتها ومراسلاتها التجارية . وأصبح فى وسع المصدرين والمستوردين أن يجدوا فيها رؤوس الأموال اللازمة ، والمعلومات الخاصة بالموردين والمستهلكين فى مختلف الأقاليم .

وجاءت النقود المصرفية لى تزيد وسائل العمل التى كانت تقوم بها القطع المعدنية . وظهرت قطع فضيه كبيرة وأصبحت متداولة فى كل أوروبا ، وأخذ الذهب فى الغرب نفس الأهمية التى كانت له فى الشرق مع الدينار والبيزنطى ، وبخاصة فى المدفوعات الدولية . وازدادت أهمية نوعين من القطع الذهبية التى ظهرت فى العصور الصليبية ، الأولى قامت فلورنسا بصكها وأسمتها فلوران ، وانتشرت بعد ذلك فى كل إيطاليا وفى فرنسا وإنجلترا والإمبراطورية ، والثانية

قامت البندقية بصكها ، متشبهة في ذلك بفلورنسا ، وأسماها الدوق ، وانتشرت بعد ذلك في البحر ومع الفرسان التيوتونيين في روسيا ، وعرفها المشرق بأسم الصكة . وهكذا تفتحت مناطق النفوذ المالية ، ومناطق التغلغل المصرفية والإقتصادية .

وانتشرت الأجور ، سواء للعامل ، أو الموظف أو صاحب الحرفة ، مع إنتشار النقود وإتساع إستخدامها . فأثر ذلك بالتالى على الاستعباد ، وإختفى نظام الرق من أوروبا . وزاد إستغلال الإنسان لحيوانات الجر ، وذلك بإستخدام حزام الوسط ، وطوق الرقبة ، مما جعل هذه الحيوانات تتمكن من مضاعفة ما تجره ، وتوفر مجهود الانسان في هذه العمليات . وأخيراً فإن سفر عدد من السادة في الحروب الصليبية قد ساعد على تحرير أبناء القرى وأبناء المدن . فاجتمعت بذلك العوامل الأساسية للإزدهار الصناعى .

ولم تكن هذه الصناعة سوى حرف لمدن والبادية ، وإن كانت قد أصبحت أكثر تخصصاً وأكثر تنظيمياً . وكان أهم هذه الحرف هي صناعة المنسوجات التى إستعملت الأصواف ، وانتشرت فى كل أوروبا ، وعاشت منها جيوش من الغزالين والنساجين والصباغين . وأخذت ميلان وفلورنسا وتسكانيا فى التنافس فى صنع هذه الأنسجة ، وأخذ الايطاليون يبيعونها ويوزعونها فى جميع أنحاء العالم ، وساعدت التجارة على إزدهار هذه الصناعة . وجاءت المعارض والأسواق الدولية لى تسهل تسويق السلع ، وتساعد على التوجيه لى إنتاج السلع المطلوبة أكثر من غيرها . وكانت هناك سلسلة متتالية من المعارض والأسواق تمر فى فرنسا وتصل شبه الجزيرة الايطالية بهيوطانيا وألمانيا . وحينما قامت الحروب بين فرنسا وإنجلترا ، تعطلت هذه الأسواق ، وأصبحت هذه السلع تمر بين شمال أوروبا وجنوبها بحرياً ، عبر المحيط الاطلسى والبحر المتوسط . أو مع نهر الراين وعبر جبال الالب .

وكانت هذه هي الوسائل الجديدة من سفن ونقود وأنسجة ، أما الأهداف ، فكانت هي التعامل مع بلاد الشرق ، رغم أنها إسلامية . ولقد حاول البابا أن يعارض أو يعترض على قيام مثل هذه الحركة مع المشرق ، ولكن الإيطاليين لم ينصتوا إليه . وأخذ الفاتيكان في إصدار صكوك الحرمان ، ولكنه اضطر إلى ترك هذه العملية ، وأغمض عينيه عنها . وكانت أوروبا تحتاج إلى أن تبيع . سواء بموافقة أو بدونها ، وإحتاجت في ذلك إلى المراكز البحرية ، وإلى الامتيازات ، والمخازن والقواعد ، التي كانت ، في حقيقة الأمر الدعائم التي تقوم عليها المستعمرات وبدأ كل من البحارة والتجار في العمل .

(٢) أهالي جنوا :

حاولت كل موانئ الحوض الغربي للبحر المتوسط أن تجرب حظها وتعمل على تصدير الأنسجة على سفنها للمشرق ، وتعود بالسفن محملة بالتوابل . وساهمت كل من برشلونة ومونبلييه ومرسيليا وغيرها في هذه الحركة ، كما ساهمت فيها جنوا وبيزا والبندقية في إيطاليا .

ورغم أن الأسبانيين كانوا قد إنشغلوا بمشكلاتهم الخاصة عن الحروب الصليبية ، إلا أنهم حاولوا الاشتراك في هذه الحركة التجارية الجديدة . وكانت أنسجة الشمال تصل إلى برشلونة عن طريق نهر الرون ، ثم بالطريق الساحلي الموازي لسواحل فرنسا الجنوبية ، أو بالسفن رأسا . وكانت برشلونة توزع هذه السلع في كل إسبانيا ، وحاولت أن تبيعها كذلك في صقلية وشمال إفريقيا وفي مصر . وكانت لها مراكز تجارية في دمياط والاسكندرية ، وشركات في اليونان ، وإتحدت أرغونة ونافار تحت حكم أسرة أرغونة التي سيطرت على ليون وقشتالة وإستمدت لتوحيد إسبانيا ، ثم إنزعزت ميورقة من المسلمين ودعمت سلطة برشلونة في منطقتها . كما أنها حكمت عمليا ، التي تخلصت من الحكم الفرنسي ، وإستمدت بعد ذلك لغزو كورسيكا وسردينيا . وكانت كل هذه المحاولات تدل

على أن أبناء أرغونة كانوا عبيدين ، وأنهم كانوا مصممين ، بعد تخلصهم من تحكم الرومان والقوط والعرب ، على أن ينتفخوا ويتوسعوا فيها حولهم ، ويتحكموا في غيرهم . إنها روح إستعمارية واضحة كانت آخذة في النمو والتوسع .

أما أهالي جنوب فرنسا فكانوا يحاولون التجارة مع شمال إفريقيا ، ومع شرق البحر المتوسط ، خاصة وأن سفنهم كانت موجودة . وكان لتجار مرسيليا مراكز ومخازن تجارية في عكا ، واحتفظوا بفنادقهم في الاسكندرية ، رغم أن نشاطهم كان أقل من نشاط أهالي جنوا بكثير ، ورغم أن جنوا كانت تنافسهم في هذا الميدان .

وأما بيزا فقد قامت بنشاط كبير ، وأنشأت المراكز على السواحل السورية في أثناء الحروب الصليبية ، لكي تمون المسيحيين ، وإن كانت قد إستمرت في تزويد القاهرة بالأسلحة التي إستخدمها المماليك في حربهم ضد المسيحيين . وحصل أهل بيزا من مصر على تعريفة جمركية مخفضة لوارداتهم إلى الاسكندرية ، وظلوا يتاجرون مع شمال إفريقيا بعد هزيمة القديس لوى ، بل وسيطروا على التجارة الخارجية في موانئ تونس ، وسفاقص ، وقابس ، وطرابلس . ولقد تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا عدة مرات ، علاوة على سيطرتهم على كورسيكا نظير إيجار إسمي بلغ جنيتها ذهبيا واحداً يدفعونه للكرسى البابوي : ولكن جنوا تمكنت من هزيمة أسطول بيزا ، وأسرت كثيراً من أهلها ، وإستولت أمرة أرغونة على سردينيا ، كما إستولت جنوا على كورسيكا ، وقام نزاع بين أبناء الطبقة الارستقراطية في بيزا ، ولانتهى الأمر بخضوعهم لفلورنسا ، وأصبحت سفن بيزا بعد ذلك تعمل لحساب الفلورنسيين .

وكانت جنوا تقع في مركز متوسط ، من البحر المتوسط ، وكانت في نفس الوقت أقرب من غيرها إلى مراكز الانتاج الشمالية وكان أهالي جنوا قد ربحوا كثيراً من الحروب الصليبية ، وبخاصة في إمارتي طرابلس وأنطاكية . وبعد

إنهاء هذه الحروب إتجهت أنظار أبناء جنوا إلى الأراضى القريبة من أميناتهم ،
وخاصة إلى كورسيكا وسردينيا ، وإمتد نشاطهم إلى الساحل الأفريقي ، وتوسعوا
في سبتة ، وإستمرروا في الملاحة في المحيط الأطلسى حتى سلا ، ويظهر أنهم وصلوا
إلى جزائر الكناريات ، وأقاموا لأنفسهم قواعد في طرابلس وتونس وبجاية ووهران
وتلسان . وإضطروا إلى محاربة العرب حتى يتمكنوا من فرض أنفسهم ، ولكن
سرعان ما أظهروا أنفسهم على حقيقتهم ، كتجار ، وتفاوضوا مع العرب ،
وعقدوا إتفاقات سمحت لهم بالسيطرة على تجارة إفريقية الداخلية ، التي كانت
تمر عبر هذه الموانئ . وكانت سفن جنوا تحمل المصنوعات الزجاجية والأسلحة
والأواني إلى العرب ، وتعود محملة بالتبر والصوف والجلود والعبيد .
ولقد حاولت اجنوا أن تبعد المنافسين لها عن طريقها ، وتمكنت من القضاء
على أهمية أبناء جنوب فرنسا ، ولكنهم لم تنجح في إبعاد خطر بحارة شمال إفريقية .
وإزدادت قوة أبناء أرغونة مما إضطرت جنوا إلى توجيه نشاطها صوب الجيوش
الشرقية للبحر المتوسط .

وكانت اجنوا مصالهما في الاسكندرية منذ وقت طويل ، فعملت على
التحالف مع الأباطرة اليونانيين لبيزنطة حينما وجدت أن البندقية قد تحالفت مع
أباطرتها اللاتينيين ، فانتصرت جنوا حينما هاد اليونانيون لحكم بيزنطة ، وحصلت
على إمتيازات وتسهيلات كثيرة ، وتمكنت من إنشاء حتى بيزا وحتى جالطة ، على
الجانب الأيسر للقرون الذهبى ، اللذين أصبحا مستعمرة اجنوا ، ومدينة شبه
مستقلة ، نمت على ضفاف اليوسفور ، وكمركز للأعمال البحرية والتجارة .
وحصلت جنوا من البيزنطيين على مراكز أخرى ، على ساحل آسيا الصغرى وعلى
جزر خيوس وليسبوس ، وإستغلتها كمراكز بحرية ، كما إستغلت الامكانيات
الاقتصادية الموجودة فيها . وإستقر أبناء جنوا في قبرص ، وأقاموا مراكزهم
التجارية في فانجوستا ، ثم أرسلوا حملة لإحتل هذه المدينة ، وسيطروا بذلك على

التجارة الخارجية لهذه الجزيرة . كما توغلوا في البحر الأسود ، وأنشؤا المراكز في القرم وعند مدخل بحر آزوف ، وإشترؤا منها الفراء والشمع والقمح والأسماك المملحة ، وباعوا فيها منتجات بلادهم ، والمنتجات التي كانت تأتي اليهم من مناطق أخرى . ولم تقتصر التجارة في هذه المراكز الأخيرة على التعامل مع جنوب روسيا ، بل امتدت إلى السلع الآتية من آسيا ، والتي كانت تصل بالقوافل من قبل إلى ممالك الفرنجة في سوريا . كما كان لابناء جنوا مراكزهم في اللاذقية ، فاشترؤا منها التوابل والاقشة والاحجار الكريمة ، وباعوا فيها الانسجة الصوفية والانبذة والحبوب .

ولم تصادف جنوا مصاعب كبيرة في مستعمراتها ومراكزها ، خاصة وأن أهل غالبيتها كانوا من أبناء جنوا نفسها . ولكن بعض هذه المستعمرات ، مثل القرم ، كانت خاضعة لحكم جنوا ، فكانت جنوا فيها مجلساً خاصاً بها لإدارتها وإرسال تعليماته إلى أحد القناصل الموجودين في المستعمرة للتنفيذ . أما فاجوستا فإن جنوا قد عينت أعضاء المجلس الخاص بها ، ولكنه كان يجتمع في هذه المدينة . وأما بيرا وجليطة فكانت إدارتها شبه عسكرية . وأما ليسبوس فكان حكم جنوا فيها لإقطاعياً ، إذ أنه كان في أيدي أسرة أرستقراطية من جنوا . وأما بقية جزر بحر إيجه فإن جنوا قد عهدت بها إلى شركات كان عليها أن تضمن الأمن الداخلي والدفاع الخارجي ، وتنظيم المالية حسبما ترى ؛ ويمثلها أحد أمراء البحر في الجزيرة لتنفيذ القرارات . وكانت أسهم هذه الشركات تباع في جنوا ، كما كانت تباع فيها أنصبة من المستعمرات ، ونجح هذا النظام ، وإجتهاد عدد من أصحاب رؤوس الأموال في جنوا . رغم المخاطرة الموجودة فيه . وإمكانية عدم الربح أو حتى الخسارة والافلاس . واستخدمت جنوا نفس الطريقة في كورسيكا ، التي انتشرت فيها الثورات ، رغم وجود حاميات قوية فيها . فكانت جنوا شركة لإدارتها وإيجاد نفوذ أراغونة عنها ، وعهدت جنوا هذه الطريقة ،

وأنشأت بنك سان جورج لتجميع رؤوس أموال كل مهنولى الجمهورية، ثم عمدت له بكل ممتلكاتها فيما وراء البحار . وأصبح لهذا البنك مجلس إدارة ، هو فى واقع الأمر مجلس شيوخ ، كما أصبحت له قراته ، وباشر « السيادة » على كورسيكا وعلى كل المراكز والمستعمرات الخاصة بجنوا .

وسواء كان الشكل الخارجى لهذا الاستعمار هو عام أو شخصى ، فإن أهدافه لم تكن إلا تجارية . وكان هدف القائمين عليه هو الشراء بأرخص الأثمان ، ثم تيسير النقل ، والبيع مع أكبر ربح . وعمل أبناء جنوا على الموازنة بين تكاليف السفر فى الذهاب وتكاليفه فى العودة ، كما زاروا المعارض والأسواق الدولية ، وعقدوا المعامدات التجارية مع المدن . وجاء تجار كثيرون من فرنسا والفلاندر وبلاد الراين وإنجلترا إلى جنوا ومعهم سلعهم من الأنسجة الصوفية ، عارضين بيعها . وكانوا يعودون إلى مناطقهم بعد شرائهم للحراير والتوابل من جنوا . وكانوا يجدون فى هذه المدينة كل ما يحتاجون إليه من سلع وسفن ورؤوس أموال وسلفيات ، فكانوا يتعاملون ويستلفون ، ويودعون ويضاربون ، وكانت هذه المدينة تسخرهم بالطابع الشرقى الذى كان يسودها ، ويؤثر حتى فى لغة وطيحة أهلها .

ولكن قوة جنوا ورفاهيتها كانت رقيقة . فكانت تحكمها جماعة تتكون من ثمانية أشخاص ، ثم بدأت الفوضى تدب فى المدينة بعد أن أصبح الحكم فى أيدي قائدين من « قواد الشعب » يعاونهم أحد رجال الكنيسة بأسم « راعى الشعب » ، فتنازعا على السلطة وتنازعا الاختصاصات ، ثم بدأت الحروب الأهلية لتأيد هذا المنصر أو ذاك . وساعد على هذه الحروب الانقسام المركزى ، وتضارب المصالح ؛ بين السادة الجبلين ، و « الشعب » الذى كان له إتجاه الجلف ؛ أو بمعنى أدق ، تبلور المصالح وتضاربها بين الارستقراطية والبورجوازية : إذ أن « الشعب » بالمفهوم الحقيقى كان مستغلا فى هذا الصراع . وحاولت جنوا أن

تتخذ الموقف بتسليم السلطنة العليا فيها لدوق من الدوقات ، ولكن هذا النظام لم يوقف الصراع الداخلي والذي ترأسته أسر جنوا الكبيرة . وأخذت الأحزاب في طلب المعونة الأجنبية فدخلت جنوا تحت نفوذ ميلان ثم البابا أو نابلي أو فرنسا . وكان تضارب المصالح مع البندقية سببا أساسيا في إضفاف جنوا ، خاصة وأن هذا التضارب والتنافس قد أخذ شكل حروب شبه مستمرة ، وفي المشرق وبنزلة وقبرص . وكانت للبندقية حكومة مدعمة ، في الوقت الذي تهلل فيه حكم جنوا . ولقد إنتهز المغاربة فرصة هذا الصراع ، وتمكنوا في بعض السنوات من إقفال الملاحة في مضيق جبل طارق ، ومنعوا سفن جنوا في بعض الحالات من الوصول بالبحارة إلى الفلاندر .

٣ - البندقية وإمبراطوريتها :

كانت البندقية تعيش على الماء وكانت تعيش من الماء . وكانت غزوات اللومباردين قد دفعت أهلها صواب البحيرات ، وإلى الاعتصام بالجزر الموجودة فيها ، وأجبرتهم على المعيشة من صيد الاسماك وإستخراج الملح ، تحت حماية بين نطه البعيدة .

ونمت البندقية حول كنيسة القديس مرقس ، وكان نظام حكمها في أول الأمر عجارة عن ملكية شعبية ، إن جاز هذا التعبير ، فهي رأسها دوق ، أو دوج ، يفتحه الشعب مدى الحياة ، ولها مجلس مشمول وقوانين ، ثم أصبحت السلطنة أرستقراطية ، وتحول مجلس « الشعب » إلى مجلس « السادة » وأصبحت سلطنة لإنتخاب الدوق في أيدي أربعين عضوا ، بعد أن إنتزعت من أيدي الشعب . وأصبحت هذه المجموعة تعد القوانين وتعرضها على مجلس « السادة » أو « العقلاء » أو « الشيوخ » ، ونشأ مجلس آخر من عشرة أعضاء لإدارة الأمن والدبلوماسية والمالية ، ثم سيطر على كل السلطنة ، وعن طريق عدد من الموظفين الذين كانوا يديرون الحياة السياسية سرآ ، وبالتجسس والشايات .

حقيقة أن الدوقية لم تكن وراثية ، بما قد يؤدي إلى الفوضى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت مركزة في المجلس الأعلى ، والذي كان من شروط الأعضاء فيه ، أن يكونوا من أبناء الأعضاء السابقين فيه ، وكان هذا المجلس هو الذي ينتخب أعضاء مجلس العشرة ، مما جعل مصير البندقية محسوراً في أيدي أبناء عدد محدود من الأسر الغنية في المدينة . وكانت السياسة الاقتصادية للبندقيه موجبة ، وكان هناك إحتكار لتجارة الملح ، وضرائب معينة على إستيراد الزيت والقمح ، وإشراف تام على الواردات والأسواق . ولكن الميدان كان متنوعاً للأنشطة الحرة ، وللتجارة ولأعمال المصارف ، التي إزدهرت ، وإستمرت في الإزدهار .

وأخذت البندقية في إنشاء «فروع» لها ولتجارها ، كمراكز ومستعمرات ، على الساحل البلقاني المواجه لها في زارا . ومنذ هذه اللحظة بدأت في الشعور بضرورة تأمينها ، والسير بسياساتها وسط المسافات «الدولية» والاقتصادية ، فصممت على التخلص من النفوذ البيزنطي ، وعلى إنشاء أسطول قوى لها .

وحصلت البندقية على إمتيازات إقتصادية وتجارية في مملكة الفرنجة في بيت المقدس ، وأصبحت تمتلك حيفا وثلث عسقلان وصور . وحصلت البندقية على مكاسب من بيزنطة ، وذلك باستيلائها على كورفو ، التي أشرف على مدخل البحر الأدرياتي ، وبإنشائها حياً خاصاً بأبنائها في القسطنطينية ، يشرف على القرن الذهبي ، وبإعفاؤها من كل ضرائب الدخول والإستيراد . وكانت البندقية هي التي حولت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية ، لتعين أباطرة لاتنيين على عرشها . وكان هذا إنتصاراً كبيراً للبندقية التي أصبحت نصف القسطنطينية في أيديها ، مع ما تشتمل عليه من كاتدرائبة القديسة صوفيا ، فمكنت فيها حكماً وازنت سلطتهم سلطة الإباطرة الرومانيين . وكانت البندقية تختار نقاطاً هامة لإنشاء مراكزها ومستعمراتها ، بدلاً من أن تعمل على الاستيلاء على أراضي وأقاليم واسعة ، فاستولت على دورازو وكريت وغاليبولي وهرقلية على بحر مرمرية ،

مشجعة. بذلك صوب البحر الأسود ، ولقد أثر إنبهار الامبراطورية اللاتينية وعودة اليونانيين إلى بين نطة على إمكانيات البندقية ، خاصة وأن جنوا ، منافستها ، هي التي أخذت في تدعيم ركائزها هناك . واقتسمت كل من جنوا والبندقية مناطق النفوذ في الشرق ، وإن لم يمنع ذلك من إستمرار التنافس . وأثر ذلك على الحركة التجارية ، خاصة وأن أعمال القرصنة ، والاستيلاء كل من الطرفين على سفن الآخر ، قد أصبحت من صفات هذا التنافس ، بل هذه الحرب الاقتصادية المستمرة .

ودفع بذلك البندقية إلى تدعيم نفوذها ، وتوسيع نطاق الأراضي الخاضعة لها ، فأعدت إجتلال كروفو ، وسيطرت على أثينا وسالونيك ، وأخذت في مد مراكزها في البحر الأسود إلى الشمال من مصب الدانوب في القرم ، وفي بحر آزوف . كما عملت على تنمية فنادقها في الاسكندرية والقاهرة ، وعقدت إتفاقيات مع السلاطين المماليك . وإستمر البنادقة في اللاذية يشترتون - إلى جانب أبناء جنوا - المتاجر والسلع الآتية من آسيا بالقوافل . أما قبرص فان آخر ملوك أسرة لوسينيان فيها كان قد عمل على التحالف مع البندقية ، وتزوج من إحدى البندقيات ، مما جعل جمهورية البندقية ترث هذه الجزيرة بعد موته .

وكانت قوة البندقية السياسية تستند إلى عوامل اقتصادية . فقد كان هناك ستة عشر ألفا من العمال يخدمون في الورش البحرية ، وكان في استطاعتهم بناء سفينة في كل يوم . وكانت مدينة الدوق مشهورة بصناعة المنسوجات ، إذ كانت تنسج الأقطان المستوردة من سوريا والحرير المستوردة من الصين . وعمل رجال الحرف فيها على صناعة المعادن والماج والزجاج والبوارا المشهور . وكانت التجارة ، بالنسبة للبندقية ، كما كانت بالنسبة لجنوا ، هدف كل صناعة ، وهدف كل سياسة . وكان الدبلوماسيون يعملون من أجلها ، وكذلك المجالس والأنظمة التي أعطت السلطة لآسر التجارة الكبيرة . وكانت البندقية تسيطر على سوق الملح ، كما كانت تسيطر على سوق القمح الذي كانت تستورده من البحر الأسود وروسيا ،

وتسيطر على أسواق التوابل والمنتجات الشرقية التي تستوردها من الشام . وكانت تستورد الزيت من كورفو والأنبذة من كريت واليونان . وكانت توزع المنتجات بين كل من آسيا وأوروبا وإفريقية .

وكانت هناك ثلاثة آلاف سفينة تحمل ستة وثلاثين ألفاً من البحارة وتخرج من البندقية متجهة صوب شرق البحر المتوسط أو صوب الفلاندر في كل عام . وكان مجلس الشيوخ هو الذي ينظم هذه القوافل ، وهو الذي يشرف على إنشاء السفن ويعين لها قوادها وما يلزم لها من بحارة . وكان يترك ما بقي بعد ذلك ، من بيع وشراء وعقد صفقات ، للنشاط الفردي . وكانت البندقية هي التي توجه السياسة والإدارة الخاصة بالمستعمرات ، فكان نصف أعضاء مجلس العشرة مختصاً بمشكلات ما وراء البحار ، والنصف الثاني مختصاً بمشكلات الممتلكات الموجودة على القارة الأوروبية ، وكان مجلس الشيوخ يشرف على الاستيلاء الحربي ، ومجلس العشرة يشرف على الدبلوماسية والمالية .

وكانت البندقية تبيع من ممتلكاتها الخارجية ، إذ كانت الضرائب التي تجرمها فيها تصل إلى ٦٤٠ كيلو جراماً من الذهب في السنة ، في أوئل القرن الخامس عشر ؛ ثم زادت إلى ١٨٠٠٠ كيلو جراماً في القرن السادس عشر . أما الأرباح العامة ، والدخل القومي ، الذي يصل إلى جيوب البنادنة فكان أضعاف أضعاف ذلك . وكانت البندقية تعهد بإدارة ممتلكاتها إلى موظفين أو فنانين ، وترسل لجنانا لتفتيش على إداراتهم وحساباتهم من وقت لآخر ، وكانت لا تشرك الأهالي في الحكم ، ولكنها كانت لا تستعبدهم ؛ وإن كانت لا ترضى عن الفوضى ، وتستخدم لشده في كتبها حتى لا تعوق التجارة وتعطل الأسواق ، كما حدث بالنسبة لكريت . وكانت تعهد في بعض الأوقات إلى بعض الكونتات بإدارة مستعمراتها أو تعهد بها إلى أسر أرستقراطية ، وخاصة في القارة الأوروبية . وعملت في بعض الحالات على إحضار حاميات كبيرة ، وعلى توطين بعض أبنائها في المستعمرات ، كما حدث

مع كريت ، أى أنها إستخدمت إستعمار « التوطين » وأفادت من هذه العناصر الواردة إلى الجزيرة لتكوين اطارات أو قيادات لها ، وبإشراف موظفي الدولة ، حتى تقضى على الروح الثورية . ونجحت البندقية حيث فشلت جنوا .

٤ - الجامعة الهنسية :

نجحت المدن الألمانية مجتمعة في القيام في شمال أوربا بنفس العمل الذى قامت به كل من جنوا والبندقية بنفسها ولنفسها في البحر المتوسط . وكانت عملياتها هى نفس عملية الاستعمار لأغراض تجارية ، ونفس عملية إنشاء المراكز التجارية شبه المستقلة التى كانت تستخدم كمخازن وأسواق لبيع أنسجة الفلاندر ومنتجات الصناعة الغربية ، ولشراء منتجات الأهالي والمواد الخام الموجودة . ولكن مدن الشمال قد عملت على توحيد عملياتها في الوقت الذى عملت فيه الفردية على توزيع مجهود اللاتينيين ، وساعدت حسب النظام أبناء الشمال على الإستمرار في عملياتهم بهذا الشكل الخاضع بهم ، ورغم أنه لم يكن لآى مدينة من مدن شمال أوربا إمكانيات جنوا المالية ، ولا إمكانيات البندقية البحرية ، إلا أنها نجحت مجتمعة ، وبوضعها موازدها سوياً ، في إنشاء امبراطورية تجارية هامة .

ولقد نشأت هذه الاتحادات نتيجة لتطور اتحاد نقابات الحرف ، سواء أكان ذلك لأهداف البر والاحسان ، أو لاقامة الأعياد المهنية والدينية ، في مدينة من المدن . ثم إتحدت هذه النقابات في مدن مختلفة ، وكونت لها قوات متحدة ، لحراسة تجارتها ، وعناية قطاع الطرق والقراصنة ، أسستها بالألمانية « هانس » وأخذت بالتال في الإشراف على تنظيم القوافل التجارية ، البرية والبحرية ، ثم الإشراف على الأسواق وعلى كل العمليات التجارية .

ونشأت الهانسا الخاصة ببلندن بهذه الطريقة ، وأخذت في حماية المواصلات بين إنجلترا و الفلاندر ، وكذلك هانسا المدن السبعة عشر في هولندا ، وهانسا « الماء » في منطقة السين في فرنسا . ثم أجمعت هذه الاتحادات سوياً ، وتعاونت

ماليا ، ثم وضعت رؤوس أموالها في اتحاد عام ، يساعدها على مجابهة الأخطار التي قد تتعرض لها تجارتها . وتحولت أعمال الاتحادات الهندسية من أعمال أمن إلى عمليات تجارية ، مشتركة .

وكانت الجامعة الهندسية الألمانية هي أشهر هذه الاتحادات ، وعملت على حماية أعضائها من الاستبداد الإقطاعي ، مثل حمايتها لتجارهم من قطاع الطرق . وتجمعت في هذه الجامعة مدن كولونيا مع مونستر ودورتموند ، وأخذت في إستغلال مناطق البحر البلطي ، وأنشأت لوبيك وروستوك وأقامت مراكزها في نوفجورود ، وعملت هذه الجامعة على حماية صيادي الرنجة في لوبيك وغيرها ، واضطرت هذه السياسة إلى فرض نفسها على البلاد الاسكندنافية ، والتوسع فيها من ناحية ، كما اضطرت ، من ناحية أخرى ، إلى التعامل مع العالم المسيحي ، لكي تبيع أسماكها للكاتوليك ، وخاصة لوجبات يوم الجمعة ، ووجبات الصيام .

وإنتقل مركز هذه الجامعة من كولونيا إلى لوبيك التي عقدت معاهدة صداقة وحرية تجارة مع هامبورج ، ثم إنضمت إليها ستون مدينة من موانئ البحر البلطي وبحر الشمال وحوض الراين ، وكانت جميعاً الجامعة الهندسية . التي كانت في واقع الأمر عبارة عن حلف يهدف العمل ضد أي اعتداء خارجي ، أو تحكيم داخل ، ويهدف ضمان حرية طرق الصيد وتجارة الأسماك ، والتوسع فيها . وانضمت زيوريخ وفرانكفورت ومدن الشمال والشرق ، وبريمن ومجدهبورج لهذه الجامعة ، التي توجهت في توحيد ألمانيا وعلى أسس اقتصادية ، بعد أن فشلت الامبراطورية الجرمانية في توحيدها على أسس عسكرية ودينية ، ونجحت فيها بوضعها لمواردها سويا وبالإشتراك ، بعد أن كانت تجربة الامبراطورية تقوم على أساس هرمي .

وسيطرت الجامعة الهندسية على مدن كثيرة في الأراضي الواطئة ، مثل بروج والفرمن وأمستردام . وكانت تدفع رسوم جركية منخفضة على بضائعها في بعض

المدن، وتتمتع بإعفاء كامل من هذه الضرائب والرسوم في مدن أخرى، دون أن تصل تجارتها إلى إحتكار السوق إحتكاراً كاملاً. وكانت الجامعة تستخلص الملح منذ لفظ أسماؤها من غرب فرنسا، كما حصلت فيها على إعفاء تجارتها من الضرائب، وحصلت على حق البيع والشراء والتلك. وكانت الجامعة الهنسية تشتري الصوف من إنجلترا، وتصدر إليها المنتجات الشرقية والإستوائية والخشب والامهادن. وكان لها مركزاً محصناً في لندن. يعيش فيه التجار الألمان معيشة تشبه إلى حد كبير معيشة الرهبان في الأديرة. واضطرت الجامعة الهنسية إلى أن تحارب في بلاد الشمال الإسكندنافية، حتى تركز أقدامها في هذه المناطق، فأغارت على كوبنهاجن، وفرضت نفوسها على الدانيمركيين والنرويجيين، وعتدت معاهدة تجارية معهم، حصلت بها على ثلاث موان، ومركز ثابت للصيد. وبعد حرب ثمانية حصلت الجامعة الهنسية على بعض المراكز التجارية في الدانيمرك، وإعفاء من رسوم الملاحة البحرية، وإحتكار دخول البحر البلطى لسفنها. واحتلت الجامعة الهنسية أستكهمولم لكي تقضى على العصابات وأوكار القرصنة الموجودة فيها، والموجودات بالقرب منها. وتمكن رجال الجامعة الهنسية من إنشاء المراكز التجارية من البحر البلطى، في داخل روسيا نفسها.

وهكذا إمتدت أراضى الجامعة الهنسية من إنجلترا إلى روسيا، فمستندة إلى مراكز ونقطة ثابتة. وكانت الجامعة الهنسية تشبه دولة منتظمة أكثر من شبهها بشركة تجارية؛ فكان لها مجلس أو برلمان، يجتمع في لوبيك مرة كل ثلاث سنوات، وقسمت مناطق عملها إلى أربعة أقسام هي وستفاليا وعاصمتها كولونيا، وساكس وعاصمتها برنويك، والفاند وعاصمتها لوبيك، وبروسيا وعاصمتها دانتزج. وكانت تعاقب كل مدينة عاصمة وتفرض عليها الضرائب أو الغرامة، أو تصادر سفنها وتجارها، أو تطردها من الاتحاد، مما يؤدي إلى أنهارها الإقتصادية.

وكانت مراكزها في الخارج نحاطة بأسوار، وتقفل أبوابها ليلاً، ويحكمها نيابة من الشيوخ، ويعاونهم مجلس من ثمانية عشر عضواً. وكان أبناء الجامعة يعيشون في هذه المحطات حسب نظام معين ودقيق، وحرّم الاتحاد عليهم تكوين الشركات مع الأهالي، أو استخدام أبنائهم، أو الزواج معهم. كما حرّم عليهم تمثيل هيئات غريبة عن الجامعة الهندسية، والقيام بعمليات تجارية مستقلة أو لحسابهم الخاص. ولم يكن من حق أي سلطة، سوى قضاة الجامعة، أن تتدخل في خصوصياتهم، وطبقاً لقوانينها. وكانت سلطة الاستئناف مركززة في محكمة لوبيك. وكانت للجامعة الهندسية موارد ثابتة من الضرائب، كأى دولة من الدول، وكانت تفرض رسماً معيناً على السفن والبضائع التي تدخل موانئها. كما كان لها جيشها وأسطولها الحربي. وكانت تعلن الحرب، وتعتد الصلح.

وكانت قوتها ترجع إلى سياسة الإحتكار التي سارت عليها، إذ أنها كانت الوسيط الوحيد في كل العمليات التجارية في شمال أوروبا، وكانت تبيع لهذه المناطق توابع الشرق، وتمتص سفن غرب أوروبا من دخول الموانئ الاسكندنافية وموانئ البحر البلطى. وكانت هي وحدها التي تبيع الرنجة المجففة والمملحة والمدخنة لكل العالم، كما كانت تحتكر عنبر بروسيا وحديد السويد وأخشاب النرويج وفراء روسيا، وكان تجارها يتوغلون في القارة مع الأنهار، فكانوا يوصلون الأنسجة الفلامنكية إلى سيليزيا وبوهيميا، ويعودون منها بالمعادن. وإذا كانت قيمة تجارة الجامعة الهندسية أقل من قيمة تجارة المدن الإيطالية؛ إلا أن حجمها كان يماثل حجم تجارة هذه المدن.

وبدأ ضعف الجامعة الهندسية من داخلها. ذلك أن أهالي المدن الألمانية أخذوا في الثورة على دكتاتورية الأرستقراطية التجارية، وتمكنت الأحزاب «الشعبية» من الوصول في بعض الحالات إلى الحكم. كما أن التنافس قد ظهر، ثم تزايد، بين مدن البحر البلطى ومدن بحر الشمال، وفشلت لوبيك في فرض نفوذها على

والوحدة الهنسية ، على المتنافسين . ثم جاءت عوامل خارجية ساعدت على إضعاف الجامعة الهنسية ؛ ذلك أن هذه الجامعة قد اضطرت إلى إعلان الحرب على الدول الإسكندنافية الثلاث التي إتحدت مع بعضها ، حتى تحتفظ بمصالحها هناك ، كما قامت جماعة الإخوان التيوتونيين بتأييد المدن البروسية في حركة تحررها وخروجها من الجامعة .

ولقد ظل البحر الباطلي هو مركز قوة الجامعة الهنسية ، وهدف سياستها . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة ، واجهت الجامعة الهنسية عدواً عنيداً ، يتمثل في شخص فلاديمير الرابع ، ملك السويد النشط ، الذي وجه ضربات قوية للسادة الإقطاعيين في بلاده ، ودعم سلطته ، وأخذ يحلم بتوحيد الدول الإسكندنافية تحت سيطرته ، وإخضاع مدن الجامعة الهنسية لأهدافه . وأرسل حملة عسكرية ، في شهر يوليو سنة ١٣٦١ ، إلى جزيرة جوتلاند ، حطمت المركز التجارية الموجودة فيها . وأدى ذلك إلى إتحاد بعض المدن مع الجماعة التيوتونية في هامبورج وبريمن وكيل ؛ واستندوا إلى تأييد ملك السويد ، وأعلنوا الحرب على الدانيمرك . ولما استولى عليهم الذي قاده عمدة لوبيك لم يحرز نصراً حاسماً ، وظل ملك الدانيمرك المسيطراً على الموقف ، وتمكن من أن يفرض مع شروط الصلح على الجامعة الهنسية ، نوعاً من التحالف يشبه إلى حد كبير الخضوع لسيطرته ، وذلك في شهر نوفمبر سنة ١٣٦٥ .

ولكن الجامعة الهنسية عادت ، بعد عامين من الخضوع ، إلى الكفاح من جديد ضد الدانيمرك ؛ وعقدت في سنة ١٣٦٧ رابطة قوية مع كولونيا ، واشترك فيها ما لا يقل عن ٧٧ مدينة . واستندت كذلك إلى معونة سادة هولشتاين وملك للسويد ، وكونت وحدات محاربة ، وأستولت بحرى ، وأعلنت الحرب على الدانيمرك في العام التالي ، وتمكنت من الإستيلاء على كوبنهاجن ، الأمر الذي أجبر ملك الدانيمرك على طلب الصلح . وتأكدت إمتيازات الجامعة الهنسية من

جديد ، وحصلت على حرية الملاحة . والإعفاء من كل الضرائب الجزائية ، وحتى إنشاء مراكز تجارية مستقلة في الأراضي الدانيمركية ، وإحتلت بعض أقاليم الدانيمرك كغرامه حربية وحصلت على صوت في إختيار خليفة ملك الدانيمرك الذى كان قد تقدم به السن .

وعلىنا أن نلاحظ أن الجامعة الهنسية لم تكن لها أية أطماع إقليمية ، بل كانت ترغب في مجرد الحصول على السيطرة البحرية ، وتم لها ذلك عن طريق تحطيم قوة الدانيمرك . وحصلت الجامعة الهنسية ، دون إستيلائها للدانيمرك ، على حرية منشئاتها للتجارية أمام أى تدخل أجنبي ، وعلى فتح المضائق أمام سفنها . وكانت هذه المعاهدة ، التى عقدت سنة ١٣٧٠ ، إنتصاراً واضحاً للجامعة الهنسية . وحين زار الإمبراطور شارل الرابع لوبيك سنة ١٣٧٥ ، تأكد نفوذ هذه المدينة ، عاصمة الجامعة الهنسية ، والتي كانت تسعى إلى الإستقلال ، بخضوعها لسيد خاص من النبلاء ، وفي شكل مشابه لروما والبندقية وبيزا وفلورنسا .

وأصبحت الجامعة الهنسية تجمع ، في عمل مشترك ، كل المدن المطلة على السواحل الشمالية ، وكذلك مدن سهول ألمانيا الشمالية ، مثل كولونيا ، ودور تموند ، ومونستر ، وفرانكفورت . وأصبح لأعضائها مراكز لها إمتيازات تجارية في روسيا ، والسويد والدانيمرك وإنجلترا والفلاندر ، كما أصبح لها مراكز تجارية دائمة في لندن . وفي بروج ، التى كانت تتصل عن طريقها ، وبواسطة الملاحة ، بسواحل المحيط الأطلسى ، وسواحل البحر المتوسط .

• - البحارة الإيطاليون :

ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، كانت سفن البندقية ، وسفن جنوا ، تلتقى مع سفن الجامعة الهنسية في بروج ، التى أصبحت منذ ذلك الوقت وحتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر حين أخذت أنفرس مكانها ، هى المركز الرئيسى للبعاملات الدولية في أوروبا . ولم يعد مينائها الداخلى مع مينائها الخارجى ، يكفي

لاستقبال كل السفن التي توجه إليها ؛ فكانت السفن الكبرى تضطر إلى الوقوف قبل الميناء . وكان الأجانب يختلطون في المدينة نفسها ، ويقومون بالمعاملات التجارية ، والمبادلات ، والعمليات المصرفية .

وكان الإيطاليون هم الأغلبية بينهم ، كما كانوا الأكثر نفوذاً ، نتيجة لمعاملاتهم ، وضحامة رؤوس أموالهم . وكان تفوقهم نتيجة طبيعية لسيطرة إيطاليا الاقتصادية ، وإن كان ذلك يتنافض تماماً مع الفوضى السياسية التي كانت تضرب أطنابها في شبه الجزيرة الإيطالية . وكان العالم لا يزال بعيداً في ذلك الوقت عن قيام الدول بالسير في الطريق النركنتيلي . وكانت كل من البندقية وجنوا قد أفادت من موقعها الجغرافي ، ومن تقدمها على الدول القارية في فن التجارة وأعمال المصارف ، واحتفظتا بسيطرة لم يجرؤ أحد حتى ذلك الوقت على منافستهما فيها .

وكانت كل من البندقية وجنوا قد عملت ، بذلك أبنائها ونشاطهم ، على اجتذاب كل السلع والتاجر التي كانت تصل من الصين وفارس والهند وآسيا الوسطى والبلاد العربية إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط : مثل الحرير والعمود والمجوهرات الثمينة ، وكذلك التوابل المختلفة ، والتي كانت تجارها تضمّن لهم أرباحاً تزيد عن أرباح كل السلع الأخرى ، ولا يمكن عقد مقارنة بينها . وكانت غزوات المغول التي غيرت من شكل آسيا ، قد زادت من عزيمتهم ، ووسعت نطاق عملياتهم . وأصبحت المواد الغذائية تصل من الصين ، عن طريق التركستان ، إلى طرابزون والقرم وفارس ؛ كما أن السلع التي كانت تأخذ طريق البحر كانت تصل في غالبيتها إلى مصر عن طريق عدن والبحر الأحمر ، أو عن طريق هرمز ، على الخليج الفارسي ، ومنها إلى موانئ الشام . وكان تجار البندقية وجنوا يذهبون إلى هذه البلاد لشراء هذه السلع ؛ واحتلوا مواقع في القرم ، ولزدهرت أماكنهم في كل مكان ؛ وأنشأت جنوا إدارة خاصة في القرم ، للإشراف على التجارة في البحر الأسود . وأصبحت السلع الروسية ، مثل الأسماك المملحة والقمح والفراء

والجلود ، أو الصينية ، مثل الحرير والتوابل ، يعاد تصديرها من القرم صوب أوروبا . وأفاد تجار جنوا من ضف نفوذ المغول في جنوب روسيا ، لكن يوسعوا مناطق نفوذهم في القرم . وتم نفس هذا التوغل في فارس ، حيث أقاموا في تبريز ، وذلك في الوقت الذي عقد فيه البنادقة معاهدة للتجارة مع خان الفرس ، وعينوا قنصلهم في إيران سنة ١٣٢٠ .

وتمكنت كل من البندقية وجنوا ، نتيجة للارباح الضخمة التي حققتها ، من أن تصبح لها رؤوس أموال ضخمة ، الأمر الذي يفسر أهمية المكانة التي وصلت إليها في العالم ، رغم كونها لا تتناسب مع قوتها العسكرية . وأصبحت كل منهما وسيطاً ، لا يمكن الاستغناء عنه ، بين أوروبا وآسيا ، وأصبحت ثرواتها تعوضهما عن الخدمات التي يقومون بها . وتكاثرت علي نشاطهما في ميدان الأعمال . ويعود إليهما ، وإلى أبنائهما ، الفضل في تحسين وسائل العمل المصرفي : فقاموا بإبتداع أمور الدفع ، وتسمية السلفيات البحرية ، وساعدوا على إزدهار المؤسسات المصرفية ، ولعبت المضاربات دوراً هاماً في أعمالهم .

ولاشك في أن البندقية وجنوا ، كمراكز تجارية كبيرة ، كانت لها إشعاعاً في المناطق الواقعة حولها ، وتسبب ذلك في ازدهار لا مثيل له في كل شبه الجزيرة الإيطالية . وأفادت من ذلك مناطق لومبارديا ، وتوسكانا ، وفلورنسا ، التي اعتمدت على صناعة النسيج ؛ وأصبحت أكبر مركز تجاري في جنوب الألب . وفرض الإيطاليون أنفسهم على بقية بلاد أوروبا عن طريق السيطرة على تجارة الفضة ؛ وكانوا قد حووا ، منذ نهاية القرن الثالث عشر ، محل من يقدمون السلفيات المحلية ، والذين كانوا أقل ثراء منهم ، وأقل حكمة من هؤلاء المنافسين الجدد . وقل أن نجد ، في أثناء القرن الرابع عشر ، رجال مصارف من غير الإيطاليين ، حتى أصبحت كلمة لومباردي تعني من يقوم بإقراض النقود . وكان رجال الأموال يتركزون كذلك في فلورنسا ، وإشتهرت منهم أسر البيرتي ،

وباردى ، وميديتشى ، فى أثناء القرن الخامس عشر . وكانوا يتدخلون شخصياً ،
أو عن طريق مندوبيهم ، فى باريس ولندن وبروج وأفينيون ، وفى جميع أنواع
العمليات . وعملوا كرجال مصارف للبابوية ، وقدموا القروض للبلوك والأمراء .
كما أخذوا حق صك العملة فى إنجلترا وفرنسا ، وحق جمع الضرائب . وربما
كان هذا التوسع سابقاً لأوانه ، خاصة وأن بعض هذه الأسر أعلنت إفلاسها فى
أواسط القرن الرابع عشر ، ومضى قرن من الزمان قبل أن يظهر تفوق أسرة
ميديتشى من جديد .

وتسبب التفوق الواضح للبحرية ووسائل التجارة الخاصة بالإيطاليين فى
تقليل أهمية الأسواق ، إذ أنه لم تعد هناك حاجة لهذا اللقاء الكبير بين تجار
الشمال وتجار الجنوب . وكانت الإضطرابات والحروب تقلل من أمن الطرق
البرية فيما بين بروج وإيطاليا ، رغم كونها مزودة بسلسلة من أماكن التبادل
والأسواق والمخازن والمصارف . وكانت الجماعات المسلحة تنهب المسافرين ،
وتوقف التجار ، وتفرض الأتاوات على كل من يقابلها ؛ وشارك فى ذلك بعض
مجموعات من المحاربين كذلك . وأدت هذه الفوضى وقلة الأمن إلى التخلي عن طرق
التجارة البرية بسرعة ؛ وأصبح البحر ، رغم مخاطرة وبطء حركة الملاحة فيه ،
أكثر أمناً . وأصبحت السفن تمر مباشرة من مضيق جبل طارق صوب شمال فرنسا ؛
وبدأ المحيط يلعب دوراً للاتصال بين هاتين المجموعتين البحريتين الأوربيتين :
مجموعة البحر المتوسط ، ومجموعة بحر البلطيق .

وسرعان ما أدت المنافسة السياسية بين فرنسا وإنجلترا إلى دفعهما صوب
التنازع على السيطرة على هذا الطريق التجارى ، الذى تزايدت أهميته . وكان الأمر
قد ازداد تعقيداً ، إذ أنه قد نشأ ، إلى جانب تجارة العبور التى يقوم بها
الإيطاليون ، حركة تجارة وتبادل محلية ، جاءت لتزيد من أهمية تجارة المحيط ،
وكان بحارة بوردو ، والبحارة الإنجليز ، قد أخذوا فى منافسة بحارة البرتغال

وخليج بسكاي ، وأخذوا يقومون بالملاحة بين شمال فرنسا ، وسواحل بحر المانش ، ولندن وبروج ، وذهبوا حتى بلاد النرويج لإحضار الأخشاب وأسماك الرنجة المدخنة ، نظير القمح والأصواف التي كانوا يحملونها من إنجلترا . وكان ذلك من بين الأسباب التي دفعت إدوارد الثالث إلى محاولة السيطرة على بورجو ولاروشيل . وإحتلال إقليم بريتانى ، الأمر الذى دفع شارل الخامس إلى أن يرد على ذلك بإقامة تحالف يستند إلى بحرية قشتالة ، وإلى تجار بسكاي ، الذين كانوا ينافسون تجار لندن وبريستول .

ورغم هذه الصراعات ، ورهما بسببها ، تمكنت سفن جنوا والبندقية من أن تجد لها إمكانيات جديدة للتوسع فى المحيط الأطلسى . وتمكنت المؤسسات الإيطالية ، نتيجة لتقدم الوسائل التجارية ، من أن تعين لها مندوبين يتصلون بها مباشرة ، من كل مركز من مراكز الأعمال . وحاول الآخرون أن يتشبهوا بما كان يقوم به الإيطاليين ، الأمر الذى جعل التنظيم التجارى لبلاد الشمال يتطور ويتأثر بالإيطاليين .

وبدأت ألمانيا الجنوبية ، نتيجة لقربها من البندقية ، فى أن تشارك بنشاط فى الحركة الإقتصادية التي كانت قد سبقتها إليها الجامعة الهنسية ومنطقة الراين . وأصبحت مدن ألمانيا الجنوبية مراكز متوسطة بين موانئ بحر الإدرياتيك والمدن البحرية فى الشمال . وتأثرت كل من بوهيميا وهولندا بالتوغل المتزايد للتجارة فى القارة الأوروبية ، الأمر الذى ساعد على نمو مدينة براغ .

وهكذا شعرت أوروبا ، بوقوعها بين بحرين داخليين . — البحر المتوسط وبحر الشمال — بتزايد ونمو عمل منعش ، كان يتم منذ وقت طويل من حولها . ونشأت حركة عامة للواصلات ، بين كل أجزائها ، ساعدت على توحيدها فى مجموعة متماسكة ، وزاد تضامن أجزائها مع بعضها . وكان إنتشار مرض الطاعون الأسود من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٣٥٠ فى كل مناطق أوروبا ، دليلاً كافياً على وجود هذا العامل ، المميت .

الفصل السادس

الاتجاهات الاقتصادية الجديدة

إن النصف الأول من القرن الخامس عشر الذي يبدو ، إذا ما نظرنا إليه من النواحي الدينية والسياسية والثقافية ، كفترة أزمة ، أو كمرحلة تحول عميق ، يظهر بشكل مخالف تماماً في الميدان الاقتصادي : فلم يكن هناك بعد ما يبدل على أن أوروبا كانت في انتظار اتجاه غير متوقع للحركة التجارية ، وأن اكتشافات العالم الجديد ستعمل على تحويل محور توازنها الاقتصادي ، من بحر البلطيق والبحر المتوسط ، إلى المحيط الأطلسي ، وذلك في نفس الوقت الذي تتغير فيه ظروف المعيشة اليومية ، وتسبب في نمو الرأسمالية ، والصناعة ، ونظام العمل ، والتنظيم المالي ، مما سيكون له أخطر النتائج .

ولاشك في أن أوروبا قد تغيرت ، حتى منتصف القرن الخامس عشر ؛ ولكن هذا التغيير كان كديا وليس كيفيا ؛ فكانت الحركة مستمرة ، ومتزايدة ، ولكن على نفس الخط ؛ وكان التقدم ، بالتالي ، في نفس الاتجاه . ولم يكن هناك ما يسح بالتنبؤ بأنها ستأخذ إتجاها مختلفاً تماماً ، بعد خمسين سنة أخرى . وكانت الأحداث السياسية الضخمة قد عبرت فوقها ، ودون أن تؤثر فيها . ذلك أن زيادة فقر فرنسا وإنجلترا في حرب المائة عام ، والفوضى المتزايدة في إيطاليا وألمانيا ، وإنشاء دولة برينديا ، وتدعيم الممالك الإسبانية لم يكن لها على الاقتصاد العام إلا نتائج مؤقتة ، دون أن تغير ماهو أسامي وجوهري في هذا النظام . وكان في وسع البعض أن يعتقد أن توسع هولندا ، بعد انتصارها على الفرنسيين (1610) ، ووصولها في الشمال حتى سواحل بحر البلطيق ، في نفس

الوقت الذى وصل فيه توسعها جنوباً إلى البحر الأسود ، سيجعل من هذه الدولة وسيطاً بين أوروبا وآسيا ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ وجاء توسع الأتراك في حوض البحر الأسود لكي يقفل هذا الطريق الجديد أمام العناصر السلافية . وكان البحر المتوسط ، وحتى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، رغم قربه من الكارثة ، لم يتأثر بعد باقتراب وزحف العناصر المتبرورة . وظلت إيطاليا تحتفظ بذلك التقدم الذى كانت قد حصلت عليه منذ القرن الثالث على أوروبا الشمالية ، دون أن يفكر أحد في أن أنهارها كان قريبا . وفي البحر الداخلى الثانى ، الذى كانت أوروبا تطل عليه ، وهو بحر الشمال ، لم يكن هناك أى دليل على التغيير ؛ وظلت الجامعة الهنسية مسيطرة هناك كما كانت في الماضى . ولم يكن في وسع أحد أن يتنبأ بأن كل من انجلترا وهولندا سوف يرثانها هناك .

ولكن الأحوال تغيرت عند أواسط القرن الخامس عشر . ذلك أن إقفال الطرق التى كانت توصل آسيا بشرق البحر المتوسط ، نتيجة لغزوات الأتراك ، أجبرت أوروبا على البحث ، في اتجاهات جديدة ، عن وسائل تضمن لها استمرار توازنها الإقتصادى . ولم يعد البحر المتوسط هو الشريان التجارى الكبير ، كما كان عليه الحال منذ العصور القديمة ؛ وخسرت الشعوب التى عاشت على سواحله ما كانت تجنيه من احتكارها لهذه التجارة . وكان هناك تغيير قادم ، دون أن يتمكن أحد إلا من رؤية بعض مظاهره الأولى .

١ - نمو الرأسمالية :

إن الظاهرة الأولى ، المؤثرة والجديدة ، وسط هذا الاستقرار العام ، وذلك التوازن الإقتصادى في النصف الأول من الخامس عشر ، تتمثل في زيادة توزيع التجارة الرأسمالية . وكانت تتوسغل أكثر وأكثر ، من مركزيهما : البندقية في الجنوب ، وبروج في الشمال ، في جميع أنحاء القارة الأوروبية . وأصبحت الوسائل التى ابتدعها الإيطاليون فيما يتعلق بالتسليف ، ومثلك الدفاتر ،

والمراسلات ، أمراً عادياً لدى كل رجال الأعمال . وقام الألمان ، الذين تعلموا ذلك في فندقهم المطل على بحر الإدرياتيك ، بنشر إستخدامها بين بنى جنسهم . وشهد جنوب ألمانيا ، الذى كانت له علاقات وثيقة مع البندقية ، نشاطاً واحداً منذ منتصف القرن الرابع عشر . وأصبحت للشركة الألمانية الكبرى ، التى أنشأها جوزيف هومفى فى رافنزبرج سنة ١٣٨٠ ، فروعاً فى جميع أنحاء أوروبا . وأصبح لديها ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، فروعا ومراكز ، فى كل الدول : فى إيطاليا فى جنوة وميلانو ؛ وفى إسبانيا فى سرباقوسه وبرشلونة وبلنسية ؛ وفى فرنسا فى ليون وأفينيون ومارسيليا ؛ وفى الأراضى المنخفضة فى بروج وأفرس ؛ وفى سويسرا فى برن وجنيف ؛ وفى ألمانيا فى كولونيا ونورنبرج ؛ وكذلك فى فينا وفى بست . وكان رأسمالها يقدر بما لا يقل عن إثني عشر مليوناً من عملتنا الحالية ، وكانت كل تجارتها ، البرية والبحرية ، هى تجارة الجملة . ومنذ قرن سابق ، لم يكن فى وسع مثل هذه العملية أن تقوم ، تنظيمياً ، إلا فى إيطاليا . ولكن معرفة التقنية التى تتطلبها ، فى مديريها وموظفيها ، وكذلك طرق المراسلات ، كانت قد إنتشرت فى كل مكان ، الأمر الذى فتح المجال أمام الرغبة فى مزاولة الأعمال . وإذا كانت التجارة المحلية قد ظلت خاصة للتنظيمات الدقيقة الخاصة ببناءات الحرفيين ، وابتجاه الحماية الصارم لإقتصاد المدن ، فإن التجارة الكبيرة لم تخضع لها ، ولم تخضع إلا للاتجاه الفردى الرأسمالى ، وألذى كان التجار ورجال المصارف الإيطاليين تد أعطوا أمثلة كثيرة عليه أثناء القرن الثالث عشر ، وظلوا من كبار ساداته ، حتى القرن الخامس عشر : فكانت أسرة البيرتى قد أخذت مكان أسرة بيروزي وأسرة باردى فى فاورنسا حتى سنة ١٤٥٠ ، ثم تركوا مكانهم بعد ذلك لأسرة مديتشى التى كان لها أكبر متجر يعتقد أنه موجود فى العالم فى ذلك الوقت .

ومن جانب آخر نلاحظ أن إزدياد قوة الدول الملكية قد ساعد على نمو

الرأسمالية . وكانت المملكة قد إلتجأت ، في كل من فرنسا وإنجلترا ، وفي أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وفي إحتياجها للنقود ، إلى رجال المصارف الإيطاليين . ولكن رجال الأموال الوطنيين أخذوا في الظهور إلى جانب الايطاليين ، ووضعوا أنفسهم في خدمة الدولة ، وقاموا بأعمالهم وبأعمالها في نفس الوقت . وكان بيير بلادين ، أحد مستشارى دوق برجنديا في الأراضى المنخفضة ، قد أدار خزانة سيده بكل ذكاء ، الأمر الذى جعله يحقق أرباحاً طائلة . ولدينا مثل جاك كير في فرنسا ، وهو المثل الذى يشرح لنا كيف أن السلطة الملكية قد شاركت في تكوين ثروة ضخمة . وكان جاك كير قد بدأ صغيراً ، ولم يكن يتصف إلا بالذكاء والمثابرة ، وشارك مع مجموعة من المتحمدين كان شارل السابع قد أعطاها حق حىك العملة ، وكانت الشركة مختلطة ، وجاءت عملية اتجاره في المعادن الثمينة لى تساعد على الإغراء بالعمل في المضاربات . وتمكن كير ، في خلال بضع سنوات ، من يحقق أرباحاً طائلة ، وذلك عن طريق تصدير الفضة للشرق ، وإستيراد الذهب لفرنسا . ثم ضاعف بعد ذلك حجم عملياته ، وأخذ من الملك حق إستغلال مناجم ليون ، وأحضر العمال الألمان للعمل فيها . وأصبح « مورد الفضة ، للبلاط ، أى عمول ، البلاط ، فأخذ يقرض النقود طولاء العملاء من النبلاء ، ويبيع يتراوح بين ١٢ ٪ و ٥٠ ٪ . وأصبح رأسمالياً حقيقياً ، إستخدم أرباحه في تنمية مشروعاته ، أو في المشاركة في مشروعات الآخرين . وقيموا ، مع بعض المبالغه ، عدد المصانع التى كان يمتلكها بثلاثمائة مصنع ، موزعة في كل غرب أوروبا وفاجوستا وبروج ولندن . وكان أساس عملياته هو المضاربة ، فإتحموه بأنه يعمل على تحطيم التجارة الأمان . وكانت ضخامة ثروته كارثة له ، وكانت سبباً في سقوطه ، فإتهم بأنه غير قيمة العملة ، وزور دمغة الملك لها ، ففنى من المملكة ، وذهب إلى قبرص ، تاركاً وراءه ثروة تقدر بإثنين وعشرين مليون فرنك ذهب ، علاوة على عدد من التصور في باريس

وتور وهو ثباليه ، وما يقرب من ثلاثة أبعادية .

وكان مصير جاك كبير ، رغم إنتشار قصته أكثر من غيره ، هو مصير
الكثيرين من غيره . ويمتلى تاريخ القرن الخامس عشر بأسماء رجال جدد ، مثله ،
جمعوا ثروات طائلة من المصاربات ، والاحتكارات ، وإستغلال عمليات النقود
والتسليف . وجمع الكثيرون من رؤوس الأموال الضخمة هذه بسرعة ، وغالباً
ما كان ذلك بوسائل غير أمينة ، ثم إنتهى الأمر بأصحابها إلى إعلان الإفلاس ،
أو تقديمهم أمام القضاء . ولكن ذلك يصور ، بطريقة واضحة ، ذلك النمو الذى
أصاب الرأسمالية فى شمال جبال الألب . ومن الطبيعى أن من يبحث عن الثروة
لا يتقيد بالأخلاق التقليدية . فالقطيعة كاملة بين طريقة تعامل رجال الأعمال وبين
تعاليم الدين ، مع رفضها أخذ أرباح على السلف ، ونظرتها عن الثمن الحقيقى ،
ونظرتها إلى حب الربح على أنه نوع من البخل ؛ كما أنه كان هناك إختلافاً
واضحاً بين روحهم ، وبين طريقة تفكير البورجوازية الصغيرة المتجمعة فى
نقابات المدن ، والى كانت متحمسة لمنع التنافس ، والاحتكار ، ورفع الأسعار ،
وتخزين المواد الأولية . ولقد حاولوا أن يزيدوا اللوائح التى تنظم الصناعة ،
وتحدد البيع ، والشراء ، والإنتاج ، فى مجموعة من التشريعات الدقيقة ، ولكنهم
لم يتمكنوا من منع كبار التجار والمصدرين ، ورجال الأعمال والسامرة ، الذين
يتبادلون فيما بينهم المواد الأولية والقمح ، ويقومون بإستغلال المناجم ، ويشرفون
على تجارة الأصواف ، ويسيطرون على الملاحة ، من أن يستمروا فى سيطرتهم ،
وفى إستغلالهم . وفى مجتمعة تزايدت فيه وسائل المواصلات ، وتمت فيه قوة
العمالة ، لم يعد فى راسخ لإتجاه الخالية الإقتصادية فى المدن إلا أن يمثل خط دفاع
رقيق وضعيف ، أمام المنضبط الخارجى . وكانت الحرية التى تزدهر فى ميدان
كبار الأعمال ، بعيدة عن متناولها ، كما كانت مقاومتها لها محكوماً عليها بالتفصيل
مقدماً . هذا علاوة على أن تزايد التنظيمات الإقتصادية ، الذى تميزت به التشريعات

البلدية أثناء القرن الخامس عشر ، لم يؤد إلا إلى ذلك الاحتكار ، التي كان من المفروض أن تقضى عليه .

٢ - انظروف الجديدة للعمل في الصناعات:

فالواقع أن الصناع لم يجدوا حلاً لحماية مركزهم إلا في زيادة التحفظ . وأخذت كل نقابة في إحاطة نفسها بجوازير يصعب إختراقها . وازداد أمر الإضمام إليها صعوبة في كل يوم ، وأنضخوا ذلك لرسوم للدخول فيها ، وحسن وتشطيط الأعمال ، ولشروط الإقامة ، والتدريب والتعلم ، الأمر الذي أدى إلى الاحتفاظ بكل حرفة لعدد صغير من « المعلمين » الذين كانوا ينقلون حرفتهم لابنائهم . وفي كل مدينة ، أصبحت الصناعات المحلية ميزة محدودة ومحددة على عدد من الرؤساء الوراثيين . ولم يعد من السهل على الرقيب أن يأمل في أن يصل إلى مستوى « المعلمين » وبدأ في النزول بنفسه إلى ظروف العمال الكادحين . وإنتهى الأمر بالتنظيم ، الذي كان قد ساد ، في أثناء القرن الثالث عشر ، بالازدهار المفاجيء لملك الطبقة من صغار العاملين المستقلين ، المتحدين في شعورهم بالشرف والإخلاص لمهنتهم ، إلى أن يسلم البورجوازية في نهاية الأمر إلى إستغلال عدد من الصناع ومصالحتهم ، دون مصلحة الجماهير . وإرتفعت أصوات الشكاوى ضد هذا الاحتكار ، الذي كان واضحاً ، ولكنه كان مشروعاً ، في نفس الوقت . وبدأت التفكيك في فرنسا ، منذ نهاية القرن الرابع عشر ، وفي ألمانيا ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، عما إذا لم يكن بقاء الصناعات أكثر ضرراً عن نفعه ، وإذا لم تكن المصلحة العامة تقضى بالغائه ، ولكنه كان من الضروري الدخول في صراع مع الحرفيين أصحاب الامتيازات ، من أجل إلغائه ؛ وكانوا يسيطرون على السلطة البلدية ، أو كانت السلطة البلدية تأخذهم تحت حمايتها . ومن ناحية أخرى نجد أنه إذا كان « الرقباء » و « الصبيان » يقاسون من الاحتكار ، إلا أنهم كانوا يعيشون منه ، لم يعد النظام « الأبوي » ، مع ورشه الصغيرة ،

يستفح بالقبال بحركة ثورية ، لا نجد لها ذكر إلا في النادر القليل .
 وإذا كان الصناع الذين يعملون من أجل السوق المحلي يقاسون بهذه الطريقة
 من تقدم ونمو التجارة الرأسمالية ، فإذا نقول عن يعملون في صناعات التصدير ؟
 لقد رأيناها فيما مضى ، ورأينا أن مركزهم الاقتصادي كان يخضع لحركة التجارة
 الدولية . وكان وجودها يؤثر عليهم . ويمكننا أن نرى ذلك بوضوح إذا
 ما ألقينا نظرة على أكبر الصناعات التي كانت موجودة ، وهي صناعة المنسوجات
 في الأراضي المنخفضة . فكانت قد نجحت ، حتى منتصف القرن الرابع عشر ، في
 أن تحافظ على احتكار تقديم المنسوجات الفاخرة لأوروبا ، وذلك نتيجة لتفوق
 تقنيتهما ، ولأنها كانت تتنكح من أن تزود عن طريق ميناء بروج بالأصواف
 الإنجليزية الرقيقة ، وتجد في هذا الميناء ، وفي كل فصول السنة ، تجار الجملة
 المستعدين لشراء منتجاتها . ولكن الواضح أنها بدأت ، مع منتصف القرن
 الرابع عشر ، تقاسي من مظاهر الضعف . ورجع ذلك أولا إلى أن المدن
 الإنجليزية نفسها بدأت في تصنيع الصوف ، الأمر الذي أدى إلى قلته في الأسواق ،
 وكذلك إلى ارتفاع ثمنه . ونتج عن ذلك ارتفاع أثمان المنسوجات التي أدى
 بالتالي إلى زيادة صعوبة تصريفها . وأفادت مدن الفلاندر الصغيرة من ذلك ،
 وعملت على أن تأخذ مكان المدن الصناعية الكبيرة . فذشأت مجموعة لا تنتهي من
 الإدعاءات بين أكثرها قوة ، وبين جيرانها ، واتهموها بأنها غير مخلصة في
 منافستها لهم ، وبأنها تقلد علاماتهم التجارية ؛ وإستند الآخرون إلى امتيازتهم ،
 في الوقت الذي أصر فيه الآخرون على حقوقهم الطبيعي ، والحق العام ، الذي ينص
 على حق كل فرد في أن يكسب قوته بعمله . وأظهر هذا الصراع بوضوح
 وجود مواجهة بين الفكرة الاقتصادية التي تقصر الصناعات الاقتصادية على المدن ،
 وبين الفكر الجديد الذي كان يتمثل في الحرية ، والذي كان أساس إلهام التجارة
 الرأسمالية . وحاولت كل من جانده ، وروج ، وإير أن تعمل ضرورة احتفاظها

باحتكاراتها الصناعية، ولكنه كان من الواضح أنهم كانوا يحاولون مجرد الاحتفاظ، وعن طريق حجج وادعاءات قديمة، يركز كان سيضيع منهم؛ وكانوا بالتالي لا يدافعون إلا عن مصالحهم. ولم يكن هناك ما يمنع التجار من شراء المنسوجات من المدن الصغيرة، مادام ذلك في مصلحتهم. وكان في وسع المدن الكبرى، لكي تخرج من هذا المأزق، أن تغير تقديراتها، وتخفيض أجور الصناعات، أو تزيد عدد ساعات العمل. ولكنهم لم يفكروا في أي شيء من ذلك. لأن صناعات المنسج في الفلاندر كانوا، منذ نهاية النظام الأبوي للحرف، هم الذين يسيطرون على الحكومات البلدية، فلم يكن في وسعهم أن يجرؤوا أنفسهم من الميزات الاقتصادية، التي كانوا قد كافحوا وقتا طويلا من أجل الحصول عليها. وأعتقدوا أنهم يتشبهون بالأزدهار الذي سيفلت من أيديهم، فأقبلوا على أنفسهم الجاب، داخل نظام الحماية والإحتكار، مستندين إلى حقوقهم الخاصة، ضد الحقوق العامة، وأخذوا يدعون التفوق على غيرهم.

وكان وفي وسع مثل هذا التفوق أن يفرض نفسه، على منافسيه، إذا ما كان فعليا. ولسكن كل العالم كان ضد إمتيازات المدن الكبيرة: المدن الصغيرة والتجار الأجانب. وكان من الطبيعي أن تستند التجارة الرأسمالية إلى الخصوم والمنافسين لهؤلاء المميزين الذين كانوا يفرضون عليهم الأسعار وطرق الانتاج التي يقررونها. ولهذا فإن صناعة الأنسجة في المدن الكبرى فقدت الأسواق التي كانت تسيطر عليها. وبدون منافسة، منذ فترة طويلة. وكانت مجهوداتها للحفاظ على ثروتها، تبعد عنها الأرباح. ونلاحظ أن منتجاتها، ومنذ نهاية القرن الرابع عشر، لم تعد تلك المنتجات التي لا توجد بها أية أخطاء، كما كان عليه الحال في الماضي. ولم يعد انزبائن يشقون في علاماتهم التجارية. ولم تعد « الشنية » الخاصة التي تدفع المشتريين، كما هو الحال الآن مع بطاقة العلامة التجارية، لها قيمة في الشراء من مصنوعات إيبر و بروج وجاند. وفي حوض البحر المتوسط، تفوقت منسوجات فلورنسا على منسوجات الفلاندر؛ بينما أخذت، في الشمال،

مكتسوبات المدن الصغرى تمون الحركة التجارية ، وفي ترايد ؛ وظهر إلى جوارها
مكتسوبات انجلترا ، كسميد للشهرة التي مستكسبها أثناء القرن الخامس عشر .
وهكذا ترى أن تدهور أحوال صناعة الأنسجة في المنطقة الفنلندية ومنطقة
برابانت كان نتيجة للتفوق المتزايد للتجارة الرأسمالية . ولم تتمكن من أن توائم
نفسها وهي مقيدة بمتطلبات إقتصاد المدن ، مع الأحوال الجديدة التي أصبح السوق
العالمى يعيش فيها . وجاء التفوق الذى حصل عليه صناع الصوف فى المدن الكبيرة
أثناء القرن الرابع عشر لى يساعد على سرعة هذا التدهور . ولقد حاولوا ، بلا
جدوى ، أن يفرضوا مصالحهم ، كمنتجين على النظام الرأسمالى . ولم يكن من
السهل القضاء على حرية التجارة التي كانت شركات التصدير الكبرى تعمل بوحى
منها . وفى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر سينهار التنظيم الصناعى
الخاص بالعصور الوسطى فى المدن ، تحت ضغط قوة الرأسمالية ، التي أصبحت
عامة وقوية .

ولذلك فإنه سيكون من الخطأ الكمال أن نشرح تدهور أحوال المدن
الصناعية الفنلندية الكبرى ، عند نهاية العصور الوسطى ، بالاضطرابات المدنية
التي وقعت هناك . وهذه الاضطرابات كانت نتيجة لها ، أكثر من كونها سبباً
لها . كذلك اعتمد البعض فى أن هجرة عدد من النساجين الفنلنديين قد ساعد
على ذلك ، ولكن يبدو أن الهجرة كانت تنجه بدرجة أكبر ، عند نهاية القرن
الرابع عشر ، صوب فلورنسا .

ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الضربة القاضية لم تصب صناعة النسيج عامة
عند مطلع القرن الخامس عشر ، بل أصابت صناعة النسيج فى المدن وحدها ، أى
صناعة النسيج صاحبة الامتيازات ، إن جاز هذا التعبير . واضطرت فى المدن الكبرى
فى أول الأمر ، ثم فى المدن الثانوية بعد ذلك ، وتحت ضغط تنظيمها النقابى ،
إلى أن تترك مكانها لمنافس تماماً منذ البداية فى توافق مع التطور الإقتصادى ،

وهو صناعة النسيج في الريف . وكانت المدن الكبرى قد عملت ، أثناء القرن الرابع عشر ، على استخدام القوة ، لمنع الفلاحين في المنطقة المحيطة بها ، من أن يعملوا في صناعة غزل ونسج الصوف ؛ وتمكنوا من أن يحصلوا من الكونت على إمتيازات تثبت حق إحتكارهم الصناعي إلى مسافة محددة حول أسوار مدينتهم . ولكنهم إضطروا ، منذ الربع الأول من القرن الخامس عشر ، إلى أن يتحملوا وجود منافس في وضع متفوق ، لأنه كان يستجيب في كل شيء للظروف الجديدة للحركة الإقتصادية . ولم يكن لدى هذا القادم الجديد أي شيء يشبه التنظيمات التي كانت موجودة بالنسبة لصناعة النسيج في المدن . ونما منذ البداية في مناخ من الحرية ؛ ولم ينتظم الفلاحون المشتركين في هذه الصناعة في نقابات ؛ وكانوا يتفاوضون مباشرة مع المتعهدين الرأسماليين ، الذين كانوا يزودونهم بالصوف ، ويصدرون مصنوعاتهم . وبعد أن تخلوا عن الصوف الإنجليزى الذى أصبح أكثر ندرة وأكثر ارتفاعاً فى سعره ، عملوا فى الصوف الذى أنتجت إسبانيا فى تصديره إلى بروج ، وصنعوا منه أفسجة رقيقة ، وبسعر منخفض ، الأمر الذى أدى بها سريعاً إلى إحتلال السوق بدلاً من الأفسجة التى فقدت رونقها ، مما كانت تشتجىه المدن الكبرى . وتحت تأثير الحرية ، والنظام الرأسمالى ، هاجرت إذن الصناعة ، التى كانت مركزة منذ ثلاثة قرون فى المدن ، صوب الريف . وتكون طبقة من الصناع ، مختلفة عن مجموعة الصناع أصحاب الامتيازات فى العصور الوسطى . ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على صناعة المنسوجات وحدها ، بل نلاحظها كذلك ، فى الصناعات الاستخراجية ، التى كانت بطبيعتها لا تخضع لإشراف المدن عليها ، وهى التى إزدهرت بدرجة أكبر ، مثل مناجم فحم ليبيج ، ومناجم المعادن فى ألمانيا الجنوبية .

٣ - المراكز التجارية الجديدة :

ومن الطبيعى أن يخضع التنظيم التجارى كذلك ، لنتائج النمو الرأسمالى .

وإذا كانت البندقية وجنوا ، في إيطاليا ، قد تمكنت ، نتيجة لإحتكاكها بجماعة الشرق ، من أن تستمر في تنظيم حركة الأجانب داخل أسوارها كما ترغب ، فإن الوضع في بروج كان مختلفاً عن ذلك ، خاصة وأن إزدهارها كان ناتجاً في المقام الأول من صفتها كمكان للقاء دولي للتجار ؛ ونلاحظ منذ أواسط القرن الخامس عشر أن هناك تطوراً واضحاً فيها ، ويتم بسرعة . ولا شك في أن الردم المتزايد للميناء قد أسهم في حرمانها من زبائنها الأجانب . ولكن السبب الرئيسي لتدهور أحوالها يتمثل في عدم قدرة المدينة على أن تتلام مع الطبيعة الجديدة للأشياء . ومثل مدن صناعة الألبسة لم ترغب في التنازل عن إمتيازاتها في الوقت المناسب ، وإستمرت في إختناج حركة الأعمال الموجودة فيها لحقوقها وضرائبها ورسومها القديمة ، والتي كانت في مصلحة الطبقة البورجوازية فيها . ولم تقدر على أن تفهم أن هذه الإمتيازات قد عفى عليها الزمن ، وأنها أصبحت تمثل معوقات أمام ممارسة التجارة ، وأصرت على ضرورة الإستمرار في تطبيقها . ولكن ، هل كانت هناك وسيلة لإرغام الأجانب على الحجى إليها ؟ وكانت قد أخذت أهميتها ، وجذبت إليها التجار ، نتيجة لأن المواصلات كانت محدودة في أوروبا ، وكانت القارة فقيرة في الموانئ الصالحة ؛ ووجد التجار فيها ظروفاً أكثر صلاحية منها في أى موقع آخر قريب . أما الآن فلم يعد هناك ما يمنعه من الهجرة إلى أماكن أكثر ملاءمة ، مع الحرية الطبيعية ، للتجار . ففتحوا عنها مع السنوات الأخيرة من القرن ، وأفاموا « مراكز حرة » لهم في ميدلبرج ، وفير ، وأوترخت ، وأمستردام ؛ وأخذوا يترددون أكثر وأكثر على معرض أنفرس .

وكانت أنفرس هي التي تجذبهم بضرع خاص ، وليس من أجل أمن مينائها ، بل وأكثر من ذلك بسبب الحرية التي توفرها لهم . ذلك أنها تميزت بالتفكير الجديد ، والضروري للتقدم التجاري . فلم تكن هناك موانع ، وكان في وسع

الأجانب أن يتاجروا كما يرغبون . وكان في وسع أى شخص أن يعمل في السمسة وإستبدال العملة ؛ ولم يكن هناك ما يمنع تنمية الأعمال . وظهر بين بروج وأنفرس نفس التناقض الموجود بين صناعة الأنسجة في المدن ، وصناعة الأنسجة في الريف ؛ وبين الإمتيازات ، والحرية . وأخذ كل من الإيطاليين ، وأبناء الجامعة الهنسية ، والإنجليز والبرتغاليون والأسبان يتركون منازلهم في المدينة الأولى ، وينتقلون إلى المدينة الثانية ؛ التي كان ذلك بالنسبة إليها فاتحة للإزدهار الذى سيصيبها وبخاصة بعد إكتشاف العالم الجديد .

وكما حدث بالفعل من أن إستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية لم يقض مباشرة على إزدهار كل من البندقية وجنوا ، فإن كشف البرتغاليين والإسبانيين لم يتسببوا فى إثراء أنفرس . ذلك أن إثراء هذه المدينة كان سابقاً للكشوف الجغرافية ، وكان نتيجة للتنمية الإقتصادية لأوربا . ونتيجة لوجوده ، أصبح ميناء أنفرس ، فى القرن السادس عشر ، أكبر سوق للتوابل ، وهلمتنى الطرق التجارية ، التى كانت تصل من الهند ومن أمريكا .

وفى نفس الوقت ، بدأت عوامل جديدة فى الظهور ، وأخذت تؤثر على المراكز التجارية الموجودة فى بحر البلطيق وبحر الشمال ، مع الجامعة الهنسية من ناحية ، وتؤثر فى المراكز التجارية الموجودة فى البحر المتوسط ، فى البندقية وجنوا ، من ناحية أخرى . وأثر ذلك بالتالى على طرق التجارة الدولية ، وتوزيعها فى القارة الأوربية ، قبل أن تتم الكشوف الجغرافية ، وتؤثر بطريق فعال فى الشرايين الرئيسية للتجارة العالمية ، بين القارات المختلفة .

ولقد جاءت عوامل كثيرة لئى تساعد على ضعف الجامعة الهنسية ، وكان من أهمها لإزدياد قوة بولندا ، وإستيلائها على دانترينج ، وعملها على الحصول على مركز متفوق فى البحر البلطى ، كما أن الإنجليز إدعوا أنهم يفضلون « حرية التجارة » ، وإستندوا إلى ذلك لقطع علاقاتهم مع الجامعة الهنسية ، ولإستيلاء

على تجارتها وسفنها الموجودة في الموانئ البريطانية . وبعد حرب دامت أربعين
سنوات ، عادت إمتيازات الجامعة الهنسية إليها ، للإتجار مع لندن وبعض الموانئ
البريطانية . ولكن بريطانيا حصلت ، في نفس الوقت ، على حق الإتجار مع موانئ
البحر البلطى ، وكانت هذه أول ثغرة في نظام الإحتكار الذى أقامته الجامعة
الهنسية حول هذا البحر . وتمكنت بريطانيا من التحرر ، وجمعت رسوم الجمارك
على البضائع الواردة إليها ، ثم ألغت إمتيازات الجامعة الهنسية فيها ، وأردفت
ذلك بالاستيلاء على سفنها ، وإقفال موانئها في وجه تجارتها . ثم تحولت
الأراضى المنخفضة إلى دولة بحرية ، وأخذت سفنها المحملة بالأنسجة والملح تدخل
إلى البحر البلطى ، دون أن تتمكن الجامعة الهنسية من التعرض لها . وقلت الرنيحة
من البحر البلطى ، وإضطرت الصيادون الألمان إلى متابعتها أمام سواحل الأراضى
المنخفضة ، في أوائل القرن السادس عشر ، حيث إصطدموا هناك بالهولنديين
والإنجليز والاسكتلنديين . وجاء إنتشار المذهب البروتستانتي ضربة إقتصادية
قاسية لأهم موارد الجامعة الهنسية ، وهو الأسماك ، خاصة وأن مذاهب الإصلاح
كانت لا تصر على ضرورة أكلها في أيام الجمعة ، وفترات الصيام . وساعد عصر
النهضة وزيادة تربية البهائم ، مع إنتشار المراعى ، على زيادة إستهلاك اللحوم بدلا
من الأسماك : وأخذت بريطانيا في منع تصدير الصوف إلى الجامعة الهنسية ،
وأخذت في غزل ونسيج الصوف في بلادها . وأخذت المدن المتحدة في الجامعة
الهنسية في التفكك والانفصال ، كما حصلت ، مما أكرها على حريتها ، وإلتخفص عدد
المدين الأعضاء من ٩٢ إلى ٦٣ ، ثم أربعة عشر ، فثلاثة : هى لوبيك ، وبريمن ،
وهامبورج . وأخيراً . إجتمع مجلس الجامعة الهنسية ، أو برلمانها ، ولأخر مرة
في سنة ١٦٦٩ . وكان قراره الوحيد في هذه الجلسة هو حل الجامعة .
وأما بالنسبة للموانئ المطلة على البحر المتوسط ، فلقد جاءت عوامل أخرى
أثرت في مركزها ، وأثرت في معاملاتها ، وفي أهميتها الاقتصادية .

فقد زاد ظهور ضعف جنوا نتيجة للصراعات الداخلية الموجودة فيها ،
وصراعاتها مع البندقية . وإنتهزت أراجونة هذه الفرصة ، وقامت بإنتزاع
جزيرة سردينيا من حاكم جنوا ، كما قام العثمانيون بطرد أبناء جنوا من المشرق .
ولم يبق لجنوا في نهاية الأمر من إمبراطوريتها سوى جزيرة كورسيكا ، التي
استمرت فيها الثورات حتى اضطرت جنوا ، في آخر الأمر ، إلى بيعها لفرنسا ،
بعد أن تقلص نفوذها فيها ؛ وباعتها في نفس السنة التي ولد فيها نابليون على هذه
الجزيرة ، وكانت جنوا قد أصابها سوء الحظ قبل ذلك ودون أن تدري ؛ وكان
أحد أبنائها قد إقترح عليها إعداد حملة للبحث عن طريق جديد للهند ، بالإتجاه
صوب الغرب . ولكن جنوا ترددت ، خاصة وأنها كانت مشغولة بمراكزها
الجديدة التي احتلتها في القرم . فسرفت في تنفيذ هذا المشروع ، وقلت رغبتها
وإمكاناتها في العمل ، بعد أن تخلت عن كرستوف كولومب ، وفقدت أكبر
إمبراطورية كان في وسعها أن تتصورها .

أما البندقية ، فإن مسؤولياتها كانت قد إتسعت ، وخاصة بعد أن إستولى
العثمانيون على القسطنطينية ، وبعد أن إستولى الغزاة الجدد على طرق الشرق ، وبعد
أن أخذ كل من الفرنسيين والاسبانيين في التنازع على السيطرة على إيطاليا نفسها .
وتمكنت البندقية من الإحتفاظ بقبرص لمدة قرن بعد سقوط بيزنطة ، والإحتفاظ
بكريت لمدة قرنين ، وبكورفو حتى آخر وقت الإمبراطورية . وضعفت البندقية
كدولة ، ولكنها إحتفظت بعظمتها وبرفاهيتها وثروتها ؛ وظلت مركز سياحة
لاوربا ، وموطن لهُو وبحرن . وظل نظام الدوقية فيها ، حتى دخل بونابرت إلى
إيطاليا ، في نهاية القرن الثامن عشر .

وأخيراً ، فلا يمكننا أن ننسى أن العثمانيين قد أثروا ، بطريق غير مباشر ،
في التجارة الدولية في هذا العصر . ذلك إنهم قد إستولوا على المراكز التجارية
لجنوا والبندقية في البحرين الأسود والمتوسط ، مما صعب تجارة التوابل ، ورفع

من أثمانها . وكان العثمانيون يسمعون لتجار إيطاليا بشراء التوابل والحسري من موافقهم ، ولكنهم أخضعوا هذه السلع لضرائب مرتفعة . وظهرت حركة اللوضو إلى الشرق الأقصى بالسفن ، من المحيط الأطلسي ، إما بالإلتفاف حول إفريقيا ، أو بمواصلة السفر صوب الغرب ، حتى يصلوا إلى الصين واليابان وجزر التوابل وما دام الإسلام قد زحف على أوروبا من الشرق ، وإستولى على بنزلة ، لتعمل الدول الأوروبية على تطويقه ، والحصول على المنتجات الإستوائية والشرقية دون وساطته ، وتتنزع هذه الثورات من بين أيديه . إنها روح الكشوف الجغرافية .

٤ - أولى مراكز الأطلسي والتطالع إلى طرق بحرية جديدة :

لقد إستمر عصر المراكز البحرية ، وساهم فيه أبناء أقاليم غرب أوروبا المطلة على المحيط الأطلسي ، وخاصة بعد أن فلت أهمية البحر المتوسط بما فيه من جنوا والهندية ، وتمكنت دول غرب أوروبا من الوصول إلى البحر الباطلي ، دون أن تتمكن مدن الشمال من وقفها .

ويمكننا إعتبار الإسكندنافيين الموجودين في جرينلاند طليعة هذه الحركة ، التي عملت في المحيط الأطلسي . وكانوا قد أقاموا في هذه الجزيرة منذ قرون ، وإستعمروا سواحلها ، وآتوا بالبهايم والأغنام من إيسلاند إليها . وقد إزدهر هذا الاستعمار وإمتد حتى نخط 73° شمالا ، إلى أن تغير المناخ في أواسط القرن الرابع عشر ، وإشتدت درجة البرودة بشكل يؤثر على الفلاحة والمحاصيل ، وبشكل تسببت في هجرة كثير من عناصر الاسكيمو من الشمال صوب الاسكندنافيين في الجنوب . وبدأ الصراع بين أعداد الاسكيمو المتزايدة ، وأعداد الاسكندنافيين المتناقصة . ولم يكن هناك شك في حتمية سيطرة الاسكيمو على الجزيرة ، وإنتزاعها من أيدي العناصر الاسكندنافية . ولقد حاول سكولب الدانيمركي إستخدام جرينلاند قاعدة لحلة تتجه إلى الصين عن طريق الغرب ، وقام مع أحد البرتغاليين

بالملاحة بجذاه سواحل نيوزوندا لاند ، ولكنه اضطرت إلى الرجوع ؛ ومع سيطرة
الاسكيمو على جرينلاند ، إنتهى الاستعمار الاسكندنافى فى هذه المنطقة .

أما الإنجليز فكالموا بعيدين عن التفوق فى البحار رغم أن بلادهم جزيرة تحيط
بها المياه من كل جانب . وكان الإنجليز يربون الأعنام ويحصون على الصوف ،
وتعدوا من الفلنك عمليات غزله ونسجه . وعمل إدوارد الثالث على حماية هذه
الصناعة الناشئة فى بلاده ، وفرض الضرائب العالية على تصدير الصوف حتى
يحتفظ بالمراد الأولية لإنجلترا . وكانت الصناعة أساساً للتجارة ، واضطر التجار
إلى ركوب البحر حتى يصفوا سلمهم ، وأدى ذلك إلى منافستهم للفليمنك ،
وكفاحهم ضد الجامعة الهنسية . وأخذت بريطانيا تصدر منسوجاتها الصوفية إلى
أكريتا ، وكانت سفنها تعود من بوردو ، عبر المحيط الأطلسى ، بحملة بالأنبذة .
وقرر هنرى السابع عدم السماح لآى سفينة أجنبية بنقل أنبذة بوردو إلى إنجلترا ،
كما قرر ضرورة سفر البضائع الإنجليزية على سفن تحمل العلم الإنجليزي .
فساعد ذلك على نمو البحرية فى إنجلترا وعلى ظهور هذه الدولة كقوة بحرية لها
أهميتها .

وأما الفرنسيون فكانوا يخاطرون بالسفر فى ذلك الوقت أكثر من الإنجليز .
وتمكن جان دى بيتنكور Jean de Béthencourt من السفر على سفينة مع ثمانين
رجل صوب الجنوب ، بعد أن خرب الإنجليز أراضيه ، ووصل إلى جزر كناريا
وإستولى على دتين الريف ، التى كانت تسكنها عناصر من بربر شمال إفريقيا ،
وإتحد معهم ضد القراصنة الأسبان . وأعلن نفسه ملكاً على الجزيرة ، ثم ترك
إدارتها لأحد أقربائه . ولكن القراصنة الإنجليز هاجموا أسطولهم ، فاضطر إلى
التنازل عن جزر كناريا إلى قشتالة ، التى طردت الأهالى من أراضيه ، وقضت
عليهم تماماً .

وأما البرتغاليون فإن بلادهم كانت ذات موقع ممتاز ، تطل على المحيط

الأطلسي، وبشكل يوجه أنظارهم إلى السواحل الإفريقية؛ ويشعرهم بضرورة
إستكشاف ما وراء هذا البحر.

ولم تجلب الكشوف الجغرافية البرتغالية، حذاء سواحل إفريقية، وحتى
منتصف القرن الخامس عشر، إلا الجغرافيين. ونعرف أن هذه الكشوف كانت
في مبدأ الأمر غريبة تماماً عن كل فكرة للتوسيع الإقتصادي. فلم تكن للبرتغال أية
حاجة للبحث عن أسواق خارجية، كما أن تجارتها كانت بسيطة، وكانت بحريتها
لا تسمح لها بأن تقوم بدور في المستقبل يشبه ذلك الذي وصلت إليه. وكانت
الدوافع الأولى لهذه العملية، دوافعاً عسكرية وإستراتيجية؛ ذلك أن البرتغاليين
كانوا قد خضعوا لفترة طويلة لحكم المسلمين، ورضعوا في القضاء على هذا الخطر
قضاء تاماً، فخلصوا هذه الدوافع، العسكرية والإستراتيجية، بغلاف الدين
المسيحي والتبشير. ويمكننا أن نعتبر حملة البرتغاليين ضد سبتة سنة ١٤١٥
كحرب صليبية وطنية ضد المسلمين، وكفاتحة معنوية لذلك الجهد الذي سينتهي
بعملية تجارية. كما أن دوح النهضول هي التي دفعت هنري الملاح (١٣٩٤ -
١٤٦٠) إلى أن يوجه الحملات صوب إفريقيا، تلك الحملات التي نستصل في النهاية
إلى ساحل ملابار، ونأسس تجارة التوابل من البحر المتوسط وتوجهها، عن طريق
رأس الرجاء الصالح، صوب سواحل المحيط الأطلسي.

ويبدو أن بحلدة موانئ الغرب، في البرتغال، كانوا يفكرون أثناء إبحارهم
في حذاء الساحل الأفريقي، في النصف الأول من القرن الخامس عشر، في
إكتشاف ذلك الذراع من البحر، أو ذلك الخليج، الذي سيسمح لهم بمهاجمة
مسلى شمال إفريقية من الجنوب، وربما يتمكنون كذلك من الوصول إلى المناطق
الشرقية الغامضة، التي كانوا يعتقدون أن الملك «يوجنا الراعي» قد أنشأ فيها
مملكة مسيحية. وكانت هناك قصة منتشرة في أوروبا تتحدث عن وجود مملكة
مسيحية في قلب إفريقية، أو قلب آسيا، وعن رؤية الرحالة للملكها من يوجنا

الراعى ، الذى تدعى القصة أنه كتب إلى البابا ، وأنه ملك قوى وغنى . وخطط البرتغاليون بين هذا الملك وبين نجاشى الحبشة ، واعتقدوا فى إمكانية الوصول إليه بالملاحة حول السواحل الأفريقية .

وظهر فى نفس الوقت ميل «الدون هنرى» ابن ملك البرتغال ، للبحر وللملاحة . بعد أن نصبه والده حاكماً على إحدى مقاطعات البرتغال الجنوبية : فأشأ مرصداً ومدرسة بحرية ، وأخذ فى بناء السفن وإرسال الملاحين لاستكشاف المناطق الجنوبية جنوب الجنوب ، علمهم يصبون إلى طريق التوابل ، أو بلاد يوحنا الراعى ، وينتقمون من الإسلام . وكان التقدم بطيئاً فى أون الأمر ، وكان يعترضه الخوف من ذلك البحر المجهول ، ومن المناخ الذى توقعوا صعوبته وقسوته عليهم . وكان إكتشاف جزر ماديرا ، أو الخالدات ، فى سنة ١٤١٨ — ١٤٢٠ ، أمراً عارضاً ، وبدون أية علاقة بالملاحة حول إفريقيا ؛ وقام البرتغاليون بإحتلال هذه الجزر ، وأدخلوا زراعة الكروم وقصب السكر فيها . وبدأت هذه الملاحة فى سنة ١٤٣٤ ، وهى السنة التى جاوز فيها الملاحون البرتغاليون لأول مرة رأس بوجادور ؛ ووصلوا فى سنة ١٤٣٧ إلى جزر آزور ، التى أنشئوا فيها ، بعد إحدى عشر عاماً ، مركزاً دائماً فى حماية إحدى القلاع . ولقد استمرت سفنهم فى السير بحذاء الساحل الإفريقى حتى وصلت إلى أسواق النهر الآتى من إفريقيا السوداء ؛ إنه نهر الذهب ، أو وادى الذهب Rio de Oro . وعند موت هنرى الملاح سنة ١٤٦٠ كان البرتغاليون قد وصلوا إلى سيراليون ، وإلى جزر الرأس الأخضر ؛ وإنشئوا القلاع على نقاط مختلفة من الساحل ، واستخدموها مراكزاً تجارية وحريرية لهم . وإذا كانت سواحل « وادى الذهب » والسبخال قد استكشفت ، وإذا كان بعض المسافرين قد دخلوا إلى داخل الأرض ، فإن إستكشاف خليج غينيا كان لا يزال فى أوله ، وكان البرتغاليون يعملون هناك بكل حذر .

ولكن عوامل إقتصادية بدأت في دفعهم للعمل بنشاط أكثر صوب الجنوب، فكانوا قد تعرفوا على بعض البلاد التي إستكشفوا سواحلها ، وعرفوا أن فيها سكاناً . وكانوا قد عادوا منها ، ومعهم بعض العبيد ، والتمر ، والمنتجات ذات القيمة . وكان أهالي بروج قد أظهروا دهشتهم ، منذ سنة ١٤٤١ لرؤيتهم بين حمولة السفن القادمة من لشبونة ، بعض القرده ، والأسود ، والبيغاوات ؛ ورؤا بعد بضع سنوات ، أن هذه السفن كانت تحمل ، من مينائهم، سلعاً مرسلة إلى خليج غينيا . ومنذ سنة ١٤٥٤ حرم البابا الملاحة حول سواحل إفريقيا منذ رأس بون إلى نهاية ساحل غينيا ، دون الحصول على تصريح بذلك من ملك البرتغال ، وحمى بذلك التوسع البرتغالي من أى منافس له . وفي سنة ١٤٦٩ منح الملك الفونس الخامس تجارة السواحل الغربية لإفريقية ، ولمدة ست سنوات ، إلى فرناندو جوميز ، نظير تهنئه بأن يستكشف في كل عام ثلاثمائة فرسخ من الساحل ، إبتداء من سيراليون . ووافق الكورتيز ، في سنة ١٤٧٣ على إعتبار أن هذه المناطق كانت تعطى أرباحاً طائلة للتجار .

ولم يعد هناك شك في أنه كان يكتفى بالإلتفاف حول القارة الإفريقية ، للوصول إلى هذه البلاد الساحرة ، التي كان البنادقة يحصلون منها على التوابل ، بواسطة مصر . وأكدت أبحاث مارتين بيهام ، عالم الجغرافيا الذي نشأ في نورنبرج ، والذي جاء وأقام في لشبونة ، هذا الأمل ، الذي دعمته روايات الرهبان الأحباش والمعلومات التي ذكرها بعض الأهالي . وكانت محاولة ديجو كام ، الذي كلف في سنة ١٤٨٢ بالأبحار إلى أبعد نقطة ممكنة في الجنوب ، قد إنتهت بإكتشاف مصب نهر الكونغو . ولكن بارثلميو دياز تمكن ، سنة ١٤٨٥ ، وعن طريق إستمرار الملاحة جنوباً ، من الإلتفاف حول أقصى رأس في جنوبي القارة ؛ ورأى إختفاء الساحل عن أعينه في أثناء إحدى العواصف ، ولم يتمكن من رؤية الساحل الإفريقي إلا بالعودة صوب الشمال . ولم يسكن

هناك من شك في أن دياز قد إلتفت حول أقصى جنوب إفريقية ، ومر من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى . حول النقطة التى أسماها رأس العواصف ، واتى سماها ملك البرتغال برأس الرجاء الصالح . وعرفوا في نفس الوقت ، وعن طريق فير دى كوفيلام والفونس دى بايقا ، المرسلان إلى القاهرة ، لتعرف على طريق الهند ، وجود ساحل ملابار ، وموقعه الفعلى تجاه شرق إفريقية . وأصبح من المؤكد بعد ذلك أن النجاح لا يتطلب سوى الإستمرار فى الملاححة إلى أبعد من ذلك . وفى هذا الإتجاه الذى لمح دياز . وكلف الملك إيماويل ، أحد ضباط البحرية من ياورانه ، وهو فاسكو داباما ، بالقيام بهذه المهمة العليا . ونشرت سفينة الأربيع قلاعها يوم ٨ يوليو سنة ١٤٩٧ ؛ ومر عامان وأكثر قبل أن تعود سفينة من جديد إلى مصب نهر التاج ؛ بعد أن كانت قد وصلت إلى قاليقوط وكان الاسبانيون ، ومعهم كريستوف كولومب ، الذين كانوا يأملون فى الوصول إلى الهند عن طريق الملاححة صوب الغرب ، قد وصلوا منذ ست سنين ، أى فى سنة ١٤٩٢ ، إلى كوبا ، وهم يبحثون عن الهند ؛ ووجدوا أمريكا . وإنفتح عالم جديد أمام أوروبا .

وكان من حق البرتغاليون أن يستبشروا بالمستقبل ، خاصة وأن البابا قد منحهم السيادة على كل الأراضى التى يستكشفونها ، مع غفران ذنوب كل من يموت فى حملاتها . وكسب البرتغاليون الكثير من تجارة السواحل الافريقية ، وإنفتح الطريق أمامهم ، وحتى الهند .



وهكذا نجد أن أوروبا كانت بدأت فى تغيير وجه تاريخ العالم . وذلك نتيجة للتخيرات العميقة ، الاقتصادية والمالية والاجتماعية ، التى وقعت فيها . فظهرت الضرائب الثابتة ؛ وكان إستخدام الاسلحة النارية والمدفعية يزيد من المصروفات العامة ، وبشكل سريع . وأخذت الفنون الحربية الحديثة فى إتمام القضاء على من

بقى على أرض المعركة من الإقطاعيين ، أو في أثناء عملية تفهقرهم ، وذلك في صالح السلطة المركزية ؛ كما أنها أعطت الأوربيين تفوقاً واضحاً في التسليح ، على بنية العالم . وعمل الأوربيون على إستخدام هذه الأسلحة وبسرعة . ولكن على أساس تمكنهم من إيجاد الموارد اللازمة للإنفاق على المدفعية . وإذا كانت الضرائب الثابتة ، حتى إذا كانوا قد عهدوا بها إلى عدد من الرأسماليين الذين أثروا من ورائها ، قد أصبحت غير كافية ، فإن ذلك قد استدعى الإلتجاء إلى الفروض ، وهكذا انتصر النظام المالى الذى ساد فى جنوا والبندقية وفلورنسا ، رغم ضعف إيطاليا نفسها فى ذلك الوقت ، وظهور مدن أخرى نافستها فى الميدان المالى ، مثل ليون ونورنبرج وفرانكفورت وأنفوس . وإزدادت أهمية الأسواق ، المالية فى هذه المدن ، فى التمويل والإقتراض أو التسليف ، وفى بيوت أصحاب البنوك ، مثل بيت فان دير بورص ، الذى أعطى اسمه لأول سوق مالى فى العالم . وأصبحت العمليات تتم على أساس نقدى أو مالى ، أكثر مما تتم على أساس سلع من الصوف والنيذ والمصنوعات .

وقلت أهمية الملوك انفسهم ، وبصفتهم مهيمنين على السياسة الدولية ، ماداموا فى حاجة إلى الفروض . فأصبح الرأسماليون يسيطرون على وزارة المالية فى لندن ، كما أصبح كثير يسيطر على مالية فرنسا . ويستغل المناجم ويدير المئات من المصانع فيها ، وفى بلجيكا الحالية ، وحتى فى قبرص . وأصبح هؤلاء الرأسماليون يقرضون الملوك والأباطرة والبابا . وكان هذا تطوراً طبيعياً للمراكز التجارية والبحرية ؛ والذى استمر ، بعد جنوا والبندقية والجامعة الهندسية ، مع هذه البيوتات المالية ، والمصارف ، والبورصات . أنها الرأسمالية ، وقد نمت وأخذت فى العمل .

وكثيراً ما كانت وسائل الدفع تتهجر عن أتمام مهمتها فى هذا الجهاز الكبير للأعمال . كما أن الغرب كان قد مضم ما استولى عليه من أسلاب شرقية أثناء

الحروب الصليبية ، وأتى فائض الميزان المالى مع شرق البحر المتوسط ، وأخذ يقاسى من نقص المعادن النفيسة ، وأعوزته المادة التى يمكنه بها رفع قيمة عملياته التى نشأت مع الوسائل الجديدة ، من ورق ومطابع وكتب ، ومدافع وسفن ، ولوحات فنية وقصور . فأخذت أوروبا تبحث عن كنوز تنهبها ، ومناجم ذهب تستغلها . ولم يكن فى وسعها أن تجدها إلا فيما وراء البحار .

الباب الثالث

زحف العثمانيين وانتصارهم

الفصل السابع

امبراطورية المغول

كان الشرق في ذلك الوقت مسرحاً لتغيرات عميقة، وكانت القارة الآسيوية الضخمة، وراء عالم البحر المتوسط، تتغير بسرعة. وكان المغول يحكمون هناك منذ أواسط القرن الثالث عشر. وكانوا قد أنشؤوا لأنفسهم إمبراطورية تمتد من سهول روسيا إلى بحر الصين. وكانت هذه الامبراطورية قد أخذت، بعد ذلك، في التفتك. ولم يعد في وسع الخان الأعظم، وهو في آخر الصين، أن يمارس إلا سلطة إسمية على إمارات المغول في فارس، وعلى خانات التركستان وروسيا الجنوبية. وكان المغول قد إنتشروا في أقاليم كبيرة الإتساع، فتركوا بذلك أنفسهم لسكى تقوم الشعوب التي غزوها بهضمهم. ولقد قامت هذه الشعوب، قرب سنة 1350، برفع رؤوسها في كل مكان؛ وبذلك مجهودات أدت إلى انهيار امبراطورية جنكيز خان، وذلك في الوقت الذي نهض فيه الاسلام، بعد فترة ضعف، والذي بدأ فيه العثمانيون، في آسيا الصغرى، وبعدهم بقليل تركمان تيمور، عملية غزو العالم المسيحي.

١ - الامبراطورية :

كان الشرق الأقصى قد بدأ في الحركة في نفس الوقت الذي بدأ فيه الغرب في الاستيقاظ؛ وظهرت الحروب الصليبية ومشروعات المراكز البحرية التجارية وكأنها لعب صغيرة إلى جانب هذه الهجرات البشرية التي بدأت من الإستبس. وكان المسيحيون والايطاليون يعملون حول حوض البحر المتوسط، كما كانت الجماعة الهندسية تعمل في بحر الشمال والبحر البلطي. ولكن جموع المغول عملت

على الانتشار في كل المناطق الأخرى ، ولم تجدد نضاق عملياتها ، وتمكنت من تكوين إمبراطوريات كبيرة .

وكان المغول يتمقلون في المنطقة الواقعة بين غابات سيبيريا في الشمال ، وصحراء جوبى في الجنوب ؛ وكانوا يعيشون في الشمال على الصيد ، وفي الجنوب على الرعى أى أنهم لم يكونوا قد وصوا بعد ، في السلم الحضارى ، إلى مرحلة الزراعة والتوطن .

وتمكن رئيسهم تيموجين ، أى الحداد ، من تنظيم جيش كبير وقوى ، ممتلئاً في ذلك على النظام العشرى ، الذى يسهل التعبئة والعمليات : جماعات من عشرة رجال ، وسرايا من مائة ، وكتائب من ألف ، وأليات أو لواءات من عشرة آلاف ، وفيالق من مائة ألف . وكان شديداً وصارماً ، فمقاب السرقه بالقتل ؛ ونظم الأسلاب التى كانت لا تبدأ إلا بأمر ، وكان يستولى على عشر هذه الأسلاب لخزائنه الخاصة . وتمكن هذا الرئيس من إخضاع القبائل الأخرى ، ثم هزم التتار المجاورين للمغول ، وقتل منهم الكثير ، وأدخل الباقين تحت سيطرته ، وأصبح الخان الأكبر ، جنجيز خان .

وبدأ بالصين ، وأمر بإحراق بكين ، ثم هجم على التركستان وإيران وروسيا ، وإكتسح كل ما إعترض طريقه . ثم عاد إلى الصين حيث توفى ، بعد أن أفتشاً إمبراطورية ، تمتد على طول ثمانية آلاف كيلو متراً . وقام إبنة بمواصله غزواته . فآتم تطهير شمال الصين ، وإستولى على كوريا ، ثم عاد صوب روسيا ، وعبر بولندا والمجر ووصل إلى بحر الادرياتيک . وقام قوبلاى ، حفيد جنكينز خان ، بالهجوم على آسيا الصغرى وسوريا ، وإحتل جنوب الصين ، ونشر سيادة المغول على أنام وكمبوديا . فأصبح فرسان الإستبس يسيطرون على موسكو وبغداد وكانتون ، ويحكمون أكبر جزء من العالم المعروف في ذلك الوقت . وكان المغول ، بعد تخريب وتدمير المناطق التى يحتلوها ، يفتشون إدارة

خاصة فيها . وكانت لإمبراطوريتهم عاصمة ، إنتقلت من وادى النهر الأصفر إلى منغوليا ؛ وكانت مقراً للخان الأعظم ، أو الخاقان . وكانت الامبراطورية تنقسم إلى خانات ، إحداهما فى الصين ، والثانية فى منغوليا ، والثالثة تركستانية فى روسيا ، والرابعة فى فارس . وكانت هذه الادارة تعتمد على الموظفين المغول أو الصينيين أو الفرس ، وتضعهم على رأس حكومات الأقاليم بدلا من الأهالى . وكانوا يبدأون عملهم بالاستيلاء على الخيول ، وإحصاء الأهالى ، ثم يأخذون فى جمع الضرائب ، ويعاقبون من يمتنع عن دفعها ، ومن يتلاعب فيها . وكانت دولة المغول تتم بالأمن ، وتشرف على القوافل ، وتدير البريد ، وتحافظ على النظام فى أنحائها . وكان للمغول قانوناً مديناً وجنائماً فى نفس الوقت . ولقد ساعدت عملية توحيد جنكيز خان لآسيا على تسهيل التوغل الاقتصادى الغربى فى كل المنطقة ، وأصبحت طرق الشرق الأقصى مفتوحة للتجارة والمبشرين . وإذا كان الرهبان الفرنسيسكان قد حملوا رسائل البابا ولوى التاسع إلى خاقان المغول ، وحاولوا كسبه إلى المسيحية ، فإن بعض تجار البندقية قد ساروا على نفس الطريق ، وزاروا خانات جنوب روسيا والتركستان والصين . وإشتهر منهم ماركو بولو ، الذى كتب مذكرات رحلته فى هذه المناطق ، بعد غيبة إستمرت أربعة وعشرين سنة . ويذكر لنا كتاب « العجائب » الكثير عن ثروة الصين وتجارها وسفنها ، وعن التوابل والأرز والسكر والحريير والنشاط التجارى والأوراق النقدية ، مما يدل على دقة ملاحظة كاتبه ، وبما عمل على إثارة خيال تجارب الغرب .

ثم بدأت إمبراطورية المغول فى الانقسام بين أحفاد جنكيز خان ، كما إنقسمت إمبراطورية الاسكندر بعد موته بين كبار قواده .

٢ - التفكك :

ولقد إنقسمت امبراطورية المغول إلى أربع خانات ، أو دول ، إحداهما فى الصين ، والثانية فى منغوليا ، والثالثة فى تركستان الروسية ،

والرابعة في فارس ، كما ذكرنا .

وعند نهاية القرن الثالث عشر ، كان هذا الانقسام قد تم بالفعل . وكانت الصين هي أهم قسم من أقسام الامبراطورية . وكان فوبلاى خان الكبير قد إستقر فيها ، وقضى على آخر حركات المقاومة منذ سنة ١٢٨٠ . وظهر بمظهر الامير الصيغى ، وأصبح بالنسبة لرعاياه الجدد ، ابن السماء ؛ وأعطى نفسه إسم تشى تسو ، وأخذ بكين عاصمة له ، وأنهى بذلك حياة التنقل ، وبدأ حياة الاستقرار . وكان قصره محاطاً بأسوار لها ما لا يقل عن أربعة آلاف برج ، ويضم في داخله عدداً كبيراً من القصور . وأراد أن يخلف أسرة سونج ، دون أن ينسى أصله المغولى . وستكون أسرته هو ، هي أسرة يوان ، وأراد أن يزيد إلى رصيده هذه الأسرة الملكية الجديدة ، قائمة بأعمال مجيدة ، ترقى إلى مستوى تلك الدولة العظمى التي يسيطر عليها .

ولكن مشروعاته الاستعمارية لم تكن موفقة . وبعد أن فشل ، في سنة ١٢٨١ في غزو اليابان ، ركز بمجوده على غزو الهند الصينية . وأرسل حملتين عسكريتين ضد مملكة تشامبا ، وحملات أخرى ضد آنام ، وضد بورما ، تمكنت من تخريب البلاد ، ونهب الحواضر ؛ ولكن الجيوش المغولية اضطرت فى كل مرة إلى الانسحاب أمام مجهود مضاد من قوات الأمالى . وإذا كان قد نتج عن إستخدام القوة بهذا الشكل ، أن وافق سادة آنام وتشامبا وبورما وكبوديا على الخضوع إسمياً لقبولاي خان ، فإن ذلك كان مجرد إرضاء لغرور إمبراطور الصين . وأخيراً فإن المغول أصابتهم صدمة خطيرة فى جزر الهند الشرقية ، حيث قضى تماماً ، فى سنة ١٢٩٧ ، على جيشهم الذى كان قد ذهب لغزو جاوا . وهكذا إنتهت ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، عملية توسع المغول صوب الشرق .

وإذا كان فوبلاى قد فشل فى مشروعاته ضد اليابان وجاوا ، إلا أنه سيطر على كل أراضى وبلاد الصين نفسها . وكان المغول عدداً بسيطاً بالنسبة لمجموع أهالى الصين ، ولماكنهم سيطروا على المراكز ، وكونوا طبقة عليا حاكمة ،

وحرروا على الصينيين حمل الاسلحة ، وحتى تعلم اللغة المغولية ، حتى يجعلوهم عن وظائف الدولة .

وإضطر قوبلاى وخلفاؤه أن يقللوا من نشاطهم ويحصروه داخل نطاق الامبراطورية الصينية . وكان خائفاء قوبلاى أقل بأساً منه وقوة ، وأكثر ضعفاً ، فنشأت الفوضى . هذا علاوة على أنهم قد إضطروا كذلك إلى الدفاع عن أنفسهم ضد تدخلات القبائل المغولية ، التي كانت تقيم في سهول الاستبس إلى الغرب ، وكانت تنظر بحقد إلى أخوانهم الأكثر سعادة ، والذين يسيطرون على أقاليم غنية . وبهذه الطريقة قام الخان قايدوا ، أمير إيلى ، والذي أصبح سيد تركستان الشرقية ، بإقلاق قوبلاى منذ سنة ١٢٧٥ . ولقد عاود الهجوم في سنة ١٢٨٧ . وتسبب في نشوب الثورة في منشوريا . وإضطر الامبراطور ، وخليفته تيمور (١٢٩٥ - ١٣٠٧) إلى قيادة حملات عديدة للقضاء على هذا الغازى ، الذى هزم وقتل في قراقورم سنة ١٣٠١ .

ولقد تمكن أفراد أسرة يوان بسرعة من هضم الحضارة الصينية القديمة ، واستندوا إلى نشاط المغول ، وأعطوا امبراطوريتهم قرناً بأكمله من الازدهار . ولقد أعادوا للصين وحدتها السياسية ، بانهاء الانقسام بين مقاطعات الشمال ومقاطعات الجنوب ، وقاموا بمشروعات عامة نافعة ، مثل إكمال حفر التربة التي تزود بكين بالماء ، ووضعوا نظاما للبريد ، وراقبوا المحاصيل ، وأنشأوا بعض المشروعات الخيرية . وكانت عودة هذا الازدهار المادى تسمح بازدهار كبير فى كثير من الميادين الفنية والأدبية . ونشأت مدرسة من الرسامين تستند إلى الواقعية ، وتستخدم الألوان ، وتصور مناظر الطبيعة ، والصيد ، والحرب . ونتيجة للتكامل بين إمارات المغول ، ظهرت تأثيرات مختلفة ، وأصبحوا يشكرون البرونز والفخار حسب طرق الفن الفارسية ، وكان الفرس كذلك هم الذين أدخلوا إلا الصين الفن البيزنطى الخاص بالميناء المحددة . وظهر التداخل الكبير بين العناصر

الصينية والمغولية في كل الميادين الفنية ، وبشكل دل على أن اليوان قد هضموا حضارة أقدم منهم .

وكانت روسيا ، في الجانب الآخر من الامبراطورية المغولية ، شبه مستقلة تحت سيطرة الغزاة من الجنس الأصفر . وكان أحد أحفاد جنكينز خان قد حكمه على معظم روسيا ، وأخذ عاصمة لها على نهر الفولجا ، ورفض الاشتراك في انتخاب الخاقان ، واحتفظ لنفسه بالمناطق الروسية التي أصبحت مغولية ، دون أن تخضع لمغوليا . وكانت طرق حكمه تشبه حكم المناطق التتارية الأخرى ، إذ كان يستولى على أكبر كمية من الضرائب ، ولكن موظفيه كانوا يحترمون العادات والتقاليد والديانات المحلية ، وتركوا الأمراء السابقين لهم يحكمون مناطقهم تحت سيطرتهم . وقاموا ببناء مخازن الحبوب ، وشق الطرق ، وتنظيم البريد . وكان المغول يوجهون كل شيء في روسيا ، وطم نظام بوليسى أعطى للروس روحاً سلبية متواكلة أمام وحشية الدولة وربها لها . وكان أكبر أخطائهم هو إبعاد روسيا عن التيارات التي سادت في الغرب ، وفي الوقت الذي بدأت فيه أوروبا في اليقظة . وكانت صلات جنوا والبندقية من الجنوب مع روسيا ، وصلات الجامعة الهنسية معها من الشمال ، اقتصادية قبل أي شيء آخر . فنزل ستار حديدى بين العالم الأبيض والعالم الأصفر . وأخذت روسيا في التقهقر في الوقت الذي استمرت فيه بقية أوروبا في التقدم . وتكونت موسكو ونمت ، كما يقول ماركس ، في ظل مدرسة التواكل والعبودية المغولية ، ولم تشخذ هممتها وتجمع قواها ، إلا لتكرسها للتفنن في الخضوع للاستعباد .

أما بقية الممالك المغولية فقد ظهرت شخصياتها المتميزة بسرعة أكثر مما حدث في الصين وكانت المتركستان ، المحصورة بين المغولية وخانات إيران وروميا ، غير قادرة على التوسع وكانت الأسرة الحاكمة فيها من سلالة جاكتاي ، الابن الثاني لجنكينزخان ، وحاولت أن تتوغل في الهند ، وأرسلت ثلاث حملات

إلى البنجاب ، ووصلت حتى أبواب دهلي ؛ ولكن السلاطين المسلمين قاموا بصد هجمات المغول في كل مرة . هذا علاوة على أنه في أراضي جاكتاي نفسها ، لم يتمكن النظام المغولي القائم على أساس المركزية من أن يتغلب على تحركات الشعوب التركمانية التي تسكن البلاد ؛ وسرعان ما جاءت الصراعات الداخلية ، لكي تضعف من سلطة الخانات . ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، انفصلت كل من بلاد ماوراء النهر . والتركستان الشرقية ، تحت حكم فرعين متنافسين من فروع هذه الأسرة الحاكمة ؛ كما أن اتصال المحاربين المغول بالقبائل الخاضعة لهم ساعد على سرعة تحولهم إلى الإسلام . وكان الخانات الأول يميزون بالسماحة الدينية ، ولكن سرعان ما خلفهم أمراء وقعوا تحت سيطرة التركمان أكثر فأكثر . ونجد أن قوة الحماس الديني الإسلامي كانت واضحة بنوع خاص في بلاد ماوراء النهر ؛ وهي المنطقة التي ستخرج منها عصابت تيمور ، قرب أواسط هذا القرن .

ويتميز تاريخ خانات المغول في فارس وفي روسيا بتاريخ مشابه من حيث التحول إلى الإسلام ، وكذلك الصراعات الداخلية . فلقد تكونت إمارات متنافسة في كبتشاق (روسيا المغولية) . وكانوا أقل ثروة وأقل قوة من مغول التركستان ، وتحولوا نهائياً مثلهم ، ومنذ نهاية القرن الثالث عشر ، إلى الدين الإسلامي ، الذي أصبح دين كل المغول الغربيين . وفي فارس ، واصل ذلك الفرع من أسرة جنكيز خان ، والذي أسسه هولانكو منذ سنة ١٢٥٦ ؛ توسعه بصبر صوب الغرب . ووصلوا إلى بغداد منذ سنة ١٢٥٨ ولتصرفوا على السلاجوقيين في آسيا الصغرى ، وأخضعوهم لهم ، وسيطروا على أرمينيا الصغرى ، وعلى شعوب ما وراء جبال القوقاز ؛ وأصبحت دولتهم جارة خطيرة لسلطة المماليك في مصر . وفي سنة ١٢٨١ قام أباجا خان بغزو سوريا بدعوى الدفاع عن إمارات أرمينيا الصغرى .

وواقع أن مغول فارس ، مثلهم في ذلك مثل إخوانهم في الصين وفي

التركستان ، لم يتأخروا كثيراً عن أن يتأثروا بالشعوب التي كانوا قد غزوها . وتحولت خانات فارس ، شيئاً فشيئاً ، أثناء النصف الأول من القرن الرابع عشر ، إلى الاسلام ، وأخذت أنظار أمراءهم تتجه صوب مكة ؛ وزادت سرعة هذا التطور مع نهاية أسرة جنكيز خان ، والذي كان آخر خاناتها ، هو أبو سعيد ، الذي حكم من سنة ١٣١٦ إلى سنة ١٣٣٤ ، وذلك بتقسيم إيران إلى أربع إمارات : هي آذربيجان ، والعراق ، وخراسان ، وفارس . وكانت بعض هذه الأسر المحلية التي حكمت هذه الإمارات من أصل غير مغولي ؛ فكانت من الأفغان ، أو الإيرانيين ؛ وكانوا مسلمين ، سواء من السنة أو الشيعة ؛ وكانوا قد هضموا غزاتهم . ومع ذلك ، فرغم قصر فترة الحكم المغولي ، والانتقسام السياسي الذي نتج عنه ، فإنه ترك آثاره على الحضارة الإيرانية القديمة . وإذا كانت فنون الفرس قد أثرت حتى في الصين ، فإن فنون الشرق الأقصى ، قد تركت أثرها كذلك في إيران . وقام خانات المغول في فارس بإستدعاء عدد من صنّاع الفنّان الصينيين إلى منطقة حكمهم . وفي فترة حكم المغول في فارس ظهرت مدرسة الفنّان الدقيقة الفارسية ، التي جمعت بين التقاليد المحلية ، وبين حب الصينيين للطبيعة ، والتي ستكون الأساس لهذه المجموعة من الرسامين ، الذين سيمهملون على تنمية فنهم في عهد التيموريين وحتى أثناء القرن السادس عشر .

٣ - آسيا المغولية :

وإذا كانت امبراطورية المغول قد انقسمت بسرعة ، إلا أن آسيا قد عرفت في ظلها أكثر من نصف قرن من الإزدهار . ولقد احتفظت هذه الإمبراطورية ، حتى حوالي سنة ١٣٥٠ ، بوحدة نظرية ، كانت تترجم في ميدان الواقع . وكان الخانات الغرييون قد استمروا في النظر إلى امبراطور بكين على أنه سيدهم واحتفظوا معه بعلاقات احترام وسلام . وكانت الحدود ، المفتوحة إلى مدى بعيد . لا تعرقل التبادل ؛ وكانت لا توقف التجار ، ولا المبشرين الغريين . أما

أوروبا ، التي كانت بحيرة فيها مضى على المرور عبر سلطنة ممالك مصر لكي تحصل على سلع آسيا بأعلى الأثمان ، فإنها أصبحت تجد أمامها طرقاً تجارية سريعة وسهلة العبور ، عبر القارة الآسيوية . وفي بعض الإمارات ، والسلطنات أو الخانات الخاصة بهم ، قام المغول بحماية القوافل ، وأنشئوا الطرق ومراكز الحراسة ، وبعض الأسواق الكبرى الدولية . وأصبحت فارس ، من جديد ، هي ثغر آسيا . ولعبت مدينة تبريز ذلك الدور الذي لعبته بغداد في عهد العباسيين . وكان يصل إليها طريقان من الشرق ، الأول هو طريق الحرير القديم الذي كان يمر عبر التركستان ، والثاني هو الطريق البحري ، أو طريق التوابل ، الذي يوصل إلى المحيط الهندي ، والخليج الفارسي ، وحتى ميناء هرمز ، الذي انتهى في سنة ١٣٣٠ . أما في الغرب ، فقد كان يخرج من تبريز طريقان آخران ؛ الأول ينتهي عند طوابزون على البحر الأسود ، والآخر يمر بإمارة أرمينيا الصغرى لكي ينتهي عند خليج الإسكندرونة ، هذا علاوة على وجود طريق آخر كبير ، ويمر إلى الشمال أكثر من ذلك ، ويصل الصين بالقرم ، ماراً عبر التركستان وبحر قزوين ، وجنوب الفولجا ، والسكيتشاق .

ولقد أفادت التجارة الأوربية من هذا التغيير الكبير . وبسبب هذه الطرق الجديدة وول السلع والمنتجات الآسيوية من كل نوع ، وبسبب أقل إلى الغرب ، وسمحت بالإتصال بين فنون المناطق المختلفة ، وقربوا فيما بين الحضارات المتباعدة عن بعضها . وأفاد الكثيرون من تلك التسهيلات الجديدة ، التي كانت تتمثل فيما نتج عن توحيد المغول لهذه المناطق المختلفة . وأعطى هذا الوضع الجديد آمالاً عريضة أمام جماعات التبشير ، للقيام بمجهود وللوصول إلى الصين ، وإلى الهند . وقاموا ببذل مجهود في هذا السبيل ، أثبت نجاحاً لبعض الوقت ، خاصة وأن سخانات المغول كانوا متسامحين ومن فارس ، وتركستان ، وحتى الصين ، ببلدات آسيا ، في أواسط القرن الرابع عشر ، على أنها تفتتح أمام المؤثرات الخارجية

القمالة . ولكن سرعان ما تغير كل شيء ، وظهرت اتجاهات محلية قوية ، في الصين ، وتركستان ، وفي فارس ، وإنتهى بها الأمر إلى تحطيم ذلك الصرح الذي كان جنكينز خان قد أقامه ، وأكمله فيما بعد خلفاؤه ؛ وإنتهى الأمر بهذه الحركات إلى إعادة إغراق القارة القديمة في فوضى ، يفيد منها المنتصرون الجدد ، وهم من المنطقة .

ومع ذلك فعلىنا ألا ننسى أن هناك ثلاث مناطق كبيرة في آسيا لم تصل إليها جيوش المغول ، أو وصلتوا وصدت عنها ، وهذه المناطق هي اليابان ، والهند الصينية ، وشبه القارة الهندية .

أما اليابان ، فإنها ، بعد صدها لمحاولة المغول احتلالها سنة ١٢٨١ ، لم يقلقها الغزاة من القارة ، وإنغلقت على نفسها ، داخل جزرها ، وعاشت أزماتها الداخلية . وتولى الحكم فيها في أول الأمر مجموعة من الدكتاتوريين الذين كانوا قد تميزوا أثناء الحرب ضد المغول ؛ ثم ضعفت السلطة ، وزاد ظهور أهمية رئيس القصر ، أو الوصي ، الأمر الذي أدى إلى ظهور الامبراطورية في سنة ١٣١٩ ، مستندة إلى رجال الدين البوذيين ؛ وإلى ولاء العديد من السادة الاقطاعيين . وفي نفس الوقت ظلت اليابان خارج تلك التيارات الخاصة بالتبادل ، والتي رأينا نشأتها داخل إمبراطورية المغول .

وكان هذا كذلك هو حال الهند الصينية تقريبا ؛ تلك المنطقة التي ضعفت فيها إمبراطورية الخمير في أثناء القرن الرابع عشر ، وظهرت على حسابها مملكة قوية في سيام . وإلى الشرق من ذلك وفي نفس شبه الجزيرة ، وظهرت مملكة آنام ، حول تونكين الحالية ، وأخذت في مد سلطتها صوب الجنوب ، في السنوات الأولى من القرن الرابع . ولكن الضعف والفوضى والحروب الداخلية ، سادت المنطقة بعد ذلك .

وأما الهند ، فهي المنطقة الثالثة التي مستها عملية الغزو المغولي . بالكاد . ورغم

خضوع المناطق المحيطة بها لغزوات المغول فإنها ظلت، أثناء القرن الرابع عشر، خاضعة لغزواتها الأتراك الأفغان، الذين عملوا على توسيع ملكهم فيها. وكانت كل سهول السند والجانج، مع دلهي كعاصمة لها، تكون لإمبراطورية عسكرية، تخضع لحكم جيش من المماليك. ورأى هؤلاء الغزاة أن المغول قد استولوا على بلادهم الأصلية، وعلى جبال الأفغان، ولكنهم تمكنوا أنفسهم من الاحتفاظ بالأراضي التي كانوا قد فقدوها. وتعاقب على العرش أسر عسكرية، تقوم الواحدة منها بانتزاع السلطة من السابقة لها. وبعد عدد من السلاطين الأتراك، تولى عدد من السلاطين الأفغان السلطة، ابتداء من سنة ١٢٩٠. وقام السلطان علاء الدين (١٢٩٦ - ١٣١٦) بالعودة إلى محاولة غزو شبه القارة من جديد، بعد أن كانت قد توقفت منذ نصف قرن، فاستولى على الهند الوسطى، وأخضع ماوه، وضم جزء من مملكة المهراتا. وظهرت قواته وسط هضبة الدكن، ثم وصلت إلى أقصى الجنوب. ثم جاءت أسرة تركية جديدة إلى الحكم، واشتتت بنشر الإسلام بالقوة في البلاد التي خضعت لها. وسرعان ما ظهرت الثورات داخل السطنة التركية الأفغانية، التي أخذت في الإنقسام إلى دويلات إسلامية عديدة. وكان هذا الضعف، في السنوات الأخيرة من القرن، في صالح السياسة التي كان يتبعها تيمور.

٤ - بداية حكم تيمور :

شعر المغول عند، أواسط القرن الرابع عشر، وبعد أن عجزوا عن السيطرة على كل آسيا، بأن سيظرتهم قد أصبحت مزعزعة في البلاد التي لم يتمكنوا من أن يدعوا حكمهم فيها، وكانت الصين من بينها. وكان الأباطرة من أسرة جنكيزخان قد فقدوا شيئاً فشيئاً، ومنذ بدء حكمهم في بكين، الصلة مع بقية الأسر المغولية وانتهوا، نتيجة لهضمهم الحضارة الصينية، بأن أصبحوا غرباء عن إخوانهم في الجنس، وبأن يشيروا، بدورهم، غيرة وطمع أولئك الذين ظلوا من بينهم يواصلون حياة التمثل في إستانس مغوليا. وكان هؤلاء الأخيرين قد عادوا إلى

ممارسة - ولاتهم التخريبية في أراضي الصين ، مجبرين بذلك أسرة يوان ، ورغم أعمالها المغول ، على أن تسلك معهم نفس السلوك الذي كان يسلكه الأباطرة الصينيون من قبلها ؛ وأن تقوم باستخدام القوة ضدهم ؛ خاصة وأن جولات النهب والسلب في القرن الرابع عشر لم تكن أقل خطورة أو عنفاً من تلك التي كانت قد حدثت في القرن السابق : وكانوا قد وصلوا في سنة ١٣٦٠ إلى بيتشى لي ، قاتلين وناهبين كل ما يصادفونه في طريقهم ، كما فعل أجدادهم تماماً .

وفي أثناء ذلك الوقت ، رأى سادة بكين أن الصين الجنوبية تعلن الثورة ضدهم . وكان الجنوب قد ظل مخلصاً لمبادئ كنفشيوس ، وكانت ميوله ديمقراطية ، ونشاطاته تجارية ، وذوقه أكثر رقة ، الأمر الذي يتعارض مع ما ساد الصين الشمالية ، التي صبغت بالصبغة المغولية ، وسادها نظام اقطاعي ، عسكري ، وأنوقراطي . وأعلنت كل الصين الجنوبية الثورة في سنة ١٣٥٠ ، وتمكن قادتها المحليين ، رغم معاقباتهم ، من أن يهزموا الحكومة المغولية ؛ وضرب سنة ١٣٦٠ كانت كل المقاطعات الجنوبية ، الواقعة جنوب النهر الأزرق ، قد تمكنت من أن تتخلص من سيطرة حكام بكين . ولم يبق لهم إلا أن يلتفوا حول أحد قادتهم القادرين ، حتى يكللوا ما بدؤوه . وكان المغامر تشويوان تشانج ، المعروف باسم هونج وو ، قد أظهر مقدراته ونشاطه ، وأقام في نانكين التي انتزعها من المغول في سنة ١٣٥٦ ، وأخذ في القضاء على منافسيه ، وسيطر على الجنوب ، بما فيه كانتون ، ثم أخذ في سنة ١٣٦٨ في الزحف صوب الشمال . وعجز إمبراطور المغول الضعيف ، توغون تيمور ، عن أن يوقفه ، وكانت بضعة أشهر كافية لكي يصل تحت أسوار بكين ، ويستولي عليها . وكانت هزيمة المغول كاملة ، ولم يكتف هونج وو ، مؤسس أسرة مينج الصينية بانتصاراته الأولى ، وأردفها بالهجوم على أمراء أسرة جنكينخان ، حتى في بلادهم الأصلية ، وتمكن من أن يصل بانتصاراته حتى إلى قراقوروم ، التي احتلها لقرن سنة ١٣٧٣ .

وفي نفس الوقت ، كان هناك تغييراً أكثر خطورة يتم في التركستان . ولقد ذكرنا أن خانات المغول هناك كانت قد انقسمت في أوائل القرن الرابع عشر إلى قسمين : ما وراء النهر إلى الغرب ، وتركستان الشرقية إلى الشرق . ولكن سرعان ما سادت الفوضى بلاد ما وراء النهر ، وتمسك النبلاء الأتراك في سمرقند بسهولة . وهم من المسلمين المخلصين ، من القضاء على سلطة خان المغول ، الذي كان يحكمهم إسمياً . وأفاد توجلوك تيمور ، خان تركستان الشرقية ، من هذه الظروف ، وقام بغزو بلاد ما وراء النهر ، وأعاد الوحدة بين الأقليمين في سنة ١٣٦٠ . واضطرت الأسر التركية الرئيسية إلى الالتجاء إلى الواحات الجنوبية المجاورة لإيران ، حيث إنتظروا عودة الغزاة ، لكي يعلنوا الثورة وسيظهر تيمور الكبير من بين أولئك اللاجئين .

وكان هذا الرئيس من سلالة أسرة من نبلاء أتراك ما وراء النهر ، وكان الجرح الذي أصابه في إحدى المعارك هو سبب وصفه بالأعرج « لك » ؛ وكانت حركته تمثل ثورة التركستان على المغول . ولا شك في أنه قد أخذ لنفسه أحلام جنكينخان من أجل السيطرة على العالم ؛ وحاول بعد نجاحه في حروبه أن يعلن أنه من سلالة هذا الغازي الشهير ، ويدعى أنه من أسرته ؛ ولكنه سيكون من الخطأ أن ننظر إليه على أنه استمرار للمغول . فلقد كان يمثل رد الفعل الوطني والديني للنبلاء الأتراك ضد الخانات الذين لم تكن لهم ديانة ، أو كانوا متسامحين تجاه كل الديانات . ذلك أنه قد حارب من أجل الإسلام ، وسيطر على نصف القارة الآسيوية باسم الجهاد ؛ وكان هذا العامل هو الذي سيزيد من خطورته ، وخطورة حركته ، في نظر أوروبا ، وهي مسيحية ، خاصة وأنه سيصل إلى تخومها .

وكانت السنوات الأولى من حياة تيمور صعبة ، وقليلة النجاح . واضطر ، في مواجهة توغلوك . إلى أن يتحالف مع الرؤساء المحليين ، وبخاصة مع الأمير

حسين ، الذي تزوج أخته . . وتمكن في سنة ١٣٦٢ من أن يضع أقدامه في بلاد ما وراء النهر ، ويطرد المغول إلى بلاد القشغر . ثم قتل الأمير حسين ، فأصبح تيمور هو الرئيس دون شريك ، وأفاد من موت توغلوك ، في سنة ١٣٦٤ ، لكي يعاود الهجوم ، وإن كانت غزواته لم تبدأ حوالى سنة ١٣٧٠ . ولقد إحتاج إلى عشر سنوات أخرى لكي يقضى على الخان السابق ، وإلى خمس حملات لكي يحطم قوة أمراء أسرة جنكيز خان في بلاد القشغر . ثم قام بضم خرمز ومنطقة خيوة في سنة ١٣٧٨ .

وبعد أن ثبت دعائم حكمه في منطقة التركستان ، بدأ في تحويل أنظاره صوب الغرب . فاستعدت قرب سنة ١٣٨٠ لغزو فارس ، حيث يمكن التنبؤ بأنه سوف يتجنب بسهولة صوب سوريا ، وصوب بلاد الأناضول .

٥ - الفوضى عند المسيحيين في الشرق :

ولم يعد للمسيحيين ، في الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، تلك القوة التي تمكنهم من مواجهة العدو الجديد ، وكانوا يفقدون نقط إرتكازهم ، الواحدة بعد الأخرى . وكان ما بقي من الأراضى المقدسة في أيدي الفرنجة ، عند سنة ١٢٨٠ يتمثل في شريط ساحلى ضيق من الأرض ، يشتمل على حيفا ، وعكا ، وصيدا ، وبيروت ، وطرابلس ؛ ورأى الفرنجة أن سلطان المماليك في مصر ، قلاوون ، قد تمكن من دفع غارة المغول بقيادة مانجو تيمور في حصص سنة ١٢٨١ . فإضطر الفرنجة إلى متح تاج بيت المقدس لهنرى لوسينيان الثانى ، ملك قبرص في سنة ١٢٨٦ . ولكن السلطان قلاوون تمكن من إعادة بناء قواته المسلحة ، وإستولى على اللاذقية سنة ١٢٨٧ ، ثم على طرابلس سنة ١٢٨٩ . ووصل في إبريل سنة ١٢٩١ أمام عكا ، وحاصرها ، وإستولى عليها في مايو ، وقضى على آخر معاقل الفرنجة في الشام .

توجد الفرنجة ، أمام خطر المماليك ، وعدم إستجابة ملك وأمراء الغرب

لنجدتهم ، أن المخرج الوحيد أمامهم يتمثل في التحالف مع خان الفرس الغزنوي ؛ ولذلك فإنهم وعدوه بالتأييد المطلق ، في سنة ١٢٩٩ ، حين علموا بأنه يستعد لغزو الشام ؛ ولقد ساعده بقوة في أن يحصل يوم ٢٣ ديسمبر على انتصار على القوات المملوكية في حمص ، وفي نفس المكان الذي كانت قوات المغول قد ذاقت فيه مرارة الهزيمة على أيدي المماليك منذ ثمانية عشر عاما ؛ كما ساعده بحرباً وبرياً ، وذلك حين استعد للاستيلاء على دمشق ، في يناير سنة ١٣٠٠ ، وكذلك حين استمر بعد ذلك في حصاره لحلب . ولكن الوقت كان قد تبدل ، وكان النتيجة قد لعبوا على الفرس الحاسرة ، بتحالفهم مع المغول ضد المماليك . ذلك أن ثورة نشبت في فارس ؛ واضطر السلطان الغزنوي إلى العودة إلى بلاده ، تاركا سوريا لقوات السلطان المملوكي ، الملك الناصر ، وانتهى سلم المسيحيين في الشرق بإعادة غزو سوريا ، بمساعدة الغزاة الأجانب .

وبقي للمسيحيين خط تراجعوا إليه ، في مواجهة الإسلام ، وهو يتمثل في مملكة أرمينيا الصغرى ؛ والتي كانت تقع محصورة بين سوريا والامارات التركية في الأناضول ، وكانت قد عاشت لفترة من اوقت نتيجة لتحالفها مع المغول ، وتمكنها من فتح طريق تجاري بين عاصمتها ، وبين إحدى الواوي الصغيرة المتصلة على خليج الاسكندرونة ، الأمر الذي ساعد على ازدهارها . وكان وجود هذه المملكة يعطل ضد مصلحة سلطنة المماليك ، فهاجمت القوات المملوكية وميناءها الصغير مرتين ، في سنة ١٣٢٢ وفي سنة ١٣٣٧ ، وخربته . وفي سنة ١٣٧٥ سقط آخر ملوك هذه الدولة في أيدي قوات المماليك ، وقضى حياته في أوروبا . لاجئاً ، بعد أن أطلق سلطان مصر المملوكي سراحه .

ولاحظ الالاتين كذلك بمملكة قبرص ، التي كانت تمثل مفتاح الخوض الشرق للبحر المتوسط ؛ وكانت من أكثر دول أوروبا بارستاء . وكانت ميناء فما جوستاتضم الكثير من التجار ، من كل أنحاء أوروبا وعاشت فيها . تحت حكم لومينيان ،

أرستقراطية تشربت بالروح الشرقية ، وجنباً إلى جنب مع الجماعات الدينيّة القوية ؛ وإن تشرت الكاندرائيات والحصون في كل مكان . وكانت جماعة فرسان المستبالية هي الجماعة المخاربه الوحيدة الموجودة في الشرق ، بعد سفر الفرسان التيوتون إلى منطقة بحر البلطيق ، و صدور الحكم على جماعة فرسان المعبد . وكانت جماعة فرسان المستبالية قد حضرت في أول الأمر كجماعة لاجئة إلى ليماسول ، في جنوب قبرص ، بعد سقوط عكا في أيدي المماليك ؛ ثم استعمانت بأهالي قبرص وهاجمت جزيرة رودس في سنة ١٣١٠ ، وأقامت فيها ، وسيطرت على البحار المحيطة بها ، بمساعدة القبارصة .

وكانت الملاحة مهددة في بحر إيجه . ذلك أن الأتراك في آسيا الصغرى كانوا قد أفادوا من تفتت الدول المسيحية في الأرخبيل وفي شبه جزيرة البلقان ، وقاموا بعمليات قرصنة موجهة ضد سفن الغربيين ، تشرت الرعب ، وعرقلت تجارة الإيطاليين ، وبخاصة تجارة البنادقة . وقامت أساطيل لوسينيان مع جماعة الفرسان المستبالية ، وبعض سفن البندقية والبابوية ، في سنة ١٣٤٤ ، بحملة بحرية لتطهير بحر إيجه ، وتمكنت في ٢٨ أكتوبر من الاستيلاء على أزمير من عموروك . ولكن استمرار العمل في هذا القطاع كان صعباً دون الحصول على مشاكة أوروبية فعالة فيه .

وكانت بيزنطة ضعيفة ، ولم يعد لها سوى مساحة صغيرة من الأرض على الساحل الآسيوي لليوسفور ولبحر مرمره ، علاوة على تراقيا والقسطنطينية ، وجنوب مقدونيا مع سالونيك ، وعدد بسيط من الجزر في بحر إيجه . وأما البنادقة ، فإنهم كانوا ، علاوة على إستفناظهم بجزيرة كريت ، وبعض مدن المورة ، قد أقطعوا الجزء الأكبر من جزر الأرخبيل لعدد من أسرهم الأرستقراطية . أما هنانوسوم ، أبناء جنوا ، فإنهم كانوا يحاولون الإحتفاظ بإحتكار التجارى لمنطقة البحر الأسود ؛ وكانوا يهتفون في القسطنطينية ،

بكل من حتى بييرا وحى جالطة ، وكانا قضاةيين لها دخل الاراضى البيزنطية ، وقام بعض المغامرين من ابناء جنوا بالسيطرة على ليد جوس ونيوس . وكانت بعض بقايا لامبراطورية القسطنطينية اللاتينية موجودة في شبه الجزيرة اليونانية ، وبخاصة في إمارة المورة ، التي كانت موضوع نزاع بين كثير من الامراء الاوربيين ، من اسر نابولي ، وارجون وفالوا وآنجو .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية عاجزة عن الاستفادة من هذه الفوضى ، إذ أنها كانت غارقة في صراعات داخلية مستمرة . وكان الامراء الصغار في الأسرة الحاكمة يظالبون بقيادات كبيرة ، فتركوا لهم بعض المقاطعات الباقية ، واستندوا إلى صفتهم كحكام مطلقين ، وحاولوا الاستقلال بحكمها . وكانت الخزانة سخاوية ولم يعد من السهل تجنيد الرجال من الاقاليم ، التي قل عدد سكانها . فاضطروا إلى الالتجاء إلى المرتزقة ، ولكنهم عجزوا عن دفع رواتبهم ، فتحولت هذه العصابات من البلغار والكانالان أو الأتراك إلى العمل لحسابهم الشخصي ، ونهبوا البلاد التي كان من واجبهم الدفاع عنها . وأخيراً ، ولما استمر المزلّة ، تآكلت مزارع وثورات القصر ، حول عرش مقلقل مهتز . وساد الضعف أسرة باليولوج ، وبدون أمل في الشفاء . وكانوا يتعاونون على بعضهم ، في صراعاتهم المستمرة ، بالصر بوالأتراك العثمانيين وفي حالة ميؤس منها .

وأمام هذه الفوضى ، لم يكن من الواقعية التحدث عن حرب صليبية جديدة . وكان ملك قبرص ، بطرس لوسينيان الأول ، قد تمكن في سنة ١٣٦١ من الاستيلاء على ميناء أضايا ، ثم على ميرا ، ولسكيا ، وأعتقد أن الساعة قد حانت لترتيب هجوم شامل على المسلمين . وحاول أن يقنع الغرب بوجهة نظره ، فزار معظم ملوك وأمرام أوروبا ، ولكنه لم يرجع من جولته إلا بمجموعة من اوعود . ولقد تمكن مع العشرة آلاف رجل ، الذين جمعهم بكل صعوبة من أن يفاجئ الإسكندرية في شهر أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، وينهبها ؛ ثم يقوم بنفس العملية ضد

طرابلس الشام ، وطرطوس ، واللاذقية ويافا في سنة ١٣٦٧ ، ولكنه تمكن من الاضرار بالتجارة المصرية ، دون أن يتمكن من إحتلال أى موقع والتمركز فيه ، وفي حرب مجهدة ومكلفة ، ومدمرة .

هذا علاوة عن أن هذه الحملات كانت تتعارض مع مصالح كل من جنوا والبندقية ، وكانت تثير حنقها . ولقد عمل البابوات ، بلا جدوى ، على تجديد تحريم الاتجار مع المسلمين ، وبصفتهم أعداء الدين المسيحي ؛ ورغم ذلك ، فإن البندقية عقدت في سنة ١٣٠٢ معاهدة تجارة مع مصر ، وحصلت بها على شروط مواتية في نظير إدخال السلع المنوعة من جانب الكنيسة ، والمواد الحربية ، إلى بلاد المماليك ، كما أن جنوا قامت في سنة ١٣١٠ بنهب رودس ، وباعوا أسلابهم للأتراك . ولم يعد حصار الإسلام ، كحل للبابوية بمجرد استحالة من حيث التحقيق ، بل نجد أن كل من أبناء البندقية وأبناء جنوا يهابون في صالح المسلمين . حقيقة أنهم قد تحالفوا ، في وقت معين ، من أجل تخليص بحر إيجه من القراصنة الأتراك ، الذين كانوا يهرقون نشاطهم ؛ ولسكنهم عادوا بعد ذلك إلى التناحر فيما بينهم . ونشبت الحرب بين الدولتين في سنة ١٣٥٠ ، وامتلا البحر الشرقي ، الذي كان قد شهد وجود بعض سفنهم التي عملت ضد الأتراك ، بأساطيلهم . ولذلك فإن كل حملة صليبية جديدة كانت تتعارض مع مخططاتهم . ولقد إحتفظت جنوا بالحياد ، وقت الهجوم على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ ، ورأت أن الصليبيين يهجون فنادقها وتخازن سلمها . وبعد فترة من الوقت ، اقترحت البندقية ، التي كانت تخشى على تجارتها الشرقية ، ومساقتها بين ملك قبرص ، وبين سلطان مصر . وأخيراً ، فإن أبناء جنوا أفادوا من مقتل بطرس الأول ملك قبرص سنة ١٣٦٩ ، فإدعوا حرصهم على إعادة النظام إلى مملكته ، وهاجموا الجزيرة ونهبوها ، وإحتفظوا لأنفسهم بميناء فاجوستا سنة ١٣٧٣ . ومع قبرص ، سعت آخر دولة كان في وسعها أن تقف في وجه الشرق الاسلامي .

الفصل الثامن

قيام الدولة العثمانية

لقد توالى تقدم الغزاة الآسيويين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ نهاية القرن الرابع عشر . وفي أوروبا كانت هزيمة الصرب في قوصوه قد سلت العثمانيين شبه جزيرة البلقان ؛ وفي آسيا كانت قوة بقية الإمارات الناجمة عن تقسيم الدولة السلجوقية متوترة ، وكان السؤال الوحيد الذى يطرح نفسه بالنسبة إليهم هو معرفة ما إذا كانت ستقع في أيدي العثمانيين ، أو في أيدي قوات تيمور ، واللذان كانت قوات كل منهما تواصل إنتصاراتها صوب الغرب .

١ - نشأة العثمانيين :

بدأ عند نهاية القرن الثالث عشر أن الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين ، اللتين كانتا قد أقلقت المسيحيين في الماضي ، قد ضمهتما . ففي القاهرة ، كانت الدولة المصرية السورية ، منذ أن خضعت لأرستقراطية المماليك العسكرية ، قد أخذت تصرف قواها في ثورات القصر ، كما أنها كانت تقاتل من ناحية أخرى ، ومن وقت لآخر ، نتيجة لعدم انضوع أمراء سوريا ، الذين أصبحوا مستقلين بالفعل . حقيقة أنها كانت لا تزال قادرة على دفع الغزاة ، في حالة حضورهم ، ولكنها كانت عاجزة عن القيام بغزوات . أما سلطنة السلاجقة في بلاد الروم ، أو في آسيا الصغرى ، فإنها لم تتمكن من النهوض من الضربات التي كان المخول قد وجهوها إليها . وتفككت عند نهاية القرن الثالث عشر ؛ ولم يعد حكام الأقاليم يطعمونها ، وكونوا مجموعة من الإمارات : ففي الداخل كانت هناك إمارة قرمان حول كوتاهية ، وإمارة قرمان حول قونية ، العاصمة السابقة لدولة

السلاجقة ؛ وكانت لكل منهما قوات مدربة على الحرب ؛ وعلى الساحل كانت هناك إمارة صاروخان في منطقة ليديا ، وإمارة آيدن التي تمكن أميرها في سنة ١٢٣٠ من إستعادة أزمير من أبناء جنوا ، وأصبح له نفوذ في بحر إيجه . وتاريخ هذه الإمارات شبه مجهول ، وكانت من التفتت بشكل يمنعها من القيام بعمل جاد . ولكن سرعان ما ظهرت قوة جديدة ، وهي قوة الأتراك العثمانيين ، التي سيصرف المسيحيون سخطها بعد قليل .

والروايات غير واضحة عن أصل العثمانيين ، خاصة وأن كل ما يروى عن هذا الأصل يرجع إلى ما بعد إستيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، مما يجعلنا لانستند إليه . فيعتقد أنهم جاءوا من قبيلة تركمانية صغيرة كانت تقيم عند بداية القرن الثالث عشر في خراسان ، وطردوا الغزاة المغول من هناك حول سنة ١٢٢٠ . فترك رئيسهم الأول سليمان خراسان ، وتاد قبيلته عبر بلاد آذربيجان وأرمينيا ، والغرات الأعلى ؛ وفي عهد أرطغرل دخلت القبيلة العثمانية في صلوات مع دولة السلاجقة ؛ وربما أدخلها سلطان السلاجقة في خدمته لمحاربة مغول فارس ، وأقطعها أرضاً في بلاده . والثابت في هذا الشأن هو أن هذه القبيلة المدربة على الحرب كانت تقيم ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، حول إسكي شهر ؛ وأصبحتوا في إقليمهم الصغير ، جيران للإمبراطورية البيزنطية ، وكانوا يخرجون كل ربيع للهجوم على القلاع اليونانية القريبة من حدود المسلمين . وبدأ ظهورهم مع عثمان ابن أرطغرل .

ومنذ بداية حكم عثمان ، سنة ١٢٩٩ ، تزايدت غزوات العثمانيين : فأقام في نفس السنة في بني شهر ؛ وتمكن في سنة ١٣٠١ من هزيمة القوات البيزنطية قرب نيقوميديا وخرب الإقليم المحيط بها ؛ ومنذ سنة ١٣٠٨ تمكن عثمان ، وبصبر ، من الإستيلاء على الحصون اليونانية ، الواحد بعد الآخر ، والتي كانت تدافع عن بروسة ونيقوميديا ونيقيا . ثم تمكن شيئاً فشيئاً من محاصرة هذه

المدن ، وهدد خطوط مواصلاتها . وكان جيوش العثمانيين من المسلمين الآخرين ، يهددون قوات العثمانيين البسيطة ، ولذلك فإنهم لم يتمكنوا من القيام بعمليات هجوم مباشرة ، ولسكنهم تمكنوا قرب نهاية حياة عثمان سنة ١٣٢٦ ، من الإستيلاء على بروسة ، بدون قتال ، واتخذوا هذه المدينة البيزنطية أول عاصمة لهم .

وكانت الدولة التي تركها عثمان لابنه أورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠) لا تزال في بدايتها : فكانت تتكون من قبائل من الغزاة غير منظمة ، وكانت حدودها غير محددة ، ولم يكن لها مخرج على البحر ، ولا قوات نظامية . وواصل أورخان ، سبلال النصف الأول من حكمه ، سياسة والده تجاه الممتلكات الآسيوية لبيزنطة . وتمسك في سنة ١٣٢٩ من أن يهزم أحد الجيوش البيزنطية على بعد إثني عشر كيلو متراً من القسطنطينية ، ومن أن يدخل نيقيا . واختطرت المدن البيزنطية الباقية في آسيا الصغرى ، إلى أن تسلم له الواحدة بعد الأخرى . وفي سنة ١٣٣٧ فتحت نيقوميديا أبوابها للغزاة الجدد ، ولم يبق لليونانيين حوالى سنة ١٣٤٠ جنوب البوسفور سوى إسكدار والمنطقة المحيطة بها .

ولم يقتصر نشاط أورخان على هذا الميدان ؛ فهاجم أمراء السلاجقة المجاورين له ، ووسع دولته على حسابهم ؛ كما أنه عمل على تعظيم دولته ، فأشأ جيشاً نظامياً من الفرسان والمشاة ، بدلا من ذلك الجيش الذي كان يتكون من الفرسان المتطوعين في عهد والده ؛ ثم ضم إليهم مجموعات المحاربين غير النظاميين ، من الفرسان والمشاة كذلك ، والذين كانوا ضليطاً من أبناء الشعوب المهزومة ، من يونانيين مسلمين ، وسلاف وأتراك . هذا علاوة على وجود سلاح المدفعية .

وحتى ذلك الوقت كان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى لا يخضع لحكم العثمانيين ، ولكن أورخان لم يصبر حتى يكمل فتح كل آسيا الصغرى قبل أن ينتقل إلى شبه جزيرة البلقان . وساعده الخلف الذي حدث بين كنتاكوزين

وباليولوج في بزنطة على ذلك فنذ سنة ١٣٤٥ طلب إليه كنتا كوزين المعونة ،
وفتح لقواته طريق تراقيا ؛ فقام في سنوات ١٣٤٧ و١٣٤٩ ثم ١٣٥٢ بوضع
قواته التركية في مواجهة القوات الصربية . ثم قامت القوات العثمانية بعد ذلك
بقليل بعبور الدردنيل . أقامت في شبه جزيرة غاليمولى ، وتقدمت باستمرار في
جنوب تراقيا .

وبمجرد وصول مراد (١٣٥٩ - ١٣٨٩) إلى الحكم قام بحملة سريعة
وخاطفة وسع بها غزوات العثمانيين في أوربا ، وتمكن في سنة ١٣٦٠ و١٣٦١ من
الإستيلاء على أدرنه وعلى فيليبوبولى ، والتي كانت عند سنة ١٣٤٤ في أيدي البلغار .
ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطنطينية محرومة من الإتصال بالسهول الغنية التي
كانت تضمن تموينها . وشعر مراد بالثقة في نفسه ، ونقل عاصمته من بروسة إلى
أدرنه سنة ١٣٦٦ .

وثار قلق الغرب ، وأرسل البابا أوربان الخامس في سنة ١٣٦٢ حملة صليبية
من المجر والبوشناق والصرب والأقلاق ضد الأتراك . ولكنها إنهمزت في ماريترنا
في العام التالى . وحاولت حملة أخرى في سنة ١٣٦٦ أن تنقذ بزنطة ، وإستولت
على غاليمولى ، ولكنها اضطرت إلى الجلاء عنها ، والإنسحاب . ولقد حاول
الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس ، أن يثير حماس أوربا ؛ وكرر وعوده بأنه
سيهتق المذهب الكاثوليكي ، ولكن بلا جدوى ، ولم يتمكن البابوات من إعداد
حملة جديدة . فإضطرت الإمبراطور البيزنطى ، بعد أن فقد الأمل ، إلى الإعتراف
بتبعيةه للسلطان مراد ، ووعده بمعونه عسكرياً ، وأن يترك أولاده رهينة عنده
سنة ١٣٧٤ .

ومع ذلك فإن غزو تراقيا جعل مراد على إتصال مباشر بالصرب والبلغار ،
وكان ضعف هاتين الدولتين قد سهل عملية إستيلائه عليهما . وكانت بلغاريا مقسمة
منذ سنة ١٣٦٥ إلى قسمين ، فتمكن مراد من الإستيلاء عليهما ، الواحد بعد

الآخر ، في عامي ١٣٧٠ و ١٣٧١ ؛ ثم دفع الصرب إلى مارييتزا في شهر سبتمبر سنة ١٣٧١ وإحتل قوله ودراما وسيريس ، لكي يصل بعد ذلك وادي فاردار الأدنى ، والذي كانت قواته تقوم بالعمليات منه حتى بحر الادرياتيك ، وذلك في الوقت الذي كانت مجموعات أخرى تعمل فيه في ابيروس وتساليا وأتيكا . وبعد بضع سنوات من توقف العمليات العسكرية ، من أجل تنظيم المناطق المفتوحة ، بدأ الهجوم من جديد . وساعد الاستيلاء على دوناستير سنة ١٣٨٠ على فتح الطرق إلى البانيا ؛ كما ساعد الاستيلاء على صوفيا سنة ١٣٨٥ على فتح منطقة الدانوب الأدنى ؛ والاستيلاء على نيش سنة ١٣٨٦ على فتح الصرب ؛ كما أن الاستيلاء على ساونيك سنة ١٣٨٧ ، بعد حصار دام أربع سنوات ضمن السيطرة من البحر حتى بداية وادي فاردار . وحاولت الشعوب البلقانية ، بشرة كبيرة ، أن تتخلص من هذا الغزو؛ وتم تكويرين حلف برئاسة الملك لازار ، ملك الصرب ، مشتغلا على أمراء البوسنة وألبانيا ؛ وأفادوا من وجود مراد في آسيا الصغرى ، ووجود معظم قاداته في بلاد المورة ، وقاموا بهجومهم على البوسنة سنة ١٣٨٧ . ولكن مراد أمرح بالعودة ، وهزم أمراء البلغار سنة ١٣٨٨ ، ثم إشتبك يوم ١٥ يونيو سنة ١٣٨٩ مع قوات الصرب في سهل قوصوه ، حيث دارت معركة حامية قتل فيها كل من لازار ملك العرب ، ومراد السلطان العثماني . ورغم شجاعة الصرب فإن هزيمتهم كانت كاملة ؛ وسيطر العثمانيون على بلاد البلقان .

٣ - توسع العثمانيين في عهد بايزيد (٣٨٩ - ٤٤٣) :-

كان من الصعب وقف توسع العثمانيين في البلقان . ولم يجد بايزيد ، ابن السلطان مراد ، الذي سقط على أرض معركة قوصوه ، أية صعوبة في الحصول على خضوع رؤساء الصرب ، سواء في شمال البلاد أو في جنوبها ؛ وإعترفوا بضرورة دفع جزية له ، وتقديم عدد من المحاربين يساعدون العثمانيين في

حروبهم . أما البوسنة فإنها كانت قد تحالفت مع دلماشيا وكرواتيا ، وإنكسر موت ملكها سنة ١٣٩١ ، وضعف خليفته لم تسمح للبوسنة بالوقوف أمام اطماع السلطان العثماني طويلا . وأما بلغاريا فإنها خضعت بسرعة ، وفي سنة ١٣٩٣ زحف جيش عثماني على بلغاريا لمعاقبها على مساعدة قوات المجر على التوغل في البلقان ، وطرد أمير بلغاريا ، والغى البطريركية البلغارية . ثم قام بايزيد في سنة ١٣٩٤ بغزو الأفلاق ، التي فر أميرها إلى المجر . وفي نفس الوقت ، استمر توغل العثمانيين في بلاد اليونان التي تم غزو إقليم تساليا فيها منذ سنة ١٣٩١ . بقي بعد ذلك القسطنطينية وضواحيها على ضفتي البوسفور ، والتي انحصر فيها ملك باليولوج الضعيف . وكان الامبراطور يوحنا الخامس قد قبل الخضوع والتبعية للعثمانيين ، وأعطى ابنه مانيويل الثاني رهينة ، وأرسل قوة عسكرية للعدل في الجيش العثماني . ولكنهم أخذوا في سنة ١٣٩٠ في ترميم أسوار العاصمة فهدد بايزيد وطالبهم بضرورة وقف الأعمال العسكرية . وبعد موت يوحنا سنة ١٣٩١ ، تولى مانيويل العرش ، وظل محاصرا في مدينته . وتنازل العثمانيين عن جزء من حى جلطة ، وزاد الجزية التي يدفعها لهم ، ووفق على وجود قاضي عثماني في القسطنطينية .

ولقد عمل بايزيد على توسيع ممتلكاته في آسيا وتدعيم حكمه وسيطرته على كل الأناضول . وبعد موقعة قوصوه مباشرة أجبره بايزيد أمير آيدن ، على أن يتنازل له عن ممتلكاته سنة ١٣٩٠ ، ثم غزا إمارة صاروخان ، فأصبح كل الساحل الشرقي لبحر إيجه بين يديه ، الأمر الذي سمح له بإنشاء أسطول قوى ، استخدمه في مهاجمة خيوس وعدد من الممتلكات المسيحية . واستولى بايزيد في سنة ١٣٩١ على أعضاليا ، وبدأ منها في تهديد قبرص . ولم يبق له سوى غزو شمال ووسط الأناضول حيث استلهم بأفوى أمراء السلاجقة ، وهو أمير قرمان وقام بايزيد في سنة ١٣٩١ بمحاولة أولى للاستيلاء على قونية ، ولكنها فشلت ، وإن كان قد

حصل بها على بعض المناطق في شمال غرب الإمارة . وفي العام التالي ، اعتقد علاء الدين ، أمير قرمان ، أن الفرصة قد حانت لبدء الهجوم ، خاصة وأن بايزيد كان قد انتقل إلى أوروبا ؛ ولكنه هزم منذ أول اصطدام بالجيش العثماني الذي أسرع بايزيد بإرساله ضده من أوروبا ، وشنق ، وضم العثمانيون أملاكه . ومع ذلك فإن بايزيد لم يرغب في الوصول إلى آخر مدى في منطقة الأناضول في ذلك الوقت ؛ فاحتل قونيه ، مع بعض المدن الرئيسية ، ثم تقدمت قواته سنة ١٣٩٣ إلى الشمال الشرقي واحتلت قسارية وسواس ، واحتلت كذلك مينائي سمسون وسينوب ، على البحر الأسود ، وأصبحت غالبية آسيا الصغرى خاضعة له . وأخذ في إعداد جيش آخر . بقيادة أحد أبنائه ، للزحف به على أرمينيا ، ومنطقة الفرات الأعلى ، وهو الجيش الذي سيصطدم بالمغول وفلول تيمور لنك في هجومهم صوب الغرب ، كما سنرى فيما بعد .

ولقد شعر بايزيد بأن الرياح والعواصف تتجمع من الغرب ، فأسرع بالعودة إلى البلقان . وكان الغرب قد أصم آذانه عن النداءات الخاصة بضرورة المصالحة بين كنيستي روما والقسطنطينية ، كخطوة أولى في سبيل الوصول إلى تكوين حملة صليبية لانتقاد القسطنطينية من خطر الغزو العثماني . وشعر سيجسموند ، ملك المجر ، بذلك الخطر الذي كان يهدد بلاده قبل غيرها . وكان قد حاول الهجوم في سنة ١٣٩٢ صوب نيكوبوليس ، ولكنه اضطر إلى التراجع حين رأى تقدم أحد الجيوش العثمانية . ونجح في سنة ١٣٩٦ ، ونتيجة لنداء وجهه للملوك وأمراء أوروبا ، في تجميع حملة صليبية غربية جماعت لنجدته ، وكانت الهدنة قد عقدت في ذلك الوقت بين فرنسا وإنجلترا ، وجاء كثير من فرسان هاتين الدولتين ، وبخاصة من فرنسا ، وكانوا من الشبان الأصحاء ، المدربين ، الباحثين عن المغامرة . ولكنهم كانوا غير منظمين ، ورغم نصائح المجرين ، فإنهم صمموا على الهجوم في التو ، فغزوا الصرب ونهبوها ، وجاؤا محاصرة نيكوبوليس ، فأسرع

بايزيد بالزحف لمقاولة قوات المسيحيين ، وواجههم وهزمهم وشرد قواتهم ، في ٢٥ سبتمبر سنة ١٢٩٦ . وتمكن سيجسموند من الفرار ، تاركاً وراءه أعداداً كبيرة من القتلى ، ومن الأسرى في أيدي العثمانيين . إنها موقعة نيكوبوليس الشهيرة ، وآخر محاولة صليبية غربية ضد الاسلام في الشرق .

وفي ذلك الوقت كان موقف مانويل الثاني صعباً في القسطنطينية ؛ حقيقة أن نداءاته المتكررة نجحت في إجتذاب قوة فرنسية صغيرة ، سنة ١٣٩٩ ، إلى القسطنطينية ، وهي القوة التي سمحت له بالتنفس لفترة من الوقت ، ولكنه إحتاج إلى إمدادات جديدة . فسافر سنة ١٤٠٠ لجمع المعونة بنفسه من الغرب ، وزار البندقية ، وباريس ، ولندن ، وحصل على وعود جميلة ، ولكنه لم يحصل على قوات ، ولا على معونات ، وظل تحت رحمة العثمانيين ، ورحمة بايزيد

ولقد ظلت قوات بايزيد منتصرة ، في البلقان ضد الغرب المسيحي ، وفي الأناضول ضد السلاجقة ، في الوقت الذي استمر فيه في مراقبة القسطنطينية ، والاستعداد لها جتتها ، وكانت تمثل عمليته المقبلة . وكانت سرعة حركته ، من البلقان إلى الأناضول ومن الأناضول إلى البلقان ، ثم من البلقان إلى الأناضول ، مع انتصاره في كل معركة يخوضها ، سبباً في تسميته بالصاعقة ويلر درم ، ولكن الحظ لعب دوره ، وبدلاً من أن يجد الوقت لمهاجمة القسطنطينية ، أصبح عليه أن يواجه زحف المغول بقيادة تيمور لنگ صوب الغرب ، الأمر الذي منح القسطنطينية مهلة نصف قرن جديد لكي تستمر في البقاء بزنطية .

٣ - غزوات تيمور لنگ اسيا الغربية :

وكان تيمور لنگ ، الذي أقام في بلاد ما وراء النهر ، منذ سنة ١٣٨٠ ، قد قام منذ ذلك الوقت بشن الغارات . ولاشك في أنه لم يكن قد فكر في إنشاء إمبراطورية كبيرة ، ولكنه كان يظهر تمسكه بتنفيذ رسالة دينية ؛ فادعى أنه سيذهب ليحارب ويعاقب أمراء المسلمين الضعفاء الذين كانوا يسيطرون على

مصر إيران والعراق وآسيا الصغرى والهند ؛ وإدعى أنهم قد ابتعدوا عن روح الإسلام الحقيقية ؛ ولقد أظهر تحمسه للدين في كل مكان وصل إليه ، وكان يقدم المنح للمساجد والأضرحة . وكانت تنقصه صفات رجل الدولة ، وكان يتحكم في الأهالي عن طريق الخوف .

ولقد بدأ جولته في إيران التي كانت فريسة سهلة نتيجة لانقسامها السياسي ، فقام فيها بعدة حملات ، عاد بعدها إلى سمرقند لكي يكسب فيها غنائمه التي حصل عليها من الإمارات الإيرانية التي قضى عليها . ثم توغل في خراسان ، واحتل عاصمتها هيرات سنة ١٣٨١ ، ثم أقام بعد عامين على شاطئ بحر قزوين ، وأرسل جملة ثالثة ضد فارس ، مواطن المظفرين . وباحتلاله لأصفهان وشيراز أكمل تيمور غزو إيران . ولكن هذا الغزو كان غير نهائي ، فلقد اضطرت سنة ١٣٨٧ إلى إعادة فتح أصفهان ، ويقال أنه أمر فيها بقتل سبعين ألف من السكان ، حتى يجعلها عبرة لغيرها من المدن؛ وأخذت رؤوس القتلى شكل سلسلة من الأهرامات حول أسوار المدينة . كما قضى تيمور على آخر الأمراء المظفرين ، وبدأ على أنه سيد إيران المطلق .

ثم قام تيمور بعد ذلك ، في سنة ١٣٨٧ بالهجوم على العراق ، واستولى على بغداد ، واضطر أميرها إلى الالتجاء إلى ممالك القاهرة ، الأمر الذي دفع المغول إلى الانتقام ، وذلك بهجومهم على سوريا . ولكن تيمور كانت له أهداف أخرى : ذلك أنه كان قد تقدم في سنة ١٣٨٦ صوب آذربيجان وأرمينيا ، واستولى على تبريز ، ووصل حتى قارص وتفليس ، ونهب إقليم جورجيا ؛ ثم عاد بعد ذلك صوب الغرب ، واستولى على أرضروم وفان . ولقد عاود هذه الكرة سنة ١٣٩٤ ، وكذلك في سنة ١٣٩٥ - ١٢٩٦ ، ومد بذلك حدوده حتى القوقاز .

وكانت أمراء الأناضول والشام يتسوقون تيمور بالهجوم عليهم ؛ واسكنه

إتجه صوب الهند . وكانت سلطة الأمراء الأتراك والأفغان في شهبول شمال الهند قد ضعفت ، وإنقسم الإقليم إلى إمارات أصغر ، رفضت الطاعة ، وإستقلت بشؤونها ، وتناحرت بينها . فإتجه تيمور صوب هذا الإقليم ، وترك كابول في ١٥ أغسطس سنة ١٣٩٨ مدعياً العمل على إرساء حكم الإسلام وكان زحفه سريعاً ، فعبر نهر السند ، وقصد المدن الكبرى ، قاتلاً ، ناهباً ، حتى وصل إلى دلهي ، التي يقال أنه قتل فيها مائة ألف أسير ، ثم أمر بإحراقها ، في ١٧ ديسمبر من نفس السنة . وعاد بعد ذلك بأسبوعين ، محملاً بالغنائم . وحين عاد إلى عبور نهر السند في عودته في شهر مارس سنة ١٣٩٩ ، لم يترك وراءه سوى الخراب والدمار .

وفي أثناء ذلك الوقت كان السلطان المملوكي في القاهرة قد ساعد السلطان أحمد أمير بغداد الذي طرده المغول من بلاده سنة ١٣٨٧ ، وبشكل ساعده على العودة إلى عاصمته السابقة ؛ وقام بعد ذلك بغزو أذربيجان ، في الوقت الذي كان العثمانيون يقومون فيه بالزحف صوب الشرق ، وكان بايزيد ، كما رأينا ، قد قام بالامتلاء على سيواس سنة ١٣٩٥ ، ولم يتردد في قتل أميرها برهان الدين ، الذي كان قد خضع منذ بعض الوقت للغازی التركماني . ولذلك فإن تيمور لم يتأخر في الرد على هذا التحدي ، وقام في شهر سبتمبر سنة ١٣٩٩ بالزحف على قوات العثمانيين ؛ وبعد إستعادته لأذربيجان ، وتخريبه لجورجيا من جديد ، تقدم صوب سيواس التي إلتحقها من العثمانيين ، وأمر فيها بدفن أربعة آلاف أسير وهم أحياء في شهر أغسطس سنة ١٤٠٠ . وبدلاً من أن يستمر في زحفه في الاناضول ، إتجه صوب سوريا ، وكأنه يرغب في القضاء على المماليك . وسقطت حلب وحماة وحمص وبعليك ودمشق في يديه ، ونهبها ودمرها . ثم زحف على العراق وإرتكب فيها الفظائع ، وإستعاد بغداد من جديد في شهر يوليو سنة ١٤٠١ .

وعندئذ توجه صوب بايزيد ، وشعر بقوة العثمانيين ، ويقال أنه جمع للقائهم ثلاثمائة ألف مقاتل ، ووقعت المعركة قرب أنقرة في ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ .
ولانهم العثمانيون وتفرق شملهم وسط بحيرة حامية ؛ ووقع بايزيد في الأسر ، ثم توفي بعد بضعة أشهر .

أنه الموت والحراب في كل مكان ، وبإسم الجهاد وتدعيم سلطة الاسلام !
ولقد تمكن تيمور بسهولة من غزو بقية الأناضول ، وأعا الأمرء الذين كان بايزيد قد طردهم من أقاليمهم ، الى السلطة في هذه الأقاليم ؛ وأستولى على بروسه ، وظهر عند بحر مرمره ، وطالب الامبراطور البيزنطى بدفع الجزية ، ثم حاصر أزمير التي كانت في قبضة فرسان رودس ، وأستولى عليها في أول ديسمبر سنة ١٤٠٢ . وخضعت كل آسيا الداخلية لسيطرة هذا الغازى .

ولقد رحبت بعض الدول بانتصارات تيمور ، مادامت ضد الأتراك العثمانيين ، وتم تبادل السفارات بين فرنسا وقتشالة ، وبين تيمور . ولكن تيمور كان يفكر بطريقة أخرى ، وفي موضوع يهيمه شخصياً ؛ فلقد كان يفكر في اعداد حملة ضخمة لغزو الصين ؛ وبدأ هذا الاعداد ، ولكنه توفي فجأة في شهر يناير سنة ١٠٤٥ .

كان ما قام به تيمور هشاً ، وكان قد استبعد المناطق أكثر من كونه غزاه ، كما أنه لم يقم بتنظيم الأقاليم او اوسعها التي كانت قواته قد حولتها الى ميادين للقتل والفساء . ولقد أفاد افليم واحد من ذلك ، وهو افليم ماوراء النهر ، فأثرى وازدهر ، نتيجة لما أحضره اليه من الأسلاب ، وارجت فيه التجارة ووجدت فيه سلع الهند وفارس والصين . ولقد أحضر اليه المهندسين المعماريين والرسميين والفنانين من كل نوع ، بعد أن كان قد نقل اليه التحف والثروات ، من جميع أنحاء امبراطوريته ، الأمر الذى بهر كل من زار سمرقند في هذا العصر .

وكان الجيش هو أهم شيء في دولة تيمور لنك ، وكان مقسماً حسب تنظيم جنجيز خان العشرى . ونخشيت أوروبا تيمور لنك ، وقامت جنوا والبندقية وبنزلة والعثمانيين بإنشاء تحالف ضده . ولكن هذا الحلف لم يعيش لمدة طويلة . وإنهار بعد وفاة تيمور لنك ، وإبتعاد الخطر الذى كان يوحد بين هذه القوى الأوروبية . ولكن إزدياد قوة تيمور لنك كانت قد أثرت في روسيا ، وجعلت الاسرة الحاكمة فيها تعهد ببعض السلطة ، وبجمع الضرائب ، إلى الامراء المحليين . فزادت فيها قوة النظام الاقطاعى تدعياً . كما أن هذه الاسر إعتنقت المسيحية على المذهب الأرثوذكسى ، وشجعت على التبشير به حتى توازن خطر التتار ، وتوقف إنتشار الاسلام فى مناطقها . فتحول مغول روسيا ، وأصبحوا روسيين ، ونقلوا عاصمتهم إلى موسكو ، وتركوا لقب « خان » ، وإختاروا لقب « قيصر » لرأس دولتهم .

أما من الناحية السيامية ، فإن إمبراطوريته كانت غير مترابطة إلا بشخصه ، ولم يفعل شيئاً من أجل استمرار ترابطها وإتحادها ، وسادها الانقسام والفوضى بعد موته . وحاول كل من أبنائه العديدين أن يحصل لنفسه على منطقة أو إقليم ؛ وكان كل من ميران شاه وشاه روخ هو الذى حصل على إقليم له وزنه : فحصل الأول على غرب فارس وتبريز وبنغداد ، ولكنه فقد ملكه بعد بضعة أشهر ، وإقتسمه أولاده ، كما أن الأمير أحمد تمكن من استعادة العراق . أما شاه روخ فكان أسعد حظاً ، فكان قد حصل على خراسان ، ثم أضاف إليها ما وراء النهر ثم قرمان وآذربيجان ، والعراق ، لبضع سنوات . وكان ، كوالده ، من كبار الامراء ، محباً للادب والفنون ، وتوفى سنة ١٤١٧ . وإذا كانت سمرقند وهيرات وبخارى قد إحتفظت بإزدهار واضح ، إلا أن سلطنة شاه روخ قد رأت بعد وفاة هذا الأمير ، ما حدث لغيرها من تفكك ، وأنقسام وضعف . وأخيراً فإن سلطة أمراء أسرة تيمور في الهند لم تسكن تصل بعيداً عن أسوار المدن المنقسمة

على نفسها ، والتي كانوا يحكمونها .

وإذا كانت سلالة تيمور قد ظلت ، لفترة من الوقت ، تحكم بلاد ما وراء النهر ، وخراسان ، وبعض الأقاليم المجاورة ، وسجلها بعد ذلك في الهند ، مع بابر الأكبر ، أثناء القرن السادس عشر ، إلا أن الإمبراطورية نفسها التي قام تيمور بغزوها بسرعة كانت قد إنهارت بسرعة ، ومع شخصه .

٤ - أزمة الدولة العثمانية بعد موقعة أنقرة :

سمح موت تيمور ، بعد موت بايزيد بقليل ، للعثمانيين باسترجاع أنفاسهم بعد موقعة أنقرة . ولكنهم احتاجوا إلى بعض الوقت ، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت قد بدت ، مع الهزيمة ، على أنها مهددة بالانحيار في كل مكان . وكان الابن الأكبر لبايزيد ، وهو سليمان ، قد اضطر بعد هزيمة أنقرة ، إلى الالتجاء إلى الأقاليم الأوربية ؛ ولكنه وجد أن إخوته لا يعترفون بسلطته ، فاضطر إلى أن يدخل معهم في صراع استمر لمدة عشر سنوات .

وكانت هذه السنوات فترة تفهقر بالنسبة للدولة العثمانية . وكان ما نوييل الثاني قد عاد من جولة في أوربا الغربية ، وشمخ برأسه ، وإنقلبت الأوضاع : وطالب السلطان بالطاعة ، وبالتخلي عن سولونيك ، وإعادة جزء من ساحل مرمرة نظير التحالف معه . ولم تكن معونة الإمبراطور البيزنطي كافية لانقاذ سليمان ، الذي هزمه أخوه موسى في تراقيا ، واضطر إلى الهرب داخل القسطنطينية ، ثم قبض عليه بعد ذلك وسُجن في شهر فبراير سنة ١٤١١ . أما موسى نفسه ، فإنه قد أضعاف بجهوده أنه سدى في حملات فاشلة ضد الصرب ، ثم هزم في سنة ١٤١٣ قرب صوفيا ، على يد أخوه الثالث ، محمد الأول ، وقتل في ميدان المعركة .

ورغم أن السلطان محمد الأول كان يسيطر ، مع وجود معارضة . على تلك الأقاليم الآسيوية التي كان العثمانيون قد تمكنوا من إستعادتها بعد موت تيمور ، إلا أن موقفه في البلقان كان سيئاً . ويرجع إنتصاره إلى الدعم الذي أعطاه له

الإمبراطور البيزنطى ، كما أنه كان قد عبر إلى البلقان على سفن بيزنطية ولولا قوات مانويل لما تمكن من الانتصار على أخيه ، موسى . ولذلك فإنه اضطر إلى أن يؤكد وي زيد حتى من التنازلات التى كان أخوه سليمان قد قدمها من قبل لحلفائه البيزنطيين . كما أنه قدم بعض التنازلات للصرى الذين كانوا قد أفادوا من صراع الامراء العثمانيين مع بعضهم من أجل إستعادة جزء من أملاكهم المفقودة . وكان عليه بعد ذلك أن يحسب حساباً للبنادقة الذين كانت سفنهم منتشرة فى البحر ، وتمكنوا ، فى شهر مايو سنة ١٤١٦ ، من إنزال هزيمة ساحقة بالأسطول العثمانى أمام غاليبولى ، واضطر السلطان محمد لمواجهة الثورات المستمرة فى آسيا ، فاضطر إلى إتخاذ موقف الدفاع .

ولكن الوضع إستتف بعد موت السلطان محمد سنة ١٣٣١ . وإعتقد اليونانيون أنهم لا يزالون يعيشون الأيام التالية لموقعة أنقرة ، وأنه يمكنهم أن يضعوا الأمير مصطفى ، آخر أبناء السلطان بايزيد ، فى مواجهة ابن أخيه ، السلطان الجديد ، مراد الثانى ؛ وبدؤا بالهجوم ، وحاصروا غاليبولى ، ولكن هذه الخطة لم تنجح ، ورد عليها مراد الثانى بكل عنف . فتمكن من أسر منافسه فى آسيا الصغرى ، وشنقه ، وإستمر حتى القسطنطينية ، التى فرض عليها الحصار ، فى شهر يونيو سنة ١٤٢٢ . وفشل الهجوم الأول على القسطنطينية ، ولم يكرره مراد ، إذ أن مانويل طلب الصلح . ومرة جديدة اضطر مانويل لدفع الجزية للعثمانيين ، كما اضطر إلى أن يعيد للسلطان العثمانى الجزء الأكبر مما كان قد استرجعه من العثمانيين فى تراقيا .

وهكذا دارت الأوضاع من جديد مع عهد مراد الثانى . وعاود الهجوم العثمانى من جديد ، مع قوة ساحقة . وإكتفى مراد الثانى فى ذلك الوقت بأنه عزل القسطنطينية ، وإهتم بأن يقوم بإعادة غزو كل من البلقان وآسيا الصغرى . أما فى الأناضول فإنه عمل على أن يجمع تحت سيطرته معظم الدول التى كان تدخل

ثيمور لذك قد تسبب في إنسلاخها ، وعزل أمراثا غير الخاضعين ، وأجبر الآخرين على الإعتراف بسيادته وعلى تقديم الرهائن له (١٤٢٤ - ١٤٢٧) .
وفي نفس الوقت قام بعملياته في البلقان . ومن عاصمته التي أعادها في سنة ١٤٢٣ إلى أدرنه ، قام بالتدخل في كل إتجاه . في البوسنة ، والافلاق ، والصرب ، وفي البانيا ، وفي إبيروس في اليونان . وإضطر أمير الصرب الشمالية الجديد منذ سنة ١٤٢٧ إلى دفع الجزية ، وتقديم عدد من المحاربين لجيش السلطان ، وتقديم إحدى بناته زوجة له . وحين تأخر في تنفيذ الشرط الأخير قام مراد الثاني بغزو بلاده ، والاستيلاء على عاصمته ، وتقديم إبنته ، ثم الإنسحاب إلى ماوراء الدانوب . وفي ابيروس ، سقطت يانينا في سنة ١٤٣٠ ؛ وشهد نفس العام سقوط سالونيك في مقدونيا . ووصلت قوات مراد الثاني إلى المورة من جديد ، وإلى كثير من الجزر اليونانية . ثم إستولى على العاصمة الجديدة لأمير الصرب الشمالية ، الواقعة على نهر الدانوب سنة ١٤٣٨ ؛ كما أصبحت الصرب كلها ، منذ سنة ١٤٣٩ مقاطعة عثمانية ؛ وشهد العام التالي محاولة مراد الثاني الاستيلاء على بلغراد ، كموقع حصين متقدم للبحر .

وأصبحت أيام القسطنطينية معدودة ؛ ذلك أن مانويل الثاني توفي سنة ١٤٢٥ ، وخلفه يوحنا الثامن ، الذي لم يكن في وسعه أن يعتقد في الخلاص بدون مجيء إمداد سريع من الغرب . ولكن ، من كان من حكام الغرب يفكر جدياً في التدخل ضد العثمانيين ؟ وقام يوحنا الثامن ، في آخر الأمر ، بتجديد نداء ، ووعد بالتوفيق بين الكنديستين ، الشرقية والغربية ، حتى يجذب العالم المسيحي إلى الاهتمام بمصيره ؛ ولكن الاهتمام كان قليلا بهذه النداءات التي تصدر وقت الخطر ، ولا تنفذ بعد ذلك . ولكنه إتصل بعد ذلك سنة ١٤٢١ بالبابا ، ثم إرتبط معه سنة ١٤٢٧ في مجمع فرارا ، ثم في مجمع فلورنسا ، حيث دار مناقشات حامية ، حول هذا الموضوع ، الذي إنقسمت بشأنه الآراء . وأخيراً تم الاتفاق سنة ١٤٢٩

على إمكانية الإعلان الرسمي عن توحيد الكنيستين . وإعتقد الإمبراطور البيزنطى أن العالم المسيحى فى الغرب ، سيستمع باكملة لنداء البابا ، ويحى لنجدة عاصمته .

ولكن تطبيق قرار توحيد الكنيستين لقي معارضة من جانب أغلبية رجال الدين اليونانيين ، وفشل الإمبراطور فى التغلب على هذه المعارضة رغم إستخدامه الشدة ضد رؤساء الأساقفة المعارضين . وإستمالوا أحد أخوة الإمبراطور ، وعادوا فى سنة ١٤٤٤ ومعهم قوات عثمانية ، لمحاصرة القسطنطينية ، فى الوقت الذى كان فيه الإمبراطور ينتظر بحىء المدد من الغرب . ورغم قرارات البابا ، لم يبادر أى من ملوك أوروبا وأمرائها بتقديم العون للإمبراطور بينظة .

ولكن الخوف ساد فى الدول الدانوبية ، على القسطنطينية ، وكانت هذه الدول مهددة بالغزو العثمانى . وكان هو نيادى الذى نشأ فى بلاد ترانسلفانيا فى المجر ، قد تمكن من جمع الأهالى حوله ، وأنزل لإحدى الهزائم بإحدى القوات العثمانية . ثم تحالف مع أمراء الأفلاق ، وأمير الصرب ، وعبر جبال الكربات متعقبا القوة العثمانية حتى نهر الدانوب . وأعطى بذلك الوقت لملك المجر لى يقوم بإعداد حملة صليبية ، بمساعدة كيزاريفى ، المندوب البابوى . وتحرك الجيش المسيحى ١٤٤٣ ودخل أراضى الصرب ، وهزمت قوات مراد ، وخلصت قوات هونىادى ، بعد تقدمها ، مدينة صوفيا ، ثم هزم جيش عثمانى آخر ، الأمر الذى أدى إلى إستيلاء المسيحيين على الصرب ، وإعلان إسكندر بك الثورة فى ألبانيا ضد العثمانيين . وإضطر مراد الثانى إلى إعلان هدنة سنة ١٤٤٤ مع المسيحيين لمدة عشر سنوات ، وإلى التخلي عن فتوحاته ، والتنازل عن السلطنة لإبنه محمد الثانى .

ولسكر كيزاريفى كان يرغب فى إستمرار الزحف ، رغم النصائح بضرورة التمهّل ، فنقض الهدنة ، ودفع ملك المجر وهو نيادى إلى الزحف عبر بلغاريا حتى أسرار فارنا . وكان مراد الثانى قد تنازل عن السلطنة لإبنه ، وإلسحب إلى آسيا

الصغرى . ولكنه إضطر أمام هذا الغدر إلى العودة بسرعة إلى البلقان ، وإلى مهاجمتهم ؛ وتسبب موت كيزاريني وملك المجر في تحويل المعركة إلى هزيمة ساحقة للأوربين في ١٠ نوفمبر سنة ١٤٤٤ . وإستعداد مراد الثانى السلطة ، وإستغل نجاحه بسرعة ، وأرسل قوات غازية فى كل إتجاه ؛ فهاجم إقليم أتيكا ، وضربه ، وسيطر على مضيق كورنشا ، وغزا المورة سنة ١٤٤٦ ؛ كما هاجم البقية الباقية من الممشنآت اليونانية الموجودة على البحر الأسود . فضعفت مقاومة المسيحيين فى كل مكان . ولم يستمر فى المقاومة سوى اسكندر بك ، وهونىادى . وتمكن الأول من هزيمة أحد الجيوش العثمانية التى كان يقودها مراد الثانى بنفسه فى ألبانيا ، يجبره على الانسحاب سنة ١٤٤٩ ؛ أما هونىادى فانه أصبح وصيا على عرش المجر مع وفاة الملك ، وحاول أن أن يقوم بعملية جديدة فى بلاد الصرب ، ولكنه هزم فى معركة قوصوه (الثانية) سنة ١٤٤٨ ، وأصبح عليه أن يواجه ثورات كبار الاقطاعيين فى المجر .

وأصبحت القسطنطينية ، وإمبراطورها ، ينتظرون مصيرهم . وحاول قسطنطين الحادى عشر ، الذى وصل إلى العرش بعد أخيه يوحنا الثامن ، أن يواجه أشد المخاطر فى سنة ١٤٥٣ ، بإصدار قرار بتوحيد الكنيسة الشرقية مع كنيسة روما ، ولكن هذا الأمر زاد من الانقسام الإضطراب بين رعاياه . أما محمد الثانى الذى وصل إلى العرش بعد وفاة أبيه مراد الثانى سنة ١٤٥١ ، فانه لم يتردد فى إتخاذ التدابير من أجل الإستعداد للهجوم النهائى على القسطنطينية .

الفصل التاسع

محمد الثاني وفتح القسطنطينية

لقد شهد عصر محمد الثاني ، أو محمد الفاتح ، عملاً من أهم أعمال التاريخ العثماني ، وهو الاستيلاء على القسطنطينية . وكان فتح الأتراك للقسطنطينية ، في شهر مايو سنة ١٤٥٣ ، من أهم أحداث تاريخ العالم ، الذي كان له تأثير كبير على مصير أوروبا ، وأعطى التفوق للأتراك على الشرق ، ولعدة قرون . وكان في نفس الوقت كارثة عظيمة لليونانيين ، حتى يقطنهم من جديد في الربع الأول من القرن التاسع عشر . وكادت هذه الحادثة أن تغير مجرى التاريخ ، وبشكل نهائي . وكان حدثاً فذاً لأسباب عديدة ، كما أنه كان يمثل أول عملية حصار كسبتها المدفعية ، والتي كانت سلاحاً حديثاً للغاية في هذا الوقت ، وبشكل جعل هذا التاريخ نهاية للعصور الوسطى ، وبداية للتاريخ الحديث .

١ - الاستعداد :

كان محمد في آسيا الصغرى ، حين بلغه نبأ وفاة والده مراد ، فأسرع بالسفر إلى أدرنة . وكان يبلغ من العمر إحدى وعشرين عاماً ، ويتميز بحدة الذكاء وشدة تمسكه بالدين ، وكان وصول سلطان شاب للسلطنة يجعل أوروبا تتقلق من طموحه . وأسرع الملوك والأمراء المجاورين التسابيحين بإرسال السفراء إلى أدرنة لتهنئته السلطان ، ولتأكيد نياتهم السلمية . وقام محمد الثاني بفتح صلح مع هونياتي لمدة ثلاث سنوات ؛ كما عقد ووجدد الاتفاقات مع جيرانه ، ومع التسابيحين له ، من ملوك وأمراء الصرب والأفلاق ، ومع جنوا ، وفرسان رودس ، وحاكم البلبونين ، وأمير قرمانيا ، وحتى الإمبراطور قسطنطين ، الذي وقع معه سنة ١٤٥١ على إتفاقية بشأن إيراد بعض القرى ، وبشأن دفع معاش لأورخان ، حفيد سليمان ،

الذى كان يقيم في القسطنطينية . ولكنه لم يكن يفكر في حقيقة الأمر ، إلا في غزو هذه المدينة ، التي طالما حاول أجداده الحصول عليها ، بلا جدوى .

ولقد أمر في ربيع سنة ١٤٥٢ ببناء قلعة جديدة على الشاطئ الأوربي للبو سفور ، سميت قلعة البوغاز أو روميلى حصار ، وذلك في مواجهة القلعة التي كان بايزيد قد أقامها على الشاطئ الآسيوى ، والتي سميت أناضولو حصار . وإستخدم في ذلك آلاف من العمال ، وكميات ضخمة من المواد ، أتى بها من الأقاليم المحيطة ؛ وكان يشرف بنفسه ، ومعه كبار رجال الدولة على العمل ، حتى إنتهى في مدة ستة أشهر . وعلاوة على القيمة العسكرية لهذه القلعة ، فإنه كان يهدف من ورائها إلى إمكانية حرمان البيروانيين من موارد الجمارك وإيرادات ورسوم السفن التي كانت تأتي من البحر الأسود ، ويحصل عليها لنفسه .

ورأى إمبراطور بيزنطة الخطر المحدق به ، فهاجم العمال والحراس الأتراك ، بدعوى إتلافهم لأراضيه وتعريضهم لممتلكات رعاياه ، فما كان من محمد الثانى إلا أن أعلن الحرب على الإمبراطور . وقام الإمبراطور بإغلاق أبواب مدينته ، وأمر بإلقاء القبض على كل الأتراك الموجودين فيها .

وكان الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر ، قد بلغ من العمر خمسة وأربعين عاما وقت إعتلائه العرش ؛ وكانت ممتلكاته تقتصر على مدينة القسطنطينية نفسها ، والمنطقة المحيطة بها ، وعلى إمتداد ما يقرب من مائة ميل ، في إتجاه الغرب والشمال ، وعلى ما يقرب من نصف مساحة البلبونيز ، والتي كان يحكمها أخواه ، بإسمه . وكان يعرف جيئداً أن لا أمل له إلا في بحىء العون من أوروبا ؛ فأخذ قراراً بأن يعلن ، فى كاتدرائية القديسة صوفيا ، الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية . ولكن إذا كان الإمبراطور ، وعدد من كبار الأعيان ، وكبار رجال الدين ، وقد وافقوا على هذا الإتجاه ، فإن أغلبية رجال الدين ، وكل الشعب كانوا متعصبين ، ويرفضون الإعتراف بالكاثوليكين ، حتى على أنهم مسيحيين ؛

فعارضوا القرار ، وأظهروا تفضيلهم الأتراك على اللاتينيين . وحتى أولئك الذين أظهروا ، رسمياً ، أنهم من أنصار الوفاق مع روما ، لم يقوموا بذلك نتيجة لإقتناع ، بل لمجرد الأمل في الحصول على مدد . وهم في ذلك الوضع الذي كانت إمبراطوريتهم لا تحسد عليه . وهكذا زادت أسباب الشقاق والإنقسام داخل هذه المدينة المهتدة ، وقلت بذلك إمكانية الحصول على معونة صادقة وفعالة من الغرب .

والحقيقة أن هذه المعونة كانت محدودة ، رغم الوعود التي أعطاها البابا ، والتي أعطتها البندقية . وإقتصرت في مجموعها على ما يقرب من مائتي رجل ، كان الكاردينال إيزيدور ، مندوب البابا . قد أحضرهم معه ، وعلى عدد من سفن البندقية التي كانت قد حضرت من أجل التجارة إلى القسطنطينية . وظلت في مينائها ، وسفينتين من جنوا ، تحملان خمسمائة رجل بقيادة جوستينياني ، الذي سيكون الروح المحركة للمقاومة . ولقد أرسلت البندقية معونة أكبر ، ولكنها لم تتمكن من الوصول في الوقت المناسب .

وكانت القسطنطينية تشتمل ، في ذلك الوقت ، على ذلك الحى ، من إستامبول الحالية ، الذى يقع بين القرن الذهبى وبحر مرمرية ؛ وكانت تحيط بها الأسوار الحصينة من الناحية البرية ، وهى موجودة حتى الآن ؛ أما الأسوار المطلة على القرن الذهبى ، وعلى بحر مرمرية فقد تهدمت . أما حى جلطة فكان يقع على الضفة الأخرى للقرن الذهبى ، وكان عبارة عن مستعمرة لابناء جنوا ، ويشرفون على إدارته ، وكانت تحيط به الأسوار كذلك . ولقد عمل البيزنطيون على ترميم الأسوار ، وإعادة حفر الخندق الذى يسير بمحازاتها . ثم قاموا بمد سلسلة من أقصى المدينة إلى حى جلطة ، وبشكل يقفل مدخل القرن الذهبى . وكانت تتكون من كرات خشبية ضخمة مربوطة ببعضها بسلاسل حديدية غليظة . وكان الهدف منها أن تحمي السفن الموجودة خلفها ، وهى عشرة سفن ، من هجمات الأسطول

العثماني . وكانت القوات التي تدافع عن المدينة تمثل خليطاً ، جمعتهم الصدفة ، من بين اليونانيين ، وأبناء جنوا ، والبندقية ، والكانالان ، ومن الكاثوليك والارثوذكس . وكان جوستينياني ، الجنوي ، وأبناء البندقية ، مصممين على الدفاع عن القسطنطينية أكثر من البيزنطيين أنفسهم . وكان عددهم يقرب من ثلاثة آلاف ، بين ما يقرب من تسعة آلاف من المدافعين عن المدينة .

وكان جيش محمد الثاني كذلك خليطاً من جميع أنحاء السلطنة ، ولكنه كان كبير العدد ، واختلاف المؤرخون في تقديره بين ٨٠.٠٠٠ و ٤٠٠.٠٠٠ رجل ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نرجح أن قوة العثمانيين التي وصلت أمام أسوار القسطنطينية بلغت ١٦٠.٠٠٠ رجل ، علاوة على العمال والخدم والتجار ، الذين كانوا يتبعون الجيوش إلى ميادين الحرب في هذه العصور . وكان محمد الثاني قد أعطى إهتماماً خاصاً بالمدفعية ، وكان والده من قبل قد إهتم بهذا السلاح الذي لم يكن قد مضى على إستخدامه قرن واحد . وقام العثمانيون بصب المدافع ، ويقال أن قطر فوهة أحدها بلغ ثلاثة أقدام ، وكان يقذف أحجاراً تزن ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ رطل إلى مسافة ميل . ولقد تم نقله من أدرنه إلى أمام أسوار القسطنطينية في مدة شهرين ، وكان يحرقه ستون ثوراً . وكانت مدفعية العثمانيين تشتمل على كثير من القطع الكبيرة والبعيدة المدى ، من بين عدد ضخم من المدافع .

وفي أوائل شهر أبريل ، وصلت القوات العثمانية من أدرنة أمام أسوار القسطنطينية ، ووزعت نفسها في مواجهة كل الأسوار البرية ، من بحر مرمرية إلى أقصى القرن الذهبي . وكان مركز قيادة السلطان في منتصف الخط تقريباً ، وعلى بعد ٢٥٠ يوا متر تقريباً من الأسوار . وبدأ بذلك الحصار .

٢ - الحصار :

وكان محمد الثاني يعرف إمكانية وصول الإمدادات للبيزنطيين عن طريق البحر .

ولذلك فإنه لم يهمل الأسطول . وتجمع الأسطول العثماني أمام غاليبولى بقيادة القبودان باشا ، سليمان ريس بلطة أوغلو ؛ وكان يشتمل على عدد كبير من السفن الصغيرة والسريعة ، علاوة على سفن النقل ؛ ثم دخل بحر مرمره ، حيث إنضمت إليه سفن عثمانية أخرى أتت من البحر الأسود . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها أبناء بيزنطة أنهم يواجهون هجوماً عثمانياً على مدينتهم من ناحية البحر كذلك ، خاصة وأن كل هجمات العثمانيين السابقة على مدينتهم كانت برية فقط .

ولقد لعبت المدفعية العثمانية دوراً هاماً فى عملية الحصار ، وأثر ذلك فى نفسية أهالى بيزنطة ، علاوة على شعورهم بالتفوق العددي للعثمانيين ، وتنوع أسلحتهم ، وجسارتهم فى الحرب .

ولقد قام العثمانيون بمحاولة للهجوم يوم ١٨ أبريل ، ولكنها لم تعط نتيجة إيجابية ، وحدث نفس الشيء مع محاولة الأسطول العثماني لإقتحام مدخل القرن الذهبى ، وكانت تحرسه السلاسل والسفن الواقعة خلفها .

وفى يوم ٢٠ حضرت أربع سفن كبيرة من بحر مرمره ، كانت ثلاث منها من سفن جنوا . وكانت تحمل بعض القوات ، ومؤن وذخائر ، وقابلت سفينة نقل كبيرة ، من سفن الامبراطورية عائدة من صقلية محملة بالقمح ، فاقتادوها معها . وأسرعت السفن التركية بمهاجمتها ، وذلك فى الوقت الذى كانت تستعد فيه للدخول إلى القرن الذهبى ، ولكن سفن جنوا كانت مرتفعة ، ولها ساريات عالية ، الأمر الذى ميزها على المهاجمين . وإستمرت المعركة ، ولكن غروب الشمس مع هبوب الريح ، سمح لهذه السفن بالحرب بالمهاجمين ، خاصة وأن سفن البيزنطيين عبرت السلسلة ، وجاءت لمعاونتهم ، وأخذوهم إلى داخل القرن الذهبى . وعادت السفن التركية إلى مواقعها . ولقد ساعد ذلك على رفع الروح المعنوية لأهالى بيزنطة ، وإعتقاداً أن هذه السفن تمثل مقدمة المعونة التى ستأتى

لهم من الخارج لإجبار الترك على رفع الحصار عن مدينتهم . وكانوا لا يعرفون أنها كانت كل المعونة التي مستلصم .

وإستمر الحصار ، وتسببت المدفعية في تحطيم بعض أجزاء من الأسوار . وبعد بضعة أيام هبت أهالي القسطنطينية حين رأوا جزءاً من الأسطول العثماني داخل مياه القرن الذهبي ، وخلف سفنهم .

٣ - الهجوم وفتح المدينة :

ووجد محمد الثاني أن الهجمات الموجهة ضد وسائل الدفاع البري ستكون بدون فائدة ، أو مستعصى تأثيرها بعد وقت طويل ؛ فأراد أن يهاجم الأسوار المطلة على القرن الذهبي ، والتي كانت أضعف من غيرها بكثير . فوضع مشروعه العجيب لنقل السفن من البوسفور إلى داخل القرن الذهبي ، بتمريرهم على تل بيرا . ورغم جراءة هذا المشروع ، فإن محمد الثاني تمكن من تنفيذه . وكانت الأيدي متوفرة لديه سواء في الجنود أو العمال الذين جمعوا بأعداد ضخمة ، وكانت السفن التركية التي قامت بهذه الرحلة صغيرة في حجمها ، خفيفة في وزنها ، وتراوح بين خمسة عشر وإثنين وعشرين مقعد تجديف ، ولا يزيد طولها على عشرين متراً .

وقاموا بإنشاء طريق منتظم من البوسفور حول جملطة حتى القرن الذهبي من الداخل ؛ وكان طوله يتراوح بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات ؛ ثم غطوه بالواح من الخشب ؛ ووضعوا السفن على ما يشبه الزحافات ، وجعلوها تسير على إسطوانات مدعونة بالشحم ، بعد أن أخرجوها من الماء ؛ وقام الرجال بجرها ، وبمساعدة الثيران . وبلغ عدد السفن المنقولة ما يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ سفينة .

وتم تنفيذ العملية بسرعة فائقة . وكان محمد الثاني قد فكر قبل بعد معركة ٢٠ أبريل ، وتم شق الطريق ، وأتم التجهيزات ، ووصلت السفن التركية داخل مياه القرن الذهبي في صباح يوم ٢٣ . ولقد تم نقل السفن كلها في ليلة واحدة .

ووربح العثمانيون إجراءات حراسة مشددة لإخفاء إستعداداتهم عن المحاصرين ، في الوقت الذي عملوا فيه على تجويل إنتباههم بتصريف قوى المدفعية

في جهات أخرى وكانوا قد وضعوا قطع مدفعية قوية خلف مدينة جلطة. أخذت في إطلاق قذائف ضخمة داخل القرن الذهبي . وزاد خوف المحاصرين من ظهور هذه السفن التركية ، خاصة وأن الأسوار المطلة على القرن الذهبي كانت ضعيفة وفي حالة سيئة . وفشل بحارة جنوا ، الموجودين على سفنهم في القرن الذهبي ، في محاولة حرق سفن العثمانيين ، وقبض الأتراك على المجموعة التي حاولت القيام بهذا العمل ، وأعدموها .

وبعد ذلك بقليل ، أقام العثمانيون قنطرة على القرن الذهبي ، قرب نهايته من الداخل ، مدعمة بعوامات من براميل متجمعة بواسطة قطع خشبية كبيرة . وستسمح هذه القنطرة بعبور القوات التي كان جزءاً منها متجمعاً عند بيراء ، كما أنها ستساعد على توصيل الإمداد والذخائر للمدفعية التي نصبوها لضرب التحصينات والأسوار التي كانت تسير بحذاء شاطئ القرن الذهبي .

وفي الوقت الذي زاد فيه ضغط المهاجمين على المدينة . ظهر الخلاف بين أبناء جنوا وأبناء البندقية ، وإتهم كل منهم المجموعة الثانية بأنها تستعد للخروج من القسطنطينية . ومعها أموالها ، وعلى سفنها ، وفي أول فرصة سانحة ، لكي تضمن نجاحها من أرض المعركة . وأخذ الإمبراطور يوفق بينهم ؛ ورفض الاستماع إلى النصيحة الخاصة بخروجه من المدينة لكي يجمع قوات نجدة من اليونان والبلقان ، ويدفع ملوك أوربا لإرسال المدد؛ كما رفض المرض العثماني الخاص بإعطائه الأمان للخروج من المدينة ، مع من يرغب ، وتسليمه السلطة في بلاد اليونان ، كتابع للعثمانيين . وزاد إرهاب الأهالي ، مادياً ومعنوياً ، نتيجة للمشاركة في الحراسة ، وإستمرار ضغط الأتراك ، وقلة النوم ، وقلة الأمل .

وفي يوم ٢٧ مايو ، أعطى السلطان أمره بالهجوم . وفي اليوم التالي زاد ضرب المدفعية ، وبدأ الهجوم في ليلة ٢٨/٢٩ مايو ، ثلاث ساعات قبل شروق الشمس ، وكانت القوات التركية مقسمة إلى ثلاث فيالق ؛ الأول من الجنود غير

غير النظامية ، والثاني من قوات الأناضول ، والثالث من جنود الإنكشارية ، الذين كان عليهم أن يتدخلوا لتقرير الأمر ، وبعد أن يكون هجوم الفيلقين الآخرين قد أدى إلى إرهاب المدافعين . ولقد فشل الهجومين الأول ، والثاني ، رغم قلة عدد المدافعين وإرهابهم ؛ ثم أعطى السلطان أمره الإنكشارية بالهجوم ، وقت الشروق .

وكانت هناك بوابة صغيرة ، في السور الداخلي ، تسمى باب السيرك ، بالقرب من باب أدرنه ، كانت حراستها ضعيفة ، إذ أن المدافعين إنشغلوا عنها بنقطة أخرى من السور ، وكانت الأسوار الخارجية قد أصابها بعض الدمار ، من ضرب المدفعية ، تتمكن الإنكشارية من الدخول إلى الجزء الذى يتوسط السورين ، ومع نور الصباح ، رؤوا هذه البوابة الصغيرة الموجودة في السور الداخلى ، فدخلوا منها إلى الساحة الداخلية . وتمكنوا بهذه الطريقة من الوصول إلى داخل المدينة ، الأمر الذى نشر الذعر فى كل مكان ، وفى نفس الوقت جرح جوستيليانى الذى كان يشرف على الدفاع مع الإمبراطور عند باب القديس الرومانى ، والذى كان مهدداً ؛ وحاربه إلى داخل المدينة لمعالجه . ولا شك فى أن بعض رجاله قد تبعه ، الأمر الذى أثر فى الدفاع ، وفى الروح المعنوية للمدافعين .

ولقد واصل الإمبراطور البيزنطى المقاومة ، ولكن جحافل المهاجمين كانت ضخمة ، وظل فى المواقع العسكرية حتى قتل . ودخل الأتراك المدينة حوالى التاسعة أو العاشرة صباحاً ، وكانت معركة ، بل مجزرة ، إختلط فيها الحابل بالنابل ، وتفنى الكتاب المسيحيين فى وصف أهوالها . لقد قتل الكثيرون ، أما الشباب من الجنسيتين ، فقد جمعوا لى يوزعوا على القادة ، ويوزعوا فى الأقاليم . وكان الكثير من النساء والأطفال قد التجسوا إلى كنيسة سان صوفيا أو الحكمة الإلهية ، وأقفوا على أنفسهم أبوابها البرونزية . ولم يكن الأتراك وصلوا ، وإقتحموا الأبواب ، وأخذوا من فيها .

وإستمر القتل والنهب والسبي ، ثلاثة أيام بلياليها ، إنها مدينة مستباحة ، وقدر المؤرخون عدد الأسرى فيها بما يزيد على ٥٠٠٠٠ شخص ، علاوة على فقد ما يقرب من ٤٠٠٠ قتيل . وكان معظم البحارة الأتراك قد ترك سفنه للمشاركة في الهجوم ، وساعد ذلك على أن تتمكن كثير من سفن البنادقة وأهل جنسوا من الخروج إلى البحر ، تحمل من تمكن من الوصول إليها ، من المدافعين ، ومن سكان المدينة .

وزار السلطان المدينة ، المفتوحة ، بعد ظهر يوم ٢٩ مايو ، وذهب إلى كنيسة سان صوفيا ، حيث شكر الله على ذلك الفتح العظيم ، الذي من به عليه ، وصلى لله فيها ، وحوطها إلى مسجد يحمل نفس الاسم السابق ، آيا صوفيا ، ولقد ترك العثمانيون المأجنى كما هو ، وأضافوا إليه مئذنة ، ثم أضافوا إليه ثلاث مئذنان أخرى أثناء القرن السادس عشر (١٥٧٠ — ١٥٨٠) .

ولقد منح محمد الثانى الأمان لأهالى جنوا المقيمين فى حى جلطة ، ثم أكد لهم إستمرار تمتعهم بحقوقهم السابقة . ومنها حصولهم على إدارة خاصة لحى جلطة ، وحرية ممارسة الشعائر الكاثوليكية فى كنائسها ، وحرهم فقط من دق نواقيس الكنائس .

وفى وقت فتح القسطنطينية ، كان هناك أسطول يتكون من ثلاثين سفينة ، أرسله البابا ، والبندقية ، ويحمل الجنود والمؤن والذخائر ، يسير من أجل إنقاذ المدينة ، ووصل إلى الأرخييل ، وظل فيها بعض الوقت نتيجة لمعاكسة الريح له . وقبل أن يستمر فى أفلاعه ، كانت السفن التى نجحت فى الفرار من القسطنطينية قد حملت له أبناء فتح العثمانيين لها .

وظلت القسطنطينية التى تحول إسمها إلى إسلامبول ، وإستانبول ، عاصمة لإمبراطورية العثمانية ، على مدى خمسة قرون ، وأصبح لقب السلطان محمد الثانى رسمياً ، هو « أبو الفتح والمغازى » ، ولقد إتخذ إجراءات سريعة لإعادة توطين

الأهالي في أستانبول . وأخذت الإمبراطورية العثمانية بها شكلاً جديداً ، فبعد أن كانت آسيوية ، وإسلامية ، سيطرت على عاصمة الشرق المسيحي ، وظهر أن لها كثير من الرعايا المسيحيين ؛ يخضعون لعاصمتها الأوروبية ، وجوهرة أوروبا ، وأصبح السلطان العثماني يشعر ، بأنه إستمرار كذلك للإمبراطورية الشرقية .

٤ - بقية أعمال محمد الفاتح :

كان فتح القسطنطينية يكفي كعمل محمد الثاني ؛ ولكنه قام بالكثير غيره ، وعلى مستوى أقل ، في أجزاء كثيرة من البلقان ، وكذلك في آسيا الصغرى .

وكانت أجزاء كثيرة من شبه جزيرة البلقان لا تخضع لسلطة السلطان . فرغم أن ملك الصرب كان تابعاً له ، فإنه كان في بعض الحالات خاضعاً ومفيسداً ، وفي بعض الحالات الأخرى مستعداً للتفاهم مع هونياتى في المجر ، رغم العداء الذى كان يفصل الأرثوذكس الشرقيين عن الكاثوليك .

وظلت البوسنة مستقلة فعلياً تحت ملكها ؛ وتمكن إسكندر بك ، فى ألبانيا ، من أن يصد كل الجيوش العثمانية التى حاولت التوغل فى بلاده .

أما أمراء الإقلاق والبلغدان ؛ فرغم أنهم كانوا قد قبلوا الخضوع للسيادة العثمانية ، فإنهم كانوا تابعين غير ثابتين ، وكانوا ينضمون إلى الأعداء بسهولة ، ما داموا يجدون ميزة أو مصلحة فى إتخاذ مثل هذا الموقف .

وكان أخوى الأمبراطور قسطنطين يحكمون المورة ، وبصفتهم تابعين للسلطان . وكانت بعض مناطق شبه الجزيرة هذه خاضعة للبنادقة ، الذين كانوا يمتلكون كذلك معظم جزر بحر إيجه وشرق البحر المتوسط ، وذلك فى الوقت الذى احتفظت فيه جنوباً ببعض الجزر ، والذى احتفظ فيه فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس ، مقرأ لهم .

وفى الأناضول نفسها كان بعض أمراء الأسرة الإمبراطورية البيزنطية السابقة يحتفظون بحكم طرابزون ، كما كان أمراء قرمانيا مستعدين دائماً لإنتهاز

الفرص التي تضمن إستقلالهم .

ولقد أمضى محمد الثاني فترة حكمه الطويلة ، والتي بلغت ثلاثين عاماً ، منها ثمانية وعشرين بعد فتح القسطنطينية ، في حروب مع جيرانه ، حتى يضمن إقامة وتوكيد سلطته على الأراضى والأقاليم التي لم تخضع له ، أو التي كانت سلطته عليها غير مباشرة .

ومع ذلك ، فقد أظهر محمد الثاني ، في الأشهر التالية لفتح القسطنطينية ، رغبته في السلم والوفاق . ورأياً أنه جدد إمتيازات المدينة الخاصة بأبناء جنوا في جلطة ، ثم قام بعد ذلك بمعد إتفاقيات تنص على دفع الجزيات السنوية مع الأميرين اليونانيين في الباليونين (١٠٠٠٠٠ دوقى) ؛ ومع حاكم الصرب (١٢٠٠٠٠ دوقى) ؛ ومع أبناء جنوا في نخبوس ولسبوس (٦٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ دوقى على التوالي) ؛ ومع الإمبراطور اليونانى في طرابزون (٢٠٠٠٠ دوقى) ؛ ومع جمهورية راجوزة (٣٠٠٠٠ دوقى) ؛ وأخيراً في سنة ١٤٥٤ مع جمهورية البندقية . وضمن حرية التجارة لجمهورية البندقية ، ومنحها حق إرسال قنصل يقيم في القسطنطينية . ولكن فرصة السلم هذه كانت قصيرة ، وسرعان ما بدأت الحملات البرية والبحرية منذ سنة ١٤٥٤ .

وأراد محمد الثاني أولاً أن يسيطر تماماً على إمارة الصرب التي كانت تقع جنوب نهر الدانوب ، وعلى طريق أوروبا ، وفي موقع هام ، وكان أميرها قد أظهر أنه تابع مخلص . وأرسل إليها حملة أولى سنة ١٤٥٤ لم تتمكن من الحصول على إنتصار حاسم . وشهد العام التالي هجوم هونىادى ، وإنتصاره على أحد الجيوش التركية . فإضطر السلطان إلى الخروج بنفسه على رأس حملة توجهت إليهم . ووصل الجيش العثمانى أمام بلغراد ، وحاصرها ، وبدأ ضرب أسوارها بالمدفعية . ولكن هونىادى جمع جيشاً كبيراً من المتطوعين من المجر وألمانيا وبوهيميا وإيطاليا ، ووصل بهم في سفن على نهر الدانوب حتى بلغراد في منتصف يوليو سنة ١٤٥٦ . وفعلت

ثلاث هجمات للأتراك على بلغراد ، وقتل بعض قادتهم ، ويقال أن محمد الثاني جرح
بهم في هذه المعركة ؛ فأضطر الجيش العثماني إلى رفع الحصار عن بلغراد ، وإن كان
قد احتفظ بملكيته وسيطرته على غالبية إقليم الصرب . ومات هو نيادى بعد أسابيع
من معركة بلغراد .

وكان أمير الصرب قد احتفظ بقطعة من ممتلكاته ، ولكن وفاته في آخر سنة
١٤٥٦ أدت إلى منافسات على الأمانة كانت فرصة لكي يستولى العثمانيون على
الأمانة كلها ، وبشكل نهائي . وتقدم أحد الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم
محمود باشا ، وتمكن في سنة ١٤٥٩ من السيطرة على بلاد الصرب ، ما عدا بلغراد
التي استظل في أيدي المجر مدة ٦٢ عاماً أخرى .

وسرعان ما خضعت البوسنة لنفس مصير الصرب ، ولستولى عليها جيش الصدر
الأعظم سنة ١٤٦٣ ، وأخذ ملكها أسيراً في أستانبول . أما الهرسك فإنها احتفظت
بدورها فترة من الوقت ، إلى أن ضمت إلى الإمبراطورية العثمانية سنة ١٤٨٠ .
وكانت إحدى الحركات الدينية المعادية للأرثوذكسية ولللكاثوليكية قد ظهرت في
البوسنة ، وكانت لها نظرية فطرية للدين ، لا تختلف عن الإسلام في الكثير ،
وساعدت هذه الحركة على سهولة إنضمام الإقليم للدولة العثمانية ، وعلى تحول الكثير
من أبنائه ودخولهم في الإسلام في ظل الحكم العثماني ؛ وحتى النهاية فإنهم دخلوا
في الإسلام ، واحتفظوا بممتلكاتهم وإمтиاراتهم . ومع ذلك فقد احتفظ الكثير
من أبناء البوسنة في الشمال ، وقرب حدود كرواتيا والهرسك ، بالديانة الكاثوليكية ،
وفي الجنوب وقرب حدود بلغاريا بالديانة الأرثوذكسية ، وظلت البلاد مقسمة
بين الديانات الثلاث ، وفي أعداد متقاربة .

وكانت حملات العثمانيين صوب الدانوب ، وجردهم مع المجر ، تدفعهم إلى
الإتصال بالامارتين الرومانيتين ، الأفلاق والبغدان ، اللتان كانتا قد أضطرتا ، من
أجل الإحتفاظ باستقلالهما الذاتي ، تحت أمراء منهما . إلى الموافقة على دفع

جزية للباب العالى . وكانت تحيط بهما ثلاث دول قوية . هي بولندا والمجر والدولة العثمانية ، وكانت كل من هذه الدول تدعى بسيادتها عليهما ؛ فأضطرنا نتيجة للظروف ، وحفاظاً على مصالح كل منهما ، إلى طلب حماية الواحدة أو الأخرى من بين هذه الدول القوية . ولكن الحالة الداخلية كانت مضطربة ، نتيجة لوجود النفوذ الأجنبي ، وخاصة وقت خلو عرش الإمارة ، وكان الأمر يصل إلى درجة طلب تدخل الإمارة الأخرى ، أو من إحدى الدول المجاورة القوية .

وقام أمير الإفلاق بقتل إحدى السفارات العثمانية ، فزحف السلطان محمد الثانى على رأس جيشه لمحاربتة ، ولكنه لم يتمكن من الحصول على إنتصار حاسم؛ فانسحب ثم دفع ضده أمير البغدان ، الذى هزمه وأجبره على الإلتجاء إلى المجر سنة ١٤٦٢ . وسرعان ما دب الخلاف بين أمير البغدان وبين العثمانيين ، بشأن الإفلاق ، وزحف جيش الصدر الأعظم سليمان باشا لمحاربتة ، ولكنه إتصر على الجيش العثمانى فى معركة مرتبة فى شهر يناير سنة ١٤٧٥ . وبعده بضع سنوات تخلى عنه المجر ، والبولنديون ، وزحف ضده العثمانيون ، مع جيش من الأفلاق ، وهزموه ، وإن كانوا قد أضطروا للإسحاب نتيجة لنقص التموين ولإنتشار الطاعون ، وتمكن الأمير من إعادة بناء قواته وجيوشه . وسيزيد مع الزمن نفوذ العثمانيين فى أمارتى الأفلاق والبغدان ؛ ولكن علينا أن نقرر أن هاتين الإماراتين ، رغم تبعيتهما للدولة العثمانية ، ودفع الجزية السنوية لها ، قد احتفظتا بجزية اتصالاتهما وحرية عملهما مع الخارج .

ولقد تمكنت الدولة العثمانية من أن تحصل ، فى الشمال ، على نجاح هام سمح لها بمد سيطرتها على كل الساحل الشمالى للبحر الأسود ، وبشكل حول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية . فاستولت على كافا وعلى آزوف وعلى عدد من الموانع التى كان أبناء جنوا يملكونها فى هذه المنطقة ، ثم أفادت من الصراع الناشب حول عرش سخانات القرم ، وبشكل جعل الخان يعترف بالسيادة العثمانية على بلاده سنة ١٤٧٤ .

أما الحروب مع المجر فإنها استمرت ، وبلا انقطاع ، طوال عهد محمد الثاني . وإذا كان المجر قد تدخلت في البوسنة ، أو في بلاد الصرب ، فإن الأتراك قد تدخلوا في ترانسلفانيا . وكان الأتراك يعبرون الدانوب ويعبرون على بلاد المجر ، ويعودون منها بالأسرى والأسلاب .

أما البانيا فكانت مستقلة ، وقامت محاولات التدخل العثماني فيها ، وكانت شخصية إسكندر بك قوية ، عرفت كيف تحافظ على استقلال بلادها . ولقد كانت ، وبجحاح ، لمدة ثلاثين عاماً عند الأتراك . ولكنه توفي في سنة ١٤٦٧ ، وكان ذلك هو نهاية استقلال البانيا ، وقبل الألبانيون الانضمام إلى الدولة العثمانية . وكما حدث في البوسنة ، نجد أن جزءاً كبيراً من نبلاء البانيا وكثير من الألبانيين يعتقدون الدين الإسلامي ؛ يحافظ المسلم على أملاكهم وإميازاتهم ، في الوقت الذي شارك فيه الألبانيون في بناء الدولة العثمانية نفسها . ومع ذلك فقد ظلت هناك أقلية ألبانية كاثوليكية في الشمال ، إلى جوار ممتلكات البندقية ، وأقلية أرثوذكسية في الجنوب ، إلى جوار اليونان . وكان على الإدارة العثمانية أن تحسب حساباً للروح الإستقلالية عند الألبانيين . ولقد أعطى الألبانيون المسلمون للدولة العثمانية عدداً ضخماً من كبار موظفيها وقادتها ووزرائها . وإذا كانوا لا يرغبون في أداء الخدمة العسكرية ، ولا في دفع الضرائب ، فإنهم كانوا متطوعين ممتازين ، ومخلصين وشجعان .

ولقد تمكن محمد الثاني من القضاء على الدولتين اللتين كان أخوياً لإمبراطور بينرطة يحكماهما في بلاد اليونان ؛ ودخلت اليونان كلها . في طاعة الدولة العثمانية ، فيما عدا بعض المواقع التي احتفظ بها البنادقة . كما قامت قوات محمد الثاني بغزو إمبراطورية طرابزون ، في آسيا الصغرى ، برأ وبحراً ، سنة ١٤٦١ . وتدخلت قوات العثمانيين في قبرانيا سنة ١٤٦٢ ، وأنهت استقلالها الذاتي ، وقضت بذلك على البقية الباقية من دولة السلاجقة . ويزاد عدد الحملات البحرية في عهد محمد الثاني ،

وكانت لها نتائج هامة تتمثل في السيطرة على الكثير من الجزر، وبخاصة تلك التي تقع بالقرب من سواحل آسيا الصغرى. ونشبت الحرب بين العثمانيين وجمهورية البنادقة، ولكنها انتهت بالصلح بينهما سنة ١٤٧٩، واحتفظت البندقية بمراكزها في ألبانيا وفي المورة، واستمرت إمتيازاتها التجارية وحققها في تعيين قنصل في القسطنطينية، ولكنها وافقت على دفع جزية سنوية تبلغ ١٠٠٠٠ ر. ١٠ دوق. وفي العام التالي قام الأسطول العثماني بالإستيلاء على أوترانت، في جنوب إيطاليا، وحاول الاستيلاء على جزيرة رودس، ولكنه لم يتمكن من ذلك.

وتوفي محمد الفاتح سنة ١٤٨١، ويشتمل تاريخه على فتح القسطنطينية، وتدعيم الحكم العثماني بشكل نهائي في أوروبا، وأعطى لممتلكاته حدودها الطبيعية مع الدانوب والساف، وفيما عدا بعض النقط التي احتفظت بها البندقية في ألبانيا وبلاد اليونان، فإنه أخضع كل الأقاليم الواقعة داخل هذه الحدود لسلطته، وأكد، فيما وراء ذلك، السيادة العثمانية على إمارات الأفلاق والبغدان، وفرضها على خانات القرم. وإذا كان بعض خلفائه سيثومون بمد هذه الحدود إلى ما وراء ذلك، وإلى البحر، فإن هذه الغزوات ستكون مؤقتة. أما غزوات محمد الفاتح فإنها ستظل حتى بداية القرن التاسع عشر، وحتى إلى سنة ١٨٧٨. أما في آسيا الصغرى فإنه سيضم طرابزون ويخضع قرمانياً بشكل نهائي.

ومع كل هذه الحروب، وجد محمد الثاني وقتاً لتنظيم وإدارة إمبراطوريته، وحول السلطنة من مجرد قيادة لجيش آسيوى وغازى إلى رئاسة دولة لها أهميتها.

٥ - بايزيد الثانى :

كان بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢)، هو الابن الأكبر لمحمد الفاتح، وخليفته في السلطنة، وكان هادئ الطبع ومتواضع، وكان شاعراً وكاتباً ومحباً للفنون والعلوم وكان قد وصل إلى السلطنة في سن نضج، إذا كان عمره خمسة وثلاثين عاماً، وكان قد تمرن أثناء سلطنة والده. ولفترة سنوات طويلة، على حكم وإدارة بعض الأقاليم. وكان ذرقه وطبيعته وميوله تبشر بعهد من السلم، ولكن الظروف أجبرته

على الدخول في صراعات مختلفة مع جيرانه ، كما أن طموح أخوته وأفراد أسرته أجبره على التدخل ضدهم . وفي الختام ، فإن حكمه الطويل ، والذي بلغ إحدى وثلاثين عاماً ، لم يترك الإمبراطورية العثمانية وقد فقدت . أوزادت ، إقليمياً من أقاليمها .

وقد بدأ حكمه بأن حاول أخوه جم الوصول إلى السلطة ، بمساعدة محمد القرمانى ، الصدر الأعظم ، الذى أخفى خبر وفاة السلطان محمد لعدة أيام ، حتى يتمكن الأمير جم ، والذي كان فى ذلك الوقت حاكماً على إقليم قرمانيا ، من الاستيلاء على السلطة ، وذلك فى نفس الوقت الذى حاول فيه منح بايزيد من الوصول إلى أستانبول ولكن الانكشارية أعلنت تمردها ، وقتلت الصدر الأعظم ، وتمكن بايزيد من الوصول إلى أستانبول وارتقاء العرش .

ولكن جم لم يتنازل عن إدعاءاته . فجمع القوات وهاجم بها بروسة وإستولى عليها ؛ ولكنه لم يهزم بعد ذلك قرب نينى شهر ، وإضطرت إلى الفرار إلى سوريا ، التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت لسلطنة المماليك فى مصر ؛ ثم ذهب منها إلى مصر . حيث أحسن السلطان المملوكى وفادته . وفى العام التالى (١٤٨٢) لى جم نداء عدد من العناصر المناوئة لأنبيه السلطان العثمانى ، وتقدم حتى قونية ؛ ولكنه هزم من جديد ، ورفض عروض الصلح التى عرضها عليه بايزيد ، وفضل العيش فى المنفى ؛ عند السيد الأعظم بجماعة فرسان رودس ، وكان يأمل فى أن يحصل على معونته وتأييده لغزو الأقاليم البلقانية للإمبراطورية العثمانية . وبعد أن أحسنوا إستقباله ، عمل فرسان رودس على التقرب من الدولة العثمانية ، محاولين عقد الصلح معها ، وتعهدوا بالإحتفاظ بالأمير جم ، وبإبعاده عن الدولة العثمانية . ونقل بعد ذلك إلى فرنسا ، حيث ظل أسيراً مدة سبع سنوات ، فى السكنايس الخاصة بجماعة الفرسان ، ثم نقل إلى روما ، وبعد ذلك أخذته قوات شارل الثامن معها إلى نابولى ، حيث توفى سنة ١٤٩٥ .

وعمل بايزيد الثاني ، منذ أول حكمه ، على تجديد المعاهدات مع البندقية وراجوزه . ثم عقد بعد بضع سنوات هدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات . وسمح ذلك لبايزيد بالهجوم على البغدان . وتمكنت القوات العثمانية من الإستيلاء على كييليا ، الواقعة على مصب الدانوب ، ثم تعاونت مع خان القرم ، وتمكنت من الإستيلاء على آكرمان سنة ١٤٨٤ . ولم تتقدم القوات العثمانية إلى أبعد من ذلك ، بل احتفظت بهذين الموقعين ، اللذين يضممان سلامة الإتصال بين تركيا وبلاد التتار ؛ واللذان سيصبحان نقطة إنطلاق فيما بعد لهجمات عثمانية في البغدان ، وحتى في بولندا .

وفي نفس الوقت الذي عملت فيه الدول المسيحية في إيطاليا على الدخول في علاقات ودية مع السلطان العثماني ، وجه مسلبو الأندلس ، وهم تحت ضغط فرديناند الكاثوليكي ، والذي كان قد وحد تاجي قشتالة وأراجونا ، نداء للحصول على معونته للمسلمين ضد المسيحيين . وأمر بايزيد بإعداد أسطول للذهاب ومهاجمة سواحل إسبانيا ، وإن كان هذا الإجراء لم يعط نتيجة فعالة .

وكانت أحداثاً أخرى قد اجتذبت أنظار السلطان العثماني إلى منطقة أشرى ، وشغلته بها ، بطريق مباشر . ذلك أن السلطان المملوكي في مصر لم يكن قد اكتفى بإعطاء حق اللجوء للأمير جيم ، بل كان قد سمح لقواته بأن تحتل في منطقة قليقيا ، بعض المدن والأراضي التي كانت خاضعة لإحدى الإمارات التركمانية ، والتي كانت تحت حماية السلطان العثماني . فأرسل بايزيد حملة صوب فيليقيا وسوريا ، ولكن حملتين متتاليتين في عامي ١٤٨٩ و ١٤٩٠ كانتا في غير صالح العثمانيين . وشرر السلطان بايزيد أن يقوم بنفسه بقيادة حملة جديدة ؛ ولكن أمير تونس تدخل في الأمر ، وتم عقد الصلح بينه وبين سلطنة المماليك .

وعند موت ملك المجر سنة ١٤٩٢ ، حاول بايزيد أن يفيد من الموقف ، ويحتل بلجراد ، التي كانت في أيدي المجر . ولكن هذه المحاولة فشلت ، دون أن

تثبط من عزيمة العثمانيين على مواصلة الهجمات شمال نهر الدانوب . وبخاصة في بلاد
السكروات . وكانت هذه الهجمات ، من جانب العثمانيين ، مثلها في ذلك مثل هجمات
البحر المضادة ، تتميز بالقسوة والوحشية ، وسهولة إستخدام القتل ، والبطر ،
والحرق حياً . ورغم أن بايزيد كان يرغب في المعيشة في سلام مع جيرانه ، فإنما
يُجد أن كبار قادته ، في بعض الأحيان ، هم الذين كانوا يعملون على تغيير الموقف ؛
ف رغم المعاهدة المعقودة مع بولندا ، قام بالي بك ، حاكم سليستريا ، بعبور
الدانوب ، وعبر البغدان بالاتفاق مع أميرها ؛ وهاجم الأقاليم البولندية القريبة
من الحدود ، وخربها ؛ وإن كان يحمي الشتاء قد أجبره على الإنسحاب .

وكان حظ العثمانيين أحسن من ذلك مع البندقية ، التي إنهزم أسطولها قرب
ليبانتو ، في ٢٨ يوليو سنة ١٤٩٩ ؛ الأمر الذي سمح لهم بإحتلال ليبانتو ، والقيام
في العام التالي بإحتلال مودون ونوارين وقورون . كما أن هجمات مجموعات
« وعصابات » العثمانيين في الشمال الغربي للبلقان إستمرت ، وبشكل سمح لها بدخول
إيطاليا وعبور تاليامينتو ؛ والوصول حتى البندقية ، وستظل لهذه الهجمات صفة
العصابات لفترة من الوقت ، قبل أن يتقرر قيام قوات عسكرية بها ، فيما بعد ،
وللقيام بغزوات في بلاد البحر ، تصل حتى أسوار فيينا .

و كرد فعل على إستيلاء العثمانيين على بعض مواقع البندقية في المورة ؛ قام
البابا إسكندر السادس ، وبطلب من البندقية ، بتكوين حلف ضد الدولة العثمانية ،
و ضم إليه في سنة ١٥٠١ ، كل من فرنسا وإسبانيا . وقام الأسطول الأسباني ،
بقيادة القبودان الأعظم جونز النى القرطبي ، بتخريب سواحل آسيا الصغرى . بينما
حاصرت السفن الفرنسية هتيلين ، و وصل فيه أسطول البابوية إلى الدردنيل .
ولكن هذه العمليات لم يذبح عنها سوى إحتلال عدد من الجزر الصغيرة . وتم عقد
الصلح في العام التالي مع البندقية ، التي أصبح من حقها إرسال قنصل لها إلى إستانبول
كما شهد نفس العام (١٥٠٢) عقد الصلح كذلك مع البحر .

وفيهما عدا المناطق المجاورة ، عملت الدولة العثمانية على الدخول في علاقات مع الدول ، الأكثر بعداً ؛ مثل للبايا ، وفورنسا ، ونابولي ، والإمبراطورية المقدسة ، التي حاولت الوصول إلى صداقتها ، والاستعانة بها في مشكلاتها . وترى لأول مرة في التاريخ ، أن العثمانيين يتصلون بالروس في ذلك الوقت ، عن طريق ، خان القرم ؛ وحضر سفراء روس إلى أستانبول سنة ١٤٩٥ وسنة ١٤٩٩ ، طالبين إعطائهم تسهيلات لتجارهم .

وكان بايزيد قد رغب ، قبل ذلك ، في عقد روابط قربي ، مع جارية المسلمين الكيريين ، فزوج إحدى بناته لوريك عرش فارس ، ووافق على زواج بنت أخيه ، الأمير بجم ، بسليطان مصر المملوكي . ولاشك في أن ذلك كان يمثل حلماً ، بالوصول إلى عقد روابط صداقة وقربي مع جيرانه المسلمين الأقوياء . وكان من السهل علينا أن نتوقع أن السنوات التالية ستكون سنوات سلم ووثام مع جيرانه ، في أوروبا ، وفي المشرق ؛ ولكن حكمه الذي بدأ بالصراع ضد أخوته ، سينتهي بالصراع ضد أبنائه ، الذين سيعلمون الثورة ضده .

وكان بايزيد قد عهد إلى أبنائه بحكم بعض أقاليم الدولة ، في آسيا ، الأمر الذي سيسهل قيامهم بالثورات ضده . وكان سليم ، أصغر أبنائه . قد عرف كيف يكسب رد الانكشارية . بينما كان كركود ، أخوه الأكبر ، يميل إلى الشعر والفلسفة ، ويحب الفنون أكثر من حبه للحرب ، ورجال الحرب . وعمل بايزيد نفسه على إبعاد كركود عن وراثة السلطنة ، والعهود بها إلى ابنه الثاني ، أحمد ، الذي كان يحظى كذلك بتأييد الصيبر الأعظم ، عالي باشا . ولكن الخصومات الناشئة بين كركود وأحمد كانت في صالح الابن الثالث ، سليم ، الذي أعلن الثورة ضد والده أكثر من مرة ، وأخذ في الزحف على أدرنة . وأخيراً قام الانكشارية بالتمرد ؛ في الوقت الذي شبت فيه الثورة في إستانبول ، وبشكل أجبر بايزيد ؛ الذي كان شيخاً ، مسناً ومريضاً ، على التنازل عن السلطنة ، في

٢٥ أبريل سنة ١٥١٢ ، لإبنه سليم . وسافر السلطان المنتحى إلى مسقط رأسه ، ولكنه توفى في الطريق ، في ٢٦ يونيو سنة ١٥١٢ . وهكذا فشل بايزيد في تحقيق فترة حكم سلمية ، كان يأمل فيها ؛ كما أن حملاته الحربية لم تقدم للسلطنة غزوات جديدة ، ولا إنتصارات ثابتة . ولكنه نجح مع ذلك في زيادة حجم علاقات السلطنة مع الدول الأخرى . أما في الداخل ، فإنه إهتم بالأدباء والشعراء ؛ وبني مساجد عديدة ، ومن أهمها مسجده الذي يحمل إسمه ، والذي يقع على أكثر أماكن إستانبول ارتفاعاً ، قرب سيراس قيراط ، بامعة إستانبول الحالية ؛ كما بنى الكثير من المدارس ، والمباني ، والقناطر والجسور .

وعلينا أن نذكر أن بايزيد الثاني قد حكم بعد والده ، محمد الفاتح ، الذي إستولى على القسطنطينية ، وكان بذلك من الرجال الذين وضعوا نقطاً مميزة على تاريخ العالم . . ويمكننا أن نعتبر حكمة تدعيماً حضارياً ، وسياسياً وإستراتيجياً لما وصل إليه محمد الفاتح . كما أنه حكم قبل سليم الثاني ، إبنه ، فاتح الشام ومصر ، والذي مد أيديه إلى رجال الجهاد على كل السواحل الإسلامية ، وحتى مضيق جبل طارق . فكان عصره فترة لتدعيم إنتصار ساحق ، والاستعداد لتكتمل الأقاليم العربية والإسلامية ، في شكل جديد وفريد ، لم يشهده التاريخ من قبل . وأخيراً فعلينا ألا ننسى أن فترة حكمه هي التي شهدت وصول البرتغاليين إلى مياه الهند ، وعجز سلطنة المماليك ، رغم توافق مصالحها مع مصالح تجار إيطاليا ، في البندقية وجنوا ، عن الوقوف في وجهها .

إنها صفحة جديدة من تاريخ العالم ، مع فجر التاريخ الحديث ، ولنتقل إلى إيطاليا ، ليرى مظاهر النهضة ، كتمهيد للكشوف الجغرافية في بداية التاريخ الحديث .

الباب الرابع

النهضة الأوربية

الفصل العاشر

ظهور النهضة في إيطاليا

تجمعت بعض الأسباب، الجغرافية، والإقتصادية، والسياسية والاهنوية، لكي تجعل النهضة الأوروبية تظهر في إيطاليا قبل غيرها من الأقاليم الأوروبية، وأخذ هذا التحول وقتاً لكي يظهر مثل غيره من التغيرات العالمية، وبشكل يميزها عما سبقها تاريخياً من المظاهر. وكانت للنهضة الإيطالية خصائصها، كما كانت لها مظاهرها. وإنعكس كل ذلك في حركة إحياء الدراسات القديمة، ووضوح في ظهور اللغات الحديثة، الأمر الذي إمتد إلى خارج حدود إيطاليا، وإلى أقاليم أخرى كانت تتمسك حتى ذلك الوقت بإعتبار اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية للعالم الغربي. ولقد إنعكس كل ذلك، في روجه والرغبة في التجديد، على الفنون الجميلة، من تصوير ونحت وعمارة. وبدأت حركة النهضة من إيطاليا، لكي تنتشر في بقية أنحاء العالم الغربي. وإذا كان منار النهضة قد سخبا نوره في إيطاليا، وربما قبل غيرها من أقاليم غرب أوروبا، فإن هذه الحركة قد إستمرت، كحركة تطور إنساني، لها جذور إجتماعية وإقتصادية ومعنوية، في بقية أنحاء أوروبا، وتكاثفت عواملها مع عوامل جديدة لكي تظهر في شكل الكشوف الجغرافية، والاصلاح الديني، وتفوق أوروبا وسيطرتها على العالم.

١ - خصائص النهضة ومظاهرها:

علينا أن نحدد أن النهضة الإيطالية لم تظهر فجأه، وبشكل واضح في إيطاليا. إذ إنها، كحركة من حركات تطور الانسانية، أخذت في النمو، والتبلور، عبر سنوات طويلة، وفي تفاعل مع عوامل ومتغيرات عديدة، قبل أن تظهر،

كظاهرة عامة لها خصائصها وميزاتها ، وبشكل واضح ، يدل على حدوث تغير في حياة البشر ، بشكل متميز عن حياتهم السابقة ، ويبشر بسيرهم في خط حياة جديد ، يختلف عن خط حياتهم السابق .

وهناك من ينظر إلى النهضة على أنها عصر قائم بذاته ، وعصر خطير في التاريخ الأوربي ، وتاريخ العالم ؛ وعلى أنه قد ختم العصور الوسطى ، وقضى على الكثير من القيود التي كانت موجودة من قبل : فهو عصر ظهور الفرد ، وعصر الأدب ، وعصر الفن ؛ وهو عصر التحول ، والهدم والبناء ، وعصر المخاطرة والكشف الجغرافية والعلمية ، وعصر العلم الجديد ، عصر التهمك والضحك والمرح ، وعصر ثقافة القوانين والتقاليد الاخلاقية ؛ وعصر الغدر والخيانة ، وعصر السياسة الصاخبة ومجد الأمراء والنبلاء والعظماء من الرجال . وبهذا الشكل يكون عصر النهضة هو عصر التغيرات الكبيرة التي أصابت المجتمع الأوربي في الفترة الواقعة بين العصور الوسطى والعصر الحديث ، أي فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر . وهذه التغيرات تتمثل في ضعف الامبراطورية الرومانية ، وفي ضعف البابوية وسلطة البابا ؛ وهما السلطانان اللتان سيطرتا على العالم الأوربي أثناء العصور الوسطى ؛ وحل محلها نمو الدول الأوربية الحديثة ، التي أصبحت لكل منها كيان سياسي مستقل وواضح ، وقائم على أسس جغرافية وإقتصادية وبشرية . وتتمثل كذلك في ظهور الكنائس الاقليمية المستقلة عن سلطة البابا ، وظهور مذاهب دينية جديدة ، لا تخضع للبابوية ، ولا للكاثوليكية . كما تتمثل في نشأة الآداب الوطنية الجديدة في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ، مستقلة عن الأدب اللاتيني القديم ، الذي ساد خلال العصور الوسطى . وتتمثل في ضعف سلطة الأمراء والسادة الاقطاعيين ، وإزدياد نمو أرباب الصناعات ، ونمو رجال الطبقة الوسطى . كما تتمثل في ظهور وسائل العمل الجديدة ، مثل البوصلة والاسطرلاب ، وإستخدام الدفة المتحركة ، الأمر الذي سهل الملاحة ، وساعد

على كشف الطرق التجارية الجديدة ؛ وكذلك لإختراع الطباعة الذى سهل أمر إنتشار العلوم والآداب بين عدد كبير من الناس ؛ وإكتشاف كوبرنيكوس أن الأرض غير ثابتة ، وأنها تتحرك حول نفسها ، وحول الشمس . وبهذا الشكل يكون عصر النهضة هو ثمرة الانسانية كلها . التى أسهمت فيها شعوب قديمة وحديثة ، وهو ذلك العطاء الحضارى الانسانى، الذى يعتمد على تحرر النفس البشرية ، وإنتلاقها من القيود ؛ وهو عصر يمكن تشبيهه بالمرجل . وبالحمى التى أصابت البشرية ، نلاحظ أثاره فى تلك الدماء الحارة التى جرت فى عروق الناس ، وحركتهم ، وجعلتهم يتأثرون بهذه التيارات ، التى تكاملت مع بعضها ، وخرجت منها طريقة الحياة الجديدة ، وفى كل مناحى الحياة . وهذا التفسير والتشبيه الماعنوى صادق وأمين فى حد ذاته ، وإن كان يحتاج إلى تعمق فى البظر إلى القوى العميقة ، التى أدت إلى اخراج هذا التغيير فى حياة الناس ، فوق الأرض .

وهناك من ينظر إلى النهضة على أنها حركة ، وهذه نظره أضيق ؛ فيعتبر أنها حركة إحياء الدراسات القديمة ، وظهور الفكر العقلانى ؛ وبهذا المعنى تكون النهضة قد ظهرت فى إيطاليا قبل غيرها ، ثم إنتقلت منها إلى بلاد أخرى فى العالم . وعلينا أن نعترف بأن إحياء التراث القديم ؛ الرومانى واليونانى ، يدل على بعض قطاعات النهضة ، وإن كان لا يشمأها جميعاً . وكذلك نجد أن رجال الفن يعتبرون ، من ناحيتهم ، أن النهضة عبارة عن ظهور الفن الجديد ، بعد أن تخلص الفنانون من قيود العصور الوسطى ، وأخذوا يستمدون فهم من عناصر الحياة الواقعية ، ومن روح الدين المسيحى ، وقصص وأساطير العصور الوسطى ، ومن قصص ارومان واليونان القديمة ، واستوحوا من هذا المزيج وحيأ لفنهم وأنتجوا من ذلك فناً رائعاً .

ولا شك فى أن تطور حياة الناس من العصور اوسطى إلى العصور الحديثة كان يرجع إلى تغيرات عميقة اقتصادية ، واجتماعية ، ومرتبطة بوسائل الإنتاج

والتبادل ، وفي علاقه مع نظام الحكم ، كما شرحنا في الفصول السابقة ، وهو الأمر الذى أدى إلى تغير طريقة حياة الناس ، وطريقة تفكيرهم ، وابداعهم .

وكان أهالى العصور الوسطى ينظرون للحياة نظرة غير عملية ، وأعوزهم فهم الحياة فهماً صحيحاً ، كما أعوزتهم القدرة على التمتع بالحياة ، فكانوا يأخذون الأمور قضايا مسلم بها ، ويخضعون للأساطير والأوهام ، ويعتقدون فيها ؛ ونظروا إلى الحياة الدنيا على أنها فترة مؤقتة زائلة ، وإلى التمتع بالجمال على أنه لثم وخطيئة ، سواء أكان ذلك تمتع بجمال الطبيعة ، أو تقدير لجمال أجزاء الجسم وتفصيلاته ؛ وكانت العلوم دنيوية ، وتعلق بالعبقيد والحياة الأخرى ، وفي ظل الكنيسة ، الأمر الذى دفع الناس إلى الاكتفاء بما يسد الرق ، دون طلب المزيد .

وسيطرت الكنيسة على حياة البشر ، سيطرة تامة ، حتى أصبح رجال الكنيسة حائلا بين الخائف والمخلوق . وكان لنزول الكنيسة إلى ميدان الحكم الزمنى وبحاوتها السيطرة على الامبراطورية ، وانشائها لنظام حكم واداة حكم تشبه تلك الموجودة لدى الملوك والأمراء ، وعلمها على السيطرة على دول مثل فلورنسا وجنوا ، والتوسع فيها ، ودخول البوابات نطاق الحياة السياسية ، واستئثارهم جنوداً من المرتزقة ، وانشائهم للأساطيل البحرية ، كان لكل ذلك أثر يمتثل ، علاوة على الصراع مع الحكومات الزمنية ، فى ضعف البابوية نفسها ، بعد أن نزلت إلى ميدان ليس ميدانها ؛ وعرقلت بالتالى التطور الطبيعى لعباد الله الصالحين ، ولفترة من الوقت .

وفشلت البابوية فى السيطرة على ايطاليا ، دنيوياً ؛ وضعف نفوذها الدينى ، خاصة وأن بعض البوابات أصبحت حياتهم دنيوية ، وتزوجوا ، وخالفوا قواعد الدين ، وجأروا بالكثير من شئون هذه الحياة الأئمة ، مع قبولهم للرشاوى وإختلاس الأموال ، والاشتراك فى المؤامرات ، وإرتكاب الأوزار كالقتل وبيع صكوك الغفران ومناصب الكرادلة ، الأمر الذى أدى إلى ضعف البابوية ، وهبوط نفوذها وسيطرتها . ومع زيادة تعنت الكنيسة ، مع ضعفها المتزايد ، ستكون أداة

يمارس فيها أنصار التحرر قوتهم بعد أن إستندوا إلى أسس قوية من المحال والاقتصاد، والانتاج والتجارة الثروة، والرغبة في الحياة، وفي الحرية، التي هي صفة لازمة من صفات الرأسمالية الناشئة والنامية في ذلك الوقت .

ونتيجة للتحرر الاقتصادي، وبداية التحرر الاجتماعي، ستكون الحرية، بكل صورها، من خصائص ومظاهر النهضة الأوروبية .

وأخذ محرر النفوس يظهر في النطاق الديني . وبعد أن كان نفوذ الكنيسة قويا، ظهرت في لومباروديا جماعات من الأهمال أخذوا يتكلمون على الديانة المسيحية، وينادون بشرب الخمر، ويمجدون باكوس إله الخمر عند اليونانيين . كما ظهرت جماعة Weldani نسبة إلى Weldo، إنتقلت إلى إيطاليا ونشرت مبادئه، وناذت بالرجوع إلى نص الكتاب المقدس، والشورى على رجال الدين، وعلى أساس أنه يجب ألا تكون هناك وساطة بين الفرد والله، متمثلة في رجال الدين، وأن في وسع الفرد أن يتصل بمخالقه مباشرة . ولقد إنعكس ذلك، في شكل قلق وسخط، على فن التصوير، منذ القرن الثالث عشر، فكانت صور المسيح تظهر وهي تحمل دلائل السخط وعدم الرضاء، مما يدل على الحالة النفسية للفنانين أنفسهم، وظهرت شخصيات تنادى بالتحرر، أولها شخصية أيلار، الأستاذ بجامعة باريس، وهو الذي مجد العقل ودعا إلى إستخدامه، فلا ينبغي أن يعتقد الفرد في شيء قبل أن يفهمه، وحق الدين يجب تطبيق العقل عليه . وناذى بضرورة الحد من سلطة الكنيسة، وعدم وضع وساطة بين الفرد والخالق . وجاءت من بعده شخصية تليذده أن تولدو بريشيا Arnoldo Briscia الذي تشبع بالآراء الحرة، وإنتقل إلى إيطاليا، وهاجم السلطة الزمنية للكنيسة . ودعا إلى تحطيمها، مع إقتصار الكنيسة على الناحية الدينية . كما نادى بضرورة إعادة الجمهورية الرومانية، وتوحيد إيطاليا تحت سلطة روما، على نمط الجمهورية القديمة، وإن كان قد فشل وقتل، إلا أن أثار هذه الحركة ظلت في نفوس الأهالي، تدفعهم للتحرر من سلطة الكنيسة .

وكذلك ظهرت شخصية يواكيم دافلورا ، الذى تأثر بالثقافة التى سادت فى جنوب إيطاليا ، وهى ثقافة متنوعة الأصول ، متأثرة بثقافة اليونان والرومان والبيزنطيين والعرب والفرس ، وهذه الثقافة تخلق عقلية أقل تمسكاً بالدين ، والخضوع لسلطان الكنيسة ، وأقرب منها إلى الحرية ، ومن أهم الافكار التى نادى بها يواكيم هى فكرة الحرية ، وفهم الله على أنه الحرية وأن الله يحب الحق ، فلا بد أن يكون الانسان حراً . وفكر يواكيم فى الكنيسة وأحوالها وفسادها ؛ ولكن تشاؤمه كان مزوجاً بالتفاؤل ، وقال أن العالم ، بعد هذه الويلات ، سيدخل فى طور جديد ، ويقوده الرهبان المخلصون ، وتتسامى المسيحية والتصوف . ولاقت دعوته نجاحاً وإنتشاراً فى إيطاليا ، وأحس الناس أنه قد أضى حاجة فى نفوسهم . وكان قد دعا إلى التغيير ، وإن كان هذا التغيير لن يتم بالشكل الذى توقعه ، وبالرهبان ؛ ولن يكون قادة العصر الجديد هم الكهنة كما توقع .

وهناك شخصية القديس فرانشيسكو ، الذى نشأ فى أسرة غنية ، وفشل نتيجة رقة صحته فى أن يكون من رجال السيف ، فأدى به الأمر إلى الزهد فى الدنيا ، وإلى التصوف ؛ ولكنه لم يكن متشائماً ، بل مليئاً بالتفاؤل . ولقد نادى بالتمتع بالحياة ، وتمجيدها ، ودعا إلى التمتع بهذا الكون ، الوصول من ذلك إلى تمجيد الخالق فى مخلوقاته جميعاً . وكان ذلك تمهيداً للفكرة التى إنتشرت بعد ذلك عن تمجيد الطبيعة فى كل صورها . وكان ينظر إلى البشر جميعاً نظرة واحدة ، إذ إنهم إخوة فى الانسانية ، فليست هناك طبقات إجتماعية وكان يقدر للجرم واللص تلك الظروف التى أجرم أو سرق فيها . وكان معجباً بالطبيعة ، ويخاطب عناصرها ، متمثلة فى الشمس والنار والهواء ويعتبر أن الخالق موجود فى كل منها . وكان راهباً ، ولكنه تصرف وكأنه يرجع إلى روح الوثنية القديمة ؛ وكان مهتماً لروح الحركة الانسانية . وهناك كذلك شخصية الامبراطور فردريك الأكبر ، حفيد فردريك بربروسا ؛ وهو الذى ترك حكم أملاكه فيما وراء الراين فى يد أبنائه ، وإستقر

هو في جنوب إيطاليا ، ولقد عمل على القضاء على نفوذ الأمراء والبارونات ، وعلى تنمية إمكانياته الطبيعية والاقتصادية ، سيطر على النقابات والبلديات ، وعمل على إضعاف سلطة الكنيسة ؛ فاعتبر نفسه حامى الكنيسة ، متأثراً في ذلك بدين الاسلام، الذي أعطى للخليفة السلطتين الزمنية والروحية . ولقد قام فرديريك بحرب صليبية في الشرق ، في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكانت حرباً صليبية سلبية ، وإتفتت مع الملك الكامل ، سلطان مصر ، على معاهدة صلح وسلام ، في حلف ضد أعدائها ، حتى من مسيحي الشرق . وأخذ فرديريك بيت المقدس ، وأعجب بعادات وأخلاق الشرق ، وظهر أنه بعيد عن التصعب وتعتبر سنة ١٢٢٩ نقطة تحول جوهرى في العلاقات بين الشرق والغرب ، أو بين الهلال والصليب ؛ إذ أنها تدل على أن العقل الانسانى قد نفض عن نفسه فكرة العداة التقليدية بين الهلال والصليب ، وأنه من الممكن التفاهم بالطرق الودية ، وطبقاً للمصالح الموجودة . ولقد إحترم فرديريك وفود الأديان الأخرى ، وأصبح لكل من الديانات الاسلامية واليهودية والمسيحية مكاناً محترماً في بلاطه ؛ وكان يجتمع كثير آ بمفكرى وعلماء المسلمين ، ويكاتبهم ؛ وإتصل بتلاميذ إبن رشد ، الذين كانوا يرون أن الاسلام يدعو إلى الفكر الحر ، والاناقةشة ؛ وعدم أخذ أى شىء لإبعد ثبوته وأن للعقل المكان الأول في حياة البشر؛ وأن ما يروى عن المعجزات فجدير بالعامه . ولقد إهتم فرديريك بالحركة العلمية ، فأنشأ جامعة نابلى ، وكلية للطب في بالرمو ، وقام بتجارب عملية ، وإشترك في بعضها ، في تشريح الجسم الانسانى . وكان بلاطه غاصاً بالمهندسين المهارين المسلمين ، فأقيمت مباني وكنائس متأثرة بالطراز العربى ، بها كتابات عربية وكوفية في بعض الأحيان . وزاد الأمر حتى أنه أعلن أنه لا يعقل أن يكون الله في نظر المسيحيين هو المتجسد في جسم معين ، ولا يعقل أن الله قد ولدته امرأة عذراء ، وأعلن بذلك ثورة خطيرة على المسيحية . ولقد عبر فرديريك عن عصره ، أو عن فمكر الرجال الأحرار في

تلك المنطقة في ذلك العصر . ولذلك فإنه يمكن أن نقول بأن فردريك كان أول رجل يمثل العصر الحديث ، ويمثل روح النهضة .
ومن هذا نرى أن حركة النهضة جاءت من خارج الكنيسة ؛ وكانت علمانية ، وحاربت زيادة سلطة الكنيسة ؛ وكانت عقلانية ، ورفضت وجود الكنيسة كواسطة بين الفرد والخالق . ولقد عملت هذه الحركة بالتالى على إضعاف الكنيسة ، وساعدت على إستمرار التغير الاجتماعى والفكرى . ولقد إعتمدت حركة النهضة على سكان المدن ، ورجال المهن والتجارة ، والذين تزايدت الثروات فى أيديهم ، والأموال فى أكياسها لديهم أو فى المصارف . وهم رجال الطبقة الوسطى ، أو الطبقة البورجوازية ، التى ستزيد أهميتها . وبإستمرار ، فى الوقت الذى تقل فيه أهمية النبلاء والسادة الإقطاعيين . ولذلك فإن هذه المدن هى التى ستكون مراكز الإشعاع الفكرى والعلمى والفنى ، فى كل غزب أوروبا . وكما رأس المال يندشد الحرية فى تعامله ، فإن صاحب رأس المال لا يمكنه أن يتعامل إلا طبقاً لمصلحه ، وفى حرية ، وليس طبقاً لمقيدة معينة ، خاصة إذا ما شعر أن وضعية الكنيسة تؤثر على مصلحه ، وتفرض عليه التزامات لا يقرها العقل . ولذلك فإنهم حاربوا من أجل حرية الرأى ، وحرية الشخصية ، وحرية التعامل ؛ وعموا بذلك على تحطيم القيود التى كانت سائدة طوال العصور الوسطى . وظهرت هذه الحركة بمظاهرها المختلفة ، وأول ما ظهرت ، فى إيطاليا .

٢ - أسباب ظهور النهضة فى إيطاليا :

كان لظهور النهضة فى إيطاليا ، قبل غيرها من الأقاليم الأوروبية ، أسباباً عديدة ، ترجع فى أولها إلى أسباب جغرافية ، بحكم الموقع ، تلتها أسباب إقتصادية ، ثم إجتماعية ، وسياسية ومعنوية .

وكان الموقع الجغرافى لإيطاليا ، فى غاية الأهمية ؛ نتيجة لوقوعها فى وسط البحر المتوسط ؛ وهو البحر الذى قامت على ضفافه أقدم الحضارات ، والذى كان

مركز التبادل بين العالم القديم ، قبل إكتشاف العالم الجديد . وكانت المدن الايطالية هي مراكز الإتصال بين بلاد أوروبا ، والبلاد المطلة على الحوضين ، الشرقى والغربى لهذا البحر .

ونعرف أن الحضارة الاسلامية كانت مزدهرة أثناء العصور الوسطى ، وأنها أسست بنصيب وافرى في ميادين العلوم والفكر والإنشاءات والطب والفلك وعلوم البحر . وكانت مراكز الحضارة الاسلامية موجودة في كل مكان ، وكان أقربها إلى أوروبا يتمثل في جامعات الأندلس في الغرب ، وصقلية وتونس ، في الوسط ، ومصر والشام ، في شرق البحر المتوسط . وكانت هذه المراكز المتقدمة للحضارة الاسلامية تحيط بإيطاليا من كل إتجاه ، ويمكن لأهالى ثغورها الوصول إليها بالسفن وكانت تعتبر معابرا ونقط لإتصال علمى وحضارى ، بين الشرق والغرب ؛ وجاء الكثير من طلبة العلم من الغرب إلى هذه المراكز يدرسون ويتعلمون ويقتبسون ويفكرون ، الأمر الذى ساعد على إزدياد أهمية الموانى ، علاوة على أهميتها العسكرية ، فى الحروب الصليبية ، وأهميتها الاقتصادية فى التعامل فى التجارة بين الشرق والغرب .

وكانت إيطاليا ، بفضل موقعها ، أقرب من غيرها إلى بيننطة ، تلك العاصمة العالمية القديمة . وكان الكثير من علماء بيننطة يحضرون لإيطاليا كأساتذة ، أو يحضرون إليها كهاجرين ؛ كما كان بعض أبناء إيطاليا يذهب إلى بيننطة لطلب العلم . ولا شك فى أن موقع إيطاليا الجغرافى ساعد على هذه الحركة بين العلماء وطلاب العلم ، وأعطى لإيطاليا ميزة منطقة الإلتقاء بين المعارف والعلوم والفكر ، من كل مكان . أما من الناحية الاقتصادية فنجد أن المدن والموانى الايطالية ، مثل جنوا وفلورنسا والبندقية ، قد إشتغلت بالتجارة ، والنقل ، منذ العصور الوسطى ، والحروب الصليبية ، مع موانى شرق وغرب البحر المتوسط ، ووصل نشاطها التجارى إلى البحر الأسود ، وتعاونت مع موانى مصر والشام ، فى نقل التجارة

العالمية التي كانت تصل إليها من الشرق الأقصى ، إلى بقية بلاد أوروبا . ولقد ساعد ذلك على زيادة الثروة لدى أبناء المدن الإيطالية ، وبشكل ساعد على إنتشار العملة ، وظهور المصارف ، والشركات ، وعمليات التأمين ، أى ساعد على إزدهار النظام الرأسمالي ، ورغبته في الحصول على حرية عملة ، وحرية حركته ، حتى في تعامله مع الأعداء ، ورغم مراسيم البابوية ، وتوجيهات أمراء الإقطاع وأوامرهم . واستعمل أرستقراطية المدن في نخط يختلف تماماً عن أمراء الكنيسة والإقطاع . وسيكون هذا التحول الإقتصادي ، الذي يتمثل في ضعف الكنيسة والإقطاع من ناحية ، وإزدياد أهمية الرأسمالية المتاجرة من ناحية أخرى ، سبباً في قلب الموازين السابقة ، وبشكل يعلن ميلاد عهد جديد ، لإبتداء من التجارة ، ومن الموانئ ، وفي إيطاليا ، لكي يمتد تأثيره بعد ذلك إلى كل أوروبا ، من غربها ، إلى شرقها .

وأما من الناحية الاجتماعية فلا يمكننا تناسي أهمية طريقة حياة التاجر ؛ ذلك أن الأرباح كانت تتضاعف أمامه مع سرعة دورة رأس المال . وكان يحقق ربحاً كلما عمل على تحويل مادة أولية إلى سلعة ، أو كلما باع سلعته ، مهما كان وقت البيع قصيراً ؛ وذلك بعكس الفلاح الذي كان عليه أن ينتظر نضج المحصول ، وسلامته من الأوبئة والسكريات الطبيعية ، ويصلى لله أن يرزقه حتى يتم نضج المحصول بعد ستة أشهر ، لكي يقسمه مع السيد الإقطاعي . وكان الفلاح يعمل في أرضه من شروق الشمس لغروبها ؛ أما التاجر في المدينة فعمله أقل صعوبة ، ولديه من الوقت ما يسمح له بالتحدث والقراءة وحتى التنزه ؛ فزاد إهتمامه بحياته أكثر من الفلاح ؛ وكانت لديه في المدينة وسائل الراحة والمتعة والجمال .

وكانت طبيعة الاهالي في إيطاليا ، ومنذ أقدم العصور ، تحب الحياة والجمال والتمتع ؛ وإذا كانت الكنيسة قد فرضت عليهم نوعاً معيناً من السلوك والأخلاق خلال العصور الوسطى ، إلا أنها كانت مستعدة للعودة إلى طبيعتها المنطلقة ، مع

أول تغير للظروف . وكان الإيطاليون لا يحبون الحرب ، ويتركون هذه المهنة للمرتزقة ، من الألمان والسويسريين . ولقد ساعدتهم الرخاء الاقتصادي ، وتشجيع الأمراء ، مع جمال الطبيعة ، وشعورهم بمجد روما القديم وآثارها الحضارية ، على المشاركة في التذوق ، وفي الخلق والإبداع .

أما من الناحية السياسية والامتوية ، فكانت إيطاليا هي عهد الحضارة ، الرومانية وكانت مليئة بآثار هذه الحضارة وتراثها ؛ وكان الإيطاليون يشعرون بأنهم خلفاء الرومان ، الذين سيطروا على العالم ؛ وعادت أنظارهم إلى آثار الرومان ، تستوحى منها ، ثم انتقلت إلى آثار اليونان ، والتي كانت تتمثل في أقاليم لهم فيها نفوذ إقتصادي وسياسي ؛ ومن الآثار تعمقوا في التراث والمخطوطات لكل من الرومان واليونان في العصور القديمة ، وتأثروا بها ، وظهر تأثيرها على أدبهم وفنهم وفكرهم .

وساعد على ذلك تمتع إيطاليا بالسلام لفترة طويلة ، الأمر الذي أعطى للإيطاليين المناخ الذي يسمح لها بالدراسة والتذوق .

وتميزت بقيام حكومات مستنيرة في المدن ؛ وأخذت هذه المدن في منافسة بعضها ، تشجيع الآداب والفنون ؛ وحكمتها أسر قوية كانت أشهرها أسرة مديتشي في فلورنسا ، وأسرة فيمسكوتشي التي سيطرت على ميلانو ، وأسرة بورجيا التي حكمت أملاك البابوية . ورغم أن حكم هذه الأسر كان إستبدادياً ، إلا أنهم عملوا على تشجيع العلماء والأدباء والفنانين ؛ وكان بلاطهم مليئاً بكل من يذبح ويبدع ويذبح .

وكانت هي مقر البابوية ، وقبله العالم المسيحي الغربي ، الأمر الذي كان يشير إعتراف الإيطاليين بها . وكانت الكنيسة من القوى المضادة للتقدم ، وللتطور ؛ ولكن نزولها إلى ميدان السياسة العلمانية ، والتوسع الإقليمي كإمارة ودولة ، وصراعها مع الإمبراطورية ، أدى بالتالي إلى ضعفها ؛ وزاد من هذا الضعف

إنتشار الفساد فيها ، الأمر الذى سهل مهاجمتها . ولقد أثرت الكنيسة من مواردها المالية من كل أوروبا ، وأخذ بعض البابوات المستنيرين ينفقون على نشر العلم وإنشاء المكتبات وجمع المخطوطات وإقتناء الكتب وبناء الأكاديميات ، وجمع القطع الفنية ، والعمل على تجميل مدينة روما . وأخذوا ينافسون أمراء إيطاليا في رعاية العلوم والفنون والآداب ، وكان العلماء والفنانون يقصدونهم ؛ وإشتهروا في التاريخ بإسم بابوات النهضة ؛ ومن أشهرهم ليغولا الخامس الذى وضع أسس مكتبة الفاتيكان ، في منتصف القرن الخامس عشر ؛ كما أخذ البابا ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) في البدء في إنشاء كنيسة القديس بطرس .

٣ - إحياء الدراسات القديمة :

كان إحياء الدراسات القديمة ، أو إحياء التراث العالمى القديم ، من أهم مظاهر النهضة الأوربية وخصائصها . ولقد رأى البعض أن إتجاه الإيطاليين إلى منابع الحضارة القديمة ، اللاتينية والاغريقية ، وأخذهم عنها ، هو الذى عمل على تغيير العقلية الإيطالية والأوربية ؛ ولكن الواقع أن هذا التغيير كان قد وقع قبل ذلك ، وهو الذى عمل على توجيههم إلى إحياء الدراسات القديمة . ولقد كان التراث القديم معروفاً أثناء العصور الوسطى ، وحفظته الكنيسة ورجال الدين ، ومع ذلك فلم تشهد أوروبا خلال العصور ذلك الأدب أو الفكر الحر ، الذى وجد في مطلع التاريخ الحديث . ولا جدال في أن العقلية الأوربية قد تغيرت أولاً نتيجة لبدء الحركة العلمية ، ونتيجة لتغير طريقة حياة الناس ، التى إستندت بدورها إلى أسباب عميقة تتعلق بالانتاج وتبادل السلع ، وهذا هو الذى أدى بالتالى إلى الإفتناع بضرورة تغيير ما تعودوه ، وإتجاههم إلى التراث القديم .

وكان إحياء الدراسات القديمة يقوم على أسامين : الأول هو الأساس اللاتيفى ، والثانى هو الأساس اليونانى أو الاغريقى .

وكان العقل اللاتينى قد تميز بصفات مستمدة من ظروفه الخاصة وكان اللاتين

أو الرومان قد قضوا فترة كبيرة من تاريخهم في صراعات داخلية ، وصراعات خارجية ، حتى انتصروا ، وتكونت لهم عقلية خاصة ، منمتهم من الاشتغال بالكلام والمناقشة والشك ومحاولة التجديد ؛ وجعلتهم أميل إلى المحافظة على القديم ، وأكسبتهم صفات العزم والقوة وحب النظام الدقيق المحكم ، فكانوا صارمين ومحددين .

أما العقلية اليونانية القديمة ، فهي تمثل ذلك الشعب الصغير المبدع ، الفنان والخالق ؛ وقد تميزت بحب الجمال ، الذي أعتبر على أنه حاسة سادسة لديهم ؛ وحب الحرية ؛ فهم لا يرضون بالاستبداد ، حتى إذا جاء من عند الآلهة ، الأمر الذي دفعهم إلى الاعتقاد في أكثر من إله ؛ و تميزت بحب الصراحة والصدق ، وأخذ الأمور كما هي ، والنظر إلى الحب . في صورته المختلفة ، نظرة واقعية ؛ كما تميزت بالنزعة الانسانية ، ونظرتهم إلى الناس نظرة موضوعية ؛ و تميزت بتعدد الجوانب والميول والاهتمامات .

وسارت عملية إحياء التراث القديم على مرحلتين : الأولى لاتينية رومانية ؛ والثانية يونانية إغريقية .

أما المرحلة الأولى ، اللاتينية الرومانية ، فكان من الطبيعي البدء بها ، وبخاصة في إيطاليا ، وحيث كانت آثار الرومان ماثلة أمام الأهالي في كل مكان ، وحيث كانت اللغة المتعارف عليها بينهم هي اللاتينية ، رغم ما أصابها من ضعف في عصر بداية التاريخ الحديث . وجاء الاسر البابلي ، ووجود البابوات في أفينيون ؛ لكي يسمح بظهور حركات سياسية ، تطالب بإعادة إنشاء الجمهورية الرومانية القديمة ، كمثل أعلى تهفو إليه النفوس . وكم من خطبة ألقىت ، أشارت إلى الأجداد والآثار الخالدة ، والتي تدل على العظمة ، في كل مكان . وحتى إذا كانت هذه الحركات لم تنجح ، إلا أنها عادت إلى لغة شيشرون وقيصر ، وإلى فلسفة سنيكا . وأدى ذلك إلى أن يرجع للغة اللاتينية صفاتها القديمة ، وتمصّبها

بعض الكتاب ، مثل بترارك ، الذى أعتقد أن أحسن ما كتبه هو القصيدة المسماة « إفريقية » ، والى كتبها باللاتينية ، رغم أن كتاباته التى ستخلد هى التى كتبها بالإيطالية . وامتنع بترارك عن قراءة الكوميديا الإلهية ، التى كتبها دانتي ، حتى لا يتأثر بأساؤها . ولقد أظهر جميع الأدباء المعاصرين اهتماماً كبيراً باللغة اللاتينية ، وأشاد دانتي بفضلها ومقامها .

وفى هذا النطاق ، أهتمت الكثير من الأسر الإيطالية بتتبع أصولها التاريخية ، وافتخر دانتي بأنه من سلالة ترجع إلى عهد أغسطس ، وتسمى الناس بأسماء لاتينية ، وكتب بترارك رسائله باللاتينية إلى شخصيات العالم القديم . كما نشأت مدارس ، فى القرن الرابع عشر ، لتعليم اللغة اللاتينية الصافية ، والخالية من الألفاظ الغريبة . واتجه الإيطاليون إلى الآثار الرومانية القديمة ، وأحسوا بأنها رمز العظمة ؛ وعبر بعض الشعراء عن ذلك ، ووجد من البوابات من عفى بالدراسات الرومانية القديمة ، مثل بيو الثانى الذى تخصص فى الآثار القديمة ، وأصبح من كبار المتخصصين الشغوفين بتخصصهم ، وكان ينتقل بينها باحثاً ودارساً ، وأنفق الأغنياء أموالاً طائلة على إنشاء مباني على الطراز الرومانى القديم .

أما المرحلة الثانية ، فكانت هى اليونانية الاغريقية ؛ وكان من الطبيعى أن يودى الإهتمام بالدراسات اللاتينية الرومانية إلى الوصول إلى الإهتمام بالتراث اليونانى الاغريقى ، وهو التراث الأقدم . وإذا كانت دراسة اللغة اليونانية قد اضمحلت فى غرب أوروبا ، إلا إنها كانت موجودة فى بلاد اليونان وبنزلة . وكان من يرغب فى الدراسة يذهب إلى القسطنطينية ويتلمذ فيها على أساتذة التراث اليونانى القديم ، كما انتقل بعض الأساتذة من بنزلة إلى إيطاليا ، وكان البعض من بينهم يفضل البقاء فيها ، واستقر بعضهم فى فلورنسا فى أواخر القرن الرابع عشر . وكان بوكاشيو Bocaccio يمثل الفريق الأول ، الذى ذهب الى القسطنطينية ؛ وكان كرىزولوراس Chrysoloras يمثل الفريق الثانى . وكان

لمبراطور بيننطة قد أرسل كريسولوراس يطلب مساعدة الايطاليين ضد هجمات الأتراك العثمانيين على القسطنطينية . وعرفه علماء فايرنسا . واتصلوا به بعد عودته لبلاده وطلبوا منه العودة وتدريس اللغة اليونانية القديمة في مدينتهم ، فعاد وإستقر بها ، وانشأ فيها مدرسة خاصة لهذه الدراسات ، وصلت إشهاراتها إلى غيرها من المدن . وزاد مجيء العلماء والأساتذة من القسطنطينية إلى المدن الايطالية ، منذ أوائل القرن الخامس عشر ، وجاء سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين لكي يساغد على هجرة العلماء إلى إيطاليا ، الأمر الذي كان موجوداً من قبل ؛ وأدى ذلك إلى ازدهار الدراسات اليونانية القديمة في إيطاليا في ذلك الوقت .

ولقد نظر أهل العصر للتراث اليوناني نظرة جديدة ، تخالف نظرة أهل العصور الوسطى ؛ الذين كانوا قد نظروا إلى الفلسفة اليونانية نظرة دينية ؛ ويعرف أن أصحاب المذهب المدرسي Scolastic في العصور الوسطى نشروا فلسفة اليونان بما يناسب التفكير الديني ، وجعلوا الحياة على الأرض فترة مؤقتة لا قيمة لها ؛ وعلى العكس من ذلك نظر الناس في عهد النهضة نظرة جديدة للتراث اليوناني القديم ، وتقدم هذه الحركة الانسانيون الذين جعلوا الإنسان محور العلم والفن والآداب ؛ وكانوا يشبهون السفسطائيون ، في التاريخ اليوناني القديم ، وهم أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، وهدموا الموجود ، وتشككوا فيه ، وجعلوا الإنسان محور الوجود . وكذلك عمل الإنسانيون ، ونظروا للفلسفة اليونانية نظرة جديدة ، وفسروها على أساس أن الحياة على الأرض لها قيمتها ، بجانب الحياة الروحية . وكان الانسانيون يحاضرون الناس ، ويتنقلون من بلد لآخر ، ويحجوا بشقاقتهم في التأثير في المستمعين . وكان الإنسان خطيباً ودارساً ومعلماً ، وكان يخطب في الجند ، ويقوم بزيارات وسفارات بين الدول ، ويكتب رسائل سياسية ، ويخطب في الجماهير ، وإشتغلوا أساتذة في الجامعات ، وندماء

للأمراء . وكان الأهالي يتقاطرون عليهم من كل جانب .
ولقد اعتمدت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة . وكانت
الأديرة والكنائس تضم أعداداً من المخطوطات . وزادت الرغبة في الإطلاع عليها
في إيطاليا ، والبحث عنها في البلاد المجاورة ، في سويسرا والإمارات الألمانية .
وأسهمت الأسر الكبيرة في المدن الإيطالية في تمويل البحث عن المخطوطات ،
وشراؤها وإقتنائها ، أو نسخها أن تعذر ذلك ؛ وأخذت هذه العملية شكل
منافسة بين هذه الأسر في هذا الميدان . واتجهت الأنظار إلى بيننطة ، بحثاً عن
المخطوطات اليونانية القديمة ، ونشأت تجارة هامة في هذه المخطوطات ، قبل
سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين ، وسارت جنباً إلى جنب مع
حركة طلب العلم في القسطنطينية ، وجرى عدد من علماء بيننطة للتدريس أو للإقامة
في مدن إيطاليا ؛ وكانت كل منهما تسهل وتكمل عمل الأخرى ؛ وانتهى الأمر
بانتقال عدد كبير من المخطوطات اليونانية من القسطنطينية إلى المدن الإيطالية .
ولقد توتب على ذلك عملية نسخ المخطوطات والكتب ، وظهر في ذلك العصر
جيش من النساخ ، وخاصة من الألمان ، عكفوا على نسخ الكتب القديمة ؛ وساعد
الأغنياء والأمراء والبابوات على نمو هذه الحركة .

ولقد تنافس الأمراء ، والأثرياء ، والمدن في إنشاء المكتبات التي ضمت
المخطوطات والكتب وبعض قطع الآثار وروائع الفن ، فزاد عددها في إيطاليا ،
وكان من أشهرها مكتبة البندقية ، ومكتبة فورنسا ، ومكتبة الفاتيكان التي إهتم بها
البابا نيقولا الخامس ، وجمع لها مجموعات ضخمة من المخطوطات والكتب .

وإرتبط بهذه الحركة نشأة الجامعات العلمية ، والتي أسهمت في نشر
الدراسات اللاتينية واليونانية ، وكانت تشبه حلقات البحث ، التي تجمع الاساتذة
بعد المحاضرات مع طلاب العلم ، ويشترك فيها المجموع ، في نقاش علمي ، سواء أكان
ذلك في الفلسفة أو الأدب أو الفن . وأنتشرت هذه الجامعات في كثير من مدن

إيطاليا ، وازدهرت ، واشتهرت بكثرة المشتركين فيها ، وبخاصة في فلورنسا ،
نتيجة تشجيع أمراء أسرة مديتشي لها ، واستضافتهم لإعضائها في قصورهم ،
وكانت تميل إلى التخصص في الفلسفة اليونانية . أما أكاديمية روما فكانت أكثر
تخصصاً في التاريخ والآثار ، وكانت أكاديمية نابلي متخصصة في الآداب ، وأكاديمية
البندقية متخصصة في الدراسات اليونانية .

ولقد ارتبط بذلك أمر البحث عن الآثار ، والاهتمام بها ودراستها ،
والكتابة عنها ، وزاد الاهتمام بالفن القديم .

كما زاد الاهتمام بالدراسات التاريخية ، وخاصة مع ازدياد ملكة النقد ،
وظهور النقد العلمي التاريخي . ونتيجة لذلك قام لورنزو فالابا بإثبات بطلان هبة
قسطنطين ، للبابوات ، وكان البابوات قد استندوا إليها في صراعهم مع الأباطرة ،
لإثبات حقهم في السلطة الزمنية ، إذ أن هذه الهبة كانت تدعى أن قسطنطين منح
البابوات الحكم الزمني في إيطاليا عندما نقل عاصمته إلى القسطنطينية . وظلت هذه
الفكرة مسيطرة طوال العصور الوسطى ؛ واستخدمها البابوات لإثبات إدعاءات
لهم . ولكن لورنزو فالابا أبان أن هذه المنحة لم تثبت تاريخياً ، فليست هناك أي
عملة بابوية تحمل ذكرى هذا الحادث الهام ، كما أنه لم يتوصل إلى وجود الوثيقة
الأصلية الأولى ، التي حدثت بمقتضاها هذا المنحة ، إن كانت قد حدثت ، وكان
كل ما وجدته هو بعض الكتابات التي تذكر هذه الهبة ، وهي مليئة بالأخطاء .
وهكذا أوصلت روح النقد التاريخي لورنزو فالابا إلى ثبات بطلان تزوير
هذه الهبة .

ولقد أسهم بعده من البابوات في حركة إحياء الدراسات القديمة ، مثلهم في
ذلك مثل الأمراء والأغنياء . ونذكر منهم نيقولا الخامس الذي عين لورنزو فالابا
سكرتيراً له ، بعد أن أثبت بطلان هبة قسطنطين ، ؛ وبيوس الثاني الذي عيّن
بدراسة الآثار ، وبولي الثاني الذي عيّن بجمع المعاديات والتحف ، وليون العاشر ،

وكان من أسرة مدينتشى، وهو الذى جعل البابوية أمانة تعيش في ترف وبذخ وتمتع .
وأخيراً ، فإن فهناك الطباعة ، التى كانت خير معين على إنتشار الدراسات
الانسانية . وكان حنا جوتنبرج الألماني قد أدخل تحسينات على الطباعة ، ودخلت
الطباعة إلى إيطاليا سنة ١٤٦٥ ، قبل دخولها فرنسا وإنجلترا وإسبانيا . وكان
أصحاب المطابع رجالا مثقفين ، ومتمهقين في الدراسات القديمة ، والآداب
والنقد . وساعدت المطبعة على زيادة عدد الكتب المتداولة ، وفي إخراج جميل
متقن ، الأمر الذى سهل القراءة والإطلاع وتوسيع آفاق الفكر .

ولقد ارتبط كل ذلك بظاهرة إهتمام الناس بالمجد ، وعملهم على تخليد ذكرى
الأشخاص ، والاهتمام بكتابة ترجمات للشخصيات وإقتبس الناس من الدراسات
القديمة ، وإستمدوا منها عنصر الجمال لتغذية عقولهم ؛ ثم حولوا أن ينافسوا
القدماء في آثارهم ، فأثر ذلك على عنصر الخلق والإبداع لديهم ، سواء أكان
ذلك في نطاق الأدب أو السياسة أو الفن .

وظلت اللغة اللاتينية هى لغة العلم ، ولكنها لم تعد هى لغة العلم الوحيدة ؛ إذ
وجدت إلى جوارها اللغات الأوربية الحديثة ، التى شاركتها فى نشق نواحي
التفكير الانساني ؛ وأصبحت اللغات الأوربية خصبة وغنية ، وكسبت من
التراث القديم المرونة والقدرة على التعبير .

٤ - ظهور اللغات الحديثة :-

منذ عهد الدولة الرومانية القديمة ، وفى وقت إزدهار الأدب اللاتينى ، كانت
هناك لغة لائينية عامية إلى جانب الفصحى ؛ ولم تكونا لغتين مستقلةتين ، بل كانتا
من أصل واحد . ومع مرور الزمن ، حافظ الأدباء والكتاب على إختيار ألفاظهم
وأساليبهم ، بينما أهمل العامة الأسلوب ، وحتى قواعد النحو ؛ فزاد ظهور الاختلاف
بين اللغتين . وتأثرت لغة العامة بالألفاظ المحلية والإقليمية ، وزاد الاختلاف
والمفارقات بين اللهجات العامية واللغة الفصحى ، حتى تطورت هذه اللهجات إلى

إلى لغة ثانية ، هي اللغة العامية ، التي أصبحت مستقلة عن اللغة الفصحى .
وعندما إتسمت الدولة الرومانية القديمة ، وشملت مساحات واسعة من أوربا ،
توغلت اللاتينية العامية إلى جانب اللغة الفصحى بين الشعوب التي خضعت للحكم
الروماني ؛ وإختلطت اللاتينية العامية باللهجات العامية لدى هذه الشعوب ، كما
إختلطت بلهجات البرابرة عندما أغاروا على أملاك الدولة الرومانية . ومن هذا
الخليط اشتقت اللغات المختلطة ، والتي تسمى اللغات الرومانسية ؛ والتي هي اللغات
الفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية والإيطالية . وهي تعتبر على أنها لغات شقيقة .
ونلاحظ أن الأدب الإيطالي قد تأخر في ظهوره عن باقي الآداب الأوروبية ،
وحتى عن تلك التي استخدمت لغات شقيقة ، خاصة وأن كل من فرنسا ، وحتى
إنجلترا ، كتبت أدباً خاصة بها منذ العصور الوسطى . وكان ذلك يرجع إلى أن
إيطاليا كانت هي مهد التراث اللاتيني القديم ، الأمر الذي إحتفظ بها مرتبطة به ،
غير قادرة على التخلص منه ، على عكس المناطق الأخرى التي كانت اللغة اللاتينية
قد دخلتها مع غزوات الرومان . كما أن أحوال إيطاليا السياسية خلال العصور
الوسطى حرمها من الاتجاه إلى الآداب ، وأجبرها على الانصراف إلى الحياة
اليومية والعملية ، وفي ظل الكنيسة ، والدراسات التي كانت تشرف عليها ، دون
غيرها وأدى كل ذلك إلى تأخر ظهور الأدب ، وتبلور اللغة الإيطالية ، عن
غيرها من اللغات ، حتى الشقيقة .

ولقد مر تطور الأدب الإيطالي في مراحل مختلفة . ففي أثناء القرن الثالث
عشر دون الإيطاليون أشعارهم باللغة الفرنسية ، وكذلك باللغة الإيطالية العامية ،
متأثرين في ذلك بشعراء إقليم بروفانس ، في فرنسا . وكان ذلك يلقى قبولا من
الأهالي . وفي وسط إيطاليا ساعدت حركة القديس فرانسيسكو على انتشار أناشيد
كتبت باللغة الإيطالية العامية . أما في جنوب إيطاليا فان حكم الإمبراطور فردريك
ساعد كذلك على نشأة مدرسة صقلية ، الذي كتب شعرها كذلك باللغة الإيطالية

العامية ، وإن كان يصف الشجاعة والفروسية ، ويتميز بالجفاف .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر نشأت في فورنسا وبولونيا مدرسة تسمى «المدرسة الانتقالية» ، أفادت من شعر صقلية ، ومن البيئة الجديدة ، خاصة وأن لهجة توسكانيا كانت أقرب اللهجات إلى اللغة اللاتينية ؛ وعمل ذلك على تنقية اللغة العامية السائدة في الجنوب ، من الكثير ، وعلى صقلها . وكانت لمنطقة توسكانيا مكانة متفوقة في الفن والتجارة والسياسة ، فمالجت لغتها الكثير من عناصر الفلسفة والأخلاق والدين والعلم . وسعبر هذه المدرسة ، منذ القرن الثالث عشر ، عن معاني العاطفة ، مع جويدو جينزيلي ، الذي كتب أشعاره باللغة العامية ، في منطقة توسكانيا في وسط إيطاليا .

أما المرحلة الثالثة ، فهي مرحلة مدرسة الشعر العذب الحديث ، التي ظهرت كذلك في منطقة توسكانيا ، ونشأت في فورنسا ، وعبرت عن العواطف ؛ وإشتهر من كتابها جويدو كافلكانتى Guido Cavalcanti وتشينو دابستويا Cino Da Pistoia ثم برونولاتيني Brunetto Latini والذي يعتبر شهره تمهيداً للكوميديا المقدسة التي كتبها دانتي البجيري . والمهم ، هو أن للكتابة في الأدب والشعر قد إتجهت صوب الكتابة باللغة العامية الإيطالية ، متجهة في ذلك من الشمال إلى اوسط والجنوب ، ثم إلى اوسط ، في توسكانيا من جديد . وكان ذلك هو حط ميلاد اللغة الإيطالية الحديثة ، كغة قومية في شبه القارة الإيطالية ، التي عملت اللغة والعواطف والمشاعر على توحيد أهلها أكثر من نظم الحكم في ذلك الوقت . واستنخلد اللغة الإيطالية بماقدمته للحضارة من تراث ، ومنذ ذلك الوقت .

٥ - الفنون الجميلة :

كما قام الايطاليون بمجهود كبير ، وفعال ، في ميدان إحياء التراث القديم ، نبغوا كذلك في ميدان الفنون الجميلة ، وأعطوا للانسانية ثمرات فنية لها قيمتها ووزنها ، بتلك الفنون التي ازدهرت بأيديهم ، في بلادهم ، ولانتشرت منها إلى بقية أنحاء العالم .

ولقد جاء تحرر الفنان وفكره وشعوره ، لكي يحرر الفن من أشكاله التقليدية ؛
وظهر ذلك في فن التصوير والنحت ، في إيطاليا ، ثم فن العمارة كذلك . وتحرر
الفن من تقاليد العصور الوسطى ، وإستوحى من الفن الروماني واليوناني في
العصور القديمة ؛ ورغم بقاء الروح المسيحية ، إلا أنها واهمت بين نفسها وبين
روح المجتمع الإيطالي الجديد . وتأثر الفن كذلك بالحياة العملية ، وسار من
الإقتباس صوب الإبداع والإبتكار ؛ كما تأثر بروح العلم ، ودراسة جسم الانسان ،
والتشريح ، ومن دراسة الهندسة اللازمة لفن المعمار . وكانت الظروف مواتية
أمام الفنانين ، وسمحت بتفوق الكثيرين من بينهم ؛ فكان هناك ذوق يتجه إلى
الجمال ، ويتذوقه ، ويحاول التعبير عنه ؛ وكان هناك جمال الطبيعة وصفاء الجو ؛
وكان هناك التشجيع والتعزيد بالمال من جانب الأغنياء والأمراء للفنانين ،
وتنافسهم فيما بينهم لجمع الفنانين حولهم ، مثل أسرة مديتشى في فلورنسا ، وأسرة
سفورزا في ميلانو ، والبابوات في روما ، وأسرة أراجون في نابلي . وكان
الفنانون يجمعون حولهم ، ويبنون لهم القصور والقلاع ، وأقاموا الحفلات ،
ورسموا الصور المختلفة . وإنتشرت عادة جمع القطع الفنية والتحف بين الناس ،
لتزيين منازلهم ، وزاد إعجاب الأهلئ بالصور واللوحات التي كانت تزين
الكنائس والقصور .

وكان فن التصوير مقيداً طوال العصور الوسطى ، ومقصوراً على موضوعات
خاصة ، دينية أو كنسية ؛ وكانت مقيدة في أشكالها ، وأوضاعها وحتى في ألوانها ،
ويشكل طمس كذلك شخصية الفنان . ولكن الأمر تطور مع النهضة ، وتحرر
الفنان وتمكن من رسم الطبيعة ، ومن التعبير عن مشاعره وإحساساته تجاعها ،
وأفاد من دراسة جسم الانسان والتشريح ، ومن استخدام الألوان الزيتية
وتجسيئها ، وإستخدام الفريسكو ، الأمر الذي جعل الصور واللوحات تعيش .
وأصبح الفنان يعطى لإعكاسه لإحساساته وانطباعاته وحتى لما يدور في عقله وفي

نفسه ، في الصور التي يرسلها . ولم يهمل الفنان الموضوعات الدينية ، التي سادت في العصور الوسطى ، ولكنه قرب هذه الموضوعات من الحياة اليومية . وجعل صور العذراء والقديسين تمثل رجالات ونساء عاشوا في زمن الفنان ، وأصبحت صورهم تعبر عن الواقع وعن الحياة العملية .

ولقد بدأ التصوير في إيطاليا في القرن الرابع عشر ، وظهرت بعض مدارس التصوير في فلورنسا وبيينا ، وكانت صورها لا تزال تتميز بالجدود في أول الأمر ، رغم زيادة ظهور جمال الوجه والجسم وبالتدريج . إذ زاد ظهور هذا الاتجاه الجديد ، وظهر بعض كبار المصورين ، ومن أشهرهم جيوتو (١٢٦٦ - ١٣٣٧) الذي كان مصوراً ، ومهندساً معمارياً ، ونحاتاً . وكان يمثل بالنسبة للتصوير ، ما كان دانتى يمثله للأدب ؛ وكان صديقاً لدانتى ، الذي أوحى له ببعض صورهِ . ولقد حسن وسائل التصوير الفنية ، وأدخل إلى الصور عناصر الاحساس والعاطفة وقوة التعبير . ومن أشهر الصور التي رسمها صورة المسيح وقد فارق الحياة ، ومريم العذراء تحمله وهي نجانية ، وحرله بعض القديسات والملائكة ، وقد إرتسمت علامات الحزن والأسى على وجوه الجميع . وهو الذي مهد الطريق لظهور عظماء المصورين مثل ، ليوناردو دافنشي ، وميشيل أنجيلو ، ورفاييلو . ثم ظهر جيل آخر من المصورين في القرن الخامس عشر ، وكان منهم ساندرو بوتيتشيللي (١٤٤٤ - ١٥١٠) الذي امتطاع أن يوجه التناسق في الصورة ، واكتمال الجمال فيها ، مع تعبيرها عن الأساطيس : ورسم العذراء تسير على العشب ممشوقة القوام ، ترتدى ثوباً مزيناً بالورود ، وتحمل طفلاً جميلاً تبدو عليه الصحة ، وحوطها الملائكة ، وكانهم جميعاً يعيشون العصر الذي رسمت فيه اللوحة . وظهر كذلك ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) ،

هو من عظماء رجال الفن في العالم ؛ وامتاز باتساع الثقافة وتعدد الملكات . وكان مطلعاً على العلم والطبيعة والكيمياء والميكانيكا ، كما كان موسيقياً وشاعراً ونحاتاً .

ولقد إمتزج كل ذلك فى نفسه ، فزج العلم بالفن ، وبما أوحى به اليه الطبيعة .
ومن أشهر آثاره الفنية صورة « العشاء الربانى » ، وهى التى تصور المسيح وحوله
الجواريون أمام مائدة عليها الخبز وأقداح الشراب ، ولارتسمت على وجه المسيح
تعبيرات الألم والإستنكار للخيانة ، بينما ارتسمت أحاسيس متباينة على وجه كل
من الجواريين ، فمثل الألم ، والخوف ، والدهشة ، والأستنكار ، والجرع ،
والبراءة ، والغضب . ومن أشهر صورة الجيو كوندادى ، وهى السيدة إيطاليا تدعى
مونا ليزا جيران دىنى وإستغرق رسم هذه اللوحة أربع سنوات ، وظهرت فيها
مفاتيح هذه السيدة الوديعه الحسناء ، المحرومة من متعة الحياة ، بعد وفاة زوجها .
ولقد خلد ذكرى هذه السيدة برسمه صورتها .

أما ميشيل أنجيلو Michel Ange (١٤٧٥ — ١٥٦٤) ، فقد إشتهر كذلك
بتعدد الثقافات ، واتساع الأفق والمعرفة . وبرع فى التصوير والنحت والهندسة ،
ونظم الشعر ، وإشتهر بوفرة إنتاجه ، وتعدد الموضوعات التى عالجها ، والمستوى
الرقيق الذى وصل اليه . وستود إليه من جديد عند الحديث عن النحت . أما فى
التصوير ، فكانت تبدو فى صورة الغموض والخشية من العقاب ، التى وعدت
الآثمون ، وكانت صورة تصدر عن قلبه المتألم كصراخ ، أو أعتراف بما كان يعانى
من الألم . وتميزت صورته بوضوح عضلات الجسم البارزة ، وبشكل له
دلالة وتعبير .

أما رفاييل أو رفايلو Raphael (١٤٨٣ — ١٥٢٠) ، فيمكن اعتباره أهم
الفنانين الذين برعوا فى فن التصوير فى إيطاليا . ورغم أنه قد توفى وهو لا يزال
شاباً ، إلا أنه أعطى من عبقريته ، وبشكل خلده بها العبقرية الفنية الإيطالية فى
فن التصوير ، بما خلفه من آثار فنية رائعة . ولقد إمتاز فنّه بالإسجام والتوازن ،
وبقوة الخلق والابتكار ، ولقد اقتبس ، وتأثر ، وخلق ، وأبدع ، وبخاصة فى
رسم الطبيعة . ومن أهم صورته عذراء الغراندوق ، نسبة إلى فرديناند الثالث ،

غراندوق توسكانييا ، الذى أغرم بهذه الصورة ، وكان يحملها معه فى تنقلاته .
والصورة تمثل السيدة العذراء ، فى شكل امرأة فلورنسية جميلة ، وديعة هادئة
طاهرة النفس ؛ تحمل طفلا جميلا ، فى صحة جيدة ، هو السيد المسيح . ومن
صوره كذلك صورة مدرسة أئينا ، الموجودة فى الفاتيكان . ورغم أن رفايللو
لم يقرأ كتابات أفلاطون وأرسطو ، إلا أنه عاش بين تلاميذه ، وتأثر بهم .
والصورة تمثل أفلاطون وأرسطو فى الوسط ؛ وأفلاطون يفسر ، ويرفع
إصبعه إلى السماء ، وهو شيخ ، وإلى جواره أرسطو الشاب ينظر إليه ويشير
بيده إلى الامام وإلى الأرض ؛ دلالة على الاتجاه الفلسفى ؛ ويحمل فى يده كتاب
الأخلاق . وتشتمل الصورة على بطليموس يحمل الكرة الأرضية ، وفيثاغورث
يحمل لوحاً عليه بعض الأرقام . وكان رسم الصورة يستمد من عناصر الحياة
الموجودة فى وقت رفايللو وزمنه . ولا شك فى أن ليونارد دافنشى وميشيل
أنجيلو ورفايللو يشتركون معاً فى إعطاء النهضة فى إيطاليا ، وفى القرن السادس
دعمر ، أمجاداً ستظل فى طليحة ما قدمه الفنان للإنسانية .

أما فن النحت فقد وصل إلى مستوى رفيع فى ذلك العصر ، ولقد تأثر بالفن
القديم خاصة وأن كثير من الآثار كانت لا تزال باقية ، وزاد الكشف عن كثير
منها . وتأثر الفنانون بهذا التراث ، وأخذوا منه ، ثم أبدعوا بعد ذلك فى
تحضيم الفنية .

ومن أشهر رجال النحت درناتللو Donatello (١٣٨٦ - ١٤٦٦) ،
الذى تميز بطبيعته الشائرة ، وبقوة الخلق . ومن آثاره فى النحت تمثال القديس
جيوفانى ، الموجود فى فلورنسا ، وهو جالس على مقعد ، وفى ملامح وجهه قوة
الشخصية ، وقوة التعبير ، وهو شكل مملوء بالحياة . ومن آثاره كذلك تمثال قائد
الجند البندقى جتاميلىتا ، وهو تمثال فارس على صهوة جواده ؛ والفارس رائع ،
والحصان رائع : الفارس تظهر عليه القوة والعزم والسلطة والحياة والنشاط ،

والحصان تظهر عليه القوة والرشاقة ، ولا شك في أن دوناتلو قد مهد الطريق
أما ميشيل أنجيلو لكي ينحت بعد ذلك تمثال موسى .

وإشتهر من رجال النحت في ذلك العصر لو كاديللا دويبا Luca della Robbia
(١٤٠٠ - ١٤٨٢) ومن أهم آثاره نحت تماثيل الأطفال من المرمر ، في برونز ،
وهم يغنون ويرقصون ويعزفون على الآلات الموسيقية ، وبشكل لم يضارعه فيه
أحد إلى مثل هذه الدرجة من الإبداع الفنى .

وأما ميشيل أنجيلو Michel Ange (١٤٧٥ - ١٥٦٤) ، فقد ذكرنا عند
حديثنا عن التصوير أنه كان متعدد الثقافات متسع الافق . ولقد اكتشف نبوغه
لورنزو العظيم ، فقربه إليه ، وألحقه بمدرسة الفن التى أنشأها بإحدى حدائقه
بفلورنسا . ووصل ميشيل أنجيلو إلى مستوى رفيع فى الفن ، وبخاصة فى النحت ،
وعبر فى تماثله عن روح العصر الذى عاش فيه ، وإستمد من المعانى التى أحسها
بمنفسه عناصر كثيرة ، وعبر عنها أصداق تعبير . فسكى الأمانى والاحلام والمحن
والمصاعب التى أحاطت بشخصه ووطنه ، ظهرت فى آثاره الفنية ؛ وجعله ذلك
فى حالة عصبية ، أعطت آثاره طابعا من الألم والقوة والجمال الرائع . ومن أهم
آثاره تمثال الشفقة Pittié ، فى كنيسة القديس بطرس فى روما ، يمثل المسيح فى
أمه ، وبين ذراعيها ، بعد صلبه وعلى وجهه تعبيرات الألم ، والحزن واضح على
وجه العذراء ، رغم نضارتها وشبابها ، وكانت تتألم بدون دموع . وله تمثال
آخر شهير ، هو تمثال موسى الموجود فى أحد كنائس روما . وهو تمثال يبهى
البصر ، رائع الجمال فى تفاسيله وفى مجموعته وتناسقه ، فى وضوح العضلات وقبضة
اليده ، وفى جمال اللحية وطولها ، وفى لفته رأسه ؛ وملامح وجهه ملامح القوة
والانفعال ، والغضب والألم ، لما حاق بشعبه من العذاب . وهو من أروع آيات
الفن فى العالم ، إذ أنه تمثال كأنه حتى ناطق مبرر . ويقال أن ميشيل أنجيلو ، بعد
أن أنه ، صاح به أن ينطق ، ثم سقط مغشياً عليه .

وأما عن فن العمارة فإنه كان الفن الجميل الوحيد الذى لم يندثر خلال العصور الوسطى ، وظل قائماً ومزدهراً ، معتمداً على نماذج من الفن القديم ، وبخاصة الفن الرومانى فى إيطاليا ، والفن البيزنطى فى شرق البحر المتوسط ، كما أضاف العرب إليه الكثير ، وأبدعوا وتفننوا فيه . أما بلاد الشمال وشمال غرب أوروبا ، فإنها شهدت الفن القوطى ، الذى تطور كذلك وعلى مراحل ، حتى وصل إلى القوطى الجديد أثناء القرنين الثمانى عشر والثالث عشر ، والذى إشتهر بدقته ورقته إلى حد بعيد ، كما يظهر ذلك فى كثير من المنشآت والمكتانس الكبيرة . ولما جاءت النهضة ، إنعكس ذلك على فن العمارة ، فأدخلت الخصائص والرسومات التى كان الاغريق القدماء يتبعونها . وظهر هذا التطور الكلاسيكى فى أثناء القرن الخامس عشر ؛ ولا زالت الكثير من مباني وعمائر فورنسا والبندقية وروما فى ذلك الوقت تشهد لهذا الفن ، حتى الآن .



وأخيراً فعلينا ألا ننسى أن النهضة الإيطالية ، بما بنيت عليه من حياة حرة ، وشخصيات متحررة ، نقدر الحياة ، وتبعد عن الجود . تحت الجمال وتعشقه وتعتبر عنه ، وتسعى إلى التمتع بالحياة الدنيوية ، كانت تمثل نمطاً جديداً يختلف عن انماط الحياة فى العصور الوسطى . أنه عصر جديد ، برجال جدد ، جاء نتيجة لتغيرات عميقة فى جذور المجتمع ، وإمكانيات إنتاجه ومعاملاته ، وتغيرات بالتالى فى طريقة الحياة فى المجتمع ، وطريقة التفكير ، والتعبير . وفى الوقت الذى ساد فيه الاهتمام باحياء التراث القديم ، وبالمخطوطات ؛ والكتب ، والجمامخ العلمية والجامعات ، كان هناك النفي السياسى ، والاضطرابات الاجتماعية ، ونمو الثروات ، والتمتع . وزاد إقبال الناس على السخرية والتهمك ، والتسكيت ، والضحك والمرح . لقد كانت النهضة خروجاً على عادات وتقاليد وأخلاق العصور الوسطى ، من أساسها إلى أفرعها وفصولها ؛ لقد كانت حياة جديدة ، لعصر جديد .

لقصص الحادى عشر

بعض كبار شخصيات النهضة فى إيطاليا

لقد أعطت النهضة لإيطاليا ، مجموعة من الشخصيات العملاقة ، فى شتى ميادين الحياة العلمية والأدبية ، والإنسانية ورجال السياسة ؛ وبرزت هذه الشخصيات كأعلام كبيرة ، لا بالنسبة لإيطاليا وحدها ، بل بالنسبة للإنسانية جميعها ، وعلى مدار العصور . ونختار عدداً منها فى هذا الفصل ، ومن تخصصات مختلفة ، وإن جاز هذا التعبير ، أو تحت عنوان أكثر الميادين التى تركوا آثارهم عليها وضوحاً : فنختار فى الآداب دانتي أليجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١) ؛ ومن الأبرام لورنز العظيم (١٤٦٩ - ١٤٩٢) ؛ ومن بين الرهبان والحركات الدينية سافونا رولا (١٤٥٢ - ١٤٩٨) ؛ وفى ميدان السياسة مكيا فيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) .

١ - الآداب : دانتي أليجيري :

كان دانتي أليجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١) شاهداً كبيراً على نهاية عصر من العصور ، وعلى ميلاد عصر جديد .

وولد فى فلورنسا فى شهر مايو سنة ١٢٦٥ . من أسرة نبيلة ، وماتت أمه وهو طفل صغير ، ثم توفى والده وهو فى سن الثامنة عشر . وكانت أسرته قد قاست من إحتكار كبار الملاك العقاريين ، وإستغلالهم للبورجوازيين الجدد . الذين كانوا قد حضروا من الريف ، وأثروا بسرعة من الصناعات ومن التجارة . ودرس دانتي منذ حداثة التراث اللاتينى القديم ، وتردد على جامعتى بдова وبولونيا ، ودرس بهما الفلك والرياضة والفلسفة والمنطق وعلوم الدين ؛ وكذلك قرأ الشعر الذى وجد فى إيطاليا فى ذلك الوقت ؛. والذى كتب بالعامية الإيطالية . وكان دانتي معتزلاً بنفسه ، يميل إلى العزلة والسكون والبعد عن الناس . وسرعان ما ظهرت كفاءته كشاعر شاب ، من بين تلك المجموعة التى حاولت إدخال المزيد

من العواطف والحرية في فن التروبادور. وألمه حبه لبياتريس الكثيرين الأغانى التي تميزت برشافتها، والتي نشرها في سنة ١٢٩٥ في كتاب باسم «الحياة الجديدة»؛ فظهر كعلم شاهق، يظهر فجأة وعلى غير إ انتظار. وستكون كتابات دانتي، باللغة الإيطالية، من العوامل المهمة التي جعلت هذه اللغة تستقل بذاتها، خاصة وأن دانتي قد عبر بها عن مختلف الآراء والعواطف الانسانية.

وإشترك دانتي في الحوادث السياسية التي وقعت في فلورنسا في ذلك الوقت، فإشترك في الحرب بين فلورنسا وبيزا؛ ثم دخل سلك الوظائف؛ ثم أصبح عضواً في مجلس الشعب في فلورنسا، ثم أصبح بعد ذلك، وفي سنة ١٣٠٠، عضواً في السفيرييا، أو مجلس السادة، الذي يتكون من تسعة أشخاص، ويحكم فلورنسا. وكانت فلورنسا تعاني في ذلك الوقت من الصراع والمنافسة الحزبية؛ ووجد بها حزب «الجلف» البابوي الذي كان يميل إلى أن يسيطر البابا في إيطاليا وخارجها، وحزب «الجهلين» الامبراطوري الذي كان يناصر الامبراطور على إيطاليا. ثم إنقسم حزب الجلف إلى فرعين متعادين: البيض، وهم وإن كانوا من الحزب البابوي، إلا أنهم كانوا يؤثرون الدفاع عن فلورنسا ضد التدخل البابوي؛ والسود وكانوا من أنصار الخضوع، مع مدينتهم، لسلطة البابا. وكان دانتي من فرع البيض، وآثر مصلحة فلورنسا؛ ولكن البابا وحزبه لم يقصروا له ذلك، خاصة وأنه أصر على ضرورة عدم إرسال مائة فارس من فلورنسا إلى البابا، للاشتراك في قواته. وأرسلت فلورنسا وفداً إلى البابا، وكان من بين أعضائه دانتي، وتمت القطيعة بين الرجلين: دانتي يدافع عن كيان فلورنسا، رغم تدينه، والبابا يسعى إلى السيطرة الدنيوية على فلورنسا، وإلى ضمها لممتلكاته. وتمكن أنصار البابا من إحداث إنقلاب في فلورنسا، سيطر فيه السود على الحكم، ونكوا بالبيض. وأصدروا حكماً ضد دانتي سنة ١٣٠٢ إتهموه فيه بالفسق والعرقه، وإستغلال السلطة، وإبتزاز الأموال، وإستخدامها ضد البابوية؛ ثم حكموا

صليته بالنبي من فلورنسا . فبدأت حياة النبي والتشرد والغربة والفقر والحرمات ، وكان ذلك سبباً في إنصهار روحه أكثر وأكثر ، وفي ظهور نبوغه .

وتنقل دانتى في أنحاء إيطاليا ، وحين زار الامبراطور هنرى السابع إيطاليا سنة ١٣١٠ قابله دانتى وطلب إليه تحرير فلورنسا من نير حكم البابا ، وكتب رسالة باللاتينية إلى أمراء إيطاليا وشعوبها ، ويدعوهم فيها إلى الإنضمام إلى الامبراطور ، ليخلصوا البلاد من طغيان البابا . ولكن أنصار البابا كانوا أقوياء ، وتوفي الامبراطور سنة ١٣١٣ ، دون أن يتمكن من عمل شيء . ورفض دانتى أن يعود إلى فلورنسا على أنه مخطف يطلب العفو والغفران ؛ وإستقر في رافينا من سنة ١٣١٣ إلى أن توفي بالملايا سنة ١٣٢١ .

ولم يفند دانتى ، في أى وقت من الأوقات ، الأمل في نشأة نظام مسيحي في المستقبل . وكتب دانتى جسيمه قبل سنة ١٣١٢ ، والمظهر قبل سنة ١٣١٤ ؛ وكان حينئذ قد أصبح من رجال العقيدة ؛ أما الفردوس ، وكتابه عن « الماسكية » فإنها ترجع إلى الفترة الأخيرة من حياته .

ولقد عبر دانتى في كتابه عن « الماسكية » ، وهو الذى كتبه باللاتينية ، عن آرائه السياسية ؛ ونادى فيه بضرورة وجود سلطة زمنية دنيوية ، وسلطة روحية دنيوية . فيجب أن يحكم شعوب العالم إمبراطور ، ينظم العلاقات بين الحكومات والمحكومين ، وبين الحكومات وبعضها ، دون إلغاء شخصية الشعوب ؛ وذلك في نطاق إمبراطورية موحدة وكان دانتى لا يمانع في أن تكون روما هي عاصمة هذه الامبراطورية ، ويحسد أن يكون إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة هو رأسها . وإشترط دانتى عدم تدخل السلطة الدينية ، أى سلطة الكنيسة ، في الشؤون الدنيوية والسياسية لهذه الامبراطورية ، حتى لا تفسدها ؛ وكان دانتى متديناً ، ورأى أن تتفرغ الكنيسة والبابوية للمسائل الدينية ، من توضيح التعاليم المسيحية ، والدعوة إلى الخلق القويم . أى أنه كان ينادى بالفصل التام بين السلطتين

دينية والدينوية ، وتفرض الكنيسة لاساس رسالتها المسيحية . وكانت ففكرة
نقى التى ترمى إلى توحيد العالم تحت زعامة إمبراطور واحد ، هى فكرة العصور
وسمطى ؛ فسكانه كان يعبر عن العصور الوسطى ، رغم أنه عاش فيما بين العصر
وسميط والعصر الحديث ،

ويرجع إلى مؤرخى الأذب الإيطالى أن يتبعوا ذلك التسكين البطيء
مبقرية دانتى ، منذ الأشعار الأولى والأغانى ، إلى نثر الحياة الجديدة ، وحتى
لك الرؤية الواضحة والقاهرة ، والتي يختم بها الكوميديا الألفية . ويرجع إليهم
لكذلك أن يحاوا شخصيته ، وماعاناها ، وهى شخصية يصعب ترويضها ؛ تأثرت
الحب وبصراع الأحزاب ، وبالنفى ، وتأثرت بقراءات واسعة ، دتمت العصور
للقديمة ، والمسيحية ، وكذلك الإسلام ، بدون أدنى شك . ولقد ظل دانتى
مخلصا لتقاليد القرن الثالث عشر ، بإعتقاده فى السلطة المزدوجة ، التى أعطاها الله
لكى يسير المؤمنون فى طريقى السلام ، والعبادة ؛ أما فكرته عن الله ، وعن
العالم ، والرجال ، فقد ظلت هى فكرة مدارس العصور الوسطى ، التى قام بتلخيص
فكرها . ولكنه أكمل ذلك بإتجاه عقلاى عربى ، أخذه عن ابن رشد ، وأثر
فيه ، وبشكل يضعه فى مصاف كبار رجال العقيدة .

وتنقسم الكوميديا الألفية إلى ثلاثة أجزاء : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ؛
وهى تضم مائة أنشودة . أربعاً وثلاثين للجحيم ، وثلاثاً وثلاثين لكل من المطهر
والفردوس . ولقد أمضى دانتى مايقرب من ثمانية عشر عاماً فى وضع الكوميديا
الإلفية ، التى تعتبر موسوعة ، صب فيها شتى أنواع المعارف والسياسة بأسلوب
شيق ، وإستعرض فيها المجتمع عبر العصور ؛ حتى يمكننا أن نقول بأنها الوصية
الدينية ، للقرن الثالث عشر . ومع ذلك ، ومن الناحية اللغوية والأدبية ؛ فإن
دانتى ، بكتابه الكوميديا الإلفية ، قد ساعد على خلق لغة جديدة ، هى اللغة
الإيطالية الحديثة ، إذ أنه جعلها قادرة على التعبير عن كل الأمور والأحداث

الاساميس ، فأثرى هذه اللغة العامية ، عن طريق تطويعها ، وجعلها لغة غنية ، رقيقة مخفية . وساعد إنتشار وتداول الكوميديا الإلهية على أن يحدو غيره حدوه في الكتابة بهذه اللغة العامية ، التي أحسن إستخدامها ، فكانت نشأة اللغة الإيطالية الحديثة .

٢ - الامراء لورنزو العظيم :

هو أمير من أشهر أمراء إيطاليا في عصر النهضة ، وهو من أسرة مديتشي ، وحكم فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس (١٤٦٩ - ١٤٩٢) .

وفلورنسا ، حسب إسمها ، هي مدينة الزهور ، ولها مكانة واضحة في تاريخ إيطاليا ، وتاريخ أوروبا ؛ فإعتبروا أنها أئينا عصر النهضة ؛ أو أئينا العصر الحديث . وهي مدينة جميلة ومليئة بالمتاحف والآثار . ويمكننا أن نقول أن فلورنسا كانت أول « دولة » في التاريخ الحديث ، وإمتازت عقلية أهلها بعمق التفكير ، والبراعة في النقد ، والقدرة على الإبداع الفنى ، والدهاء في السياسة . وشهدت فلورنسا تجارب سياسية عنيفة ، مع صراعات وإنتقالات ، بشكل تميز عن بقية المدن الإيطالية ، كما شهدت نشأة نظم حكومية بها ، أرقى من غيرها من المدن . وشهدت فلورنسا صراعاً بين الأحزاب الديمقراطية ، وبين الأوليباركية ؛ وكانت بها مجموعات من رجال الطبقة الوسطى ، وتقابات الصناع وأصحاب الحرف . وكانت حكومتها في بعض الأوقات ديمقراطية ، وفي أوقات أخرى إستبدادية ، وفي غيرها دينية . ووصفها مكيا فيللى ، بأنها تشبه الكائن الحى ، الذى ينمو نمواً طبيعياً . ولقد سيطرت العناصر الشعبية على الحكم في فلورنسا في أوائل القرن الثالث عشر ، ولكن الحكم الشعبى لم يستمر . وظهرت منافسة بين أسرتين من أسر النبلاء ، فازت فيها أسرة مديتشي . وعمل كوزيمو ، من أسرة مديتشي ، في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، على إرضاء الشعب ، وحقق فترة من الأمن والرخاء ، وإعنتى بتثقيط التجارة ؛ وتشميع

العلوم والفنون والآداب . ثم ظهر الأمير لورنزو العظيم ، من نفس الأسرة ، في
التصنيف الثاني من القرن الخامس عشر .

وكان البابا قد حاول إضعاف فلورنسا ، وأعلن حرمان آل ميديشي من
الخفران ؛ وإنتمت إيطاليا نتيجة لذلك إلى قسمين : الشمال وفيه البندقية وميلانو
وفلورنسا ، والجنوب ويشتمل على البابوية وناپلي ؛ ونشبت الحرب ، ولكنها
كانت فاترة ، نتيجة للانقسامات الموجودة داخل كل معسكر ؛ كما أن تهديد الأتراك
العثمانيين لإيطاليا وأوروبا جاء عاملاً هاماً في إيقاف هذه الحرب . فاستتبت الأمور
للورنزو العظيم ، وأخذ يعمل من أجل الاستقرار ؛ وشجع رجال الآداب
والفنون ؛ وشيد الكثير من المباني ؛ وإمتاز بمهارته وحنكته السياسية ، فجعل من
فلورنسا مركزاً لحركة النهضة في إيطاليا وأوروبا على السواء .

ومن الناحية الشخصية إمتاز لورنزو العظيم بالذكاء وإتساع الأفق ، وكانت
له جوانب متعددة ، وميول مختلفة ومتكاملة . وكان بسيطاً متواضعاً ، يخالط
بالشعب ، ويتصل بالأهالي من كل الطبقات ، ودون أن يفرق بينهم ؛ وكان يجلس
على مائدته الغنى والفقير على السواء . وجمع لورنزو الكثير من هذه الصفات التي
تجعله محبوباً من الناس ، ومتفاعلاً بهم ومعهم ، وفي إحساساتهم وإنطباعاتهم .
وكان على سجيته وطبيعته ، حين يشرف على إعداد بعض الحفلات ، وحين يدرس
أحد المخطوطات التي ترد إليه من الشرق ، وحين يجادل أميراً أو سفيراً أو أحد
رجال الفن ، أو رجلاً من عامة الشعب ، وحين يخرج للصيد ، أو لتقضاء بعض
الوقت في الريف ، أو عندما يجلس بين أولاده ، أو يكتب لهم قصة أو قطعة
موسيقية يتسلون بهزفها . وكان في كل ذلك رجلاً طبيعياً ، يقوم بهذه الأعمال
بشكل مألوف . وكان يوزع نشاطه بين هذه النواحي المتعددة ، سواء الفن أو
التشيل أو الموسيقى أو قول الشعر ، أو دراسة المخطوطات القديمة ، أو عندما
يكون أولاده وأصدقائه .

ولاشك في أن هذه الحياة البسيطة ، والصريحة ، والحرة ، كانت لا تعجب العناصر التقليدية . وأنصار الجود والتزمت ، أنصار أخلاقيات العصور الوسطى ، بما تحمل من شكل سليم ، وتخفى تحت أستارها الكثير من المفسد ، الخبيثة ؛ فإتهموه بأنه قد شجع وحرض أهل فورنسا على الخروج على الشرف والتقاليد وقواعد الأخلاق والدين . ولم يكن لورنزو مسئولاً عن سلوك أهل عصره ، ولا عن حريتهم وتحررهم ، ذلك أن عوامل عميقة كانت هي الدافع المحرك في تطور الانسانية من عصر إلى عصر ؛ ومن مرحلة إلى مرحلة أخرى . وكانت روح العصر ، إن جاز هذا التعبير ، هي التي دعت الناس إلى الخروج ، على تقاليد العصور الوسطى ، وإلى طريقة حياة العصر الحديث . ولم يعمل لورنزو العظيم على تجريض أحد ، بل كان هو نفسه ، نتاج عصره بما فيه من تطور . وكانت حياة لورنزو الخاصة أفضل بكثير من حياة الأحرار والملوك ، وحتى الاساقفة والبابوات ، المعاصرين ؛ فلم تنسب له أولاد غير شرعيين ، على الأقل ؛ وكان محباً لأسرته ، ولأولاده ، ويسعد بهم ، ويسعدهم ، ولكن بطريقة جديدة ، حرة ، ومفتوحة ، وبدون نقاب .

وكان لورنزو شاعراً ، بفطرته ، يحب الطبيعة ، وذواقاً للجمال ؛ وإستوحى الطبيعة والجمال ، كمادة لشعره الرقيق ، الذي وصف فيه الحياة في توسكانيا ، وجمال طبيعتها وزهورها وطيورها ومراعيها ومزارعها ، وعبر عن كل ذلك بإحساس قوى وشعور دقيق . وكان يقيم في إحدى ضواحي فورنسا ، لأنه كان يفضل حياة الريف ؛ وكان يجمع حوله ، أو تتجمع حوله ، مجموعة من رجال الشعر والفن والأدب ، يقرؤن أشعار القدماء ، من يونان ولاتين ، وكان لورنزو يقرأ الأشعار القديمة ، كما كان يكتب شعره باللاتينية وبالايطالية . وكان لورنزو مليئاً بالتحدث عن ضرورة التمتع بحياة اليوم ، وتذوق الجمال ، في كل مظهره . ولقد أنفقت أسرة مدينتشى أموالاً طائلة على تشجيع حركة العلوم والفنون

والآداب ، وأنفقت في ثلث قرن من سنة ١٤٢٤ إلى سنة ١٤٦٩ ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه إسترليني على أرضاء نزعهم في تشجيع حركة أحياء العلوم والفنون ؛ وكان لورنزو ينفق ما يقرب من سبعين ألف إسترليني سنوياً على نفس الغرض . وإعتاد أن يرسل بعثات خاصة للبحث عن الكتب والمخطوطات القديمة ، والآثار ، وبخاصة في الشرق ؛ وكون جيشاً من النساخ ، عكفوا على نسخ صور من المخطوطات والكتب النادرة ، حتى يعم استخدامها والإفادة منها . وأنشأ معاهد متنوعة ومختلفة للدراسات ؛ منها جامعة بيزا في سنة ١٤٧٢ ، وهي التي أصبحت من أشهر جامعات أوروبا . وتخصصت في الدراسات اللاتينية ، التي عيّنت بها . وإهتم لورنزو العظيم كذلك بدراسة التراث اليوناني القديم ، بجامعة فلورنسا ، وأنشأ في هذه المدينة أكاديمية لدراسة النميات ، أي النقود والأنواع والتراث اليوناني القديم . وإنتشرت هذه الدراسات من فلورنسا إلى بقية أنحاء إيطاليا ، ومنها إلى أوروبا ، التي أصبح طلابها وعلماءها يفدون من فرنسا وإنجلترا وألمانيا إلى فلورنسا للدراسة والبحث والتزود . ومع إهتمامه بالدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ، لم يفضل لورنزو الإهتمام باللغة الإيطالية ؛ وكانت أشعاره باللغة الإيطالية صدي لأشعار بترارك . ودافع لورنزو عن لغة توسكانيا ، وأدرك قيمة العبقرية الإيطالية مسجلة فيما كتبه دالتى ، وبترارك ، وبوكاشيو .

وكان لورنزو العظيم ، مثله في ذلك مثل عدد كبير من أسرة مديتشى ، يشجع الفنون ، وكان نفسه مصوراً ، وكان يرسم بعض الصور التي تناسب بعض الحفلات التمثيلية ، كما كان يضع التصهيمات التي يكلمها الرسامون . وضاعف لورنزو من محتويات قصر آل مديتشى الفنية ، من روائع فن التصوير والنحت ، وجعله فريداً في نوعه في أوروبا . ونال معظم الفنانين ، الذين عاشوا عصر لورنزو العظيم ، قدراً من تشجيعه لهم ؛ ومنهم ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci ؛ أما فنانون الجيل التالي فكانوا لايزالون عبقاراً في ذلك الوقت ؛ وإختلف كثير منهم

إلى مدرسة النحت التي أنشأها لورنزو في حديقة قصره ؛ وكانت للورنزو حاسة
إكتشاف العابرة من رجال الفن . فاكشفت نبوغ ميشيل أنجيلو من حدائمه ،
وكان يعامله كأحد أفراد أسرته .

ومع إعطاء لورنزو العظيم كمثل ، لا يمكننا ألا أن نقول بأن أمراء إيطاليا ،
وأصحاب السلطة والثروة فيها ، كانوا عنصراً هاماً في حركة النهضة ، في ميادين
بعث التراث القديم ، وتشجيع الأدب الحديث ، وكذلك العلوم والفنون ؛ وأدى
ذلك إلى تقديم خدمة كبيرة تمخضت عن منحوبة في إعطاء تراث خالد للحضارة
في الأدب والفن .

٣ - الراهب الثائر : سافونا رولا :-

قام سافونا رولا (١٤٥٢ - ١٤٩٨) بحركة تعتبر حركة مضادة لما ساد
في بدء العصر الحديث ، وهي كرد فعل للنهضة ذاتها ، وتحتوى على عنصر الرجوع
للتقديم ، ومحاولة فرض قواعد الدين والأخلاق ؛ فهي حركة دينية ، تعمل على
أساس أخلاقي ، للوصول إلى السلطة السياسية ، وتطبيق قواعد الدين والأخلاق
على المجتمع .

ولقد ولد سافونا رولا في فرارا ، وكان أبوه طبيبياً ؛ ولقد شعر منذ طفولته
بالوحدة والعزلة ، وكان سائحاً على المجتمع . وترك أسرته فجأة ودخل الدير في
بولونيا ، نتيجة لفساد المجتمع في نظره ؛ ثم ترك الدير ، بعد أن وجد فيه بعض
المفاسد كذلك ، ودرس في الجامعة وكان يعتقد أن الناس قد ابتعدوا عن الفضائل
وعن الخير ، وأخذ يتنقل بين المدن الإيطالية ، إلى أن دعاه لورنزو العظيم إلى
الإقامة في فلورنسا ، وهو لا يعلم ما سيقوم به في المستقبل في هذه المدينة .

ولم تعجب أحوال فلورنسا ، في عهد لورنزو العظيم ، سافونا رولا ، فرأى
أنها مدينة تعيش في الترف والبذخ والثروة ، وأن النبلاء يتمتمون بحياة مادية
مترفة ، وأن الشعب يميل للهو والمرح . ورأى سافونا رولا أن أبناء فلورنسا

لأبراعون قواعد الأخلاق والدين ، وأن حفلاتهم قد تأثرت بالروح الوثنية ، وأساء كل ذلك إلى سافونارولا ، كراهب متدين ومتعصب لأرائه ومبادئه . وكانت روما كذلك تعيش في بذخ ، وخرجت على قواعد الدين والأخلاق الصحيحة . أما من الناحية السياسية ، فإن سافونارولا قد رأى أن لورنزو العظيم قد ركز السلطة في يده ، وأنه كان يحكم فلورنسا حكماً جمهورياً ، من الناحية الاسمية فقط ، وأنه قد ركز السلطة في يديه على حساب الشعب . فأحس لورنزو العظيم بخطر آراء سافونارولا ، وبدأ يخشاه ويراقبه .

وأعلن سافونارولا آراءه عن خطورة تجميع السلطة في يد الحاكم ، وإنقاذ حياة المجتمع المترفة ، بقوة وصرامة وحماسة ، وأخذ على عاتقه معارضة سلطة آل مديتشي ، وكذلك إصلاح المجتمع الفلورنسي طبقاً لقواعد الدين والأخلاق . وأخذ يخطب في الناس ، داعياً إلى هذه المبادئ ، وكانت كلماته تتدفق ، وأنصت الناس إليه وإنبهر بعضهم بفصاحته . وكان من بين سامعيه في ذلك الوقت ميكافيللي ، إلا أنه لم يوافق على ما كان يقوله . وإعتقد سافونارولا أنه مرسل من الله ، في مهمة مقدسة ، وأنه نبي يصرخ في الضيافي لتنوير عقول الناس ، وتطهير نفوسهم ، وإرجاعهم إلى أصول الدين .

وتولى بيرو السلطة بعد وفاة والده ، لورنزو العظيم ، وكان ضعيفاً ، فزادت المعارضة ضد حكم آل مديتشي في فلورنسا ، وأسهم فيها سافونارولا بقسط كبير . وزادت دعوة سافونارولا لقوة لإصلاح الكنيسة ، ليس فقط باعتقاد أنها نظام ديني فحسب ، بل باعتبار أنها أساس حياة كل المسيحيين ، وكان يقصد تغيير حياة رجال الدين وسلوكهم ، دون أي تمسك بالعقيدة الكاثوليكية ، فكان بذلك من بين المنادين بضرورة الإصلاح الديني . ومن ناحية ثانية تعرض سافونارولا لقضايا إجتماعية : فهاجم الربا ، وتحدث عن عدم العدالة في جسيح الضرائب ، وظلم الفقراء ومحاباة الأغنياء ، وإنقاذ فساد الإدارة ، والشدة التي

بمارسها الحكام في المحافظة على سلطتهم ؛ ودافع عن حرية الأهالي ضد إستبداد آل مديتشي . وقام من ناحية ثالثة بالتنبؤ بوقوع د الويل والشبور ، وعظام الامور ، كعقاب وتأديب لإيطاليا وفلورنسا . ولتطهيرها ، وإجبارها على التكفير عن خطاياها .

وقد وقع هذا الحادث العظيم بعد ذلك ، في شكل الغزو الفرنسي لشبه الجزيرة الإيطالية ، عند نهاية القرن الخامس عشر . وكانت إيطاليا منقسمة سياسياً على نفسها إلى وحدات سياسية كثيرة ، وكل وحدة منها ضعيفة عسكرياً ، رغم الثروات المالية الموجودة فيها وإنبثاق نور النهضة في أرجائها ، الأمر الذي كان يسهل السيطرة عليها . فكانت هناك البندقية وميلان في الشمال ، وفلورنسا وأملاك البابا في الوسط . ونابلي في الجنوب . ووضح ضعف الأمير بييرو ، أمير فلورنسا في ذلك الوقت ، في أنه ترك التحالف مع ميلانو في الشمال ، للتعاون معها في صد الهجوم الفرنسي ، وأخذ يتآمر مع نابلي في الجنوب ضد ميلانو في الشمال ، وقت تقدم القوات الفرنسية في إيطاليا ، فسهل على فرنسا أمر الاستيلاء على ميلانو ، وأصبحت فرنسا معرضة للغزو الفرنسي .

وقام سافونارولا ، وخطب الأهالي ، ودعاهم إلى التخلص من العيوب ، وطالبهم بالوحدة والتعاون والتآزر ، لدفع الخطر الأجنبي . وسار شعب فلورنسا ، حين شعر بإقتراب خطر الغزو الفرنسي ، وفر بييرو وآل مديتشي من المدينة . وكتب سافونارولا كلاً إلى شارل الثامن ، ملك فرنسا ، وذكر له أنه مرسل من الله لإنصاف المظلوم ، والإننتقام من الظالم ، وللقضاء على الخطايا والآثام ؛ ونعمه بأنه محرر إيطاليا ورئيس الكنيسة ١١ ثم دخل شارل الثامن فلورنسا ؛ بعد أن إنفصلت عنها بيزا ، ودخلت في حماية الفرنسيين .

ثم قامت فلورنسا بعد ذلك بحركة إصلاح ، وكان سافونارولا هو الموجه لها . وكان يرى أن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الناحية الروحية ؛ إذ أن طهارة

النفوس ضرورية لإصلاح المجتمع والحكومة. وطبق سافونارولا قواعد الأخلاق والدين ، فتمنع تسكع السكرى في الشوارع ، ومنع المقامرة ، وأحرق أدوات الزينة وأوراق اللعب والصور الخليعة علناً في ميدان السينيوريا ؛ وألقى حفلات الكرنفال ، ولم تعد تسمع في فلورنسا أغاني لورنزو التي كانت تتغنى بأغاني الشباب ، وتدعو إلى التمتع بالحياة قبل فوات الوقت ، وإستبدلت بأغاني وأناشيد لتمجيد المسيح . وازدحمت الكنائس بالأهالي ، وتدفقت الأموال على أعمال البر والإحسان . ثم قام بعد ذلك بإعلان المسيح ملكاً على فلورنسا .

أما من الناحية السياسية ، فنجد أن فلورنسا وضعت في ذلك الوقت ، وبتوجيه من سافونارولا ، دستوراً جديداً . وكان الدستور في عهد أسرة مديتشي يتنص على أن فلورنسا جمهورية ؛ تحكمها بعض المجالس القائمة على أساس نقابات الصناع والحرفيين ؛ أما السلطة التنفيذية فكانت في أيدي السينيوريا ، وهو مجلس يختار وعلى أساس عضوين عن كل حي من أحياء المدينة . وأراد سافونارولا أن يضع لفلورنسا دستوراً مسيحياً ، مقترفاً في نظامه من دستور البندقية ، وعلى أساس وجود مجلس يتكون من الأعضاء الصالحين للانتخاب ، والذين كانت أسرهم ، خلال أجيال ثلاثة ، لم تصدر ضدها أى أحكام مخلة بالشرف ، وهذا المجلس ، هو الذى يشرف على اختيار أعضاء السينيوريا .

ولم يكن في وسع مثل هذه الحركة ، ومثل هذه الإصلاحات ، أن تستمر لفترة طويلة . فكان من الصعب إستمرار سيطرة سافونارولا الدينية ، وجعله مدينة فلورنسا مدينة مقدسة ، بالقوة ، خاصة وأن الروح الدينية كانت قد ضعفت في ذلك العصر ، الأمر الذى لم يكن ليسمح بسيطرة قواعد الدين والأخلاق بنفس الطريقة التي كانت موجودة بها في العصور الوسطى . كما أن روح النهضة وتحورها ، كانت أقوى من أن تخضع لخمس سافونارولا الدينى ؛ وكانت أغاني لورنزو العظيم لا يزال صداها يتردد في آذان الناس . وسرعان ما همل شعب

فلورنسا ، الذى جرى تيار سافونارولا مؤقتاً ، مع أغانيه وأناشيده الدينية ، هذا التيار الدينى ، وتطلع من جديد إلى أغاني لورتزو العظيم ، التى كانت تعبر عن أحاسيسه . كما أن تطرف سافونارولا وتعصبه لمبادئه الدينية كانت من الأساس التى أدت إلى إنصراف الناس عنه . وأخيراً ، وليس آخراً ، فهناك فشل سافونارولا فى الميدان السياسى ، الأمر الذى سهل القضاء على نفوذه الدينى ، وفشل الحركة كلها ؛ ذلك أنه كان قد إرتقى فى أحضان السياسة الفرنسية ، وأظهر عداً للبابا . وإعتقد أن ملك فرنسا سيصلح الكنيسة ، ويقر السلام فى إيطاليا . ولكن ملك فرنسا تفاهم مع البابا ، وصفى مشاكله معه . وهكذا ظلت الكنيسة بدون إصلاح ؛ كما أن شارل الثامن لم يرجع بيزا لفلورنسا . وكان هذا فشلاً ذريعاً لعملية الإختيار السياسى التى قام بها سافونارولا .

وعلىنا ألا ننسى أن جماعات دينية أخرى ، مثل الفرنسيسكان ، ساءمهم إستفحال نفوذ سافونارولا ، فناهضوه . وكان هناك كذلك أنصار آل مديتشى ، الذين كان يهمهم عودة الأحوال إلى ما كانت عليه من قبل ، رغم الازدحام الدينى الموجود مع حركة سافونارولا ، أو بسببه . وكان كبار التجار ورجال الأموال قد ساءمهم إستفحال نفوذ سافونارولا ؛ الذى زاد عليهم الضرائب . وقلل من نشاطهم المالى والتجارى ، فاستأوا من هذا التعصب ، وقلة الخبرة فى الحياة العملية . وتجمعت كل هذه العوامل ، وإنتهت بإسقاطه ، والتضاء على حركته .

وإستدعى البابا سافونارولا إلى روما ، وأمره بالكف عن الوعظ والخطابة فى الناس ؛ ولمكنه لم يستمع لهذا الأمر ، وتحدهه ؛ فأصدر البابا قراراً بحرمانه سنة ١٤٩٧ ، وتحدهه سافونارولا كذلك . فزاد حنق البابا عليه . وفى ذلك الوقت توفى شارل الثامن ، ملك فرنسا ، وخلفه لوى الثانى عشر ، الذى هدد بغزو إيطاليا . وضعف موقف السينيوريا ، وخشيت من متابعة محافظتها على سافونارولا ، والاضطرار تهدهدها من كل جانب . ووجدت حكومة فلورنسا

ضرورة إيقاف خطبه ومنعها ؛ ثم أمرت بالقبض عليه بتهمة النبوءة الكاذبة ،
والخيانة السياسية ، والعمل عل إلغاء الدستور . وتغلّبت عليه العناصر المعادية ،
وعذبوه . وقرروا شنقه في ميدان السينيورييا سنة ١٤٩٨ ؛ ثم أحرقت جثته ، في
نفس المكان الذي كان قد أحرق فيه أوراق اللعب والصور الخليفة ، وألقى رماد
جثته في نهر الأرنو .

٤ - السياسة : مكيا فيللي :

يعتبر مكيا فيللي هو المعبر عن الفكر السياسي ، وبالمفهوم الحديث ، عندهم مطلع
التاريخ الحديث ؛ وتمكن نتيجة لتجاربه التي مر بها ، من أن يكون آراءه ، ونظراته
السياسية ، عن الدولة ، ونظم الحكم ، وعن الحاكم في العصر الحديث .
ولقد ولد ميكافيللي في فلورنسا ، في شهر مايو سنة ١٤٦٩ ، من عائلة نبيلة ،
وتلقى التعليم السائد في ذلك العصر : فتعلم اللغة اللاتينية ودرس الآثار الرومانية
واليونانية ، وكذلك التاريخ . وكان منذ شبابه يحب العيش السهل والتمتع بالحياة .
وكان حاضر الذهن ، قوى الملاحظة ، مقدرآ لظروف الحياة الواقعية التي
عاش خلالها .

وحصل ميكافيللي في سنة ١٤٩٨ على وظيفة سكرتارية حكومة فلورنسا ؛
وأصبح أحد مستشاري مجلس العشرة ، وكان من إختصاصه بحث المسائل المتعلقة
بالحرب ؛ وكان يبدي رأيه في هذه المسائل ، وقام بعمله بحماس وإخلاص .
وسمح له عمله بالقيام بعدة سفارات خارجية ؛ فسافر إلى فرنسا عدة مرات ،
وذهب إلى لوى الثاني عشر مرة لكي يطلب إليه مصادقة فلورنسا ، ثم عاد إليه من
جديد لكي يطلب إليه مساعدة خربية أمام تهديد البندقية لفلورنسا ، ثم مرة ثالثة
لمحاولة إصلاح العلاقات بين ملك فرنسا وبين البابا . وذهب إلى روما لمقابلة
البابا عندما طلب بعض الجنود من فلورنسا ؛ وسافر مرتين إلى قيصر بورجيا (ابن
البابا) لكي يتعرف على نواياه ومشروعاته السياسية في إيطاليا ، وتجاه فلورنسا ،

وسافر كذلك وقابل الإمبراطور مكسميليان في منطقة التيرول ، لكي يشعر على نواياه ضد إيطاليا . وفي كل هذه السفارات ، لم يكن مكيا فيللي مفاوضاً لإجراء مفاوضات ، أو حتى محادثات رسمية ، تترتب عليها علاقات محدودة ، بل كان مجرد رسول أو مبعوث للتعرف على نوايا هؤلاء الملوك من الناحية السياسية . ولقد أفاد مكيا فيللي بهذه السفريات ، فإتسع أفقه ، وزادت خبرته . وأدرك مواطن القوة والتقدم ؛ وخصوصاً التماسك السياسي ؛ ورأى ذلك بنوع خاص في فرنسا ، وقارن حال هذه البلاد بحالة إيطاليا ، التي كانت مضعفة سياسياً ، وضعيفة حربياً .

ولقد حاول مكيا فيللي إدخال بعض التحسينات في فلورنسا ، خاصة وأنه أدرك خطورة الإعتدال على الجنود المترفة ، وعرف أهمية الجنود الوطنيين ، فأنشأ فرقاً مختسرة من الجنود الوطنيين ، وأعددها للحرب . وكانت فلورنسا تفكر في إسترجاع مدينة بيزا بالقوة من الفرنسيين ، وفكرت في تحويل بحرى نهر الأرنو عن بيزا ، لإرغامها على الخضوع ؛ وأشرف مكيا فيللي على هذا العمل ، وبدا للمهندسون والعمال أشغال الحفر ، ولكن المشروع لم ينجح . ثم هبت عاصفة على فلورنسا ، غيرت من توازن القوى الموجود فيها والموجود حولها .

وكان البابا يرغب في إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، وكان على فلورنسا أن تختار بين صداقتها للبابا ، وصداقتها لفرنسا ، خليفتهما . ولقد إختارت فلورنسا التمسك بصداقتها لفرنسا ، وأوفدت مكيا فيللي لإبلاغ لوى الثاني عشر بتمسك دولته بهذا التحالف من فرنسا . ثم إشتعلت الحرب بين البابا وفرنسا ؛ وتمكن الفرنسيون في أول الأمر من الانتصار على جنود البابا ، وحلفائه الإسبان سنة ١٥١٢ ، ولكن الفرنسيين إضطروا بعد ذلك إلى التقهقر بسرعة حين زحفت قوات البابوية ، وأخذت تستولى على المدن الإيطالية الواحدة بعد الأخرى . وتمكن البابا من إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، وإن كان قد أحل التفوذ الإسباني

محل نفوذهم في شبه الجزيرة . وصمم البابا على تحطيم جمهورية فلورنسا ، فإضطرت فلورنسا إلى ترك محالفة فرنسا ، والانضمام إلى البابوية وإلى إسبانيا . وطردت أسرة مديتشي مرة جديدة من فلورنسا ، وقررت السيفوريا عزل مكيا فيللي من وظيفته ثم أمرت بنفيه . وفي منفاه ، أخذ مكيا فيللي في الكتابة والتأليف ، فوضع كتاب « الأمير » ، ثم « مقالات » ، وكتاباً عن « فن الحرب » ، وآخر عن تاريخ فلورنسا .

ولقد عرض مكيا فيللي خدماته على البابا ، كليمنت السابع ، الذي كلفه بإعداد خطة للدفاع عن فلورنسا . ولكن سرعان ما تطورت الأمور ، وهزمت فرنسا في معركة بافيا (١٥٢٥) التي أسر فيها ملكها فرانسوا الأول . وإضطر البابا إلى مهادنة الامبراطور المنتصر شارل الخامس ؛ أو شريكه ، ووافق على دفع تعويض كبير . وانكسرت الجيوش الامبراطورية هاجم روما ، وأجبر البابا على الهرب منها . وشهد مكيا فيللي عودة أسرة مديتشي إلى فلورنسا ، بعد أن شاهد نهب روما ، وحاول من جديد أن يلتحق بخدمة حكومة فلورنسا ، ولكن وقته كان قد ولى ، ولم تقبل عروضه ، ومات سنة ١٥٢٧ .

ولقد ضمن مكيا فيللي آراءه في السياسة والحكم وفي الدين والحرب في كتابيه : الأول « المقالات » ، والثاني هو كتاب « الأمير » . وذكر أنه من الضروري أن يكون منشىء الدولة ، وواضع نظمها وقوانينها ، حاكماً مستتبداً بالسلطة ، إذ أن السلطة المطلقة ضرورية في وقت إنشاء الدولة ، فهذه السلطة المطلقة هي التي يمكنها أن تتغلب على المصاعب التي قد تواجه الأمير أو الحاكم ، في دور نشأة الدولة ، ووضع نظمها الأساسية . وبحث في كتاب الأمير أنواع الامارات أو الدول ، وكيفية نشأة الدول ، وإستقرارها ، ثم زوالها ، وأسباب كل ذلك ، وذكر أمثلة من التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى . وبحث في هذين المكتابين الوسائل اللازمة لإنشاء الدولة ، ووسائل التي يجب على الحاكم

إتباعها لضمان إستقرار الدولة ونموها .

ويرى مكيا فيللي أن تكون الدولة مهيمنة ، وتوضع مصلحتها فوق كل الاعتبارات ؛ ومصلحة الدولة مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الشعب ، ومصلحة الشعب مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الدولة . ولذلك ، فإنه من حق الدولة ، أن تفعل ما لا يستطيع أن يقوم به الأفراد ، حتى تحتفظ بقوتها . فمن حق الدولة ، لكي تحقق مصلحتها ، أى مصلحة الشعب كله ، أن تقوم بما لا يتاح للفرد الواحد بمفرده أن يقوم به . فلا بد إذن من سلطة قوية تدير مصلحة الدولة ، ومن أن يكون لها حرية العمل والتصرف حسبما تقتضى الضرورة والظروف . وهكذا يتيح للحاكم أن يباغى للقسوة ، والغدر ، والخيانة ، وعدم التمسك بالعهود والقوانين ، وبمخالفة قواعد الأخلاق والدين ، لأن الغاية فى نظره مبرر الواسطة ؛ وذلك لكي يصل إلى الغاية التى يهدف إليها .

ولقد حاول البعض أن ينظر إلى مكيا فيللي على أنه يهدم كل القيم والموازن ، ونظر إليه آخرون على أساس أنه لا أخلاقى . ولكن علينا ألا نفصل النصوص التى رأها ونصح بها ، عن موضوع حديثة ؛ ما دام يتحدث عن ظروف الحاكم ، وعن مصلحة الدولة ، التى تمثل مجموع مصالح الأهل . وهكذا لم ينصح مكيا فيللي بإتخاذ أى فرد ، لأى وسائل ، والوصول منها إلى أية أهداف . فليس القتل وسيلة ، الوصول إلى القتل ، ولا للإنتقام ، أو إشباع رغبة الحاكم . وما دام الهدف هو مصلحة الدولة ، وبالتالي الشعب ، فلا ينظر أحد إلى الوسائل التى يتخذها الحاكم مهما إشتعلت على قسوة ، ومخالفة للأخلاق والتقاليد ، والعرف ، وحتى إذا ما وصلت إلى الغدر .

وكانت ظروف إيطاليا فى ذلك الوقت مليئة بالفوضى السياسية ، والغدر والدماسيس ، ومخالفة قواعد الأخلاق ؛ وكانت محاربة الشر بالشر ، من أجل الوصول إلى حياة هادئة مستقرة فكرة لها قيمتها . فإذا كان هناك زعيم نائم ، يهدد

بقيام حرب أهلية يروح فيها الكثير من الضحايا ، يسمح للحاكم بقتل هذا الزعيم ؛ وبهذا القتل يخلص شعبه من أهوال حرب أهلية . إذا ما بقى هذا الزعيم . ويتحدث مكيا فيللي عن حفظ العهود ، ويقول أنه إذا كان إحترام العهد ينزل أضراراً بمصلحة الدولة ، فيمكن للحاكم ألا يتقيد به ، ويشرح كيف أن الكثيرين من الناس منافقين وجشعين وناكرين للجميل ، يظهرون الولاء للشخص صاحب السلطة ، ولكنهم سرعان ما ينفضوا من حوله إذا ما زالت سلطته . وإذا كانت هذه هي أخلاق الكثير من الناس ، فما الداعي لتمسك الحاكم بوعوده ، ويلحق بحكومته الأضرار ؟

ولم ينكر مكيا فيللي الفضائل ومبادئ الرحمة ، وذكر الكلمة الطيبة والفضائل قد تؤدي إلى النفع أكثر من الشدة . ونصح الأمير بأن يكون مثالا للرحمة والتدين ، وأن يكون مثالا للقوة والحزم ، إذ أن الناس يحكمون غالباً بالمظاهر ؛ والأمير الذي يكون حازماً متديناً رحيماً يكون أبعد من التعرض للمؤاخذة ، وللغبن الداخلية ؛ فيجنب بذلك الدولة والشعب أخطاراً كثيرة .

ولقد اعتقد البعض أن مكيا فيللي من أنصار الاستبداد والحكم المطلق . ولكن مكيا فيللي كان يفضل الاستبداد والسلطة المطلقة وقت نشأة الدولة ، وفي وقت الفوضى السياسية ، فقط . وكان يعتقد أن السلطة المطلقة هي الوحيدة التي تستطيع أن تقضى على الفوضى الداخلية ، وتخرج من حالة الفوضى والإضطراب إلى حالة السلم والإستقرار . ولكن على الحكومة ، بعد أن تفتحن حالة الفوضى ، أن تتخذ نظام الحكم الديمقراطي الجمهوري . لأن الحكومة الديمقراطية ، التي تشترك عناصر مختلفة في إدارتها ، تكون أقوى على البقاء ، وعلى الإستقرار ؛ كما أن تقارب الآراء المختلفة ، وإشتراك العقليات المتنوعة في دولة ما ، كفيل بإعطاء هذه الدولة الحياة المستقرة الناجحة ؛ وهذا النوع من الحكم يعطى الفرصة للتغيير والتطور ، وملاءمة سير الزمن ، إذ أن المجموعة الديمقراطية تكون أقدر على

فهم حاجات المجتمع الذي تحكمه ، وتستطيع بتنوعها أن تحدث التغيير الملائم ، وهذا على العكس من الحاكم الفردي المستبد ، (الذي مهم) قيل في صلاحيته وعدالته ، يعجز في الغالب عن إدراك ما تتطلبه حياة المجتمع المتغيرة ، فالنظام الجمهورى الديمقراطى هو إذن المثل الأعلى عند مكيا فيلى ؛ أما النظام الفردى الاستبدادى المطلق ، فإنه لم يفضله إلا فى وقت نشأة الدولة ، وفى وقت الفوضى السياسية .

ولقد تكلم مكيا فيلى فى كتاب الأمير كثيراً عن قيصر بورجيا ، وهو ابن غير شرعى للبابا إسكندر السادس ، وإعتبره الأمير المثالى . وقال عنه أنه أمير بارع ، مهاب ومحترم ، وغير مكروه من الرعية ، ومطاع من الجند ؛ وكان بارداً ، كفتاً ، صامتاً ، لا أصدقاء له ، ولا أحب له . وكثيراً ما كان يجوب شوارع روما متنكراً ، لتفقد أحوال الرعية . وكان قيصر بورجيا قد سيطر على إقليم رومانا ، وإستطاع بالقوة والعزم والحزم والشدة أن يعيد إليه النظام والأمن . وكان يقسوته وشدته رجلاً رحيماً ، إذ أنه وضع الاقليم قوانين صالحة ، وعنى بالصناعات ، وخفض الضرائب على التجارة ، مع فلورنسا والبندقية ، وشغل العاطلين ، ومنع نهب القضاة للمبتخاضمين ، وخصص أموال الأمن للضرائب لإصلاح الكثير من الأماكن التى خربت بها وهدمتها الحروب . وكان فى أوقات المجاعات يوزع القمح على الأهل ، ويعطى المحتاجين ؛ فأحبه الشعب وقدر أعماله ، ونظر إلى شدته على أنها رحمة .

ونظر مكيا فيلى إلى الدين المسيحى ، على أنه يحض ، على الشجاعة والصبر ، ولكننا ليست شجاعة الفحل الايجابى ، بل الشجاعة التى تجعل صاحبها قادر على تحمل الآلام والتعذيب ؛ وتمجد المسيحية الضعفاء وترفع من شأنهم ضد ظلم الاقوياء ؛ وتصرف البشر عن الحياة الدنيا ، وتقودهم إلى الحياة الأخرى . وكان من الضرورى ، من أجل وجود المواطن ؛ أن يقبل الناس على العمل ، والنشاط

على الأرض ؛ وأن تكون الشجاعة هي المثابرة على العمل ، وإحترام القوة ، وفي هذه الحياة ، لا في الحياة الآخرة . هكذا إمتد فكر مكيا فيللي من تعاليم الكنيسة في العصور الوسطى ، إلى تعاليم ما قبل المسيحية ، تعاليم روما وأثينا القديمة ، حتى وإن كانت وثنية . وقال إن على الفرد ألا يستسلم ويتراجع أمام العقبات ، بل عليه أن يكافح ويناضل لسكى يتغلب عليها . ونظر إلى الدين على أنه أداة هامة في أيدي الحكومة ، يمكنها من أن تجعل الرعية تقدر سلطة الحاكم ، وتشد في نفس الوقت عن عزيمته أفراد الشعب .

ولقد أدرك مكيا فيللي تماماً أهمية القوة الحربية للدولة ، وضرر إستخدام الجنود المرتزقة ، لأنهم لا يقاتلون بحماس ، ولا يدافعون عن المصلحة ؛ فرأى ضرورة إنشاء قوة من الوطنيين المدربين ؛ وأنشأ ، حين كان من المسؤولين في فلورنسا ، مجموعة من الجنود الوطنيين ، وعنى بإختيار الجنود والقواد كما عنى بتدريبهم ، وزود المشاة برماح طويلة ، للدفاع عن أنفسهم ضد الفرسان . وعنى بالمشاة أكثر من عناية بالفرسان ، ولم يقدر أهمية الأسلحة النارية التي كانت قد ظهرت في ذلك الوقت . ولقد كتب آراؤه الخاصة بهذا الميدان في كتابه عن « فن الحرب » ، وشرح فيه فنون الحرب ، وتنظيم المعسكرات ، وإختيار أماكنها ، وطرق تدريب الجند ، ومنعهم من شرب الخمر . وكان يرى أن الاجتديية يجب ألا تكون مهنة أو حرفة ، بل تكون واجباً يفرض على كل قادر على حمل السلاح . ويتم جمع الجيش حين تتعرض الدولة لخطر ، أو عند الضرورة الحربية . وإذا زالت هذه الضرورة أو ذلك الخطر ، ينصرف المحاربون إلى مهنتهم وأعمالهم المعتادة .

ورأى مكيا فيللي أن الدولة تحتاج إلى المال ، حتى تكون قوية ، ويجب أن تكون الدولة غنية حتى تقدر على تحقيق مصالح الشعب . ولكنه رأى افضلية أن يكون الشعب فقيراً ، إذا أن الفقر يحفزهم إلى العمل ، وإلى الانتاج . واعتبر أن

أكبر أعداء الدولة هم من يعيشون على أرباح ثرواتهم ، دون أن يؤدوا عملاً ،
كالتجارة والصناعة . وكان يرى ، بالتالى ، ضرورة إلغاء طبقة النبلاء لأنها طبقة
كسولة ، غير منتجة . ودعا مكيا فيللى إلى الاعتدال فى المصروفات العامة ، حتى
تستطيع الدولة أن تحقق أكبر نفع للشعب ؛ كما دعا إلى ضرورة تنمية وجوه
الإيراد والثروة ، بالعمل ، وعارض الضرائب المرتفعة التى ترهق الشعب . وكان
المال مهماً لتجهيز الجنود ، والدفاع عن الدول .

ولقد عبر مكيا فيللى أصدق تعبير عن الظروف والفترة الزمنية والمجانية التى
عاشها ، وإستمد آراءه من البيئة التى وجد فيها ، وبحث فى السياسة كعالم واقعى ،
لا كرجل أخلاق .

الفصل الثاني عشر

النهضة في بقية أنحاء أوروبا

لقد إنبثق نور النهضة ، تاريخياً ، أول ما إنبثق في شبه الجزيرة الإيطالية ؛ ورجع ذلك إلى ظروف وأسباب ، جغرافية ، وإقتصادية ، وإجتماعية ، ومعنوية ، كما شرحنا في الفصول السابقة . وكان لهذه الحركة مظاهرها وخصائصها . وعملت أو دلت ، على تغيير طريقة الحياة ، وطريقة التفكير ، وتذوق الفنون ، وحتى طريقة خلقها له . وكانت حركة نهضة مظهرأ هاماً لتحول حياة البشر ، والانسان ، عبر العصور التاريخية . وكان من الطبيعي أن يستمر ظهور هذه الظاهرة ، في بقية أنحاء أوروبا ، وفي توافق مع العوامل الإقليمية ، إن جاز هذا التعبير ، وقت ظهور وتبلور الملكيات الحديثة ، كظاهرة نهضة ، توأم بين نفسها وبين الظروف المادية والمعنوية الموجودة ، وتظهر في المجالات التي يمكنها أن تظهر فيها ؛ وبالتالي أن تأخذ أشكالاً مختلفة ، ومظاهر معينة ، في كل إقليم من الأقاليم . ولكن علينا أن نقرر أنه رغم هذه الأشكال المختلفة من إقليم لآخر ، لحركة النهضة في أوروبا ، أو هذه الظواهر المتباينة ، فانها كانت جميعاً ترجع إلى نفس الأسباب ، ونفس الأصول ، المادية والمعنوية المتاحة ، لكي تستر في حركة إنسانية متكاملة .

١ - روح النهضة الإيطالية :

لقد كان من الطبيعي أن تبدأ النهضة الأوروبية من إيطاليا ، بأثارها ، وموقعها الجغرافي ، وإتصالها بين نطة ، ونتيجة لإتصالات تجارها ، وعملهم في البحر المتوسط والبحر الأسود والشرق الأدنى . وكان من الطبيعي أن يصل هذا التأثير إلى بقية أنحاء أوروبا ، نتيجة لإتصال تجارها بكل هذه المناطق ، والتعامل معها ، ثم نتيجة لجذب هذه الحركة لعدد من الميريدين والمعجبين ، الذين وجدوا لديهم الوقت

للنزود من مناهل هذه الحركة الانسانية ، والثقافية والحضارية ، وكنتيجة
السماح ظروفهم لهم بالسير في هذا الاتجاه . كما أن عدداً من الفنانين الايطاليين ،
والانسانيين ، والمتقنين في الدراسات الانسانية ، إنتشروا في أرجاء أوروبا ،
وخاصة الوسطى والغربية وتركوا لهم آثاراً هناك .

ويمكننا أن نستشهد في نطاق الفنون الجميلة والنحت ، بالفنان توريجيانو
Torregiano الفلورنسي ، الذي أنفق الجزء الأخيرة من حياته في إنجلترا وإسبانيا ،
وصمم في إنجلترا مقبرة وستمنستر ، وصمم في إشبيلية تمثال العذراء . وإذا كان
من الانجليز من لم تسنح لهم فرصة القيام برحلة إلى إيطاليا ، يشاهدون أثناءهما
تمثالاً من نحت دوناتللو أو ميشيل آنجيلو ، فانهم يستطيعون تذوق نفس الشيء
من زيارتهم لكنيسة وستمنستر ، حيث يستحوذ على إعجابهم قبر هنري الثامن ،
الذي صممه . وسيسود فن العمارة الايطالي ، بأسمه الكلاسيكية ، جميع ربوع
أوروبا ، وبخاصة معظم كنائسها ، أثناء القرن السابع عشر . وقبل ذلك ، وأثناء
القرن السادس عشر ، كان الايطاليون يبنون كنيسة القديس بطرس الجديدة في
روما ، ولتد طراز عمارة النهضة من روما وغيرها إلى بقية أنحاء أوروبا ، وشجع
الملوك والأمراء على تطبيقه ، قبل رجال الكنيسة . فتغيرت حصونهم السابقة ،
أثناء القرن السادس عشر ، إلى قصور خلوية ، وخارج المدن ، تمشي مع المتعة
والتمتع بالحياة وبالطبيعة ، أكثر من مسيرتها لضرورات الدفاع والتحصن .
وهكذا بنيت قصور فونتيناو ، وإيزاي ، وهاتفيلد ونول ، لتدل على بداية حياة
جديدة ، لها أسلوبها وطعمها المختلف عن الماضي . وهكذا حلت القصور محل
قلاع الأمراء والنبلاء الاقطاعيين ، وحل حب المتعة والرفاهية محل الخوف من
المهاجمين ، وإستخدام وسائل التحصن والدفاع ، أمام المهاجمين .

أما في مجال الادب والدراسات الانسانية ، فيها ذكر النقاد عن الانسانيين
الايطاليين ، وأنهم أقدم إستندوا إلى السطحية والضحالة ، فلاشك في أنهم هم الذين

مهدوا الطريق لاكتشاف المعنى الحقيقي لجمال العالم القديم ، في إيطاليا ، وفي بقية أنحاء أوروبا ، التي عرفت أفلاطون ، من جديد ، بفضل الحركة الإنسانية التي ظهرت في إيطاليا . وكان هذا يمهّد الطريق للمستقبل ، والفكر ، والمعرفة ، بالنسبة للإنسانية .

ورغم أن أمراء أوروبا كانوا يرغبون في أن يصلوا إلى ما قام به أمراء إيطاليا ، من جمع المخطوطات ، وبناء وإنشاء الجامعات العلمية ، وتشجيع حركات البحث والنقاش ، والأدب والشعر والفن ، إلا أنهم ، في غالبيتهم ، لم يوافقوا على الطريقة التي تحول بها البوابات إلى حكام علمانيين ، يوسعون ممتلكاتهم على حساب جيرانهم . وزاد ظهور ذلك لدى « المثقفين » ، وكانوا أصلاً من رجال الدراسات الدينية ، الذي آكروا ثقافتهم بدراسات إنسانية . وكان الخطر العثماني واضحاً على البلقان ، وعلى شبه الجزيرة الإيطالية ، وبخاصة على ممتلكات البندقية ، وحتى على أقصى جنوب شبه الجزيرة . وكان إنصراف عدد من البوابات ، إلى مساندة ومناصرة أمراء إيطاليا في طرق وأساليب حياة النهضة ، مع إنصرافهم ، وقلة فاعليتهم في ميدان الحياة المسيحية ، مثيراً للسخط عليهم ، وبدرجة تفوق خارج إيطاليا ، ما كانت عليه في شبه الجزيرة الإيطالية .

كما أن تطور الأمور في إيطاليا ، أدى إلى تغيرات سياسية لها قيمتها ، بين الأمراء ، فبعد استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وافق أبناء البندقية على عقد صلح معها العام التالي ، لإستمر حتى سنة ١٤٦٣ ، حين وقع صراع بينها ، خرجت منه البندقية وقد فقدت سواحل دالماتيا والمورة ، وأجبرت على دفع جزية سنوية للسلطان . ولقد حاول نبلاء البندقية وأبناء أرستقراطيتها تعويض ذلك على حساب ميلانو وفرارا ونابلي ، وأدى ذلك إلى إثارة أطباع فرنسا ، بالتالي ، ضد البندقية . ومع ذلك فلا يمكننا أن نتناسى أن البندقية أتمت بناء كنيسة القديس مرقس في سنة ١٤٨٤ ، وأنها جاءت مثلاً حياً للفن

البيزنطى ، بعد وقوع بينظطة فى أيدى العثمانيين ؛ وجاءت نصباً أصيلاً شامخاً
للفن البيزنطى ، وذكرى لأجداد بينظطة . وكانت البندقية هى المدينة التى تبنت
الطباعة الحديثة قبل غيرها ، وعملت بذلك على نشر التراث الانسانى القديم ، فى
إيطاليا وغيرها ، وبشكل دفع بالطباعة إلى الأمام ؛ وكانت الطباعة من أهم وسائل
إنتشار النهضة فى أوروبا .

وكانت إيطاليا هى التى بدأ منها إنتشار رفة المشاعر ، الذى بلغ حتى حد
إفقال الحوانيت فى المدن لسماع أحد الشعراء يروى أشعاره . ولقد إنتشر ذلك
من إيطاليا إلى غيرها من الأقاليم والدول الأوروبية ، والى كان النبلاء فيها لا يزالون
يستمعون بالغلظة والشدة ، كما كان عليه الحال فى فرنسا ، التى لم يتغير نبلاؤها إلا
نتيجة تأثيرهم بالنهضة ، وفى عهد فرانسوا الأول . وهكذا تأثرت الارستقراطيات
المحاربة ، فيما وراء الألب ، بهذه المواهب الايطالية ، وهذه الطريقة الجديد للحياة .
وتأثرت أوروبا بكتاب مكيا فيلى ، « الأمير » ، كما تأثرت بكتاب كاستيليونى ،
« رجل البلاط » ، ولقد نصح المؤلف الثانى بأن يكون رجل البلاط ، علاوة على
كونه سياسياً ، رجلاً مثقفاً ، ومدرباً عسكرياً ورياضياً ، مع إلمامه بالرسم والفرن
والموسيقى . ولقد ترجم هذا الكتاب الأخير إلى لغات عديدة ، وأصبح دستوراً
لرجل الدولة ، والدبلوماسى ، عبر عصور طويلة .

وعلىنا أن نذكر أن النهضة لم تؤثر فى البلقان ، ولا فى الدولة العثمانية التى
سيطرت عليه فى ذلك الوقت ؛ كما أنها لم تؤثر فى روسيا ؛ وذلك رغم رسم أحد
البنادقة لصورة للسلطان محمد الفاتح ، وضمت فى قصر السلطان ، ورغم بناء الروس
للكرملين فى موسكو ، وأخذهم مخطوطه من ميلانو . فكانت هذه المناطق لا تستجيب ،
ولأسباب عميقة ، لحركة النهضة الأوروبية .

ومنذ ذلك الوقت ، ونتيجة لإنتشار روح النهضة من إيطاليا إلى بقية أنحاء
أوروبا ، أصبح العالم أكثر إهتماماً بفرنسا ، وشعر إنجلترا ومسرختها التدرامية ،

وموسيقى ألمانيا ، منه بكل ما إشمكت عليه البندقية وفلورنسا من آثار وفنون .

٢ - النهضة في فرنسا :

مرت فرنسا ، في الوقت الذي ظهرت فيه النهضة في إيطاليا ، وبفترة صعبة في تاريخها ، بعد الحروب الطويلة ضد إنجلترا ، وما خلفته من خراب ودمار في كل مكان . وكانت الدولة ضعيفة ، والأمراء يتصارعون على السلطة ؛ فلم يكن في وسعهم الالتفات إلى الفنون الإيطالية ، ولامسايرتها ، وأن يشجعوا رجالهم على تقديم فنون واضحة خاصة بهم . ولكن الفرنسيين أصبحوا أكثر تقبلاً للفن الإيطالي ، حين غزت جيوشهم إيطاليا سنة ١٤٩٤ .

وبعد وفاة شارل السابع في سنة ١٤٦١ ، وهو الذي سنلص فرنسا من نكسات الحروب الطويلة مع إنجلترا ، واصل لابنه لوى الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) سياسته الخاصة بإنشاء دولة وجيش قوى لفرنسا من بعده . وكان لا يهتم بملابسه ، ولا بمظهره ؛ ولكنه كان من أصحاب المواهب ، ولم يتردد في قطع رؤوس معارضيه . وكان سياسياً ، يصفى لم يتحدث إليه ، ويجمع المعلومات عن بلاده ، وعن سيرانه ، أصدقائه وأعدائه ومنافسيه . ولقد انتهت أزماته صعبة ، مثل تجمع شارل وريث دوقيه برجنديا ، مع دوق برى ، أخوى الملك ، ودوق بريتانى ؛ ولكنه واجههم بحزم وشجاعة ، وإعتمد على باريس لمحاربتهم ، وأرهمهم في مناوشات طويلة ، وفرق بينهم .

ولقد خدم الحظ ملوك فرنسا ، إذ توفى دوق برجنديا سنة ١٤٧٧ دون أن يعقب ذكراً ، فألت برجنديا وبيكار دى آرتوا للعرش الفرنسى . ثم توفى آخر ملوك لأكس ، في نفس الظروف ، فأنضمت مقاطعات مين وأنجو وبروفانس إلى مملكة فرنسا سنة ١٤٨٠ . وأخيراً إنضمت بريتانى إلى فرنسا ، بعد أن توفى دوقها ، دون أن يترك ولداً .

وبعد غزو الفرنسيين لإيطاليا ، شجع ملوك فرنسا عدداً من العلماء الإيطاليين

وبعض البنينطين على الحجيء إلى باريس ، لتدريس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية فيها . ثم زاد ظهور إعجاب ملوك فرنسا بالنهضة ، وأدخلوا إلى بلاطهم الكثير من مراسم وتقاليد الامراء الايطاليين . ولقد شجع فرانسوا الاول هذه الحركة في بلاده ، وأنشأ كاتبة فرنسا Collège de France سنة ١٥٣٠ ، خارج نطاق جامعة باريس ، وعين فيها أساتذة في الدراسات القديمة . ووصل من حد تشجيعه لرجال الأدب أن لقب بواعث الفنون ، وراعياها .

أما أدواق برجنديا ، فإنهم كانوا قد صنعوا بليجيكا المستقبل ، وعلوا أبناء الفلاندر ، التي هي نواة بليجيكا الحالية ، معنى الاستقلال والوحدة ؛ وجعلوا من بروكسل ، التي كانت مركز بلاطهم ، عاصمة أوربية شهيرة ؛ وساعدوا على نشأة مدرسة من السكتاب والمؤرخين لديهم ؛ وشجعوا الفنون الجميلة نفس تشجيعهم للتجارة . ورغم أن هؤلاء الأدواق كانوا فرنسيين ، في أصلهم ولغتهم وذوقهم ، إلا أنهم تعلموا اللغة الفلمنكية .

ولقد إنذرت فن النحت والرسم الفلمنكي غرباً ، عبر برجنديا ، إلى فرنسا ، حيث كان له أثر كبير ؛ وكما أثرت فرنسا في الفلاندر عن طريق أدواق برجنديا ، أثرت الفلاندر في فرنسا . ويرجع بقاء بليجيكا حتى الآن فرنسية الطابع ، إلى تلك الفترة التي خضعت فيها لأسرة فرنسية ، هي أسرة برجنديا .

وكان الفن الفلمنكي ، مثله في ذلك مثل الفن البرجندي ، يستمد أصوله من تراث العصور الوسطى ، ثم تطوروا منه إلى حياة العالم للحديث ؛ واعتمد الرسم عندهم على دقة الملاحظة ؛ وتميز في القرن الخامس عشر برفعة الشعور ، ومراعاة الحقيقة . وكان الفلمنكيون هم الذين اخترعوا الأصباغ ، وأخذ الإيطاليون استخدامها منهم . وجاء الفن الفلمنكي نابعاً من حياة مدن زاخرة بالنشاط والرخاء والازدهار ، مثل فن المدن الإيطالية . واستمدوا رسومهم من الحياة ، وفي ألوان مشرقة ، رغم تلبسهم بلادهم بالغيوم ؛ وآثروا الموضوعات المنزلية ،

وزادوا من اظهار كل تفصيل مألوف . وانتشر تأثيرهم ، كما انتشر تأثير المدرسة الإيطالية ، حتى أصبح شمال ألمانيا تابعاً لهم من الناحية الفنية ، عند نهاية القرن الخامس عشر .

٢ - النهضة في ألمانيا :

واشتهرت ألمانيا ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، بتقديم في الثقافة والدراسة ؛ وهي الفترة التي زاد فيها سلطان الامراء الالمان بشكل واضح ، وقد نشأ في ألمانيا ، في ذلك الوقت ، كثير من الاكاديميات ، كما ظهرت فيها الطباعة على أيدي حنا جو تينبرج ، ثم انتشرت منها بسرعة في جميع أنحاء أوروبا ، وعرفت بأنها الفن الالمانى .

وكان الجانب الاكبر مما أخرجته المطابع يتصل بالدين ، في الفترة الاولى ، وذلك نتيجة لكون رجال الدين هم أساس وغالبية الطبقة المتعلمة . وعمل ذلك على زيادة اهتمام الالهالى بالدين وزيادة اهتمامهم بقراءة الكتب الدينية ومناقشتها ، وذلك قبل أن يتضح ظهور الحركة الفكرية والنقدية في القرن السادس عشر .

وكانت الكنيسة في ألمانيا تمتلك ثلث الأراضي الزراعية ، وأصبح رجالها على درجة كبيرة من الثروة ، وظهرت عليهم دلائل الترف والإسراف ، وبشكل لا يعصمهم من الفساد . أما الامراء فكانوا يحاربون بعضهم بعضاً ، وحرمت ألمانيا ، منتجة للاتجاهات الفردية ، عند النبلاء ، وعدم وجود سلطة قوية للإمبراطور ، من أن تسير بصوب الوحدة ، أو حتى الاتحاد . وفشل البلايت في الوصول إلى إصلاح دستورى ، ولم يتمكن من إنشاء جيش إمبراطورى دائم ، ولا من وضع نظام ثابت يجمع الضرائب الإمبراطورية ، بعد أن رفض الامراء والنبلاء العمل مع القوات الإمبراطورية . فظلت الإمبراطورية مساوية للقوة ، وواصل المنتخبون والامراء الاحتفاظ بالقوة السياسية .

ولكن علينا ألا ننسى هؤلاء الآلاف من عمال المدن الالمان ، الذين بنوا

السكنائس والسكاندراثيات على الطراز القوطي ، وغيرهم ممن أدخلوا تحسينات على الأوغن ، والذين نبغوا في النقش والحفر على الحجر والخشب والبرونز ، وخلفوا بذلك شهرة عالمية فائقة ، شهدت بمهارة الألمان .

وفي القرن السادس عشر حدث تغير في ألمانيا ، فازدادت الفقر نتيجة للمكشوف عن الطرق البحرية الجديدة ، وسادت البلاد فوضى دينية وإجتماعية نتيجة لتحول أذهان الأهالي إلى ضرورة الإصلاح الديني ، وأصبح الدين لا الفن هو العامل الفعال ، وزاد إهتمامهم بكتابات لوتر ، كما زاد إهتمامهم بالموسيقى ، التي سيلبغون فيها .

٤ - النهضة في إنجلترا :

كانت إنجلترا قد قاست الكثير من حروبها الطويلة مع فرنسا ، حرب المائة عام ، وهي التي إنتهت بطرد الإنجليز من فرنسا سنة ١٤٥٣ . ولم يمض طمان على نهاية هذه الحرب الطويلة ، حتى بدأت حرب جديدة ، معروفة باسم «حروب الوردتين» . وبعد أن تركت إنجلترا محاولتها لإحتلال فرنسا ، عملت على بسط نفوذها على الجزر البريطانية ، وعلى ضرب الأقطاع الموجود داخل الدولة ، والتوسع في التجارة ، وإنشاء المستعمرات فيما وراء البحار ، ويرجع الفضل في كل ذلك إلى حروب الوردتين (١٤٦١ - ١٤٨٥) .

وكان استمرار الحروب في إنجلترا من أهم أسباب تأخر ظهور النهضة فيها . وبعد نهايتها ، أخذت الدراسات الإنسانية طريقها إلى إنجلترا . وكان هناك بعض الإنجليز الذين تزودوا من الدراسات الإنسانية في عدد من المدن الإيطالية ، مثل فلورنسا وروما والبندقية ؛ وبعد أن عادوا إلى إنجلترا ، أخذوا يحاضرون ويدرسون ويشرحون في أكسفورد ، حتى سماوا بإسم «مصلحو أكسفورد» . وساعدت زيارات إرنزم لأكسفورد في سنة ١٤٩٩ ، ثم إقامته في كمبردج (١٥١٠ - ١٥١٣) ، على إزدهار الدراسات الإنسانية والتقدم فيها .

ولقد حاضرت في اللغة اليونانية القديمة ، ونشأت حوله مجموعة إهتمت بهذه الدراسة . وكان من أعلام إنجلترا في هذا العصر توماس كولينت ، والسير توماس مور ، اللذان كانا من أصدقاء إوزم ؛ وتعاون ثلاثتهم على نشر الإنجيل ، حتى يصل إلى يد كل فلاح ، وغزال ومسافر . ولقد نادوا بضرورة تحرر الفكر الانساني من تلك القيود التي كانت تفرضها الكنيسة عليه ؛ وكانوا متأثرين في ذلك بروح النقد الجديدة ، وطالبوا بضرورة إصلاحها .

وأخذت النهضة في إنجلترا طابعا دينيا ، لخدمة المسيحية ، وإختلفت بذلك عن النهضة في إيطاليا وفرنسا . التي أتجهت اتجاهاً وثيقاً ؛ وحاولت النهضة في إنجلترا أن توفق بين الفن والعقيدة ، وبين الجمال والدين . ولقد أعطت النهضة في إنجلترا تراجم لأعلام الفكر القديم ؛ كما ترجمت الكثير من الانتاج الأدبي لرجال النهضة الايطاليين ، قبل أن تشهد قمة انتاجها الأدبي ما كتبه شكسبير وجون ميلتون .

وقبل أن ينتهي القرن الخامس عشر ؛ كان أحد البحارة من جنوا ، وإسمه جون كابوت Cabot قد أقبح ، بتصريح من ملك إنجلترا سنة ١٤٩٦ ، على ظهر سفينة من بريستول في غرب إنجلترا ، ثم عاد يحمل أبناء هامة عن وصوله إلى أراض في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي . وترجع نيو فونديلاند ، أقدم ممتلكات التاج البريطاني ، إلى حكم هنري السابع ، الذي رأى أهمية الدور الذي يجب على إنجلترا أن تلعبه في الجزر البريطانية ، وفي ارتباطات بلاده الوثيقة بالقارة الأوروبية ، وفي الأفاق الواسعة فيما وراء البحار ، نتيجة لروح المخاطرة التجارية والبحرية الموجودة عند أبنائها .

٥ - النهضة في إسبانيا والبرتغال :

لقد تمثلت روح النهضة في إسبانيا في توحيد أراجونة وقشتالة ، والتخلص من آخر حكم للمسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ممثلاً في غرناطة . وكان هذا

تمهيداً لروح المخاطرة الأكبر ، والبحث عن المجهول ، المتمثلة في حركة الكشوف الجغرافية ، والذي وقع عبؤها الكامل على كل من إسبانيا والبرتغال .

وإذا كان كريستوف كولومب قد وصل إلى أمريكا ، فإن مجهودات طويلة كان البرتغاليون قد قاموا بها ، من قبله ، للوصول إلى الهند بالاقلاع جنوباً تجاه السواحل الغربية للقارة الإفريقية ، تمهيداً للالتفاف حول أقصى جنوب القارة ، والوصول إلى المحيط الهندي ، وإلى الهند . وهكذا توصل بحارة شبه الجزيرة الأيبيرية ، وبتعزيد ملوكها ، إلى عالم جديد له ثرواته ، وإلى ثروات الشرق الأقصى ، التي أخذوا يتقانونها عبر طريق الرأس إلى بلادهم ، في غرب أوروبا . وهكذا أدت هذه الحركة ، التي نبعت أساساً من النهضة وروحها ، إلى تحول المكاسب المادية الناتجة عن التجارة الدولية من أيدي دول الشرق الأوسط والمدن والموانئ الإيطالية ، التي كانت مهد ظهور النهضة ، إلى دول غرب أوروبا ، المطلة على المحيط الأطلسي . وكانت هذه نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتاريخ البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، وبالنسبة لتاريخ العالم كله .

ومن ناحية أخرى سنجد أن ظروفها كثيرة قد أجبرت إسبانيا ، وقت النهضة ، على أن تكون من أقوى الواقفين مع الكنيسة الكاثوليكية ، مستخدمة في ذلك محاكم التفتيش ، رغم أن حركة النهضة كانت قد واجهت ، فكرياً على الأقل ، هذه الكنيسة وتصرفاتها ، وفي كل مكان . وازدادت صلابة وقفة إسبانيا مع الكنيسة والبابوية ، في الوقت الذي ظهرت فيه حركة الإصلاح الديني .

الْبَيْكُ الْخَامِسُ

الكشوف الجغرافية

وبداية الاستعمار

الفصل الثالث عشر

كولومب والعالم الجديد

بدأت فكرة الوصول إلى الهند عن طريق الغرب في الإختبار في رأس كريستوف كولومب بعد أن وقعت في أيديه « صورة العالم » . وهكذا يمكننا أن نقول أن الأتراك العثمانيين كانوا مسئولين ، بطريق غير مباشر ، عن اكتشاف العالم الجديد ، خاصة وأنهم كانوا قد ساهموا في إقفال طريق آسيا والشرق الأقصى ، المار في الشرق الأدنى ، كما أن استيلاءهم على بينظة قد تسبب في خروج عدد كبير من العلماء والأدباء من هذه المدينة وذهابهم إلى إيطاليا ، مما سمح للغرب بمعرفة التراث اليوناني القديم . وترجمت كتب بطليموس في بولونيا إلى اللاتينية ، وكان يصرف فيها على أن العالم مستدير . وطبعت « صورة العالم » ، وأخذ بعض العلماء الأوربيين يعتقدون في كروية الأرض . وكان الأوربيون يقرؤون في ذلك الوقت كتابات ماركو بولو ، ويحلمون ببلاد شيبانجو (اليابان) وكائاي (الصين) وبلاد الخان الأكبر أو الخاقان ، كما كانوا يقرؤون كتب الجغرافية وقصص الملك يوحنا الراعي . وكانوا يؤكدون وجود أراض وجزر غريبة وعجيبة في المحيط الأطلسي ، مثل الأتلانتيد ، التي تحدث عنها أفلاطون ، وجزر الأنتيل ، التي التفتأ إليها سبعة أساقفة فروا حسب الرواية من « وحشية » المغاربة المسلمين . وكان الأوربيون يروون هذه القصص ، ويشيرون إلى أماكنها على خرائط العالم ، وكأنها موجودة بالفعل . وفي هذا الوقت وفي هذا الجو ظهر كريستوف كولومب البحار وظهر في جنوا .

(١) كريستوف كولومب

كان كريستوف كولومب شاعراً ومسيحياً وواقعياً في نفس الوقت . كان

شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة في عصره ، ومسيحياً لأنه كان مستعداً للقيام بحملة صليبية جديدة ، وواقعياً لأنه اعتقد في أن الأرض كروية ، وأنه يمكنه أن يجد في الغرب ، ما قام أجداده بالبحث عنه في الشرق .

ولكن خرائط ذلك الوقت كانت غير دقيقة ، وكانت تقرب المسافات ، كما أن أخطاء أخرى كانت موجودة وراء دوافع كولومب ، فلم يعد هناك لحاح أكبر ، أو خاقان في الصين ، ولم يكن هناك يوحنا الراعي في الهند ، ولا في غيرها من البلاد ، ولم تكن هناك قارة تسمى الأتلانتيد . ولذلك فإن اكتشاف العالم الجديد كان وليد الصدفة ، ولكنه كان في نفس الوقت وليد الرغبة في الحصول على الذهب والفضة ، التي كان الاقتصاد الأوربي في أشد الحاجة إليها ، وكذلك الرغبة في الحصول على التوابل اللازمة للأوربيين . وكان المستكشفون يميزون بحب المغامرة ، وإذا بعضهم يحلم بأن يعيش معيشة الفرسان في أوروبا ، فإنه كان يحاول الوصول إلى ميادين معارك جديدة ، وفي آفاق جديدة . وكانت هناك دوافع دينية ، إذ أن الغزاة قد اعتبروا أنفسهم من الصليبيين ، وكان كولومب وأنصاره يعتقدون أنهم يذشرون المسيحية ويوفعون الصليب في بلاد الكفار . ورغم تسالبتهم على الذهب والفضة والتوابل والملاذات الجسدية ، فإنهم قد كانوا كالمسيحيين وماتوا كمسيحيين وفي مشروع مسيحي ، في أعينهم وفي أعين العالم كله في ذلك الوقت . وكان كولومب من جنوا ، تلك المدينة التي تسير فيها الأعمال الرأسمالية ، والمسيحية ، جنباً إلى جنب . وبعد أن فشل في الحصول على مساعدة ملك البرتغال وملك آخرين في أوروبا ، تقدم إلى ملك إسبانيا وملككتها ، فرديناند وإيزابلا ، وذكر لهم أن هدفه الأخير هو تخليص الأراضي المقدسة ، واستخدام الكنوز التي سيعود بها من رحلاته في هذه العملية . ولقد عينته إسبانيا أميراً للبحر ، ونائباً لذلك ، في كل البلاد التي يكتشفها ، ومنحته الحق في عشر الأكليل والأحجار الكريمة والذهب والفضة والتوابل ، وأي سلع يجدها في هذه البلاد .

وجنر كولومب ثلاث سفن عليها تسعون بحارا ، وثلاثون مسافرا بينهم طبيب وجراح ومترجم وموثق ، وأفلح بها من بالوس صوب جزائر كناريا ، ثم إلى عرض المحيط ، دون أن يعلم أنه بدأ أكبر حركة للاستعمار في تاريخ العالم . وكانت الرحلة هادئة ، ولكن البحارة كانوا قلقين ، وكانوا يعتقدون دائما أن هناك أرضا تلوح على خط الأفق ، ولكن آمالهم كانت تخيب . وطلب مساعد كولومب منه أن يحول اتجاه السير قليلا إلى الجنوب ، بدلا من مواصلة السير صوب الغرب ، ولولا هذا التغيير لوصل كولومب إلى فلوريدا ، ولأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة إسبانية . ولكن كولومب وافق على نصيحة مساعديه ، ووصل إلى أمريكا الوسطى ، التي ستصبح مع أمريكا الجنوبية من مستعمرات الملوك الكاثوليك .

وتأكدت دلائل الاقتراب من الأرض في اليوم السابع للرحلة ، وذلك بعد أن شاهد البحارة بعض الحشائش وأحد فروع الأشجار تعوم على وجه الماء ، كما شاهدوا بعض الطيور . ثم ظهر الساحل ، فاقتربت السفن وأنزلت القوارب ، وقفز منها كولومب على الشاطئ ، وركع وقبل الأرض ، وحمد الله ، ثم أشبر سيفه ورفع علم قشتالة ، وأمر الموثق بتحرير وثيقة الاستيلاء على هذه الأراضي باسم فرديناند وإيزابلا في سنة ١٤٩٢ .

ولم يكن هذا الساحل ساحل الصين ، ولا بلاد الذهب ، إذ أن كولومب كان قد وصل إلى إحدى جزر البهاما في شمال كوبا . أما الأهالي فقد خافوا من رؤية السفن والأشعة والرجال الإسبانين ، ثم أخذوا في الاقتراب منهم لمحاولة التعرف عليهم ، فمنحهم كولومب بعض الخرز والأجزاء الصغيرة التي كان قد أحضرها معه . وكان لون الأهالي داكنا ، وأطلق الإسبانون عليهم اسم الهنود ، وبقي هذا الاسم مستعملا حتى الآن .

وواصل الاميرال حملته من جزيرة إلى جزيرة ، باحثا عن الذهب والتوابل

والخان الأعظم الذي كان يحمل له خطاب توصية من ملك أسبانيا . وكان الأهالي يدلونه على أن الذهب يوجد عند القبائل المجاورة لهم ، وبدلا من التوابل لم يجد سوى القطن . إلا أنه لاحظ نباتات وشجيرات كثيرة ، يمكن استخدامها في الصباغة وفي الصيدلة والطب في أوروبا . ثم وصل إلى كوبا ، وسماها جوانا نسبة إلى ولي عهد قشتالة ، ثم وصل إلى هايتي وسماها هسبانيولا ، وبقي فيها قلعة ، وترك فيها تسعة وثلاثين بحارا ، كانوا أول المعمرين من أوروبا في العالم الجديد .

وعاد كولومب بعد ذلك إلى أسبانيا التي استقبلته استقبال الأبطال الغزاة ، وهتفت الجماهير باسمه ، وأنعم عليه الملك والملكة . وإذا كان كولومب قد عاد بكمية قليلة من الذهب والجواهر وبعض الببغاوات والهنود الجر من كوبا ، إلا أنه كان يحمل الأمل في الاستيلاء على مستعمرة كبيرة ، وليس لها حدود . وسافر كولومب من جديد ، كأمر للبحر المحيط ، ونائبها الملك في الهند . وبلغت رحلاته أربعة ، اكتشف فيها جزر الأنتيل والبحر الكاريبي ، وبحث فيها عن مصب الكنج ، ولكن بدون فائدة .

وظهرت المصاعب أمام كولومب ، ثم ازدادت في كل يوم . ولقد بدأت هذه المصاعب مع الأهالي ، الذي صعب على الأسبانيين التواهم معهم ، وصعب عليهم إجبارهم على احترامهم . وكان كولومب يعتقد أنه أتى بالسعادة الأزلية لهم ، وذلك بمنحهم الحضارة الأسبانية ، وتعريفهم على إله المسيحيين . ولم يطلب منهم في نظير ذلك سوى الذهب ، ولم يعطه الأهالي منه الكثير .

ولقد وجد الهنود أن الأسبانيين قساة القلوب ، وشهوانيين ، فقتلوا كل المعمرين الذين أقاموا في هسبانيولا ، وكانوا مستعدين لقتل غيرهم ، وبدأت مصاعب كولومب مع الأسبانيين أنفسهم ، وعملت الغيرة والوشاية عملها في هذا الميدان ، وتمرد عليه بعض الأسبانيين ، ونظر إليه آخرون على أنه ايطالي . وخابت آمال كولومب في البلاط نفسه ، الذي ظهر تردده تجاه

كولومب بعد هذه الرشايات . ونقد الوشاة مشروعات كولومب ، وذكروا أنها تكلف اسبانيا أكثر مما تدر عليها ، وأنه فشل في العثور على تلال الذهب وشحنات التوابل ؛ فأرسل البلاط حاكماً جديداً للمستعمرات ، وزوده بسلطات مطلقة ، وكان وصوله يعنى بالنسبة لكولومب نهاية رضاه القصر . وسرعان ما كبل الحاكم كولومب بالسلاسل وأرسله إلى اسبانيا . وإن كان الملوك الكاثوليك قد أطلقوا سراحه فيما بعد ، واعترفوا بأنه كان أول غزاة العالم الجديد .

وأخذت المستعمرة في الازدهار رغم كل ذلك ، ووصل آلاف المغامرين إلى هسبانيولا وكوبا وانتقلوا من مركز لآخر ، وأقاموا في الانقيل في بورتوريكو ، وفي جمايكا ، وفي جزر البحر الكاريبي ، ولم يكن هذا هو العالم الجديد ، وإن كان عالماً جديداً .

ولقد أثار هذا الاستكشاف مشكلة سياسية ، خاصة وأن رو

قد أعطت للبرتغال كل الأراضي الواقعة على طريق الهند . فأرسل الملوك الكاثوليك السفارات من اسبانيا إلى الفاتيكان ، لكي يشرحوا أن ممالكهم الجديدة هي انتصار كبير للمسيحية ، ولكي يطلبوا من البابا منحهم هذه الأقاليم . ووافق البابا اسكندر السادس ، وكان اسبانيا ، وأصدر مرسوماً منح به ملك ومملكة اسبانيا الامتيازات المماثلة لتلك التي أعطها الملك البرتغال في اكتشافاتهم الإفريقية . ثم أصدر مرسوماً ثانياً لمنع أي طعن من هذا الجانب أو ذلك ، وقسم الامبراطوريتين بخط يمر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ، على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات ، وجزر الرأس الأخضر : فأصبح كل ما يقع إلى غرب هذا الخط من نصيب اسبانيا ، وكل ما يقع إلى شرقه من نصيب البرتغال . ولكن برشلونة طعنت في هذا التقسيم ، ثم تفاوضت وحصصت من اسبانيا ومن البابا على مرسوم آخر ، نقل خط التقسيم إلى ثلاثمائة وستين فرسخاً إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر سنة ١٤٩٤ . وحدد هذا المرسوم الجاوي لتقسيم العالم ، طرق

الكشوف والاستعمار الموصلة إلى الهند ، وترك الطريق الغربي للاسبانيين والطريق الشرقي للبرتغاليين . ولكن أحدا في روما أو اشبيلية أو لشبونة يفكر في ذلك الوقت في أن هذا الخط سيقسم القارة الامريكية ، وأنه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية ، لقارة ستصبح إسبانية . ولم يفكر الاسبان والبرتغال إلا في الإسراع في مشروعاتهم ، التي كانت تهدف الهند ، سواء من الغرب أو من الشرق .

أما كرسوف كولومب فإنه قد قضى ما بقى له من أيام في الخيالات ، وأدعى على أنه قد وصل إلى آسيا واكتشف سواحلها ، ونزل إلى قارة الهند . كما أصر على حقوقه وورثته ونصليهم في الأرباح ، وعلى ضرورة العمل على تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين . لقد كان يهنى وكان لا يعرف المجد الذي سييسجله له التاريخ . ونقلت جثته بعد وفاته إلى الجزر التي اكتشفها ، والى كانت وطنه الثالث ، بعد جنوا وبعد اسبانيا .

٢ - الامبراطوريات السابقة لكولومب :-

ولقد اشتمل العالم الجديد على امبراطوريتين هما امبراطورية الأزاتكة المكسيك ، وامبراطورية الإنكا في بيرو ، في الوقت السابق لوصول الاسبانيين وكانوا قد استعمروا غيرهم قبل أن يقوم الاسبانيون باستعمارهم . أما امبراطورية الأزاتكة فكانت تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادى ، ومن هضبة المكسيك حتى نيكاراغوا . وكان الأزاتكة قد جاءوا من الشمال في القرن الثالث عشر ، وانتشروا مدينة في وسط المستنقعات ، وفي المكان الذي شاهدوا فيه نسرأ كبيرا يأكل حية ضخمة ، فاعتقدوا أنها اشارة من ربهم « مكسيتملى » لوقف مديرتهم ، وبناء عاصمتهم ، التي ستحمل اسم مكسيكو وسرعان ما اتحدت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية . وسادت قوانين الأزاتكة ، وانتشرت آلهتهم في كل المنطقة . وتحدثت الفلاسفة وعلماء الآداب

عن عادات الأزمات وما تركوه من قصور ومعابد وأهرامات ، وعلينا ألا ننسى وحشية الأهل في هذا الأقليم ، وهذا العصر : ذلك أن الأزمات كانوا يحبون الدماء ، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله ، ولكن على أساس احتفاظ الدولة بحق التضحية به ، وكما ترى ، بمجرد أن تطلب الآلهة تقديم القرابين والضحايا لها . وقام الأزمات بذبح عشرين ألف رجل ، وباحراق قلوبهم بعد إنزاعها من أجسادهم ، كضحية لافتتاح معبد مكسييتلي . وكان الأزمات يسلخون بعض البنات ، وهن أحياء ، في إحتفالات عودة فصول معينة في كل عام . أما المجتمع فكان أولي جاركياً في أول الأمر ، وله مجلس شورى ، وينتخب رئيسين مدنى الحياة : الأول لإدارة الأمن وجميع الضرائب ، والثانى لقيادة الجيش وللإشراف على المكنتة . ثم تفوق الثانى ، وكان ينتخب من أفراد أسرة معينة ، وأصبح امبراطوراً وراثياً . وكانت السلطة تمر بعد وفاته إلى أخيه ، أو إلى أقرب أقربائه ، من ناحية الأم .

وكان الأزمات يعرفون الذهب والرصاص والبرونز ، ولمكنهم كانوا يجهلون الحديد . وكانت تجارتهم بدائية وتعتمد على المبادلة والمقايضة ، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس ، أو كمية التبر في أنابيب من ريش الطيور ، كعملة بدائية . وكانوا لا يعرفون العجلات أو الخيول أو أى دابة من دواب الحمل ، فسكان الحملون يحملون كل ما يرغبون فى نقله ، ويسيرون فى عمرات صغيرة وضيقة ، شقها المساجين وسط الجبال أو الغابات ؛ وكانت نساء الممرات هى الطرق الوحيدة الموجودة فى ذلك العصر ، والى كان كل من الحجاج والحملات العسكرية تستخدمها . وكان الحج إجبارياً ، كما كان يسمح بالإشراف على إستعباد التباهل المهزومة . وأما الحملات العسكرية فكانت تسهل تموين المعابد بالضحايا البشرية اللازمة لارضاء الآلهة . وكانت الإمبراطورية تنقسم إلى عدد من الأقاليم ، يتمتع كل منها بالاستقلال الذاتى ، سواء فى الشؤون الإدارية أو السياسية .

ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية ، من ملابس وخبواب وفواكه
وفسور حية وحقود من الذهب ، كما كان يرسل عدداً معيناً من الرجال للخدمة في
سجنوش الحكومة الامبراطورية . ولقد عاشت امبراطورية الازاتكة منطوية على
نفسها ، ولم تتصل بامبراطورية الانكا ، التي نمت إلى الجنوب منها ، خاصة وأن
الجيال والبحار والمستنقعات والغابات والحيات كانت تفصل بينها .

أما امبراطورية الانكا فكانت قد نشأت في الأقاليم الإستوائية من أمريكا
اللاتينية في بداية القرن الحادى عشر ، وأصبحت تمثل تجربة تاريخية هامة لإقامة
حكومة تعتمد على التوجيه ، وعلى التخطيط ، ولحاق مجتمع منظم فى وسط
الفوضى . وفرض نظام جماعى لشعوب متباينة تضم المزارعين والرعاة .

ولقد تمكن أحد رؤساء قبيلة الانكا ، من السيطرة على الإقطاعيين ، ومن
توحيد الهنود الحمر ، ثم واصل خلفاؤه عملية مركزية الحكم من بعده ، وضموا
أراضى السادة ، وعملوا على مد الامبراطورية على طول سواحل المحيط الهادى ،
بشكل جعل من الهنود رعايا للانكا .

وكان الانكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسى لهذه الدولة ، ويعتقد أنه
من سلالة الشمس ، ويمثلها على الأرض ؛ وكان يسيطر على رؤساء القبائل ، أو
الكاباك ، الذين يشرفون بدورهم على رؤساء الجماعات والموظفين المسؤولين .
وكانت مجموعات الانكا ، وجماعاتهم تشتمل على عشرة ، أو خمسين ، أو مائة ،
أو خمسمائة ، أو ألف رجل . ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة آلاف
ومائة ألف . وكان كل شيء يبدأ من الانكا ، وكان كل شيء ينتهى إليه . وكانت
الإدارة متدرجة متسلسلة ، ومتخصصة ؛ وكان لإختيار الضباط والمديرين وكبار
الموظفين يقع من بين الكاباك ؛ ثم يتبع ذلك لإختيار القضاة وأصحاب الحوانيت ،
ويقوم رئيس العشرة بأعمال الامن العادية . أما الأراضى فكانت ملكاً للانكا كما

كانت في مصر القديمة ملكا لفرعون ؛ وكان على الأهالي زراعتها ، على أن يقسموا المحصول إلى ثلاثة أقسام : الأول للشمس ، أي للكهنة ، والثاني للدولة ، أي للمعجزة والأراهل والأيتام ، والثالث « للمجتمع » ويقسم بين الأسر الموجودة .

وكان العمل إجباريا ، كما كان تنظيم أوقات الفراغ إجباريا كذلك ، وبشكل لا يترك للفردية أي مجال . وكان الإنتاج يركز في مخازن عامة كما كان الاستهلاك محددًا ومخططًا . وكانت المساكن متشابهة ، وكذلك الوجبات ، من الذرة والبطاطس . وكان الثمائل تاما ، والنظام دقيقاً والبتويات صارمة . وكان هناك تحديد لعدد الملابس ، وللأوقات تناول الطعام ، وتحديد الأماكن الإقامة ، ولساعات اللهو والفراغ . وأدى هذا التخطيط إلى تقليل الشخصية والفسردية ، وإلى زيادة الطاعة والسلبية .

وكان الأهالي يعرفون صهر النحاس وتشكيل البرونز ونسج الصوف وبناء القصور والمعابد والحصون ، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد والمعجلات والكتابة . ونجح النظام الشيعوى عند الانكسار ، وضمن للأهالي حاجياتهم الضرورية ، ومنع عنهم أخطار الجماعات . ورأى بعض المؤرخين أن هذه الإدارة الهامة الجماعية كانت هي كل شيء ، وقضت على كل شيء فيما عداها . وحتى على الإنسان ، الذي أصبح يمتاز بالكسل والخنول العقلي ، ويرفض التغيير والتعديل .

والواقع أن إمبراطورية الانكسار قد أخضعت غيرها في الوقت الذي زادت فيها سلطات رأس دولتها ، عن السلطات التي يتمتع بها رئيس أي دولة شيعوية . وكانت الإمبراطورية تهضم كل إقليم تستولى عليه وتخضعه لها ، ولكنها كانت تترك له آلهته ، في نفس الوقت الذي تحاول فيه إدخال دياناتها وعبادة الشمس فيه . وكان الموظفون يعملون على تطبيق قوانين الإمبراطورية في هذه الأقاليم ، كما كانوا يعملون على نقل الأسر والتمائل غير الخاضعة من منطقة لأخرى ، حتى يصلوا إلى كسر شوكتها وإذابتها في النطاق الجماعى .

وقدر العلماء سكان إمبراطورية الانكا بأثنى عشر مليوناً ، وهو عدد يقارب عدد سكان إمبراطورية الازاتكة . أما بقية القارة فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين ، موزعين بدون حكومات وبدون حضارات هامة . ولزدهرت الحياة المستقرة في المنطقة المدارية حيث كانت الأمطار تساعد على نمو النباتات ، وحيث كانت الذرة تنبت بالأمطار وبدون زراعة . وكانت معظم القبائل الأخرى شبه مرتحلة ، أو تعمل بالرعي أو الصيد . وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكام لإدارة قبائل سكان البمبا وغابات الأمازون ومراعي الشمال ، وكانت هذه القبائل تعبد أصناماً معينة أو أنواعاً من الحيوانات ، وكانت تأكل لحم الجاموس البري ، وتدخن الطباقي ، وتعتبر الأنهار في قوارب تنحتها من جذوع الأشجار ، كما كانت تستخدم القوس والسهم . وكان الهنود الجر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الإلتصاف عليهم ، ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها . وروى كولومب نفسه أنه رأى بعض بقايا حجم بشري تطهى في قدر على النار ، وإستند في ذلك إلى أن الهنود الجر كانوا يأكلون لحم البشر . في نفس الوقت الذي يأكلون فيه لحوم الببغاوات .

إذا كان في وسع الأسبانيين أن يصلوا إلى العالم الجديد ، ومهما إلتصفوا به من القسوة والتحكم فإنهم كانوا يحملون الأعمال في العالم الجديد ومسائل حياة ونظم تسمح لهم بتحسين حالهم . فقد كانت الحضارات السابقة لمكولومب ، وبقى المتفرعة منها ، متأخرة عن حضارة أوروبا في ذلك الوقت بألفي سنة . وإذا كان الازاتكة يسلمون القرابين البشرية ، والانكا تنخفض بمستواهم إلى الكسل والسلبية ، وتقوم قبائل البراري بأكلهم ، فلا يمكننا إلا نرى تقدماً واضحاً مع مجيء الأسبانيين ، الذين نزلوا بمستوى كل الهنود الجر إلى مستوى العبودية . ولكن هل كانت روايات الأسبانيين عن الحضارات السابقة لهم روايات حقيقية علمية ؟ وهل كان من حقهم أن يفرضوا حضاراتهم وطريقة معيشتهم على غيرهم

وبالقوة؟ وهل كان من حقهم نهب موارد الأقاليم وذمها وإرساله إلى أوربا؟
وإذا رضى الأهالي أو ثاروا، فقد كان عليهم أن يخضعوا لحكم الغزاة، إذ لم
تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم، أو للدفاع عن أنفسهم. فقد كان
الاسبانيون مزودون بالخيول، ومهروا في ركوبها حتى أصبح الفارس وكأنه
مرتبط بفرسه، وكانوا مزودين بالبارود الذي يقتل عن بعد ويرعد مثل البراكين
ويجعل الأهالي ينظرون إليهم كآلهة. ولقد فتحت أمريكا للغزو الإسباني بكل
سهولة، وكان ساحلها الشرقي مأوياً بالآلاف الخلعجان والآلاف المصبات والأنهار
الصغيرة. وإذا كانت أوربا قد نظرت إلى العالم الجديد كعقبة في سبيل الوصول
إلى الهند، فإن هذه النظرة لا تمنح من كون أمريكا عقبة سهلة، بل ومحطة متوسطة
يمكن عبورها والوصول منها، وبها إلى الهند.

ولقد أطلق اسم أمريكا على هذا العالم الجديد نسبة إلى امريجو فسبوتشى
الفارنسى والذي كان قد إصطحب كولومب في إحدى رحلاته سنة ١٤٩٩،
والذى كان من أوائل من وصل إلى القارة الأمريكية. وكان أول من نادى بأن
هذه الأراضي الجديدة لم تكن آسيا، فأصر لوران دى مديس على إطلاق اسمه
على العالم الجديد. وقام أحد رجال الطباعة بوضع هذا الاسم على الخريطة الذى
نشرها على العالم، رغم أن الأوربيين ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد
باسم الهند.

٣- غزو الهند العربية :

ولقد إنتهت عملية الغزو كلها في مدة خمسين سنة، قام خلالها الغزاة
الأوربيون بالإستيلاء على إمبراطوريتى الازاتكة والانكا، وبإخضاع القبائل،
وبإحتلال ثاى سواحل القارة. ومهما كان الوصول إلى أمريكا سهلاً ومهما،
وكانت وسائل البيض متفرقة، إلا أن نجاحهم كان عجيباً، ذلك لأن بضعة
آلاف من الرجال قد تمكنوا من الإبتصار على ثلاثين مليوناً من الهنود الحمر، كما

انتصروا على البغوض والزواحف والحميات واثوج الجبال وشمس المناطق الاستوائية ووحوش الغابات . ولا شك في أنهم كانوا قد تملقوا على المتاعب الجسدية، وشحنوا همهم وعزائمهم في حروبهم المتصلة ضد المغاربة في الأندلس، كما شحنوها بشعورهم بالتفوق الحضارى والجنسى على غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا يستحقون لأنفسهم بكل شيء وبدون تردد .

وكان مشروعهم للاستعمار مشروعا عاما وخاصة في نفس الوقت : ذلك أنهم كانوا مزودين بمرسوم ملكي وكانوا يحاربون ويقتصرون بإسم ملك إسبانيا ولحسابه ، ولكنهم كانوا ينظمون حملاتهم على نفقتهم الخاصة أو لحساب أصحاب رؤوس الأموال المستعدين لتمويل مثل هذه المغامرات . وفي هذه الحالة الأخيرة كانت هناك عقود موثقة تحدد نصيب وحقوق كل من الأطراف المساهمة . وكان هدفهم هو اكتشاف أراض جديدة ، والإقامة فيها بأحقية وأولية الوصول إليها وحكمها ، وإستغلال الأراضى والمعادن النفيسة ، والمعيشة بألقاب طنانة وبمجد يثير الغيرة والحسد الأكبر سادة قشتالة في هذا الوقت . ويمكننا أن نذكر هنا بعض الاسماء لقادة الغزو الذين سجلوا أسماءهم في العالم الجديد ، مثل بالبوا وكورتيز وبيزارو . وربما كان الحظ قد ساعدهم أكثر من غيرهم، ولكنهم إستحقوا تسجيل أسماءهم في التاريخ ، حتى ولو كان ذلك بناء على المآسى التي ارتكبوها في أمريكا .

أما بالبوا فقد بدأ حياته مزارعا في الجزر ، ولكنه هرب بعد مطاردة الدائنين له ، وإختفى في أسد البراميل على ظهر إحدى السفن ، ولم يتحرك إلا عند رسو السفينة عند برزخ بنما . وعرف هناك أنه يوجد إل الجنوب مناجم المذهب وبحر آخر . وواتته الفكرة بأن هذا البحر قد يكون بحر الهند ، فسار لمدة عشرين يوما داخل الغابات حتى رأى من أعلى أحد التلال محيطاً كبيراً ليست له من نهاية ، فنزل في الأمواج شاهرا سيفه ، وأعلن ملكية ملك إسبانيا لبحر

الجنوب ، الذي أصبح فيما بعد المحيط الهادى . ولقد عينت إسبانيا بالبو حاكما على هذا البحر ، فنقل أربع سفن ، بعد تفكيكها ، عبر البرزخ ، ثم جمعها ، وكان أول من يبحر على هذه المياه الجديدة .

أما فرديناند كورتيز فكان من طبقة متوسعة ، وفشل فى دراسته وذهب إلى كوبا للبحث عن الثروة . واختاره فاليسكين حاكم الجزيرة لقيادة حملة ضد القارة ، وكانت تتألف من إحدى عشر سفينة ، وعليها مائة وتسعين من البحارة ، وخمسةائة وثمانين من الرجال ، وستة عشر فرسا ، وعشرة مدافع . ونزلت الحملة على ساحل المكسيك حيث أقاموا الصلاة وبدأوا فى الإتصال برؤساء الأزانكة وأعطوهم بعض الخرز . وعاد الأزانكة يحمون هديتهم بدون حذر ، وكانت عبارة عن صناديق مليء بالذهب ، هدية من إمبراطورهم مونتزوما ، وكانت الطامة الكبرى : إذ أن كورتيز قد طلب من الرسل أن يطلبوا من سيدهم الإستمرار فى إرسال الذهب ، وكثير من الذهب ، بدعوى أنهم مرضى بالقلب ، وأن علاجهم لم يكن سوى الذهب . وأسرع كورتيز بجمع عدد من الخمالين من قبيلة كانت قد ثارت على حكم الأزانكة ، وسار على رأسهم إلى مكسيكو . وتمكنت نيوله ومدفعيته من القضاء على جيش من الهنود بلغ أربعين ألفا ، وقبيل مونتزوما إستقبال الاسبانين وهو لا يعرف أن كانوا من الرجال أو الآلهة ، بعد أن سمع قصص مدافعهم ، وإلتقت حضارتان عند مدخل مكسيكو ، وكانت كل منهما تتحدى الأخرى . وعسكر أربعمائة إسباني فى النقط الإستراتيجية من مكسيكو ، وفى قلب إمبراطورية بلغ عدد سكانها إثنا عشر مليوناً . ولم يتردد كورتيز فى تحطيم تماثيل آلهة الأزانكة وفى نصب تمثال السيدة العذراء على المذبح . وطلب من مونتزوما أن يقسم بولائه ، ثم إستولى على أطنان من الذهب من القصر الملكى . ونضعت إمبراطورية الأزانكة تماما فى مدة سنتين ، رغم أن الأهالى قد قاموا بمحاولات عديدة للدفاع عن أنفسهم ، وتكثروا من إجبار الاسبانين ، فى ظروف

معيّنة ، على الفرار من العاصمة ، مشيعينهم بصيحاتهم وبالأحجار والسهام . ولكن
الاسبانيون عادوا ، وقتل موتزوما ، وأصبحت إمبراطوريته تسمى إسبانيا
الجديدة في سنة ١٥٢١ .

وجاء دور الانكا بعد الأزمات وتم إخضاعهم في سنتين ، وكان قائد العمليات
ضدها هو فرانسوا بيزارو ، الذي كان من رجال بالبو في عملياته الأولى . وكان
بيزارو قد بدأ حياته في أحد المزارع ثم تطوع كجندي ثم كبهار . ولم يكن
يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان يمتاز بالقسوة وغلظة القلب . وعبر خط
الاستواء وعرف أن أحد الملوك الأقوياء والأغنياء يحكم في بيرو فعاد وشرح
القضية لبلاط طليطلة ، وذكر أن بيرو لم تكن إلا ذهباً يستولى عليه ، ونفوساً
تطلب الهداية والدخول في المسيحية . فمنحه البلاط مرسوماً بتعيينه قائداً أعلى
وحاكماً عاماً لما سيصبح قشتالة الجديدة فيما بعد وإستند بيزارو الى هذا المرسوم ،
وأخذ في جمع رجاله وتنظيم جيشه الذي وصل إلى سبعة وعشرين فرس ، ومائة
وثمانين رجل زادوا فيما بعد نتيجة لوعدهم بالحصول على الأسلاب والغنائم .
وعبر الصحراء القاحلة ، ثم التهم المغطاة بالشاوج ، ووصل إلى الانكا وشرح
له أن مرسوم البابا قد قسم العالم ، وأن البابا يمثل السيد المسيح في الأرض ، وأنه
هو ، فرانسوا بيزارو ، يمثل ملك إسبانيا . ولكن الانكا لم يكن يعرف غير
الإله الشمس الذي كان في نفس الوقت جده الأكبر ، ولم يكن قد سمع بالسيد
المسيح ولا بملك إسبانيا ، فالقى بالكتاب المقدس الذي أعطاه له بيزارو على
الأرض . فلم يكن من بيزارو إلا أن لوح بمنذيله الأبيض ، وكانت علامة متفق
عليها للهجوم والالتحام . وتصايح الاسبانيون وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ثم
هجم الفرسان ، وتبعثر حفل الاستقبال وقبض الاسبانيون على الإمبراطور ،
وأخذوا يتمرغون على الذهب ويضعون الأسرى في السلاسل . وقد قبل الانكا
أن يفدى نفسه بمليء الحجر التي ممدج فيها بالذهب ، وحتى إرتفاع تسعة أقدام ،

ونفذ وعده . ولكن بيزارو لم يترك الأسير ، وحكم عليه بالتعميد ثم بالقتل ،
لا الواحدة أو الأخرى . وأصبح آخر أباطرة الانكا مسيحياً ، ثم خنقه المسيحيون
الاسبانيون .

ولم يتحرك شعب الانكا ، خاصة وأنه قد تمرن منذ قرون ، على الطاعة
السلبية ، فقبل الموقف الجديد واعتقد أنه غير امبراطوراً بامبرطور آخر . ومد
أثنا عشر مليوناً ، من العبيد ، أيديهم إلى الأسبانيين . لكي يضعوا فيها السلاسل ،
كما يقول المؤرخ جان ديكيولا .

ولم يكن بالبوكورتيز وبيزارو إلا أشهر الغزاة . فلقد كان هناك الكثيرين
غيرهم ممن تعرضوا للعواطف ولل سهام المسمومة وساروا في الادغال . ولكن
هؤلاء كانوا يمثلون الطبقة الأولى من الغزاة ، التي تميزت بحبها للغزو ، وبأملها في
الحصول على كل شيء .

وبعد أن انتهت خرافات الخان الأعظم ، أو الخافان ، وخرافات يوحنا
الراعى ، ظهرت خرافات جديدة ، لإتصلت بالعالم الجديد . فنجد أن أحد رجال
بيزارو ، ويسمى أوربيانو ، قد سمع بعض الهنود يتحدثون عن مملكة مملوءة
بالذهب ، وعن أن ملكها كان يغطى نفسه بالتبر : أنه الملك الذهبي والدورادو ،
وكان قد ورث الانكا وأسس امبراطورية جديدة في داخل القارة . وانتقلت
هذه الخرافة من فم لآخر ، حتى أصبحت وكأنها حقيقة . وأضاف كل فرد إليها
قليلاً حتى روت وجود أسدين مقيدين بسلاسل من ذهب لحراسة القصر
الامبراطورى ، وأن الانايبب التي توصل الماء إلى النافورات كانت من الذهب ،
وأن جبلا من الذهب الخالص كان يشرف على الاقليم . وقام المستكشفون بالبحث
عن هذا « الالدورادو » العجيب لمدة قرنين ، وبحشوا عنه في كل مكان دون أن
يعثروا عليه . ولكن ذلك البحث سمح لهم بالتوغل داخل القارة ، وبالسيطرة
على مناطق أوسع ، وبتهب ما اتصل اليه أيديهم .

ولقد قام المستكشفون بارتداد منطقة فاوريديا ، وساروا من المكسيك حتى كاليفورنيا ، وقام غيرهم بالنزول حتى شيلي ، ووصل آخرون إلى غرناطة الجديدة ، التي أصبحت تسمى فيما بعد بـكولومبيا ، وبدأ مندوزا من نهر ريودي لابلانا غزو الأقاليم التي ستصبح الأرجنتين فيما بعد .

الواقع أن هؤلاء الغزاة لم يكافئوا على الجهود التي قاموا بها إلا من الناحية المعنوية ، وذلك بتسجيل اسمهم في تاريخ الاستعمار ، خاصة وأنهم قد تحاربوا فيما بينهم ، وشابهوا في ذلك الأطفال الذين يتنازعون لعبة معينة ؛ كما شابهوا رجال العصابات الذين يقتتلون عند تقسيم الأسلاب . ولقد غضب البلاط عليهم ، فكان يتهمهم بالخطورة ، إذا كانت لهم صفات رجال الدولة مثل كورتيز ، وكان البلاط يقضى عليهم ويبيدهم ، إذا لم يتميزوا بصفات القيادة . وكثيراً ما قضى عليهم في أثناء قيامهم بعملياتهم إما من الأسبانيين وأما من الهنود الحمر ، مثل بالبو ، الذي قطعت رأسه ، وبيزارو الذي طعن بالسيف وغيرهم عن غرق أو توفى بالحمى ، أو أصابه الجنون أو وقع في أيدي الهنود الحمر . ولكنهم قاموا بعمل استعماري واضح ، وإمتدت الامبراطورية الاسبانية التي أنشأوها وأشتملت على كل جزر الأنتيل ، والبرزخ الذي يصل بين الأمريكتين ، والمكسيك مع سواحلها ، وجزء هام من الشريط الساحلي للقيادة الجنوبية ، واشتملت على امبراطورية الأزاتكة وامبراطورية الانكا .

إمتدت هذه الامبراطورية من كاليفورنيا حتى شيلي ، ولمسافة عشرة آلاف كيلو متراً ، ولم يحكم الاسكندر الأكبر ولا روما ولا جنكينز خان على مثل هذه الامبراطورية .

ولكن هناك نقطة ضعف أخذت في الظهور بالنسبة لهذه الامبراطورية ، وكان ذلك بسبب المرسوم البابوي الذي احتفظ للبرتغاليين بالأراضي الواقعة إلى شرق خط التقسيم . لكن كابرال تمكن من استكشاف أحد السواحل في هذه

المنطقة ، في قارة أمريكا الجنوبية ، لحساب بلاط لشبونة ، وأسماه ساحل الصليب المقدس سانتا كروز . وكانت هذه المنطقة هي التي تزود العالم بخشب الموجونو . وتحولت سانتا كروز فيما بعد إلى البرازيل واكتشف فيها أحد الغزاة في شهر يناير سنة ١٥٣١ خليجاً جميلاً ، أنشأ عليه مدينة سميت ريودي جانيرو . وبدأت الامبراطورية البرتغالية في الإلتساع في العالم الجديد . ولكن اليوم الذي ضمت فيه إسبانيا البرتغال سنة ١٥٨٠ عمل على توحيد هاتين الامبراطوريتين اللتين إمتدتا من الميسيسيبي حتى أقصى الجنوب ، وأصبحت كلها إسبانية ، وأفادت قشتالة من كل هذه العملية .

٤ — ادارة الهند الغربية :

أعلن تاج قشتالة للملوك والدول امتلاكه للعالم الجديد في سنة ١٥١٩ إستناداً إلى منحه الكرسي البابوي وإلى الحقوق الأخرى ، وبشكل يجعل من هذا التاج صاحباً للهند الغربية ، وللجزر والقارات الموجودة في البحر المحيط ، سواء التي إكتشفت أو التي ستكتشف فيما بعد وجاء الاستعمار بعد عصر الغزو . أى عصر الاستغلال لإتمام عملية الفتح ، والوصول بالوسيلة إلى الهدف . ولم يكن الإسبانيون مستعدين في هذا الوقت لإدارة امبراطورية شاسعة ، وبهذه الطريقة ، ولكنهم تمكنوا رغم ذلك من حكمها وإدارتها ، بالسيف والنهب وبالقتل ، وبغيرها من الوسائل التي كانت ممهلة ، وأسهل بكثير من ادارة وحكم شعوب غلبت على أمرها . ولم يتورع الإسبانيون عن اتخاذ أى وسيلة للوصول إلى أهدافهم البدائية ، والتي كانت تتلخص في الحصول على الذهب وشحنة في السفن . ولم يتردد الحكام الإسبانيون الأوائل ، قانوناً أو فعلاً ، أمام وخز ضمايرهم ؛ بل كانوا يعملون ، ويعملون لأنفسهم أن لم يكونوا يعملون من أجل الملك . فكانوا يقسمون الكنوز بين الجنود ، ويقسمون الأرض بين الضباط . وإذا قاموا بأى مجهود للادارة ، فإن هذا المجهود لم يزد عن كونه نقل نظم إسبانيا إلى أمريكا كما هي ، فكانوا يعملون القضاة والقواد ، كما لو كانوا في الجزيرة الخضراء أو في قادس . وحدثت الهيمنة الملكية مع الزمن محل أهواء الاقطاعيين والغزاة ، وإن كانت العملية قد

تمت على مراحل . وأنشأت هذه السلطة الملكية حكومة مباشرة ، كانت تباشرها من إسبانيا ، وتنفذ تعليماتها في العالم الجديد .

وكانت الهيئة المركزية في إسبانيا تتمثل في مجلس الهند ، الذي كان يعاون الملك ، مثلما كان يعاونه مجلس قشتالة أو مجلس أراجونيه أو مجلس الحرب أو غيرهم . وحل هذا المجلس محل المراقبة العامة لشئون الهند ، والتي كانت قد أنشئت بسرعة ، بعد رحلة كولومبو الأولى للعالم الجديد . وكان هذا المجلس يخضع لمستشار أعلى لشئون الهند ، وكان يعد القوانين ، ويعتبر محكمة للاستئناف ، ويتدخل في كل قرارات الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد . فكانت له في واقع الأمر جميع السلطات التشريعية والقضائية وحتى الدينية .

أما السلطة التنفيذية فكانت في العالم الجديد ، وقد نظمت على أساس حكم الأنتيامتو ، أو حكم البلديات في قشتالة . وكان هذا النظام يتألف من إنشاء مجلس خاص في كل إقليم ، بتشكيل من ثلاثة أو أربعة مسؤولين ، ويجتمع في أول الأمر كمحكمة ، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس . وكان الحاكم هو الذي يرأسه ويستشير . وفي أعلى القمة نصل إلى نائب الملك ، أو بمعنى أدق . نائبي الملك ؛ الأول في المكسيك . والثاني في ليا ، وكان كل منهما يسيطر على نصف العالم الجديد ، بخلاف الإنكيل ، وهافانا ، التي كانت لها قيادة عامة خاصة بها .

وكانت هناك شخصية واحدة ، هي نائب الملك ، يعينها الملك ، وتمثله وتبين على شئون الحزب والسلم والأرواح . وكان نائب الملك يعين كبار الموظفين ، ويشرف على الاقتصاد والمالية ، ويلاحظ الكنيسة ، أو يراقبها . ولكن سلطاته واختصاصاته كانت محدودة . خاصة وأن البلاط كان يخشاه ، فقد تعينه بمدة ثلاث سنوات ، وأجبره بعدها على البقاء في المستعمرة لمدة ستة أشهر ، حتى يسمح لكل من يعارضه أو يطالبه بشيء ، أن يتقدم عنده بما يرغب . وفي نفس الوقت أعطى الملك لأعضاء المجالس حق مخاطبة البلاط رأساً ، كما كان يسمح لنفسه بإرسال

بعض كبار الموظفين ، كزائرين أو مفتشين من وقت لآخر . ولقد سار هذا النظام بدقة عجيبة ، خاصة إذا نظرنا إلى السرعة اللازمة لتقرير الأمور ، وإلى اتساع الامبراطورية ؛ ولكنه كان يتسبب في بعض التضارب بين السلطات ، كما تسبب في بعض الأخطاء الواضحة ؛ وكان أكبر خطأ فيه أنه قد وضع عن طريق الاسبانيين ، وللاسبانيين ، كما لو كانت أمريكا إحدى المقاطعات الإيبيرية ، وكما لو كانت لا تسكنها ملايين من الهنود الحمر . لقد كان وجود الهنود حقيقة واقعة ، وكان واجب الاسبانيين أن يحسبوا حساب هؤلاء الملايين ، الذين كانت لهم آلتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم . ولكن أغلب المعمرين الأسبانيين كانوا لا ينظرون إلى الهنود الحمر إلا نظرهم إلى المتوحشين آكلى لحوم البشر ، نظرهم إلى شعوب تفضل العيش عرايا ، شعوب بأكملها من المخادعين الكذابين الخائنين ، من السكارى القساة الكسولين ، شعوب لا تستحق أن تدخل في المسيحية يوما من الأيام . ولكن هناك من الاسبانيين من رأهم شعوبا خاضعة صبورة محبة للسلم ، ووجد في نفسه الرغبة في الدفاع عنها ، فأين الحقيقة ؟

وكان المعمرون متسلطين ومتعجرفين ولا يعرفون التسامح . ويعتقدون أنهم جاءوا إلى أمريكا للثراء ، ويترددون في إعلان ذلك . وحينما طلبوا من بيزارو القيام بواجبه للبشر المسيحية بين الهنود الحمر ، أجاب أنه لم يأت إلى العالم الجديد من أجل ذلك ، وإنما أتى للاستيلاء على ذهبهم . وكانت الأقلية هي التي تنادى بضرورة الاحتفاظ بالهنود الحمر وتهذيبهم وكسبهم إلى إسبانيا المسيحية . حقيقته أن البابا قد وضع مهمة التبشير بالمسيحية بين الهنود قبل أى عملية أخرى في العالم الجديد ، وأصر بولس الثالث على أنهم في وضع يسمح لهم بفهم الديانة الكاثوليكية ، بل وأنهم شغوفين باعتمادها ، على حد ما يفهم ، ولذلك فإنه من الواجب عدم الإضرار بهم في حوزتهم أو في ممتلكاتهم ، والإبتعاد عن إستبعادهم بأي طريقة من الطرق . ولقد تردد الملوك الكاثوليك في قشتالة

بين هذين الاتجاهين . وأوصت الملكة ايزابيلا في وصيتها بعدم الإضرار بالهنود ، وبضرورة معاملة هذه الشعوب بالطيبة والعدالة . كما أن شارل الخامس ، ورثها الثاني ، قد ذكر حكامه بأن الله قد خلق الهنود أحرارا لاتابعين .

ورغم ذلك فقد استمرت الأخطاء ، من تعذيب وإتهاك يسمح بفضح طغيان الإسبانيين ذلك أنهم قد منعوا الهنود الحمر من حمل الأسلحة ومن ركوب الخيل ، وقضوا على الأهالي قضاء تاما في مناطق بأكملها ، بسوء المعاملة أو بالقتل ، كما حدث في هاياتي . وأخذ الكتاب منذ عهد لاس كازاس في فضح هذه الجرائم ، وطالبوا الحكومة الإسبانية بضرورة المحافظة على أرواح الهنود ، دون أن يذكروا إن كان هدفهم هو السياسة ، أو ضرورة الاحتفاظ بالأيدي العاملة اللازمة للمستعمرات ، أو زيادة عدد السكان المسيحيين في العالم . حقيقة أن فظائع الإسبانيين تجاه الأهالي كانت أشد فظائع الإبادة الاستعمارية منذ بداية تاريخ الاستعمار ، ولكن صيحات الاعتراض على هذه الفظائع كانت كذلك أشد الصيحات حتى ذلك الوقت .

ولقد حاول بعض رجال الغزو والإستعمار الأوائل أن يدافعوا عن الهنود الحمر ، مثل كورتيز الذي ما أن نزل على سواحل المكسيك سنة ١٥١٩ حتى أمر جنوده بعدم تعذيب الأهالي ، وبمصاحبتهم إلى قراهم دون الاعتداء عليهم أو جرحهم أو التعرض لأهملتهم . وكانت هذ هي الأيدي الأولى لمحاولة هضم الهنود الحمر ، وضمهم نهائيا إلى النظام الإسباني . ولكن عمليات أخرى قامت في جهات متعددة ، وأوجبت صيحات الإنسانية . وثار « المشكلة الهندية » طوال القرن الأول للاستعمار الإسباني ، وبمناسبات ، متعددة . وكانت إسبانيا تتسامل بقلق عن مهمتها في العالم الجديد ، وعما يجب عليها أن تقوم به كدولة مستعمرة في أمريكا .

الفصل الرابع عشر

الاسبانيون

لقد تزعم بعض رجال الدين والمفكرين من الاسبانيين حركة الدفاع عن الوطنيين ، أو الهنود الحمر ، ضد معاملة المعمرين والحكام الاسبانيين في العالم الجديد . وكانوا مخلصين في عملية دفاعهم ، ومخلصين في أهدافهم التي كانوا يرغبون في الوصول إليها ، سواء أكان ذلك للإحتفاظ بالهنود الحمر كشعوب وأيدي عاملة يمكنها أن تنتج ، أو كان ذلك للإحتفاظ بهم كرعيا للكنيسة الكاثوليكية ، وزيادة عدد المسيحيين في العالم ، أو كان ذلك لتطور حركة الإستعمار الإسباني بشكل يجعلها تستخدم الإنسانية والمدنية ، بدلا من أن تقوم بإستغلالها ، أو بالقضاء على كثير من أبنائها .

١ - بين الانسانية الوحشية :

ولقد ترأس إثنان من الرهبان الدومينيكان عملية الدفاع عن الهنود ، بل الهجوم على الإستعمار في العالم الجديد، وهما أنطوان دى مونتسينوس، وبرتوم دى لاس كازاس ، ولقد هاجم مونتسينوس المعمرين ومبدأ الإستعمار نفسه في خطبته الطنانة التي ألقاها في إسبانياولا : « لقد صعدت على هذا المنبر لكي أشرح لكم أخطاءكم تجاه الهنود ، إن خطأكم جسم ، وخاصة نتيجة لقسوتكم تجاه هذا الجنس البري . . . فبأى حق قتم بإعلان حرب ذنينة ضد هؤلاء الناس الذين يعيشون في بلادهم وفي سلام ؟ وما هو السبب لترككم أيامهم في مثل هذه الحالة من الإنهاك دون إطعامهم والإهتمام بصحتهم ؟ . . . » كان معنى ذلك هو عدم شرعية الغزو الإسباني ، وهدد مونتسينوس برفض مباركة الإسبانين للمتطرفين .

وضم لاس كازاس صوته لهذه الحركة . وكان قد بدأ حياته مزارعاً قبل أن يتفوغ لخدمة الدين ، وواصل كفاحه حتى انتحر أيامه للدفاع عن الهنود ، بشكل جعل منه أكبر مدافع عنهم ، وترك مادة غزيرة ، وصف فيها ما خضعوا له من وخشية . ولقد وصف الحروب ضد الهنود بأنها غير عادلة وأنها طغيانية ، ووصف الذهب والفضة والمجوهرات والأراضي التي أخذت منهم بأنها منهوبة ، ومن الواجب إعادتها إلى أصحابها . وفضح لاس كازاس مساوىء الإستعمار بشدة ، جعلت من مادته أسلحة قوية ، أفاد منها أعداء إسبانيا نفسها .

ولقد اضطرت سلطات قشتالة إلى محاولة إيجاد سياسة معقولة يمكنها أن توفق بين مطالب الإستغلال الأقتصادي ، وإتجاه رجال الكنيسة . وسمعت بالقيام بتجارب هامة في العالم الجديد . وكانت التجربة الأولى تتعلق بتحرير الهنود ، وأسس أحد القضاة ثلاث قوى للهنود المحررين في إسبانياولا ؛ ولكن الفشل كان تاماً ، إذ أن الهنود قد إمتنعوا بعد تحريرهم عن القيام بأى عمل . أما لتجارب المائة والى وقعت في كوبا ، فإنهم تكن أكثر إيجابية . ثم قامت تجربة ثمانية للإستعمار السلمى ، ذلك أن لاس كازاس قد حصل في فنزويلا على ٣٦٠ فرسخاً مربعاً ، وإختار مزارعين من إسبانيا ، ووعد بمنحهم لقب فرسان المهراز الذهبى . ولكن الفشل كان تاماً ، إذ أن هؤلاء الفرسان المزارعين كانوا يرغبون في الحصول على الذهب ، أكثر من رغبتهم في الحصول على الأراضي ، وتحولوا بمجرد وصولهم إلى العالم الجديد ، إلى عصابات لصيد الهنود ، ولإستخدامهم كعبيد في زراعة الأرض . أما التجربة الثالثة فكانت تهدف إلى تحويل الهنود إلى المسيحية ، وبطريقة سلمية . وحاول لاس كازاس أن يحولهم بكل هدوء ، وإختار منطقة يمتاز أهلها بحب الحرب للقيام بتجربته ، وهى منطقة جواتيمالا . والواقع أن بعض الهنود قد تمسحوا ، بعد سماعهم لصوات الدومينيكان أو بعد إكجابهم باللعب والإدوات الصغيرة التي كان الإسبانيون

يوزعونها عليهم. وقبل رئيسهم بناء كنيسة ، وتحولت المنطقة إلى بلاد سلم، وإن كان هذا التحول سطحياً ، ولم يتمكن الهنود من معرفة المسيحية . وبعد فترة من الزمن قام الهنود بقتل راهبين، وسلبوا ثالثاً أمام أحد الأصنام ، وشيعوا أنصار لاس كازاس بالسهام ، وأحرقوا المستعمرة . وكانت نتيجة هذه العملية خطيرة بالنسبة للهنود ، وبالنسبة للإسبانيين ؛ ذلك أن الهنود قد تأكدوا لأول مرة من أن الإسبانيين ليسوا آلهة ، بل مثلهم من البشر ، معرضون للوئ ، ويمكن قتلهم . فقلت درجة سلبية الهنود وتواضعهم ؛ وأخذوا يرفضون العمل ، ويفضون معيشتهم السابقة قبل وصول الإسبانيين .

وكان كل من الملك ومجلس الهند في إسبانيا يحاولون وضع سياسة المستعمرات الجديدة . ولكن ، هل كان في وسعهم إعلان الحرب على الهنود ؟ لقد قرروا عدم القيام بأى عمليات عدائية ضدهم ، إلا بعد أن يقرأ عليهم إنذار بذلك ، وهذا الإنذار كان يطالبهم بالاعتراف بالكنيسة والبابا والملك كأصحاب للسيادة ، ومادة عليهم ، وإلا فإن الإسبانيين سيأخذونهم ، ونساءهم وأطفالهم ، ويجعلوهم عبيداً ، يبيعونهم ويوزعونهم كما يرغبون . وسيأخذون أملاكهم ، ويعاقبونهم ويؤذونهم ، كما يفعلون مع أى تابع ثائر . ولكن هذه الطريقة لم تكن عملية ، ولم يكن من السهل على الهنود إحترامها . وإستخدم الإسبانيون وسائل أخرى للمحافظة على السلم في المستعمرات ، وصدرت الأوامر بعدم خروج أى حملة دون موافقة رجال الكنيسة الملحقين بالجيش كتابياً على ذلك . ومنع لاس كازاس أى عمليات حربية لم تكن مزودة بأمر صريح من الملك ومجلس الهند . ثم منح شارل الخامس قيام أى حملات إستكشافية في العالم الجديد إلى أن تتم محكمة بلد الوليد قراراتها الخاصة بشرعية الغزو . ولم يشهد العالم حتى الآن غزاة متصرين يشكون في أنفسهم وفي عملياتهم بهذا الشكل الذى يؤثر عليهم وعلمها . وكم من إسباني أعلن في ذلك الوقت في العالم الجديد أن الأراضي التي

يطأونها هي ملك للهنود . ولم يتمكن المستشارون و فقهاء بلد الوليد من اتخاذ موقف حاسم واضح بين النظريات المتعارضة التي كان لاس كازاس يمثل طرفاً منها ، وغلاة الغزو يمثلون الطرف الآخر . فاستمرت الحرب ، ولكن على أساس أن تكون حرباً عادلة ، وأن يسمى كل غزو بعد ذلك بأنه مجرد عملية تهديفة

• Pacification

وفامت مجادلات أخرى حول طرق التبشير والتعميد . وإذا كانت الوسائل السلبية قد فشلت ، فهل كان من سلطة الاسبانيين استخدام القوة لتحويلهم إلى المسيحية ؟ لقد ردت بلاد محاكم التفتيش بالإيجاب ، وأصبح تحويل الأهالي إلى المسيحية يعتبر جزءاً من مهمة الغزاة في العالم الجديد . وقام الاسبانيون بهدم الأصنام ومنع الأعياد الدينية ، وفرضوا التعميد والزواج على الطريقة الرومانية ، والصلاة في يوم الأحد . وإندهش معظم الهنود ، ولكنهم لم يعارضوا ، وقبوا أن يجتمعوا مع شروق الشمس حول الصليب ، ويقوموا بالإشارات التي يعلمها لهم المسيحيون ، وكانوا في بعض الأحيان يحاطون بين العقائد ، ويتصورون مسيحياً أسود في جواتيالا ، وكان غيرهم محافظاً على آلهته . وكان بعضهم يتسامح عما إذا كان هناك إسبانيين في الجنة ، فإذا كان الأمر كذلك ، فهم يفضلون الموت على غير المسيحية ، حتى لا يلتقون بالاسبانيين في العالم الآخر . وكان الغزاة لا يفهمون هذه المقاومة ، وفكر بعضهم في استخدام القوة لانهائها ، ولكن لاس كازاس أعلن أن القوة لا تتمشى مع الروح المسيحية ، رغم أن معارضيه أصروا على أن التبشير يحتاج إلى جنود ، وعلى أن عملية تحويل الهنود إلى مسيحيين لا يمكنها أن تتم إلا في ظل طلقات البنادق .

وأخيراً فهناك مشكلة العمل الاجباري ، أو السخرة ، التي كانت تقسم المعمرين إلى قسمين . وكان الغزاة يرغبون في تعبئة الأيدي العاملة المهدية ، لاستغلال الأرض التي منها يعيشون ، وما تحت الأرض التي منها يثرون ويعتنون .

فكانوا يرون السخرة أمراً طبيعياً ، ولكن الأهالي أجابوا بالفرار إلى الأذغال والغابات . فإضطر الاسبانيون إلى تقييد نظام العمل الاجبارى . وكانت القرى الموجودة فى كل قطعة أرض أعطيت لأحد الغزاة ، تتجمع تحت رئاسة شيوخها الوطنيين ، وكان اليهود يعملون تحت الرئاسة الوطنية من أجل السيد الاسبانى . وكان هذا النظام لا يختلف كثيراً ، إلا من حيث الشكل ، عن نظام العبودية . ثم عمده الاسبانيون بعد ذلك إلى إبدال الرئيس الوطنى ، برئيس إسبانى ، بدعوى العمل على تحسين مصير اليهود ، والسماح بالحصول منهم على إنتاج أوفر . وكان الرئيس الاسبانى يكلف بإطعام وإلباس وحسن معاملة رجاله من الأهالى ، وذلك فى نظير الحصول منهم على عمل ، بقى إجبارياً : ولكن اليهود لم يفضوا هذا النظام على النظام السابق ، وكانوا لا يهتمون بالعبودية ، ويفضلون عدم العمل . وصدرت قوانين إسبانية ، بعد إستشارة لجنة دينية ، وأكدت تطبيق هذا النظام فى سنة ١٥١٢ مع أمرها بهدم أكواخ الأهالى القديمة ، حتى تمنعهم من الرغبة فى العودة إليها ، رغم أنها امرت بمعاملتهم معاملة إنسانية ووضعت شروطاً للاعتناء بهم وحماية نسائهم واطفالهم . فأصبح على اليهود أن يعملوا من أجل الاسبانين لمدة تسعة أشهر فى كل سنة ، ويقضوا الثلاثة أشهر الباقية فى خدمة أرضهم . ولكن لاس كازاس وجد أن هذا النظام كان شديداً ، ووصلت صيحاته إلى برشلونة ، وأثرت على شارل الخامس ، الذى أصدر أوامره ثورية فى سنة ١٥٤٢ تمنح على عدم إستعباد أى هندى ، وعدم استخدام أى هندى ضد رغبته ؛ وبمنع كل نواب الملك وجميع الضباط من اعطاء أى أوامر لتكوين « جماعات العمل الاجبارية » من اليهود ؛ وأصدر أوامر بتحرير الأهالى وبمنع استخدامهم فى العمل ، وبتكفل الحكومة بهم فى حالة وفاة سيدهم .

ولكن مطالب الاستغلال وصيحات المستعدين كانت أقوى من وعظ رجال الكنيسة ، وأقوى من الراسيم الملكية ، فانهايات الآراء والتقارير على شارل

الخامس بشكل جملة يديد السماح بتكوين جماعات العمل الإجبارية ، ولكن مع المحافظة على النصوص التي تمنع من سوء التنفيذ ، وسوء المعاملة . فهل تغير الوضع ، عملياً ، بالنسبة للهندي ؟

ودافع المملوك الاسبانيون عن الهنود ، وظهرت قوانين جديدة تحدد واجبات الاسبانيين وحقوق الأهالي ، فلا يمكن طرد أحد الهنود من مكان يقيم فيه . منذ أكثر من ٤ سنوات ، ولا يجوز فرض أى عمل على النساء وعلى الأطفال الذين يقل عمرهم عن ١٨ سنة ، ولا يمكن إستخدام الشيوخ بعد سن السبعين ، ومن الواجب إنهاء العمل اليومي مع غروب الشمس ، وأن يتمتع العامل بساعة للراحة في وسط النهار ، ومن حقه التمتع بيوم الأحد ويومين آخرين كل أسبوع للاعتناء بحقله ، وبعشرة أيام أخرى كل سنة . فلم يبق من أيام العمل الفعلية في العام ، ويعد حساب الأعياد الكثيرة ، إلا ما ينراوح بين ١٣٠ ، ١٤٠ يوماً . وكان ذلك كثيراً بالنسبة للهنود ، وقليلاً جداً بالنسبة للإسبانيين ، الذين لم يحترموا هذه القوانين الجديدة .

ولم تنهى الأمر بترك الحرية للهنود في الإختيار بين العمل في جماعات العمل الإجبارية ، وحرية الحياة ، أى حرية البؤس في الجبال ، بعد أن إستولى الاسبانيون على أراضيهم . ولقد فضل الهنود حرمتهم ، وإختاروا البؤس مع الحرية ، على الطعام مع العمل في ظل العبودية ، فأضطر الاسبانيون إلى تغيير هذه التشريعات وأبقوا الهنود في ظي الاستعباد الفعلي ، رغم أن قوانينهم كانت تدل على غير ذلك ونشأت نفس المشكلات في البرازيل . وكان للشهوة أيضاً مجلساً للهند . وكانت مستعمراتها مقسمة إلى قيادات عامة ، ومزودة بالموظفين . ولكن الغزاة البرتغاليين كانوا أكثر تساهلاً من الاسبانيين ، وأقل تحمكاً منهم في الأهالي . فكثير من تزوج منهم بنساء من الهنود ، وتمكن رجال التبشير البرتغاليون من التوغل في الغابات ، ومن هداية بعض الأهالي .

وعلى أى حال ، فرغم توتر العلاقة بين الغزاة والأهالي حول العمل ، فإن العالم الجديد كانت تنقصه كثيرا من الأيدي العاملة ، وكان إنتاج الهنود منخفضا ، وكثيراً ما كانوا يقومون بعمل ردىء وكانوا لا يصلحون للعمل فى المناجم ، وتزايدت نسبة الوفيات فيما بينهم فاتجهت الأنظار إلى إفريقية لإحضار المدد من الزوج والعبيد . وإستمرار عملية الإستغلال .

٢ - تجارة العبيد والتخطيط .

إذا ما عبرنا المحيط الأطلسى لمشاهدة ما كان يحدث فى إفريقية فى الوقت الذى كانت فيه إسبانيا تستعمر قارتها الأمريكية . لو جدنا أن السلطان العثمانى قد إستولى على مصر ولانضم إليه ساحل شمال إفريقية ، أما فى المغرب الأقصى فإن دولة السعديين ، التى كانت قد جاءت من وادى درعا ، كانت تقاوم الاسبانيين والبرتغاليين ، الذين ناموا بالهجوم على هذا الاقليم ، وإحتلوا مواقع مختلفة من سواحله . وكان البرتغاليون قد ساروا على طريق فاسكو داجاما ، وعلى طول السواحل الأفريقية ، وأنشأوا عددا من المراكز المحصنة ، التى كانوا يستخدمونها كمحطات لتزويد سفنهم بما يلزمها ، من الرأس الأخضر إلى زنبار ، فأقاموا فى سان توما ، وفى أنجولا فى سان بول دى لواندا ، وفى موزمبيق ، ووجدوا معادن النحاس والفضة فى حوض الكونغو ، أما بقية قلب القارة ، من النوبة والسودان حتى رأس الرجاء الصالح ، فكان بعيدا عنهم ، وكانت تسكنه قبائل بدائية يجملونها . ولم تكن هناك علاقات إقتصادية منتظمة فى هذه الغوضى الكبيرة التى ضربت أطناها فى إفريقية ، إلا للتجارة فى الملح وفى الرقيق الذى كان يرسل إلى العالم الإسلامى والاقاليم العثمانية ، ولكن ذلك لم يمنع من وجود إمبراطوريات كبيرة فى إفريقية عرفها التاريخ ، مثل إمبراطورية غانا ، أو جهلها ، وظل يجملها حتى الآن . وجاءت إمبراطورية سنغاي بعد إمبراطورية غانا وإمتدت على مسافة ٥٠٠ كم بين الشرق والغرب ،

إفريقية مع طرق القوافل . وكانت تمبكتوا مركز لتقاء القوافل وتجارة العبيد مع فاس والقيروان والقاهرة وحتى مع جنوا والبندقية . وكان تنقل الملح والذهب والنحاس والعبيد ، التي كانت إمبراطورية جاو تحتكر تجارتهم مع البلاد السودانية ولقد تفككت هذه الإمبراطورية حينما شعر أحمد المنصور الذهبي سلطان المغرب بشدة ضغط الإسبانيين والبرتغاليين والأفراك عليه ، وصمم على الاستيلاء على مناجم الملح والذهب الموجودة فيها ، وأرسل حملة إلى النيجر ، اشتملت على عدد من الأسرى المسيحيين والإسبانيين والأرمن والفرنسيين واليونانيين ، ولكنها كانت منظمة على الطريقة التركية ، وكانت في خدمة الإسلام . وأخضعت هذه المحلية تمبكتوا ، رغم أن نفوذ المغرب الفعلي قد تقلص بعد ذلك من المنطقة .

وكان تجار العبيد يربحون ربحا كبيرا من عملياتهم ، وكثيرا ما كانوا يتفوقون عليها مع رؤساء القبائل ، وكانوا يجمعون « العاج الأسود » ويسلونه للتجارة البرتغاليين والإسبانيين والإنجليز الفرنسيين . وكان العبيد يركبون السفن ، بعد أن يتبعوا في الموانئ ، وكانت عملية عبور المحيط فظيعة ، إذا كانت الأبحر ترص الواحد إلى جوار الآخر ، ودون أن تتمكن من الحركة . وكانت نسبة الوفيات تصل في المتوسط إلى ٣٠ أو ٢٥ ٪ في خلال هذه الرحلة .

أما السبب في إنتشار هذه الهجرة الجديدة الإبحارية من إفريقية إلى العالم الجديد فكان هو الامميين الإسبانيين ، ورجل الدين المسيحي ، ولقد أوصى لاس كازاس ، صديق الممرد الكبير ، بإستيراد النعال السود ، دون أن يتمكر في أن تمنحهم فوائد قوانين الشاية ، التي كانت قد صدرت في صالح النود وعامل الإسبانيون القادمين الجدد على أنهم في مرتبة الحيوان ، وذكروا أن أرواحهم كانت سوداء مثل جلودهم . وليس معنى ذلك أنهم كانوا يعذبونهم ، بعد أن يستخدمونهم في المناجم أو في مزارع قصب السكر ، ولكنهم كانوا يحتفظون لهم بوضعية العبيد ، تلك الوضعية التي كانت تجعل منهم مجرد أدوات ومنقولات .

وكان التاج هو الذي يمنع تراخيها إستيرادهم ، ويربح من هذه العملية .
نتيجة للضرائب التي يفرضها على النقل ، وكان يبيع في الحالات إمتيازات تجارة
الرفيق إلى شركات خاصة ، أو إلى دول أخرى . عدداً معيناً من الرؤوس في السنة ،
نظير مبلغ معين من الدوقات أو القروش . وحصل البرتغاليون والاسبانيون
والهولنديون ثم فرنسا وانجلترا على عقود بهذا المعنى . أما تجار العبيد فكانوا
يربحون الكثير ، وكانت نفس السفينة التي تنقل البضائع من أوروبا إلى إفريقيا ،
تنقل بعد ذلك العبيد من إفريقيا إلى أمريكا ، وتعود بعد ذلك إلى أوروبا مشحونة
بالسكر والروم . وكانت هذه الرحلة الشثمة طبيعية ومنتظمة وتستخدم فيها الحمولة
الكاملة للسفينة . وكان أول تصريح بالاستيراد صالح لأربعة آلاف عبد ، ثم جاءت
الآلاف بعد الآلاف الأخرى . وإستمرت هذه العملية لمدة ثلاثة قرون ، وقامت
بأكبر عملية للتتهجير الاجبارى في العالم ، ونقلت ملايين الرجال من قارة إلى قارة ،
وجمعت شباب إفريقيا وعمرت به أمريكا . وبلغ مجموع ما قام تجار العبيد باقتناسه
من افريقية ، ما يقرب من أثنى عشر مليوناً ، وقام القناصة بمسدهم من أنجولا
وغينيا والسودان والسنغال وجامبيا ، وفي كل مكان يمكنهم أن يعثروا فيه عليهم .
ويفسر هذا كيف تحولت مدن مزدهرة ، مثل جاو وتمبكتو ، والتي بلغ سكانها
٦٠ أو ١٠٠ ألف إلى مجرد قرى صغيرة . ولم تصل من هذه الملايين الإثنا عشر
سوى ثمانية أو تسعة فقط إلى أمريكا . وكان يصل منهم ثلاثون ألفاً في السنة
يوزعون بين الأنتيل ، وخصوصاً هاياتى ، وبين الأمريكتين . ولكننا لا نجد في
كل أمريكا ، وبعد ثلاثة قرون من عملية التتهجير هذه ، إلا أربعة أو خمسة ملايين
زنجرى . ويرجع ذلك إلى أن القناصة كانوا يفضلون الرجال على النساء في تجارتهم ،
فكانت نسبة الزواج بين الزوج في العالم الجديد منخفضة ، وحالات المواليد نادرة .
وإحتاج الامر إلى أجيال عديدة لموازنة أعداد الجفسين ، والسماح بقيام عملية
توطين طبيعية . وكان الهنود من جانبهم غير مهتمين لقبول التجارة اللانينة ،

وبلغ عددهم ثلاثين مليوناً قبل وصول كولومب ، ثم إنخفض عددهم إلى ثلاثة عشر بعد قرن ، ولم يبق منهم إلا عشرة ملايين بعد ثلاثة قرون من الاستعمار ، ومعظم دمائهم أصبحت غلظة . ونشأ عن هذا التخليط جنس جديد في أمريكا الإسبانية البرتغالية . وكان الغزاة والمعمرون يحضرون شباناً ، غير متزوجين ، ثم يتصلون بالهنديات ، ويدخلون ذلك في نطاق عملية الغزو . وعلى أى حال ، فإن الإسبانين غير المخططين يعتبرون قلة . وكان كولومب قد توصل إلى تبديل عقوبة الإعدام بالنفى إلى المستعمرات ، عملاً على تعميرها ، فوصل بجرموا شبه الجزيرة الأيبيرية إلى أمريكا ، وكانوا أول معمريها . وكانت إسبانيا تفضلهم على غيرهم من أبناء الدول الأوروبية الأخرى ، وتفضل أبواب أمريكا في وجه أى شخص لم يكن من رعايا التاج ، فأقفلتها في وجه اليهود ، ووجه المغاربة والمسلمين والكفرة . ولقد قدر بعض الجغرافيين عدد المهاجرين من شبه الجزيرة الأيبيرية بمشمة آلاف شخص في المتوسط في السنة ، ووصل من ذلك إلى مليونين من المهاجرين في القرنين الأولين للاستعمار ، ومايونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف لفترة ثلاثة قرون ، ومنهم مليون من البرتغاليين . ولكن الأهالي غير المخططين لم يرتفع عددهم إلا إلى ١٥ أو ٢٠ ألف من الإسبانين البرتغاليين بعد قرن ، ومليونين بعد ثلاثة قرون . ونلاحظ هنا أن نسبة الوفيات في الحروب ، والحمى والإرهاق قد فعلت فعلها ، وأن الخصوبة قد أعطت من المخططين أكثر مما أعطت من أبناء قشتالة .

وهكذا تغير الوجه الانساني لأمريكا اللاتينية الحديثة ، وحاش فيها البيض والحر والسود . ولم يكن في وسع البيض أن يحافظوا على حكمهم وتحكمهم إلا إذا إعتقدوا في أنهم سادة ، وأنهم متفوقين على غيرهم ، وإلا إذا ما نجحوا في فرض أنفسهم - بهذه الصفات - على غيرهم .

٣ - استغلال أمريكا اللاتينية :

كان المعمّر الاسباني ، أو الغازي ، يعتقد أن من سقّه أن يربح كل شيء ، حتى ولو أدى ذلك إلى تحطيم الأهل ، ما دام قد أحضر لهم المسيح ، وهو أكثر من أن يقارن بأى شيء يأخذونه منهم . ولذلك فانه كان يستغل ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، وكان هدف المعمرين الأول هو البحث عن مناجم الذهب والفضة ، ورغم خيبة أملهم فانهم لم يفقدوا الأمل مادام الأهل يتزينون بالجواهر ، ومادام حكام الازاتكة ، والانكا قد تمكنوا من جمع كنوز كبيرة . وأخذ الاسبانيون يغسلون رمال الأنهار ليحصلوا على التبر ، ويبحثون في الأرض بعناد حتى يصادوا إلى نتيجة . ووجدوا بعض الذهب وكثيرا من الفضة في المكسيك أولا ، ثم في بيرو بعد ذلك . واكتشف أحد الهنود الذي يرعى اللاما مع أحد ضباط بزارو جهلا من الفضة ، على الهضبة : إنها مناجم بوتوسي التي سينزيد إنتاجها بشكل يسمح للأوربيين باستخدام كلمة « بيرو » للدلالة على الثروات الكبيرة .

وإضطر الاسبانيون إلى الحفر في الأرض لإستخراج المعدن النفيس ، ولم يكن هذا المعدن نقيا في أغلب الأحوال ، بل كانوا يضطرون إلى تحطيمه وغسله وتنقيته . وتمكن رجال الكيمياء من تحسين طرق فصل الذهب عن الفضة بمعالجتها بالزئبق . ووجد الاسبانيون - لحسن حظهم - مناجم الزئبق في بيرو نفسها ، فتزايدت كميات الإنتاج الأمريكية بشكل مذهل . وكانت المناجم ملكا للتاج الذي يمنحها للمستغلين ، والذين يتعهدون بتسليم المملك جزءا من الإنتاج ، يصل إلى النصف أو الثلث في أول الأمر ، ثم إلى الخمس فيما بعد ذلك ... وكان هذا المعدن ينقل بحريا من بيرو إلى بنما ، ثم على ظهر البغال لعبور البرزخ ، واشحنه من جديد على سفن إسبانية متسعة وبطيئة . وحقق الإنتاج الأمريكي من المعادن النفيسة آمال إسبانيا والمستعمرة في وقت بسيط ، وكان يمثل خمسة أو ستة أطنان من الذهب ، وثلاثمائة طن من الفضة في كل عام .

ولكن الأنتيل لم تلعب أى دور في هذه المغامرة للحصول على المعادن .

وإتجه المعمرون فيها إلى إستغلال الزراعة ، خاصة وأن أرضهم كانت تنبت الأناناس والموز ، فصمموا على استغلالها في زراعة قصب السكر ، الذى يعطى السكر والروم ، والذى قد يصل قيمة إنتاجه إلى ما يقرب من الذهب ، أن لم يكن هذا الانتاج يقيم بالذهب . فأصبحوا مزارعين بدلا من اشتغالهم بالمناجم ، وكرروا السكر بدلا من تنقيتهم للمعادن . وزرعوا الذرة وربوا الخنازير . وبدأ المعمرون على القارة نفسها ، وفي المناطق التى لم يعشروا فيها على معادن ، يفكرون فى مثل الانتيل ، فزرعوا التوت فى المكسيك ، والكروم والزيتون فى بيرو ، والموالح والحوامض وأشجار التين والخوخ فى كاليفورنيا ، وأصبح الاسبانيون من جديد مستعمرين بكل معنى الكلمة .

وزاد هذا الازدهار الاقتصادى التجارة بين اسبانيا ومستعمراتها الأمريكية . وكانت التجارة بسيطة فى السنوات الأولى قبل العصور على مناجم المعادن النفيسة ، ولكن التصدير إزداد مع الزمن فى نفس الوقت الذى إزدادت فيه حاجة المعمرين إلى مواد التموين والملابس والأدوات والخيول والعجول من أوروبا . وكانت إسبانيا تنظر إلى عملية التصدير هذه إلى العالم الجديد على أنها خراب لها . ولكن الميزان إنقلب مع الزمن ، وزادت عملية التصدير من أمريكا بإرسال الفضة والذهب والأكلم والأحجار الكريمة ، والسكر والقطن والكافور والطباق ، وكانت كلها ترسل إلى اسبانيا وتقوم إسبانيا وحدها بتموين مستعمراتها ، وإحتفظت باحتكار التصدير والاستيراد والنقل مع المستعمرات ، إلا فيما يخص تجارة الرقيق ، وحرمت على السفن الأجنبية الرسو فى أمريكا ، حتى ولو كان ذلك لإصلاح ما يصيبها من عطب ، وبنفس الطريقة التى منعت بها قرطاجة سفن الرومانيين من الرسو فى سردينيا أو فى ليبيا . وفتحت إسبانيا عددا مهيئا من الموانئ للتجارة حتى تمنع التهريب ، وكانت هى أشبهلية ، التى أخذت مكان قادس ، وبعد ذلك قرطاجة فى داخل البلاد ، وديوس وبورتوبالو

التي كانت تهيمن على التجارة في الداخل . ونظمت إسبانيا الملاحنة في قوافل كبيرة ، وبطريقة البندقية ، حتى تتخلص من أخطار القراصنة . وكانت السفن تسافر في شهر أبريل عن طريق جزر كناريا إلى الأنطيل والمكسيك ، وفي شهر أغسطس لبرزخ بنما وأمريكا الجنوبية . أما في العودة فكانت القوافلتان تجتمعان في كوبا ، وتمر على جزر الخالدات . قبل أن تصل إلى إشبيلية في شهر مارس .

وكانت هيئة التجارة هي التي تشرف على هذه العملية التجارية ، ولها في إشبيلية اختصاصات لإدارة الهجرة ، وتشرف على مدرسة بحرية ، وعلى محكمة تجارية وغرفة القضاة . وكانت هذه الهيئة آلة إدارية ثقيلة تخزن البضائع ، وتشرف على عمليات الشحن والتفريغ ، وتحصل الخمس الخاص بالتاج ، وكانت عهارة عن وزارة لتجارة الهند ، ويشرف رئيسها على أمن القوافل في المحيط الأطلسي ، وتستلم خزائنه الرسوم الجمركية على البضائع ، ، ويستلم أنصبة أصحاب الشركات وأصحاب السفن الخاصة ، نظير حمايته لتجارهم . وكان هناك موظفاً عاماً يعينه القصر ، ويشرف على قوافل وأساطيل الهند ، ويرسل إلى الإدارات العامة في العالم الجديد كل ما يلزمها ، من الزئبق اللازم لتنقية المعادن ، إلى الأسلحة اللازمة لأبناء الغزاة .

وكانت هيئة التجارة مؤسسة خاضعة للدولة ، وتشرف على العمليات الفردية الخاصة . فكانت تشرف على العملية دون أن تقوم بتنظيمها ، بل تترك للوردن والمصدرين في قادس وإشبيلية إتخاذ القرارات اللازمة لهم ؛ ولكن إشرافها كان عيباً ثقيلاً على التجار ، الذين كانوا يحاولون التهرب من دفع الرسوم والضرائب : فلم يقتصر على خفض قيمة التجارة المفرغة أو المشحونة في تصريحاتهم الرسمية ، بل بدؤوا في عمليات التهريب ، ووجدوا في داخل هيئة التجارة نفسها من يشاركون في هذه العمليات . وبدأت السفن تفرغ حمولاتها في البحر قبل دخولها إلى إشبيلية ، وتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء .

كما اتصلوا بمهربين أجنب ، كانوا يقومون بنشاط عجيب في خلاجان العالم الجديد ،
وخرج تلك تجارة العالم الجديد من أيدي هيئة التجارة نتيجة لهذه العمليات .

وإدعت إسبانيا كذلك الاشراف على الصناعات الناشئة في الهند ، دون أن
تتمكن من القيام بذلك بطريقة عملية . وكانت المكسيك تفسج الحرير ، وبيروت تسج
الأصواف ، وكانت هذه السلع منخفضة السعر ، وهددت بمنافسة الصناعة الاسبانية .
فتمت مدريد هذه الصناعة ، ولكن نواب الملك لم ينفذوا هذه القرارات .

وإزدهرت أمريكا الاسبانية بطرق مشروعة ، وطرق غير مشروعة ، وظهر
ذلك في نمو مدنها الصغيرة ، التي كانت تنجى على خطوط منتظمة ، حول ميدان
مربع ، كما هو الحال في مدن اسبانيا ، وتشتمل مثلها على كنيسة ومدرسة وأحد
الضادق ، مبنية على الطريقة القشتالية . وكانت الشوارع تقاطع مع بعضها ،
وتشتمل المساكن على حوش داخلي وعلى أعمدة . وبقيت الكنائس والكاتدرائيات ،
في مكسيكو وفي ليا ، وأصبحت كل من هاتين المدينتين مركزاً لرئيس أساقفة ،
ولها جامعة ، وفتحت الكليات أبوابها لليهود مع الاسبانيين ، وأصبحت لغة
قشتالة هي اللغة الرئيسية ، وخاصة في المدن . ولم تختلف فيرا كروز ولا كراكس
عن بورجوس أو غيرها من مدن إسبانيا . وكان فيما نفس التاجر ونفس الموظف
ونفس الضابط ، إلا بوجود رجال لوحت وجوههم الشمس ، وبعض اليهود
والزواج ، للدلالة على أنها ليست إسبانيا ، ولكنها مستعمرة اسبانية .

وهكذا أصبح العالم الجديد إنعكاساً للعالم القديم ، بعد أن أخذ منه لغته
وأسماءه وديانته ، في نفس الوقت الذي استخدم فيه الخيل والعجلة وصناعة الحديد .
وقيل أن تغير أمريكا أوروبا قامت أوروبا بتشكيل أمريكا .

٤ - أوروبا الاسبانية :

وكانت إسبانيا هي أهم شيء في أوروبا في ذلك الوقت ، وكانت قشتالة هي

أهم إقليم في إسبانيا . وقد عملت ساسلة طويلة من الميراث والزواج ، على تجميع الأقاليم والدول على رأس ملوك إسبانيا . ولم يكن ذلك مجرد الحظ ، إذ أن ملوك إسبانيا قد عرفوا كيف يدرون دفعة سياستهم في هذا العصر ، وساعدتهم امبراطوريتهم الامريكية في السيطرة على أوروبا ، كما ساعدتهم قوتهم في أوروبا ، وسهلت عملهم في إستعمار أمريكا .

ووقعت مهمة إنشاء إسبانيا على الملوك الكاثوليكين ، فرديناند وإيزابلا ، وكان زواجهم قد وحد بين قشتالة وأراجونة ، مع ملحقات أراجونة في صقلية وإيطاليا . ونجحت جيوشهم في إتمام إعادة الغزو ، والقضاء على الحكم الاسلامي في الاندلس . وجاء اكتشاف أمريكا بنده ٢٨٠ يوما من سقوط غرناطة في أيديهم . ظهرت إسبانيا فجأة في شكل دولة كبرى ، وإن كانت إيزابلا قد ماتت قبل أن تعلم بخطورة العالم الجديد الذي وقع في أيديها ، ولم يعرف فرديناند عن الهند الغربية أكثر من أنها تسكلفه الأموال والرجال .

وتجمع مجد إتحاد هذه الاقاليم الموروثة والمفتوحة ، والتي لا تنتخب عليها ، مع شارل الخامس ، حفيد الملوك الكاثوليكين ، والذي سيطر على اسبانيا وناپلي وصقلية . والمستعمرات الواقعة فيما وراء المحيط ، وأضاف اليها بقية إيطاليا والأراضي المنخفضة والفلاندر وبعض مقاطعات فرنسا ، والنمسا والامبراطورية المقدسة . لقد أصبح سيداً على عالم لا تغرب عنه الشمس ، ولكنه كان يرى في أمريكا وسيلة أكثر من كونها غاية ، وسيلة للحصول على الذهب ، وبالذهب كان يمكنه أن يسيطر على أوروبا ويحكمها .

ووصلت إسبانيا إلى أوجها في عصر ابنه فيليب الثاني . ورغم أن شارل الخامس كان قد حاول ترك الامبراطورية لآخيه ، إلا أن فيليب ضم البرتغال مع ممتلكاتها الخارجية ، فأصبح ملكاً على لشبونة وعلى ميلانو ، وجنوا ، وبروكسل ، وبالرمو ، ومكسيكو . وجعلت مناجم بوتوسي منه أغنى ملك في أوروبا ، وشهدت

الإسكوريال بعظمته . ورغم أنه لم يهمل أمريكا ، إلا أنه انشغل بالأعداد
القريبين منه في أوروبا ، أو في إسبانيا نفسها ، بشكل منعه من التفرغ لها . والواقع
أن أمريكا كانت تحتاج إلى إهتمام أكثر من ذلك ؛ فلقد كانت ايزابلا تفضل عليها
غزو الاندلس ، وفرديناند يفضل عليها إيطاليا ، وشارل الخامس يفضل عليها
الفلاندر ، وفيليب مشغولا عنها بقشتالة . ولقد كانت مكسيكو وليما تهمهم بدرجة
أقل من غرناطة ، ونابلي وأنفوس والإسكوريال . والواقع أن مستعمراتهم
الحقيقية لم تكن فيما وراء المحيط ، بل كانت تقع على سواحل البحر المتوسط
أو سواحل بحر الشمال . فالواقع أنه لم تمكن هناك مستعمرات ، أو كانت كل
أقاليم أوروبا الإسبانية عبارة عن مستعمرات ، بما في ذلك أقاليم شبه الجزيرة
الايبيرية . فاننا نجد نفس النظم ، مع نائب للملك في سردينيا ، وفي صقلية ، وفي
نابلي ، وفي الفلاندر ، وفي أراجونة ، وفي بلنسية ، مع حكام محليين ، وموكب
بيروقراطي ، للملكية مركزية . وكان الملك هو سيد كل ذلك ، بنفس الطريقة
التي يسود بها كبار الملاك أراضيهم ، وبدون أن يفرقوا بين الكروم وأراضي
الحراثة ، وبين الأراضي المزروعة والمراعى . لقد كان الملك يحكم وكان هذا هو
كل شيء . وكانت السلطة الملكية تسيطر على كل السلطات الأخرى ، فساكن
الاقطاعيون خداما للملك ، وكون الفرسان حاشيته ، أما المجالس التشريعية
« السكورتين » فكانت تغط في سبات عميق ، والعامه غرق في مشكلاتهم اليومية .
وسادت سياسة التحكم الديني في جميع أنحاء الامبراطورية : إذ أن إسبانيا كانت
كاثوليكية ، ولا تقبل أى مذهب آخر ، فاستندت إلى ذلك العامل كأساس من
أسس الوحدة ، ولكي تتخلص من المغاربة واليهود في الاندلس ، ومن غير المسيحيين
في الهند الغربية ، ومن رجال الاصلاح الديني في الأراضي المنخفضة . وكانت
النيران تحرق الكتب ، ومحاكم التفتيش تأمر بأحراق الرجال ، وكل ذلك باسم
« النظام الوطني » .

وتسبب مبعداً الاصلاح الدينى فى إثارة مشكلة « الوحدة » فى الأراضى المنخفضة . ذلك أن الهجنوت ، بعد أن طالبوا بحرية العقيدة ، طالبوا بالحرية المدنية ، والتحرر فى نظم الضرائب ، وبضمانات عسكرية . كانوا يطالبون بمعايد روتستانتية ، ثم أخذوا يطالبون بقلاع ، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين النظام الاسباني ، بما فيه من سيادة ملكية ، وإتحاد امبراطورى ، وبين « الفوضى » البروتستانتية ، فمکان من الافضل نفى الأيدى من ألمانيا ، على الاحتفاظ فى عالم قشتالة بمرکز إنفصال ؛ وكان من الافضل كبت ثورة الفلاندر أو قطع العلاقة مع الأراضى المنخفضة على الاتفاق مع الهراطقة . ولم تعترف إسبانيا بوجود إله للوثر أو لكلمن فيها أكثر من إعرافها بوجود إله للسليين أو لليهود أو لليهود الحمر ، داخل امبراطورتها .

ورغم ذلك ، فقد كانت الفلاندر أجمل جوهرة فى التاج الامبراطورى ، نتيجة لأهميتها الصناعية والتجارية ، ونتيجة لأنها وطن شارل الخامس الأسمى ، إذ أنه كان قد ولد فى جانده وأمضى شبابه فى بروكسل . وكان شارل أميراً فى فلنكيا يتحدث اللغة الفلنكية واللغة الفرنسية ، ولا يعرف الإسبانية ولا الألمانية ، إنه أرشيدوق الفلاندر الذى ورث عرش إسبانيا . وحينما وصل إلى إسبانيا محاطاً بالفلنكيين اعتقد الأهالى أنها كانت عملية غزو . والواقع أن إسبانيا لم تستعمر الفلاندر ، بل كان الفلاندر هو الذى يستعمر إسبانيا ، باعطائه شارل الخامس إمبراطوراً لها . ولقد منح الامبراطور الألقاب والوظائف للفلنكيين والليورجنديين والغالونيين ، مما أثار إسبانيا . وإضطر شارل إلى إعادة غزو مملكته . ولم تقبله إسبانيا وتمتز به إلا بعد إنتخابه امبراطوراً . فوافق بعد ذلك على تعلم الإسبانية ، ولكنه ملا مجلس الهند باصدقائه الفلنكيين ، وعين فلنكيا آخر قاضيا اعظم لقشتالة ، وثالثاً حاكماً على كوبا . وكان هذا يدل على أن الفلاندر لم تكن مكبوته ، بل كان شارل يجمع مجلس الطبقات ويستشيرهم ، وإذا كان يحده

من حرية البلديات ، فانه كان يحترم حريات الاقاليم ، ومنح الحكم الداخلي للاتحاد
الفلمنكي .

ولقد جمع هذا الاتحاد سبعة عشر مقاطعة ، وكان مركزه في بروكسل ، مركز
الحاكم العام ، الذي كان عبارة عن خالة الامبراطور ثم أخته ، ومركز مجلس
الدولة والمجلس المخصوص ومجلس الميزانية ، والذي كان اعضاءهم يعينون مدى
الحياة ، وكان أغلبهم من الفلامنكيين . وظلت الإدارة محلية دون أى تدخل من
إسبانيا ، إلا في السياسة العامة ، التي كانت تسير وفقا لسياسة مدريد . ولقد
ازدهرت هذه الاقاليم السبعة عشر في ظل هذا النظام التحرري ، وازدهرت صناعة
الصوف والسجاجيد ، كما ازدهرت أنفوس ، وازدهرت أمستردام نتيجة لاشتغالها
بصيد الرنجة .

ولقد اختلف الديكور مع فيليب الثاني ، فبعد أن كان شارل فلامنكيا ، جاء
فيليب أميراً إسبانيا ، ورغب في صبغ الفلاندر بالصبغة الاسبانية ، وذلك
للتنفيس عن تطرف القشتاليين من جهة ، وللقضاء على « المهرطقة » التي سادت هذا
الاقليم من جهة أخرى . وكانت هذه العملية الاستعمارية أكثر مرارة من العمليات
الاستعمارية في الهند الغربية ، إذ أن الفلامنكيين لم يكونوا في كسل الهنود الحر ،
كما كانت عواطفهم مشتعلة ، وصمموا على الثورة لإنقاذ حرياتهم الوطنية ،
وعقيدتهم الدينية . وحاول فيليب أن يحتفظ بالوحدة السياسية ، ووحدة العقيدة ،
فأرسل دوق إلب نائبا للملك من ميلان ، وعلى رأس عشرين الف رجل . وكان
صارما ، ونشر الارهاب الإسباني ، وأسرف في إلقاء القبض والقتل ، وفي
فرض نفسه ، وعين الاسبانيين في المجالس الفلامنكية . ولكن المجازر والنهب لم
تتمكن من القضاء على المقاومة المحلية . اما انصار كلفن بعد إنتصارهم ، فانهم لم
يكونوا أكثر تسامحا من الكاثوليك ؛ وتحولت الحرب الاسبانية إلى حرب
أهلية . وحينما إستلم فيرنز سلطته كحاكم عام . وكان لإيطاليا ، قام بمناورات ،

وصل بها إلى الفصل بين السبعة أقاليم الشمالية ، التي حصلت على إستقلالها لكي تصبح الأراضي المنخفضة الحرة ، والتي ازدهرت بسرعة ، وبين العشرة أقاليم الجنوبية التي حافظت على ولائها لروما ومدريد ، والتي إحتفظت بحكامها العسكريين وبحامياتها الإسبانية ، التي ظلت راسخة تحت الحكم الأجنبي .

أما إيطاليا فإنها لم تسكن أسعد حظا . حقيقة أن حركة الإصلاح الديني لم تزعجها ، ولكنها كانت ميدان حرب لطموح كل من الإسبانين والفرنسيين . وكانت إسبانيا ترغب في أن تصل أقاليمها في صقلية ونابلي بالنمسا والفلاندر ، أما فرنسا فكانت تحاول كسر هذه العملية التي تهدد بتطويقها وخنقها . ولقد كسبت مدريد معركة إيطاليا ، وخضعت لها كل شبه الجزيرة ما عدا البندقية ، ووضعت حامياتها في تسكانيا وسافوا ، كما خضعت لها جنوه وبارما . وإعتمد الحاكم في ميلانو على إدارة ثابتة وجيش إحتلال . أما نائب الملك في نابلي فكان يعاونه مجلس يتشكل من أحد الإيطاليين وإثنين من الإسبانين ، وأما الجيش فسكان إسبانيا ، خاصة وأن الإدارة كانت تجند الإيطاليين للخدمة العسكرية في مناطق أخرى ؛ وكذلك إحتفظت الإدارة بالوظائف السكبيرة للإسبانين ، في نفس الوقت التي كانت فيه الضرائب مرتفعة . ولم يستسلم كل الإيطاليين لهذا التحكم ، فزمر دوق سافوا ، وثار صقلية أكثر من مرة ، وعارضت أسر نابلي القديمة المحتلين الإسبانين . ولكن الإيطاليين آخرين قبلوا سيادة قشتالة ، وتمسك ساداتهم الجدد من إدخالهم في مجلس الهند ، وعينوا أفراد أسرة فيرينيز ممثلا للملك في الأراضي المنخفضة . وكان الإيطاليون في مجموعهم يعرفون عن شعورهم السياسية ، ويتفرغون للفنون والآداب والعلوم ، وتمكنوا من رسم الجوكوندا وبناء كنيسة التديس بطرس في روما ، كما تمكنوا من إثبات أن الأرض تدور ، وإكتشفوا عوالم جديدة الأخرين ، وقبلوا في نفس الوقت أن يقوم غيرهم بإستعمارهم ، كما قبل مرطن أغسطس وكريستوف كولومب أن

يُصبح مجرد أقاليم متفرقة ، تخضع للحكم الامبراطورية الاسبانية .
ولقد كاد الحوض الغربي للبحر المتوسط أن يصبح بحيرة إسبانية. ولكن
فرلسا اضطرت إلى التحالف مع الاتراك العثمانيين حتى تحطم العملية التي هدفت
تطويقها . وقامت إسبانيا ، من ناحيتها ، بإرسال حملات إلى مليلة وهران
وبجاية ، وطرابلس ، وتونس ، واحتفظت بالمكانين الأولين منها تحت سيطرتها ،
وإذا كانت قد فشلت أمام الجزائر ، فإنها قد تمكنت من هزيمة الأسطول العثماني
في ليبيا سنة ١٥٧١ . وانقسمت القوى بشكل أظهر البحر المتوسط خاضعا
لقوتين ومنقسما بينهما : قوة الإمبراطورية العثمانية في الشرق ، وقوة إمبراطورية
قشتالة في الغرب .

وكانت البرتغال هي آخر الغزوات في أوروبا . وإنتهت الأسرة الحاكمة فيها
دون ترك وريث مباشر ، فأفاد فيليب الثاني من هذه الفرصة ، وإستولى على العرش
الحالي ، وكلف دوق الب ، من جديد ، بترويض المعارضين . وواعد فيليب
باحترام القوانين البرتغالية ، إلا أن النجلاء إشتكوا من إبعادهم عن الحكم ، كما
اشتكى البرجوازيون من شدة وطأة الضرائب . ولم يقبل البرتغاليون المقيمون فيما
وراء البحار هذا الإتحاد مع إسبانيا بسهولة ، ودافعوا عن حقوقهم حينما وجدوا
أن إسبانيا لا يمكنها معاونتهم ، كما حدث في منطقة الامازون . وعلى أي حال فإن
وحدة شبه الجزيرة الأيبيرية قد تمت ، وبقيت لمدة ستين عاما .

فكانت إسبانيا إذا موجودة في أوروبا من لشبونة إلى بروكسل ؛ وكانت
لها أقاليم في هذه القارة لا تقل أو تزيد ، في نظام الحكم الإستعماري ، عن ملكاتها
الأميريكية ، وكان لها في كل منها ، كما كان لها في كل العالم ، ميليشيا كاثوليكية
ناشئة . ذلك أن أحد أبناء نافار الذي ولد في ليولا كان قد ترك الخدمة العسكرية
ووهب نفسه لخدمة السيد المسيح ، وأنشأ جماعة اليسوعيين ، الجزويت ، . وعمل
على محاولة تمسيح غير المسيحيين ، والكفاح ضد الهراطقة ، أي غير الكاثوليك ؛

وظلت إسبانيا وأقاليمها الخاضعة تعطى قيادات هذه الجماعة لمدة طويلة ، وإنشئت بعثاتهم في جميع أنحاء العالم ، وساعدوا على صبحه بالصبغة الإسبانية ، وميصلون بعد ذلك ، مثل جماعة الإخوان الإسلامية والاخوان الشيوتونيين ، إلى دور المستعمرين ، بعد أن كان هدفهم هو كسب الأهلالي للانجيل .

هذه هي الامبراطورية الإسبانية ، ويمكنها أن تظهر كامبراطورية تمت بطريقة غير طبيعية ، ونتيجة لعمليات زواج أو لعمليات ملاحه بحرية ، ولعب الحظ دورا كبيرا في وصول كولومب إلى الانتيل ، وفي دخول بورجونيا في ميراث قشتالة . ورغم ذلك أن هذه العمليات تتكامل . وكانت أراجونة محتاجة لقمح صقلية ، والأندلس محتاج للسيطرة على وهران لامنه ، ومدريد محتاجة لفضة بيرو لميزانيتها ، وللجنود المبشرين ، الذين أنشأهم إرناس دى ليولا ، في دبلوماسيتها . ولكن القطع ، الأوربية من هذا البناء الضخم كانت رقيقة ، ولا يمكنها أن تقاوم الأطماع الخارجية ، ونمو الحركات القومية ، لفترة طويلة . أما إمبراطورية ما وراء البحار ، فإنها كانت بعيدة ، وبشكل يحجبها ويحافظ عليها ، ولعدة قرون أخرى .

الفصل الخامس عشر

البرتغاليون ومنافسوهم

لم تكن الهند التي وصل اليها الغزاة عبر المحيط الاطلسي صدفة هي بلاد الهند الاصلية ، بل كانت جزر الهند الغربية . أما الهند التي كانت أوروبا تحلم بالوصول اليها فكانت في الشرق ، وفي نهاية الطريق الذي احتفظ به البابا للبرتغاليين ، بعد أن سارت سفنهم فيه . ولكن ، ألا يؤدي استمرار السفر غربا ، بعد الهند والامريكتين ، إلى الوصول إلى الهند الحقيقية ؟ وهل هناك حدود يمكن للبابا أن يضعها بين ممتلكات الاسبانيين والبرتغاليين في أقصى الشرق الأقصى ؟ أو في آخر أقصى الغرب ؟ وعلى أي حال فلنتبع وصول البرتغاليين للهند ، لكي نصل إلى تطور الاحداث الاستعمارية في العالم بعد ذلك .

١ - البرتغاليون في الهند الشرقية :

كانت الهند تعيش في ذلك الوقت منقسمة وكان كل من السلاطين الأتراك والافغان يتنافسون فيها ، وفي جو من الكدس ، ويحفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة . ولقد تمكن بابر ، الحفيد الخامس لتييمور لنك ، والحفيد الرابع عشر لجنكينز خان ، من مد حكمه من سمرقند إلى كابل ، ثم إلى دلهي وأجرا . وانتصرت مدفعيته على أفيال الاقطاعيين ، وسيطر على شمال الهند ، بعد أن نشر الارهاب على طريقة أجداده ، وأحرق الذمام والأطفال .

ولقد تمكن حفيده أكبر ، الذي عاصر فيليب الثاني ، من اتمام عمل جده ، ومن تجميع كل الهند تحت حكمه ، ما عدا أقصى الجنوب . فأصبح الحان الأعظم ، وتمكن بذلك أحفاد المنول من حكم الهند ، وسمى الغربيون امبراطوريتهم باسم امبراطورية المغول الكبيرة . وكانت هذه الامبراطورية تشمل على مائة مليون

نسمة ، وتأسع لمليون ، ونصف مليون من الكيلومترات المربعة . ولقد أدهشت هذه الامبراطورية البرتغاليين الذين وصلوا اليها . وكان البرتغاليين يحملون معهم المرصوم البابوي الذي يمنحهم شرق العالم ، وكان برنامجهم يتلخص في الوصول إلى ثروات الهند ، والمناجزة على حساب البنادقة والعرب . ولم يكن في وسع البندقية أن تصل إلى سلح الشرق الأقصى في ذلك الوقت إلا بعد صعوبات كبيرة ، وعبر العراقل التي وضعها الأتراك ، وبعد دفع مبالغ طائلة لنقل البضاعة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط . وكان العرب يحتفظون باحتكار التجارة في المحيط الهندي . ولم يكن هدف البرتغاليين إلا أن يحطموا هذه المنافسة المزدوجة ، ويضعفوا لأنفسهم احتكار تجارة الهند ، ويتهنوا الفرصة للشر المسيحية هناك .

ولقد رأينا البرتغاليين ينشئون المراكز على سواحل إفريقيا وعلى طسول الطريق المؤدى إلى التوابل . كما قام دياز بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح . وجاء بعده فاسكو دا جاما مع أربع سفن حربية ، وتعرف على موفو موتابا ، وبجزيرة موزمبيق ثم ممبسة قبل أن يتجه صوب الشرق ، ويصل إلى كالنكا ويشت رحمة التوابل . ولكنه عاد في رحلة ثانية مع إحدى وعشرين سفينة بحرية مسلحة . وهاجم المنشآت العربية في المحيط الهندي ، وأسس مركزاً في كوشين ، على ساحل المالابار ، وبدأت بذلك الامبراطورية البرتغالية في آسيا .

وواصل كل من ألميدا ، والبوكيرك هذه العملية ، وحاولوا من جهة ، أن يبعدوا العرب تماماً من تجارة الهند ؛ وأن يصلوا في نفس الوقت إلى التخلص من البنادقة . وقام البرتغاليون بتنفيذ ذلك بحماس ووحشية ، فأخذوا في إحراق سفن العرب ، وفي هدم المدن والمراكز الاسلامية . وفي طرد التجار ، وإدعوا أنها كانت حرباً صليبية ضد المسلمين ، وتحول المحيط الهندي إلى بحر برتغالي ، واحتفظت لشبهونة باحتكار التجارة فيه ، ومنعت كل سفينة من الملاحة فيه ، إلا

بعد تزويدها بتصريح رسمي من ملك البرتغال ، حتى وإن كانت هذه السفينة تابعة للسلطان الأكبر . وعمل البرتغاليون ، من ناحية أخرى على إنشاء مراكز لهم على طول الطريق ، وفي بلاد التوابل ، وإختاروا أحسن المراكز ، على الجزر الصغيرة أو في الخلجان المحمية ، وفي أحسن المواقع للتجارة وللرسو ، ثم أعدوا في كل منها بجزناً وقلعة ، وتركوا فيها بعض التجار وبعض العمال وبعض الجنود . وتمكنت الجيوش الأوربية من فرض نفسها على الشرقيين الذين لم يقدرُوا معنى مجيء البرتغاليين ، وإقامتهم في نقط صغيرة ، ولم يفكروا في معنى عملياتهم ، وتأثيرها على التجارة العالمية .

وأقام البرتغاليون بهذه الطريقة في إفريقيا الشرقية ، في دالاجوا وفي سوافلا وموزمبيق وفي جنوب مدغشقر ، كما أقاموا في سوقوطة عند مدخل البحر الأحمر ، وفي هرمز ، عند الخليج الفارسي ، وفي مسقط . أما في الهند ، فإن البرتغاليين قد أقاموا في ديو ، وفي دمان التي تسيطر على تجارة شبان الهند ، وفي جاوا التي كانت مركزاً لتجارة ساحل المالابار والهند الوسطى ، وفي كانانور وكوشين ، وهما بخارج الهند الجنوبية ، في سيلان المواجهة لخليج البنغال .

ولقد وجد البرتغاليون في الهند كثيراً من التوابل والأندسجة ، ولكن معظم التوابل كانت تأتي من أبعد من ذلك ، ومن بلاد « وبنزر » موجودة قرب الشمس المشرقة . فذهب البرتغاليون للبحث عنها على طول سواحل ميام ، وعند مصبات الميكنج ، حيث وجدوا الطبيعة تشبه طبيعة مركزهم في كوشين ، فسموها الكوشين صين ، وهي ما أصبحت الهند الصينية فيما بعد . ووصل البرتغاليون إلى سومطرة وإلى جاوة ، وهم يبحثون عن القرنفل والمسك . وكانت ملقة هي مفتاح المضائق ، فقاموا بإحراقها ونهبها ، وأنشؤوا قاعدة لهم هناك ، فأصبحوا يقيمون بين مزارع الفلفل والقرنفل والقرفة .

وكانت الصين تغريهم على المجيء إليها . فوصلوا إلى كانتون ، وتفاوضوا ،

ثم طردوا ، ولكنهم عادوا مرات كثيرة ، وإنتهوا بإقناع الصينيين بقبولهم
وبتركهم يقيمون في شبه جزيرة ماكاو ، عند مصب نهر كانتون ، وعلى أساس
دفع إيجار لهذه القاعدة الجديدة التي بقوا فيها لمدة ثلاثة قرون متتالية ، وجعلوها
مركزاً لتجارهم مع الصين .

وكانت اليابان تستحق بعد ذلك زيارة خاصة من البرتغاليين ، ووصل إليها
ثلاثة منهم في سنة ١٥٤٢ ، ثم جاء آخرون بعد ثلاث سنوات ، وكانوا من التجار
وبدأوا في المفاوضات . ثم جاء أحد أتباع ليولا ، وهو فرانسوا إجزافيه ، الذي
أخذ في الوعظ في ملقة وفي سيليبيس . وأعتقد الأهلالي أنه كان مجددأ في الديانة
الهندية ، ولكن التجار البرتغاليين إنتهزوا نجاح هذا القديس ووضعوا أرجلهم
في هيرادو ثم في نجازاكي .

وهكذا إمتدت منطقة عمليات البرتغاليين على طول آلاف من الكيلومترات ،
وعلى طول سواحل أفريقية ، إلى موزمبيق وزنبار ، ثم على طول سواحل آسيا ،
من بلاد العرب حتى اليابان .

وكانت هناك سياستان متعارضتان في ذلك الوقت في البرتغال ، وتردد
البرتغاليون بينها فترة من الزمن ؛ أما الأيداء فكان يعتقد في ضرورة الاحتفاظ
بالتفوق البحري ، وبأسطول قوى ، دون أن يزيد النفقات بإنشاء مراكز إحتلال
برية ؛ أما البوكيرك ، الذي إنتصر على الميدا ، فكان من أنصار سياسة برية ، ولم
يكتفب بإحتلال مفاتيح خطوط الملاحة البحرية ، مثل هرمز وملقة ، بل زاد من
عدد المراكز ، ووسع مناطقها ، وحاول أن يأنى اليها بالمهريين . وكانت سياسته
بسيطة : ففي جاوا مثلاً ، لم يكن على البرتغاليين إلا أن يقتلوا الرجال ، ويتزوجوا
النساء ويعدوا الأطفال . فثشأ شعب مخلط ، وكاثوليكي ، وخاضع للبرتغال .
وأفادت هذه السياسة من التنافس الموجود بين مسلمي الهند ، أو المغول أو الأتراك
العرب ، وبين الأهلالي . وقام البرتغاليون بإحراق المساجد ، وبنقل ما فيها إلى الكنائس ،

وحولوا جاو إلى لشبونة صغيرة ، ووضعوا لها نظاماً نقلوها عن نظم حاصمة نهر التاج، بمجلس أعلى ، وأسقفية ودير وحامية وتجار . أما في غيرها من المراكز التي كان الهندوس يمثلون فيها أغلبية ، فإن البرتغاليين قد اكتشفوا بانخفاض الرابح ، دون أن يمسوا النظم المحلية؛ ولكنهم عقدوا في نفس الوقت إتفاقات تجارية تضمن لهم بيع تجارة البرتغال بأسعار محدودة ، وتمنع أي منافسة ممكنة ، وخاصة من الأقاليم الإسلامية .

ولكن العجيب هو أن مليوناً ونصف مليون من البرتغاليين قد تمكنوا من القيام بكل ذلك . ولكن هذه السياسة كانت تكلفهم الكثير ، وفي كل ميدان : الأموال الباهظة للإستمرار في حرب مستمرة ، والكثير من الرجال لشوطينهم في المستعمرات . وكان البرتغاليون يمنعون هجرة النساء ، ولذلك فإن البرتغاليين كانوا ينتقلون بمفردهم إلى آسيا ، وينقلون معهم قوانينهم وديانتهم . وعاشوا في ماكاو ولم يزد عددهم على الألف ، وراء ذلك الخائض الذي بلغته الصين لتحديد مستعمراتهم ، ولإستلام رسوم الجمارك منهم ، ولم تكن تحت حكمهم ، وإدارة مجلس شيوخ خاص بهم .

وكانت هناك سبع حكومات تقسم فيما بينها حكم المراكز البرتغالية ، من رأس الربان الصالح إلى ماكاو . وكان حاكم جاو يتمتع بلقب نائب الملك ، ويدين لمدة ثلاث سنوات ، على الطريقة الإسبانية . ولكن الإغراء والفساد إنتشرا في الإدارة الإستعمارية ، رغم إرسال المفتشين من لشبونة ؛ وكان هدف الجميع ، بطبيعة الحال ، هو الإثراء وجمع الثروة بكل طريقة ممكنة .

وكانت هناك حكومة لدول الهند ، والهيئات المكلفة بالإدارة الاقتصادية في لشبونة ، وتسمى بيت المينا ، وتتحكم في ذهب غينيا ، مع بيت الهند ، الذي كان يشرف على الأساطيل وعلى المراكز ، ويجدد أسعار السلع المصدرة وأسعار التوابل المستوردة . وإحتكرت البرتغال العمليات التجارية في المحيط الهندي ،

وإحتكرت العوالة البرتغالية تجارة الفلفل، وأصبح ملك البرتغال هو ملك الفلفل؛ وكان يدفع نفقات بلاطه وقصره، وحتى مهر إبنته عينا من الفلفل. وكانت كل التوابل الأخرى تستورد إلى لشبونة في صناديق مغلقة، ويقوم مفتشوا البيت ببيعها بعد أن يحصلوا على نسبة ثلاثين أو ستمين في المائة من أثمانها ضريبة للخزانة، وكانت تجارة البرتغاليين مع الشرق، مثلها في ذلك مثل تجارة الاسبانيين مع العالم الجديد، تخضع للفصول السنوية، فكانت السفن تقام من لشبونة في أوائل الربيع، وتفيد من الرياح الموسمية الشتوية، لكي تصل إلى لشبونة على مصب التاج في شهر يونيو أو يوليو، وبعد رحلة تدوم خمسة عشر شهرا. وكانت هناك أسطوار البحر، وتقلبات السوق، ولكن إمكانيات الربح كانت تغطي كل ذلك. وحقق البرتغاليون أحلام الغرب القديمة، وأصبحوا سادة التوابل، ولم يكن الصليبيون أو أبناء جنوة أو البندقية قد وصلوا من قبل إلى مناطق انتابجا، ولم يصلوا إلا إلى رأس التواغل، أما غرارة لشبونة فقد نجحوا، لأول مرة في التاريخ، في الوصل بين مزارع القرنة وبين العطارين في أوربا الغربية.

٢ - حدود الشرق الأقصى مع أقصى الغرب :-

لم يكن البرتغاليون بمفردهم في هذا الميدان كما يرغبون. وكانوا يحتفظون بحقهم على الشرق، تجاه الدول الأوربية الأخرى استناداً إلى مرسوم البابا اسكندر السادس، الذي كان قد قسم العالم بنصف دائرة. ولكن أحداً لم يفكر، مع هذا التقسيم، في أن المنافسين يمكنهم أن يصطدموا مع بعضهم من الناحية الأخرى من الأرض، ودون أن يكون هناك خط حدود بين مناطق نشاطهم. وكان الاسبانيون غير قنوعين بالعالم الجديد، الذي لا توجد فيه أي توابل، وصمموا على الوصول إلى الهند، بنفس الطرق التي أعطاها الباطا لهم، أي بمواصلات

السفر صوب الغرب ، حتى ولو كان ذلك بعد الالتفاف حول أمريكا ؛ وإذا كان الجو غير مساعد من الشمال ، فإن ماجلان قد نجح ، وبأول محاولة ، في السفر من الجنوب .

وكان ماجلان برتغاليا ، ولكنه عمل لحساب شارل الخامس . وأقبح بخمس سفن ومائتين وثلاثين رجلا الاكتفاف حول العالم . ورسا في ربو ، ثم هجرته إحدى سفنه ، وفقد سفينة ثانية في البحر . وإستمر مع السفن الثلاث الباقية وعبر المضيق الذى حمل إسمه ، وخرج إلى المحيط الهادى . وسارت السفن لمدة مائة يوم وعشرة . ونزل الاسبانيون على إحدى الجزر التى سموها سان لازار ، والتى أنشأ ماجلان فيها أحد المراكز ، قبل أن يقتل في معركة مع الأهالى . وإحترقت إحدى سفنه ، وأمر البرتغاليون السفينة الثانية ، ولكن السفينة الثالثة وصلت إلى برزنيو ، ثم سارت وسط الأرخبيل وخرجت إلى المحيط الهندى ، والتفت حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلت إلى اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجلا ، بعد رحلة دامت ثلاث سنوات ولقد ثبتت هذه المرة أن الأرض كروية تماما ، وتأكد الرجال من ذلك . ولكن التنافس الاسبانى البرتغالى بدأ بعد ذلك ، وفي المنطقة المضادة للمحيط الأطلسى على الكرة الأرضية .

ولقد اشتبكت قوات هاتين الدولتين في ملقة ، كما اشتبكت جنوه مع البندقية في قبرص وفي بيزنطة من قبل . أنها حروب استعمارية ، وبين المستعمرين . وكان البرتغاليون هم أول من وصل إلى هناك ، وكانوا أقوى من الاسبانيين . وكان شارل الخامس في حاجة إلى النقود ، فاضطر إلى ترك مطالبه نظير ٣٥ ألف دوق من الذهب ، ولكنه لم يتخلى عن جزر سان لازار ، التى سميت الفيليبين ، نسبة إلى ولي العهد الذى سيصبح فيليب الثانى فيما بعد . وأقام فيها بعض مئات من الاسبانيين ، ونشأت مانيلا العاصمة سنة ١٥٧١ . وتحاشى الاسبانيون اساءة معاملة الأهالى ، ولم يدخلوا نظام الرقى أو جماعات العمل الاجبارى في الجزيرة .

واكتشف الاسبانيون جزر هاواي وسالمون عن طريق المحيط الهادى ،
ووصلت تجارة الفيلبين إلى اسبانيا عن نفس الطريق . وقامت السفن الاسبانية
برحلات منتظمة بين ما نيلا والموانى الغربية للمكسيك ، و نقلت منتجات الصين ،
من الصينى والحريز ، إلى إشبيلية ، عن طريق المحيط الأطلسى وحاول الاسبانيون
أن يتاجروا مع الصين نفسها ، ووصلوا إلى كانتول وحاولوا عقد معاهدة تجارية،
ولكن البرتغاليين تدخلوا للاحتفاظ باحتكارهم فظلت التجارة بين الصين والفيلبين
في أيدى الصينيين أنفسهم ، وهم الذين كانوا قد وصلوا إلى الجزيرة قبل
الاسبانيين . وحاول الاسبانيون أن يتخلصوا منهم ، فقتلوا عشرين ألفا ، ولكنهم
عادوا ، وبأعداد أكبر. ورغم أن الاسبانيين استخدموا نفس الطريقة من جديد،
إلا أنهم فشلوا في وقف هذه الطهجرة ، وفى انتراع التجارة بين الصين والفيلبين من
أيدى الصينيين . وحاول الاسبانيون أن يصلوا إلى اليابان ، ووصلت سفنهم إن
هيرا دو ، ولم يكن فى وسع البرتغاليين أن يمنعوهم ، ولكن علاقات الاسبانيين
مع اليابان لم تتقدم أكثر من ذلك .

وظلت لشبونة متفوقة فى هذه المياه ، وحتى الوقت الذى قامت فيه اسبانيا
بضم البرتغال نفسها . وكان على اشبيلية أن تمنى حظها فى المحيط الهادى ،
ولكنها كانت تسيطر على الذهب والفضة الأمريكية . أما لشبونة فكانت
تستلم ثروات افريقية وآسيا من تبر الذهب ، والعاج ، وكاكو غينيا ،
وسكر ماديرا ، وعبيد لو اندا ، وقرنفل زنجبار وقهوة موخا ، والصمغ العربى،
والماس ، واللؤلؤ ، وأحجار الهند ، والقطن ، والشاى من سيلان ، وفلفل ملقة
والمسك والقرفة والصينى والحريز من الصين ، مع كل الأعشاب والطاردة ومواد
الصباغة والعمطور والمخدرات التى تنتجها جزر الترابل . وكانت هذه السلع النفيسة
تصل بألاف الاطنان ، وتخزن على أرصفة نهر التاج ، وبكميات لم تشهدهما
الهندية من قبل . وقامت لشبونة ببناء السفن وصناعه الأسلحة وتكرير السكر ،

ولكن دولة البرتغال الصغيرة لم يكن في وسعها أن تعمل كل شيء . فلقد قام غراتها بإشياء امبراطورية ، وإنتشر بحارتها في المحيطات ، وجاء تجارها إلى لشبونة بثروات قارتين ، ومئات من الجزر ، فكانت مضطرة بعد ذلك إلى أن تترك لغيرها مهمة توزيع هذه السلع وقامت أنفوس ، وهي على بعد خمسة عشر يوماً من السفر بجزر من لشبونة ، بهذه العملية .

وكانت أنفوس هي عاصمة رؤوس الأموال ، وأكبر مركز للتجارة الأوربية ، وكانت لها سفنها ورصيدها ، وكان في وسعها أن تشتري وتنقل وتبيع . لقد كانت لشبونة هي المخازن ، وكانت أنفوس هي السوق . كانت لشبونة تخزن كميات كبيرة ، وتترك لأنفوس إعادة بيعها بالتجزئة . وقام البحارة الفلانكيون بشحن التوابل من مصب نهر التاج لكي يوزعونها بعد ذلك على كل موانئ الغرب ، وطبقاً للعقود التي عقدها رجال المال في أنفوس نفسها . ولكن أنفوس كانت مستعمرة إسبانية ، وبذلك تكون إسبانيا هي المنتصرة ، مادامت التوابل تنتهي في مطافها إلى مراكز خاضعة لها ، وبين أيدي رجال هم من رعاياها .

ولقد حاول دوى الب ، نائب الملك في الأراضي المنخفضة ، أن يكسب من هذه العملية ، وذلك بفرض ضريبة تبلغ ١٠٪ على كل عملية تجارية ولصالح الخزانة الإسبانية . ولكنه ساعد بطعمه ، ودون أن يدري ، على إنتشار مذهب كلفن . وإفتخرت أمستردام ، عاصمة الرنجة ، هذه الفرصة لكي ترث أنفوس . وحينما انفصلت الأراضي المنخفضة الشماليه عن الأراضي المنخفضة الجنوبية سنة ١٥٨٣ ، قضاوا على تجارة أنفوس . ولكن لشبونة كانت قد أصبحت إسبانية منذ سنة ١٥٨٠ ، ومنح فيليب الثاني دخول تجارة الأراضي المنخفضة الشائرة إلى موانئها . فكانت النتيجة هي أن الهولنديين قد صمموا على ترك التعامل مع البرتغاليين ، وخاصة وأن مرسوم البابا اسكندر السادس لهم يكن ذا قيمه في نظر الهجنتوت ؛ وقرروا الذهب بأنفسهم إلى بلاد التوابل . وكان اليايما قد نسي أن

أضرار الإصلاح الديني. إن يعترفوا بتقسيمه العالم ، و ثروات العالم .

٤ - المنافسة الانجليزية :

كانت هناك شعوباً أخرى في العالم تطالب بنصيبها من هذه الثروات ، ومنهم الانجليز والفرنسيين الذين شعروا بأنهم مظلومين ويتساءلون عن السبب في احتكار الاسبانيين والبرتغاليين ثروات العالم. وأعلن فرنسوا الأول أن الشمس تشرق للجميع ، وطالب بعرض وصية آدم التي تحرمه من تقسيم العالم. وكانت الطريقة العملية لإعادة التوازن تتلخص في إنزاع الثروات إنزاعاً من المستعمرين ومن مستعمراتهم فهل هذه هي القرصنة ؟ لقد حاول بعض الفقهاء والمشرعين التمييز بين القرصنة والقنصاة البحرية ، وذكروا أن القرصنة هم مجرد قطاع للطرق البحرية ، وأما القنصاة فتعترف دولتهم رسمياً بهم ، وتعطيهم الحق الرسمي ، في وقت الحرب ، لأسر سفن الأمة المعادية ، والاستيلاء عليها .

ولقد قام القنصاة البحريون بسفنهم السريعة بعمليات السلب بالقرب من الأنثيل ، وتعاونوا مع المهربين الذين كانوا يحاولون الوصول إلى العالم الجديد. وكثيراً ما قاموا بالنزول إلى الأماكن والمراكز التي تخزن فيها البضائع وهاجموها ، كما هاجموا ونهبوا السفن الإسبانية التي كانت تخاطر من وقت إلى وقت بالسفر بمفردها على المحيط الأطلسي أو المحيط الهادي .

ولقد قام القنصاة الفرنسيون بمهاجمة سفن هافانا وسولوا الأماكن القريبة من جزر كناريا والخالدات إلى مناطق عمليات وصيد بحري . وكانت أهم مغامراتهم في سنة ١٥٢٣ حين تمكنوا من أسر سفينتين من ثلاث سفن اسبانية كانت تحمل إلى شارل الخامس ، من كورتيز ، كنوز مونتزوما ، وعثروا فيها على أواني ذهبية وفضية وأحجار كريمة كبيرة . وظهر قنصاة آخرون أمام ديو وهاجموا سومطرة . وكان البرتغاليون يعذبون القراصنة الذين يقعون في أيديهم حتى يحتفظوا باحتكارهم .

أما الإنجليز فكانوا يراقبون السفن الإسبانية أمام خليج قادس . وقام هو كنز باستيلاء على حمولات كاملة من العبيد ، وكان يبيعها بعد ذلك في أمريكا . وقام ابن عمه فرنسيس دريك بالنزول في أمريكا الوسطى وبمهاجمة قوافل البغال التي تحمل الذهب والفضة من بيرو ، واستولى عليها وعاد إلى بليموث بالسبائك . وشجعت الملكة اليزابيث مشروع السفر حول العالم حتى تتمكن من تطويق أمريكا الإسبانية ، وساهمت في مشروع الحملة . وقام دريك بعبور مضيق ماجلان ، ودمر ممتلكات الأسبانيين من شيلي إلى كاليفورنيا ، واستولى على سفينة إسبانية محملة بالذهب ، وعبّر المحيط الهادى وفرض غرامه كبيرة على ماينلا ، وتزود من جاوة ثم عاد إلى إنجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح يحمل غنائم كبيرة . ولقد قام دريك برحلته حول العالم هذه في وقت السلم ، ومع ثمانين هجعة وغزوة . وإذا كانت اليزابيث قد تبرأت منه ، إلا أنها كافأته في نفس الوقت . وحينما نشبت الحرب بدأ دريك من جديد في هايتى وفلوريدا وهاجم وأغرق مائة سفينة إسبانية فيها ، وقام دريك بدوره في هزيمة الأرمادا أمام بليموث سنة ١٥٨٨ ، وعرف الإنجليز أنهم بحارة مهرة .

ولكن الترصنة وأعمال القناصة البحريين ليست من الاستعمار ، رغم أن دريك كان قد استولى على موقع في شمال كاليفورنيا ، ووضع أحد سلاطين جزر التوابل الثائرين ضد البرتغال تحت حماية الملكة اليزابيث . ولكن فكرة الاستعمار بدأت رويداً في النضوج في رأس البريطانيين . وكانت إنجلترا تفضل بعض المراكز في أوروبا أو جويانا أو كاليه على أقاليم استعمارية واسعة فيما وراء البحار . وكانت حروبها الطويلة مع فرنسا والخلافات الداخلية قد أبعدها عن الاستعمار فيما وراء المحيط ، كما كانت في صعب جمعة مع إقليم ويلز التي حاولت أن تدخل فيه لإدارتها ، ومع إيرلندا التي حاولت أن توطن فيها بعض المزارعين الإنجليز .

وعهدت بريطانيا لاولى حملاتها البعيدة إلى جان وسباستيان كابوت الايطاليين اللذان أبحرا من بريستول ، لكي يبحثا عن طريق شمال يوصل إلى الهند . فوصلا إلى نيوفوندلاند وعترا على مناطق غنية بالاسماك ، وإن كانت الاسماك لا يمكنها أن تحمل محل الذهب والتوابل . وقام بحارة آخرون مثل فروبشير وجليبرت وادفيس بمحاولات أخرى ، واستكشفوا سواحل لبرادور وجرينلاند واتصلوا بالاسكيمو ، وتعلموا صيد الحوت ، ولكنهم لم يجدوا الطريق المؤدى إلى الهند . وفكر الانجيز في الالتفاف من الناحية الأخرى صوب الشمال الشرقى للالتفاف حول آسيا بدلا ، من الالتفاف حول أمريكا ؛ وقام تشانسلور باعداد حملة مولها تجار لندن وسار على طول سواحل لابونيا ، ووصل إلى بحر لايرى الليل ، إنه البحر الابيض . ووصل بعد ذلك إلى نقطة ستصبح أركانجل ، وسمع هناك الاهالى يتحدثون عن مدينة كبيرة يمكن الوصول اليها عن طريق الزحافات . فهل هى بكين ؟ إنها لم تكن إلا موسكو . وتأسست الشركة الموسكوفية فى لندن للتجارة مع روسيا . وكانت هذه الشركة تعلم باستخدام الطريق الجديد عبر روسيا والشرق للوصول إلى الهند . وحاول جنكنسون سنة ١٥٦١ أن يسافر عن طريق الفولجا وبحر قزوين حتى فارس . ووصل ثلاث تجار إنجليز إلى نهاية الرحلة سنة ١٥٨٣ ؛ ولكن الاخطار كانت جسيمة والمصاريف باهظة بشكل يجعل العملية غير مربحة .

ولم تكن هذه الحملات ، مهما ساعدت فتح ميادين تجارية ، تشتمل على إنشاء مستعمرات ثابتة . وإذا كانت الهند بعيدة عن أيدي الإنجليز ، فلم لا يقوم البريطانيون بالبحث عن الثروة على القارة الامريكية ؟ وكان الانجليز من البروتستانت فلم يهتموا بمرسوم البابا . كما أن الاسبانين كانوا قد تركوا السواحل بدون استكشاف وخاوية ، وبخاصة فى الشمال الذى لا يعجبهم مناخه ، والذى يتلاءم مناخه مع الإنجليز ؛ فقام جيلبرت بضم مربع يبلغ طول جانبه مائتى ميل

في نيو فونديلاند. وقام أخوه ، السير وولتر رالي ، الذي كان من أصدقاء الزبايث ، بمحاولة لإنشاء مستعمرة على السواحل الأمريكية ، تعطيها الملكة أسمها ، وهي مستعمرة فرجينيا . وبعد رحلته ، ترك مائة من الرجال وبعض الذئب على إحدى الجزر . ولكنهم إختفوا حون أن يتركوا أى أثر ورائهم . ورغم كل ذلك فإن رالي لم يفقد آماله . وشجعت إنجلترا على التوسع في تربية الاغنام وقامت بتحويل أراضيتها الزراعية إلى مراعى لتشجيع صناعة الأصواف فيها . وكانت تشمل على كثير من المزارعين ، الذين لا يملكون أرضا زراعية ، وكان فيها كثيرا من المشردين والفقراء يمكن تهجيرهم إلى ماوراء المحيط . وفكر جليبرت في إنشاء مستعمرات للتوطين للتخلص من زيادة السكان في بريطانيا ، حتى وإن كانت هذه المستعمرات لا يوجد فيها الذهب والتوابل . أما رالي فإنه قد أحضر الطباقي من فرجينيا ، وأخذت عادة تدخين الطباقي في الانتشار ، وظهر معها ما يمكن لأراضى العالم الجديد أن تنتجه . وكان رالي هو أول من وضع نظرية التسلطية البريطانية المقبلة ، والتي تملخص في أن من يتحكم في البحر يتحكم في التجارة ؛ وأن من يتحكم في تجارة العالم يتحكم في ثروة العالم ، وبالتالي في العالم نفسه . وبدأ بذلك تاريخ إنجلترا الاستعماري .

٤ - المنافسة الفرنسية :

لم يفكر الفرنسيون كثيرا في البحر نتيجة لإنشغالهم مع إنجلترا ثم مع إسبانيا والنمسا . وكانت الحروب الدينية قد قسمت فرنسا في عصر الغزو الاسباني ، وكان كل من الاسبانيين والبرتغاليين يمكنهم العمل لأنهم كانوا قد قرروا نهائيا أن يكونوا من السكان أوليك . وكذلك كان في وسع الانجليز أن يعمروا ماداموا قد إستقروا في البروتستانتية ، أما الفرنسيين فكان عليهم أن يفتظروا قليلا حتى يقرروا إتجاهاتهم في بلدهم .

وكانت أطرافهم الاستعمارية متجهة صوب إيطاليا ، وصوب البحر المتوسط

الذي أعطاهم نظام الامتيازات فيه بعض المزايا في الحوض الشرقي منه . وكان ينقص الفرنسيين بعض الحصان والصفات اللازمة للمستكشفين وللتجار ، فكانت تنقصهم تلك العزيمة التي دفعت غزاة إيبيريا على طرق التجارة العالمية ، وكان ينقصهم حب المكاسب الذي كان يحرك الانجليز . كانوا يفضلون بلادهم على أى بلد آخر ، وإقليمهم على الأقاليم الأخرى ، وقربتهم على القرى المجاورة . وإذا كانت لديهم الاموال فانهم يشتركون بها أحد المناصب أو أحد الألقاب الفخرية أو قطعة أرض قريبة من قريتهم . ولكن بعض العناصر المغامرة ظهرت على سواحل نورماندى وبريتانى ، وبدأت في الصيد إلى جوار نيوفوندلاند ، وقام جان أنجو بإعداد حرب القناصة البحريين ضد البرتغاليين ، وجعلهم يخسرون ثلثمائة سفينة ، وأرسل الاخوان بارمنتييه إلى سومطره وإلى الصين ، وكلف بيير أوبير بإنشاء مركز لصيد الاسماك وتجارة الفراء في نيوفوندلاند ، ونصح فرنسوا الاول بارمزال فيرازانو إلى أمريكا ، وتمويله برؤوس أموال من ليون وفورنسا . ولقد أعلن فرنسوا الاول سنة ١٥١٥ حق رعاياه في الملاحة على كل البحار المعروفة . وأمر بإنشاء ميناء في الغرب وعلى مصب المسين ، يكون مرسى وموقعا حصيناً . فكان ذلك بداية لمشاة الهافر . وعين فرنسوا الاول فيرازانو في خدمته ، وقام هذا الأخير بالاستيلاء لفرنسا على نيوفوندلاند ، واكتشف إلى الجنوب منها أرضا سماها أنجوليم ، نسبة لملك رأس المالك ، وهى التي ستصبح نيويورك فيما بعد .

ولقد منح فرنسوا الاول معونة تبلغ ستة آلاف جنيهه إلى أحد المترجمين البرتغاليين من ميناء سان مالو ، وذلك للقيام بعمليات استكشاف في الغرب . وللعثور على بعض الجزر والبلاد التي يقال بأنه يوجد فيها كميات كبيرة من الذهب . وقام جاك كارتيه بإعداد سفينتين والإبحار صوب لبرادور ، ودخل في مصب أحد الأنهار الكبيرة الذي سماه سان لوران ، ثم نزل إلى الساحل ورفح العلم الأبيض

الملكي ، ونصب صليبا نقش عليه إسم ملك فرنسا . وجاء الأهلالي يكررون أمام الفرنسيين كلمة كندا وهم يشيرون إلى قراهم وأكواخهم ، فأصبحت هذه الكلمة هي إسم الإقليم . ولقد رحب هؤلاء الوطنيون بالفرنسيين وقدموا لهم الأسماك الكبيرة . وعاد كارتيه إلى فرنسا مصطحبا معه بعض الوطنيين ، فمنحه الملك ثلاث سفن لرحلة ثانية ، قام في خلالها بصعود نهر سان لوران إلى مكان معسكر للصيادين وتجار الفراء ، الذي أطلق عليه اسم مونتريال . ولقد أكد الهنود أن نهر سان لوران ينتمي إلى بحر كبير ، فهل كان هو بحر الصين ؟ وعلى أي حال فقد كان الشتاء قاسيا ولم يجد الفرنسيون ذهباً في مستعمرتهم الجديدة . ورفع كارتيه صليبا جديداً في المسكان الذي نشأت كويليك فيما بعد فيه ، ثم عاد إلى سان مالو . أما رحلته الثالثة سنة ١٥٤١ فقد كان يحمل فيها لقب القائد العام وكان مكلفا بمهمة محددة لإنشاء مركز دائم وبمعرفة المعمرين ورجال المهن والصناعة . وبدلاً من أن يجد الذهب ، وجد النحاس ، ولكن بكميات كبيرة . وكانت السفن تعود محملة بالصيد وبالفراء . ولكن الجو كان قارس البرودة وخاصة في الشتاء ، فأدى ذلك إلى إخلاء المستعمرة ، وإن كانت فرنسا تدهت استغظت بها ، ودون أن تحصل على تصريح بذلك من روما . وكان في فرنسا كثير من أنصار كلفن الذين حاولوا الهرب من الاضطهاد الديني وإقامة في أقاليم جديدة . وكان بعضهم يذهب من فرنسا للإقامة في فلوريدا أو في البرازيل . وقام كوليبه بتشجيع هذه الهجرة ، وأرسل جان ريبولاستكشاف سواحل فلوريدا . ولقد أنشأ ريبو قلعة على إحدى الجزر عند مصب أحد الأنهار الصغيرة وسماها قلعة شارل وترك فيها بعض الرجال كهوئين ، ثم عاد إليها في رحلة ثانية مع أربعائة آخرين ، وأصبح الأقليم يسمى كاليفورنيا . ولكن الأسبانيين حاولوا التخلص من الفرنسيين نظراً لسكونهم من الفرنسيين ، ومن الهجنوت ، ولأنهم لم يحترموا قرارات البابا بتقسيم العالم : فقاموا بقتلهم بما فيهم من نساء ومرضى ، وسبوا

البحارة من أعينهم على ساريات السفن، وشققوا الجنود بعد أن كتبوا على صدرهم « لا كفرنسيين ، ولكن كهراطة » . وقاموا بسلخ ريبو حياً ، وأرسلوا لجيتمه إلى إشبيلية . وبعد ثلاث سنوات قام أحد أبناء بورديو بأعداد ثلاث سفن سريعة وأقلع من روان ومعه ثمانين بحاراً ومائة جندي وأعاد إحتملال قلعة شارل التي أصبحت سان مانينو ، وشقق بدوره كل الاسبانيين الذين وجدهم ، وكتب على صدورهم : « لإكاسبانيين ولكن كخونة ، وقتلة » وكانت عملية الاستعمار تحتاج لمجهودات متواصلة ، لا لمجرد مجهودات متفرقة ، ولذلك فإن كارولينا لن ترى بعد ذلك الفرنسيين .

ولقد حاول الهجنوت أن يجدوا ملاجأ لهم في البرازيل حسب توجيهات كوليني ، وقام أحد البحارة بتوصيل ٦٥٠ فلاح وعامل إلى خليج ريو ، وأنشأ قلعة كوليني على جزيرة صغيرة ، وهنرى فيل على الساحل المجاور . ولكن هذه المستعمرة انتهت بمنازعات دنيئة رغم الامدادات التي وصلتها من الهاغر ، ثم قضى البرتغاليون عليها وذلك سنة ١٥٦٠ بعد أن هاجموا بالنسي رجل ، رغم أن الفرنسيين الذين كانوا يدافعون عنها لم يزد عددهم عن ٧٤ . وتفرق المعمرون ، ولم يبق من هذه المتخامرة إلا اسم جزيرة الفرنسيين ، الواقعة في الخليج أمام ريو دي جانيرو .

ولا يمكننا أن نتجاهل الألمان ، خاصة وأن شارل الخامس كان في حاجة إلى الرأسماليين من بينهم ، فاستثنى الألمان من القاعدة التي كانت تحتفظ بتجارة العالم الجديد حكرأ على الإاسبانيين . فأفاد من ذلك بعض الالمانيين الذين أنشأوا مركزا تجاريا لهم في هايتي ، وإشترى إحدى المقاطعات إلى جنوب برزخ بنما ، وحاووا إستعمار فنزويلا ، وبدأوا في غزرو منطقة ماركايبو . ولكن الأهالي عاديهم . ولما كانت العملية بالنسبة إلى الألمان هي مجرد عملية مالية ، وأكثر من كونها عملية استعمارية ، فانهم انسحبوا منها نظير دفع الدولة لهم مبلغ ١٠ آلاف بيزيتا ذهبية .

وهكذا فشل الفرنسيون والألمان، أما الإنجليز فكانوا قد بدأوا مغامرتهم، وكان كل من هؤلاء المنافسون لا يعنى الكثير أمام العمالقنة الأسبانيين والبرتغاليين والذين أصبحوا سادة الهند الغربية والهند الشرقية . وكان خطأهم الأكبر هو قلة رغبتهم فى المغامرة ، ومجيئهم متأخرين . كما أنهم لم يجدوا الذهب والتوابل التى كان الموك والشعوب فى إنتظارها ؛ وإن كان أوقت سيعمل فى صالحهم ويسمح لهم بالتفوق .



ويتضح مما سبق أن هذا القرن الذى مر منذ أن وضع كريستوف أرجله على جزيرة سان سلفادور ، قد غير تاريخ العالم . ولم يكن الاستعمار قد أحدث مثل هذا التغيير من قبل ، والذى عمل بدوره على تغيير كل شىء فى التوازن السياسى ، وفى الظروف الاجتماعية ، وفى التقاليد ، وفى المعتقدات . ويمكننا أن نقول بدون كبير خطأ أن الغزاة قد أنشأوا عالماً جديداً .

ويمكننا أن نتصور بعض الرجال الذين عاشوا فى هذا العصر . فإنه قد ولد مع أمريكا ولاحظ التغييرات العالمية . فإذا كان من الهنود الخمس ، فإنه قد رأى انهيار الامبراطوريات القديمة ، وانهيار الآلهة القديمة . ورأى حضور الرجال الذين ينهبون وينقلون الكنوز المادية ، ويوردون غيرهم ، ويدخلون على الأرض الأمريكية عاداتهم ولغتهم ، ويوطنوا فيها زنوج افريقيه . ولقد أحضر الغزاة معهم مرض الحصبة وسكنهم كانوا أول من بذر حبوب القمح ، والذى أصبحت أمريكا أكبر منتج له فى العالم فيما بعد ، وقاموا بزرع أشجار الزيتون والكرام والموالح ، وأدستلوا الخيول ، والخنازير التى زادت سرعة تناسلها بمجرد مجيئها إلى جوها الطبيعى ، وملائت الجرز والسهول . ولقد قام الرجل الأبيض بإدخال الأدوات الحديدية فى تلك القارة التى ستصبح فيما بعد أكبر منتج للحديد فى العالم . وقام البيض باستخدام العجلات بدلاً من استخدام دواب الحمل . وإذا كان الأهالى

قد إندهشوا لرؤية المسيحيين يأكلون من لحم السيد المسيح في الكنائس ، فانهم قد تمرنوا بعد ذلك عن أن يكفوا عن أكل لحوم البشر و تقديم التضحيات البشرية . أما إذا كان من الأوربيين فانه قد شاهد دخول مأكولات وأدوات وأمراض في منزله ، لم يكن قد تعودها من قبل . فكانت هناك التوابل التي تأتيه عن طريق لشبونة وأنفوس ، وكان هناك الطماطم والآنناس والسكاكو والديكة الرومية ؛ وحضر بعد ذلك البطاطس والقموة وسكر القصب ، التي كانت تبتج في آسيا ، ثم زاد إنتاجها في أمريكا . وكانت الهند تورد له مواد الصباغة ، أما أمريكا فكانت تورد له الزهور والأخشاب والطباقي الذي بدأوا في استخدامه في الطب ثم أخذوا في تدخينه . ولقد أثر ذلك على تاريخ العالم تأثيراً كبيراً ، وأفاد السكر في التقوية ، كما عمل البطاطس على إنقاذ أوربا من أخطار المجاعات ، وساعدت الضرائب على الطباقي على إنهاء مشكلات مالية كثيرة .

وكانت من نتائج إكتشاف أمريكا زيادة ورود المعادن النفيسة ، ولم تكن هذه المعادن تلقى في جزائن مالك إسبانيا بل كانت تشر في كل أوربا في شكل قطع ذهبية إسبانية أو فلورنسية أو فرنسية أو إنجليزية . وساهم القضاة البحريون في زيادة توزيع ذهبها وفضتها ، بشرائها المنتجات التي تحتاجها من الخارج ، مادامت بلادها كانت غير قادرة على صنعها ، وبدفع ديونها إلى رجال البنوك الفلنكيين والألمان ، وبدفع رواتب جنودها المترفة من السوليسريين والبلجيكين ، وبإدخالها الأيدي العاملة الأجنبية ، وخصوصاً الفرنسية ، في شبه جزيرة أيبيريا ، وفي الوقت الذي كانت ترسل فيه الإسبانيين للعمل في أمريكا ، وإرتفعت الرواتب ، وزادت القوة الشرائية وزادت وسائل الدفع ، فارتفعت الأسعار . وبدأت هذه الحركة لارتفاع الأسعار من البرتغال وإسبانيا ثم وصلت إلى فرنسا وإيطاليا ثم إلى أوربا حتى هولندا وروسيا . وزاد استخدام الفضة ، وانتشرت عادة الاقراض بالفوائد . وأخذ رجال الاقتصاد في ذلك العصر في

البحث عن سبب غلاء كل شيء ، فتوصلوا إلى إنخفاض سعر العملة ، وحاولوا أن يتعلموا عليه . ولكن الرجل العادى لم يكن يهتم بالنظريات ، بل يهتم بدورة رأس المال ونمو الرأسمالية . وكان آباؤه وأجداده يعيشون عيشة متواضعة ويلبسون ملابس متواضعة ويأكلون الجذور الدرية والرنبجة . ولكنه أصبح الآن يهدم المساكن القديمة ويرتدى ملابس من أنسجة متقنة ، ويعتبر ما كان كماليا بالأمس ضرورياً في يومه . وليس من حقنا بعد أن نسأل إن كان هذا الرجل قد أصبح أكثر سعادة من أجداده . لقد إرتفعت الأثمان وتضاعفت ثلاث مرات وأربع مرات ، ولكن الإيرادات تضاعفت بنفس النسبة أو بنسبة أكبر ، وإن كان توزيعها قد إختلف . وكان هناك من كسب من هذه التغيرات ومن خسر ، مثلهم في ذلك مثل كل فترة تتغير فيها الأسعار . وكسب الفلاح وأصحاب الدخول المتغيرة مثل التجار وأصحاب البنوك ، وخسر أصحاب الدخول المحددة ، ومن أول صغار الموظفين حتى النبلاء ، وفي إسبانيا وإنجلترا وفرنسا . وتغير السلم الاجتماعى ، وازدادت درجة الصراع الطبقي ، وإن كان قد أخذ شكل صراع دينى . ولقد ساعدت الثروة على تقدم الطباعة والنشر ، وأخذ الناس يقرءون أكثر من قبل . أما العناصر غير الراضية ، وكل من خسر من عملية إنخفاض قيمة العملة فقد أخذوا في التفكير في آراء الإصلاح ، وأما العناصر الراضية ، والتي بحثت من العمليات الاستعمارية فقد أخذت في الدفاع عن العادات والتقاليد الكاثوليكية الرومانية . وأخذ الملوك يميلون إلى معارضة البابا ، ما داموا قد شعروا بأنه ابعدهم عن تقسيم الأسلاب ، في تقسيمه للعالم . وإذا تركنا لإسبانيين والبرتغاليين جانبها ، لرأيتنا أن الإيطاليين يكونون شعبا كاثوليكيا تحت السيادة الإسبانية ، أما الإنجليز والهولنديون ، فإنهم يمثلون الثورة ، قد نسى البابا اسكندر السادس حين تقسيمه لممتلكات ماوراء البحار أنه يعمل في نفس الوقت على تقسيم المذاهب داخل العالم المسيحى نفسه . واثرت المكشوف الجغرافية على الفنون والآداب ،

فظهر أسلوب جديد في البرتغال إختلطت فيه النباتات البرية والبحرية مع الحيوانات ، كما إختلط فيه الهند مع الكنعو . أما النهضة الاسبانية والإيطالية فقد امتاز أسلوبها بتذهب السقوف والأدوات الخشبية . وإنتشرت عادة القلائد الذهبية ، وجمع ريش الطيور النادرة ، وإنعكس كل ذلك على الأدب ، زيادة على القصص والروايات التي بدأت في إستخدام أسماء أقاليم ومناطق جديدة من العالم .

أما التغيرات السياسية التي تمت في هذا القرن فكانت كبيرة وبعيدة المدى ذلك أن الامبراطورية العثمانية كانت قد تمكنت في خلاله من توحيد شمال إفريقيا ، في الوقت الذي سيطرت فيه أوروبا على كل العالم ، والذي تحول فيه مركز الثقل العالمي لأول مرة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي . وكان الجيل السابق قد رأى المسلمين في غرناطة ، ولكن نفس الجيل رأى قشتالة تخضع جزءاً كبيراً من العالم . أما الجيل التالي فقد رأى بداية لإنهيار إسبانيا مع تركها لأراضيها كمرع للأغنام ، ومع هجرة فلاحيها وقلة عدد سكانها . وإذا كان الاستعمار قد رفع الأسعار فإن هذه العملية كانت تبعاً رعاياها ، بشكل يحزم شبه الجزيرة الإيبيرية ، كوطن ام ، من القوة العاملة فيه .

ولقد كانت أوروبا كلها وكل الغرب ، آخذة في الصعود . أما آسيا فكانت لم تستيقظ بعد . سواء امبراطورية الصين الخاضعة لأسرة المنج ، أو الهند التي خضعت لبابر وأكبر . أما إفريقيا فلم يكن هناك من يقيم لها أى وزن . وكان على أوروبا وحدها أن تأخذ القرارات ، بعد أن أخذت الأراضي ، وأصبحت تمتلك أمريكا وتوابل آسيا ، وعميد إفريقيا . وكانت أوروبا تضع الكل في مرحلة العميد وإرضاء حاجاتها ، سواء أكان ذلك هو ثروات العالم الجديد أو توابل الهند أو عميد السودان .

وأصبح للعالم في هذا القرن بمفرده تاريخاً أكثر مما كان له منذ آلاف سنة .

ولكن ذلك لا يمكننا من أن نتحدث عن ثورة إستعمارية . فلقد رأينا غزاة من قبل يسمون الاسكندر الأكبر وجنكيز خان ، ولقد كانت فارس أمريكا جديدة بالنسبة لابناء مقدونيا ، وكذلك المشرق بالنسبة للصليبيين . أما عن المذهب فقد كان النتيجة الطبيعية للغزوات ، وكانت قرطاجة قد عرفت طريقة ، وقام تراجان بالاستيلاء عليه ، كما قام كورتيز بالعشور عليه في المكسيك . ولقد وجد ماركو بولو باكتشافه أوراق العملة في الصين شيئا جديدا لم يصل إليه الغرب إلا بعد عصر الذهب ، ولتسهيل العمليات فيه .

وكان الغزاة هم طلائع حركات استعمارية سيطرت مع الزمن على كل العالم . ولكنهم كانوا قد نجحوا في الوقت الذي فشلوا فيه تمام الفشل . لقد اعتقدوا أنهم وصلوا إلى الهند ، رغم أنهم وصلوا إلى أمريكا ، واعتقدوا في إمكانية الوصول إلى يوحنا الراعي وإلى الخان الأعظم ، وإلى الالدو رادو ، ولكنهم لم يجدوا إلا شعوبا بدائية كان عليهم أن يقوموا بتعليمها . وكانوا يبحثون عن الغفل والقرنفل فمادوا بالبطاطس والأمراض . وإعتقدوا في عملهم عن نشر المذهب الكاثوليكي فأسرعوا بتدعيم حركة الإصلاح الديني والمذهب البروتستانتى . وإعتقدوا أنهم يريدون ثروة إسبانيا فلم يعملوا إلا على إفقارها وتدهور أحوالها . وإعتقدوا الرجال أنهم يتحكمون في مصير العالم ، ولكنهم إستعمروا دون أن يعرفوا ودون أن يرغبوا في إتمام عملياتهم بهذا الشكل . والمهم هو أن أوروبا كانت تحاول الوصول إلى موارد إقتصادية جديدة ، وإن السيطرة على التجارة العالمية ، فتمكنت في هذا الميدان من الوصول إلى أهدافها ، كما تمكنت بحصولها على المعادن الثمينة في العالم الجديد - وهى أساس كل العمليات التجارية والاقتصادية - من السيطرة على إقتصاد العالم .

الباب السادس

الصراع في حوض البحر المتوسط

الفصل السادس عشر

المرحلة الأولى من الحروب الإيطالية

(حتى سنة ١٥١٥)

في الوقت الذي كانت تتم فيه عملية الكشف الجغرافية البرتغالية والإسبانية ، وقبل أن تظهر نتائجها ، شهد البحر المتوسط صراعا بين القوي ، تمثل أولا في محاولة فرنسا زيادة نفوذها وسيطرتها على شبه القارة الإيطالية ، الأمر الذي أدى إلى نشوب الحروب الإيطالية ، التي تحولت مع الزمن على صراع بين فرنسا وإسبانيا للتفوق في أوروبا ، وفي حوض البحر المتوسط . وأخذت هذه الحروب مراحل متتالية ، إنتهت المرحلة الأولى منها بتوازن بين نفوذ كل من فرنسا وإسبانيا في إيطاليا . وفي خلال ذلك الوقت كان هناك صراع بين سلطة المماليك والبرتغاليين ، إنتهى إلى تمكن البرتغاليين من أسر طرق تجارة التوابل ، وإضعاف قوة المماليك ، الأمر الذي أدى إلى تدخل العثمانيين في المنطقة ، وسيطرتهم على الشام ومصر والحجاز ، وإتحاد أمراء البحر في شمال إفريقيا معهم ضد المعتدين الإسبان ، الذين تزايد نفوذهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وإذا كان الصراع الفرنسي الإسباني سوف يستمر بعد ذلك على شبه الجزيرة الإيطالية ، حتى سنة ١٥٥٩ ، إلا أن القوة العثمانية سوف يحسب لها حساباً في هذا الصراع الموجود في حوض البحر المتوسط ، خاصة وأنها كانت قد بلغت أوجها في عهد السلطان سليمان القانوني ، كما سيحسب حسابها بالنسبة للوقوف في وسط أوروبا نفسها ، وقلبها ، وحتى معركة ليبانتو . فلنبدأ من البداية ، ومن المرحلة الأولى للحروب الإيطالية .

١ - التدخل الفرنسي في إيطاليا :

كانت شبه الجزيرة الإيطالية ، في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، تنقسم إلى عدد من الدول أو الامارات : أهمها جمهوريات البندقية ، وميلانو ، وفورنسا ، ثم الممتلكات البابوية ، ونابولي ، في أقصى الجنوب . كما كانت تشتمل على دوقية سافوا ، الواقعة على حدود فرنسا ، وعلى جمهورية جنوا . وكان هذا الانقسام يعود تاريخيا إلى فترة العصور الوسطى ، ويرجع سياسيا وإقتصاديا إلى المصالح التي نمت وتطورت في أواخر العصور الوسطى ، وبداية التاريخ الحديث . وكان هذا الانقسام يدل على ضعف الوحدات السياسية الإيطالية ، من الناحية الحربية ، ورغم تفوقها في ميادين التجارة ورأس المال ، وتفوقها الفني والأدبي وقت ظهور النهضة الأوروبية ، أمام الدول الأوروبية الأخرى ، التي تمكنت من إقامة وحدتها الوطنية والقومية ، والتي كانت مجاورة لها مثل فرنسا وإسبانيا . وكان هذا الانقسام أكبر مشجع لها تين الدولتين على التوسع في شبه الجزيرة الإيطالية ، في ذلك الوقت ؛ خاصة وأن الدول والامارات الإيطالية كانت تنافس بعضها ، وتحاول كل منها التوسع على حساب جيرانها . وسيستطوّر الأمر ، مع محاولة الاحتفاظ بالتوازن بين الدول ، إلى تدخل كل من الامبراطورية ، وإنجلترا ، في هذا الصراع ، الذي سيشتب بين فرنسا وإسبانيا حول إيطاليا . وكانت ممتلكات الامبراطورية في التبرول تقع بالقرب من أراضي البندقية ، أما إنجلترا فكانت لا تزال تحتفظ بشجر كاليه ، في شمال فرنسا .

ولقد بدأ التدخل الفرنسي في إيطاليا ، عسكرياً ، في عهد الملك شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩١) ، والذي تولى العرش بعد لوى الحادى عشر ، وإستند في ذلك إلى جيش قوى مدرب ، ويعتد على سلاح مدفعية له قيمته . وكان خيالياً ، ويرى ضرورة السيطرة على إيطاليا ، كمرحلة أولى لتجهيز حرب صليبية كبيرة ، بوجهها ضد القسطنطينية ، وليستخلصها من أيدي العثمانيين . ولم يتمكن من تقييم

القوى الموجودة، وضرورات توازن القوى ، وخاصة بالنسبة لأراجون وقشتالة ، التي كانت لها ، بعد اتحادها ، أطماناً زيمصالحاً في شبه الجزيرة الإيطالية . وبخاصة في نابولي وصقلية .

وإستند شارل الثامن إلى إدعاءات أسروية لوراثة عرش نابولي وعرش ميلانو ، وإلى نزاع نشب في ميلانو حول الحكم ؛ وعقد إتفاقيات مع إنجلترا وإسبانيا والدولة الرومانية المقدسة ، كتمهيد لتدخله العسكري في إيطاليا . وعمل على حشد قواته ومسطهالة من البداية حول الزحف اللاحق إلى القسطنطينية ، ولتخليصها من أيدي العثمانيين . وزحف الجيش الفرنسي ، الذي ضم عناصر من الألمان والسويسريين ، على بيدمونت سنة ١٤٩٤ ، وإحتلتها ، ثم واصل زحفه وإحتل كل من فورنسا وبيزا ، ودخل في آخر يوم من هذه السنة إلى روما . وإذا كان شارل الثامن قد فشل في أن يحصل من البابا على مرسوم بحكم نابولي ، إلا أنه واصل زحفه السريع صوبها ، وأخذ معه ميزار بورجيا ، ابن البابا إسكندر السادس ، وكذلك الأمير جم ، أخ السلطان العثماني ، بايزيد الثاني . وكانت المدن الإيطالية تعلن تسليمها له قبل وصوله إليها . وعجزت نابولي عن المقاومة ، ودخلتها قوات شارل الثامن في ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ . وكان سيزار بورجيسا قد هرب منه في أثناء الطريق ؛ ثم نسي ، وسط إحتفالات الانتصار في نابولي ، أمر مواصلة الزحف ضد العثمانيين ، خاصة وأن الأمير جم كان قد توفي .

وكان هذا الزحف الفرنسي السريع ، وبدون كبير مقاومة . قد جعل فرنسا تسيطر على شبه الجزيرة الإيطالية . ولكن هذه السيطرة كانت تتعارض مع التوازن الدول ، وتثير أحقاد الدول الأخرى ذات المصالح . ووجدت الدول الإيطالية نفسها تحت نفوذ السيطرة الفرنسية ، فكونت « حلف البندقية » ، في نفس السنة ، ١٤٩٥ ، وهو الحلف الذي ضم كلاً من البندقية ، وميلانو ، والهابا إسكندر السادس ، ومكسميليان الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ،

وفرديناند وايزابلا، حكام أراجونا وقشتالة . وكان كل من الإمبراطور، وماوك أراجونة وقشتالة يطمعون في السيطرة على إيطاليا ، أو على الأقل في التوسع فيها؛ الأول من الشمال ، والثاني من الجنوب ، ومن نابولي .

وكانت صياغة شروط « حلف البندقية » غير محددة ؛ إذ أنها نصت على الدفاع عن العالم المسيحي ضد الأتراك ، والدفاع عن إيطاليا ، وتحرير الدول الإيطالية ؛ ولكنها كانت موجهة ضد فرنسا . وكان في وسع إسبانيا مهاجمة فرنسا من جبال البرانس ، وكذلك مهاجمة قواتها الموجودة في إيطاليا من جزيرة صقلية ؛ كما كان في وسع الإمبراطور مهاجمة القوات الفرنسية من الشمال ، ومنعها من العودة إلى فرنسا ، وذلك في الوقت الذي ساد فيه شعور الأمل العدائي في إيطاليا ضد القوات الفرنسية . وفي كل مكان . ولذلك فإن شارل الثامن قرر الانسحاب بقواته من إيطاليا ، بادئا بالانسحاب من نابولي ، ثم من روما ، وبيزا . ولقد اضطرت إلى الدخول في معركة عند فورنوفو ، شمال بيزا ، مع قوات حلف البندقية ؛ ولكنه تمكن من الاستمرار في الانسحاب شمالا ، وأخذ بذلك بقية جيشه من الدمار . ولم تحصل فرنسا على أى نتيجة إيجابية من هذه المغامرة الإيطالية ، سوى إنبهار سمعتها وكرامتها .

وعند وفاة شارل الثامن سنة ١٤٩٨ ، تولى العرش بعده ابن عمه لوى الثاني عشر (١٤٩٨ — ١٥١٥) ، الذي عرف من قبل بإسم دوق أورليان . ولقد إنتهج سياسة سلفه التوسعية في إيطاليا . وإتفق مع كل من إسبانيا وإنجلترا على الوقوف على الحياد ، كما إتفق على البابا مع إعطاء إبنه سيزار بورجيا أحد الأقاليم . وعبرت القوات الفرنسية جبال الألب سنة ١٤٩٩ ، وتمكنت من إحتلال ميلانو ؛ ورغم مقاومة أميرها لها ، إلا أنها تمكنت من الاستمرار في السيطرة على الأقليم . وبتى هذه المرحلة ، لم تحدث أية مضاعفات . ولكن سرعان ما إتجهت أنظار لوى الثاني عشر صوب نابولي ، في جنوب إيطاليا ،

وكان لفرديناند الكاثوليكي أطماعاً في نفس الإقليم ، مستندة كذلك إلى إدعاءات أسروية . فأعطر ملك فرنسا إلى عقد معاهدة غرناطة سنة ١٥٠٠ مع فرديناند الكاثوليكي ، وتحت رعاية البابا ، وهي التي نصت على اقتسام نابولي بين الملكين . وعجزت مملكة نابولي عن الوقوف في وجه الجيوش الفرنسية والاسبانية . ولكن سرعان ما ظهرت الخلافات بين المنتصرين ، الاسبانيين والفرنسيين ، بعد إتمام المعركة ؛ وتالت الهزائم على القوات الفرنسية ، وانتهى الأمر بطردها من نابولي ، التي إنفرد الإسبان بالسيطرة عليها ، ولم يتركوا لفرنسا سوى إقليم ميلانو في الشمال .

وجاءت وفاة البابا اسكندر السادس سنة ١٥٠٣ ، وتولى البابا جيل الثاني عرش البابوية من بعده ، لكي تمثل نقطة تحول في الحروب الإيطالية .

٣ - الخلاف بين فرنسا والبابا :

وكان البابا اسكندر السادس يساير فرنسا في سياستها التوسعية في إيطاليا حتى يضمن ، عن طريق ذلك الحصول على إحدى الإمارات لابنه ، سيزار بورجيا . أما البابا جيل الثاني فكان يرغب في التدخل في الحروب ، علاوة على تدخله في السياسة ؛ وكان من أصل جنوى ، ويرغب في توسيع ممتلكاته في إيطاليا ، رغم أنف البندقية ، التي كان سلفه قد تحالف معها . ولقد تدهورت العلاقة بسرعة بين هذا البابا وبين البندقية ، وأسهم مكيا فيللي ، اسهاما كبيرا ، في الوصول إلى هذا الحد . ووجد هذا الاتجاه ، من جانب البابا جيل الثاني ، تجاوباً من معظم الدول الأوروبية ؛ خاصة وأنه كانت أحقاد جيال البندقية أو أطماع فيها : فكان لوى الثاني عشر ينظر إلى البندقية على أنها ثمرة لها قيمتها ؛ ويمكنها أن تعوض عليه خسائره في نابولي ؛ أما مكسيميليان الأول ، امبراطور الدولة الرومانية ، فقد رأى أن البندقية قد توسعت أكثر من اللازم ، وأنها احتملت بعض الأقاليم التي

كانت تابعة للإمبراطورية ، وحتى نابولي ، في محنتها ، رأت أن البندقية قد انتمرت فرصة ضعفها ، واحتلمت بعض الموانئ الواقعة على شرق شبه الجزيرة ، والتي كانت تابعة لها ، وأما فلورنسا ، فكانت تنظر إلى أبناء البندقية على أنهم منافسون خطرين ضدها ، ، وفي كل مكان . وساعدت المصالح والأطماع على تجمع كل من فرنسا واسبانيا . والدولة الرومانية المقدسة ، وفلورنسا ، حول البابا ، وفي التوقيع في سنة ١٥٠٨ على شروط « حلف كامبراي » ، التي نصت على الهجوم على أراضي جمهورية البندقية ، وإقسام أملاكها بين الدول الاعضاء في الحلف .

وسرعان ما أرسلت فرنسا قواتها للنزول إلى المعركة ، وأرسلت عشرين ألف مقاتل ، كانوا أول قوات تصل من حلف كامبراي ، وتمكن هذا الجيش من أن ينزل هزيمة بجيش البندقية في معركة أجناديل في شهر مايو سنة ١٥٠٩ . وكانت خسائر البندقية جسيمة ، وتقدمت قوات البابوية لإحتلال المناطق التي كانت تطمع فيها ، وتدعى ملكية البابا لها .

وسحبت البندقية قواتها من الموانئ الشرقية ، والتي كانت نابولي تطالب بها ، وكذلك من الأقاليم التي كانت البابوية ترغب في الحصول عليها . ورغم ذلك فان دول الحلف لم توافق على عقد الصلح معها ؛ الأمر الذي دفعها إلى أن تقرر ضرورة الإستمرار في المقاومة في بلادها ، والإستعانة بالأتراك العثمانيين إذا ما تطلب الأمر ذلك .

ووجد البابا أن الموقف يحتاج إلى تفكير ، وإلى إعادة تقييم ؛ خاصة وأنه كان قد حصل على مطالبه ؛ كما أن استمرار التشدد مع البندقية كان يهدد بزيادة نفوذ فرنسا ، أو الدولة الرومانية المقدسة ، أو نفوذ كليهما ، في شبه الجزيرة الايطالية ، إن لم يكن يهدد بتدخل الدولة العثمانية في شؤون هذه المنطقة . ولذلك فانه قرر الاكتفاء بما وصل اليه ، ومنع أية إمكانية لمضاعفات مقبلة . وكان وجود البندقية مها بالنسبة لوقف أطماع كل من الإمبراطورية وفرنسا في إقليم ميلانو ، وفي

منع أى توغل للنموذ العثماني كذلك فى شبه الجزيرة الإيطالية ، فسحب البابا قرار الحرمان الذى كان قد أصدره ضد البندقية ، وعقد صلحاً منفرداً معها ، سنة ١٥١٠ .

ونظر كل من الإمبراطور ، وملك فرنسا ، إلى موقف البابا ، على أنه تراجع ؛ وصمها على إستمرار الحرب ضد البندقية . ولكن البابا أعلن أنه سيخلص إيطاليا من قواتها المتبربرة ، وظهر بمظهر الزعيم أو القائد الايطالى ، الذى يحاول تخليص إيطاليا من القوات الأجنبية . وإستند فى هذه المرحلة إلى البندقية ، وإلى إسبانيا التى كان قد وضع مملكة نابولى تحت سيادتها . ثم عمد البابا ، بعد ذلك ، إلى إثارة العداء بين هنرى الثامن ملك إنجلترا ، ولوى الثانى عشر ملك فرنسا ، من ناحية ؛ وإلى فصل إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة عن ملك فرنسا ، من جانب آخر .

ولقد أدى ذلك إلى نشأة خلاف حاد بين فرنسا وبين البابا ؛ وجمع ملك فرنسا كرادلة وأساقفة فرنسا فى مجمع دينى عقده فى تور ، واتهم البابا بإرتكاب جرائم قبل أن يصل لكبرى البابوية ، وبأنه زج بإيطاليا فى حروب أوروبية ؛ وإتهمه بالخيانة . وأجاز محاربهته ؛ وأعلن بطلان القرارات التى يصدرها بالحرمان . وإستدعى لوى الثانى عشر الكرادلة الفرنسيين المقيمين فى روما ، وبدت ظواهر إنقسام كبير وخطير تهدد كيان الكنيسة الكاثوليكية . وسرعان ما قامت القوات الفرنسية فى إيطاليا بمحاصرة مدينة بولونا سنة ١٥١١ ، والتى كان البابا فيها فى ذلك الوقت ؛ وإستمرت المناوشات ، بعد فراره منها ، بين قواته والقوات الفرنسية .

وزاد الأمر خطورة أن طلب خمسة من الكرادلة إلى البابا الذهاب إلى بيزا ، لحضور مجمع كنسى يعقد هناك ، لإصلاح شؤون الكنيسة . فخشى البابا من أن يتهن الكرادلة الموقف للوصول إلى كبرى البابوية ؛ كما كان يخشى من إنشقاق

فرنسا على الكنيسة الكاثوليكية، ومن إمكانية ميل الإمبراطور مكسيميليان إلى أن يرشح نفسه لكرسي البابوية . فعاد إلى روما بسرعة ، ودعا إلى عقد المجمع الكنسي في قصر الاطران في روما ، يوم ١٩ أبريل سنة ١٥١٢ ، وهدد بعزل كل كردينال ، أو رئيس أساقفة ، أو أسقف ، تحدته نفسه بعدم الحضور . وكان هذا القرار يهدف مواجهة أمر عقد مجمع تور ، أو بيزا ، وحتى يكون هذا المجمع تحت سيطرته .

وعمل البابا من ناحية أخرى ، على عزل فرنسا سياسياً ، فأذاع في شهر أكتوبر سنة ١٥١١ نبأ تكوين ما أسماه « بالحنف المقدس » ضد فرنسا ، وهو الحلف الذي كان يضم كل من فرديناند الكاثوليكي ملك إسبانيا ، وهنرى الثامن ملك إنجلترا ، وجمهورية البندقية ، والقوات السويسرية المرتزقة ، وترك الباب مفتوحاً أمام مكسيميليان الأول ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . لانضمام إلى هذا الحلف . وكانت هذه نقطة تحول خطيرة في العلاقات بين الدول في ذلك الوقت ؛ إذ أنها ستكون بداية وضع إسبانيا في مواجهة فرنسا ، ومحاولة إغراء إنجلترا بالحصول على مكاسب على حساب فرنسا ، مع التمهيد لإدخال الإمبراطورية في هذه المجموعة ضد فرنسا . وسيزيد الأمر خطورة حين يصبح ملك إسبانيا ، هو في نفس الوقت إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فيما بعد ، في عصر شارل الخامس . وعلى أي حال فإن اعتماد البابا على إسبانيا ، في ذلك الوقت ، كان قد بنى على وقائع لها قيمتها ، ومعطيات وإيجابيات واضحة ، خاصة وأن إسبانيا كانت قد سيطرت ، بالفعل ، على الحوض الغربي للبحر المتوسط .

٣ - سيطرة إسبانيا على الحوض الغربي للبحر المتوسط :

وكانت إسبانيا ، أو مملكة قشتالة وأراجون ، قد أفادت ، ومنذ إستيلائها على غرناطة ، آخر معاقل المسلمين في الأندلس ، سنة ١٤٩٢ ، من نمو قوتها ، لكي تطرد المغاربة والمسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وذلك كتمهيد لنهوض

دولة حديثة ؛ تؤمن على نفسها ، وتزيد من مصالحها في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وزادت قوتها بعد أن تمكنت بعثاتها من الوصول إلى العالم الجديد ؛ وأفادت من انقسام المغرب وضعفه لكي تحقق سيطرتها على الحوض الغربي للبحر المتوسط .

وكانت بلاد المغرب الاسلامي ، التي إتحدت مع بعضها في القرن الثالث عشر الميلادي ، قد أدى بها الوقت إلى الضعف والتقهقر ، خاصة وأن النظام كان فردياً ، وإستبدادياً ، وإحتكاريأ ، رغم كونه إسلامي . فنشأت المنازعات والخصومات والمشاحنات ، بين القيادات الثانوية ، التي عملت على تقسيم البلاد فيما بينها ، وحاولت كل منها أن تنشئ لنفسها إمارة أو سلطنة أو ملك ، وعلى حساب عباد الله الصالحين . وهكذا إنقسم مغرب الموحدين إلى ثلاث إمارات رئيسية ، حاولت كل منها أن تسيطر على إقليم ، وعلى المناطق المجاورة لها : فظهرت سلطنة بني مرين في المغرب الأقصى ؛ وإمارة بني حفص في تونس ، وإمارة بني عبد الواد في تلمسان ، في المغرب الأوسط . وإنتشرت الخلافات والخصومات والإطماع ، بين كل إقليم وجاره ، وفي شكل تناحر على الملك ، ومناطق النفوذ والمكاسب ؛ مما أدى إلى ضعف كل منها ، في الوقت الذي تطورت فيه الأوضاع في أوروبا ، وزادت فيه إمكانياتها على العمل ، وعلى النمو والقوة (١) .

وكان موقع إسبانيا والبرتغال ، قرب بلاد المغرب العربي ، سبباً في توجيه أنظارهم إليه ، في وقت نموهم ، ونزولهم إلى ميدان الكشوف الجغرافية ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر . وإذا كان البرتغاليون قد إحتلوا موانئ المغرب المطللة على المحيط الأطلسي ، أثناء قيامهم بحركة الكشوف الجغرافية للوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فإن الإسبان ، مع

(١) أنظر : د . جلال يحيى . المغرب الكبير . الجزء الثالث . الإسكندرية ١٩٦٦ .

إستيلائهم على غرناطة ، وقرب سواحلهم من سواحل المغرب العربي ، وقيامهم
بمرد أو محاولة هضم الموريسكيين في الأندلس ، واستخدام « محاكم التفتيش » في
هذه العملية ، وسيادة روح مسيحية صليبية لديهم لتغطية عملية توسعية وإستغلالية
ضد جيرانهم ، قد إندفعوا إلى القيام بعملية للإستيلاء على موانئ و ثغور المغرب
المطلّة على البحر المتوسط ، لقتل تجارة المغاربة ، وضمن عدم منافسة المغاربة لهم ،
ومحاصرتهم المغاربة ، وتجارتهم ، داخل القارة الإفريقية .

ولقد قام الإسبانيون باحتلال المرسى الكبير ، غرب وهران ، سنة ١٥٠٥ ؛
ثم إحتلوا إحدى الجزر المواجهة للشاطئ ، وإتخذوها قاعدة حربية للهجوم منها
على ذلك الشاطئ ، واضربه منها بالقنابل ، وهي التي ستصبح فيما بعد نواة لنشأة
مدينة الجزائر . ثم واصل الإسبانيون هجماتهم ، بعد سنة ١٥٠٨ ، ونتيجة لتولى
الأميرال بيدرو ناغارو قيادة أساطيلهم ؛ فاستولوا على حجر باديس ، في هذه
السنة ، واستولوا على وهران وبجاية في العام التالي ؛ وقاموا في سنة ١٥١٠ بتدمير
ميناء طرابلس ؛ واضطرت موانئ دلس والجزائر إلى دفع الجزية لهم . وكانوا
قد أقاموا لنفسهم حصناً على جزيرة صغيرة مواجهة للساحل ، وهي التي سيودي
ربطها بالقرية الساحلية المواجهة إلى نشأة مدينة الجزائر فيما بعد .

وكانت صدمة أصابت الممسكر الوطني ، الذي ظهر عجزه عن قيادة المعركة ،
نتيجة للانقسام والضعف المادي ؛ فظهرت الحاجة إلى قوى جديد لقيادة النضال
فيما بعد . ولكن القوة الإسبانية سيطرت على الموانئ والسواحل المغربية ، وبشكل
متصل ، من مضيق جبل طارق ، حتى طرابلس ، ومنذ سنة ١٥٠٠ . ولذلك ،
فإن نزول القوات الإسبانية إلى شبه الجزيرة الإيطالية في ذلك الوقت ، وفي
نابولي ، كان استداداً ، ونتيجة طبيعية ، لسيطرة إسبانيا على الحوض الغربي للبحر
المتوسط . كما أن اعتماد البابا بجيل الثاني على إسبانيا ، في شبه الجزيرة الإيطالية ،
كان مبنياً على معطيات وإيجابيات واضحة .

٤ - إستمرار الحرب حتى موقعة مارينيان سنة ١٥١٥ :

وكان البابا قد أعتمد على « الحلف المقدس » عامة ، وعلى القوات الاسبانية والسويسرية بشكل خاص ، لسكى يتخلص من الوجود الفرنسي في شبه الجزيرة الإيطالية . وتقدمت القوات الاسبانية والبابوية ، في شهر ديسمبر سنة ١٥١١ ، صوب بولونا وفرارا ، وزحف السويسريون والبنادقة على سهل لومباردى . ولسكن القوات الفرنسية أظهرت صلابتها ، واحتفظت بمدينة بولونا . ثم واصلت القوات الفرنسية تقدمها صوب رافينا ، حيث لاقت جيشاً إسبانياً ، وخاضت معركة ضده ، في ١١ أبريل سنة ١٥١٣ ، وهزمت هزيمة ساحقة ، وإن كان قائدها قد قتل في هذه المعركة . وكانت رافينا من أهم مواقع إقليم رومانا ، الذى كان من ممتلكات البابوية ؛ وسمح ذلك للفرنسيين بالسيطرة على كل الاقليم .

ووجد البابا نفسه مهدداً ، فعمل على توسيع « الحلف المقدس » ، ونجح فى ضم الإمبراطور مكسيميليان اليه ، ضد فرنسا ، فى ١٧ مايو سنة ١٥١٣ ، وبشكل جعله يضم كل من البابا ، والإمبراطور وملك إنجلترا وملك إسبانيا ودوج البندقية ضد فرنسا وتزايد عدد قوات السويسريين فى إيطاليا ، ونشبت الثورات ضد الفرنسيين فى كل مكان ؛ الأمر الذى دفع القوات الفرنسية إلى الانسحاب ، وإلى عبور الألب عائدة إلى بلادها . ولقد أدعى البابا أنه ظهر إيطاليا من الفرنسيين ، ولكنه كان قد أدتلى اليها قوات إسبانية ، وسويسرية وألمانية ، وجعلها تسيطر عليها . وعلى أى حال فإن البابا قد وسع حدود مملكاته ، واستولى على بارما وريجيو ومودينا ، كما إستولى كل من الإمبراطور ، وملك إسبانيا ، على مناطق كان يطمح فيها .

وحين توفى البابا جيل الثانى سنة ١٥١٣ ، وتولى الكرسي الباقوى البابا ليو العاشر ، كان العداء على أشده . بين كل من فرنسا وإسبانيا ، على إيطاليا . وكانت أقدم إسبانيا ثابتة فى نابلى ؛ فى جنوب إيطاليا ، وكانت تقسم مع السويسريين

أمر السيطرة على ميلانو في الشمال . أما فرنسا ، فإن أنظارها كانت لا تزال تتجه إلى سهل لومباردى ، وإلى دوقية ميلانو ، التي كانت ترغب في إستعادتها . وبدأت فرنسا باتخاذ موقف ، في شهر مارس سنة ١٥١٣ ، يتمثل في عقد « حلف بلوا » ، مع البندقية ، وبشكل يسمح لفرنسا بإسترداد سهل لومباردى ، ويسمح للبندقية بإستعادة ممتلكاتها السابقة . ورد البابا على ذلك ، وفي نفس السنة ، بعقد حلف مضاد ، هو « حلف مالين » ، الذي ضم الممتلكات البابوية ، مع مكسيميليان الأول ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وفرديناند الكاثوليكي ملك اسبانيا ، وهنرى الثامن ملك انجلترا . وكان هذا الحلف موجهاً ضد فرنسا . وسرعان ما اشتعلت الحرب بين قوات الحلفين .

ولقد زحف قوات فرنسا والبندقية على شمال إيطاليا ، متجهة إلى ميلانو واستولت القوات الفرنسية على جنوا ، واستمرت في انتصاراتها ، إلى أن جاءت القوات السويسرية لكي تحسم الموقف في صالح حلف مالين ؛ فهزمت القوات الفرنسية في شهر يونيو سنة ١٥١٣ في نوفارا على أيدي السويسرين ، الأمر الذي أجبر الجيش الفرنسي إلى الأسراع بهجور الألب عائداً إلى فرنسا ، بعد أن تكبد الكثير من الخسائر ؛ واضطر جيش البندقية كذلك إلى التقهقر ؛ ووصلت القوات الاسبانية والألمانية إلى البندقية ، وضربتها بالمدافع .

وأصبحت فرنسا في موقف لا تحسد عليه ، بعد أن هاجم الانجليز إقليم نورماندى ، واستولى الاسبانيون على إقليم نافار قرب جبال البرانس ، وتمكن البرجنديون من حصار دييجون . فاضطر لوى الثانى عشر إلى التراجع ، وإلى مصالحة البابا ؛ ثم عقد مع فرديناند ملك إسبانيا هدنة تمسح على الحروب . الايطالية ، كما عقد الصلح مع هنرى الثامن ملك انجلترا سنة ١٥١٤ .

وهكذا فشلت فرنسا ، حتى ذلك الوقت ، في تنفيذ سياستها الخاطئة بالتوسع في إيطاليا ؛ أما إسبانيا فإنها حصلت على نابولى ، وافتتحت ميلانو مع السويسريين ،

واستوات على نافار . أما البابوية فإنها ضمنت الحصرل على إقليم رومانا .

وحين توفي لوى الثانى عشر ، فى شهر يناير سنة ١٥١٥ ، تولى العرش فرنسوا الاول (١٤٩ — ١٥٤٧) ؛ وكان من أسرة فالوا ، ويتميز بالهمة والافقدام ، وله من العمر عشرين عاماً . ولئن يتراجع عن المطالبة بحقوقه فى إقليم ميلانو ؛ وعمل على التحالف مع البندقية كذلك . ووجد فى مواجهته تحالفات من الامبراطور ومالك اسبانيا والبابا ؛ ولكن الموت خلاصه منهم ، الواحد بعد الآخر ، خاصة وأنهم كانوا مسنين .

ولقد حشد فرنسوا الاول جيشاً قوياً ، يبلغ أربعين ألف مقاتل ، مدعماً بسلح مدفعية رهيب ، وعبر به جبال الألب بسرعة ، وأوقع هزيمة منكرة بقوات الحلف فى موقعة مارينيان ، ، بالقرب من ميلانو ، فى ١٣ سبتمبر سنة ١٥١٥ . وكانت قوات كل من الامبراطور مكسميليان ، والملك فرديناند ، لم تصل بعد إلى أرض المعركة . وتمكنت القوات الفرنسية من الاستيلاء على ميلانو . ولقد أردف فرنسوا الاول ذلك بعقد اتفاقيات بولونا (كونكوردات) مع البابا ليو العاشر ، فى شهر أغسطس سنة ١٥١٦ ؛ ووافق على دفع أموال الكنيسة للبابا ، بعد أن كانت فرنسا قد توقفت على دفعها له منذ سنة ١٤٣٨ ؛ وعادت هذه الاتفاقية بالنفع على الجانبين ، وظلت أساساً للعلاقات بين فرنسا والبابوية حتى عهد الثورة الفرنسية .

كما أنه قام بعقد صلح فريبورج الدائم فى نوفمبر سنة ١٥١٦ مع السويسريين ، ودفع لهم نفقات حربهم نظير تعهدهم بعدم محاربة ملك فرنسا فى بلاده أو فى ميلانو أو أى إقليم آخر تابع له . وظلت هذه الاتفاقية أساساً للعلاقات بين فرنسا وسويسرا حتى عهد الثورة الفرنسية كذلك .

وعقد اتفاقيات ، فى نفس السنة ، مع الامبراطور مكسميليان الاول ، ومع البندقية ، ضمنت له الاحتفاظ بميلانو وجنوا ، والسيطرة على إقليم لومباردى فى

شمال إيطاليا. كما عقد في نفس السنة إتفاقية نيون مع شارل ، أمير النمسا، ووارث عرش إسبانيا ، بعد وفاة فرديناند الكا وليكي .

وإذا كانت المنافسة سوف تشتد بين فرنسوا الأول ، وشارل ملك إسبانيا حول عرش الامبراطورية ، فإن أطباع كل منهما ستظل قائمة من أجل السيطرة على إيطاليا ، وإستمرار الحروب الإيطالية لفترة جديدة .

وفي أثناء ذلك اوقت ، ومع هذا الهدوء النسبي ، عمد العثمانيون إلى تغيير الأوضاع الموجودة في الشرق الأدنى، وبشكل يغير خريطة القوى في حوض البحر المتوسط ، ويزيد من تعقيد الصراعات الموجودة فيه .

إفصل السبع عشر

التوسع العثماني في الشرق الأدنى في عهد سليم الأول

حتى سنة ١٥١٨

كانت سلطنة المماليك ، وهي المسيطرة على مصر والشام ، قد ضعفت ، اقتصادياً وعسكرياً ، نتيجة لوصول البرتغاليون إلى مياه العرب والهند، ودخولها في صراع معهم ، أثر على قواتها الحاربة ، وبعد أن كانت التجارة العالمية قد انحسرت من منطقة الشرق الأدنى إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وسمح ذلك للدولة العثمانية ، التي كانت علاقاتها قد ساءت مع مصر ، بالزحف بجيوشها ، والاستيلاء على الشام ومصر ، وبشكل غير خريطة الشرق الأدنى، وقلب موازين القوى الموجودة فيها ، وسمح للدولة العثمانية بإمكانيات عمل جديدة في العالم . وتم كل ذلك في عدد بسيط من السنوات ، وفي وقت كانت فيه الدول الأوروبية ، وأهمها فرنسا وإسبانيا ، مشغولة في الحروب الإيطالية .

١ - الصراع المملوكي البرتغالي وضعف سلطنة المماليك :

كان وصول البرتغاليين ، بعد إلتفافهم حول رأس الرجاء الصالح ، إلى المياه الهندية والعربية نقطة تحول كبيرة في تاريخ العالم بشكل عام ، وفي تاريخ المنطقة بشكل خاص .

وكانت التجارة العالمية ، بين الشرق والغرب ، سواء تلك التي تأخذ طريق الحرير ، الذي يمر من الصين إلى أوامط آسيا ثم آسيا الصغرى والبلقان إلى أوروبا ؛ أو تلك التي تسير في « طريق التوابل » البحري الذي يصل من مياه الشرق الأقصى والهند إلى الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، تصل في غالبيتها إلى موانئ

الشام ومصر ، والتي كانت تابعة لسلطنة المماليك ؛ خاصة وأن إستيلاء العثمانيين على القسطنطينية ، في سنة ١٤٥٣ ، جعل التجارة العالمية تتعد عن المرور فيها ، وتنحرف بمسيرتها صوب الموانئ المملوكية في الشام . وكانت دولة المماليك تعيش من الأرباح التي تجنيها من الرسوم والضرائب على هذه التجارة ؛ كما كان كثير من أهالي البلاد يعيشون منها وعليها ، ولذلك فإن وصول البرتغاليون إلى مياه الهند كان تهديداً واضحاً لدولة المماليك في إيراداتها ومكاسب تجارها وأبنائها ، من الناحية الاقتصادية .

كما أن البرتغاليين إستخدموا الشدة والقسوة في الموانئ العربية ، على سواحل شرق إفريقيا ، فقاموا بإحراقها وضربها بالقنابل ؛ كما عملوا على إغراق سفن التجار والبحارة العرب في كل مكان . ووصلت أساطيلهم إلى مدخل الخليج العربي ، تمهيداً لإقامه قاعدة لهم في هرمز ؛ كما وصلت سفنهم إلى المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وحاولوا الاستيلاء على عدن . وكانوا يهددون أكثر من ذلك بالدخول في البحر الأحمر ، وبتهديم جدة والسويس ، وأعلنوا ، تحت دعابة دينية ، أنهم سيحتلون الحجاز ، ويدمرون مكة والمدينة ، وأنهم سيتحالفون مع الحبشة لتحويل مجرى النيل ، وأمانة مصر عطشاً . وكان هذا تهديداً واضحاً لدولة المماليك ، من الناحية الاستراتيجية ، ومن الناحية السياسية .

ولذلك فقد كان من الطبيعي أن تدخل مصر في صراع مع البرتغاليين ، ذلك الصراع الذي فرض عليها في ذلك الوقت ؛ خاصة وأن بعض مندوبي مسلمي الاندلس ، وأمر شمال إفريقيا ، كانوا قد وصلوا إلى السلطان الغوري في القاهرة ، يستنجدون به أمام التكتبات التي كان الكاثوليك في أيبيريا يزلونها بهم ، وببلادهم ؛ وكان اليهود الذين فروا بعد سقوط غرناطة وجاؤا للإقامة بمصر ، يؤيدونهم في الضغط على السلطان المملوكي .

وكانت الضربة الاقتصادية التي أصابت سلطنة المماليك ، قد أثرت كذلك

على جمهورية البندقية ، التي كانت تشتري السلع من الموانئ المملوكية . وكان كبير سفن البرتغاليين يسمح بوصول شحنات أكبر إلى لشبونة ؛ وكانت هذه السلع تباع في لشبونة بأسعار تقل عن أسعارها في موانئ مصر والشام ، وإذا كانت حكومة البندقية قد رفضت ، لمدة سنوات ، أن تتاجر مع لشبونة بدلا من إيجارها مع المماليك ، إلا أن عدداً متزايداً من تجار إنجلترا وغرب وشمال أوروبا بدأ في التعامل مع البرتغاليين ؛ الأمر الذي مهد الحياة الاقتصادية لجمهورية البندقية تهديداً واضحاً ، وجعلها تشبث بضرورة خفض المماليك للرسوم التي يقرضونها في موانئهم على سلع الشرق الأقصى ؛ وجعلها تساند دولة المماليك في صراعها ضد البرتغال ، ولكن في حدود مصلحة التجارة .

ولقد طلب الغوري من البندقية إمداده بالأسلحة ، وبالأخشاب ، اللازمة لبناء وتسليح أسطوله ؛ وهو الأسطول الذي أنزله إلى مياه السويس سنة ١٥٠٥ . ولكنه رفع في نفس الوقت الرسوم على التوابل ، الأمر الذي أغضب البنادقة ، إذ أنه كان يتعارض مع إتفاقاتهم ، ويزيد الصعوبات أمامهم في التعامل في التوابل بهذه الأسعار الجديدة . ولذلك فإن أنظار السلطان الغوري قد اتجهت صوب السلطان العثماني ، بايزيد الثاني ، لكي يمدّه بالسفن والأسلحة .

وأنزل السلطان الغوري أسطولا حربيّاً في خليج السويس ، زوده بالأسلحة ، وعين عليه الأمير حسين الكردي ؛ وكان يتألف من خمسين سفينة ، اجتمعت في ميناء جدة ؛ ثم وصل إلى سورات في بلاد جوجيرات سنة ١٥٠٧ ، وحيث إنضمت إليه بعض السفن الهندية ؛ وفاجأ أسول المبدأ البرتغالي ، وأنزل به هزيمة قرب شول سنة ١٥٠٨ ، وقتل المبدأ الصغير ، القائد البرتغالي في هذه المعركة . ولكن فرانسيسكو المبدأ الكبير ، إنتهز فرصة لإتجاه الأسطول المملوكي إلى ديو ، وفاجأه ، وأنزل به الهزيمة بعد معركة ساخنة ، يوم ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ ، دمرت فيها السفن المملوكية .

ولقد عاد حسين بك الكردي إلى سجدة بعد ذلك ، وطلب السلطان الغوري الممدد من السلطان العثماني ، بايزيد الثاني ، الذي كان يخشى كذلك من توغل النفوذ البرتغالي داخل البحر الأحمر ، و صوب الحجاز . ولكن سفن فرسان رودس احاطت بالسفن المرسلّة من السلطان العثماني، في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٠ ، وأغرقت معظمها ، وأسرت بعضها ، ولم يصل إلى الاسكندرية إلا ست سفن منها ، وكانت خاوية .

وكان على سلطنة المماليك أن تحافظ، رغم هزائمها ، على مداخيل البحر الأحمر، من اليمن ؛ الذي استولى عليه الأمير برسباي الجركسي من بني ظاهر ؛ وأن تحافظ كذلك على البحر الأحمر نفسه ، وعلى سواحل الحجاز ، التي قام الأمير حسين الكردي بتحصينها . هذا من ناحية الجنوب . أما في الشمال، فكانت سواحلها مفتوحة . أما هجمات فرسان رودس ، وحتى أمام إمكانية قدوم الإسبان، وهكذا أدى الصراع المملوكي البرتغالي إلى تحطيم الموارد الاقتصادية لسلطنة المماليك ، وإلى إجبارها في نفس الوقت على القيام باستعدادات تكلفتها الكثير من الرجال والأموال . وسيجيء تطور العلاقات المملوكية العثمانية ، لكي يحسم الموقف في الشرق الأدنى ، ولعدة قرون .

٢ - حتمية الصدام العثماني المملوكي :

كانت منطقة الشرق الأدنى تشتمل في ذلك الوقت على ثلاث قوى رئيسية : الأولى هي قوة الأتراك العثمانيين في البلقان وآسيا الصغرى ، والثانية هي قوة الصفويين في فارس ، والثالثة هي قوة المماليك في مصر والشام والحجاز ، وكان التنافس واضحاً بين كل من هذه القوى ، وخاصة بين العثمانيين والسنيين ، وبين الصفويين الشيعة ، وكانت كل من هاتين القوتين آخذة في النمو؛ وتسير على سياسة التوسع الاقليمي على حساب جيرانها ، ولاتجهت أنظارهما من هضاب فارس وآسيا الصغرى إلى منطقة السهول الجنوبية، تلك الأرض المنبسطة التي كان يسكنها

العرب ؛ ولما كانت كل قوة من هاتين القوتين ، الفارسية والتركية ، غير عربية ، فإنها اتخذت الإسلام شعاراً لحرکتها التوسعية .

ولقد قام الشيعة بدعاية كبيرة لمذهبهم ، إمتدت غرباً ، مع طرفهم الصوفية ، حتى وصلت إلى آسيا الصغرى ، وبشكل أفائق العثمانيين في السنوات الأولى من القرن السادس عشر . وقامت الأسرة الحاكمة في فارس ، وهي الأسرة الصفوية ، بالإستيلاء على العراق سنة ١٥٠٨ ، وذلك في عصر الشاه إسماعيل ، الذي أقام دولته على إنقراض الإمارات المغولية ، واتخذ المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لدولته . ولاشك في أن هذا التذرع بالمنافسة المذهبية ، بين الشيعة والسنة ، كان يخفى وراءه عملية التوسع الإقليمي ، بالنزول من الهضاب المرتفعة ، للسيطرة على منطقة السهول ، في العراق والشام ، منطقة الإستقرار والزراعة ، والمنطقة التي كانت تتمر منها التجارة العالمية ، والتي كانت توجد بها حواضر العالم العربي والإسلامي . ولذلك فإن الأتراك العثمانيين قد جاءوا بدورهم ، بقيادة السلطان سليم الأول ، زاحفين نحو الشرق ؛ وهزموا القوات الفارسية في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ ، ودخلوا عاصمتهم تبريز . ولكن السلطان سليم لم يأت عن هذه العاصمة ، وترك بذلك الفرصة للفرس للانتعاش من جديد ، فلم تكن موقعة جالديران حاسمة إلا في أنها وجهت أنظار العثمانيين صوب ضرورة السيطرة على بقية الأقاليم العربية الموجودة في منطقة الشرق الأدنى ، وبخاصة أقاليم الشام ومصر ، والتي كانت تسيطر عليها الدولة المملوكية ، حتى يمنعوا الفرس من إمكانية التوسع فيها .

ولقد كان الصراع المملوكي البرتغالي قد أظهر في ذلك الوقت ضعف دولة المماليك ، إقتصادياً وعسكرياً ، وتهديد البرتغاليين لها بشكل واضح . ولقد إعتبر العثمانيون أو واجههم الأول يتلخص في الدفاع عن الأقاليم الإسلامية ضد الأخطار والهجمات الخارجية ؛ وإعتقدوا أنهم أقدر من السلطان الغوري ومن دولة

المماليك على الدفاع عن المنطقة . فكانت معركة من أجل قيادة المنطقة ووحدها ، وتحاول في حقيقة الأمر توسيع الرقعة التي كانوا يحكمونها ، وزيادة امكانيات استغلالهم لها . فكانت هناك حتمية لوقوع صدام بين الدولة العثمانية الناشئة ، وبين دولة المماليك الهرمة ؛ واستندت هذه الإمكانية إلى أسباب وذرائع مختلفة ، تؤدي بها إلى تحقيق أهدافها .

وكانت أهمية المنطقة الخاضعة لدولة المماليك من النواحي الاقتصادية ، سواء في الإنتاج الزراعي ، أو طرق التجارة العالمية ؛ وكذلك السياسية ، من حيث إشتغالها على عواصم العالم العربي والاسلامي ، مع شعور العثمانيين بقوتهم المتزايدة ، مع إزدياد ضعف دولة المماليك ، أسبابا واضحة تدفع العثمانيين إلى الاستمرار في توسعهم الاقليمي ، وهذه المرة ، على حساب سلطنة المماليك .

وجاءت الاحتكاكات التي حدثت في منطقة الحدود المشتركة بين الدولتين ، عند أعلى الشام ؛ وإلتجاء الأمير جم إلى دولة المماليك ؛ وبجهد بعض الأمراء العثمانيين فارين من سلطة سليم ، واجارة السلطان الغوري لهم ؛ وكذلك اصدار السلطان سليم أمره باغلاق اسواق الرقيق في وجه سلطنة المماليك ؛ وبعد ذلك منع السلطان الغوري لبعض الهدايا التي كانت مرسلة من الهند إلى السلطان سليم ؛ أسبابا لتوتر العلاقات بين الدولتين ، وقت قيام سليم الأول بالهجوم على الصفويين . وأخيراً فان موقف الأمير علاء الدين ، صاحب امارة «دولة ذو القادر» ، من القوات العثمانية ، وفتح تزويدها بما يلزمها أثناء تقدمها صوب فارس ، تسبب في هجوم العثمانيين عليها ، وضمها لهم ؛ وكانت تحت سيطرة المماليك وحين خرج السلطان النوروي ، في صيف سنة ١٥١٦ ، إلى الشام ، للدفاع عن حلب ، أولى معاقله الشمالية أمام العثمانيين ، كان وجود هذه القوات المركزية هناك يدفع العثمانيين إلى الاصطدام بها مادامت جبهتهم مع فارس كانت لا تزال مفتوحة .

٣ — الاهتداء على الشام وعلى مصر :

كان هناك اختلاف واضح بين قوة المماليك وقوة العثمانيين ، وذلك في القيادة ، وفي القوات المسلحة ، وقوة تدريبها ، وتسليحها ، ودرجة المرونة ، أو حرية الحركة لدى كل من الطرفين . فكان السلطان سليم شاباً في مقتبل العمر ، مربوع القامة واسع الصدر ، وكان السلطان الغوري يبلغ الثامنة والسبعين من عمره ، غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، وكان يلبس في أصابعه الخواتم ، وكان مترفاً في ملبسه ، ومترفاً في حياته ، يحب الأكل والشرب إلى درجة النهم . وفي الوقت الذي بلغت فيه قوات المماليك الزاحفة شمالاً ما يقرب من خمسة آلاف رجل ، كانت قوات العثمانيين يصعب تقدير عددها . وكان المماليك قد فقدوا الكثيرين في حملاتهم إلى الحجاز وإلى اليمن ، في صراعمهم ضد البرتغاليين ؛ وسيكون رجالهم الذاهبون إلى شمال سوريا أقل كفاءة من غيرهم ، وذلك في الوقت الذي زاد فيه تمرن العثمانيين على الحرب بمنازلتهم لقوات الشاه اسماعيل الصفوي ، علاوة على تميزهم باستنادهم إلى سلاح مدفعية قوى . وكان الغوري ، في زحفه شمالاً ، يخشى على مصر نفسها من وقوع هجوم عثماني بحري على سواحلها ، ويخشى من إمكانية قيام البرتغاليين بهجوم من البحر الأحمر ؛ وذلك على العكس من العثمانيين الذين جمعوا قواتهم في شرق آسيا الصغرى : فاما أن يهاجموا بها قوات المماليك في شمال سوريا ، ويستغلوا فيها في توجيه ضربة جديدة ، ومن نفس الموقع ، ضد فارس . وكان الانضباط موجوداً بين صفوف العثمانيين بدرجة تفوق ، وبكثير ، وجوده لدى المماليك ؛ وكان نحو الخزانة المملوكية يهدد كل شيء ، ويقيد أيدي القيادة المملوكية . وأخيراً ، وليس آخرأ ، فلقد خرج السلطان الغوري إلى الشام ، فيما يشبه المظاهرة العسكرية ، في الوقت الذي كان فيه الجيش العثماني يعتمد على كفاءة التدريب ، قبل أي شيء آخر (١) .

(١) أنظر . دكتور جلال يحيى . مصر الحديثة ، الإكندرية ، منشأة المعارف ،

وخرج السلطان الغورى من القاهرة ، على رأس قواته ، فى عرض عسكرى كبير ، إلى دمشق ، ثم إلى حمص وحماة وإلى حلب . وكان مشغولا بسوء الأحوال فى مصر وفى الحجاز ، مع اقتراب موسم الحج . واعتقد فى صدق نية العثمانيين لعقد الصلح معه ، وعلى أساس عدم تدخله فى النزاع العثمانى مع الصفويين ؛ ولكن سرعان ما وجد أنها خدعة ، وأن طلائع العثمانيين قد زحفوا ضده ووصلت إلى عيفتاب . فأصدر أمره إلى النواب والأمراء بالخروج ، وذكر لهم أنه سيخرج كذلك عن قريب إلى القتال « والذى يريد الله هو الذى سيكون » .

وتقابلت قوات المماليك مع قوات العثمانيين فى مرج دابق ، عند حلب . ومررت الجولة الأولى من المعركة بانتصار جزئى لقوات المماليك ، ولكن سرعان ما إنقلب الموقف ، وإنهزمت ميمنة المماليك ، ثم الميسرة التى كان فيها خير بك ، نائب الشام ؛ وبقي القلب ، ومعها السلطان الغورى ، الذى انتهى به الأمر إلى الإنهزام كذلك ؛ وقتل السلطان الغورى فى المعركة . وهكذا فقد المماليك جيشهم ، وفقدوا سلطاتهم فى هذه المعركة ، وإستولى العثمانيون على معسكرهم . مع كل ما كان فيه ، وأسروا الكثير من المماليك . وكانت هذه المعركة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ المماليك ، وتاريخ الشرق الأدنى ؛ إذ أن الطريق أصبح مفتوحاً بعدها إلى دمشق ، وبيت المقدس ، وحتى إلى مصر . وفى الوقت الذى إزدادت فيه حلب لدخول العثمانيين إليها ، وإستعدت فيه دمشق لإستقبالهم ، وإمتلأت القاهرة بالصراخ والبكاء والعزاء . ولقد ظلت الأقاليم السورية منذ موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ، عثمانية ، ولمدة أربعة قرون .

أما فى مصر ، فإن الفوضى قد إنتشرب بسرعة ، وأصبح على طومان باى ، نائب الغيبة ، أن يواجه الموقف ؛ سواء فى الداخل ، أو حتى بالنسبة لإمكانية إستمرار الزحف العثمانى صوب مصر . وكانت الصعوبات تواجهه من أجل تنظيم البقية الباقية من المماليك فى مصر ؛ ومن أجل تسليحهم ، بعد فقد المهات العسكرية

والمدفعية في الشام. وكان ضعف بقية المماليك في مصر واضعاً، ووضحت كذلك قلة إمكانياتهم الاقتصادية ، وضعف روحهم المعنوية : فكانت معركة خاسرة بالنسبة للنظام المملوكي (١) .

وجاءت أنباء دنجول العثمانيين غزة ، وما قاموا فيها من ضروب القسوة ، لكي يزيد الخوف في القاهرة ، رغم بذل طومان باي كل ما كان في وسعه من أجل ملاقاته العثمانيين . وجمع طومان باي قواته في صحراء الريدانية ، وعمل بعض التحصينات هناك ، للدفاع عن القاهرة .

ولكن طلائع العثمانيين وصلت إلى الجبل الأحمر ، وأقبلوا كالجراد المنتشر ، « فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة مهولة ، يطول شرحها ، أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق » ، كما يقول ابن إياس . وإنهزم المماليك ، ودخل العثمانيون القاهرة . وإنهت بذلك سلطته المماليك ، رغم استمرار طومان باي في المقاومة لبعض الوقت . وسلمت القاهرة رسمياً ، وأصبحت منذ معركة الريدانية سنة ١٥١٧ . أكبر دولة تزين عمامة السلطان العثماني .

٤ - إمكانيات العثمانيين الجديدة :

كان إستيلاء العثمانيين على كل من الشام ومصر يمشي نمواً هاماً للدولة العثمانية ، بسطرتها على إقليمين لهما مقوماتها الاقتصادية والاستراتيجية والمعنوية بالنسبة للعالم العربي والإسلامي ؛ وبالنسبة للشرق الأوسط ، والخرص الشرق للبحر المتوسط . وإذا كانت الدولة العثمانية خير قادرة في ذلك الوقت على حكم هذه الأقاليم الجديدة بطريقة مباشرة ، وإضطرت إلى وضع نظام حكم إستعمارات فيه بالبيكوات المماليك في الإدارة الداخلية وجمع الضرائب ، إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية مكاسبها ، وإزدياد قوتها بشكل واضح .

(١) أنظر . دكتور جلال يحيى . مصر الحديثة . الاسكندرية ، منشأة المعارف ،

وباستتباب الأمر للعثمانيين في مصر، أصبح عليهم كذلك أن يتولوا أمر الأقاليم التي كانت ملحقة بها، وبخاصة في شبه الجزيرة العربية؛ وهي أقاليم الحجاز واليمن. وكما كانت سوريا الجنوبية ضرورية من الناحية الاستراتيجية للدفاع عن مصر ضد أي هجمة تأتي لها من الشمال أو من الشرق، كان الحجاز واليمن مهمين كذلك لها من الناحية الاستراتيجية، كخط دفاع أول عن مصر، أمام أية هجمة قد تفاجئها من المحيط الهندي وخليج عدن؛ وبخاصة وقت وجود البرتغاليين هناك.

ولم يكن من الصعب أن ينضم أشراف الحجاز إلى الدولة سيطرت على مقدرات مصر؛ ووافق الشريف بركات على قبول السيادة العثمانية، التي كانت تضمن تأييد دولة إسلامية كبرى، وقوية لبلادها؛ وأرسل ابنه إلى القاهرة، يحمل إلى السلطان سليم تهنئة بفتح الشام وفتح مصر، ويحثه إليه كذلك مفاتيح الحرمين الشريفين، إقراراً باعتراغه بالسيادة العثمانية. وسيتخذ العثمانيون الحجاز قاعدة لهم أساسية بالنسبة للبحر الأحمر، واليمن، وبلاد الصومال، وبخاصة في المراحل التاريخية التالية، في عهد سليمان القانوني.

ولاشك في أن سيطرة العثمانيين على الشام وعلى مصر، وعلى الحوض الشرقي للبحر المتوسط، دفع بأمرام البحر المجاهدين في شمال إفريقيا، إلى مسد يدهم إلى هذه الدولة، طالبين الاتحاد معها، لتكتميل القوى الإسلامية في البحر المتوسط ضد أخطار الغزو الإسباني، التي كانت تهدد أقاليمهم، من الغرب صوب الشرق.

وكان ضعف القيادات المحلية في ذلك الوقت، وتناحرها فيما بينها، سبباً في وضوح الحاجة إلى قيادات جديدة، تعمل على توحيد القوى الوطنية، ويمكنها أن تنازل الأعداء، وتدافع عن السواحل. وأدى ذلك إلى نشوء قيادة بحرية، واصلت الجهاد البحري ضد القوى المعتدية. ولقد إشتهر من بين هؤلاء القادة بابا عروج، الذي عمل مع أخيه خير الدين على إنشاء أسطول حربي، وجمع

المتطوعين ، وأخذ يرد غارات الاسبانيين (١) . ولقد نجح في سنة ١٥١٦ في أن يصد هجوم إسباني على مدينة الجزائر ، بعد أن إستدعاه الأهالي للدفاع عنهم . وإذا كانت إسبانيا قد أرسلت ضده حملة قوية . من وهران ، وقطعت عليه طريق عودته من تلمسان ، وقتلته ، سنة ١٥١٨ ، فأثته يعتبر واضح سياسة الجهاد الاسلامي ضد الغزو المسيحي لبلاد المغرب الكبير ، وهي العملية التي ستقع على كاهل أخيه ، خير الدين ، ورجاله من بعده .

ولقد تخرج موقف خير الدين ، بعد مقتل أخيه ، فأصل بالدولة العثمانية ، التي كانت قوائها قد سيطرت في ذلك الوقت على الشام وعلى مصر ؛ وطلب منها معاونته في جهاده ضد الاسبانيين . فأرسل له السلطان سليم سنة ١٥١٨ ألفين من جنود الانكشارية ، وسمح له بتجنيد الأهالي في الأناضول نفسها . ويعتبر هذا التاريخ بداية إنضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية ، أو إتحاده معها . وإذا كان العثمانيون قد دخلوا الشام ومصر ، بالسيف ، فإن الوضع يختلف عن ذلك بالنسبة للمغرب الأوسط ، الذي انضم بنفسه إلى الدولة العثمانية ، وأصبح رجاله وامراء بحريته طليعة القسوات العثمانية الموجودة في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

وهكذا امتدت امكانيات العثمانيين إلى كل سواحل المغرب الكبير . وفي الوقت الذي كانت فيه اسبانيا تسيطر فيه على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وتواصل الصراع فيه ، ضد فرنسا ، من أجل السيطرة على شبه الجزيرة الايطالية؛ فأدى ذلك إلى تغيير موازين القوى في البحر المتوسط .

(١) أنظر . دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير . الإسكندرية ، الدار القومية :

الفصل الثامن عشر

استمرار الصراع بين فرنسا وإسبانيا

حتى نهاية الحروب الإيطالية (سنة ١٥٥٩)

استمر الصراع بين فرنسا وإسبانيا من أجل التفوق في أوروبا ، متمثلاً في ذلك الصراع الساخن ، المسمى بالحروب الإيطالية ، بعد موقعة مازينيان سنة ١٥١٥ ، والاتفاقات التي تمت في العام التالي ؛ واستمر هذا الصراع لسنوات طويلة ، وحتى سنة ١٥٥٩ . ومر هذا الصراع في مراحل متتالية ، بدأت بمنافسة بين فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الأول ملك إسبانيا - على عرش الإمبراطورية ، وفوز شارل الأول به سنة ١٥١٩ ، الأمر الذي ساعد على تجديد الحرب ووقوع موقعة بافيا سنة ١٥٢٥ ، وإنهاء هذه المرحلة بصلح كامبراي سنة ١٥٢٩ . أما المرحلة الثالثة فقد امتدت حتى نهاية حكم فرنسوا الأول ، وإشتملت على معركة سيريزوا ومهاجمة كريسي . وبعد تولي هنري الثاني عرش فرنسا ، وتنازل شارل الخامس عن عرش الإمبراطورية ، تجدد الصراع بين الدولتين ، في شكل مرحلة أخيرة ، بين هنري الثاني وفيليب الثاني ؛ واستمرت هذه المرحلة حتى عقد معاهدة كاتو كامبريسيس سنة ١٥٥٩ ، وهي المعاهدة التي أنهت الحروب الإيطالية . ولقد استمرت أدوار هذه الصراع في الوقت الذي استمر فيه نمو الدولة العثمانية ، حتى وصلت إلى أوج قوتها في عهد السلطان سليمان القانوني ؛ واستمرت في نفس الوقت الذي زادت فيه قوة حركة الإصلاح الديني في شمال أوروبا وغربها .

٤ - معركة بافيا (١٥٢٥) وصلاح كاميراي (١٥٢٩) :

لم يستمر الهدوء بعد موقعة مارينيان سنة ١٥١٥ ، والاتفاقات التي تمت في العام التالي ، لفترة طويلة . وسرعان ما خلا منصب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وتقدم لترشيح نفسه له كل من شارل الأول ملك إسبانيا ، الذي كان قد تولى الحكم فيها منذ سنة ١٥١٦ ، وفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وهنري الثامن ملك إنجلترا . ثم إنسحب هذا الأخير ، فظلت المنافسة قائمة بين ملكي فرنسا وإسبانيا ، للوصول إلى كرسي الامبراطورية . وكان لكل من المتنافسين مزاياه فكان شارل هو حفيد مكسميليان ، الامبراطور السابق ، وسيطر على إسبانيا ، والأراضي المنخفضة وملكة نابولي ، وكانت إسبانيا قد أصبحت دولة قوية بعد السكشاف الجغرافية ، وسيطرتها على أقاليم لها قيمتها فيما وراء البحار ؛ كما كانت تعتمد على جيش قوي ، وأسطول ضخم يحجب المحيطات . أما فرنسوا الأول فكان يدعى أن في وسعه تنظيم حملة صليبية كبرى ، لمواجهة خطر العثمانيين المتزايد ضد المجر والنمسا في وسط أوروبا ، يقوم فيها بتكثيل الدول الأوروبية ، وتعقب العثمانيين حتى القسطنطينية ، ويقوم بطردهم منها . وكانت انتصاراته في موقعة مارينيان قد أظهرته على أنه صاحب أقوى جيش في أوروبا في ذلك الوقت . وهكذا قام كل منهما بالدعاية لنفسه ؛ ولكن عملية الانتخاب انتهت بفوز شارل الأول ملك إسبانيا ، في شهر يونيو سنة ١٥١٩ أمام البداية الامبراطورية في فرانكفورت ، إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، باسم الامبراطور شارل الخامس . وسيكون هذا بداية لصراع طويل بين أسرة هابسبورج الألمانية ، وأسرة فالوا الفرنسية ، لعدة سنوات .

وهكذا زادت أملاك شارل الخامس في أوروبا إتساعاً ، وأصبحت أقاليم الامبراطورية الرومانية تحيط بفرنسا كذلك من الغرب ، بعد أن كانت إسبانيا تطوقها من الشمال والجنوب فقط ، فيما مضى . وكان هناك تنافس بين فرنسا

وإسبانيا على برجنديا ؛ ورأى شارل الخامس ضرورة بقاء ميلانو وجنوا داخل نطاق الإمبراطورية ، حتى لا تقوم فرنسا بالسيطرة على سهل لومباردى من جنوا وميلانو إلى البندقية ، وبشكل يهزقل المواصفات البحرية بين إسبانيا وألمانيا ؛ ولذلك فإن أمر الصدام بينهما كان حتمياً ، خاصة وأن فرنسوا الأول كان يشمر بحصار أملاك شارل الخامس لفرنسا من كل إتحاد ، وكان يستند إلى حقوقه الموجودة في شمال إيطاليا ، حتى يتخذها ذريعة لتحطيم هذا الحصار المقرض عليه . ولقد عمل كل من شارل الخامس ، وفرنسوا الأول ، على استمالة هنرى الثامن إليه ، وضمه إلى صفوفه . ووعده شارل الخامس ، هنرى الثامن ، بترك نورمانديا ، وإقليم بيكاردي في شمال فرنسا له في حالة إنضمامه إليه ؛ أما ملك فرنسا فإنه فشل في الحصول على وعد من ملك إنجلترا ، بعد أن كان هذا الأخير قد ربط مصالحة بمصالح شارل الخامس . وجاء بعد ذلك أمر وصول أدريان السادس إلى كرسي البابوية ، كان من الأراضي المنخفضة ، وعلى صلة وثيقة بإمبراطور منذ صباه ؛ فجاء ذلك تدعيماً لجانب شارل الخامس .

ولقد بدأت المناوشات بين القوات الفرنسية والقوات الإمبراطورية على الحدود الفرنسية الألمانية ، ثم امتدت بعد ذلك إلى قوات الدولتين الموجودة في شبه الجزيرة الإيطالية . وفي ٢٧ أبريل سنة ١٥٢٢ هجمت القوات الإسبانية على القوات الفرنسية الموجودة في بيكوك قرب ميلانو ، وهزمتها هزيمة ساحقة . ثم أعلنت إنجلترا ، في الشهر التالي ، انضمامها إلى جانب الإمبراطور ضد فرنسا . وأصبح على فرنسا أن تواجه قوات متزايدة ، وتحيط بها من كل جانب ، بعد أن أصيبت بهزيمة قوية في شمال إيطاليا . وحين بدأت فرنسا في إعادة تجميع قواتها ، واجهتها مسألة خيانة دوق بربون الملك فرنسا ، الأمر الذي هدد فرنسا بعملية تفكك داخلي ، وقت حربها مع الخارج .

وقامت إنجلترا بالزحف بقواتها من كاليه صوب باريس ، في الوقت الذي

رُحِفَ فِيهِ جَيْشُ إِسبَانِيٍّ مِنَ الْجَنُوبِ عِبْرَ جِبَالِ الْبِرَانِسِ ، وَرُحِفَ فِيهِ جَيْشُ أَلْمَانِيٍّ عَلَى فَرَنْسَا مِنْ حُدُودِهَا الشَّرْقِيَّةِ . وَوَقَعَتْ الْبَهَارِكُ بَيْنَ الْقُوَّاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِسبَانِيَّةِ قَرَبَ مِيلَانُو ، كَمَا حَاوَلَ حَلْفَاءُ إِسبَانِيَا الْإِسْتِيلَاءَ عَلَى ثَغْرِ مَرْسِيلِيَا فِي الْجَنُوبِ . وَلَكِنْ الْقُوَّاتُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ تَبَاهَطَاتُ فِي زَحْفِهَا صُوبَ بَارِيْسِ ، كَمَا أَنَّ الْجَيْشَ الْإِسبَانِيَّ الرَّاحِفَ مِنَ الْجَنُوبِ أَوْقَفَ عِنْدَ نَافَارِ ، وَإِسْتَمَرَّتِ الْقُوَّاتُ الْفَرَنْسِيَّةُ فِي شِمَالِ إِيطَالِيَا فِي الْقِيَامِ بِعَمَلِيَّاتِهَا ، كَمَا أَنَّ أَهَالِي مَرْسِيلِيَا صَدَّوْا الْهَجُومَ الْمَوْجُوهَ ضِدَّ مَدِينَتِهِمْ سَنَةَ ١٥٢٤ ، وَفِي شَكْلِ حَرَكَةٍ مَقَاوِمَةٍ بِإِسَاءَةِ شَارِكِ فِيهَا الْأَهَالِي ، وَحَتَّى الْمَنَسَاءِ ، فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَبِشَكْلِ رَفْعِ الرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ لَدَى الْفَرَنْسِيِّينَ .

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، كَانَ الْعُثْمَانِيُّونَ قَدْ إِسْتَوْلَوْا عَلَى جَزِيرَةِ رُودَسِ مِنْ جَمَاعَةِ الْفَرَسَانِ . الْإِسْبِتَارِيَّةِ ؛ وَتَوَفَّى الْبَابَا أَدْرِيَانُ السَّادِسُ ، وَجَاءَ إِلَى الْكُرْسِيِّ الْبَابَوِيِّ كَلِيمَتِ السَّابِعِ ، الَّذِي تَمَيَّزَ بِالْتَرَدِّ وَالضَّعْفِ .

وَقَرَّرَ فَرَنْسَوَا الْأَوَّلُ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي عَمَلِيَّاتِهِ الْهَجُومِيَّةِ فِي شِمَالِ إِيطَالِيَا ، حَتَّى يَفْضَلَ إِسْبَانِيَا عَنِ الْأَقَالِيمِ الْأَلْمَانِيَّةِ ؛ فَزَحَفَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِ قَوِيٍّ عَلَى مِيلَانُو ، وَإِسْتَوْلَى عَلَيْهَا بِسَهُولَةٍ ، وَحَاصَرَ مَدِينَةَ بَافِيَا ؛ الَّتِي كَانَتْ بِهَا قُوَّاتُ إِسْبَانِيَّةٍ . وَلَكِنْ سَرَعَانَ مَا قَدِمَتِ قُوَّاتُ أَلْمَانِيَّةٍ ، تَابِعَةٌ لِلْإِمْبَرَاتُورِيَّةِ ، وَقَرَّرَ فَرَنْسَوَا الْأَوَّلُ ضَرُورَةَ الْإِسْمِرَاعِ بِالْإِسْتِجْبَاكِ مَعَهَا . وَوَقَعَتْ الْمَوْقِعَةُ قَرَبَ بَافِيَا ، فِي ٢٤ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ١٥٢٥ ؛ وَبَعْدَ إِتْصَارِ مَبْدُئِيٍّ لِلْفَرَنْسِيِّينَ ، دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ ؛ وَهَزَمُوا هَزِيمَةً نَكْرَامًا ، بَعْدَ أَنْ جَرَحَ فَرَنْسَوَا الْأَوَّلُ ، وَأَخَذَ أُسِيرًا .

وَتَجْتَبَرُ مَعْرَكَةُ بَافِيَا مِنْ أَهْمِ الْمَعَارِكِ فِي تَارِيخِ أَوْرُوبَا فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ ؛ وَكَانَتْ كَارِثَةً لِفَرَنْسَا ، نَتِيجَةُ لِفَقْدِهَا جَيْشِهَا الْقَوِيَّ . وَوَقُوعِ مَلَاحِكِهَا أُسِيرًا فِي أَيْدِي قُوَّاتِ الْإِمْبَرَاتُورِشَارْلِ الْخَامِسِ . وَأَصْبَحَتْ لُوزِيَا ، دَوَقَةُ سَافَاوَا ، وَالِدَةُ فَرَنْسَوَا الْأَوَّلِ ، وَصِيَّةً عَلَى الْعَرْشِ . وَعَمِلَتْ عَلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ الْقُوَّاتِ الْمُسَلَّحَةِ ، حَتَّى لَا تَعْرِضَ فَرَنْسَا لِعَمَلِيَّةِ غَزْوِ أَجْنَبِيٍّ ؛ وَسَاعَدَهَا الْفَرَنْسِيِّونَ وَقَدَّمُوا لَهَا مَا كَانَ

الموقف يتطلبه من تضحيات ،

أما فرنسوا فقد عاش أسيراً ثم نقل إلى السجن في نابولي ، ومنها إلى السجن في مدريد . عمل شارل الخامس على أن يفرض شروطه على فرنسوا ، الذي قاوم ، ثم إضطر بعد ذلك إلى التوقيع في ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ على معاهدة مدريد ، والتي نصت على ضرورة التعاون ضد حركة الإصلاح الديني ، وتنازل فرنسوا عن إدياماته في برجنديا ، وفي ميلانو وجنوا ونابولي ، وكذلك في الفلاندر وآرتوا ؛ وتقديم ولديه رهينة لشارل الخامس ، ضمناً لتنفيذ المعاهدة ، وأدى ذلك إلى إطلاق سراح فرنسوا الأول ، في الشهر التالي ؛ بعد أن عاش ذل الهزيمة والأسر والسجن ، وأجبر على التنازل عن الوجود الفرنسي في إيطاليا .

ولكن فرنسوا الأول أعلن ، بعد عودته إلى باريس ، أنه لن ينفذ معاهدة مدريد ، التي فرضت عليه وهو أسير ؛ صمم على الإستمرار في الحرب ؛ وعمل بذلك على تغيير الموقف .

وكانت فرنسا لا تزال تحتفظ بقواها ، في بلدها ؛ وتمكنت والده الملك ، في غيابها ، من إعادة تكوين قوات المملكة ، ورفع الروح المعنوية فيها . ومن جانب آخر نجد أن حلفاء الإمبراطور ، وبخاصة الأمراء الألمان ، كانوا قد شعروا بمخاطرة إزدياد سيطرة الإمبراطور على إمتيازاتهم الشخصية والاسروية ، وزيادة الأعباء على كواهلهم ، فبدأوا في إظهار التمليل من سيطرته . أما إنجلترا ، فإنها انفقت مع فرنسا على التحالف ، نظير تقديم فرنسا عدداً من الضمانات . ومبلغاً مالياً كبيراً . وظهرت في إيطاليا حركة ضد الوجود الإسباني ، خاصة وأن الأوضاع تدهورت فيها ، وسادها الإضطراب والأزمات . وتصدر البابا كل من البندقية وميلانو وفلورنسا ، وعقد « حلف كونيكاك » معها ، سنة ١٥٢٦ ، موجهاً ضد الإسبان ، ووضع هذا الحلف تحت حماية فرنسوا الأول . وكان شارل الخامس يواجه تفاقم حركة الإصلاح الديني في ألمانيا ، وعجز عن السيطرة عليها . وكان

الموقف قد تدهور في وسط أوروبا ، نتيجة لهجوم العثمانيين على المجر ، وهزيمتهم لجيش المجر في معركة موهاكز ، التي أخذت شكل مذبححة . قضى فيها على جيش المجر وملكها ، ثم استمرار زحفهم على بودا ، وسيطرتهم على معظم أقاليم المجر . وأظهر كل ذلك الامبراطور شارل الخامس في موقف ضعف ، رغم إنتصار قواته على القوات الفرنسية قبل ذلك في معركة بافيا ولقد قامت القوات الألمانية الموجودة في إيطاليا بالهجوم على روما ، وخربت المدينة ونهبها ، ثم حاصرت البابا ، وأخذته أسيراً ، وأجبرته على دفع فدية كبيرة ، وبشكل زاد من سيطرة شارل الخامس على إيطاليا .

ولكن سرعان ماتم تكوين حلف جديد موجهاً ضد شارل الخامس ، ضم كل من فرنسا وانجلترا والبنديقية . وإستعد فرنسوا الأول عسكرياً ، وبدأت حملة سنة ١٥٢٨ ، موجهة ضد سيطرة إسبانيا على إيطاليا ، ولتخليص البابوية من السيطرة الامبراطورية . وتنازلت إنتصارات القوات الفرنسية . حتى وصلت إلى مشارف أملاك نابولي . ولكن سرعان ما قام الأميرال أندريا دوريا ، الذي كان يحاصر سواحل نابولي ، بالخروج على ملك فرنسا ، وانضم إلى شارل الخامس ، وبشكل فتح الاتصال مع نابولي ، من ناحية البحر ، مع اسبانيا ، من جديد . ولانتشرت الأمراض بين الجنود الفرنسيين المحاصرين لنابولى من البر ؛ كما هزم جيش فرنسى في شمال إيطاليا ، وإضطر إلى التسليم .

وكان ملك فرنسا يخشى من الدخول مع الألمان في معركة حاسمة ؛ وكان يخشى على ولديه ، الموجودين في إسبانيا كرهينة في أيدي شارل الخامس ؛ وكان هناك هجوم العثمانيين الجديد ، مع ما يقرب من ربع مليون مقاتل ، بقيادة السلطان سليمان القانوني ، على فيينا ، ومحاصرتهم لها . ومهد كل ذلك إلى عقد الصلح ، بعد مفاوضات تمت في كمبراى ، في ٣ أغسطس سنة ١٥٢٩ بين الملكة الوالدة لويزا وبين مارجرية النمساوية ، عمة الامبراطور شارل الخامس ، وحاكمة الاراضي المنخفضة .

وكان صلح كهبراي ، صلحاً دائماً ، تخلى فيه الإمبراطور عن مطالبه في برجنديا ؛ كما تخلى فرانسوا عن مطالبه في إيطاليا والفلاندر ؛ وتم إطلاق سراح الأميرين الفرنسيين الموجودين كرهينة في إسبانيا ؛ ووافق فرانسوا على الزواج من اليانور ، أرملة ملك البرتغال ، وشقيقة الإمبراطور .

وكان صلح كهبراي كسباً كبيراً لشارل الخامس ، الذي حقق أهدافه في غرب الراين ، وجنوب الألب ، وسيطر على إيطاليا . وقام كايمنت السابع بتوزيع شارل الخامس في بولونا ، في حفل كبير ، في شهر فبراير سنة ١٥٣٠ . وبدت الحروب الإيطالية على أنها قد إنتهت ؛ ولكنها إنتهت مرحلة من مراحلها ، لكي تبدأ بعدها مرحلة أخرى .

٢ - استمرار الصراع حتى نهاية حكم فرنسوا الاول :

إنتهز شارل الخامس فرصة الهدوء مع فرنسا ، الناتج عن صلح كهبراي ، لكي يتفرغ لمواجعة المشكلات العويصة التي أطلت برأسها ، وهددته ، في أكثر من مكان : فكانت حركة الإصلاح الديني قد زاد خطرها في ألمانيا ، وكان هناك خوف من أن يقوم فرانسوا الاول ، رغم كونه كاثوليكيًا ، بدعمها ، لإضعاف الإمبراطور ؛ وكان هناك خطر زحف الأتراك العثمانيين ، ووصولهم إلى قرب فيينا ؛ كما أن رجال البحر من شمال إفريقيا كانوا يوجهون هجماتهم ضد سفن إسبانيا وموانئها ، وموانئ نابولي . وفي الوقت الذي خشى فيه شارل الخامس من إزدياد نفوذ أمراء البحر المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ووجه حملة بحرية ضد تونس سنة ١٥٣٥ ؛ قام فرانسوا الاول بالتحالف مع السلطان العثماني سليمان القانوني ، وأنهى مشاكله مع ملك إنجلترا وملك إسكتلندا . وكان فرانسوا الاول لا يزال يأمل في الحصول على نفوذ في شمال إيطاليا ، عن طريق زواج إبنته الثانية ، هنري بكاثرين دي ميدلتشي سنة ١٥٣٣ ؛ وحين توفي ابنه الكبير ، أصبح هنري الثاني ، زوج كاترين ، هو ولي العهد . وحين توفي دوق سفورزا ،

طالب فرنسوا الاول بدوقية ميلانو ، لزوجة ابنة كاترين دى ميدتشي ، فتأزم الامر مع شارل الخامس ، الذي كان مصمماً على إبعاد النفوذ الفرنسي عن شبه الجزيرة الإيطالية .

وبدأت العمليات الحربية بهجوم الجيوش الإسبانية على فرنسا ، من الجنوب الشرقي ، ووقعت معارك عنيفة ؛ ولكن سرعان ما تقدمت الملكة إليانور ، زوجة فرنسوا الأول ، وأخت شارل الخامس ، لعقد هدنة بينهما ؛ وتم ذلك في نيس في ١٨ يونيو سنة ١٥٢٨ ؛ ونصت هذه الهدنة على أن يحتفظ كل طرف بما يسيطر عليه من أراض ، ولمدة عشر سنوات .

ولكن سرعان ما انقلب الموقف ، حين قرر شارل الخامس ، في سنة ١٥٤٠ ، إعطاء دوقية ميلانو لإبنة فيليب ؛ فاشتعلت الحرب من جديد .

ولقد تمكنت القوات الفرنسية من الحصول على انتصار واضح على قوات الامبراطور في موقعة سيريزول في شمال إيطاليا سنة ١٥٤٤ ، وجددت بذلك ذكرى انتصار مارينيان ، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً للسيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية . ولكن القوات الإسبانية قامت بهجوم خاطف على فرنسا ، كما قامت القوات الإنجليزية الموجودة في كاليه بالهجوم صوب باريس في نفس الوقت ؛ فإضطر فرنسوا الأول إلى عقد الصلح ، والتوقيع على معاهدة كريسي ، في نفس السنة ؛ وهي المعاهدة التي نصت على ترك فرنسا لبيدمونت وسافوا ، وعلى تنازل شارل الخامس عن مطالبته في برجنديا ؛ وتزويج ابن فرنسوا الأول ، وهودوق أورليان بابنة الامبراطور أو ابنه أخته ، حتى يحصل على دوقية ميلان ، في الحالة الأولى ، أو على الأراضي المنخفضة ، في الحالة الثانية ، كعائنة لروسه ، ودون أن يحصل عليها أخوه الأكبر ، هنري ، ولي العهد ، كعائنة لزوجته من كاترين دى ميدتشي . ولكن سرعان ماتوفى دوق أورليان ، الأمر الذي ألغى هذا الشرط ؛ وفتح الباب لمرحلة جديدة من مراحل النضال .

وكان فرنسوا الأول قد إعتلت صحته ، وزادت همومه . بعد فقد ابنه الأكبر ، وبعد الأحداث الجسام التي عاشها ، من إنتصار ، وهزيمة ، وأسر وسجن ؛ وعجز عن الحصول على مكسب دائم في إيطاليا ، وتعرضت بلاده لخطر الغزو أكثر من مرة . وكان يحارب في ذلك الوقت صهره ، شارل الخامس ، أخو الملك إليانور ؛ وبشكل جعل بعض المؤرخين يسمون الحروب الايطالية بالحروب العائلية . وتوفى في نهاية شهر مارس سنة ١٥٤٧ وترك الملك لابنه هنرى الثانى .

٣ - هنرى الثانى وتنازل شارل الخامس عن العرش :-

واجه هنرى الثانى ، عند وصوله إلى عرش فرنسا ، تغيرات في ميزان القوى ، نتيجة لإزداد سيطرة شارل الخامس على كل من ألمانيا وإيطاليا . وذلك أن شارل الخامس كان قد سجل إنتصاراً عسكرياً ضخماً في معركة ميلبرج في ٢٤ أبريل سنة ١٥٤٧ على أمراء الألمان البروتستانت ، وأسر عدداً كبيراً منهم ، وبشكل زاد من سيطرته على ألمانيا ، وأظهر خطورة إمكانية توحيد لبلادهم ، التي يمكنها أن تصبح وحدة سياسية قوية تقف في وجه فرنسا . أما في إيطاليا فإن سيطرة شارل الخامس قد تدعمت في المنطقة الواقعة حول ميلانو ، وبشكل يهدد توازن القوى هناك . ولم يكن في وسع هنرى الثانى أن يعمل ضد شارل الخامس ، في ألمانيا أو في إيطاليا ، مادامت إنجلترا تهدده ، خاصة وأنها كانت قد احتلت ميناء بولونى ، في شمال بلاده ، وأخذتها قاعدة جديدة لها ، علاوة على كاليه . ولذلك فإن هنرى الثانى قرر أن يبدأ بتسوية مشاكله مع إنجلترا ، حتى يؤمن ظهره ، قبل أن يعمل ضد الامبراطور في ألمانيا أو في إيطاليا .

وكان خروج إنجلترا على الكنيسة الكاثوليكية يفصل بينها وبين فرنسا ؛ وزادت الأمور تعقيداً حين عارضت إسكتلندا أمر زواج يربط بين أمراء الاسرتين الانجليزية والاسكتلندية ، خاصة وأن اسكتلندا كانت قد حافظت على المذهب الكاثوليكي . وقام أحد جيوش إنجلترا بهزيمة الاسكتلنديين في سنة ١٥٤٧ ،

فعملت الملكة اوالدة فى إسكتلندا على تزويج إبنتها بولى عهد فرنسا سنة ١٥٤٨ ، فقامت الحرب بين انجلترا وفرنسا ، نتيجة لخوف انجلترا من إمكانية الاتحاد بين هاتين الدولتين فى المستقبل . وبشكل يجعلها محاصرة بفكيها من الجنوب ومن الشمال فى نفس الوقت . ولقد فشل الجيش الفرنسى فى تخليص نجر بولونى من الإنجليز ؛ ولكن إنتصار الأسطول الفرنسى على الأسطول الانجليزى ساعد على عقد الصلح بين الدولتين ، سنة ١٥٥٠ ؛ وتمكنت فرنسا من أن تستعيد نجر بولونى نظير دفعها فدية بلغت ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه . وهكذا أمن هنرى الثانى على بلاده من هذه الناحية ، كتمهيد يسمح له بالعمل وباستمرار الصراع ضد الامبراطور شارل الخامس .

وكان هنرى الثانى يعرف خطورة إخضاع شارل الخامس تماما لألمانيا ، وبشكل قد يؤدى إلى توحيدها ؛ وكان يعرف أن أمراء الألمان كانوا غيورين على إمتيازاتهم ، وأصبحوا يعتزون بتميزهم بالمذهب البروتستانتى ، كعامل يفصل بينهم وبين سيطرة الامبراطور شارل الخامس الكاثولى علىهم ؛ فعمل هنرى الثانى على استمالتهم إليه . رغم كونه كاثوليكيا أيضا ، حتى يناوىء بهم الامبراطور ، وينقل بذلك صراعه معه من الأراضى الايطالية إلى الأراضى الألمانية . وكان هذا الأمر سيمكلفه نفقات دعم الألمان ، ولكنه كان يسمح له فى نفس الوقت بتوسع فرنسا صوب الشرق ، ونحو اوصول إلى حدودها الطبيعية .

ولقد رفض هنرى الثانى أن يتعاون مع الامبراطور فى مجمع ترنت الكهنسى ، لتسوية الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت ؛ ثم عمل على تشجيع الأمراء الألمان على معارضة الامبراطور . ولقد طلب الأمراء الألمان من هنرى الثانى معونات مالية للتمكن من الاستمرار فى المعارضة ، وتحويلها إلى مقاومة ؛ كانوا مستعدين لمنحه لقب « حامي الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وبتسليمه مدن تول و متر وفردان ، على أن يقوم بالهجوم عليها ، ويقوم بتقديم الدعم المالى

والعسكري لهم . وهكذا وجد هنرى الثانى حلفاء له يساعدونه عسكريا وإقليميا ، فى الوقت الذى يقتصر فيه مجهوده على الناحية المالية ، وبعض القطاعات العسكرية . وتم صياغة كل ذلك فى معاهدة شامبور سنة ١٥٥٢ ، التى تعتبر معاهدة هامة فى تاريخ فرنسا ، أوصلت حدودها إلى الحدود الطبيعية ، وباتفاق مع الألمان أنفسهم ، وعلى أساس أن سكان الأقاليم المحيطة بهذه المدن لا يتكلمون الألمانية . وهذه المنطقة هى التى تشتمل على مقاطعى الازراس والورين الشهيرتين فى شرق فرنسا .

وإستند هنرى الثانى إلى هذه الاتفاقية ، وأعلن الحرب على شارل الخامس ، ودخلت قواته فردان وتول وميتز . وفى نفس الوقت قام منتخب سكسونيا بالهجوم على قوات الإمبراطور فى التيرول ، الذى اضطرت إلى الانسحاب ، وخشى من الوقوع فى الأسر ، وحمله رجاله عبر ممر برنر إلى إيطاليا .

ولقد حاول شارل الخامس الاعتماد على بعض الأمراء الألمان المخلصين له ، والذين يخشون من تفوق النفوذ الفرنسى إلى الشرق ، والذين كان أخاه فرديناند قد جمعهم مع الإمبراطورية . ثم جهز شارل جيشا هجم به على مدينة ميتز ، ولسكنه فشل فى ذلك ، أمام قوات الدوق دى جيز ، سنة ١٥٥٢ ، وهو الذى تمكن من الاحتفاظ بهذه الأقاليم لفرنسا .

ثم قام هنرى الثانى بتوجيه الحملات فى عامى ١٥٥٣ و ١٥٥٤ للاستيلاء على بلجيكا ، ولكنه لم ينجح فى ذلك . وتطور أمر تبادل الأسرى عند كامبراي ، إلى التوقيع على « معاهدة فوسيل » ، بين فرنسا ، وشارل الخامس ، فى ٥ فبراير سنة ١٥٥٦ ، وهى معاهدة لمدة خمس سنوات ، سمحت لهنرى الثانى بالاحتفاظ بالأقاليم الخاضعة لاحتلال قواته ، ومن ميتز إلى أقصى الجنوب .

وأما شارل الخامس ، فإن صحته كانت قد ضعفت ، وزاد زهده فى الحياة ؛ فتنازل عن الإمبراطورية لأخيه فرديناند ؛ وتنازل عن حكم إسبانيا وإيطاليا

والأراضي المنخفضة لابنه فيليب ، وكان نصيبه يضم كذلك الامبراطوريات الإستعمارية الإسبانية الواقعة فيها وراء المحيط . وقضى شارل الخامس الأيام الباقية من حياته في أحد الأديرة ، إلى أن توفي سنة ١٥٥٨ . ودخل بذلك الصراع بين فرنسا وإسبانيا طوراً جديداً ، مع فيليب الثاني ؛ وكان هو الطور الأخير .

٤- فيليث الثاني ومعاهدة كاتو كامبريسيس ونهاية الحروب الإيطالية:

تولى فيليب الثاني العرش سنة ١٥٥٦ ، وكان والده قد زوجه ، منذ سنة ١٥٥٣ بماري تيودور ملكة إنجلترا ، أملا في إنضمام الدولتين سويا ، مع ميلاد وريث لهما . ولقد شتمت الظروف شارل الثاني في صراعه مع فرنسا ، في الحروب الإيطالية .

ولقد نجح البابا بول الرابع ، الذي إنتخب سنة ١٥٥٥ ، في إقناع هنري الثاني ، ملك فرنسا ، بمساعدته ضد الوجود الإسباني في نابولي . وكانت « هدنة فوسيل » (١٥٥٦) لاتزال قائمة ، فكانت إستجابة ملك فرنسا لسياسة البابا تعتبر نقضاً لهذه الهدنة من جانبها . وتحرك الجيش الفرنسي بقيادة الدوق دي جيز ، في شهر سبتمبر سنة ١٥٥٦ ، ولكنه فشل أمام أسوار نابولي ، وإضطر إلى العودة إلى فرنسا . أما البابا فقد إضطر إلى التخلي عن تحالفه مع فرنسا ، وعلى الاعتراف بحماية إسبانيا لإيطاليا .

ولما كانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على إسبانيا ، فإن فيليب الثاني جعل زوجته ، ماري تيودور ، ملكة إنجلترا تعلن الحرب عليها ؛ وتوغلت القوات الإسبانية والإيطالية والإنجليزية في فرنسا ، وزحف من شمال فرنسا ، بقيادة دوق سافوا ، وأنزلت هزيمة ساحقة بالقوات الفرنسية قرب سان كاتان في شهر أغسطس سنة ١٥٥٧ . ولكن إستمرار مقاومة هذه المدينة للقوات الغازية لأيام عديدة تسبب في إزهاقها ، وقلل من إمكانية إستمرارها في الزحف صوب باريس . كما تمكن الفرنسيون من القيام بهجوم على ثغر كاليه ، وتمكن

دوق دى جيز من تحرير ه ، بعد أن ظل فى أيدى الإنجليز مدة قرنين ، وذلك فى
٨ يناير سنة ١٥٥٨ .

ومع إستمرار المعارك ، وخسائرها المادية والبشرية ، وحوف كل من
الطرفين للتعرض لهزيمة ساحقة ، ومع وفاة مارى تيودور سنة ١٥٥٨ ؛ وجلس
الملكة اليزابيث الأولى على عرش إنجلترا ، ساعد الموقف على بدء المفاوضات ،
حتى تم التوقيع على معاهدة كاتو كامبريسيس فى ٣ أبريل سنة ١٥٥٩ ، هى التى
أنهت الحروب الايطالية ، وتعتبر نقطة تحول واضحة فى تاريخ أوروبا .

ولقد نصت هذه المعاهدة على تنازل فرنسا عن مطالبها فى إيطاليا ، وبشكل
جعل إسبانيا تستمر فى سيطرتها على إقليم ميلانوفى الشمال وإقليم نابولى فى الجنوب ،
واحتفظ لها بنفوذ واضح فى كل شبه الجزيرة الايطالية . وتنازلت فرنسا عن
سافوا وبيدموت ، كصداق للاميرة مرجريت ، أخت هنرى الثانى ، فى زواجها
مع دوق سافوا ؛ الأمر الذى أدى إلى إنشاء « دولة تخوم » تفصل بين فرنسا
 وإيطاليا ، وعلى حساب فرنسا ، وفى مصاهرة مع دوقها ، القائد الاسباني . وكان
كل ذلك نصراً لاسبانيا على فرنسا فى شبه الجزيرة الايطالية .

ونصت المعاهدة على إبقاء فرنسا لشجر كاليه ، كما أنها لم تذكر ضم فرنسا
لمدن تول وميتز وفردان ، التى حصلت عليهم من الأمراء الألمان ، وأعترفت
إذن بالأمر الواقع ، خاصة وأن فيليب الثانى ، ملك إسبانيا ، كان منفصلاً عن
شؤون الامبراطورية ، التى أصبحت من مسئولية عمه . وكان هذا مكسباً لفرنسا ،
فى أقاليم متاخمة لها ، ويوصل حدودها إلى الحدود الطبيعية . وأخيراً فإن المعاهدة
نصت على زواج فيليب الثانى ، من اليزابيث ، إبنة هنرى الثانى ملك فرنسا ،
وكاترين دى ميديسيس ؛ لتدعيم الروابط بين باريس ومدريد .

ولكن هنرى الثانى جرح فى نزال وقع أثناء الإحتفالات بالزيجات الملكية ،

و توفي ، كما اختطف الموت الاميرة البرزايت ، زوجة فيليب الثاني الذي أصبح
أرملا من جديد .

وعلى أي حال فإن معاهدة كاتو كامبريسيس قد أنهت في سنة ١٥٥٩ الحروب
الايطالية ؛ وإن كانت أوروبا تغمش حروبا أخرى في ذلك الوقت ، نتيجة
لإستمرار زحف العثمانيين عليها من الشرق ، أو الجنوب الشرقى ؛ ونتيجة للحروب
الدينية التي كانت مستمرة ، وفي أقاليم كثيرة .

الفصل التاسع عشر

أوج القوة العثمانية في عهد سليمان القانوني

وخطرها على أوروبا

في الوقت الذي انشغلت فيه القوى الأوروبية في عملية توسعها فيما وراء البحار، أو في عملها على السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، في شكل الحروب الإيطالية، استمرت الدولة العثمانية في نموها وتوسعها إقليمياً في المناطق المجاورة لها. وكانت القوات البحرية البرتغالية قد وصلت إلى الهند، وسيطرت إسبانيا على الحوض الغربي المتوسط؛ أما على القارة فإن كل من فرنسا وإسبانيا قد انشغلت، ومعها البندقية وجنوا والممتلكات البابوية، في الحروب الإيطالية. وأفادت الدولة العثمانية، مع قيادتها الجديدة المتمثلة في شخص السلطان سليمان القانوني، من الأوضاع والمتغيرات، من أجل استمرار التوسع، وإستمرار تدعيم القوة العثمانية؛ وإبعاد الأعداء عن مناطقها. وقامت بمجهودات واضحة في ميادين عديدة: قرب سواحلها، مع جزيرة رودس؛ وضد البرتغاليين، عند الخليج العربي والبحر الأحمر؛ ومع فرنسا؛ وفي البلقان ووسط أوروبا؛ وكذلك في الحوض الغربي للبحر المتوسط. لقد أصبحت الدولة العثمانية في أوج عظمتها، وأصبحت خطرًا يهدد أوروبا كما في ذلك الوقت.

١ - جزيرة رودس:

تولى السلطان سليمان عرش السلطنة سنة ١٥٢٠، وخلف بذلك والده سليم الأول؛ وكان له من العمر ٢٦ سنة، وكان قد بقي في إستانبول، وتمرس على شؤون الحكم، وقت غياب والده في الحملات الخارجية. ولقد إشتهر بطيب الخلق، والرغبة في التنظيم، وبإشراف العدالة، وبمزوفه عن الحروب

والغزوات ، ولكن الظروف هي التي اضطرت له للحرب . ولقد اشتهر باسم القانوني ، وحكم لفترة ٤٦ سنة أو - ل بها الدولة إلى أوج قوتها وعظمتها .

ولقد بدأ سليمان القانوني عهده بتسديم حكمه في الشام ومصر . وكان جان بردى الغزالي قد حاول الانفصال بحكم الشام ، ولكن السلطان سليمان استعان عليه سنة ١٥٢١ بخاير بك ، المسئول عن حكومة مصر ، وزحف أحد الجيوش العثمانية على الشام ، وانتهت هذه الحركة بقتل جان بردى الغزالي ، بعد أن سحق العثمانيون قواته قرب دمشق . وحين توفي خاير بك سنة ١٥٢٢ ، اضطربت أحوال مصر ، وقام المماليك بتلقيب أحد المماليك ، وهو قانصوه الدوادار ، بلقبه السلطنة ، وقطعوا الطرق ، وسيطروا على المواصلات ، واتفقوا مع مشايخ العرب ، ووعدوا الأهالي باعفائهم من دفع الميري لمدة عام . فأسرع السلطان سليمان القانوني بإرسال صهره الصدر الأعظم ، مصطفى باشا ، إلى مصر ، على رأس حملة قوية تبلغ ٢٥٠٠ جندي ، وتمكن مصطفى باشا من القضاء على الثورة . وبقى مصطفى باشا في مصر لمدة ثلاثة أشهر ، أتم خلالها دراسة الأحوال العامة لنظام الحكم ، والمماليك ، والأحوال المالية . وستكون هذه الدراسة أساساً للتنظيم المسمى « قانوننامه » الذي أصدره السلطان بشأن نظام حكم مصر (١) .

وفي أثناء ذلك الوقت أخذت فكرة سيطرة الدولة العثمانية على جزيرة رودس تراود السلطان . وكانت هذه الفكرة قد راودت السلاطين من قبله . وكانت رودس في أيدي فرسان القديس يوحنا ، وكان وجودهم قرب آسيا الصغرى ، وفي بحر إيجه ، يمثل خطراً على البحرية العثمانية ، وعلى التجارة ؛ خاصة وأن هذه الجزيرة أصبحت ملجأاً للقراصنة المسيحيين من كل جنسية ، وكانوا يخرجون منها لشن الحملات عن السفن العثمانية في كل مكان . وكانت رودس

(١) أنظر . د. جلال يحيى . معر الحديثة (١٥١٧ - ١٨٠٥) . الإسكندرية ،

المسيحية تمثل عقبة أمام إنتقال الحجاج إلى الأراضى المقدسة ، وأصبحت ، بعد فتح العثمانيين لمصر ، تمثل عقبة أمام مواصلات الدولة مع هذا الاقليم الهام . وكان السلطان سليم قد إهتم بالأسطول ، وبنى له قطعاً جديدة ، وزودها بالمدافع وبالرجال المدربين ؛ ووصل سليمان هذا المجهود من بعده . وأصبحت الظروف العامة مواتية للعثمانيين ، بعد أن جددت الدولة العثمانية صلحها مع جمهورية البندقية ، وإتشغلت كل من إسبانيا وفرنسا فى الحروب الايطالية ، وبشكل يمنع تدخل أوروبا فى مشكلة رودس . وأقبح أسطول عثمانى ، من ٣٠ سفينة ، تحمل عشرة آلاف مقاتل ، بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا ، صوب الجزيرة ، فى الوقت الذى سار فيه السلطان على رأس جيش قوى ، بلغ مائة ألف مقاتل ، على الساحل المواجه للجزيرة . وكان ذلك فى شهر يونيو سنة ١٥٢٢ ، وكان الجيش العثمانى ، وكذلك الأسطول ، يعتمدان على مدغمية قوية . وبدأت عملياته نزول العثمانيين على السواحل ، وانزالهم للمدفعيتهم ونصب بطارياتها والإستعداد للمعركة ، التى بدأت فى أول أغسطس ، بعملية حصار ، ثم هجمات متتالية على الأسوار ، إستمرت حتى ١٨ ديسمبر . ولقد أدى ذلك إلى خسائر جسيمة من الطرفين ، وإلى تحطيم أجزاء من الأسوار ، وإلى نقص البارود عند المحاصرين . وفى ٢١ ديسمبر ، طلب رئيس جماعة فرسان القديس يوحنا التمسك ، ووافق السلطان سليمان على ذلك ، وتعهد باحترام الكنائس وعقائد الأهل ، وبتقديم السفن لنقل جماعة فرسان القديس يوحنا من الجزيرة ، خلال إثنى عشر يوماً . وتمت العملية ، وخرج الفرسان من الجزيرة ، وإتجهوا إلى جزيرة مالطة ، التى منحها لهم شارل الخامس ، للإقامة فيها . وهكذا أمن السلطان سليمان القانونى على سواحل شبة جزيرة البلقان ، وعلى الملاحة فى بحر ايجة ، وانزع ذلك الموقع الحصين الذى كان يهدد المواصلات العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

٢ - البلقان ووسط أوروبا :

وكانت أحوال شمال البلقان مضطربة في ذلك الوقت ، نتيجة لإزدياد قوة الدولة العثمانية من ناحية الجنوب ، وعملها على التوسع صوب الشمال والشمال الغربي من ناحية ، ونتيجة لمحاولة الأمراء المحليين الاستناد إلى قوة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وملاك وأمراء أوروبا ، ضد السيطرة العثمانية ، من ناحية أخرى .

ففي سنة ١٥٣١ قام الملك لوى ، ملك المجر ، بقتل المندوب العثماني الذي جاء إليه يطلب الجزية المتفق عليها . وكانت المجر قد ضعفت ماليا وعسكرياً ، وسادتها الخصومات والانقسامات الداخلية . فقام الأتراك بغزو المناطق الواقعة بين الساف والدانوب وبين بلجراد ، والتي كانت تابعة لحكم المجر ، واستولوا على بلجراد ، بعد مقاومة عنيفة في ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١ . وأفاد العثمانيون من الموقف خلال السنوات التالية ، من سنة ١٥٢٢ إلى سنة ١٥٣٥ ، وغزوا إقليم الأفلاق ، واعترفوا بأحد الأمراء المحليين أميراً عليها ؛ كما استمروا في القيام بهزاتهم في كرواتيا ودلماشيا .

وبدأ الهجوم العثماني الرئيسي على المجر ، في سنة ١٥٢٦ ، بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا ، والسلطان سليمان القانوني نفسه . ولم يكن في وسع قوات الملك لوى ، الضعيفة ، أن تواجه الزحف العثماني الضخم والقوي في نفس الوقت . وبعد أن جمع ملك المجر قوات من بولندا وبوهيميا والممتلكات البابوية ، واجه الزحف العثماني في ٣ أغسطس سنة ١٥٢٦ ، في سهل موهاكز ، حيث وقعت موقعة ، تقهر بعدها المجرىون ، وتبهم العثمانيون ، حيث دارت مجزرة في المستنقعات ، قتل فيها ملك المجر ، وقضى فيها على جيشه .

وأنتهت موقعة موهاكز إستقلال المجر ، لمدة قرن ونصف قرن من الزمان . وتمكن العثمانيون من إستمرار التقدم ، ودخل السلطان سليمان مدينة بواد في

١١ سبتمبر . ووقع إنقسام في صفوف المجرين ، على حكم المناطق الباقية ؛
فإختار أحد المجالس الامير زابوليا ، أمير ترانسفانيا ، بينما اختار مجلس آخر
فرديناند صاحب النمسا ، أخو شارل الخامس ، ملكا على المجر . وسادت الخضومة
بينهما . وطلب زابوليا معونة العثمانيين ، وعقد تحالفاً معهم سنة ١٥٣٨ ، موجهاً
ضد فرديناند . وفي ١٠ مايو سنة ١٥٣٩ ترك السلطان سليمان إستانبول ، ومعه
جيشه ، بقيادة مصطفي باشا ، الصدر الأعظم . وقابله زابوليا ، وهاجموا بست ،
وتم ترسيم زابوليا ، ملكاً على المجر . ثم واصل سليمان زحفه على فينا نفسها ،
واستمر في محاصرتها حتى منتصف شهر اكتوبر ، حين اضطر إلى رفع الحصار ،
والعودة إلى الجنوب .

ولقد استمرت المنافسة بين زابوليا وفرديناند على عرش المجر حتى سنة
١٥٣٨ ، حين تم الاتفاق بينهما ، وبين شارل الخامس ، الامبراطور ، على
الاعتراف بالعرش لزابوليا ، على أن يعود بعد وفاته لفرديناند . وعند وفاة
زابوليا سنة ١٥٤٠ ، اعترف السلطان العثماني بابن زابوليا الصغير ملكاً على المجر ،
نظير دفع جزية سنوية تبلغ ٥٠٠٠٠ فلورنسي ؛ ورفض سليمان القانوني الاعتراف
بأي حقوق لفرديناند في المجر ، التي كان السلطان العثماني قد « فتحها بسيفه » .
وبين هجعت قوات لفرديناند على بودا ، صدت عنها ؛ وإقترب جيش عثماني
من ميدان العمليات ، وكان على رأسه السلطان سليمان ، الذي وصل أمام بست
في ٣١ أغسطس سنة ١٥٤١ ، وثبت ابن زابوليا في الحكم ، وترك حامية عثمانية
قوية في بودا ، ومعها أحد الباشوات ، كحاكم عام للمنطقة . وحاول فرديناند ؛
بمساعدة أمراء وملوك أوروبا ، التخلص من الاحتلال العثماني الدائم لبودا ؛ وجمع
جيشاً كبيراً ، وحاصر بست ؛ ولكنه اضطر بعد عدة أسابيع إلى الانسحاب .
ولقد قام السلطان سليمان القانوني بحملة جديدة على المجر سنة ١٥٤٣ ، وبحملة
أخرى سنة ١٥٤٤ ، واحتلت فيها القوات العثمانية مواقع عديدة ، وانتهت في

سنة ١٥٤٥ ، ثم في سنة ١٥٤٦ بعقد صلح لمدة خمس سنوات ، سمح لفرديناند بالإحتفاظ بممتلكاته في المجر ، على أن يدفع للسلطان العثماني ، جزية سنوية تبلغ ٣٠٠٠٠٠ دوق .

ولم تستقر الأمور في هذه القطاع ، وإضطرت الدولة العثمانية إلى إرسال حملة جديدة إلى المجر سنة ١٥٥٢ . وكان السلطان العثماني في حرب شبة مستمرة مع الفرس ، فأخذت شؤون المجر صيغة المفاوضات الطويلة الأمد بين الطرفين ، العثمانيين والنساويين ، حتى تم عقد الصلح بين فرديناند وسليمان القانوني في سنة ١٥٦٤ ؛ وأكد فيه فرديناند تعهده بدفع ٣٠٠٠٠٠ دوق سنوياً للسلطان العثماني . ولكن فرديناند توفي بعد عقد هذا الصلح بثلاثة أشهر ، ورفض ابنه مكسيميليان دفع الجزية . فزحف القوات العثمانية على المجر من جديد ؛ وإنتصرت ؛ وإن كان سليمان القانوني قد توفي يوم ٦ سبتمبر ١٥٦٦ ، وقبل ثلاثة أيام من إنتصار العثمانيين على قوات مكسيميليان وكان له من العمر ٧٢ سنة ، وحكم لمدة ٤٦ سنة . وسيتم عقد الاتفاق التالي بين مكسيميليان والعثمانيين ، في القسطنطينية سنة ١٥٦٨ ، ولمدة ثمان سنوات ، وعلى أساس دفع الجزية السنوية للسلطان العثماني .

وكانت هناك مجالات أخرى عمل فيها سليمان القانوني ضد البرتغاليين في البحر الأحمر وخليج عدن ، ومع فرنسا ، وفي الحوض الغربي للبحر المتوسط .

٣ - البحر الأحمر وخليج عدن :

كان استيلاء العثمانيين على مصر سنة ١٥١٧ ، واستيلائهم على العراق سنة ١٥٣٤ ، قد أوصلهم إلى مياه الهند عن طريق البحر الأحمر وخليج عدن من ناحية ، وعن طريق الخليج الفارسي من ناحية أخرى ، الأمر الذي جعلهم يقومون بدور إيجابي في هذه المناطق ضد سيطرة البرتغاليين ، ومحاولتهم الإرتكاز إلى قواعد بحرية في البلاد العربية المطلة على مياه الهند .

وكان البرتغاليون قد إحتلوا جزيرة سقطورة سنة ١٥٠٧ ، ولكن عدن

قاومت هجمتهم العنيفة عليها سنة ١٥١٣ . ورغم ذلك فإن البرتغاليين قد توغلوا في البحر الأحمر ، ووطأوا حتى السويس سنة ١٥٤١ ، كما ساعدوا الحبشة المسيحية التي كانت مشتبهة في حرب في ذلك الوقت مع مسلمي عدل وهرر والصومال . ووصوا بسفنهم من خليج عمان إلى مياه الخليج الفارسي ، ووصلوا إلى هرمز ، التي تركوا فيها حامية منذ سنة ١٥١٥ ، وإلى البحرين ، مستعدين في ذلك إلى قواعدهم الموجودة في مسقط . ولقد أدى ذلك الهجوم البرتغالي إلى عرقلة وصول سلاح الشرق الأقصى إلى بلاد الشرق الأدنى .

وبعد فتح العثمانيين لمصر ، وقع عليهم عبء الاستمرار في الكفاح ضد البرتغاليين ، والذي كان السلطان الغوري قد قام بمجموعات ضخمة فيه . وفي أثناء وجود الصدر الأعظم مصطفى باشا في مصر سنة ١٥٢٥ عمل على إعادة تنظيم الإدارة البحرية في السويس ، وأرسل أسطولاً صغيراً إلى اليمن . وحين قام البرتغاليون في سنة ١٥٣٥ ببناء قلعة في ديو ، في ملكة جوجيرات الإسلامية ، وزاد التوتر بين المسلمين والبرتغاليين هناك ، تحركت الدولة العثمانية ، وأرسلت تعليماتها إلى سليمان باشا ، وإلى مصر ، لبناء أسطول جديد في السويس ، وأرسلت إليه الأخشاب ومواد البناء من الدولة العثمانية ، وكانت تصل إلى الإسكندرية ، ثم تنقل منها إلى السويس . وأقلع سليمان باشا سنة ١٥٢٨ إلى ديو . وحاصرها ، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها ؛ وإن كان قد تمكن من الاستيلاء على عدن .

وفي أثناء ذلك الوقت كان هناك خطر لاستناد البرتغاليين في البحر الأحمر ، إلى قوة الحبشة المسيحية ، واتحادهم سوياً . وكان الإمام أحمد بن إبراهيم ، الملقب بالأشول ، أراه أحمد جرين « يقود نضال المسلمين في شرق أفريقية ، ومن هرر وبلاد العادل ، ضد الحبشة . ولقد قتلت إنتصاراته إبتداء من سنة ١٥٢٩ في جميع أنحاء الحبشة ، وأصبح ملكها يفر من مكان لآخر ، وأرسل في طلب العون

من ملك البرتغال (١) . ولقد وصلات الامدادات البرتغالية للحبيشة في سنة ١٥٤١ إلى ميناء مصوع ، وكانت تتكون من ٤٥٠ من المحاربين المسلحين بالأسلحة والمدفعية الحديثة (٢) . وإنضم إليها الأحباش ؛ وكان تسليحها الحديث سبباً في هزيمة قوات الإمام أحمد جرين ، وإستشهاده في ميدان المعركة سنة ١٥٤٣ . ولقد قام العثمانيون ، ابتداء من ١٥٥٥ ، بمد إدارتهم إلى سواحل البحر الأحمر ، وقاموا بتنظيم ولاية جديدة هناك تسمى « ولاية الحبش » في سواكن ومصوع ، لتدعيم الكيان والسلطة الاسلامية ، أمام هذا التحالف الحبشي - البرتغالي .

وواجهت الدولة العثمانية كذلك صراعا مع البرتغاليين في الخليج الفارسي وخليج عمان . وكانت بغداد قد سقطت في أيدي السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٣٤ ؛ ثم إمتدت الإدارة العثمانية إلى البصرة سنة ١٥٤٦ ، وكذلك إلى مناطق الاحساء ، لمواجهة البحرين . وقام بيرى ريس على رأس أسطول كبير من السويس في سنة ١٥٥١ ، وهاجم البرتغاليين في مسقط وهرمز ، ثم إتجه إلى البصرة . وقام أمير بحر آخر ، وهو مراد بك في العام التالي بمحاولة لفك حصار البرتغاليين للخليج الفارسي . وقام على ريس ، الذي تمرن على الحرب في البحر المتوسط ، بعمليات عديدة ضد البرتغاليين سنة ١٥٥٤ ؛ وحين حطمت إحدى العواصف أسطوله أمام سواحل مقران ، اضطر إلى اللجوء إلى سورات . كما أرسل العثمانيون كذلك حملة من إقليم الاحساء ضد البحرين في ١٥٥٩ . ثم قام على ريس بعد ذلك بهجمات من اليمن ضد البرتغاليين في مسقط . ثم ضدهم كذلك في ماليندي وعمبة ، التي كانوا يحتلونها على سواحل افريقية الشرقية .

(١) أنظر : شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني الشهير بمرقب ، فقيه ، تحفة الزمان ، أو فتوح الحبشة . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
(٢) فتحي فيث : الاسلام والحبيشة عبر التاويخ القاهرة ، النهضة المصرية ، ص

ولقد أصبح واضحاً قبل وفاة السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٦٦ ، أن البرتغاليين قد فشلوا في إحتكار كل تجارة الشرق الأقصى مع أوروبا عن طريق الرأس . فكان عدد البرتغاليين صغيراً ، وإمكانياتهم أضعف من أن تحقق كل آمالهم ، في القضاء على التجار المسلمين المقيمين في المناطق الغربية من الهند ، وإبعاد المسلمين عن هذه البحار . ولا يمكننا تجاهل المجهودات التي بذلتها الدولة العثمانية ضدهم ، إذ أنها جاءت عقبات جديدة تضاف إلى قلة إمكانيات عمل البرتغاليين . وشهدت السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان القانوني عودة تجارة مزدهرة من الشرق الأقصى إلى الاسكندرية ، كما أصبحت حلب رأس الطريق التجاري القادم من الفرس ومن العراق . وظهر نوح من التوازن بين هذه الطرق القديمة ، والطريق الجديد حول الرأس ؛ وظل الأمر كذلك حتى ظهور قوة الانجليز والهولنديين ، وبشكل جعل التوازن يتغير بشكل واضح ، وفي طريق الرأس .

٤ — فرنسا :

تطورت العلاقات بين الدولة العثمانية ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، وفرنسا في عهد فرنسوا الأول ، وبشكل يعتبر تحولاً في العلاقات الدولية ، والعرف الموجود ، وبخاصة مع اختلاف الدين .

وكان فرنسوا قد أعلن في بداية حكمه ، وفي الوقت الذي كان يأمل فيه في الوصول إلى عرش الإمبراطورية المقدسة ، عن نيته في الزحف على القسطنطينية ، واستخلاصها من أيدي العثمانيين . ولكن صراعه مع إسبانيا ، التي فاز ملكها شارل الأول بعرش الإمبراطورية ، وأصبح شارل الخامس ، غير الموازين الموجودة . ولقد هزم فرنسوا الأول في معركة بافيا ، ووقع أسيراً في أيدي الإسبانيين ، وأصبح تحت رحمة ملكهم إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وفي ذلك الوقت اتصلت والدة فرنسوا الأول بالسلطان سليمان القانوني ، وطلبت إليه القيام بمهاجمة الممتلكات النمساوية ، وبممتلكات الإمبراطورية الرومانية المقدسة

في وسط أوروبا ، من البلقان . وكانت هذه الامبراطورية هي التي تهاجم رجال البحار المغاربة ، في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وهي الموجودة في النمسا أمام الممتلكات العثمانية في البلقان . ولقد تحرك السلطان سليمان القانوني صوب وسط أوروبا ؛ وإن كان لم يحارب النمسا ، إلا أنه حارب البحر ، ووصل بعد ذلك إلى أسوار فيينا .

ولقد إستمرت المفاوضات بعد ذلك بين فرنسوا الأول ، وبين سليمان القانوني ؛ وكان عدوهما مشتركاً ، يتعمش في الإمبراطور شارل الخامس ، بما له من ثقل ضد العثمانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط وفي النمسا ، وبما له من ثقل على فرنسا في الحروب الإيطالية . وفي سنة ١٥٣٥ تم التوقيع على أول المعاهدات بين فرنسا والدولة العثمانية ؛ في شكل معاهدة تجارة ، وفي شكل تحالف دفاعي هجومي بين الدولتين ؛ الأمر الذي أعطى كل منهما ميزات كبيرة ، إقتصادية وعسكرية ، وظهرت نتائجها في العمليات البحرية التي وقعت في ذلك الوقت . وكان أمير البحر خير الدين باشا قد شارك في التمهيد للوصول إلى هذه النتيجة ، وأرسل في سنة ١٥٣٣ أحد مندوبيه ومعه بعض الأسرى الذين أطلق سراحهم ، إلى فرنسوا الأول ؛ ثم أرسل فرنسوا الأول مندوباً عنه إلى خير الدين باشا في الجزائر ، قبل أن يذهب لمقابلة الصدر الأعظم في حلب ، الأمر الذي أدى إلى التوقيع على المعاهدة . ولقد ظهرت النتائج الفعلية للتحالف الفرنسي العثماني منذ سنة ١٥٣٥ حين هاجم رجال البحر الجزائريين سواحل مملكة نابولي ، التي كانت من ممتلكات شارل الخامس ؛ وفي سنة ١٥٤٣ حضر خير الدين باشا إلى ميناء مرسيليا ، ولانضم إلى الأسطول الفرنسي ؛ وقام الأسطولان ، سوياً ، بمهاجمة نيس ، التي كانت من ممتلكات دوق ساغورا ، حليف شارل الخامس ؛ ثم عادا إلى طولان حيث أمضيا فصل الشتاء . وفي عهد هنري الثاني ، تعاون الأسطول العثماني أكثر من مرة مع الأسطول الفرنسي ، ضد سواحل إيطاليا

الجنوبية ، و منند كورسيكا التي كانت تابعة لجنوا ، وقام رجالها باحتلال باسشيا .
ولاشك في أن عمليات سليمان القانوني في الجرج ، وضد النمسا ، كانت تفسر ،
إلى حد بعيد ، روح التحالف مع فرنسا ، وضد شارل الخامس ، وضد أخيه ،
الإمبراطور فرديناند من بعده .

أما معاهدة التجارة فتسمى معاهدة الـ Capitulation نسبة إلى أنها قد صيغت
في شكل فقرات ومواد ، ثم عرفت بعد ذلك بأنها معاهدة الإمتيازات الأجنبية ؛
وظلت آثارها لفترة طويلة ، كما ظلت ، حتى مطلع القرن العشرين ، أساساً لاي
إتفاق بين الدولة العثمانية ، وأى من الدول الأوروبية التي حاولت أن تحصل على
ما حصلت عليه فرنسا من ميزات ، ومنذ عهد سليمان القانوني وفرنسوا الأول . ولقد
اختلفت هذه المعاهدة عن المعاهدات المعقودة بين الدول الأوروبية وبعضها في
أنها نصت على عدم تخضوع الأجانب للقضاء العثماني ، ومحاکمتهم أمام قضاة
خاصين بهم . وكانت تنص على معاملة المثل ، فيما يتعلق بالضرائب .

وكما كانت إتفاقيات فرنسا مع الدولة العثمانية تدعمها في صراعها ضد
الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وفي الحروب الإيطالية ، فإنها كانت تدعم
قوات كل منها في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ضد السيطرة الإسبانية .

٦ - غرب البحر المتوسط :

كان ثقل عبء الجهاد قد وقع على كامل خير الدين ، المعروف باسم
برباروسا ، أمير البحر الجزائري ، في كل الحوض الغربي للبحر المتوسط ، بعد
وفاة أخيه عروج ، وإتحاد مع الدولة العثمانية ؛ كما وقع على رجال البحر من
أعدائه ، الذين عموا على صد هجمات وغارات شارل الخامس على السواحل
الإسلامية ، وعملوا على الهجوم على الموانئ والسواحل الخاضعة لشارل الخامس ؛
ثم عملوا بعد ذلك على التخلص من القيادات القديمة التي كانت موجودة في بعض
المناطق الإسلامية ، والتي لم توافق على عملية الانضمام إلى الدولة العثمانية ، أو

بمعنى أصح ، على عملية الاستمرار في الجهاد ضد القوى المسيحية المتعدية .

ولقد عمل خير الدين باشا على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة ؛ وأصبح له أسطول موهوب الجساب في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

ولقد قام شارل الخامس بقيادة حملة بحرية وبرية ضخمة على تونس في سنة ١٥٣٥ ، تضم ٤٠٠٠ سفينة و ٢٨٠٠٠ جندي ، وتعتمد على تجارب الأبرام الحفصيين معه ، وإستولى على تونس ، وكانت صدمة للمجاهدين . ولكن خير الدين شن هجوماً على جزر البليار ، وإستولى منها على مئة آلاف أسير ، وعاد بهم إلى مدينه الجزائر . وإذا كان شارل الخامس قد حكم مدينة تونس في ذلك الوقت ، فإن مدينة جديدة ظهرت إلى الوجود ، وهى مدينة الجزائر ، التى كان خير الدين ، منذ سنة ١٥٢٩ ، قد قام بوصول الجزيرة الصغيرة القريبة من الساحل ، بالساحل نفسه ، وإتخذها عاصمة له .

ومنح السلطان العثماني خير الدين لقب بيكركر بك إفريقية ، أى بك بكوات المغرب ، ثم منحه لقب قبودان باشا ، وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية . ولقد قام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال إفريقية ، وتمكن من إحتلال تونس ، وطرد منها المولى الحسن حليف الإسبانيين . وحين كان خير الدين مشغولاً بعملياته البحرية ، ترك قيادة الجزائر لابنه حسن باشا . ولقد إنتهز الامبراطور شارل الخامس هذه الفرصة في سنة ١٥٤١ ، وجمع أسطولا قوياً وشحنه بستة وثلاثين ألف مقاتل ، مع أشهر قواده ، مثل أندريا دوريا ، وكورتيز ، وهجم بهم على الجزائر . وتمكنت الحملة من النزول بسهولة إلى الساحل ، ولكن سرعان ما هبت عاصفة هوجاء ، إستمرت أياماً عديدة ؛ فأفسدت الأمطار البارود ، وإقتلعت الرياح الخيام ، وهددت السفن ، وحطمت الكثير منها . وفشل

الهجوم الإسباني ، وإضطر الإسبان إلى الإبتساح (١) .

وكان خير الدين قد أصبح في ذلك الوقت أكبر من مجرد أمير البحر ؛ فلقد أصبح رئيساً لدولة ، وإن كانت غير تامة السيادة ، دولة متحدة مع الإمبراطورية العثمانية ؛ وأصبح الحارس الامامى لهذه الإمبراطورية في غرب البحر المتوسط ، وكانت تسنده جميع قوات هذه الإمبراطورية .

ولقد عمل بعد ذلك مراد أغا على تخليص طرابلس من أيدي الإسبان سنة ١٥٥١ ؛ ولتخذها دارغوت قاعدة لعملياته ضد الاسبانين في تونس سنة ١٥٥٦ ، والتي توغل منها صوب القيروان ، بعد عامين . وكانت مالطة ، مع فرسان القديس يوحنا ، متحالفة مع إسبانيا ضد أمراء البحر المغاربة ، فهاجمها دارغوت . ولكنه قتل أثناء عملية حصارها .

ولقد اشتهر من بين أمراء البحر ، في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، أسماء صالح ريس ، وحسن باشا ابن خير الدين ، والعلي على . ولقد قام هذا الأخير بالهجوم على الإسبانين في تونس سنة ١٥٦٩ ، وإستمرت عمليات الجهاد البحري ، بين الجبهتين ، الإسلامية والمسيحية ، حتى موقعة ليبانتو البحرية ، سنة ١٥٧١ ، والتي تعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ ؛ ولانتصر فيها المسيحيون . فتوقف إمتداد السلطة الإسلامية ، وعجز المسلمون بعدها عن تحرير الجيوب والقواعد التي كانت إسبانيا قد إحتلتها على سواحل المغرب ، وظلت وهران في أيديهم حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر .

ولقد شجع هذا الإنتصار إسبانيا على أن تقوم بمحاولة ، بعد عامين ، لإحتلال تونس من جديد ، ولكن العلي على تمسك في العام التالي من إخراج الاسبانين وحلفائهم نهائياً من تونس . وكانت إسبانيا قد تبججت بذكر أنها قد قطعت

(١) أنظر : د. جلال يحيى ؛ المغرب الكبير ، ج ٣ الإسكندرية ، ١٩٦٦ ،

لحياة الدولة العثمانية في ليبانتو ، ولكن العليج على تمكن من قطع يد الأجانب في تونس . وإن اللحية لتنمو ، أما اليد المقطوعة فتظل دائماً بترام ، كما قال الصدر الأعظم ، معلقاً عن هذا الموقف ، لسفير البندقية في الأستانة ، في ذلك الوقت . وكان السلطان سليمان القانوني قد توفي ، منذ سنة ١٥٦٦ ، وبلغت الدولة العثمانية أوج قوتها في عصره ؛ وكانت تمثل خطراً كبيراً على أوروبا نفسها ، بطريقة بنائها وحكمها ، وبتأثيرها في أوروبا من ناحية البلقان ، والحوض الغربي للبحر المتوسط ؛ علاوة على تحالفها مع فرنسا ، ووصول قواتها البحرية إلى مياه الهند ، أمام البرتغاليين .

الباب السابع
اصلاح الدينى

الفصل العاشر

ظهور المذاهب البروتستانتية

يعتبر الإصلاح الديني في أوروبا، وما نتج عنه من ظهور المذاهب البروتستانتية، ثم إنتشارها في شمال وغرب القارة، وما تبع ذلك من ردود فعل، وظهور الإصلاح الديني الكاثوليكي، من أهم الحركات التي كانت لها جذور منذ فجر التاريخ الحديث، ثم إستمرت في تفاعلها وتطورها. وظل الإصلاح الديني من أهم الموضوعات التي تؤثر في تفكير وحياة الأوربيين خلال القرنين: السادس عشر، والسابع عشر؛ وأدى ذلك إلى تأثيرات سياسية، وتسبب في حروب طاحنة، نشبت على القارة الأوربية. وهناك من ينظر إلى الإصلاح الديني نظرة مجردة، ويفصلها عن أصولها وأسبابها المتباينة، وعلى أساس أنها حركة دينية بحتة، ولكن ذلك لا يطمس بقية العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية، التي كانت موجودة، وشاركت كلها، وفي نسب مختلفة، في إستمرار هذه الحركة، ونموها، وانتشارها، وفي تفاعلها مع القوى المضادة لها.

١ - ضرورة الإصلاح

كانت الكنيسة الرومانية، أو الكاثوليكية، قد سيطرت على حياة الناس وعلى عقائدهم طوال العصور الوسطى. ولقد أصاب هذه الكنيسة الضعف، نتيجة لصراعها مع الإمبراطورية، وخلال الأسر البابلي، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وجاءت البوادر الأولى للنهضة الأوربية، لكي تنمى شخصية الفرد، وتحرره وتحرر فكره؛ والكنيسة تحاول في نفس الوقت المحافظة على تقاليدها وسيطرتها المعنوية. ونشطت حركة إحياء الدراسات القديمة، والرجوع بالتالي إلى الفكر اليوناني القديم؛ وفي نفس الوقت عملت الكنيسة على المحافظة الفكر

الدينى الذى ساد طوال العصور الوسطى ، ولم تقبل إدخال أى تفسير جديد .
 وكان من نتيجة إزدياد التعامل بالنقود ، وإزدياد أهمية التجارة ، وقوع
 تغيرات أدت إلى زيادة تهاول المصالح المادية ، وتأثيرها بدرجة أعمق على العلاقات
 بين الأفراد والمجتمعات ؛ وفى نفس الوقت ظلت العلاقات يسودها طابع العصور
 الوسطى داخل الممتلكات البابوية .

حقيقة أن عدداً من البابوات أظهر روحاً متحررة ، وشارك فى حركة إحياء
 الدراسات القديمة ، ولكن ذلك ساعد على التطور صوب فكر جديد ، داخل
 الممتلكات البابوية ، وأعطى مثلاً مشجعاً على البحث والتحرر ، خارج حدود
 هذه الممتلكات .

وفى نفس الوقت ظهرت الدول القومية الحديثة فى أوروبا ، وبشكل ربط بين
 الرعايا ، أو المواطنين ، وبين الأرض التى يستوطنونها ، والسلطة الملكية التى
 تحكمهم ؛ ولم يترك ذلك للكنيسة سوى رعاية الشؤون الدينية . ولكن البابوية
 نزلت لى نفس الميدان ، وأصبح للبابا بلاطاً لا يقل عن بلاط أى من ملوك أوروبا
 روعة وفخامة ؛ وعمل البابوات على زيادة نفوذهم من ممتلكاتهم البابوية ، وعلى
 التوسع فى الأقاليم المجاورة لهم ، كدولة تحكم زمنياً ؛ ودخلوا بذلك فى صراعات ،
 فى نطاق سياسى وحربى ، مع الدول الأوربية ، وكان من الصعب عليهم الكسب
 فى هذا الميدان ؛ وأظهرهم ذلك بأنهم لا يتفرغون لرسالتهم الأصلية . وهى رعاية
 النفوس والحفاظ على العقيدة .

وكانت أراضى الكنيسة ، فى جميع أنحاء أوروبا ، مغطاة من دفع الضرائب ،
 وكانت إيراداتها ترسل إلى البابوية ؛ ومع وقوع صراعات بين الملوك والأمراء
 الأوربيين ، ودخول البابوية طرفاً فيها ، إلى هذا الجانب أو ذلك ، عمل الملوك
 والأمراء ، خاصة من دخلت البابوية فى محالقات سياسية ضددهم ، إلى محاولة
 السيطرة على هذه الأراضى ، والسيطرة على إيراداتها ؛ وخاصة وأن اتساع هذه

الممتلكات العقارية العابعة للبابوية ، وجودتها ، و ثرائها ، كان يسيل لعاب الملوك
والأمراء الأوربيين .

و كانت حياة البابوات قد تحولت إلى حياة أمراء ، وأصبح للبعض منهم أبناء
غير شرعيين ، وأصبح لآخرين محظيات ، وبشكل يضعف من هنية الكرسي البابوي .
و كانت العقيدة قد أصابها الكثير من الجلود ، ولم يحاول البابوات تنقيتها من
الشوائب ، ورفع المستوى الفكري والديني لرجال الكنيسة . واحتاج البابوات
إلى مزيد من الثروات ، للمحافظة على بلاطهم ، وفخامته ، وكذلك لبناء
الكنائس الجديدة ، ومنها كنيسة القديس بولس في روما ، فأخذوا في إصدار
صكوك الغفران . وكان توزيع هذه الصكوك عن طريق المصارف في جميع
أنحاء أوربا أمراً مشيراً للنقد ؛ كما كان توزيعها على الأهل باسم غفران الذنوب ،
وكل الذنوب ، وحتى أكبر الكبائر ، يثير النفوس المؤهمة ، ويحث ضرورة
الإصلاح .

و نشأت في أوربا حركتان للإصلاح : إصلاح داخلي ، داخل نطاق الكنيسة ،
لتنقية العقيدة مما شابها ، وهذه الحركة لم يكتب لها النجاح ؛ وإصلاح خارجي
وجد أن المجال الوحيد للبقاء على العقيدة المسيحية هو الخروج التام عن سيطرة
الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ؛ وعمل في هذا الاتجاه كل من مارتن لوثر في ألمانيا ،
وزونجلي في سويسرا ، وكلفن في جنيف ، في القرن السادس عشر .

٢ - مارتن لوثر في ألمانيا :

ولد مارتن لوثر سنة ١٤٨٣ في إحدى قرى إمارة سكسونيا ، في ألمانيا ،
من أبوين فقيرين . ولكنه أتم تعليمه الجامعي ، ثم دخل ديراً تابعاً لطائفة
القديس أوغسطين سنة ١٥٠٥ . وأتيح له في سنة ١٥١١ فرصة زيارة روما ،
ولكنه صدم لما رآه فيها من حياة التبذل وانهميار القيم الأخلاقية ، وإبتعاد حياة

رجال الدين عن تعاليم المسيحية. وشغل بعد عودته لبلاده منصب أستاذ اللاهوت في جامعة وتبرج سنة ١٥١٢ ، ونجح في التدريس والوعظ .

ولقد صدم مارتن لوثر سنة ١٥١٧ حين جاء أحد الرهبان إلى مدينته ، ليبيع صكوك الغفران ، وكان جاهلا ، وإدعى أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكب من آثام وخطايا ، وحتى أكبر الكبائر . وكان من المعروف أن الغفران لا يتم إلا بناء عن توبة ، وإعتراف وتكفير بالصلاة والصوم والزكاة . وكان البابوات ، أثناء الحروب الصليبية ، قد عوضوا ^{التكفير} بالتفكير بالاشتراك في الحروب الصليبية ، والحج إلى روما وزيارة قبور القديسين . ثم نسى بعض رجال الكنيسة التوبة ، والاعتراف ، وأصبح التفكير ^{التكفير} يعني شراء صكوك الغفران ، التي كان البابا يستخدمها لجمع الأموال اللازمة له ، وأصبح يعهد إلى بعض المصارف أمر بيعها ، ويستخدم صغار رجال الدين في هذه العملية . وكان الغفران منحة إلهية ، ونسى البابوات ذلك ، وأصبحوا يضمونوه لمن يشتري الصكوك .

وثارت نفس مارتن لوثر ، وتحرك . ولانتبهن فرصة لإجتاع أهالي وتبرج بمناسبة عيد الشهداء ، وبمناسبة تدسين الكنيسة ، وعلق على بابها لإحتجاجاً على بيع صكوك الغفران ، يشتمل على خمسة وتسعين فقرة ، هاجم فيه الكنيسة الكاثولكنكية ، ونظرتها إلى الغفران ، وهاجم فيه سلطات الكنيسة ، وتعاليمها ، وأصر على ضرورة إتخاذ الكتاب المقدس وحده دستوراً لتفسير أى موضوع يختلف عليه في العقيدة .

و~~ثم~~ قام بعد ذلك ، في سنة ١٥١٩ ، ومع تزايد أعداد المعجبين به ، وبطريقة تفكيره ، بتوجيه دعوة إلى أمراء الولايات الألمانية للانضمام إلى حركة الإصلاح الدينية ، وإصلاح الكنيسة من خارجها ، مادامت عاجزة عن إصلاح نفسها من الداخل . وكان الكثير من الأمراء مستعدين لإجابة دعوته ، إذا أنها كانت ستعطيهم مكاسب مادية ومعنوية كبيرة . وحدد مارتن لوثر مبادئ حركة

الإصلاح في ضرورة إخضاع رجال الدين للسلطة السياسية في الدول ، وإنهاء
إحتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس ، وإباحة زواج القس ، وإباحة الطلاق
للمسيحيين ، وإلغاء الحج إلى روما ، وتصفية الأديرة .

وقام البابا من جانبه بإصدار قرار حرمان ضد مارتن لوثر . فرد عليه
بكتابة رسالة عن « الأسر البابلي » ، أظهر فيها ضعف الكنيسة ومفاسد نظمها ،
وأحرق قرار الحرمان . كما كتب إلى البابا رسالة عن « الحرية المسيحية » ، أظهر
فيها مفاسد رجال الدين ، وخدمهم المسيحيين ، وضرورة مقاومتهم . فتمت
القطيعة بين مارتن لوثر ، والكنيسة الرومانية ، وبلا رجعة .

ولقد طلب البابا إلى شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أن
ينفذ قرار الحرمان الصادر ضد مارتن لوثر فدعا الإمبراطور مارتن لوثر للمشول
أمام محكم ورمز سنة ١٥٢١ . ولكن مارتن لوثر أصر على آرائه ، وبشكل جعل
أتباعه وأعوانه يتزايدون ، وغم صدور قرار الحرمان ضده . ذلك أن فردريك
منتخب ، أو أمير سكونيا ، عمل على حمايته وتشجيعه ، وأعطاه قلعة وارنبرج
للاقامة فيها . وإستغل مارتن لوثر إقامته هناك لترجمة الإنجيل إلى اللغة الألمانية ،
بما عمل على إثراء هذه اللغة والمساعدة على نمو الأدب الألماني ، وسهل أمر
إطلاع عامة الأهالي على الكتاب المقدس ، وبلغتهم . كما أن فيليب مانكتون
وضع كتاباً في اللاهوت معتمداً في ذلك على الإنجيل وحده ، مما سهل أمر إنتشار
الاتجاه والفكر اللوثرى . وأخيراً فإن جامعة وتنبرج منحت مارتن لوثر منبراً
يشرح فيه فكره وعقيدته ، وبشكل ساعد على انتشار هذا الاتجاه الجديد .

ولقد إرتبط بحركه مارتن لوثر ظهور ثلاث حركات أخرى ، مرتبطة بالفكر
والعقيدة ، ومرتبطة بالسلطة ، وبالمصلحة ، حتى المادية . وكانت أولى هذه
الحركات هي حركة « المطالبون بإعادة التعميد » ، وعلى أساس أن تعميد الأطفال
ليس له قيمة ، والقيمة للتعميد هي بعد البلوغ ، وبعد إقتناع الفرد وإيمانه بأنه سيكون

مسيحي ، ولقد عمل كل من مارتن لوثر ، وفيليب ملانكتون ، على تهدئة هذه الحركة المتطرفة دينياً . أما الحركة الثانية فكانت وحركة الفرسان . وكان للفرسان قد فقدوا الكثير من إمتيازاتهم ؛ فوجدوا في الحركة التي قام بها مارتن لوثر فرصة لإسترداد نفوذهم ؛ وتوسيع ممتلكاتهم ؛ فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من تماثيل ، وقاموا في نفس الوقت بالإستيلاء على أملاكها وأرضها . ولكن الأمراء قاموا بضربهم ، والقضاء على حركتهم ، حتى ببقوا هذه الممتلكات في أيدي الكنيسة ، إن كان الأمراء من الكاثوليك ، أو للإستيلاء هم بأنفسهم ولا أنفسهم عليها ، إن كانوا من أنصار لوثر ، وأدى ذلك إلى ضعف الفرسان ، وتزايد قوة الأمراء . وأما الحركة الثالثة فكانت هي «ثورة الفلاحين» ، وكانت أعنف الحركات ، وانتشرت هذه الثورة في جميع أنحاء ألمانيا ، وبسرعة . ولم تكن أول ثورة يقوم بها الفلاحون في أوروبا ، ولقد ربط الفلاحون بين الإتجاه الفكري والعقائدي لحركة مارتن لوثر ، وبين ظروفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ومع حركة إعادة التعميد ، قاموا بثورات مواجهة ضد السلطة ، للتحرر ، وللمعيشة في إخاء يقوم على أساس المساواة ، التي واصلت في بعض الجهات إلى المساواة في الملكية ، أو الملكية في الشيوع . وكان الفلاحون يعيشون في ضنك ، وكان النبلاء والأمراء يحافظون على إمتيازاتهم ، ويستغلون الفلاحين . وأصدر الفلاحون بياناً سنة ١٥٢٥ لإلغاء رقيق الأرض ، وتعميد إبحار الأراضي ، وتحديد الاعباء التي يؤديونها للسيد الاقطاعي ، وحق كل جماعة في إختيار وتعيين القسس في الكنائس ، والإشراف على التعليم ؛ وكل ذلك على أساس ما جاء في الكتاب المقدس .

ولقد وقف مارتن لوثر ضد هذه الحركات الثلاث ، ووصف الفلاحون بأنهم مخربون ، وسافكي الدماء ، وطلب إلى الأمراء ضرب حركتهم بكل عنف . وكان مارتن لوثر يرغب بذلك في أن تكون حركة الإصلاح دينية مجردة ، دون أي

إرتباط ، أو تعرض ، للظروف الإجتماعية والإقتصادية . ولكنه أسلم زمام الأمر ، بهذه الطريقة في ألمانيا ، للأمرء ، وبشكل يدعم سلطتهم في إماراتهم ، ويزيد مكاسبهم على حساب السلاطة والممتلكات العقارية للكنيسة : فظلت قاعدة الأهالي العريضة ، التي أعتقت مذهبه ، دون حل لمشاكلها الاجتماعية والإقتصادية ؛ وظلت ألمانيا منقسمة على نفسها إلى دول وإمارات ، بعضها مع البابا ، وبخاصة في الجنوب ، وبعضها مع المذهب الجديد ، مذهب لوثر ، وخاصة في الشمال .

وكان الإمبراطور شارل الخامس مشغولا في ذلك الوقت بحروبه ضد فرنسا في إيطاليا ، ومشغولا بعملية زحف العثمانيين من الشرق على المجر ، ووصولهم إلى فيينا ؛ فإضطر إلى البقاء دون إتخاذ موقف صريح ضد حركة لوثر في ألمانيا ؛ الأمر الذي ساعدها على النمو والانتشار . وكان الدايت الإمبراطوري الذي عقد في سبير سنة ١٥٢٦ قد سمح لكل أمير بأن يسلك بالنسبة لقرار ورمز ، ما يرضى الله ، وما سيكون مسؤولا عنه أمام الإمبراطور ؛ أي يختار المذهب الديني الذي يفضله ، ولكن قرارات دايت سبير الثاني سنة ١٥٢٩ ألغت ذلك فإعترض اللوثيريون على قرارات دايت سبير الثاني ، وإحتجوا ضده ، فأصبحوا منذ ذلك الوقت يسمون بالمحتجين Protestants ، ولم يكن في وسع شارل الخامس أن يفضل في هذه المسألة بالقوة ، في ذلك الوقت . فدعا إلى عقد مجمع أوجزبرج ، سنة ١٥٣٠ للمناقشة بين الكاثوليك والبروتستانت . وإذ كان لوثر لم يحضر هذا المجمع ، فإن ملانكتون قد حضره ، وقدمه لإعتراف أوجزبرج ، ، الذي أوضح أسس المذهب البروتستنتي . وأمام تشدد الإمبراطور ، الكاثوليكي ، كون البروتستانت حلف شمال لكالد سنة ١٥٣١ للدفاع عن مصالحهم . وأصبح الأمر أكثر خطورة حين إتحدت القوى الكاثوليكية في ألمانيا ، وكونت حلف نورنبرج سنة ١٥٢٩ ، لكي يقف في وجه حلف شمال لكالد . وأصبحت ألمانيا منقسمة على نفسها ، وستظل كذلك حتى وفاة مارتن لوثر سنة ١٥٤٦ ، وحتى تدخل قوات شارل الخامس ، عسكريا ، في هذه المشكلة .

٣ - زونجلى فى سويسرا .

وظهرت فى سويسرا حركة عدم رضاء من الأوضاع الموجودة فى الكنيسة ، كذلك الأوضاع الاجتماعية ، خاصة وأن الكثيرين من أبناء سويسرا كانوا يضطرون للعمل كجنود مرتزقة فى قوات فرنسا ، أو قوات الإمبراطورية ، أو البابوية ، وكانوا يدفعون من حياتهم ثمناً لبيحتهم عن العيش .

وظهرت فى ذلك الوقت أريك زونجلى (١٤٨٤ - ١٥٢١) فى زيوريخ ، وهاجم فى سنة ١٥١٩ عملية بيع صكوك الغفران ، كما هاجم كذلك المطالبون بإعادة التعميد . وكان يسير فى ذلك على خطى مارتن لوثر . ولكن موقف مارتن لوثر من ثورة الفلاحين وإعتباره ، أن أمير البلاد هو رئيس الكنيسة والمسئول عنها ، الأمر الذى أسلم الحركة اللوثرية فى ألمانيا لعدد من الأمراء ، أظهر أن هناك إختلافاً واضحاً ، إجتماعى ، وإقتصادى وسياسى ، وبين الاتجاه اللوثرى الإصلاحى فى الدين ، وبتجرد ، وبين إتجاه زونجلى .

وكان زونجلى إنسانياً ، وأخلاقياً ، ووطنياً ، وجمهوريةاً فى نفس الوقت . وهاجم تحريم الزواج على رجال الدين ، وعمود الرهبنة ، وإستعمال اللاتينية فى الصلوات فى الكنيسة ، وغيرها من مسائل العقيدة . ولكنه كان أكثر تطرفاً من لوثر ، وأكثر منه تنوراً ، وأقل منه تأثراً بأراء العصور الوسطى . فلقد إعتبر الكنيسة مؤسسة لكل المسيحيين ، يشتركون فى إدارتها ، وتعيين رجالها ، حتى تتمكن من القيام بواجباتها . وعمل بذلك على الانفصال التام عن روما .

وإنتشر الإصلاح الزونجلى حتى بلغ سنة ١٥٢٩ بعض المدن فى جنوب ألمانيا ، علاوة على إنتشاره فى ست مقاطعات سويسرية . ولقد حاول فيليب ، منتخب إقليم هيس ، أن يجمع بين لوثر وزونجلى ، وبشكل يوحد بين حركة الإصلاح فى ألمانيا ، وحركة الإصلاح فى سويسرا . ولكن الاتفاق لم يتم بين الزعيمين . وأثر ذلك على الحركة اللوثرية ، التى لم تفسر فى سويسرا .

ونشبت الحرب ، بعد التنكل ، داخل سويسرا ، بين الكاثوليك من جانب ، وأتباع زونجلي من جانب آخر . وقتل زونجلي في معركة كابل التي وقعت في شهر أكتوبر سنة ١٥٣١ بين المعسكرين . ولكن الصلح عقد بينهما في نفس السنة ، على أساس تعهد المقاطعات البروتستانتية بترك المقاطعات الكاثوليكية تعيش في سلام ، وحق المقاطعات البروتستانتية في الاحتفاظ بمذهبها الجديد . وكان البغيان الاتحادي لسويسرا يسمح لهم بذلك .

٤ - كلفن في جنيف :

بعد مصرع زونجلي ، إنتقل دور زيوربخ القيادي في حركة الإصلاح في سويسرا ، مع وليام فاريل ، الفرنسي ، الذي ، أقام في برن ، وعمل بها ؛ فأدى ذلك إلى إبقاء نور هذه الحركة مشعاً . ولكن فاريل إنتقل بعد ذلك إلى جنيف سنة ١٥٢٣ ، حيث وجد تجاوباً كبيراً من الأهالي الذين عملوا على تحطيم التماثيل والصور الموجودة في الكنائس ، وقضوا على الكثير من مظاهر الخلاعة والتبذل التي سادت هذه المدينة المتاجرة . وفي سنة ١٥٢٦ أصبح المذهب البروتستانتى هو المذهب الرسمي في جنيف ؛ وشهد نفس العام مجيء جون كلفن إليها .

وكان جون كلفن قد ولد في نيون سنة ١٥٠٩ ، ودرس اللاهوت في جامعة باريس ، ثم القانون في أورليان ، وظهر من مقالاته الأولى أنه قد إعتنق مذهب الإصلاح ؛ وإضطر إلى ترك فرنسا إلى جنيف ، خاصة وأن ملوك فرنسا كانوا يضطهدون انصار الإصلاح الدينى داخل بلادهم ، في الوقت الذى كانوا يتعاونون ويتحالفون معهم ، ضد الامبراطورية والبابوية ؛ في الخارج . وعمل كلفن على أن يجعل جنيف جمهورية إنجليزية ، يقود منها حزب الإصلاح — الهيجوروت — داخل فرنسا نفسها .

ولقد إتفق مذهب كلفن مع اللوثرين في ضرورة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده ؛ ولكنه اختلف مع اللوثرين في ضرورة إجهار الآخرين على

إعتناق مذهبه . كما أن كلفن إختلف مع زونجلي في مسألة إتحاد الدولة والكنيسة ، ورأى أن الكنيسة محتاجة إلى إدارة خاصة بها ، تختلف عن الإدارة العلمانية للدولة ، ولها ميدان روحى ، ولا يجوز لأحد الطرفين أن يتدخل فى ميدان الآخر .

وكان كلفن يفضل الحكومة الأرسقراطية ، ويرى ضرورة طاعة المسيحيين لها ، مادامت تحافظ على تعاليم الله . وهكذا رأى كلفن ضرورة الفصل ، مع الموازنة والتكامل ، بين السلطتين . وفى حالة عدم المحافظة على تعاليم الله ، فمن واجب المسيحي مقاومتها ، كما حدث أثناء الحروب الدينية فى فرنسا ، وكما حدث فى الأراضى المنخفضة سلطنة الحكومة الزمنية .

ولقد نجح كلفن فى أن يجعل من جنيف مركزاً لمذهب الإصلاح ؛ وزاد إشعاع جنيف بإنشاء جامعتها سنة ١٥٥٩ ؛ وأصبحت هذه المدينة مركز تعليم وتكوين الرعاة البروتستانت ، أو الهجوتوت ، مما أثر فى تاريخ الإصلاح الدينى ، وتاريخ أوروبا فى العصر الحديث .

الفصل الحادى والعشرون

إنتشار المذاهب البروتستانتية

لقد أدى ظهور المذاهب البروتستانتية ، سواء فى ألمانيا مع ماوتن لوثر ، أو فى سويسرا ، مع زونجلي ، وجون كلفن ، إلى حدوث قلقله كبيره فى فكر الأوربيين ، وفى نظرتهم إلى عقائدهم ؛ وذلك فى ظل مجتمعات متطورة . وبسرعة ، من عهود إقطاع إلى عصور حديثة ، يتغير فيها المجتمع من نشاطه الزراعى إلى الإهتمام بالتجارة وتفوقها ، وفى إستنادها إلى الصناعة النامية ، ومن حيانه المقله إلى حياة حرة ومتهجرة ، وبخاصة فى المدن . وكانت هناك مصالح إقتصادية وسياسية ، نتجت عن إنتشار مذاهب الإصلاح ، ستساعد مع غيرها على وقوع تغيرات مادية ومعنوية . فى كثير من أنحاء أوروبا ، وبخاصة فى غرب القارة وشمالها .

١ - خروج إنجلترا على كنيسة روما :

بدأ هنرى الثامن حكمه لإنجلترا سنة ١٥٠٩ ، وكان له من العمر ثمانية عشر سنة . وتزوج كاترين الاراجونية ، إبنة فرديناند وإيزابلا ، وعمل على بناء أسطول قوى ، فبنى أحواض السفن ومدرسة لتخريج رجال البحر . ووضع أسس القوة البحرية لإنجلترا . وكان مسيحيا كاثوليكيا ، أعطاه البابا سنة ١٥٢١ لقب حامى العقيدة ، نتيجة لسكاتبته بحملاً رد به على لوثر . وحتى فى حروبه كان مع معسكر البابا ضد أعدائه . ولم تكن الأمور الدينية التى شغلت سكان القارة ، تلقى فى إنجلترا صدى إلا لدى نخبة صغيرة من المتعلمين . وكان الإنجليزى العادى لا يحب كثيرا رجال الدين ، وكان بعضهم يحقد على ما يتمتع به رجال الدين من أملاك وإمميزات . وكان الإنجليزى محافظاً بطبعه ، فكان لا يشرب تلك المرارة

الاجتماعية التي أشعلت ثورة الفلاحين في ألمانيا ، ولكنه كان لا يوافق على تحميل أعباء ضرائبية باهظة ، وغير راض عن الحرب مع الأراضي المنخفضة ، التي كانت تهدد بالقضاء على تجارة الصوف . ورغم التطور الاقتصادي الكبير الذي مرت فيه إنجلترا في ذلك الوقت ، من إعتبار الأرض الزراعية سلعة ، ومن تقدم تجارة الأنيسجة التي كانت أهم صناعات إنجلترا ، ومن إعتبار تربية الأغنام أكثر ربحا من الحبوب ، وتحويل كثير من الأراضي إلى مراعى بدلا من زراعتها قححا ، ونشوب أزمة إقتصادية إجتماعية بدأت في الريف ، نتيجة لضياح أراضي صغار الفلاحين ، وإستمرت في هجرة الكثيرين منهم إلى المدن - رغم كل ذلك ، فإن أوضاع إنجلترا لم تكن تسمح بقيام قلاقل فيها ، تأخذ شكل الثورات العامة ؛ وكان كبار الملاك بعيدين عن الشعب ، وكان الجميع يحترمون الملك ؛ ويرضون ببقاء أسرة تيودور تحكمهم .

وترك هنري الثامن الحكم الفعلي في البلاد مدة أربعة عشر عاما (١٥١٥ - ١٥٢٩) في يد توماس ولزى ، الكاردينال الكاثوليكي ، الذي كان مخلصا للبابوية ، وكان يطمع حتى في الوصول إليها ؛ وعمل على ألا تخضع ملك فرنسا . ولا حتى للإمبراطور شارل الخامس . ومع ذلك فقد علم الملك هنري الثامن كيف يكون سيدا في بلاده ، وألا يخضع للتشريعات التي تصدرها البابوية . وتمسك من حل بعض الأديرة الصغيرة ، واستغل أملاكها في إنشاء بعض السكليات . وكان موقفه صعبا ، إذ أن تجار الصوف كانوا لا يسمحون له بتحدى الإمبراطور ، المسيطر على الأراضي المنخفضة ؛ ولذلك فإنه سقط حين انتصر شارل الخامس في إيطاليا . وأصبح على هنري الثامن أن يواجه الموقف ، ويركز مجهوده داخل إنجلترا نفسها .

وكانت كاترين الأراجونية قد أنجبت الأميرة ماري تيودور لهنري الثامن ، ولم تنجب له ولدا ، ولذلك فإنه كان يرغب ، منذ سنة ١٥٢٧ ، في الزواج من

أن بولين ، التي كان قد أغرم بها . وكان البابا ضعيفا ، وتسيطر عليه إسبانيا ، ورغم أن ولزي قد شرح له أن مسألة ولاء إنجلترا له قد أصبحت كما في الميزان . وبعد أن وافق على أن تقوم محكمة خاصة في لندن بنظر طلب هنري الثامن ، يخضع للضغط الإسباني ، وطلب إحالة قضية الطلاق لروما .

وهنا بدأ هنري الثامن في العمل ، ودعا البرلمان في سنة ١٥٢٩ إلى مساندته في نضاله ضد الكرسي البابوي ، ، واستمبقي دورة انعقادهم سبع سنوات ، وجعلهم يصدرون القوانين الخاصة باستقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما ، واخضاعها للتاج . ووجد أعضاء البرلمان ، وهم في غالبيتهم من كبار ملاك الأراضي و مندوبين المدن في ذلك فرصة لفصل الروابط المالية التي كانت تربطهم بسلطة روحية أجنبية . وتم الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا ، على مراحل ، مبتدئا من الوضعية العامة ، وبشكل عملي وواقعي .

ثم استند هنري الثامن إلى توماس كرمويل لكي يجرّد رجال الدين من ممتلكاتهم ، وينزع جذور الرهبنة من البلاد . وهدفت هذه الحركة إلى كسب طوائف الملاك الذين ستوزع عليهم أراضي الكنيسة إلى جانب الملك ، والقضاء في نفس الوقت على تلك المجموعات من رجال الدين التي كانت تأتمر ، مع وجودها في إنجلترا ، بأوامر البابوية . وبعد أن استولت الدولة على ممتلكات الأديرة ، قامت بتوزيعها على الملاك والنبلاء ، الذين أصبحوا أكثر الطبقات استفادة من الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا . وتمت هذه الإصلاحات بسرعة كبيرة ، حتى عجز الجميع عن إبداء المعارضة .

وفي سنة ١٥٣٤ صدر قانون السيادة ، وهو الذي جعل الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة . وظلت مسألة العقيدة والطقوس الدينيّة في حاجة إلى حل . ولكن هنري الثامن وضع بنفسه في صيف ١٥٣٦ أول مجموعة للطقوس الدينيّة

لكنييسة انجلترا . وكان يرغب في أن يكون الفقه الدينى للكنيسة انجليزيا ، لا ألمانيا ؛ ورفض التعاون مع البروتستانت في ألمانيا . أما في سنة ١٥٤٥ فإنه أمر بمراجعة عامة لكتب الصلوات ، وأقر تراثيل الصلوات العامة . ووضع « الانجيل العظيم » ، وهو الانجيل المعتمد إلى حد كبير على الترجمة التي قام بها وليم تاندل ، وجعله في متناول الجميع . وظل هنرى الثامن حتى آخر أيامه يتبع طريق الوسط ، طريق إنجلترا ؛ فكان يحرق الوثنيين لهرطقةهم ، ويشنق الكاثوليك لخيانتهم . ولقد وقف توماس كرانمر ، إلى جانب هنرى الثامن في كل ذلك ؛ وكان هو الذى ساعده في طلاقه من كاترين الأراجونية ؛ كما كان هو مؤلف كتاب الصلوات الانجليكاني ، بما يشتمل عليه من تراثيل و صلوات يومية .

وبعد وفاة هنرى الثامن ، سار الإصلاح إلى مدها . ولكن مارى تيودور وصلت إلى الملك سنة ١٥٥٣ ، وكانت شديدة الاخلاص للمذهب الكاثوليكي ؛ فألغت الطقوس الانجليزية ، وفصلت الأساقفة البروتستانت ، وأعادت العلاقات مع روما . وكانت مارى زوجة لفيليب الثانى ، ملك إسبانيا ؛ وأمرت بقتل كل من كرانمر ، وردلى وغيرهم ؛ ولذلك فإن هذه الأعمال جعلت الانجليز ينظرون إليها على أنها بداية لانفصالهم عن كنيسة روما ، بعد أن نسوا ذكريات طلاق هنرى الثامن . وتطلعت الأنظار إلى اليزابيث ، إبنة هنرى الثامن وأن بولين ، وهى التى كان زواج والدها من والدتها قد تسبب في فصم الرابطة بين إنجلترا وروما .

ورغم أن إنجلترا قد انفصلت عن روما ، إلا أنها واجهت موقفاً صعباً لعدة سنوات ؛ ذلك أن كل من أيرلندا ، وفرنسا ، وإسبانيا كانت كاثوليكية ، كما أن إسكتلندا كانت ، رغم هزيمتها أمام إنجلترا في موقعة بينكي ، كاثوليكية كذلك . وفي سنة ١٥٤٨ نجحت فرنسا في تزويج الأميرة مارى الاسكتلندية الصغيرة ، من

فرنسوا ، ولى عهد فرنسا . ولذلك فإن إنجلترا ، فى أول عهد الملكة اليرايث ، قررت ضرورة العمل على نشر أفكار الإصلاح الدينى فى إسكتلندا .

٢ - شارل الخامس وألمانيا :

ظلت ألمانيا منقسمة على نفسها بين البروتستانت والكاثوليك ، وبخاصة بعد تكوين الأمراء البروتستانت حلف شمالكند فى سنة ١٥٢١ ، وتكتل الأمراء الكاثوليك فى حلف نورنبرج ضدهم سنة ١٥٣٩ . وفضل المجلس الذى إنعقد فى راتزبون سنة ١٥٤١ فى إنهاء هذا الخلاف . ولقد دعا البابا بولس الثالث إلى عقد مجمع دينى لبحث هذا الانقسام ، ولكن البروتستانت رفضوا الاشتراك فيه ، إذ أنه كان تحت سيطرة الكاثوليك . وعندئذ قرر الامبراطور شارل الخامس أن يستخدم القوة لإنهاء هذا الانقسام الدينى الذى كان يهدد أملاكه .

وكانت الامارات التى إنتشر فيها المذهب البروتستانتى ، وهى سكسونيا ، وهس وبرنزيوك ، وبراندنبرج ، وبروسيا ، وبعض المدن الألمانية فى الشمال والجنوب ، قوية ؛ ولكن لم يكن فى وسعها أن تقف فى ذلك الوقت فى مواجهة قوات الكاثوليك ، الذين كانوا يسيطرون على إسبانيا وفرنسا وإيطاليا والأراضى المنخفضة وإسكتلندا ؛ بل لم يكن فى وسعها أن تقف حتى فى مواجهة الألمان الكاثوليك وحدهم . ولكن علينا أن نذكر أن الإمارات الألمانية الكاثوليكية لم تكن مستعدة للتعاون مع الإمبراطور ، شارل الخامس ، المتعصب للكاثوليكية ، ضد إخوانهم الألمان البروتستانت ، إذا كان مثل هذا التعاون سيؤدى إلى تدخل الإمبراطور فى الشؤون الداخلية لإماراتهم ، ولذلك فأنهم كانوا يحضرون المجمع ، لكنهم يقرروا بوجود إنقسام فى ألمانيا بين البروتستانت والكاثوليك ، ولكن دون أن يأخذوا أى مبادرة لإنهاء مثل هذا الانقسام ، إذ أن ذلك قد يؤدى إلى تغيير وضعيتهم ، أو إنقاص سلطاتهم وإمتيازاتهم . وكان الكاثوليك فى ألمانيا يخشون

من حركة «إعادة التعميد» ، ومن «ثورات الفلاحين» ، أكثر من خوفهم من حركة مارتن لوثر ؛ وكان مارتن لوثر قد وقف ضدهما .

وأخيراً قرر شارل الخامس ، بعد أن عقد الصلح مع فرنسا سنة ١٥٤٤ أن يستخدم القوة ضد اللوثرين ، الذين إنتشر أتباعهم في البلاطينات وفي كولونيا . وكان شارل يعتمد على بعض الخارجيين على الكنيسة في ألمانيا ، ولذلك فإنه لم يعط لحملة شكل الحرب الدينية الموجهة ضد الطراقة ، بل أعطاها شكل حملة تأديبية ضد كل من الأمير فردريك حاكم سكسونيا ، والأمير فيليب حاكم هيس ؛ وكانا من أقوى مؤيدي البروتستانت في ألمانيا .

وبدأت الحرب ، و إنتصرت قوات الإمبراطور في ميلبرج . على نهر الالب ، في ٢٤ أبريل سنة ١٥٤٧ ، وبشكل حاسم . ولكن المشكلة الدينية ظلت موجودة ، وبدون حل حتى بعد أسر الأمير فردريك ، وتسليم الأمير فيليب نفسه . وكان الأمراء الألمان يرفضون تغيير الأوضاع الموجودة لديهم ، من إنقسام بين بروتستانت وكاثوليك ، وإنقسام سياسى ؛ حتى لاتقل إمتيازاتهم : فرفضوا مقترحات الإمبراطور شارل بإنشاء جامعة يرأسها فراد دائمون ، وتكون لها موارد دائمة ، وجيش نظامى ؛ كما أن الأمراء المنتخبون رفضوا فكرة جعل الإمبراطورية وراثية في أسرة هابسبورج .

وإتجه بعض الأمراء الألمان البروتستانت صوب هنرى الثانى ، ملك فرنسا ، وتنازلوا له عن تول و Metz وفردان وكامبراي ، نظير معونتهم ضد الإمبراطور . ووجد هنرى الثانى فى ذلك فرصة رائعة لتقل حربه مع شارل الخامس من إيطاليا إلى منطقة الراين ، والوصول بالحدود الفرنسية إلى الحدود الطبيعية ؛ فقبل الاتفاق معهم . وبينما كان الفرنسيون يستولون على مدن الألزاس والورين ، زحف جيش موريس ، صاحب سكسونيا ، على إنزبروك ، وإضطرت الإمبراطور شارل

الخامس إلى الهرب ، محمولا على محفة ؛ عبر بحر برنو .

وتمت المصالحة الدينيّة في ألمانيا ، بين الكاثوليك والبروتستانت ، على أيدي الامبراطور الجديد ، فرديناند ، الذي كان من أشد ملوك أسرة الهابسبورج حكمة . وتمت المصالحة على أساس التوفيق ، والاعتراف بأن الانقسام موجود بالفعل . وكان المبدأ الأساسى الذى قام عليه صلح أوجزبرج ، فى ١٥ سبتمبر سنة ١٥٥٥ هو حق كل إمارة فى إختيار عقيدتها ؛ وأصبح لكل أمير الحق فى أن يحدد فى إمارته شكل الكنيسة ونوعها ، دون تدخل من جانب الإمبراطور أو الدايت . وتقرر كذلك حرمان كبار الأساقفة والقسس الذين إعتقدوا المذهب البروتستانى من مناصبهم وملكياتهم ، على ألا يقوم أى مسؤل دينى بفرض العقيدة الكاثوليكية فسرأ على رعاياه . وفصل هذا الصلح فى مسألة يمتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وأبقى ما كان قد إنزع منها قبل سنة ١٥٥٢ فى أيدي من حصلوا أو إستولوا عليه ، أما ما أخذ بعد هذه السنة فكان من الضرورى رده للكنيسة .

ولاشك فى أن صلح أوجزبرج كان من صنع الأمراء ، وفى صالحهم ، ودعم إستقلالهم تجاه الامبراطور من الناحية العملية ، وأعطاهم حق تقرير الأتباع المذهبي ، وأجبر رعاياهم على ضرورة الخضوع لهم فى هذا المجال . وكان هذا الصلح خاصاً باللوثريين وحدهم ، ولم يذكر أى مذاهب إصلاحية أخرى . ولكن هذا الصلح ظل على كل حال هو الأساس للحياة السياسية والدينية فى ألمانيا لمدة تزيد على خمسين سنة . ولم تظهر نقط ضعفه إلا فى مطلع القرن السابع عشر ؛ الأمر الذى أدى إلى نشوب حرب الثلاثين عاما .

٣ - انتشار البروتستانتية :

وهكذا إستقر مذهب مارتن لوثر فى شمال ألمانيا بشكل خاص . كما إستقر فى بعض المدن الألمانية ، هنا وهناك .

ولقد انتشر مذهب مارتن لوثر البروتستانتى كذلك ، ووصل إلى انجلترا ، حيث تدعمت أسس الإصلاح الدينى هناك على هذا المذهب ، وفى نظام انجليزى . وانتشرت البروتستانتية على مذهب لوثر فى الممالك الشمالية . أو الاسكندنافية ، وهى الدانمرك والسويد ، والنرويج . ولم يخرج فى هذه البلاد مصلح دينى ، كما حدث فى ألمانيا وسويسرا . وكانت هذه الدول الثلاث داخلية ، سنة ١٣٩٧ ، فى حلف كرملار ، وحين استقلت السويد منه نهائيا فى سنة ١٥٢٤ برئاسة جوستاف فازا ، إعتنق هذا الرئيس المذهب البروتستانتى اللوثرى ، حتى يستولى على أموال وأملاك الكنيسة الكاثوليكية ، ويدعم بها دولته . ومن ناحية أخرى ، قام فردريك ملك الدانمرك والنرويج (١٥٢٤ - ١٥٣٣) باعتناق مذهب الإصلاح الدينى كذلك ، تبعاً لمارتن لوثر .

ولكن علينا ألا ننسى أن هناك بعض الأسباب عاقت سرعة انتشار المذهب اللوثرى البروتستانتى ؛ منها صعوبة فهم هذا المذهب فى بعض المسائل المتعلقة بالتبشير ، وبالإيمان ؛ ومنها اعتماد لوثر على تأييد الأمراء والملوك لهذا المذهب ، دون إعطاء أهمية كبيرة لجمهير المؤمنين ؛ ومنها احجام لوثر نفسه عن نشر هذه العقيدة خارج حدود ألمانيا . وعلينا ألا ننسى بعد ذلك امتناع لوثر عن الالتجاء إلى القوة والعنف فى نشر مذهبه . وستظهر نتائج ذلك حين تأخذ الكنيسة الكاثوليكية فى اصلاح نفسها ، تمهيداً للحرب من أجل الأبقاء على المذهب الكاثوليكي .

وعلى أى حال ، فإن مذهب مارتن لوثر لم يكن هو المذهب البروتستانتى الوحيد ، بل ظهر إلى جواره مذهب زونجلي ، ومذهب جون كلفن ، الذى إنتشر كذلك . وكان مذهب جون كلفن هو أكثر المذاهب البروتستانتية إنتشاراً ، وأعمقها تأثيراً . فلقد خلق الكنيسة البروتستانتية فى فرنسا ، وشارك فى إنشاء جمهورية هولندا المستقلة ، وأصبح الدين الرسمى فى اسكتلند . وانتشر هذا المذهب ، قبل

وفاة كلفن ، في مديسرا الشرقية ، كما انتشر بعد ذلك في المجر ، وبوهيميا وفي المناطق التي خرجت على روما . وأثر المذهب الكلفني حتى في انجلترا نفسها . وكان مذهب جون كلفن صريحا في تعاليمه ، وينادي بالكفاح ضد مخالفيه . ووضع كلفن نظاما دقيقا لسكنيسته . مما عمل على تدعيمها وتقويتها ، وتمكنها من أن تصمد في نضال طويل ضد الكاثوليكية ، وبخاصة بعد الاصلاح الكاثوليكي .

الفصل الثاني والعشرون

الإصلاح الديني الكاثوليكي

كان لإنتشار مذاهب الإصلاح البروتستانتية ، من ألمانيا ، وسويسرا ، مع جهودات لوثر ، وزونجلي ، وكلفن ، إلى الدول الإسكندنافية ، والأراضي المنخفضة وإنجلترا وفرنسا، وفي داخل النمسا وبوهيميا، أثره على العالم الكاثوليكي، وشعور بعض البابوات، وبعض الكاثوليكين المخلصين أنفسهم ، بضرورة القيام بمجهود إيجابي ، من أجل إجراء إصلاحات ، داخل الكنيسة الكاثوليكية ، تسمح لها باستمرار الحياة ، ومواجهة التحديات المستمرة ، التي أخذت شكل إنشقاقات كبيرة، لها آثارها على وحدة الكنيسة، ونفوذها وسيطرتها ، وكذلك على أملاكها المبعثرة في جميع أنحاء أوروبا ، وسيسير الإصلاح الديني الكاثوليكي تحت رعاية عدد من البابوات ، وسيتخذ لنفسه وسائل مختلفة لوصول إلى أهدافه ، تتمثل في عقد المجالس الديرية ، وفي إنشاء جماعة اليسوعيين ، وفي فرض الرقابة على النشر والتداول والقراءة ، وفي إستخدام محاكم التفتيش .

١ - مجمع ترنت :

يعد بابوات النهضة الذين عاشوا معيشة البذخ والرفاهية ، إضطر البابوات إلى أن يحسبوا حساباً لإنتشار المذاهب البروتستانتية في كل مكان . فاستقر الرأي على ضرورة تطهير الكنيسة مما لحقها ، سواء في نظمها أو في سلوك رجالها ؛ ولكن هذا الإتجاه كان حريصاً على ألا يؤدي إلى إضعاف سلطة الكنيسة ، أو المساس بشخص البابا ، فهو نائب المسيح ، وخليفة القديس بطرس الرسول . وهكذا ستكون هذه الحركة حركة إصلاحية، وفي الشكل والسلوك والترتيب ، دون المساس بما هو هام ، ودون التعرض للجوهر .

ونتيجة لذلك إستقر رأى البابا بول الثالث على توجيه الدعوة لعقد مجمع ديني في ترنت ، في ألمانيا ، للنظر في سبيل الإصلاح الكاثوليكي . ولقد إنعقد هذا المجلس في شهر نوفمبر سنة ١٥٤٢ ؛ ولكن كثيراً من الكرادلة الإيطاليين لم يتمكنوا من حضوره ، نتيجة للحرب التي كانت قائمة في ذلك الوقت بين فرنسا الأولى ملك فرنسا ، وبين الإمبراطور شارل الخامس ؛ فأجله البابا ؛ ثم عاد ودعا إلى الإنعقاد من جديد في شهر مارس سنة ١٥٤٤ . وسيظل هذا المجمع في دورة إنعقاد مستمرة ، وعلى عهود البابوات جيمل الثالث وبول الرابع ويو الرابع ، حتى بلغت جلساته خمسة وعشرين ، كان آخرها في شهر ديسمبر سنة ١٥٦٣ .

ولقد أصدر مجمع ترنت قرارات خاصة بنظام الكنيسة ، وهي ضرورة إستخدام اللغة اللاتينية في الصلاة ، وتحريم زواج القساوسة ، ومنع تجميع أكثر من أسقفية تحت سلطة أسقف واحد . وتحديد سن الأسقف بما لا يقل عن ثلاثين سنة ، و سن القساوسة بما لا يقل عن ٢٥ ؛ وكذلك إنشاء المدارس اللازمة لتعليم رجال الدين . أما عن البابا ، فقد قرر المجمع أنه خليفة السيد المسيح والرسل ، وله السلطة العليا على الكنيسة .

كما أصدر المجمع قرارات أخرى تتعلق بالعقيدة الكاثوليكية ؛ فرفض عقيدة التبرير بالإيمان اللوثرية ، وفكرة القدرية عند كلفن . كما رفض ما دعا إليه أنصار لوثر وكلفن من ضرورة الإعتماد على الكتاب المقدس ، وقرر أن عقائد الكنيسة تستند إلى الكتاب المقدس وكذلك إلى التقاليد القديمة . وأصر على أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية هي وحدها المعتمدة .

وهكذا حدد مجمع ترنت التعاليم الكاثوليكية ومصادرها ، كما وضع نظاما للكنيسة يقلل من أخطائها . ولكنه لم ينقص إختصاصات البابا وسلطاته ؛ ولم يحسم النزاع القائم بين البروتستانت والكاثوليك ، وقضى على كل محاولة للتقريب أو المصالحة بين هذين المذاهبين .

وكان مجمع ترنت أول خطوة على طريق ما يسمى بالإصلاح الديني الكاثوليكي، وكان في حقيقة الأمر محاولة لإصلاح بعض مفاصل الكنيسة . أما الوسيلة الثانية فكانت هي إنشاء جماعة اليسوعيين .

٢ - اليسوعيون :

يعتبر إنيجو لوبيز دي ريكالدي ، المعروف بإسم إجناتس ليولا ، هو مؤسس جماعة اليسوعيين الذي سيكون لها دور كبير في المحافظة على الكاثوليكية، وتدعيمها، حتى تتمكن من مواجهة « الحياة المتطورة » . وكان من أصل إسباني ، ومن النبلاء، وعاش في بلاط فرديناند وإيزابلا، ثم التحق بجيش شارل الخامس ، وحارب ضد قوات فرانسوا الأول وأصابه جرح لازمه طوال حياته ، وأجبره على أن يترك حياة الجندية ؛ فاتجه إلى الدين . ولقد درس حياة القديسين ، كما درس في مدارس برشلونة ، ثم في باريس حيث قضى سبع سنوات في دراسة اللاهوت، حتى حصل على درجة الدكتوراه فيها سنة ١٥٣٤ . وكان يفيض بالحماس الديني ، وجمع حوله عدداً من الزملاء ، وقرروا جميعاً أن « يحاربوا من أجل المسيح » . وكونوا رابطة بينهم ، وعزموا على السفر والمهيشة في بيت المقدس ، والعمل على نشر الدين المسيحي في بلاد الشرق الاسلامي ، وكانوا قد تعاهدوا على خدمة الكنيسة الكاثوليكية ، وإطاعة البابا طاعة عمياء . ولكن الحرب بين الدولة العثمانية والبندقية منعتهم من مواصلة السفر ، وبعد وصولهم إلى البندقية ، عادوا إلى روما . وعرضوا على البابا إنشاء جماعة تناضل من أجل المذهب الكاثوليكي ، ووافق البابا على ذلك ، وسمح لهم بالوعظ في روما . ثم أصدر البابا بول الثالث مرسوماً في سنة ١٥٤٠ بإنشاء الفرق الكفيسية المناضلة ؛ التي عرفت فيما بعد بإسم اليسوعيين ، أو الجزويت ، وبعد أن كان عددها محدوداً بستين عضواً ، رفع هذا القيد نتيجة لنجاحها .

وكان اليسوعيون يتميزون بالطاعة التامة للبابا ، وبتكريس حياتهم لخدمة الكنيسة ، وفي أى موقع يطلب منهم أن يعملوا فيه . وكان نظامهم عسكرياً صارماً وإنتخب اجنات لبولا في سنة ١٥٤١ رئيساً للجماعة ، وظل رئيساً لها حتى وفاته سنة ١٥٥٦ .

ورأى اليسوعيون أن البروتستانت قد كسبوا على حساب الكاثوليكية نتيجة لجهل عدد كبير من القسس الكاثوليك . ولذلك فإنهم عملوا على نشر التعليم السليم بين اليسوعيين أولاً ، حتى يتمكنوا من الحصول على عدد من الأعضاء ، لهم مستوى رفيع ، يمكنهم أن يقوموا بنشر التعليم بين الأهالي في كل مكان ، بعد ذلك . واثقت إشتهرت مدارس اليسوعيين بدقتها وحرص إدارتها وسيرها على نظم تعليمية ساهمة ، الأمر الذى أدى إلى زيادة الاقبال عليها . وما أن إنتهى القرن السادس عشر حتى كان اليسوعيون يسيطرون على التعليم الكاثوليكي ، في جميع أنحاء أوروبا ؛ ومن المدارس الصغيرة حتى الجامعات .

ويرجع الفضل إلى اليسوعيين في إصابة المذاهب البروتستانتية بنكسة في فرنسا وألمانيا ، وفي هز مركز البروتستانت لفترة من الزمن في إنجلترا وإسكتلندا ، وكذلك في إستئصال البروتستانتية من إيطاليا ومن إسبانيا . أما بولندا ؛ فانهم نجحوا فيها نجاحاً فائقاً ، وعلى حساب المذهب الأرتوذكسى ، ودعموا هناك المذهب الكاثوليكي ، حتى أصبحت بولندا إقليماً كاثوليكياً بين ألمانيا البروتستانتية في الغرب ، وروسيا الأرتوذكسية في الشرق .

٣ - الرقابة :

وضع مجمع ترنت في قراراته سنة ١٥٦٣ أن يترك للبابا أمر إختيار الكتب التى ترغب الكنيسة في تحریم قراءتها على الكاثوليك . وكانت هذه سلطة قوية في أيدي البابا ، تطورت إلى رقابة كاملة على القراءة ،

والتداول ، الطبع والنشر . وكان البابوات ، منذ أواخر القرن الخامس عشر ، يفرضون العقوبات على المؤلفين ، ودور النشر والطباعة ، وعلى القراء الذين يتداولون كتب الهراطقة ، أى التى تضم أى كفر ؛ وكان يدخل تحت هذا العنوان كل الكتب التى قد تتعارض مع المذهب الكاثوليكي أو ترمى الى تغيير قوانين الكنيسة ، أو حتى الى التشكيك فيها . ومنذ سنة ١٥١٥ فرضت رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة فى روما والولايات البابوية ؛ ثم تكلفت محاكم التفتيش بهذه الرقابة منذ سنة ١٥٤٣ . وكانت رقابة صارمة ؛ وكان وجود اسم الكتاب فى الفهرس أو الكاوج الخاص بذلك يعنى ضرورة أعدامه حرقاً . ولقد وضع البابا بول الرابع ، فى سنة ١٥٥٩ ، أول فهرس للكتب المحرمة ، وكان يشتمل على كتب ورسائل زعماء الاصلاح ، مثل لوثر وزونيجلى وكلفن . ولكن هذا الفهرس كان قاصراً ؛ فتم وضع فهرس جديد سنة ١٥٦٤ ؛ وتكررت مراجعته بعد ذلك حتى سنة ١٥٩٦ ، وهو الفهرس الذى ظل معمولاً به حتى منتصف القرن الثامن عشر .

ولقد أثر نشر الفهارس بشكل خاص على الدول الواقعة فى جنوب أوروبا ؛ وكان حجراً على الفكر وعلى القراءة وظهرت آثاره فى إيطاليا واسبانيا والبرتغال ، التى حرمت من كل ما كتبه البروتستانت . وكان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها محاكم التفتيش ، فى تعقب الخارجين على الكاثوليكية ، والتنكيل بهم .

٤ - محاكم التفتيش :

اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية على محاكم التفتيش ، كوسيلة فعالة ، ونحوها سلطات واسعة ، وذلك من أجل تعقب الخارجين على المذهب الكاثوليكي ، والتنكيل بهم ، وتعريضهم لكل أنواع التعذيب الممكنة ، ارباباً لهم ولغيرهم ، ولإجبار الجميع ، بالخوف ، على البقاء داخل حظيرة الكاثوليكية .

وكان هذا النوع من المحاكم الدينية موجوداً منذ العصور الوسطى، وإستخدامتها الكنيسة ضد حركات الهرطقة، وأى فكر حر قد يظهر. ولكنها ظهرت فى شكل جديد، وبسلطات واسعة، حين طلبت إسبانيا إلى البابا فى سنة ١٤٧٧ لإنشائها فى بلادها لمحاكمة المسلمين واليهود هناك. وفى سنة ١٤٩٧ خرجت محكمة التفتيش الإسبانية من سيطرة روما المباشرة، وأصبحت تحت سيطرة ملوك إسبانيا الكاثوليك. ولقد نالت هذه المحكمة سلطة وسمعة، وأثبتت فعاليتها فى الإرهاب، حتى أن كنيسة روما فكرت فى إنشاء محكمة مماثلة فى مدينة روما، وتكون داخل نطاق هذه الكنيسة. وهكذا أصدر البابا بول الثالث مرسوماً فى سنة ١٥٤٢ بإنشاء محكمة مقدسة للكنيسة العالمية، من ستة كرادلة، وكانت لها سلطات واسعة، وبصفة أعضائها من المفتشين فى كل أنحاء العالم الكاثوليكي. ثم زيد عدد أعضائها إلى اثنى عشر، وأشرفت على إرسال المفتشين الكاثوليك الى كل مكان.

وكانت محاكم التفتيش تستخدم وسائل التعذيب، لإجبار المتهمين على الاعتراف؛ ولم تكن تواجه المتهم بشهود الإثبات ضده؛ وكانت لا تخضع للحكومات التى تعمل فى أقاليمها. وبعد أن يلقى المتهم ألواناً من التعذيب، وغالباً ما ينهار، ويعترف بالجريمة خلاصاً لنفسه من العذاب، تصدر محكمة التفتيش حكماً بأدائه، دون أن تحكم عليه بالإعدام. ويسلم المتهم إلى السلطات الحكومية، ومعه حكم بإثبات تهمة الهرطقة عليه، فتقوم السلطات الحكومية بحرقه حياً. وكان من الطبيعى أن تتم بعد ذلك عملية مصادرة أموال وأموال المتهم، لصالح الكنيسة وكانت محاكم التفتيش تختص كذلك بمرافعة المطبوعات، ومراجعة الكتب التى يسمح بتداولها؛ وكان من الضرورى الحصول على اذن مسبق منها قبل طبع أى كتاب؛ أما ما عدا ذلك فكان يحرق.

ونجحت محاكم التفتيش فى القضاء على المذاهب البروتستانتية فى كل من إيطاليا

واسبانيا ، ولكنها ساعدت على زيادة روح التعصب الدينى ، واستخدمت العنف والتعسف للمحافظة على المسيحيين داخل نطاق الكنيسة الكاثوليكية . ولم تكن الحركة البروتستانتية قد انتشرت فى إيطاليا ولا فى إسبانيا ، ولذلك فإن نجاح محاكم التفتيش هناك كان نسبياً . أما فى شمال وغرب أوروبا ، فإن عمليات محاكم التفتيش ووسائلها قد دفعت بالبروتستانت إلى زيادة التمسك بموقفهم . ولذلك فإن هذه المحاكم قد فشلت فى هذه المناطق ؛ ولم ينجح فى المحافظة على الكاثوليكية هناك سوى تطبيق قرارات مجمع ترنت ، وجهود اليسوعيين .

الباب الثامن

التغيرات في غرب أوروبا
ووقف النمو الإسباني

الفصل الثالث والثشرون

الحروب الدينية في فرنسا

كانت سيطرة إسبانيا واضحة على القارة الاوربية . في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وبعد نهاية الحروب الإيطالية ورغم أن شارل الخامس قد ترك الإمبراطورية لانهيه ، إلا أن نصيب إبنه فيليب الثاني كان كبيراً : فكانت له السيطرة على إسبانيا والأراضى المنخفضة و نابولى في جنوب إيطاليا ، علاوة على الإمبراطورية الاستعمارية فيما وراء البحار . وحين آل إليه عرش البرتغال سنة ١٥٨٠ ، أصبح فيليب الثاني يسيطر عليها ، وعلى إمبراطوريتها الاستعمارية المترامية الأطراف في الشرق الأقصى ، وكذلك في البرازيل . وكان فيليب الثاني متعصباً في كاثوليكية ، ويعتمد على اليسوعيين ومحكم التفتيش ، ولذلك فإنه وضع نفسه ، وفي الأقاليم التي يحكمها ، في مواجهة واضحة مع مذاهب الإصلاح الديني . وكان نظام الامبراطورية الاسبانية نظاماً إحتكارياً ، وفي عصر نمو الرأسمالية وظهور الشركات المتاجرة ، ولذلك فإنه وجد أعداء كثيرين لنظامه الجامد . ومع تجده ، حاول أن يدعم سلطته على الأراضى المنخفضة ، ويتدخل في إنجلترا ، وكانت أنظاره تتجه صوب فرنسا التي كان يرغب في إخضاعها لنفوذه ، ولسيطرته الكاثوليكية . وستكون هذه هي الميادين الثلاث التي ستوقف فيها عملية نمو السيطرة الاسبانية، وفي أشكال متباينة : فرنسا، وهولندا، وإنجلترا، وبشكل يمهده إسبانيا نفسها .

١ - الانقسام الديني في فرنسا :

ما أن إنتهت الحروب الإيطالية في سنة ١٥٥٩ ، حتى دخلت فرنسا في عملية صراعات داخلية ، بين الكاثوليك والهييجونوت ، أي أنصار الإصلاح الديني

داخل فرنسا . وإستمرت هذه الحروب الدينيّة طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر تقريبا ؛ وهي وإن كانت قد وقعت على فترات ، إلا أنها إستنزفت ، بعد الحروب الايطالية ، موارد فرنسا في الرجال والأموال . ولاشك في أن استمرار الحروب ، في الخارج والداخل ، قد أوقف التنمية ، وخرب كثير من المدن والمناطق ، وصرف فرنسا عن الاستمرار في عملية الكشوف الجغرافية ؛ وهدد الوحدة الفرنسيه ذاتها ، بعد أن كانت قد بذلت الكثير من أجل الوصول إليها .

ولقد إنتشر مذهب الإصلاح الديني في فرنسا ، بعد نهاية الحروب الايطالية ، و وفاة هنري الثاني سنة ١٥٥٩ بشكل واضح . وعمل الهيجونوت ، الذين تعلموا في جنيف . بكل همة ونشاط ، وأخذوا في توزيع الأناجيل وكتب المزامير سرا ، وفي إجتماعات منزلية ، خاصة وأن عقوبة الهرطقة في فرنسا كانت هي الموت حرقا . وهكذا تمكن الهيجونوت من أن يضموا إلى صفوفهم أنصارا في الجيش وفي برلمان باريس وكانت الكوارث التي تنزل بأنصار الإصلاح الديني في الأراضى المنخفضه ، أو في إنجلترا على أيدي الملكة ماري ، تعطيهم شعورا بالتضامن مع هؤلاء المضطهدين من أجل عقيدتهم ، وتزيد من حماسهم ، وتدفعهم إلى ضرورة الإصرار على موقفهم .

وفي مواجهة ذلك ؛ كانت الدولة نفسها كاثوليكية ، وكان يدعمها في ذلك قوة إسبانيا ، المتفوقة بحرا ، وذات الكلمة العليا في كل من الأراضى المنخفضة وإيطاليا ، وكانت سلطة العرش قد ضعفت في فرنسا بعد هنري الثاني . وتوالى على العرش ملوك ضعاف ثلاث هم : فرنسوا الثاني ، ابن هنري الثاني وكاترين دي مدسيس ، وكان مريضا ؛ ثم شارل التاسع ، وكان ضعيف الأعصاب ؛ ثم هنري الثالث ، وكان منجلا ، ولذلك فان السلطة الحقيقية ظلت في أيدي والدتهم . كاترين دي مدسيس ؛ وكانت امرأة ، كما كانت أجنبية . وكانت

خطة هذه الملكة الوالدة هي التوصل إلى سلام ديني بين الكاثوليك والهييجونوت ،
يقوم على التوفيق بين أنصار المذهبين ، حتى تضمن استمرار الحكم لأبنائها .
أما الاستقرابية العليا ، فكانت منقسمة على نفسها إلى ثلاثة مجموعات .
وكانت المجموعة الأولى هي مجموعة دوق دي جيز ، الذي كان قد أصبح معبود
فرنسا ، بعد أن دافع عن ميتز ، وإستولى على كاليه من الانجليز . وكان معه
أخوه رجل الدين ، صاحب اللورين ، وكردينال ريمز ، والذي كان أشد دعاة
النظرية البابوية في مجمع ترنت الديني . وكانت هذه المجموعة تضم جندي فرنسا
الأول ، وواحد من أكبر كراداتها . وكانت أخت دوق دي جيز قد تزوجت
ملك إسبانيا ، وكانت الملكة الوالدة كاترين دي مديسيس إبنة عمه ؛ وكان يسيطر
على خمسة عشر أسقفية . ومرتبط بالأسر الحاكمة في اسكتلندا واسبانيا ؛ ولذلك
فانه كان أكبر سند للكاثوليكية في فرنسا ، وتدعمه في هذا الاتجاه كل من
روما واسبانيا .

أما المجموعة الثانية فكانت هي مجموعة الهييجونوت ؛ وكان على رأسها كل
من أنطوان ملك نافار ، وأخوه لوى دوق كورنديه ، وحاكم بيكاردى ؛ وكان
قد حصل من قبل على لقب حامي كنيسة فرنسا . وكان نفوذهما عظيما في غرب
فرنسا وجنوبها الغربي ، وإنضم إليهما الكثير من نبلاء وأعيان هذه المناطق .
وأما المجموعة الثالثة فكانت في وسط فرنسا ، وكانت بقيادة دوق مي مورنسى .
وكانت مخصصة للكاثوليكية ، ولكنها كانت لاتبح الملكة ، ولا دوق دي جيز .
وحدث انشقاق في هذه المجموعة ، وأصبح جاسباى دي كولينى ، أميرال فرنسا ،
وابن عم دوق مي مورنسى ، من أكبر قادة البروتستانت في فرنسا .
ومع هذا الانقسام ، سيكون من السهل وقوع أحداث ، بين هذه المجموعات
وبعضها ، بناء على الانقسام المذهبي ، وعلى المنافسة السياسية : أى طبعا للسلطة ،
والمصلحة ، وتحت ستار ديني .

١ - الحروب :

ونتيجة لاعدام أحد المحامين من مذهب كلفن في باريس ، وضع البروتستانت خطة لخطف الملك ودوق دى جيز في أمبواز ، ولكن المؤامرة كشفت ؛ وقام دوق دى جيز بالقبض على دوق كورنديه ، وحكم عليه باعدام . وفى أثناء ذلك الوقت توفى الملك ، وأصبحت كاترين دى مديسيس ؛ وصية على إبنها الثانى ، شارل التاسع ؛ ففقد دوق دى جيز حظوته فى البلاط ، خاصة وأن كاترين ترغب فى إنتهاج سياسة العفو والتوفيق ؛ سراح كورنديه ، وأصدرت عفواً عن الكلفنيين ، وعينت ملك نافار ياورا للملك . ثم صدر مرسوم فى شهر يناير سنة ١٥٦٢ إعتراف للهيجونوت بممارسة شعائرهم الدينية ، بشروط خاصة .

ولكن النفوس كانت مضطربة ، نهجهم الهيجونوت بعض الكنائس ، وخربوا الصور ، وهدموا التماثيل الموجودة فيها ، وهاجوا رجال الدين ؛ فقامت قوات دوق دى جيز بقتل عدد من الهيجونوت ، أثناء تعبدهم ؛ فشببت الحرب بين الفريقين ، وفى طول فرنسا وعرضها .

وكانت هذه الحروب مبعثرة ، هنا وهناك ؛ وكانت منقطعة ، نتيجة لاحتياج المتحاربين إلى الاموال والأسلحة ؛ كما أنها سمحت باشتراك عناصر غير فرنسية فيها ، ولقد ألتجأ الكاثوليك إلى إسبانيا ؛ فى الوقت الذى إتجه فيه الهيجونوت إلى انجلترا ، ووصل بهم الحد إلى وضع الهافر فى أيدي الانجليز ، ووعدهم بشجر كاليه . أما بالنسبة للوثريين الألمان ، فانهم كانوا على اختلاف مع الكلفنيين ، أى الهيجونوت ؛ واذا كان هناك لوثيريون شاركوا فى الحروب الدينية فى فرنسا ، فانهم شاركوا إلى جانب الكاثوليك . و ضد الهيجونوت .

وكان كل شىء يشير إلى إنتصار الكاثوليك فى الحرب الأولى ، خاصة وأنهم قد استندوا إلى باريس ، وسيطروا على الملك والملكة ، واستعانوا بمجموعة من المرتزقة من ألمانيا واسبانيا ؛ الأمر الذى سمح لهم بالاستيلاء على روان ،

والانتصار على قوات كوندية وكوليني في نورمانديا . ولكن دوق دى جيز قتل أمام أسوار أورليان ؛ وتحول الأمر إلى مسألة دثار ، بين المجموعتين .
وهدأت الحروب لعدة سنوات ولم يعرف البروتستانت كيف يفيدون منها .
وفى سنة ١٥٦٥ ، تمت مقابلة بين كاترين دى مديسيس ، وإختها إيزابلا ، ملكة اسبانيا ، فى بايون ، والتي كان يصحبها دوق ألغا . وكان من المعروف أن كاترين كانت ترغب فى تزويج إبنتها مارجریت بدون كالوس ، ابن فيليب الثانى ، ملك اسبانيا . ولكن هذه المقابلة تم فيها وضع خطوط التعاون الفرنسى الاسباني ضد الثورة المعلنة فى الأراضى المنخفضة ؛ وسرعان ما زحف جيش أسباني بقيادة دوق ألغا على طول حدود فرنسا الشرقية إلى هولندا . وكانت تصحبه فرقة إستطلاع فرنسية . فماتت مخاوف كوليني ؛ أنشط محركى الهيجونوت ، وصمم على العمل ، وعلى تخليص البلاط الفرنسى من المؤامرات الاسبانية ؛ فعادت الحرب من جديد .

ونشبت الحرب الثانية ، ولم يفصلها عن الحرب الثالثة سوى صلح لونجيمو القصير الأمد سنة ١٥٦٨ . وفى هاتين الحربين ظهرت أهمية لاروشيل لأول مرة على أنها حصن بحرى بروتستانتى له قيمته ، يمكنه أن يصمد للحصار ؛ كما ظهرت قيمة هنرى نافار ، ابن أنطوان ملك نافار ، وهو الذى سيصبح هنرى الرابع فيما بعد ، باعتباره قائداً بروتستانتياً . ورغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية ، وأسر كوندية ، ومنذجة جرناك ، وتخبطية ساحة مونكتونور بشت سنة آلاف من الهيجونوت ، إلا أن النصر النهائى فى هذه الفترة كان فى جانب كوليني . ولقد قام هذا القائد بالإسحاب من اللوار صوب الجنوب ، وكون جيشاً جديداً زحف به على باريس ، حيث وجد البلاط منزوع السلطة ، وشارل التاسع مستعد للتفاهم ؛ فانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا ، ووقع معه على صلح سان جرمان .

٤ - صلح سان جرمان .

إعترف صلح سان جرمان ، المأقود في شهر أغسطس سنة ١٥٧٠ ، بأهمية مجموعة الهيجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها في فرنسا . وسمح للنبله منهم بأن يقيموا الصلوات ، طبقاً لمذهبهم ، في قلاعهم ، ولكل من يرغب في حصولها ، ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية في كل المدن التي تمارس فيها ، وفي مدينتين من مدن كل مقاطعة . ووضعت في أيديهم ، ولمدة سنتين ، أربع مدن ، هي لاروشيل ، ومنتوبان وكونياك ولاشاريتيه .

وهكذا تمكن الهيجونوت من إستعادة نفوذهم ؛ وعمل كوليني على أن يضمن حماية البروتستانت في فرنسا ، عن طريق إشعال الحرب ضد اسبانيا في الأراضى المنخفضة . فحاول إقامة حلف من فرنسا وانجلترا وهو لنداوتوسكانيا والبنديقية ، لإقرار السلام في البلاد ، ومحاولة ضم الفلاندر وآرتوا إلى أملاك فرنسا . ووقع كوليني على معاهدة بلوا الدفاعية مع انجلترا ، من أجل ذلك ، في ١٩ أبريل سنة ١٥٧٢ . وقام الهيجونوت ، في نفس الوقت ، بترتيب أمر زواج الأميرة مرجريت فالوا ، أخت الملك ، هنرى نافار .

وأثار كل ذلك الملكة الوالدة ، كاترين دي ميديسيس ، وكانت تعلم أن غالبية البلاد لاتزال كاثوليكية ، رغم أن ثلثي النبلاء كانوا قد تحولوا إلى البروتستانتية . وكان من الصعب أن توافق انجلترا ، لفترة طويلة ، على ضم الفلاندر لفرنسا . وقررت الملكة الوالدة ضرورة التدخل ، عن طريق إغتيال كوليني ؛ ولكن هذه العملية فشلت ، فقررت ضرورة اغتيال أكبر عدد من زعماء ورؤساء الهيجونوت . وتم ذلك في يوم ٢٤ أغسطس ، يوم القديس بارثليميو ، في سنة ١٥٧٢ ؛ وكانت مذبحه في باريس ، قتل فيها ما يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف من الهيجونوت . وأرسلت رأس كوليني إلى البابا ، الذي فرح بها ، وأرسل وردة ذهبية إلى

الملك ، وأمر بنقش ميدالية ذهبية لهذه المناسبة . أما فيليب الثاني ، ملك اسبانيا ، فإنه رأس صلاة شكر لهذا النصر الكاثوليكي العظيم .

ولكن تزايد أهمية أسرة جين ، كان يمثل خطراً تجاه الملك ، خاصة وأنه كان قد سايرهم لفترة من الوقت ؛ فربما يتدخلوا ، مستندين إلى أهالي باريس ، لهزله وإنترع الملك منه . ولقد حدثت محاولة لذلك سنة ١٥٧٤ . وهكذا كانت مذبححة سان بارتلميو سبباً في حرب جديدة بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا . وتحدى الهيجونوت القوات الملكية ، وإتخذوا لاروشيل في الغرب مركزاً لهم ، واتصلوا بانجلترا ، وتعاون معهم لفترة من الوقت الأخ الأصغر للملك .

ومن ناحية أخرى ، كان الملك والمملكة الواحدة مستمران في عرض السلام والمدونة على الهيجونوت ، في كل مناسبة ؛ ولكنهما قاما ، في سنة ١٥٧٦ ، بالتبديد في موقفهما ؛ وتكون إتحاد كاثوليكي ، يسمى « العصبة » تحت رعاية البابا ، ملك اسبانيا ، من أجل تدعيم ركائز العقيدة الكاثوليكية في فرنسا .

ولكن الأخ الأصغر للملك ، والإبن الأصغر لكاترين دي ميديسيس ، توفي في سنة ١٥٨٤ ؛ ولم يكن للملك إبناً ، الأمر الذي جعل هنرى نافار هو الوارث للعرش ؛ وكان بروتستانتياً . وأعطى ذلك قوة لرجال دوق دى جين ، ولليسوعيين ، الذين سيطروا على شؤون الدولة ، حتى لا تقع السلطة في أيدي البروتستانت ؛ ووصل بهم الحد إلى تحدى سلطة الملك نفسه ، حتى فى عاصمته با . يس . فاضطر الملك إلى استخدام سلاح المؤامرات ضدهم ، ورتب أمر إغتيال كل من دوق دى جين ، وأخيه كاردينال اللورين فى نهاية سنة ١٥٨٨ . ثم قامت « العصبة » بعد ذلك بعزل الملك هنرى الثالث ؛ فى الوقت الذى كانت لا ترضى فيه بتولى هنرى أمير نافار ، وهو بروتستانتى الحكم . ثم إغتيال هنرى الثالث فى أول أغسطس سنة ١٥٨٩ ، فدخلت الحروب الدينية فى دور صراع بين العصبة ، وبين هنرى نافار .

٤ - هنرى الرابع :

شكلت العصبة لجنة من ستة عشر عضواً لحكم باريس برئاسة دوق ماين ، الأرخ الأصغر لدوق دى جيز ، وأجبرت باريس على ان تعيش فى ظل جو من الإرهاب . وكان النبلاء لا يقبلون أن تحكم فرنسا أميرة إسبانية ، ولا حكم نفيل فرنسى ينتميهه مجلس طبقات الأمة ، ولذلك فإنهم إلتقوا حول هنرى نافار . وكان إصرار اللجنة التى تحكم باريس على أن يظل مذهب الملك كاثوليكيما يجبر هنرى نافار على أن يعلن رجوعه إلى الكاثوليكية ، حفاظاً على المملكة ، أكثر من كونه جرياً وراء العرش . ولذلك فإنه أعلن تخليه عن البروتستانتية ، وأجبره تعصب الأهلئ بعد ذلك على أن يبقى ثمانية شهور خارج باريس ، قبل أن يدخلها . وسير سم بإسم هنرى الرابع ، وكان أول أسرة البوربون ، بعد أن إنتهى حكم أسرة فالوا .

وأظهر هنرى الرابع أنه يهتم بسمادة ورخاء شعبه ، وإستخدم وزيراً بروتستانتياً ، وهو سوللى ، وعمل على قمع الفوضى وتحسين الزراعة ، وترويج التجارة ، وإعادة السلام والإطمئنان إلى بلد لم يعرف السلم منذ قرن من الزمان . ومنذ أول حكمه ، واجهت هنرى الرابع مشكلتان عويصتان : الأولى هى الوجود الاسبانى ، والثانية هى مشكلة الهيجونوت . ولقد تمكن من أن يطرد ، بمساعدة الملكة اليزابيث ، جيشاً إسبانياً من إميان ، وأجبر إسبانيا ، بماهدة فرغان سنة ١٥٩٨ عن النخلى عن كاليه وبلافيه فى بريتانى ، واللتين كانت إسبانيا قد إستولت عليها بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية .

أما مع الهيجونوت ، فإن الضرورة كانت تحتم الاتفاق ؛ وكانوا قد تحدوا المملكة لمدة ثلاثين عاماً ، ولهم جيوش بلغت قوتها ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل . وتمكن هنرى الرابع أن يحل هذه المشكلة بمرسوم نانت ، الذى جاء إعلاناً عن التسامح . ومنحت هذه التسوية الهيجونوت حرية العبادة فى قلاع النبلاء ، وفى أماكن

نصت عليها ، ومنحتهم المساواة في الحقوق المدنية والحماية القانونية ؛ ومنحتهم حق وضع حاميات في أكثر من مائة مدينة محصنة ، بما في ذلك لاروشيل وسودير ومونبلييه . والواقع أن هذه التسوية سمحت بوجود دولة شيجرونوتية صغيرة ، بجيشها وقلاعها وحكومتها ، تعيش داخل فرنسا ؛ وجاءت شاهدا على التسامح الديني ، في الحياة الدستورية لفرنسا ، قبل أن يتم الاعتراف بنفس الوضعية في إنجلترا ، أو ألمانيا ، وبوقت طويل .

ولقد دخلت فرنسا ، في عهد هنري الرابع ، فترة إزدهار واضح في تاريخها ، سواء أكان ذلك في الزراعة ، أو التجارة ، أو الصناعة . ولكن هنري الرابع أخطأ في أنه لم يستند في حكمه إلى مجلس طبقات الأمة ؛ كما أنه أخطأ من جديد بموافقة على عودة اليسوعيين ، الذين كانوا قد طردوا من فرنسا سنة ١٥٦٤ . ونتج عن تسانه في إعادة اليسوعيين أن زاد نفوذهم في البلاط ، وتأثيرهم على التعليم ، وكانوا متعصبين ؛ الأمر الذي أدى إلى طرد الهيجونوت ، ونقض مرسوم نانت ، الذي كان أعظم عمل قام به هنري الرابع في فرنسا .

الفصل الرابع والعشرون

نشأة جمهورية هولندا

كانت هولندا ، مع بقية الأراضى المنخفضة ، خاصة لحكم إسبانيا ، التى تميزت بقوتها طوال القرن السادس عشر . ومع ظهور مذاهب الإصلاح الدينى ، ولانتشارها فى الأراضى المنخفضة ، زادت إسبانيا من وسائل تحكمها هناك ، واستخدمت محاكم التفتيش ، كما استخدمت سياسة القمع العسكرى ، بحملات منظمة وقوية . وكانت هناك عوامل أخرى ، سياسية وإقتصادية ، أدت إلى أن تقوم الثورة فى الأراضى المنخفضة ، وتقف فى وجه التحكم الإسباني ، وإلى أن تصل فى نهاية الأمر إلى الاستقلال ، وإنشاء جمهورية هولندا . وكانت هذه ضربة قوية أصابت إسبانيا ، وعملت على وقف نموها .

١ - إسبانيا وقوتها :

كانت إسبانيا ، وقت الإصلاح الدينى البروتستانتي ، هى أكبر نصير للكاتوليكية فى أوروبا . وكانت سلطة الكنيسة والرهبان ومحاكم التفتيش مهيمنة عليها . وكان فيليب الثانى كاثوليكيا متعصبا ، وتجمد تفكيره داخل نطاق الكاثوليكية ، ومخاربه لمذاهب الإصلاح الدينى ، وبشكل جملة يقف ضد تيار فكرى وعقائدى قوى زاخر ، ساير التحرر ، وساير الطور المادى والاجتماعى الذى أصاب المجتمع . ولقد اعتمد فيليب الثانى على جيش قوى ، هو أقوى جيوش أوروبا فى ذلك الوقت ؛ وكان هذا الجيش قد تمرن على العمليات فى الحروب الإيطالية ، وأصبح يضم أشهر وأكفأ قادة أوروبا العسكرىين فى ذلك الوقت . كما اعتمد على أسطول قوى كان يعمل فى كل من البحر المتوسط والمحيط الأطلسى .

وكان الأسطول الإسباني ، في البحر المتوسط قد أثبت جدارته أمام رؤساء البحر المغاربة ، وفي هجماته على مدن شمال إفريقية ، ووجه ضربة قوية للأسطول العثماني في موقعة ليبانتو سنة ١٥٧١ ؛ وكان هذا الأسطول يعتمد على وحدات واطئة ، تعمل بالمجاديف ، وتعتمد على الالتحام مع سفن وبجارة العدو ، بالأيدي والخناجر والسواطير . أما أسطول المحيط الأطلسي ، فكان يضم « الغلايين » ، وهي سفن كبيرة ومرتفعة ؛ وسيكون من الصعب عليها منازلة القاطع الصغيرة الراطئة ؛ وكذلك مواجهة السفن المائلة التي تفوقها في تسليح جوانبها بالمدفعية .

ورغم إتساع ممتلكات إسبانيا ، فإن ميزانيتها كانت ضعيفة: فكانت الحروب تكلفها الكثير ؛ وكانت أملاك الكنيسة لا تدفع الضرائب ؛ أما الثروات التي كانت تجمع في بيرو والمكسيك ، فكان الكثير منها ينهب ، ولا يصل إلا القليل منها لخزانة الملك . وكان النظام الإسباني الاستعماري مليئاً بالمتناقضات : ذلك أن إسبانيا حرمت ممتلكاتها ، في ظل نظام إحتكاري — التعامل مع غير الإسبانين ، في الوقت الذي عجزت فيه إسبانيا عن مد المستعمرات بما يلزمها ، فأدى ذلك إلى إنتشار التهريب من ناحية ؛ وانتهاج الدولة لسياسة الاستمرار في فرض ضرائب جديدة ، وهي مكروهة ، من ناحية أخرى ولذلك فإن إسبانيا اعتدت على ممتلكاتها في أوروبا ، لتزويدها بالإيرادات . وكانت أملاك إسبانيا في جنوب إيطاليا ، في نابولي ، فقيرة ، فوقع العبء بأكمله على الأراضي المنخفضة .

وكانت أنتورب من أغنى المدن المتاجرة في العالم في ذلك الوقت ، وأصبحت من أهم مراكز المعاملات الدولية . وتفوقت على بروج وجاند ، كما تفوقت على الفلاندر في العمليات المصرفية . وكانت أمستردام ، وهي من مدن الجامعة الهنسية ، قد تقدمت وعاشت في رخاء . ولذلك فإن الأراضي المنخفضة كانت هي المركز المالي للإمبراطورية الإسبانية ، خاصة وأنها كانت توزع السلع

التي تأتي من المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد على كل أنحاء أوروبا الشمالية .

وكانت الملكة ماري ، ملكة إنجلترا ، زوجة لفيليب الثاني ، ملك إسبانيا . وكان فيليب يقدر أهمية التعامل التجاري بين إنجلترا وملكاته في الأراضي المنخفضة ، ويقدر أهمية إنجلترا بالنسبة لإسبانيا . كدولة حليفة ؛ وكان يعلم خطورة معاداة إنجلترا لإسبانيا ، إذ كان في وسعها عرقلة مواصلاته البحرية مع الأراضي المنخفضة . وستزيد هذه الخطورة وضوحاً حين تتولى الملكة اليزابيث عرش إنجلترا ، خاصة وأنها إختارت المذهب البروتستانتي ، في الوقت الذي كان فيه فيليب الثاني كاثوليكياً متمصباً ، وعلى أي حال فإن فيليب الثاني كان يوافق على أن تتحول إنجلترا في عهد اليزابيث إلى المذهب البروتستانتي ، وتفسر هذا المذهب في اسكتلندا ، على أن يتمكن ملوك اسكتلندا وفرنسا ، وأمراء الأراضي المنخفضة من التكتل جميعهم ، وهم كاثوليك ، ضد إسبانيا الكاثوليكية .

٢ - الحكم الإسباني في الأراضي المنخفضة :

وكانت إسبانيا تتحكم في الأراضي المنخفضة ، وكانت دوقه بارما ، وهي ابنة غير شرعية لشارل الخامس ، هي نائبة فيليب الثاني في حكم الأقاليم السبعة عشر هناك . وكان تدخل إسبانيا المستمر ، بتعليمات سرية ، للعمل ضد الهرطقة في الأراضي المنخفضة ، يعمل على إثارة المشاكل أمام الحكم الإسباني هناك ، ويظهره أمام الأهالي في شكل كراهية . وكانت المقاطعات قد حصلت على بعض الحقوق والامتيازات ، وأصبح أهلها يمتقنون وجود قوات إسبانية لديهم ، ويخشون من فظائع الاضطهاد الديني الكاثوليكي . وجاء مشروع إنشاء أربعة عشر أبروشية هناك لكي يزيد خوفهم من إمكانية إدخال محاكم التفتيش كذلك .

ووقع صراع بين الكردينال جرنفل ، رئيس مستشاري نائبة الملك ، وبين

عدد من النبلاء ؛ وبخاصة اجمونت ، الذي كان قد انتصر في سان كاتان ، ووليم ناساو ، أمير أورانج ؛ وانتهى بفوزهما عليه ، ولكن فيليب الثاني قرر أن يكون سحبه لجرنفل من هناك سنة ١٥٦٣ ، مرتبطاً بالقضاء على حركة الهرطقة .
واصدر إلى سكان الأراضي المنخفضة ، في ١٨ أغسطس سنة ١٥٦٤ ، أمراً بضرورة الالتزام بقرارات مجمع ترنت ؛ هذا بالإضافة إلى الرعب الذي أشاعته محاكم التفتيش ، والتطبيق الصارم للقرارات الصادرة ضد الهرطقة . وأمام ذلك ، أصدر مجلس نائبة الملك ، وبترجيح من الأمير أورانج ، احتجاجاً رسمياً على هذه المظالم وغيرها ، وحمله اجمونت بنفسه إلى فيليب الثاني ، في شهر يناير سنة ١٥٦٥ . ولم تؤد بعثة اجمونت إلى نتيجة إيجابية ، ففتحتم الصدام .

٣ - الفورة والحرب :

وثارت النفوس نتيجة لإصرار حكومة إسبانيا على استخدام الشدة ، وتصميمها على عدم التراجع ، ولا حتى مقابلة أبناء الأراضي المنخفضة في منتصف الطريق . وتعاهد كثير من النبلاء الشبان ، من كلفنيون وحتى كاثوليك ، على ضرورة مقاومة محاكم التفتيش ؛ وكانوا قد وضعوا «حلا وسطاً» ، وصمموا على عدم التراجع عنه . أما فيليب الثاني فإنه أخذ يدبر الأمر في كل برود ، من إسبانيا .

ولكن فيليب الثاني أخطأ ؛ إذ أن كل من اجمونت وأورانج كان قد ساعده على توطيد الأمن في هذه الأقاليم وقت الاضطرابات الأخيرة ؛ ولكنه استند إلى تقارير نائبته التي وشت بهم ، وأن الجماهير تهتف لهم ، وقرر أن يتخلص منهم . وبدلاً من أن يحاول إيجاد حل طبيعي للمشكلة القائمة ، أرسل دوق ألفا ، أشهر وأحسن وأعنف قواده ، على رأس جيش من المرتزقة الأسبان والإيطاليين ، لسحق الهرطقة في الأراضي المنخفضة ، وللتخلص من هؤلاء القادة . وإذا كان

أورانج قد تمكن من الانسحاب إلى ألمانيا ، إلا أن اجنوت وهورن وقعا في أيدي الاسبان ، وقطعت رأسها في ميدان عام في بروكسل ، في شهر يونيو سنة ١٥٦٨ . فرفعهم فيليب الثاني إلى مستوى الشهداء .

ولقد استمر دوق ألفا ، لمدة ست سنوات ، يعمل جاهداً على كبت الثورة . وأعلن أن الامير أورانج خارج على القانون ، ولكن ذلك دفع بالامير إلى مواصلة عملياته ضد الإسبانين ، وإذا لم يتمكن في منازلهم في معركة مصفقة ، فإنه كبدهم خسائر جسيمة . ولقد اضطر دوق ألفا ، لكي يواجه النفقات العسكرية ، إلى فرض ضرائب باهظة على الأهالي ؛ الأمر الذي ساعد على زيادة التذمر في ذلك المجتمع الذي يتكون من تجار ، ودفع الكاثوليك إلى ترك جانب الإسبانين حين فرضت عليهم ضريبة جديدة تبلغ ١٠٪ ؛ الأمر الذي أدى إلى إتحاد أبناء الأراضي المنخفضة جميعاً ضد « المحتلين الأجانب » . وكان الكثير من أبناء الأراضي المنخفضة يعملون في البحر ، فاتخذوا البحر ميداناً أكثر نجاحاً لهم من البر في عملياتهم ضد الإسبانين . وكانوا يعملون أنهم فقراء ، وسموا أنفسهم بالشحاذين ؛ وكانوا قراصنة ؛ وتمكنوا بتشجيع من الإنجليز ، البروتستانت مثلم ، وتشجيع من جانب الملكة اليزابيث ، من مهاجمة السفن الإسبانية في كل مكان . ثم تمكنوا بعد ذلك من الإستيلاء على مدينة برييل سنة ١٥٧٢ ، ثم على بعض المدن الأخرى ، ودعوا وليم أورانج لكي يقود ثورتهم . وكانوا يدافعون عن مدنهم ببسالة أمام هجمات قوات دوق ألفا .

وزادت الأحوال التي إرتكبها رجال دوق ألفا . فاستدعته إسبانيا . ثم توفي القائد الثاني بعده ، مما أفسح المجال أمام الامير أورانج ، ولكن خزانته كانت خالية ، وكانت دولته الكلفنية الصغيرة ، ضعيفة ، وصدته الملكة اليزابيث بعد أن عرض عليها السيادة على مقاطعاته الشمالية . ولكن سرعان ما تطور الموقف

في صالحه ؛ ذلك أن القوات الاسبانية الموجودة في مقاطعات الجنوب أعلنت عصيانها ، نتيجة لتأخر دفع رواتبها ، ثم تحولت إلى عصابات أخذت في السلب والنهب حتى مشارف بروكسل . فاستولى الفرع على الأهالي وإنتهز أمير أورانج هذه الفرصة ، ودخل في مفاوضات مع ولايات الفلاندر وبرابانت ، باسم هولندا وزييلندا ، ومن أجل إخراج الأجانب ، وتسوية المسألة الدينية . ثم قام الإسبان بما يسمى « بالانتقام الاسباني » حين أعمالوا السلب والنهب في مدينة أنتويرب . فزال تردد أهل الجنوب ، وتم وضع تسوية جانده سنة ١٥٧٦ . وتكافقت المقاطعات الشمالية البروتستانتية ، والمقاطعات الجنوبية الكاثوليكية ، في اتحاد سياسي لمواجهة الخطر المشترك . وحين وصل الحاكم الاسباني الجديد ، دون جوان النموسى ، وكان من المتصرين في معركة ليبانتو ، وجد أن البلاد مجمعة على ضرورة خروج القوات الأجنبية ؛ واحتفاظ المقاطعات بالمواثيق والحريات التي حصلت عليها ، فاضطر دون جوان إلى أن يوافق على ذلك .

وفي مواجهتهم لخطر الوجود الاسباني ، كان الأهالي ، في الشمال والجنوب ، قد نسوا مشكلة أساسية تفرق بينهم ، وهي مشكلة المذهب الديني ، وسرعان طرحت المسألة : فثار الكالفينيون في جانده على حكومتهم ، وسجنوا أحد الأدواق الذي كان من قادة الكاثوليك في الجنوب ، فثارت الحرب المذهبية . وفي ذلك الوقت نزلت قوات دوق بارما ؛ وكانت تتكون من عشرين ألف مقاتل ، إلى الأراضي المنخفضة ؛ وتمكنت من هزيمة الثوار في موقعة جيمبلو سنة ١٥٧٨ ، وضممت بذلك عودة المقاطعات الجنوبية ، الكاثوليكية ، إلى إسبانيا .

وهكذا تم الفصل بين هولندا وبلجيكا ؛ وبعد أن كان دوق ألفا قد سحق برتستانت الجنوب ، عمل دوق بارما على عدم عودتهم إلى هناك ، وأقام الكاثوليك في الجنوب ، إتحاد آراس ، فقام أورانج في سنة ١٥٧٩ بعمل إتحاد أوترخت بين البروتستانت في الشمال .

ولقد أعلنت الامبراطورية أن أمير أورانج خارج على القانون ؛ ولكنه تمكن في ٢٦ يوليو سنة ١٦٨١ من أن يجمع ممثلوا برابانت والفلاندر وأوترخت وجلدر لاند وهولندا وزيلندا في لاهاي ، ووقعوا وثيقة أفسموا فيها على خلع ولائهم للتاج الاسباني . وأغتيل الأمير أورانج سنة ١٥٨٤ وهو في سن الحادية والخمسين من العمر ؛ ولكنه كان قد أتم صنع دولة ، ستمتفوق على البحار، وتنشئ امبراطورية غنية في الشرق ، وتقف في وجه أساطيل انجلترا ، وجيوش فرنسا .

٤ - الجمهورية :

وكانت هذه الدولة الجديدة عبارة عن اتحاد من سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة ، لكل منها برلمانها المحلي ، وحاكمها التنفيذي المنتخب ، وحقها في المشاركة في الاشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية . وكان للاتحاد مجلس نواب ، ينظر الشئون التي تهم الاتحاد كله ، ويعين القائد العام للجيش ، والقائد العام للاسطول .

وفي الوقت الذي إغتيل فيه الأمير وليام أورانج ، كان دوق بارما في أوج إنتصاره ، فسقطت مدن الفلاندر وبرابانت في يديه ، وإحتل بروكسل وأنتورب ، وهدد بتحطيم معاقل البروتستانتية في الشمال ، في هولندا وزيلندا . ولكن جيشاً إنجليزياً صغيراً أرسلته الملكة اليزابيث إلى هناك ، بقيادة ليستر ، بث الحماس بين الأهالي . وأخطأ دوق بارما ، وأخذ في جمع جيش لغزو انجلترا ، ولكن تحطيم الأرمادا بدد آماله . ثم أخطأ من جديد ، حين ذهب إلى فرنسا لتأييد الكاثوليك ضد الهيجونوت، ولينقذ باريس، وكان عليه أن يسقط على أمستردام . وبدلاً من احتلال هولندا ، احتل روان . وتوفي سنة ١٥٩٢ دون أن يحقق شيئاً .

ولقد قام كل من موريس ناساو ، بن وليام أورانج ، وابن عمه وليم ناساو ،

بإنشاء جيش يمكنه أن يهزم الإنسان في معركة مكشوفة ؛ وتمكن موريس في أربع معارك رائعة حتى سنة ١٥٩٧ من أن يحرر أرض المقاطعات المتحدة . كما تمكنت البحرية الهولندية من أن تثبت تفوقها على الأسطول الإسباني ، بانتصارها عليه في جبل طارق سنة ١٦٠٧ ، مما أجبر الإسبان على التفكير في طلب الصلح . وكانت هناك عقبات في سبيل ذلك ، وهي الاستقلال ، والدين ، والتجارة ؛ فظهر استحالة عقد الصلح بين الطرفين ، إلا أنه عقدت بينهما هدنة في أنتويرب في ٩ أبريل سنة ١٦٠٩ ؛ وبمدة اثنا عشر عاماً . وإذا كان موضوع الدين لم يذكر ، إلا أن الهولنديين حصوا من الإسبان على اعتراف باستقلالهم ، وبحقوقهم في المتاجرة في المياه الإسبانية .

وهكذا اعترفت إسبانيا بعجزها عن قهر الهولنديين ، وأوقف النمو الإسباني ، ولأول مرة . وكانت إسبانيا قد وجهت مجهودها ضد الملكة اليزابيث ملكة إنجلترا ، وضد هنري الرابع ، ملك فرنسا .

الفصل الخامس والعشرون

الحرب بين إنجلترا وإسبانيا

كان الإختلاف في التكوين والإختلاف في الأهداف ، بين إنجلترا وإسبانيا ، سبباً في وقوفها الواحدة في مواجهة الأخرى. وبعد أن تدغم المذهب البروتستانتي في إنجلترا في عهد اليزابيث ، إزدادت المنافسة بين الدولتين وتراكمت المشكلات المادية والمعنوية ، لى تصل إلى مرحلة الحرب بينها ، وفي صالح إنجلترا ، و ضد مصلحة إسبانيا ، التي تحطم أسطولها الكبير ، الأرمادا ، على أيدي بحارة إنجلترا. وكانت ضربة قوية لإسبانيا، أكدت وقف سيطرتها، ومهدت لإنهاء هذه السيطرة ، وهزيمة إسبانيا نفسها قبيل منتصف القرن السابع عشر ، مع صلح وستفاليا ، عند نهاية حرب الثلاثين عاماً .

١ - الملكة اليزابيث وتدعيم البروتستانتية :

كان فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، قد إرتبط بإنجلترا ، مع زواجه من الملكة ماري . وحين دخل في صراع من أجل فرض حكمه ، وفرض المذهب الكاثوليكي على الأراضى المنخفضة ، كان يعرف جيداً قيمة إنجلترا بالنسبة له ، كحليف و صديق. وذكرنا أنه كان يعرف قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة لرعاياه للفلمنك ، والتناجح السيئة التي قد تترتب على وقف هذه التجارة . وكان يعلم كذلك أنه إذا ما ناصبته إنجلترا العداء ، ففي وسعها أن تعرقل مواصلاته البحرية مع الأراضى المنخفضة ؛ وعلى العكس من ذلك يمكنها أن تحمى هذه المواصلات إذا ما كانت بينهما علاقات ودية . ومع ذلك فإن النزعة التي سيطرت على فيليب الثاني كانت هي تعصبه للمذهب الكاثوليكي ، وسيكون لذلك تأثير كبير عليه ، حين تعتمق إنجلترا المذهب البروتستانتي .

وحين وصلت اليزابيث إلى عرش إنجلترا ، كانت البلاد قد عانت الكثير على أيدي أختها ، ماري الكاثوليكية ، حين عملت على إعادة البلاد إلى حظيرة الكنيسة الرومانية. ووجدت اليزابيث أن جزءاً كبيراً من شمال إنجلترا لا يزال كاثوليكياً ، وكان هناك جيشاً فرنسياً كاثوليكياً يمسك في جنوب إسكتلندا ، وكانت إيرلندا كاثوليكية . ورغم ذلك فإن اليزابيث صممت على أن تكون هي ، وإنجلترا ، بروتستانتية .

ولقد أظهرت حكومة إنجلترا تعقلاً سياسياً واضحاً في السنوات الأولى من حكم اليزابيث . بحيث أنها تمكنت من إجراء التغييرات اللازمة ، دون أن تتورط في حرب أوروبية . وهكذا أقيمت كنيسة إنجلترا على أساس قومي ، دون أن يؤدي ذلك إلى اضطرابات داخلية . وأرسلت جيشاً إلى إسكتلندا ، هزم الجيش الفرنسي الكاثوليكي الذي كان موجوداً هناك ، ومهد السبيل لمجيء دعاة الديانة البروتستانتية ، وكان أول جيش إنجليزي يدخل إسكتلندا ؛ وأعطت معاهدة أدنبرة نتائج هامة في تاريخ الجزر البريطانية ، بوضعها أسس الإتحاد بين الإقليمين ، وفي نطاق الإصلاح البروتستانتي في جنوب إسكتلندا . وتم ذلك في وقت كانت فيه فرنسا مشغولة بالحروب الدينية فيها ، وقامت إنجلترا علاوة على ذلك بمحاولة لتقديم العون للشوار في فرنسا ، لكي تنمو على عملياتها الجريئة ضد إسكتلندا .

وكانت الملكة اليزابيث تعلم إنصراف جزء من الأهالي عن حب إختها ، نتيجة لزواجها من أجنبي ، هو فيليب الثاني ملك إسبانيا ، ولذلك فإنها صممت على أن تكون إنجليزية قبل أي شيء آخر ؛ وضحت بمشروعات زواجها من أي أمير أو ملك أجنبي ، حتى تكرس نفسها لخدمة إنجلترا . وحتى إذا كانت بعض الإشاعات قد حاولت النيل من سمعتها ، إلا أن ذلك لا ينفي كونها ملكة عظيمة لإنجلترا .

وعملت اليرايث على تدعيم الكنيسة الانجليزية الجديدة بمنتهى البراعة. وسليماً، فلم يحرق أحد من خصومها، وعاملوا الاساقفة الذين جردوا من ممتلكاتهم بكل احترام. ورغم أن البرلمان أقر قانون اوحدة الدينية، إلا أن هذا القانون لم يطبق بشكل يجعل إعتناق المذاهب الدينية المخالفة أمراً خطيراً. وأدانت بعض التعديلات الطفيفة على كتب الطقوس الكنسية، التي وضعت على نماذج كاثوليكية، وإن كانت حكومة الكنيسة أسقفية، ونصوص عقيدتها كلفنية إلى حد بعيد. وكان هذا «التوفيق» يلقى قبولا من جماهير الانجليز. وحين قام لوردات الشمال بحركة عصيان كاثوليكية سنة ١٥٦٩، وبعد إحدى عشر عاما من سجاوس اليرايث على العرش، كانت البروتستانتية قد إنتشرت في جنوب إسكتلندا. وحتى في سنة ١٥٧٠، وحين أعلن البابا جرمان اليرايث وأعلن عزلها، كان الكاثوليك الانجليز لا يعرفون غيرها يعطونه ولائهم.

وحتى فيليب الثاني الكاثوليكي المتعصب، فانه نظر إلى إنجلترا وقت وصول اليرايث إلى العرش، وإعتاقها المذهب البروتستانتى، على أنها بلد يمكن كسبه ومصالحته. ولم يكن فيليب يفكر في مهاجمة إنجلترا البروتستانتية، ورحب بتخطيطها للجيش الفرنسى الموجود في جنوب إسكتلندا، وفضل ذلك على إمكانية إتحاد إنجلترا واسكتلندا وفرنسا تحت حكم ماري، ملكة الاسكتلنديين، التي ستكون منافسة خطيرة له بهذا الشكل. وهكذا ثبت أن المصلحة، وفكرة التوازن الدول، كانت أقوى من التعصب المذهبي في هذا العصر. ولم يقف فيليب الثاني في مواجهة أخت زوجته، اليرايث الهريطقة، حين سيطرت بمذهبها الدبني على إسكتلندا. هذا علاوة على مواجهة فيليب الثاني لصعوبات نشأت ضد حكمه في ذلك الوقت للأراضى المنخفضة، كما سبق شرحه.

٤ - المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسبانيا :

ولذا لم يكن الاختلاف المذهبي بين إنجلترا وإسبانيا هو سبب الخلاف الذي

وقوع بينها ، فإن سبباً آخر ، اقتصادياً ، كانت له فعالية كبيرة . وكان ذلك هو حب المال والمغامرة والتجارة ، الذي دفع الانجليز ، الذين إعتادوا ركوب البحر ، إلى تحدى ومحاولة تحطيم النظام الاحتكارى الذى حاولت إسبانيا أن تحتفظ به فى العالم الجديد وجزر الهند الغربية . حقيقة أن هذا العامل المذهبى قد عمل على تقوية « تلوين » هذه المنافسة فى أول أمرها بلون العداء الدينى ، ولكنه كان تنافس إقتصادى واضح . وسيؤدى ذلك الاتجاه إلى أن يعمل بحارة إنجليز بدافع من أنفسهم ، وتعطف عليهم الملكة ، وتغض الطرف عن نشاطهم من أجل المشاركة فى تجارة العالم الجديد .

وإذا كانت حكومة إنجلترا قد حافظت على حذرهما ، فإن رجال البحر الانجليز قد إستمروا فى مغامراتهم وجرأتهم ، ولفترة سنوات طويلة . وكانت حكومة إنجلترا قد قررت تجنب الدخول فى حروب خارجية ، حتى يتم تأكدها من ولاء كل رعاياها ؛ لمحاولت التوصل من كل ما من شأنه أن يؤدى إلى وقوع صدام مع الدول الأجنبية .

وكانت العناصر البيوريتانية المتطرفة فى إنجلترا تعارض هذه السياسة ، وترى ضرورة محاربة العدو فى كل مكان ، وتدعم الاتجاه البروتستانقى فى الأراضى المنخفضة وفى فرنسا ، وفى أعالي البحار . وكانوا يعرفون قوة إنجلترا البحرية التى نمت وقويت فى هذا الوقت . وقوة تسليح سفنها ، وقدرتها على الحركة ، رغم كبر حجم السفن الإسبانية . وكانوا يرون أن فى وسع سفن القراصنة والاسطول التجارى أن تنضم إلى هذه القوة البحرية ، وتأخذ مكانتها اللاتقة بهما فى العالم . وأخذوا على الحكومة ، وعلى الملكة إليزابيث ، هدومها ، ووصل بهم الأمر إلى إتهامها بأن سياستها خالية من البطولة التى تشهدا الأمة . ولكن حكومة إليزابيث لم تلتفت إليهم ، أو لم تتأثر بهم ، وإن كانت قد تركت لهم حرية العدل ، بعيداً

عن مسؤوليتها ، كحكومة وكدولة ، لكي ينفذوا ما يرغبون فيه ، فالتجارية ،
 وإذا كانت السفن الإسبانية أكثر عدداً ، وأكبر حجماً من سفن الإنجليز ،
 إلا أن سفن الإنجليز كانت أسرع حركة ، وأكثر تسليحاً بالمدافع على الجوانب ،
 وكانت لها حرية الحركة ، وعطف الحكومة ، فعمود إنتصاراتها بالفائدة على الحكومة
 الإنجليزية ، ودون أن تكلفها النفقات ، أو تحملها النتائج المترتبة على ما تقوم به
 من عمليات .

وكان البحارة الإنجليز يحقدون على الإسبان وعلى البرتغال حصولهم على الهند
 الغربية والهند الشرقية ، ويحقدون على البابا ، الذي وزع العالم بينهما . ونظروا
 إلى أعالي البحار على أنها مناطق لا تخضع لسيادة أحد *Res Nullius* ، يمكن لأي
 أحد أن يعمل فيها . وكانت أنباء الكشوف الجغرافية ، والتوطن والحصول على
 ثروات العالم تصل إلى آذانهم ، ويرونها ، وهم في البحر ، كفقراء ، وشحاذين ،
 ولكن قادرين ، ودون أن يكون لهم حق شرعى فيها . وشعروا بأنهم أقدر من
 غيرهم ، ولكن البابا كان قد قسم العالم بين الإسبان والبرتغاليين ، فصمموا على
 ألا يصبحوا كأولئك ، وصمموا على إنتزاع حقهم بقدرتهم على العمل ، في هذا
 العالم المتطور سريعاً ، عالم الذهب والإستغلال ، حتى وإن كانت حكومتهم لا تقدر
 على إعلان موافقتها على عملياتهم .

ولقد عمل كل من وولبي وثشانسلور في سنة ١٥٥٣ على أن يصل إلى بلاد
 التوابل بالسفر عن طريق الشمال الشرقي ، ففتحا بذلك طريق التجارة مع موسكو ،
 أما فروبشر وجيلبرت فإنهما حاولا الوصول إليها عن طريق الملاحة بطريق الشمال
 الغربي . فإكتشفوا مضيق همدسون ، ولكن هذه الملاحة كانت تحاول الحصول
 على « خط جديد » ، وداخل نطاق تقسيم العالم ، الذي كان البابا قد أقره . وكان
 هناك إتجاه آخر يرسم ضرورة تغيير هذه الوضعية ، إذ أن العالم لا يقسم بحرة

قلم على الكرة الأرضية ، حتى إذا كان من قام برسمها هو البابا نفسه ؛ وكان هذا الإنجاز هو الذي ساد ، وعلى أساس المنافسة ، والصراع . وسكنت حكومة اليزابيث عن ذلك ؛ وكانت تعطف عليه .

ولقد رأى مجموعة من رجال البحر الانجليز ، ومنهم جون هوكنز ، الذي كان قد شارك في عملية نقل الزوج من غرب إفريقيا إلى جزر الهند الغربية ، ضرورة استخدام القوة ؛ فسلحوا سفنهم ، وإستعدوا لمنازلة الاسبانيين ، وذلك من أجل تحطيم النظام الإستعماري الإحتكاري الاسباني ، وتقرير موضوع هام ، هو تجاره العالم .

وفي سنة ١٥٦٧ وقعت معركة في ميناء سان جوان دي أولوا بين الاسبانيين والانجليز ، وكان جون هوكنز ، وأبن عمه فرنسيس دريك قد التجأ إلى هذا الميناء لهُبوب عاصفة ، بعد أن قاما بتجارة وأعمال قرصنة في أعالي البحار ، التي كانت تابعة ، قانوناً ، لإسبانيا . وحضر أسطول إسباني يحمل الحاكم العام للمكسيك وبغاة ، وفي اوقت الذي كان فيه بحارة الدولتين يتحدثان ودياً على الشاطئ ، فتحت السفن الإسبانية النار على سفن التجار ، أو القرصنة الانجليز . وكان للاسبان ثلاثة عشر سفينة ، وللانجليز خمسة ، تحطمت ثلاثة منها ولم ينج هوكنز ودريك إلا بعد قتال عنيف ، إنه الغدر من جانب الاسبان ، والشجاعة من جانب الانجليز ؛ وهناك ضرورة للثأر ، حتى وإن كانت المملكة اليزابيث لا توافق على ذلك .

وقام دريك . لمدة ثمان وعشرين سنة بالسيطرة على البحار ؛ وكان قرصاناً ، لا تعترف دولته به رسمياً وقام بأعمال السطو على الموانئ والاساطيل الإسبانية في كل مكان . فكان يهاجم الموانئ الإسبانية . ويهاجم السفن الإسبانية التي تحصل كنوز بيرو ، عند برزخ بنما ، وعن شاطئ المحيط الهادى ، وعند جزر التوابل .

وهاجم السفن الاسبانية في ميناء قادس ، وأحرقها ، وإضطرت اليزابيث الملكة ، بعد أن حصلت على نصيبتها من الغنائم ، إلى أن تحضر لمقابلته في ميناء تفورد ، وتنصبه فارساً ؛ وإن كانت الاشاعات قد إنتشرت ، على أنه عشيق الملكة ، أن هذه المنافسة ، مع غرض عيون الدولة عنها ، تعنى حرباً غير معلنة بطريق رسمي ؛ ولكنها سيااسة الانجليز ، سيااسة الامر الواقع ، وهي السيااسة الواقعية . وستنسب مشاكل أقل من ذلك .خطورة في نشوب الحرب بين إنجلترا وإسبانيا .

٣ - ماري ستيوارت ، ملكة إسكتلندا :

وإذا كانت كل من اليزابيث ، وفيليب الثاني ، يرغب في تجنب الصدام ، إلا أن هناك عواملا ساعدت على الوصول إليه . ورأى فيليب الثاني أن هناك حزباً كاثوليكياً يمكنه أن يستند إليه ، وبخاصة في شمال إنجلترا ؛ وكان هذا الحزب يأمل في حصوله على دعم خارجي ، فقام بالثورة في سنة ١٥٦٩ ، ولكنه لم يحصل عليها ، وسحقت حركته .

وتجمع المتآمرون ، حول ماري ، ملكة إسكتلندا . وكانت إبنة ماري دى جيز ، من جيمس الخامس ، ومات زوجها ، فرنسوا ، ولي عهد فرنسا ، في باريس ، ثم ماتت أمها ماري دى جيز ، التي كانت مع جيش الكاثوليك في جنوب إسكتلندا . وحكمت إسكتلندا ، وتزوجت دارنلي ، الذي كان يطمع في عرش إنجلترا عن طريق أمه . وأعطى هذا الزواج ولداً أصبح جيمس السادس ، ملك إسكتلندا ، ثم أصبح جيمس الأول ملك إنجلترا . وقتل أحد النبلاء زوجها ، وتزوج منها . وتقرز النبلاء الاسكتلنديون من ذلك ، وسجنوا ملكتهم ، التي هربت من السجن ، والتجأت إلى اليزابيث ملكة إنجلترا .

وكان في وسع اليزابيث أن تعيد الملكة ماري لكي تحاكم في بلادها ، ولكنها احتفظت بها سبينة ، وحاولت أن تحصل منها على تصريح بالتنازل عن عرشها

لإبنتها جيمس السادس ، على أن يتلقى تعليمه في إنجلترا . ولكن الملكة ماري رفضت ذلك ، وسأيرت مشروع آخر ، للتزوج من فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، الأمر الذي كان يقلب الأوضاع رأساً على عقب .

وبعد تسعة عشر عاماً من السجن ، (١٥٦٨ - ١٥٨٧) ، أصبحت ماري ، ملكة إسكتلندا مركزاً للتأمر . وساعدها على ذلك موقف فيليب الثاني ، وهو وقف البابا ، وأدى ذلك إلى مؤامرات ، فطلب أعضاء مجلس العموم والوردات أعدامها . ووافقت اليزابيث على ذلك ، بعد أن كانت الملكة ماري قد تركت شبابها ، ولم تعد أكثر من أسطورة لمؤامرات الكاثوليك ضد البروتستانت ؛ أكثر من كونها عروس تزف إلى عريسها . ووقع ذلك القرار موقع الصدمة على إسبانيا ، وعلى ملكها .

٤ - الحرب وتحطيم الأرمادا :

ولقد نظرت إسبانيا إلى هذا القرار نظرة التحدي ، خاصة وأن الظروف العامة كانت قد أوصلت أبناء موت الملك سباستيان ، ملك البرتغال في حربه ضد المغرب دون أن يترك وريثاً سنة ١٥٨٠ ، الأمر الذي أدى إلى ضم ملك البرتغال ، وإمبراطوريتها الاستعمارية فيما وراء البحار ، إلى الإمبراطورية الإسبانية . وإنتقلت البرازيل وجزر آזור ، وإمبراطورية البرتغال في الشرق الأقصى إلى ملك إسبانيا . وكان فيليب الثاني لا يزال متردداً في محاربة إنجلترا ، وكان مشغولاً بالحرب في الأراضي المنخفضة . وكانت إنجلترا تؤيد أعداء البرتغاليين ، وثورة الهولنديين ، وكانت فرنسا مشغولة بحروبها الدينية . ولكن ماري إستيوارت كانت قد إعترفت بفيليب خليفة لها على عرش إنجلترا ، فسار في هذا الطريق ، وإلى النتيجة المحتومة .

ولقد بذلت إسبانيا مجهوداً كبيراً في إعداد أسطولها العظيم ، الأرمادا ،

وأقلعت سفنه في ٣٠ مايو سنة ١٥٨٨ بقيادة دوق دى ميدينا سيدونيا ، للتقدم في بحر المانش إلى دنكرنك وثيروبورت ، ولتقل جيش بارما إلى إنجلترا ، ولكي يقوم بعزل اليرايث ، وتعيين أبنه فيليب الثاني مكانها ، ملكة على إنجلترا . وكان فيليب الثاني قد إستند إلى خياله ، وخيال المنفيين ، وعجز عن قياس قوة إنجلترا ، وقوة الرأي العام فيها ، وإتخاذهم المذهب البروتستانتي طريقاً لهم ، وغيرتهم على مصالحتهم . مصلحة إنجلترا ، والانجليز ، قبل أى إعتبار آخر . وحتى في حالة تمكن جيش بارما من النزول إلى إنجلترا ، فإنه كان سيلقى مقاومة عنيفة ، ومن كل الانجليز .

وإنهات الخطة الاسبانية ، وعجزت سفنها الكبيرة عن مواجهة السفن الأصغر منها ، والأسرع منها حركة ، والأكثر منها قدرة على الحركة والأقوى منها في كمية نيران المدفعية فهزمت الأرمادا الشهيرة في معركة بحرية في جرافيلينز ، وجاءت العواصف من بحر الشمال والمحيط الأطلسى لكي تقضي على بقية الأرمادا ، الأسطول الاسباني الكبير . وبينما كان أسطول هولندي يراقب دنكرنك ، وأجبر دوق بارما على البقاء على الساحل ، قام دريك وهو كنز وفرو بشر بتحطيم الغلايين الاسبانية .

وكانت معركة ، ولكنهم رفضوا الاعتراف بها على أنها فاصلة ، ونقطة تحول في التاريخ ، فإستمرت الحرب البحرية حتى سنة ١٦٠٤ ، وتمكن الانجليز من نهب قادس سنة ١٥٩٧ ، وإتصلوا بالاموريسكيين في بلنسية ، وبأعوان دون أنطونيو ، المطالب بعرش البرتغال . وفي نفس الوقت ، إعتدت إسبانيا على اليسوعيين الانجليز ، وكاثوليك أيرلندا ، وأنزلت بعض قواتها هناك .

وعلى أى حال فإن هزيمة الأرمادا الاسبانية أثبتت أن قوات فيليب الثاني ، وإسبانيا ، يمكن هزيمتها . ورغم أن الاسبان قد واصلوا عملياتهم في فرنسا ،

والأراضي المنخفضة ، وفي أعالي البحار ، إلا أنهم كانوا قد هزموا بالفعل . وتحطمت آمال إسبانيا الكاثوليكية في فرنسا في عهد هنرى الرابع ثم في أيرلندا ، وإعترفت في سنة ١٦٩٩ باستقلال الهولنديين . وفي هذا الوقت ثبت أن المصلحة هي أساس العلاقات ، فتحلى الفرنسيون عن الانجليز ، وتحلى الانجليز عن البولنديين . وحين عقد الصلح بين إنجلترا وإسبانيا ، سنة ١٦٠٤ ، في عهد جيمس الأول ، نص هذا الصلح على حق الاسبانيين في منع الانجليز من الدخول إلى جزر الهند الغربية ، وعلى محاكمتهم أمام محاكم التفتيش . ولكن الأمر كان يتوقف على تمكن الاسبان من القاء القبض على الانجليز ، وكان هذا شيئاً هاماً . كما أن هذا الصراع ، مع حرب الأرمادا ، أتم عملية تحويل إنجلترا إلى بلاد برونسناقية .

ولقد قام الاسبانيون ، بعد ذلك ، بالاستمرار في عملية كراهية المغاربة والمسلمين الموجودين لديهم ، وقاموا بطردهم ، رغبهم كونهم من العناصر النشطة في الميادين المنتجة ، الزراعية والحرفية ، فأدى ذلك إلى زيادة فقر إسبانيا ، التي أفلقت على نفسها الباب في تعصبها ، وفي احتكارها ، وانغلاقها .

أما الانجليز ، فإنهم عملوا على إثراء بلادهم ، بما يحصلون عليه من غنائم من الاسبانيين والبرتغاليين على البحار ، وبعملياتهم للنزول إلى ميدان الاستعمار .

وكانت عملية نمو إسبانيا وسيطرتها على أوروبا ، وعلى العالم ، قد أوقفت ، في هولندا ، التي استقلت عنها ، وفي فرنسا ، التي وصل هنرى الرابع إلى عرشها ؛ ومع إنجلترا ، التي هزمت الأرمادا .



وساد عصر جديد « بعد نمو الرأسمالية ، وظهور عصر النهضة ، والكشوف

الجغرافية، والحروب الإيطالية ، ووصول الدولة العثمانية الى أوج عظمتها وقوتها في عصر سليمان القانوني ، والتي تمكنت الدولة الاسبانية ، بعد وصول العثمانيين الى أسوار فيينا ، من هزيمة أسطولهم في معركة ليبانتو . وهذا العصر الجديد هو التاريخ الحديث، بما فيه من توازن القوى الأوروبية ، واذا كان التفوق الاسباني قد أصابته ضربة أوقفت نموه ، فإن ذلك سيؤدي بنا من فجر التاريخ الحديث ، الى الدخول التاريخ الحديث نفسه ، ومنذ بداية القرن السابع عشر .

محتويات الكتاب

- ٥ مقدمة
- ٧ تمهيد : مميزات العصور الوسطى
- ### الباب الأول
- ٤٣ تفكك عالم العصور الوسطى في المغرب
- ٤٥ الفصل الاول : ضعف النظام الاقطاعى وازدياد قوة الملكية :
- ٤٦ ١ - النظام الاقطاعى
- ٥٢ ٢ - التركيب الاجتماعى والتنظيم السياسى
- ٥٧ ٣ - تطور النظام الاقطاعى
- ٦٢ ٤ - ضعف الاقطاع فى فرنسا
- ٦٧ ٥ - ازدياد قوة الملكية
- ٧١ الفصل الثانى : الصراع بين البابوية والامبراطورية :
- ٧١ ١ - الخلاف بين بونيفاس الثامن وفيليب الجميل
- ٧٨ ٢ - هزيمة البابوية والتفكك الدينى والسياسى
- ٨٥ ٣ - ضعف البابوية والامبراطورية
- ٩٢ ٤ - الاستعداد للهجوم على الكنيسة
- ٩٩ الفصل الثالث : حرب المائة عام :
- ١٠٠ ١ - تطور الاوضاع فى كل من فرنسا وانجلترا
- ١٠٧ ٢ - الهزائم الفرنسية ونتائجها
- ١١٣ ٣ - الفوضى فى فرنسا ووصول لانكستر إلى الحكم فى انجلترا
- ١١٨ ٤ - الغزو الانجليزى ورد الفعل الفرنسى

الباب الثاني

التغيرات العميقة

١٢٧

الفصل الرابع : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية : ١٢٩

١ - الأوضاع الاقتصادية ١٢٩

٢ - حالة المجتمع ١٣٣

٣ - المنافسة بين مراكز الإنتاج الصناعي ١٣٨

٤ - الحركات الاجتماعية في المدن ١٤٢

٥ - تفكك إطارات حياة الريف وثورات الفلاحين ١٤٩

الفصل الخامس : التجارة والمراكز البحرية : ١٥٤

١ - الوسائل الجديدة ١٥٤

٢ - أهالي جنوا ١٥٨

٣ - البندقية وامبراطوريتها ١٦٣

٤ - الجامعة الهندسية ١٦٧

٥ - البحارة الايطاليون ١٧٢

الفصل السادس : الاتجاهات الاقتصادية الجديدة : ١٧٧

١ - نمو الرأسمالية ١٧٨

٢ - الظروف الجديدة للعمل في الصناعات ١٨٢

٣ - المراكز التجارية الجديدة ١٨٦

٤ - أولى مراكز الأطلسي والتطلع إلى طرق بحرية جديدة ١٩١

الباب الثالث

١٩٩

زحف العثمانيين وانتصاراتهم

٢٠١ الفصل السابع : امبراطورية المغول :

٢٠١ ١ - الامبراطورية

٢٠٣ ٢ - التفكك

٢٠٨ ٣ - آسيا المغولية

٢١١ ٤ - بداية حكم تيمور

٢١٤ ٥ - الفوضى عند المسيحيين في الشرق

٢١٩ الفصل الثامن : قيام الدولة العثمانية :

٢١٩ ١ - نشأة العثمانيين

٢١٣ ٢ - توسع العثمانيين في عهد بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٣)

٢٢٦ ٣ - غزوات تيمور لك في آسيا الغربية

٢٣١ ٤ - أزمة الدولة العثمانية بعد موقعة أنقرة

٢٣٦ الفصل التاسع : محمد الثاني وفتح القسطنطينية :

٢٣٦ ١ - الاستعداد

٢٣٩ ٢ - الحصار

٢٤١ ٣ - الهجوم وفتح المدينة

٢٤٥ ٤ - بقية أعمال محمد الفاتح

٢٥٠ ٥ - بايزيد الثاني

الباب الرابع

النهضة الاوربية

٢٥٧

٢٥٩ : الفصل العاشر : ظهور النهضة في إيطاليا :

- ٢٥٩ ١ - خصائص النهضة ومظاهرها
- ٢٦٦ ٢ - أسباب ظهور النهضة في إيطاليا
- ٢٧٠ ٣ - إحياء الدراسات القديمة
- ٢٧٦ ٤ - ظهور اللغات الحديثة
- ٢٧٨ ٥ - الفنون الجميلة

٢٨٥ : الفصل الحادى عشر : بعض كبار شخصيات النهضة في إيطاليا :

- ٢٨٥ ١ - الآداب : دانتي اليجيبرى
- ٢٨٩ ٢ - الأمراء : لورنزو العظيم
- ٢٩٣ ٣ - الراهب الشاعر : سافونا رولا
- ٢٩٨ ٤ - السياسة : مكيافيللى

٣٠٦ : الفصل الثانى عشر : النهضة في بقية أنحاء أوربا :

- ٣٠٦ ٢ - روح النهضة الإيطالية
- ٣١٠ ٢ - النهضة في فرنسا
- ٣١٢ ٣ - النهضة في ألمانيا
- ٣١٣ ٤ - النهضة في إنجلترا
- ٣١٤ ٥ - النهضة في إسبانيا والبرتغال

الباب الخامس

- ٣١٧ الكشوف الجغرافية وبداية الاستعمار
- الفصل الثالث عشر : كولومب والعالم الجديد :
٣١٩
٣١٩ ١ - كريستوف كولومب
٣٢٤ ٢ - الاميراطوريات السابقة لكولومب
٣٢٩ ٣ - غزو الهند الغربية
٣٣٥ ٤ - إدارة الهند الغربية
- ٣٣٩ : الفصل الرابع عشر : الاسبانيون
٣٣٩ ١ - بين الانسانية والوحشية
٣٤٥ ٢ - تجارة العبيد والتخليط
٣٤٩ ٣ - إستغلال أمريكا اللاتينية
٣٥٢ ٤ - أوروبا الاسبانية
- ٣٦٠ : الفصل الخامس عشر : البرتغاليون ومناقضوهم
٣٦٠ ١ - البرتغاليون في الهند الشرقية
٣٦٥ ٢ - حدود الشرق الأقصى مع أقصى الغرب
٣٦٩ ٣ - المنافسة الإنجليزية
٣٧٢ ٤ - المنافسة الفرنسية

الباب السادس

- ٣٨١ الصراع في حوض البحر المتوسط
- الفصل السادس عشر : المرحلة الاولى من الحروب الإيطالية
٣٨٣ : (حتى سنة ١٥١٥)
٣٨٤ ١ - التدخل الفرنسي في إيطاليا

- ٣٨٧ ٢ - الخلاف بين فرنسا والبايا
- ٣٩٠ ٣ - سيطرة إسبانيا على الحوض الغربي للبحر المتوسط
- ٣٩٣ ٤ - إستمرار الحرب حتى موقعة مارينيان سنة ١٥١٥

الفصل السابع عشر : التوسع العثماني في الشرق الأدنى في عهد

- ٣٩٧ سليم الأول (حتى سنة ١٥١٨)
- ٣٩٧ ١ - الصراع المملوكي البرتغالي وضعف سلطنة المماليك
- ٤٠٠ ٢ - حتمية الصدام العثماني المملوكي
- ٤٠٣ ٣ - الاستيلاء على الشام وعلى مصر
- ٤٠٥ ٤ - إمكانيات العثمانيين الجديدة

الفصل الثامن عشر : إستمرار الصراع بين فرنسا وإسبانيا حتى

- ٤٠٨ نهاية الحروب الايطالية :
- ٤٠٩ ١ - معركة بافيا (١٥٢٥) وصلاح كامبراي (١٥٢٩)
- ٤١٤ ٢ - إستمرار الصراع حتى نهاية حكم فرنسوا الأول
- ٤١٦ ٣ - هنري الثاني وتنازل شارل الخامس عن العرش
- ٤١٩ ٤ - فيليب الثاني ومعاهدة كاتو كامبريسيس ونهاية الحروب الايطالية

الفصل التاسع عشر : أوج القوة العثمانية في عهد سليمان

- ٤٢٢ القانوني وخطرها على أوروبا :
- ٤٢٢ ١ - جزيرة رودس
- ٤٢٥ ٢ - البلقان ووسط أوروبا
- ٤٢٧ ٣ - البحر الأحمر وخليج عدن
- ٤٣٠ ٤ - فرنسا
- ٤٣٢ ٥ - غرب البحر المتوسط

الباب السابع

٤٢٧

الإصلاح الدينى

٤٢٩ : الفصل العشرون : ظهور المذاهب البروتستانتية :

٤٣٩ ١ - ضرورة الإصلاح

٤٤١ ٢ - مارتن لوتر فى ألمانيا

٤٤٦ ٣ - زونجلى فى سويسرا

٤٤٧ ٤ - كالفن فى جنيف

٤٤٩ : الفصل الحادى والعشرون : إنتشار المذاهب البروتستانتية :

٤٤٩ ١ - خروج انجلمترا على كنيسة روما

٤٥٣ ٢ - شارل الخامس وألمانيا

٤٥٥ ٣ - إنتشار البروتستانتية

٤٥٨ : الفصل الثانى والعشرون : الإصلاح الدينى الكاثولى

٤٥٨ ١ - مجمع ترنت

٤٦٠ ٢ - اليسوعيون

٤٦١ ٣ - الرقابة

٤٦٢ ٤ - محاكم التفتيش

الباب الثامن

٤٦٥ النغبيرات فى غرب أوروبا ووقف النمو الاسبانى

٤٦٧ : الفصل الثالث والعشرون : الحروب الدينية فى فرنسا :

٤٦٧ ١ - الانقسام الدينى فى فرنسا

٤٧٠ ٢ - الحروب

٤٧٢ ٣ - صلح سان جرمان

٤٧٤ ٤ - هنرى الرابع

- ٤٧٦ . . . : الفصل الرابع والعشرون : نشأة جمهورية هولندا :
- ٤٧٦ ١ - إسبانيا وقوتها
- ٤٧٨ ٢ - التحكم الإسباني في الأراضي المنخفضة
- ٤٧٩ ٣ - الثورة والحرب
- ٤٨٢ ٤ - الجمهورية
- ٤٨٤ . . . : الفصل الخامس والعشرون : الحرب بين إنجلترا وإسبانيا :
- ٤٨٤ ١ - الملكة اليزابيث وتدعيم البروتستانتية
- ٤٨٦ ٢ - المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسبانيا
- ٤٩٠ ٣ - ماري ستيوارت ، ملكة إسكتلندا
- ٤٩٦ ٤ - الحرب وتحطيم الأرمادا
- ٤٩٥ : محتويات الكتاب :

رقم الإيداع ٤٧٧١ / ٨٠
الترقيم الدولي ٣ - ٩٣٥ - ٢٠١ - ٩٧٧



المطبعة القبطية

٥ شارع كافور الحضرة القبطية - اسكندرية